

The Islamic University–Gaza
Research and Postgraduate Affairs
Faculty of Arts
PhD of Arabic Language



الجامعة الإسلامية – غزة
شئون البحث العلمي والدراسات العليا
كلية الآداب
دكتوراه اللغة العربية

جَمَالِيَّاتُ التَّشْكِيلِ الْبَلَاغِيِّ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ
Aesthetics of Rhetorical Variation in
Ottoman Maqamat

إِعْدَادُ الْبَاحِثِ
مَجْدِي عَائِشِ عُوْدَةَ أَبُو لِحْيَةَ

إِشْرَافُ
الْأُسْتَاذِ الدُّكْتُورِ
مُحَمَّدِ شَعْبَانَ عَلْوَانَ

قُدِّمَ هَذَا الْبَحْثُ اسْتِكْمَالًا لِمُتَطَلِّبَاتِ الْخُصُولِ عَلَى دَرَجَةِ الدُّكْتُورَاهِ
فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِكَلِيَّةِ الْآدَابِ فِي الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِغَزَّةِ

أغسطس/2017م – ذو القعدة/ 1438هـ

إقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

جَمَالِيَّاتُ التَّشْكِيلِ الْبَلَاغِيِّ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ

Aesthetics of Rhetorical Variation in Ottman Maqamat

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل الآخرين لنيل درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

I understand the nature of plagiarism, and I am aware of the University's policy on this.

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted by others elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name:	مجدي عايش عودة أبو لحية	اسم الطالب:
Signature:		التوقيع:
Date:	الثلاثاء 29 / 08 / 2017م	التاريخ:



نتيجة الحكم على أطروحة دكتوراة

بناءً على موافقة عمادة البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ مجدي عايش عودة ابولحية لنيل درجة الدكتوراة في كلية الآداب/ قسم اللغة العربية، وموضوعها:

جماليات التشكيل البلاغي في المقامات العثمانية

وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم الثلاثاء 07 ذو الحجة 1438 هـ، الموافق 2017/8/29 الساعة العاشرة صباحاً في قاعة مبنى طيبة، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

.....	مشرفاً و رئيساً	أ.د. محمد شعبان علوان
.....	مناقشاً داخلياً	أ.د. نعمان شعبان علوان
.....	مناقشاً داخلياً	أ.د. عبد الخالق محمد العف
.....	مناقشاً خارجياً	أ.د. عبد الفتاح أحمد أبو زائدة
.....	مناقشاً خارجياً	د. محمد اسماعيل حسونة

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الدكتوراة في كلية الآداب/ قسم اللغة العربية.

واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.

والله ولي التوفيق ،،،



عميد البحث العلمي والدراسات العليا

أ.د. مازن اسماعيل هنية

مُلخَصُ الرِّسَالَةِ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ

جَمَالِيَّاتُ التَّشْكِيلِ البَلَاغِيِّ فِي المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةِ

تَتَنَاوَلُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةَ، وَجَمَالِيَّاتِ التَّشْكِيلِ البَلَاغِيِّ فِي نُصُوصِهَا المَقَامِيَّةِ. وَقَدْ جَاءَتْ الدِّرَاسَةُ موزَّعَةً فِي أَرْبَعَةِ فُصُولٍ تصدَّرها تمهيدٌ تتناولُ الجَمَالَ والتَّشْكِيلَ، تَبِعَهُ الفَصْلُ الأوَّلُ الَّذِي تَكْفَلُ بِالحَدِيثِ عَن فَنَّ المَقَامَةِ مِن حَيْثُ النِّشْأَةُ، والنَّظُّورُ، ثُمَّ تَطَّرَقَ إِلَى أَبْرَزِ أَدْبَائِهَا، وَالْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي تَنَاوَلَتْهَا.

وَانْتَقَلَتْ الدِّرَاسَةُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الفَصْلِ الثَّانِي الَّذِي تَتَنَاوَلُ التَّشْكِيلَ البَيَانِيَّ مِن تَشْبِيهِ، وَاسْتِعَارَةٍ، وَكِنَايَةٍ، وَمَجَازٍ مُرْسَلٍ، وَأَثَرِهَا فِي المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةِ. أَمَّا الفَصْلُ الثَّلَاثُ مِنَ الدِّرَاسَةِ فَقَدْ رَصَدَ التَّلَوِينِ البَدِيعِيِّ الَّذِي تَرَيَّنَتْ بِهِ المَقَامَةُ. حَتَّى وَصَلَ فِي النِّهَايَةِ إِلَى الفَصْلِ الرَّابِعِ الَّذِي تَفَرَّدَ بِدِرَاسَةِ التَّشْكِيلِ اللُّوْنِيِّ، وَالحَرَكِيِّ، وَالصَّوْتِيِّ، ثُمَّ حَتَمَ بِالتَّشْكِيلِ الأُسْلُوبِيِّ، كَالأَمْرِ، النَّهْيِ، الاسْتِفْهَامِ، التَّمْنِيِّ، وَالنَّدَاءِ، إِلَى جَانِبِ الظُّوَاهِرِ البَلَاغِيَّةِ، كَالتَّكْرَارِ، وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ، وَالشَّرْطِ.

وَقَدْ اعْتَمَدَ البَاحِثُ المَنْهَجَ الشَّكْلِيَّ، الَّذِي يَجْمَعُ فِي طَيَّاتِهِ عِدَّةً مِنَ المَنَاهِجِ الأُخْرَى، كَالْمَنْهَجِ التَّحْلِيلِيِّ الوَصْفِيِّ، بِالإِضَافَةِ إِلَى المَنْهَجِ التَّارِيخِيِّ.

وَفِي النِّهَايَةِ تَوَصَّلَتْ الدِّرَاسَةُ إِلَى مَجْمُوعَةٍ مِنَ النِّتَائِجِ لَعَلَّ أَهْمَهَا؛ أَنَّ فَنَّ المَقَامَةِ مَوْسُوعَةٌ لُغَوِيَّةٌ، وَفَنِيَّةٌ، وَمُعْجَمٌ مِنْ مَعَاجِمِ الجَمَالِ الأَدْبِيِّ، وَالبَلَاغِيِّ.

كَمَا رَصَدَتْ الدِّرَاسَةُ عِدَّةً مِنَ التَّوَصِيَّاتِ أَهْمَهَا؛ الأَهْتِمَامُ بِدِرَاسَةِ التُّرَاثِ البَلَاغِيِّ الَّذِي يُمَثِّلُ كُنُوزًا مِنَ كُنُوزِ العَرَبِيَّةِ، وَإِعَادَةَ صِيَاغَةِ مَوْلاَفَاتِهِ بِمَا يَبَسِّرُ التَّعَامُلَ مَعَهَا، خَاصَّةً فِي ظِلِّ النَّظُّورَاتِ وَالتَّغْيِيرَاتِ الَّتِي نَعِيشُهَا مِنْ نَاحِيَةٍ، وَبِمَا يُحَقِّقُ الفَائِدَةَ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، وَفِي مُقَدِّمَةِ هَذَا التُّرَاثِ، الأَدَبِ العُثْمَانِيِّ.

وَأخْتَمْتُ فَأَقُولُ إِنَّ هَذِهِ الدِّرَاسَةَ هَدَفْتُ إِلَى إِثْبَاتِ ضَرُورَةِ دِرَاسَةِ أَدَبِ العَصْرِ العُثْمَانِيِّ، وَمَا فِيهِ مِنْ جَمَالٍ حَاوَلَ بَعْضُ البَاحِثِينَ إِخْفَاءَهُ. وَإِعْطَاءَ العَصْرِ العُثْمَانِيِّ عِنَايَةً أَكْبَرَ، وَمَسَاحَةً أَوْسَعَ فِي الدِّرَاسَاتِ الأَدْبِيَّةِ، وَالبَلَاغِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ يُمَثِّلُ كُنُوزًا دَفِينًا مِنَ الكُنُوزِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى التَّقْيِيبِ، وَالدِّرَاسَةِ لاكتشافِ رَوَائِعِهَا، وَسَبْرِ أَغْوَارِ نَفَائِسِهَا.

Abstract

Aesthetics of Rhetorical Variation in Ottoman Maqamat

This research is meant to study the Ottoman Maqamat and the aesthetics of rhetorical variation in its texts.

The research is divided into four chapters preceded by a preface that discussed the rhetoric and variation.

The first chapter deliberated the art of Maqamat, when it was originated and evolved. The chapter also touched on its famous memorable writers and the themes it discussed.

Then the research moved to the second chapter, which dealt with Rhetoric Formation including likeness, metaphor, and metonymy and its impact on the Ottoman Maqamat. The third chapter of the research has observed the linguistic beauty variation, which was used to beautify those Maqamat.

Chapter four dealt with the study of the chromatic, kinetic, and phonic formation. Then it ended up with stylistic formation, i.e. the imperative, negative imperative, query, wishing, and proclamation. This in addition to the rhetoric phenomena such as repetition, anastrophe, and conditional style.

The researcher adopted the integrated approach. This approach combines a number of other approaches, such as descriptive analytical approach, in addition to the historical approach.

At the end of this research the researcher inferred a set of results. Most importantly, the study concluded that the Maqamat can be considered as an artistic and linguistic encyclopedia, and as a lexicon of beauty.

The research also conducted a set of recommendations. Most importantly, there is a necessity to study the literary rhetorical heritage which represents a treasure of Arabic literature, and to reformulate this literature in a way that facilitates its outreach considering the recent changes and evolutions we witness on the one hand, and the need to maximize the benefit of this literature on the other hand. This has a special value with regards to the Ottoman literature.

This study believes that the Ottoman Maqamat is an investigation-worthy subject. This research aimed at proving the legacy of studying the literature of the Ottoman era with all its aspects of beauty that some researchers try to hide or deny.

The research recommended the necessity of paying the Ottoman era much attention and a wider range of literary studies considering that it represents a divine treasure that requires quality in-depth research and investigation.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا

نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿ [فاطر: ٣٥].

صَدَقَ اللَّهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ

الإهداء

* إِلَى مَنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَسْعِدَ قَلْبِي بِرُؤْيَةِ سَمَاحَةِ وَجْهِهِ، وَالتَّغْنِي بِدِمَائِهِ خُلُقِهِ، وَالدي الحبيب رَحِمَهُ، اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَبَلَّغَهُ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى.

* إِلَى مَنْ كُنْتُ أَتَمَنَّى دَوْمًا أَلَّا تَفَارِقَ قَسَمَاتِ وَجْهِهَا عِيُونِي ثَانِيَةً، وَأَلَّا يُغَادِرَ عَذْبَ صَوْتِهَا سَمْعِي هُنَيْهَةً، وَأَلَّا أُحْرَمَ بَرَكَهَ دُعَائِهَا لَحْظَةً وَاحِدَةً، أُمِّي رَحِمَهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَسْكَنَهَا فَسِيحَ جَنَّاتِهِ.

* إِلَى مَلَائِكِي فِي الدُّنْيَا، وَبَسْمَتِي فِي الْحَيَاةِ، وَسَعَادَتِي فِي الْوُجُودِ، إِلَى مَعْنَى الْحُبِّ، وَمَنْهَلِ الْأَمَانِ، إِلَى زَوْجَتِي الْحَبِيبَةِ، إِلَى شَمْسِي الْمُشْرِقَةِ، وَجَوْهَرَتِي الْمَتَلَكِّلَةِ، حَبِيبَتِي، وَ حَبِيبَتِي، وَ حَبِيبَتِي، أُمِّ رَائِدِ.

* إِلَى مَنْ أَرَى التَّفَاوُلَ بِأَعْيُنِهِمْ، وَالسَّعَادَةَ فِي بَسْمَتِهِمْ، وَالْحَيَاةَ فِي ضِحْكَتِهِمْ، إِلَى مَنْ بِمَحَبَّتِهِمْ أَزْهَرَتْ أَيَّامِي، وَتَفَتَّحَتْ بِرَاحَتِهِمْ سُبُلَ سَعَادَتِي، وَتَحَقَّقَتْ أَحْلَامِي، أَوْلَادِي هِنْدُ، نُفَى، نُورُ، أَسْمَاءُ، رَائِدُ، مُحَمَّدُ، وَبِرَاءُ.

* إِلَى حَدَائِقِ الْحُبِّ الْمُرَيَّنَةِ بِبِاقَاتِ الرُّهُورِ، الْمُعَبَّقَةِ بِأَطْيَبِ الرِّيَاحِينَ وَأَذْكَى الْعُطُورِ، إِخْوَتِي الْأَعْرَاءِ: خَلِيلُ، فَتْحِي، مُحَمَّدُ، كَامِلُ، مَحْمُودُ، بَسَامُ، وَرَائِدُ.

* إِلَى نَسَائِمِ الرَّقَّةِ، إِلَى الْقُلُوبِ الرَّحِيمَةِ الْمُفْعَمَةِ بِالْوَفَاءِ، وَالْمَوْشَّحَةِ بِالْعَطَاءِ أَخَوَاتِي الْحَبِيبَاتِ: عَائِشَةُ، نَائِفَةُ، رَسْمِيَّةُ، تَمَامُ، فَاطِمَةُ، فَطُومُ، سَعَادُ، وَنَيْبِلَةُ، وَوَدَادُ، وَأَسْمَاءُ، وَأَمَلُ.

* إِلَى قَيْضِ الْحَنَانِ، وَنَبْعِ الْحُبِّ وَالْأَمَانِ، وَسِرِّ نَجَاحِي فِي حَيَاتِي الْجَامِعِيَّةِ، الْحَاجَةِ: أُمِّ أَمَانِ.

* إِلَى الْقُلُوبِ الرَّائِعَةِ الْمُرَيَّنَةِ بِالْأَمَلِ، وَالْمُكَلَّلَةِ بِالنَّجَاحِ، طُلَابِي الْأَفْضَلِ، وَطَالِبَاتِي الْمَاجِدَاتِ.

* إِلَى الْأَصْدِقَاءِ، وَالْجِيرَانِ، وَكُلِّ مَنْ أَعْرِفُ، وَكُلِّ مَنْ يَعْرِفُنِي عَلَى ظَهْرِ هَذِهِ الْبَسِيطَةِ.

* إِلَى كُلِّ مَنْ أَحَبَّنِي فِي اللهِ، وَأَحَبَّبْنَاهُ فِيهِ.

إِلَى هَوْلَاءِ جَمِيعًا أَهْدِي هَذَا الْجَهْدَ..... الْمُنَوَّاضِعَ.

شُكْرٌ وَتَقْدِيرٌ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَحْمَدُ رَبِّي مِلءَ السَّمَوَاتِ، وَمِلءَ الْأَرْضِ، وَمِلءَ مَا بَيْنَهُمَا، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّهِ الْمُخْتَارِ، خَيْرِ الْأَنْبَاءِ، أَمَرْنَا بِالْاعْتِرَافِ لِلْآخِرِينَ بِفَضْلِهِمْ، وَأَنْزَلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ، وَعَلَّمْنَا شُكْرَ النَّاسِ عَلَى مَعْرُوفِهِمْ.

وَلَسْتُ إِذْ أَشْكُرُ مَنْ قَدَّمُوا لِي الْعَوْنَ، وَذَلَّلُوا أَمَامِي الصَّعَابَ بِمُسْتَوْفِيهِمْ حَقَّهُمْ، بَلْ هُوَ أَدْنَى وَاجِبٍ لَهُمْ عَلَيَّ. وَأَسْتَهِّلُ الشُّكْرَ لِأُسْتَاذِ الدُّكْتُورِ مُحَمَّدِ شَعْبَانَ عَلْوَانَ الَّذِي تَكَرَّمَ بِقَبُولِ الْإِشْرَافِ عَلَى الرَّسَالَةِ، وَعَلَى مَا قَدَّمَهُ لِي مِنَ الْعَوْنِ، وَالنُّصْحِ، وَالْإِشْرَادِ.

ثُمَّ شُكْرِي الْجَزِيلُ لِلْأَسَاتِذَةِ الْأَفْضَالِ الَّذِينَ تَحَمَّلُوا عِبَاءَ مُرَاجَعَةِ الرَّسَالَةِ، وَإِضَافَةً بِصِمَاتِهِمْ عَلَيْهَا لِإِخْرَاجِهَا فِي حَالٍ أَحْسَنَ، وَمَظْهَرٍ أَرْوَعَ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُمْ بَدَّلُوا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ جَهْدًا عَالِيًا، وَوَفَّقْنَا غَالِيًا فَجَزَاهُمْ اللَّهُ خَيْرَ الْجَزَاءِ؛ إِنَّهُمْ:

الأستاذ الدكتور/ نعمان شعبان علوان

الأستاذ الدكتور/ عبد الخالق محمد العف

الأستاذ الدكتور/ عبد الفتاح أبو زائدة

والأستاذ الدكتور/ محمد إسماعيل حسونة

وَشُكْرٌ مَوْصُولٌ إِلَى مَنْ مَنُّوا عَلَيْنَا بِأَوْقَاتِهِمْ، أَسَاتِذَتِي الْأَجْلَاءِ فِي بَرْنَامَجِ الدُّكْتُورَاهِ.

كَمَا أَقَدَّمُ شُكْرِي لِلصَّرْحِ الشَّامِخِ، وَالْبِنَاءِ الْعَظِيمِ، الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بَعْرَةَ، الَّتِي يَسَّرَتْ لَنَا فُرْصَةَ إِنْتِمَاءِ دِرَاسَةِ الدُّكْتُورَاهِ، وَأَخْصُ بِالشُّكْرِ كَلِيَّةَ الْأَدَابِ، وَقَسَمَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةِ. كَمَا أَقَدَّمُ الشُّكْرَ لِلْأُخْتِ/ عَفَافِ الْحَاجِ الَّتِي تَوَلَّتْ عِبَاءَ تَوْفِيرِ الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وَبَدَلَتْ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ جَهْدًا رَائِعًا، كَمَا أَقَدَّمُ الشُّكْرَ لِلْأُسْتَاذَةِ عَيْبِرِ حَمَادَةَ الَّتِي رَاجَعَتْ جِزَاءً مِنَ الرَّسَالَةِ. وَشُكْرٌ خَاصٌّ إِلَى مَنْ وَقَفَتْ بِجَانِبِي طَيِّلَةَ فَنَرَةِ الدَّرَاسَةِ الْجَامِعِيَّةِ فِي لَيْبِنَا الْحَاجَةِ/ أَمَّ أَمَانَ حَفْظَهَا اللَّهُ، وَأَطَالَ عَمْرَهَا. وَلَا أَسْتَنْتِي مِنَ الشُّكْرِ جَامِعَةَ الْأَقْصَى الْحَبِيبَةَ رِئَاسَةً، وَإِدَارَةً، وَأَسَاتِذَةً، وَأَخْصُ بِالشُّكْرِ طُلَّابِي الْأَمَاجِدِ، وَطَالِبَاتِي الْفَضْلِيَّاتِ. وَلَا أَنْسَى زُمَلَائِي جَمِيعًا فِي الدَّرَاسَاتِ الْعُلْيَا.

وَفِي النِّهَآيَةِ فَإِنِّي أَقَدَّمُ شُكْرِي لِكُلِّ مَنْ شَارَكَ أَوْ سَاهَمَ، وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ فِي إِجْزَارِ هَذَا الْعَمَلِ الْمُتَوَاضِعِ..... جَزَاهُمْ اللَّهُ جَمِيعًا خَيْرَ الْجَزَاءِ.

الباحث/ مجدي عايش أبو لحيحة

فَهْرَسُ الْمُحْتَوَيَاتِ

أ.....	إقــــــــرار
ب.....	ملخص الرِّسَالَةِ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
ت.....	Abstract
ث.....	صفحة اقتباس (آية قرآنية).....
ج.....	الإهداء.....
ح.....	شكر وتقدير.....
خ.....	فهرس المحتويات.....
1.....	المقدمة
4.....	أولاً: أهمية الدِّراسَةِ:.....
11.....	تمهيد
14.....	الْجَمَالُ وَالتَّشْكِيلُ، وتطورهما في الفكر البلاغيّ.....
17.....	مفهوم الْجَمَالِ، وَالْجَمِيلِ، وَالْجَمَالِيَّةِ.....
23.....	الْجَمَالُ فِي الْفِكْرِ الْفَلْسَفيِّ، وَالْفَنِّيِّ.....
24.....	الْجَمَالُ فِي الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ.....
24.....	الْجَمَالُ فِي نَظَرِ الْجَاهِلِيِّينَ.....
25.....	الْجَمَالُ فِي الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ.....
33.....	ثانياً: التَّشْكِيلُ.....
33.....	التَّشْكِيلُ لُغَةً وَاصْطِلَاحاً.....
42.....	الفصل الأول: فن المقامة في العصر العثماني
42.....	المبَحْثُ الْأوَّلُ: فنّ المقامة، المفهُوم، النِّشأة، والنَّطُور.....
43.....	المقامة في اللُّغَةِ، والاصْطِلَاح.....
46.....	نشأة فن المقامات.....
49.....	عوامل ازدهار فن المقامات في العصرِ العُثمانيِّ.....
52.....	المبَحْثُ الثَّانِي: بناء المقامة، وأصولها الفنيَّة.....
52.....	1- الرُّوْيُ وَالْبَطْلُ.....

- 2- الكُذْبَةُ 55
- 3- الصَّنْعَةُ اللَّفْظِيَّةُ 56
- المَبْحَثُ الثَّلَاثُ: أُدْبَاءُ فَنِ الْمَقَامَةِ فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيّ 58
- 1- شِهَابُ الدِّينِ الْخَفَاجِيّ 59
- 2- نَاصِبُ الْيَارْجِيّ 60
- 3- ابْنُ النَّقِيبِ 65
- 4- عَبْدُ اللَّهِ السُّوَيْدِيّ 66
- 5- أَحْمَدُ الْبَرْبِيرِ 67
- 6- مُحَمَّدُ الْمُبَارَكِ 70
- 7- نَقُولَا التُّرْكِ 71
- 8- الشَّهَابُ الْأَلُوسِيّ 72
- 9- أَحْمَدُ فَارِسِ الشُّدِّيَاقِ 74
- 10- عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِيّ بَاشَا 76
- 11- إِبْرَاهِيمُ الْأَحْدَبِ 76
- 12- شِهَابُ الدِّينِ السُّوَيْدِيّ 77
- 13- ابْنُ مَيْمُونِ الْجَزَائِرِيّ 77
- المَبْحَثُ الرَّابِعُ : مَوْضُوعَاتُ الْمَقَامَةِ فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيّ 79
- أولاً: الْمَوْضُوعَاتُ السِّيَاسِيَّةُ 80
- ثانياً: الْمَوْضُوعَاتُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ 83
- ثالثاً: الْمَوْضُوعَاتُ الدِّيْنِيَّةُ 90
- رابعاً: الْمَوْضُوعَاتُ السُّلُوكِيَّةُ، وَالْأَخْلَاقِيَّةُ 95
- خامساً: الْأَلْغَازُ، وَالْأَحَاجِي، وَالْمَعْمِيَّاتُ: 98
- سادساً: الطَّبُّ وَالْفَلَكَ 100
- سابعاً: الوَصْفُ 102

102.....	1- وصف الطَّبِيعَةِ:
104.....	2- وصف الرِّحلات.....
106.....	3- وصف الفُصُور
106.....	ثامناً: الهجاء.....
107.....	تاسعاً: الغزل.....
108.....	غزل الغلمان
110.....	عاشراً: المُفَاخِرَاتِ والمُنَاظِرَاتِ.....
113.....	حادي عشر: ما لا يستحيل بالانعكاس
117	الفصل الثَّانِي: التَّشْكِيلُ البَيَانِيُّ فِي المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةِ
119	المُبْحَثُ الأوَّل: التَّشْكِيلُ التَّشْبِيهِيُّ
121.....	البنى التَّشْبِيهِيَّةُ المُرْسَلَةُ.....
126.....	البنى التَّشْبِيهِيَّةُ البَلِغَةُ
134.....	البنى التَّشْبِيهِيَّةُ التَّمثِيلِيَّةُ.....
135.....	البنِيَّةُ التَّشْبِيهِيَّةُ الضَّمْنِيَّةُ.....
137	المُبْحَثُ الثَّانِي: التَّشْكِيلُ الاسْتِعَارِيُّ.....
151	المُبْحَثُ الثَّلَاث: التَّشْكِيلُ الكِنَائِيُّ
165	المُبْحَثُ الرَّابِع: المَجَازُ المُرْسَلُ.....
168	الفصل الثَّلَاث: التَّشْكِيلُ البَدِيعِيُّ فِي المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةِ
169	المُبْحَثُ الأوَّل: المُحَسَّنَاتُ البَدِيعِيَّةُ المَعْنَوِيَّةُ
169.....	1- الطَّبَاق.....
169.....	الطَّبَاقُ لُغَةً وَاصْطِلَاحاً
173.....	2- المُقَابَلَةُ
173.....	أضرب المُقَابَلَةَ.....
174.....	أ- مُقَابَلَةُ اثْنَيْنِ بِاثْنَيْنِ
176.....	ب- مُقَابَلَةُ ثَلَاثَةٍ بِثَلَاثَةٍ.....

177.....	ج- مقابلة أربعة بأربعة.....
177.....	د- مقابلة خمسة بخمسة.....
177.....	3- التَّوْرِيَّة.....
177.....	التَّوْرِيَّة لُغَةً وَاصْطِلَاحًا.....
179.....	4- الَّلَّف والنَّشْر.....
180.....	5- الاقْتِنَاس.....
181.....	أولاً: الاقْتِنَاس من الْقُرْآن الْكَرِيم.....
187.....	ثانياً: الاقْتِنَاس من الْحَدِيث الشَّرِيف.....
189.....	ثالثاً: الاقْتِنَاس من الْأَدَب.....
201.....	المَبْحَث الثَّانِي: الْمُحَسَّنَات الْبَدِيعِيَّة اللَّفْظِيَّة.....
201.....	1- الْجِنَاس.....
202.....	أ- الْجِنَاس التَّام.....
210.....	2- الْجِنَاس غير التَّام (النَّاقِص).....
211.....	1- الْجِنَاس اللاحق.....
212.....	2- الْجِنَاس الْمُصَحَّف.....
214.....	3- الْجِنَاس الْمُحَرَّف.....
216.....	4- جناس الاشتقاق.....
218.....	5- الْجِنَاس الْمُضَارِع.....
220.....	6- جناس القلب.....
222.....	7- جناس التَّرْكِيب.....
223.....	8- الْجِنَاس المُدْبِل.....
224.....	9- الْجِنَاس المُطَرَّف.....
227.....	2- السَّجْع.....
227.....	السَّجْع لُغَةً وَاصْطِلَاحًا.....

228.....	أضرب السَّجْع.....
228.....	أ- السَّجْع المَطْرَف.....
229.....	ب- السَّجْع المُرَصَّع.....
233.....	ج- السَّجْع المتوازي.....
234.....	د- السَّجْع المتوازن.....
234.....	هـ- السَّجْع المُنْمَاتِل.....
235.....	3- العكس.....
237.....	4- لزوم ما لا يلزم.....
240.....	5- الاكتفاء.....
241.....	6- التَّشْطِير.....
246.....	الفصل الرَّابِع: التَّشْكِيل اللَّوْنِيّ، والحركيّ، والصوتيّ، والأسلوبيّ.....
246.....	المَبْحَث الأوَّل: التَّشْكِيل اللَّوْنِيّ فِي المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةِ.....
248.....	اللُّونُ لُغَةً واصْطِلَاحاً.....
250.....	التَّشْكِيل اللَّوْنِيّ اصْطِلَاحاً.....
261.....	التَّشْكِيل اللَّوْنِيّ فِي لوْحَاتِ الطَّبِيعَةِ فِي المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةِ.....
269.....	المَبْحَث الثَّانِي: التَّشْكِيل الحركيّ فِي المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةِ.....
283.....	المَبْحَث الثَّالِث: التَّشْكِيل الصَّوْتِيّ فِي المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةِ.....
284.....	التَّشْكِيل بِالْمُحَسَّنَاتِ الصَّوْتِيَّةِ فِي المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةِ.....
294.....	المَبْحَث الرَّابِع: التَّشْكِيل الأسلوبيّ فِي المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةِ.....
294.....	مفهوم التَّشْكِيل الأسلوبيّ اصْطِلَاحاً:.....
296.....	أدوات التَّشْكِيل الأسلوبيّ فِي المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةِ.....
297.....	أولاً: الأمر.....
301.....	ثانياً: النَّهْي.....
303.....	ثالثاً: الاسْتِفْهَام.....

311.....	رابعاً: النِّداء
312.....	خامساً: التَّفْهيم والتَّأخِير
315.....	سادساً: التَّكْرار
319.....	سابعاً: الشَّرْط
324.....	سمات المَقَامات في العَصْر العُثمانيّ
324	الخاتمة
327.....	أولاً: النَّتائج
328.....	ثانياً: التَّوصيات
330	المُصادِر والمُراجِع
350	الفهَارس العامّة
351.....	أولاً: فهرس آيات القُرْآن الكَرِيم
358.....	ثانياً: فهرس الأحاديث النبويّة الشَّريفة
359.....	ثالثاً: فهرس القـوافي

المُقدِّمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ، وَأَطْلَقَ لِفَصَاحَتِهِ الْعَنَانَ، وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى مَنْ أَزْهَرَتْ أَزَاهِرُ حَصَافَتِهِ وَفَصَاحَتِهِ، وَفَتَتَتْ الْقُلُوبَ بِدَائِعِ عِبَارَتِهِ، وَرَوَّاعِ بَرَاعَتِهِ سَيِّدَنَا مُحَمَّدٍ أَكْمَلَ مَنْ نَطَقَ بِالصَّوَابِ، وَأَفْضَلَ مَنْ أُوتِيَ الْحِكْمَةَ، وَفَصَلَ الْخِطَابِ، وَأَفْصَحَ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ، نَبِيِّ الرَّحْمَةِ وَالْهُدَى، وَمُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ وَالنَّقَى، وَخَيْرِ مَنْ خَطَبَ النَّاسَ وَخَاطَبَهُمْ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الْأَبْرَارِ الَّذِينَ بَلَّغُوا بِلَاغَهُ، وَنَالُوا الدَّرَجَةَ الْعُظْمَى فِي الْبِلَاغَةِ، وَعَلَى مَنْ اتَّبَعَ هُدْيَهُ، وَاسْتَنَّ سُنَّتَهُ، وَسَارَ عَلَى دَرِيهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

يُطْلَقُ النُّقَادُ الْمُسَمَّيَاتِ، سِوَاءَ أَكَانَتْ صَادِقَةً أَمْ كَاذِبَةً، بِيَدِ أَنَّهُمْ سُرْعَانَ مَا يَنْتَفُونَ مِنْهَا مَا يُنَاسِبُ أَهْوَاءَهُمْ سِوَاءَ أَكَانَتْ حَسَنَةً، أَمْ رَدِيئَةً.

وَلَعَلَّ مِنْ أَهَمِّ الْمُسَمَّيَاتِ الَّتِي أُطْلِقَهَا النُّقَادُ تِلْكَ التُّهْمَةُ الَّتِي أُصِفَتْ بِالْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ ظُلْمًا وَبُهْتَانًا، وَهَذِهِ التُّهْمَةُ هِيَ مُصْطَلِحُ عَصْرِ الْأَنْحِطَاطِ، أَوْ عَصْرِ الْجُمُودِ، أَوْ عَصْرِ التَّخْلُفِ، وَغَيْرَهَا مِنْ تِلْكَ الْمُسَمَّيَاتِ الَّتِي تَصُبُّ فِي بَوْتَقَةٍ وَاحِدَةٍ، وَرَعْمَ بِدَاءَةِ الْمُصْطَلِحِ، إِلَّا أَنَّهُمْ شَرَعُوا يَنْتَفُونَ مِنْهَا مَا يُلَائِمُ أَهْوَاءَهُمْ، وَيَحْدِفُونَ مَا يُخَالِفُ أَدْوَابَهُمْ غَيْرَ آبِهِينَ بِمَا يَنْتَرِبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ تَرْوِيرٍ لِلْحَقَائِقِ، أَوْ ظُلْمٍ لِمَصْفَحَةٍ نَاصِعَةٍ مِنْ أَرْوَعِ صَفَحَاتِ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ.

وَعَلَى الرَّعْمِ مِنَ الْحَرْبِ الْمَسْعُورَةِ الَّتِي أُطْلِقُهَا عَلَى الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ، إِلَّا أَنَّهُمْ انْتَقُوا مَا عَكَسَ الصُّورَةَ الْمَشْرِقَةَ مِنْ عَصْرِ الْأَنْحِطَاطِ - حَسَبَ زَعْمِهِمْ - فَسَرَقُوا مَحْمُودَ سَامِي الْبَارُودِيِّ وَرَوَّاعَهُ الَّتِي نَظَمَهَا فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ، وَنَسَبُوهَا إِلَى الْعَصْرِ الْحَدِيثِ، وَمَا فَعَلُوهُ مَعَ الْبَارُودِيِّ سَارُوا عَلَى نَهْجِهِ مَعَ أَمِيرِ الشُّعْرَاءِ أَحْمَدَ شَوْقِي، وَغَيْرِهِ مِنَ الْأُدَبَاءِ: أَمثالَ حَافِظِ إِبْرَاهِيمِ الْبُورِينِيِّ، شِهَابِ الدِّينِ الْخَفَاجِيِّ، نَاصِيفِ الْيَارْجِيِّ، أَحْمَدَ فَارِسِ الشَّدِّيَاقِ، مُحَمَّدَ بْنَ مَيْمُونِ الْجَزَائِرِيِّ، وَابْنَ مَعْتُوقِ، وَإِبْرَاهِيمَ الْأَحْدَبِ، وَحَسَنَ الْعَطَارِ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُدَبَاءِ الَّذِينَ أَسْهَمُوا فِي رَفْعِ رَايَةِ الْأَدَبِ فِي شَتَّى الْمِيَادِينِ فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ.

وَقَبْلَ الْوُلُوجِ فِي أَعْمَاقِ الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ، وَالْحَدِيثِ عَنِ رَوَائِعِهِ، ثَمَّةَ تَسَاؤُلَاتٍ لَا حَصْرَ لَهَا تَطْرُقُ نَفْسَهَا هُنَا، وَتَحْتَاجُ إِلَى إِبْجَابَةٍ قَاطِعَةٍ لِرَدِّ أَقْوَالِ الطَّاعِنِينَ فِي تَرَاتِيهِ، الْمُنْتَرِبِّصِينَ بِرُؤُودِهِ فِي عَوَالِمِ الْأَدَبِ، وَمِنْ هَذِهِ التَّسَاؤُلَاتِ:

- مَا الدَّافِعُ الْحَقِيقِيُّ وَرَاءَ الْمَوْقِفِ الْعُدْوَانِيِّ تِجَاهَ الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ؟ وَمَا سُرُّ الْهَجْمَةِ الْمَسْعُورَةِ عَلَى تَرَاتِيهِ؟

- مَا سِرُّ التَّنَاقُضِ الْغَرِيبِ فِي آرَاءِ بَعْضِ النُّقَّادِ، وَالانْفِصَامِ الْعَجِيبِ فِي شَخْصِيَّاتِهِمْ عِنْدَ الْحَدِيثِ عَنِ تَارِيخِ هَذَا الْعَصْرِ، وَتَقَاتِفِهِ؟

- مَا سِرُّ النَّظَرِ السُّودَاوِيَّةِ الْقَائِمَةِ الَّتِي يَنْظُرُ بِهَا هَوْلَاءُ إِلَى الشَّمْسِ الْمَشْرِقَةِ، وَالْقَمَرِ الْبَازِغِ اللَّذَيْنِ عَمَّا الْأَرْضَ بِالنُّورِ وَالضِّيَاءِ فِي هَذَا الْعَصْرِ، بَيِّدَ أَنَّهُمْ أَصْرُوا ظُلْمًا عَلَى أُفُولِهِمَا؟

ولا أريدُ أن أستطردَ كثيراً في طَرَحِ التَّسْأُولَاتِ، لَكِنْ هُنَاكَ قَضِيَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَطْ أودُّ أن أُطرحَهَا، وَقَدْ دَارَ حَوْلَهَا جَدَلٌ كَبِيرٌ، وَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ هِيَ مُسَمَّي (الْأَنْحِطَاطِ)، فَهَلْ (رَبُّ السَّيْفِ وَالْقَلَمِ)، مَحْمُودٌ سَامِي الْبَارُودِي مِنْ أَتْبَاعِ هَذَا الْمُصْطَلِحِ؟ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ هَلْ غَفَلَ هَوْلَاءُ عَنِ التَّنَاقُضِ الَّذِي كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ هَذَا الْأَدِيبُ الْفَذُّ؟ وَهَلْ الْأَدَبُ الَّذِي خَطَّهُ الْأَدْبَاءُ، وَالشُّعْرُ الَّذِي نَظَمَهُ الشُّعْرَاءُ فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ كَانَ - كَمَا يَدَّعِي هَوْلَاءُ - مَوَاتًا إِذَا كَانَ مِنْ أَنْصَارِ فِكْرَةِ مَوْتِ الْأَدَبِ فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ؟ وَهَلْ يُمَكِّنُ أَنْ يَقْبَلَ أَيُّ مَنْصِفٍ أَنْ يَنْسِفَ مَجْهُودَ سِنَوَاتٍ أَبَدَعَ فِيهَا كُلَّ الْإِبْدَاعِ فِي تِلْكَ الْحَقَبَةِ، وَيَدْخُلُهُ تَحْتَ مُسَمَّى الْجُمُودِ؟

إِنَّ الْإِنْصِافَ كُلَّ الْإِنْصِافِ أَنْ تُطْلَقَ الْمُسَمِّيَّاتُ دُونَ طَمَسِ الْحَقَائِقِ، وَمِنَ الْعَدْلِ كَذَلِكَ أَنْ تَبْتَغِدَ الْأَهْوَاءَ الشَّخْصِيَّةَ كُلَّ الْبُعْدِ عِنْدَ إِطْلَاقِ تِلْكَ الْمُسَمِّيَّاتِ؛ حَتَّى يَأْخُذَ كُلُّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ دُونَ أَيِّ ظَلَمٍ، أَوْ بَهْتَانٍ.

أَمَّا هَذِهِ الدَّرَاسَةُ فَقَدْ تَنَاوَلَتْ جَمَالِيَّاتِ التَّشْكِيلِ الْبَلَاغِيِّ فِي الْمَقَامَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وَاقْتَضَتْ طَبِيعَتَهَا تَقْسِيمَهَا إِلَى أَرْبَعَةِ فُصُولٍ تَصَدَّرَهَا مُقَدِّمَةٌ، وَتَمْهِيدٌ، رَصَدَتْ الْمَقَدِّمَةُ الْفُتْرَةَ الْمَتَمَثِّلَةَ فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ، وَصُورَةَ الْحَيَاةِ فِيهَا دُونَ اسْتِرْسَالٍ فِي تَقْدِيمِهَا مِنْ خِلَالِ طَرَحِ مَجْمُوعَةٍ مِنْ التَّسْأُولَاتِ الَّتِي رُبَّمَا تُظْهِرُ الصُّورَةَ الْمُظْلِمَةَ، الَّتِي حَاوَلَ كَثِيرٌ مِنَ النُّقَّادِ رَسْمَ مَلَامِحِهَا بِالْخَطُوطِ السُّودَاءِ الدَّاكِنَةِ دُونَ أَيِّ تَمْحِيسٍ، وَمَحَاوَلَةَ طَرَحِ بَعْضِ النَّزَاهَاتِ، وَتَرْسِيخِهَا فِي عَقُولِ بَعْضِ الدَّارِسِينَ الَّذِينَ اسْتَسْلَمُوا خَاضِعِينَ لِتِلْكَ الْأَفْكَارِ، أَمَّا التَّمْهِيدُ فَعَرَّجَ عَلَى مُصْطَلِحِ الْجَمَالِ، وَالتَّشْكِيلِ فِي مَعَاجِمِ اللُّغَةِ، وَفِي الْإِصْطِلَاحِ، إِلَى جَانِبِ رِصْدِ آرَاءِ الْعُلَمَاءِ، وَالنُّقَّادِ الْقُدَامَى وَالْمُحَدِّثِينَ حَوْلَ هَذَيْنِ الْمُصْطَلِحِينَ.

أَمَّا أَوَّلُ فُصُولِ الدَّرَاسَةِ فَقَدْ تَنَقَّلَ بَيْنَ حَدَائِقِ الْمَقَامَاتِ، وَتَنَاوَلَ الْمَقْصُودَ بِهَا، وَشَيْئًا عَنِ ظُرُوفِ نَشَاتِهَا، وَنَسَائِمٍ مِنْ عَوَامِلِ تَطَوُّرِهَا، ثُمَّ غَاصَ فِي عَوَالِمِ كُتَّابِ الْمَقَامَةِ فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ، وَحَاوَلَ سَبْرَ أَغْوَارِ حَيَاةِ أَوْلَئِكَ الْكُتَّابِ؛ لِيَقْدِمَ لَنَا فَاصِلًا عَدْبًا مِنْ نِعْمَاتِ الْجَمَالِ، وَآيَاتِ الْحُسْنِ وَالْجَلَالِ، الَّتِي حَمَلَتْهَا مَقَامَاتُهُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ عَدَدٍ مِنْ نَجْمِهَا الزَّاهِرَةِ فِي سَمَاءِ ذَلِكَ الْعَصْرِ. ثُمَّ نَحَا مَنَحَى آخَرَ، حَيْثُ حَلَفَتْ الدَّرَاسَةُ إِلَى مَنَاهِلِ الْمَقَامَةِ، وَوَرَدَتْ مَاءَ مَوْضُوعَاتِهَا

فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ، فَنهلت من السِّيَاسَةِ مَرَّةً، وَمِنَ الدِّينِ ثَانِيَةً، وَمِنَ الْجَانِبِ السُّلُوكِيِّ، وَالْأَخْلَاقِيِّ مَرَّةً ثَالِثَةً، وَعَرَّجَتْ عَلَى الوَصْفِ وَالغَزْلِ، وَالْمَدْحِ وَالْأَغْزَارِ، وَالْهَجَاءِ، وَالْمُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ؛ لِنَقْدِمْ لَنَا لَوْحَةً مُتَكَامِلَةً رِيْمًا تَرْوِي شَيْئًا مِنْ ظَمَأِ الدَّارِسِينَ، وَقَاصِلًا عَدْبًا يَسُدُّ حَتْمًا رَمَقَ الْمُتَعَطِّشِينَ إِلَى التُّرَاثِ الْعَظِيمِ، وَعَظِيمِ التُّرَاثِ.

وَتَأْنِي فُصُولَ الدَّرَاسَةِ تَكْفُلُ بِتَقْدِيمِ جَوَانِبِ التَّشْكِيلِ الْبَيَانِيِّ فِي النُّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ مُتَقَلًّا بَيْنَ رَوَائِعِ التَّشْكِيلِ التَّشْبِيهِيِّ، وَنَفَائِسِ التَّلْوِينِ الْاسْتِعَارِيِّ، وَبِدَائِعِ التَّشْكِيلِ الْكِنَائِيِّ، وَآيَاتِ الْجَلَالِ الَّتِي بَدَتْ فِي ثَنَائِهَا كَافَّةً.

أَمَّا ثَالِثُ الْفُصُولِ فَقَدْ ارْتَحَلَتْ فِيهِ الدَّرَاسَةُ إِلَى أَهَمِّ عُنْصُرٍ مِنْ عَنَاصِرِ النُّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ، وَالَّتِي إِذَا مَا ذُكِرَتْ الْمَقَامَةُ ذُكِرَ مَعَهَا، وَهُوَ فَنُّ الْبَدِيعِ، وَتَشْكِيلُهُ الْجَمَالِيَّةُ، فَهَلْ الْأُدْبَاءُ مِنْ شَتَى أَصْنَافِهِ، مِنْ الطَّبَاقِ وَالتَّجْنِيسِ، وَمِنَ الْمُقَابَلَةِ وَالتَّسْجِيعِ، وَمِنَ الْاِقْتِبَاسِ وَالتَّشْطِيرِ، وَمِنَ التَّوْرِيَةِ وَالتَّقْسِيمِ، مَعَ بَيَانِ مَا حَمَلَتْهُ هَذِهِ الْأَلْوَانُ مِنْ مَعَانٍ فَانِقَةٍ، وَمُوسِيقَا مُتَفَرِّدَةٍ، أَضَفَتْ إِلَى النُّصُوصِ جَمَالًا مِنْ طَرَازٍ فَرِيدٍ، وَوَشَّحَتْهَا بِحُسْنٍ مِنْ نَوْعِ أَخَاذٍ.

وَرَبِيعُ الْفُصُولِ رَصَدَ عَوَالِمَ التَّشْكِيلِ فِي الْمَقَامَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، فَبَدَأَ بِالتَّشْكِيلِ اللَّوْنِيِّ حَيْثُ رَسَمَ الْأُدْبَاءَ كَأَبْرَعِ فَنَانٍ، وَاخْتَارُوا الْأَلْوَانَ كَأَحْسَنِ رَسَامٍ، وَقَدَّمُوا لَوْحَاتٍ فَنِيَّةً تَرْنُو إِلَيْهَا الْعُيُونُ فَتَقَرُّ بِهَا، وَتَتَأَثَّرُ بِهَا الْقُلُوبُ فَتَأْنَسُ صَحْبَتِهَا، وَتَشْعُرُ بِهَا الْأَحَاسِيسُ فَتَتَفَاعَلُ مَعَهَا، وَتَتَعَلَّقُ بِهَا الْأَفئِدَةُ فَتَعَشَقُهَا، وَتَتَى بِالتَّشْكِيلِ الْحَرْكِيِّ، فَصُحْبَةَ السُّكُونِ وَالْحَرَكَةِ، أَوْ رَفَقَةَ الْهُدُوءِ وَالتَّوَثُّرِ أَبْهَرْنَا كِتَابَ الْمَقَامَةِ بِالتَّشْكِيلاتِ الْحَرْكِيَّةِ الَّتِي رَسَمَتْ صُورًا نَاطِقَةً، وَمَشَاهِدَ حَيَّةً، فَعَشْنَا مَعَ رَوَائِعِهِمْ مَشَقَّةَ الرَّجِيلِ، وَعِنَاءَ التَّرْحَالِ، وَحَبِيْبِنَا مَعَ مَقَامَاتِهِمْ سَعَادَةَ الصُّعُودِ، وَشِقَاءَ الْهُبُوطِ، وَتَلَّتْ بِالتَّشْكِيلِ الصَّوْتِيِّ حَيْثُ غَنَّى الْأُدْبَاءُ فَاضْحَتْ كَلِمَاتُهُمْ فَنُونًا، وَتَرَنَّمُوا فَأَبْهَرُوا الْمُتَلَقِّي بِعَذْبِ الْمُوسِيقَا، وَرَوَائِعِ الْأَلْحَانِ، وَتَرَكَو السَّامِعِينَ يَمْتَعُونَ أَنْظَارَهُمْ بِعُقُودِ دُرٍّ نَضِيدٍ، وَيَطْرِبُونَ آذَانَهُمْ بِرَوَائِعِ نَظْمٍ دَقِيقٍ. ثُمَّ حَتَمَ، فَقَدَّمَ التَّشْكِيلَ الْأُسْلُوبِيَّ وَأَدَوَاتِهِ، وَتَنَقَّلَ بَيْنَ تَقْنِيَّاتِهِ حَيْثُ الْأَمْرُ، وَالنَّهْيُ، وَالِاسْتِفْهَامُ وَالنِّدَاءُ، وَالشَّرْطُ، وَالتَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ، وَالتَّكْرَارُ، وَمَا احْتَوَتْهُ النُّصُوصُ الْمَقَامِيَّةُ مِنْ أَسَالِيبَ رَائِعَةٍ كَتَبْتُ لَهَا الْبَقَاءَ بَيْنَ الْفُنُونِ.

وَبَعْدَ التَّنْقُلِ وَالتَّرْحَالِ، وَبَعْدَ السَّيْرِ وَالتَّجْوَالِ تَرْسُو سَفِينَةُ الدَّرَاسَةِ عَلَى شَاطِئِ الْخَاتَمَةِ لِتَحْمَلَ شَدَى مِنْ عَبِيرِ هَذَا الْعَصْرِ، وَعِطْرًا رِيْمًا كَانَ جَدِيدًا مِنْ أَزْهَارِ تِلْكَ الْحَقِيقَةِ الْمُضِيئَةِ الَّتِي حَاوَلَ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ إِطْفَاءَ نُورِهَا، وَجَاهَدَ عَدَدٌ مِنَ الدَّارِسِينَ لِإِحْمَادِ جَذْوَةِ تَأْلُفِهَا. ثُمَّ تَرْسَلُ

بعض التّوصيات التي قد تفتح للدارسين آفاقاً جديدةً، وأبواباً كانت موصدةً يثري من يقصدها المكتبة العريية بتراث العصر العثماني العظيم، وأدبه الرشيق.

أولاً: أهمية الدراسة:

لعلّ البلاغة من العلوم التي يشرف الباحثون بدراستها، وقد تناول كثير من العلماء البلاغة العريية في عصور متعددة، بينما أهملها معظمهم في الأدب العثماني.

وتكمن الأهمية العلمية لهذه الدراسة في كونها أساساً ثابتاً في ترسيخ جذور قوية للبلاغة في الأدب العثماني، وإثبات حقيقة جلية لا ينكرها إلا من لم يتذوق جماليات الأدب العثماني، وهي: أن الأدب العثماني شعره ونثره هو المنهل العذب لاستقاء الثقافة، والورد الصافي لكثير من العلوم، والأرض الخصبة لبذرة طيبة أصلها ثابت، وفرعها قد يرتقي إلى عنان السماء، بيد أن كنوز الأدب العثماني لا زال أغلبها دفيناً بين طيات الكتب، وأرفف المكتبات في شتى أنحاء المعمورة.

وتهدف الدراسة إلى الوصول إلى ما يمكن الوصول إليه من الأسرار، والكنوز الكامنة في صدقات المقامات العثمانية التي تغاضى عنها كثير من الدارسين بدعوى الضعف، وكون العصر العثماني عصر التخلف، والانحطاط.

وسيقوم الباحث بدراسة المقامات العثمانية دراسةً وافيةً من خلال التشكيل الجمالي فيها بعرض ماهية المقامة، وأهم روادها، والموضوعات التي تناولتها، وتقديم الأساليب البلاغية، وطرح التشكيلات اللونية، والحركية، والصوتية، والأسلوبية، وبيان ما فيها من تصوير بياني بديع، ولون بديعي فريد، وتناسق فني رائع.

ثانياً: دوافع اختيار الموضوع:

لما كانت البلاغة العريية من أشرف العلوم من ناحية، وأكثرها أهمية من ناحية أخرى فقد اجتهد كثير من الباحثين في هذا المضمار، بيد أنهم ركزوا على عصور الأدب كافة، وأهملوا العصر العثماني؛ إذ من الثرة من تناول المقامات العثمانية بعينها، لذا رأى الباحث أن يركّز جهده على هذا الجزء من الأدب العريي، ويجمع الظواهر المتعددة فيه، ويصنّفها كما هو مبين في الخطة، كما يلجأ الباحث إلى توظيف مباحث العنوان للوصول إلى أهداف الدراسة وأغراضها.

ثالثاً: **منهج الدراسة:** (التكاملي)، حيث إن هذا المنهج يحتوي جميع جوانب الدراسة (، وتبعاً لطبيعة الدراسة فإن الباحث سيتبع المنهج التحليلي الوصفي بالإضافة إلى المنهج التاريخي؛ لمناسبتها لموضوع الدراسة، ولاستخلاص الأهداف المرجوة منها إن شاء الله سبحانه وتعالى.

رابعاً: أهداف الدراسة: تهدف الدراسة إلى:

- 1- التركيز على الدراسات المتعلقة بالبلاغة العربية.
- 2- الأدب العثماني أدب حمل الجمال على مدى الأزمان، والدهور، والدراسات العثمانية تعكس هذا الجمال على مدى الأيام والعصور، وتصبُّ جل الاهتمام لإثباته، ورسم مشاهد الحُسن فيه.
- 3- إثبات ما تفرّد به الأدب العثماني من ظواهر خاصة، وأساليب متفرّدة في النصوص المقامية.
- 4- ترسيخ جذور قوية للبلاغة العربية في الدراسات السابقة في العصر العثماني، الذي تعرّض كثيراً للظلم من بعض الدارسين.
- 5- إبطال آراء بعض الدارسين الذين هاجموا العصر العثماني، والباحثين الذين سعوا سعياً حثيثاً لتعكير صفوه، مُتلمسين شتى الدروب المظلمة للطعن في جمالياته الأدبية، وروائعه الفنية، بل حاولوا جاهدين لإلغاء وجوده.

خامساً: الصعوبات التي واجهت الباحث:

لا يخلو أي عمل من بعض الصعوبات، فقد واجه الباحث عدّة صعوبات، ولكن منة الله الواسعة، وكرمه القياض، ورحمته الغامرة بعباده، ومشيبته المطلقة - بلا أدنى شك - كانت العون الأول لي في تذليل هذه الصعوبات، ناهيك عن توجيه أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور محمّد علوان، وخبرة الأستاذ الدكتور نبيل أبو علي في هذا الميدان، والذي فتح لي أبواباً كانت مؤصدة في هذه الدراسة، ولا أنسى كرم أساتذتي جميعاً الذين لم يدخروا جهداً في توفير المشورة، والدعم المعنوي، والعلمي. أطل الله أعمارهم، وأضاء دروبهم، وأحسن خاتمتهم.

أما أهم هذه الصعوبات فهي:

- 1- اتساع موضوع الدراسة؛ وذلك لأن المقامات العثمانية غنيّة بالظواهر اللغوية، والبلاغية.
- 2- ندرة الدراسات والبحوث التي تناولت الأدب العثماني، خاصة فن المقامة، والتشكيل البلاغي فيها.

3- افتقارُ مكتباتنا في قطاعِ غزّةِ إلى كثيرٍ من المصَادِرِ، والمَرَاجِعِ التي يحتَاجُ إليها البحثُ العلميُّ خاصة في ظلِّ إغلاقِ المعابرِ، والحصارِ المتواصلِ والظَّالِمِ، على قطاعنا الحبيبِ في هذا الوقتِ.

4- صُعوبةُ الحصولِ على المَرَاجِعِ التي تناولتِ الأدبَ في العَصْرِ العُثمانيِّ بأسلوبٍ صحيحٍ.

5- قِلَّةُ الخبرةِ في هذا البابِ، فالَّذينَ سبَرُوا أغوارَ العَصْرِ العُثمانيِّ أدبياً قِلَّةٌ قليلةٌ، ربّما لا يتجاوزُ عددهمُ أصابعَ اليدِ الواحدةِ.

6- عدمُ تقبُّلِ كثيرٍ من الباحثينَ لفكرةِ دراسةِ الأدبِ العثمانيِّ، وتركيزِ جهدهم في جوانبٍ أخرى.

سادساً: الدَّرَاسَاتُ السَّابِقَةُ:

لَعَلَّ الدَّرَاسَاتِ التي تناولتِ العَصَرَ العُثمانيِّ ككُلِّ كانت قليلةً، خاصةً تلكَ الدَّرَاسَاتِ التي تناولتْ فنَّ المَقَامَةِ. بيدَ أنَّ الدَّرَاسَاتِ التي تناولتِ التَّشْكِيلَ البَلَاغِيَّ في المَقَامَاتِ العُثمانيَّةِ تكادُ تكونُ نادرةً جداً، بحيثُ لمْ أعثرْ خلالَ بحثي على موضوعٍ مستقلٍّ يبحثُ في المَقَامَاتِ العُثمانيَّةِ بصورةٍ خاصَّةٍ؛ لذا اخترتُ هذهَ الدَّرَاسَةَ المتخصِّصةَ في عنوانها؛ لأملأُ بعضَ هذا الفراغِ في الدَّرَاسَاتِ العَرَبِيَّةِ.

أما أهمُّ الدَّرَاسَاتِ في هذا الميدانِ فهي:

1- الأدبُ العربيُّ بينَ عصرينِ المملوكيِّ والعُثمانيِّ. أ. د/ نبيل خالد أبو علي.

2- المَقَامَاتُ في العَصْرينِ المملوكيِّ والعُثمانيِّ- دراسة تحليلية نقدية. سحر أبو عطوي. رسالة ماجستير.

3- سمات أسلوبية في مَقَامَاتِ ناصيف اليازجي- دراسة تحليلية. مي حسن يونس رسالة ماجستير.

4- فنُّ المَقَامَةِ في التُّحْفَةِ المُرْصِيَّةِ لابن ميمون الجزائري. الطاهر حسيني. رسالة ماجستير.

سابعاً: خُطَّةُ الدَّرَاسَةِ:

اقتضتْ طَبِيعَةُ الدَّرَاسَةِ إلى أنْ تُنْقَسِمَ إلى مُقدِّمةٍ، وتمهيدٍ، وأربعة فُصُولٍ، وخاتمةٍ على النَّحْوِ الآتي:

* المُقدِّمةُ: وفُدِّمَ الحَدِيثُ فيها عن أهميَّةِ المَوْضُوعِ، وسببِ اختياره، وأهدافِ الدَّرَاسَةِ، والصُّعُوباتِ التي واجهتِ البَاحِثَ، وخُطَّةِ الدَّرَاسَةِ، وَمَنْهَجِ البحثِ، والدَّرَاسَاتِ السَّابِقَةِ.

* التمهيد: وتناول فيه الباحث مفهوم كل من الجمال والتشكيل في اللغة، والاصطلاح، وأثرهما في الدراسات البلاغية، ثم رصد نظرات في الجمال والتشكيل في الفكر العربي والإسلامي، ومفهومهما في الفكر الفلسفي، والفني.

الفصل الأول: فن المقامة في العصر العثماني، وينقسم إلى أربعة مباحث هي:
المبحث الأول: فن المقامة النشأة والتطور، وعوامل ازدهارها في العصر العثماني.
المبحث الثاني: بناء المقامة وأصولها الفنية.
المبحث الثالث: أدباء المقامة في العصر العثماني.

1- شهاب الدين الخفاجي

2- ناصيف اليازجي

3- ابن النقيب

4- عبد الله السويدي

5- نقولا الترك

6- الشهاب الألويسي

7- أحمد فارس الشدياق

8- عبد الله فكري باشا

9- إبراهيم الأحذب

10- شهاب الدين السويدي

11- محمد بن ميمون الجزائري

12- محمد بن أحمد الوزغي

13- محمد المبارك

المبحث الرابع: موضوعات المقامة في العصر العثماني.

أولاً: الموضوعات السياسية.

ثانياً: الموضوعات الاجتماعية.

ثالثاً: المَوْضُوعَاتُ الدِّينِيَّةُ.

رابعاً: المَوْضُوعَاتُ السُّلُوكِيَّةُ وَالْأَخْلَاقِيَّةُ.

خامساً: الأَلْغَازُ وَالْأَحَاجِي وَالْمَعْمِيَّاتُ

سادساً: الطَّبُّ وَالْفَلَكَ

سابعاً: الوَصْفُ

1- وصفُ الطَّبِيعَةِ

2- وصفُ الرِّحَالِ

3- وصفُ القُصُورِ

ثامناً: الهَجَاءُ

تاسعاً: العَزَلُ، غَزَلُ الغلمانِ

عاشراً: المُفَاخَرَاتُ وَالْمُنَاطَرَاتُ

حادي عشر: ما لا يستحيلُ بالانعكاسِ

* **الفصل الثاني:** التَّشْكِيلُ البَيَانِيُّ فِي المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةِ، وينقسم إلى أربعة مَبَاحِثَ هِيَ:

المَبْحَثُ الأوَّلُ: التَّشْكِيلُ التَّشْبِيهِيُّ.

المَبْحَثُ الثَّانِي: التَّشْكِيلُ الاسْتِعَارِيُّ.

المَبْحَثُ الثَّالِثُ: التَّشْكِيلُ الكِنَائِيُّ.

المَبْحَثُ الرَّابِعُ: المَجَازُ المُرْسَلُ.

* **الفصل الثالث:** التَّشْكِيلُ البَدِيعِيُّ فِي المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةِ، وينقسم إلى مبحثين هما:

المَبْحَثُ الأوَّلُ: المَحْسَنَاتُ البَدِيعِيَّةُ المَعْنَوِيَّةُ، ويشمل (الطَّبَاقَ، المُقَابَلَةَ، التَّوْرِيَةَ، اللَّفَّ والنَّشْرَ، و الاقتباس من القرآن الكريم، والحديث الشريف، الأدب، والأمثال العربية).

المَبْحَثُ الثَّانِي: المَحْسَنَاتُ البَدِيعِيَّةُ اللَّفْظِيَّةُ، ويشمل (الجِنَاسَ، السَّجْعَ، العكسَ، لزوم ما لا يلزم، الاكتفاء، والتشطير).

الفصل الرابع: التشكيل اللوني، والحركي، والصوتي، والأسلوبي في المقامات العثمانية، وينقسم إلى أربعة مباحث هي:

المبحث الأول: التشكيل اللوني.

المبحث الثاني: التشكيل الحركي.

المبحث الثالث: التشكيل الصوتي.

المبحث الرابع: التشكيل الأسلوبي.

سمات فنّ المقامة في العصر العثماني

الخاتمة: وفيها نتائج الدراسة، ثم التوصيات.

وأخيراً، فهذا جهد متواضع أقدمه للمكتبة العربية، ولأساتذتي الكرام، وإخواني الأعزّاء، وطلابي الأحباب، وطلباتي الفضليات، وكُلّي أمل أن أصل من خلال هذه الدراسة إلى الكُنُوز الدفينة، والأسرار البلاغية الكامنة في المقامات العثمانية؛ لعلّ ذلك يفتح كثيراً من الأبواب المؤصدة لما يشمله فنّ المقامة من فصاحة، وما يحويه من بيان. وأن يحظى بالقبول، فإن وفقت فيه فهو بتوفيق الله - جلّ وعلا - ومنّته، وإن قصرت فإن سمة البشر النقّص. وما من إنسان يبلغ الكمال، وإن سعى تجاهه سعياً حثيثاً، وسار في دروبه سيراً جاداً.

والله وليّ التوفيق، ومنه نستمد العون، فهو وليّ ذلك ومولاه.

مجدي عايش أبو لحية

ذو القعدة 1438هـ

أغسطس 2017م

التَّهْمِ

الْجَمَالِ

وَ

التَّشْكِيْلِ

تَمْهِيد

الجمال والتشكيل

تفاوتت الآراء حول الأدب في العصر العثماني، بيد أنه من الإنصاف القول في هذا المقام: إن الأدب - شعره ونثره - في العصر العثماني قد سبقته ظروف، وقد حفزت إليه دوافع، وتهيأت له عوامل جعلت منه فناً زيمًا نافس بعض العصور السابقة خاصة في تنوع الفنون، وأساليب التجديد، وصور التعبير عن النفس، والمجتمع، والحياة، ولعل المدة التي تولى فيها العثمانيون زمام الأمور، ثم الأحداث الجسام التي مرت بها تلك الفترة فتحت كثيراً من الأبواب الموصدة التي كان يخشى كثير من الأدباء طرقتها، فخاضوا غمار التجديد في الموضوعات والمضمون، وفي الشكل والموسيقا، وفي الأوزان والقوافي.

وقبل الإبحار في سفينة الأدب، والسفر تلقاء حداثق المقامات يجب أن نتحرك السفينة إلى الخلف قليلاً لعل التيار يرسم لها ملامح الحقيقة التي تجاهلها كثير من النقاد، وحاول تغيير ملامحها من لم تسعفهم حاسة الإنصاف، فشرعوا يطلقون رصاصات الظلم صوب هذا العصر، وهو العصر العثماني الذي حاول كثير من النقاد أن يقدم ملامحه في صورة مظلمة مستنداً إلى أدلة واهية أشبه بخيوط العنكبوت، وحاولوا التقديم لذلك بمسمى طفا على السطح حسب وجهة نظرهم، وهذا المسمى هو (عصر الانحطاط) الذي أخذ يتداوله كثير من أبناء الأمة العربية دون أدنى محاولة لإنصاف تلك المرحلة.

وقد أثير حول هذا المسمى جدل كبير لم تعرف بدايته، أو حتى نهايته، ولعل من أسباب هذا الجدل، من وضعوا هذا المصطلح، وأعني بذلك مصطلح (الانحطاط) الذي ابتدعه بعض النقاد المصريين ومن تابعهم، وتبعهم بترديد هذا المصطلح عدد كبير من النقاد في شتى البلدان العربية، وأخص بالذكر الذين عكفوا على دراسة المناهج المصرية دونما تدقيق، أو تمحيص لهذه المصطلحات التي تملأ تلك المناهج من ناحية، ودون إجراء أي تغيير على مفرداتها - وكأنها قرآن منزل - من ناحية أخرى، وهنا أقول إن كثيراً من الدارسين ربما وضعوا نصب أعينهم أن المصريين هم القدوة الحسنة، والمثل الأعلى الذي لا يمكن أن تخالف وجهة نظره، أو حتى يناقش رأيه؛ لأنهم هم أساتذة الوطن العربي في عالم الأدب، وشتى العلوم.

ولعل كثيراً من النقاد الذين أخذوا على عاتقهم الإبحار في هذا العالم، والغوص في ذلك البحر المتلاطم الأمواج، والمتمثل في ذلك المصطلح، أصر كل الإصرار أن يتمسك بذلك المصطلح، وهنا أذكر ذلك الجنب الذي يقول:

حَيَاةٌ ثُمَّ مَوْتٌ ثُمَّ بَعْثٌ حَدِيثُ خُرَافَةٍ يَأْمُرُ عَمْرُو⁽¹⁾

وَكَأَنِّي بِهِؤَلَاءِ النُّقَادِ قَدْ تَبَنَوْتُ فِي نَظَرْتِهِمْ لِلأَدَبِ فِي العَصْرِ العُثْمَانِيِّ صَدَرَ هَذَا البَيْتِ، وَأَهْمَلُوا عَجْزَهُ، مُصِرِّينَ عَلَى التَّمَسُّكِ، بَلِ التَّشَبُّثِ بِذَلِكَ المُصْطَلَحِ العَقِيمِ.

وَهُنَاكَ كَثِيرٌ مِنَ الأَسْئَلَةِ الَّتِي تَطْرُحُ نَفْسَهَا، وَالَّتِي لَوْ فَكَّرَ الدَّارِسُونَ فِيهَا مَلِيًّا لَسَارَعُوا إِلَى تَغْيِيرِ وَجْهِهَ نَظَرِهِمْ فِي مُصْطَلَحِ (الأَنْحِطَاطِ) المَزْعُومِ.

- فَهَلْ مَاتَ الأَدَبُ فِي ذَلِكَ العَصْرِ - أَعْنِي فِي العَصْرِ العُثْمَانِيِّ - فِعْلاً، وَشَارَكَ فِي تَشْيِيعِ جَنَازَتِهِ مَنْ سَارَعَ بِنَبْئِي هَذِهِ النُّظْرَةَ، أَوْ بِتَأْيِيدِ تِلْكَ الفِكْرَةَ؟

- مَنِ المَسْئُولُ عَنِ فِكْرَةِ إِطْلَاقِ مُصْطَلَحِ (مَوْتِ الأَدَبِ) فِي هَذَا العَصْرِ؟ وَعَلَى اعْتِبَارِ تِلْكَ الرُّؤْيَا - وَهِيَ مَوْتِ الأَدَبِ - هَلْ يُعْقَلُ أَنْ تَعْجَزَ تِلْكَ الحِقْبَةُ الطَّوِيلَةُ مِنَ الحُكْمِ العُثْمَانِيِّ فِي ثَلَاثِ قَارَاتٍ أَنْ تَلِدَ أَدِيبًا فَذًّا، أَوْ شَاعِرًا لَا يُجَارَى؟

- هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَوْعَبَ صَاحِبُ آيَةٍ عَقْلِيَّةٍ نَاقِدَةٍ، وَقَرِيحَةٍ وَقَادَةٍ أَنْ تُجْمَعَ كُلُّ أَعْمَالِ تِلْكَ الحِقْبَةِ، وَالَّتِي كُنْتُ بِمَدَادٍ مِنَ الدَّمَاءِ، ثُمَّ يُلْقَى بِهَا فِي دُرُوبِ النِّفَايَاتِ غَيْرِ مَكْتَرٍ بِمَا بَدَلَهُ هَؤُلَاءِ الأَدْبَاءُ مِنْ مَجْهُودَاتٍ، قَلَّدْتُهُمْ يَوْمًا تِيغَانَ الشُّهْرَةِ، وَبِوَأْتِهِمْ أَرْقَى المَنَاصِبِ، وَأَعْلَى المَرَاتِبِ؟

- هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يُنْكَرَ مَوْخُو الأَدَبِ، وَدَارِسُوهُ إِبْدَاعَاتِ مَحْمُودِ سَامِي البَارُودِيِّ المُذْهِلَةِ (1838-1904م)، وَرِوَاغِ أَحْمَدِ شَوْقِيِّ المُبْهَرَةِ (1870-1932م)، وَلِمَسَاتِ نَاصِيْفِ البَارُودِيِّ السَّاجِرَةِ (1800-1871م)، وَإِسْهَامَاتِ شِهَابِ الدِّينِ الحَقَاجِيِّ البَارِعَةِ (977-1069هـ)، وَمَقَامَاتِ نَقُولَا التُّرْكِ الفَائِقَةِ (1176-1244هـ)، وَلَوْحَاتِ أَحْمَدِ فَارِسِ الشُّدِّيَاقِ المَتَفَرِّدَةِ (1219-1305هـ)، وَآخَرُونَ كَثِيرُونَ تَتَبَتِ الأَدْلَةُ القَاطِعَةُ أَنَّهُمْ أَمْضَوْا جُلَّ حَيَاتِهِمْ فِي العَصْرِ العُثْمَانِيِّ، وَأَنَّ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ الأَدْبَاءُ مِنَ شُهْرَةٍ، وَمَا اعْتَلَوْهُ مِنْ مَكَانَةٍ، إِنَّمَا كَانَ فِي العَصْرِ العُثْمَانِيِّ؟

- هَلْ يُعْقَلُ أَنْ يُنْكَرَ النُّقَادُ أَنَّ الرِّوَاغِ الشُّعْرِيَّةَ لَكَثِيرٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ فِي العَصْرِ العُثْمَانِيِّ، وَعَلَى رَأْسِ هَؤُلَاءِ مَحْمُودِ سَامِي البَارُودِيِّ، وَأَحْمَدِ شَوْقِيِّ، وَحَسَنِ مُحَمَّدِ البُورِينِيِّ، وَالمَقَامَاتِ البَارِعَةِ لَكَثِيرٍ مِنَ المَقَامِيِّينَ، وَيَتَصَدَّرُهُمْ نَاصِيْفِ البَارُودِيِّ، وَأَحْمَدِ فَارِسِ الشُّدِّيَاقِ، وَنَقُولَا التُّرْكِ... وَغَيْرِهِمْ قَدْ نَافَسَتْ رِوَاغَهُمُ الفُنُونِ الأَدْبِيَّةِ فِي العُصُورِ المُخْتَلِفَةِ؟

(1) الحِمَاصِيُّ، دِيْوَانِ دِيكَ الجَنِّ الحِمَاصِيِّ، (ص 170). والأَصْبَهَانِيُّ، مَحَاضِرَاتِ الأَدْبَاءِ، (ج 4/423).

وإلى جانب ذلك، فإنَّ هناك عدداً كبيراً من الشعراء، وأدباء المقامات العثمانيين الذين برعوا في نظمهم، وسموا في كتاباتهم، وأبدعوا في معانيهم، وفاقوا في صورهم، فكتبت لهم أعمالهم الأدبية الخلود في عالم الأدب، وارتقوا إلى مصاف الإبداع، ومن هؤلاء الشعراء محمد حسن البوريني، وشهاب الدين الحفاجي، وابن الإفرنجية، وناصر اليازجي... وغيرهم كثير. فهل يمكن أن يحرم دارسو الأدب من إبداعات مثل هؤلاء الأفاضل؟ وهل فكرة إخفاء مثل تلك الإبداعات في هذا العصر مفصودة من أطراف بعينها؟.

إنَّ الأسئلة هذه تحتاج إلى إجابات دقيقة، وربما يكون هناك كثير من العقول التي تحتفظ بإجابات شافية، بيد أنَّ الخشية من المواجهة مع أنصار تلك المصطلحات، هي التي تمنعهم من التصريح، فيكتفون بالسكوت، ويلتزمون الصمت.

ومن النقاد من نحا منحى آخر تجاه هذا المصطلح (الجُمود والانحطاط)، لكنه فسّر المسمى تفسيراً رُبما لم يتعرض من خلاله لأيّ قدح في حديثه عن العصر العثماني، ومن هؤلاء، علي أحمد سعيد (أدونيس)، الذي ينقل وجهة نظر كثير من الكتاب المصريين، والتي تتمثل في ترديدهم لذلك المصطلح. ومن هنا يتساءل (أدونيس) في أثناء حديثه عن العصر العثماني قائلاً: "ولاشك أنها كانت فترة مظلمة من الناحية السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية. فهل كانت حقاً فترة مظلمة من الناحية الأدبية الشعرية، أو الثقافية بعامه؟... ويكمل قائلاً: إنَّ تسمية هذه الفترة بالمظلمة تشير إلى أنَّ ثمة مقياساً في ذهن من سماها بالمضيئة"⁽¹⁾.

ويعود أدونيس ليفند تلك الرؤية قائلاً: "ولاشك أنَّ الشعر العربي تراجع في تلك الفترة المظلمة عما كان عليه سابقاً، قد تراجع على الأخص كميّاً، لكننا نجد مع ذلك حركة شعرية مستمرة تدوم طوال هذه الفترة، دون انقطاع، ولعلَّ في دراسة هذه الحركة ما يفرض علينا أن نعيد طرح القضايا المتعلقة بعصر النهضة طرْحاً مغايراً لما هو مألوف"⁽²⁾.

ويطرح (أدونيس) مجموعة من الأسئلة في هذا الصدد، رُبما تحمل في ثناياها جملة من القيم، يقول: "والسؤال الأول في هذا الصدد هو: هل نقيس تقدّم الحركة الشعرية بفهمها روح العصر، والتعبير عنها، أم يعودتها إلى أصل ثابت، ومحاولة تقليده، أو الاحتذاء به؟ وهل انحطاط الشعر ناتج عن رفض هذه العودة، ورفض التقليد؟"⁽³⁾.

(1) أدونيس، الثابت والمتحول، 3 "صدمة الحداثة"، (ص53).

(2) المرجع السابق، ص53.

(3) المرجع نفسه، ص54.

ولم يتوقف (أدونيس) عند هذا الحدّ، بل تناول خصائص النتاج الأدبي في المرحلة التي وسمها بعض النقاد بالمظلمة، أو الانحطاط مؤكداً أنّ كتابة الشعر لم تتوقف، كما استمرت الحركة الفكرية، وتطوّرت لغة القصيدة سواء من حيث بنيتها الشكلية (إيقاعات مختلفة ضمن بنية واحدة)، أو من حيث استخدام اللغة العامية، وأنواع تعبيرية أخرى (الموشح، الدوبيت، الكان كان، الرّجل، والمواليا)...¹

ويتمسك (أدونيس) بغيره من النقاد بمصطلح (الانحطاط)، لكنّه طرح فكرة مغايرة للآخرين، وهذه الفكرة هي "أنّ فترة الانحطاط قد تكون انحطاطاً بالقياس إلى شاعرٍ عظيم كآبي تمام، أو أبي نواس، أو المُنْتَبِي، أو امرئ القيس، لكنّها بكلّ تأكيد ليست انحطاطاً بالقياس إلى البارودي... إنّها على الأقلّ حققت تطويراً أساسياً في بنية القصيدة، وفي اللغة الشعرية. أمّا البارودي فقد تجاهل هذا التطوير، وعاد إلى الأشكال القديمة"⁽²⁾.

الجمال والتشكيل، وتطورهما في الفكر البلاغي

أولاً: الجمال

الجمال في اللغة، تتسع الآفاق، وتتوّع الآراء، وتتعدّد الأذواق، وينطلق كلّ يدي بدلوه للتعبير، ويندفع الجميع؛ ليعبر عن مضمون الكلمات، وفحوى المفردات بشئى الطرّق، حتّى وإن كانت تلك الكلمات التي يطلقها الإنسان ساذجة، أو بسيطة، لكنّها في مخيلته تعبّر عن مكنونات هذه الكلمة أو تلك المفردة.

ومن هنا اندفع علماء اللغة في معاجمهم يطلقون العنان لقدراتهم اللغوية، وإمكاناتهم العقلية لتفسير هذا المصطلح، والتوسّع في الحديث عن مفرداته، لكن رغم هذا التوسّع تظلّ معظم معاجم اللغة تدور في فلك واحد حول معنى الجمال، قد يكون بينها اشتراك في المعنى، وقد يكون هناك تباعد بحيث يصعب جمع دلالاتها في أصل واحد.

والجمال في لسان العرب "مصدر الجميل، والفعل جمل، وقوله عز وجل: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْمَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦]، أي بهاء وحسن، والجمال: الحسن يكون في الفعل، والخلق، وقد جمل الرجل بالضمّ جمالاً فهو جميل، وجمال بالتخفيف، وجمال الأخيرة لا تكسر، والجمال بالضمّ والتشديد أجمل من الجميل. وجمله أي زينه والتجمل تكلف الجميل، و

(1) يُنظر: أدونيس، الثابت والمتحوّل 3 "صدمة الحداثة"، (ص54، ص55).

(2) المرجع السابق، ص55.

جَمَلَ اللهُ عَلَيْكَ تَجْمِيلًا إِذَا دَعَوْتَ لَهُ أَنْ يَجْعَلَ اللهُ جَمِيلًا حَسَنًا، وَامْرَأَةً جَمَلَاءَ وَجَمِيلَةً وَهُوَ أَحَدٌ مَا جَاءَ مِنْ فَعْلَاءَ لَا أَفْعَلَ لَهَا؛ قَالَ:

وَهَبْتُهُ مِنْ أُمَّةٍ سَوْدَاءَ لَيْسَتْ بِحَسَنَاءَ وَلَا جَمَلَاءَ

وَقَالَ الشَّاعِرُ:

فَهِيَ جَمَلَاءُ كَبَدْرٍ طَالِعِ بَدَّتِ الْخُلُقَ جَمِيعًا بِالْجَمَالِ

وَفِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ: ثُمَّ عَرَضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ حَسَنَاءُ جَمَلَاءُ أَيَّ جَمِيلَةٍ مَلِيحَةٍ، وَلَا أَفْعَلَ لَهَا مِنْ لَفْظِهَا كَدِيمَةٌ هَطَلَاءُ، وَفِي الْحَدِيثِ جَاءَ بِنَاقَةٍ حَسَنَاءَ جَمَلَاءَ، وَالْجَمَالُ يَقَعُ عَلَى الصُّورِ وَالْمَعَانِي وَمِنْهُ الْحَدِيثُ إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ أَيَّ حَسَنُ الْأَفْعَالِ كَامِلُ الْأَوْصَافِ؛ وَقَوْلُهُ أَنْشَدَهُ ثَعْلَبٌ لِعَبِيدِ اللَّهِ بْنِ عَتَبَةَ:

وَمَا الْحَقُّ أَنْ تَهْوَى فَتُشْفَغَ هَوَيْتَ، إِذَا مَا كَانَ لَيْسَ بِأَجْمَلَ

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَجْمَلٌ فِيهِ بِمَعْنَى جَمِيلٍ، وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ لَيْسَ بِأَجْمَلَ مِنْ غَيْرِهِ، كَمَا قَالُوا اللَّهُ أَكْبَرُ يَرِيدُونَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَالْمُجَامَلَةُ: الْمُعَامَلَةُ: بِالْجَمِيلِ، وَالْمُجَامِلُ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى جَوَابِكَ فَيَتْرَكُهُ إِبْقَاءً عَلَى مَوَدَّتِكَ، وَالْمُجَامِلُ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى جَوَابِكَ فَيَتْرَكُهُ وَيَحْقُدُ عَلَيْكَ إِلَى وَقْتٍ مَا. وَجَامَلَ الرَّجُلُ مُجَامَلَةً لَمْ يُصِفْهُ إِلَّاخَاءً وَمَاسَحَهُ بِالْجَمِيلِ، يُقَالُ: اجْمَلْ إِنْ كُنْتَ جَامِلًا فَإِذَا ذَهَبُوا إِلَى الْحَالِ قَالُوا إِنَّهُ لَجَمِيلٌ، وَجَمَالَكَ أَنْ لَا تَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا، أَيَّ لَا تَفْعَلْهُ، وَالزَّمَّ الْأَمْرَ الْأَجْمَلَ⁽¹⁾.

وَلَمْ يَبْتَعِدْ صَاحِبُ مُعْجَمِ الصَّحَاحِ عَنْ ابْنِ مَنْظُورٍ، يَقُولُ: "وَالْجَمَالُ: الْحُسْنُ وَقَدْ جَمَلَ الرَّجُلُ بِالضَّمِّ جَمَالًا، فَهُوَ جَمِيلٌ، وَالْمَرْأَةُ جَمِيلَةٌ، وَجَمَلَاءُ أَيُّضًا، وَقَوْلُ أَبِي ذُوَيْبٍ:

جَمَالَكَ أَيُّهَا الْقَلْبُ الْقَرِيحُ سَتَلْقَى مَنْ تُحِبُّ فَتَسْتَرِيحُ

يُرِيدُ: "الزَّمَّ تَجَمَّلَكَ وَحَيَاءَكَ، وَلَا تَجْزَعُ جِزْعًا قَبِيحًا: وَالْجَمَالَ بِالضَّمِّ وَالتَّشْدِيدِ: أَجْمَلُ مِنَ الْجَمِيلِ. وَيُقَالُ لِلشَّحْمِ الْمُذَابِ: جَمِيلٌ. وَجَمِيلٌ: طَائِرٌ جَاءَ مَصْغَرًا، وَالْجَمْعُ جَمَلَانٌ مِثَالُ كُعَيْتٍ وَكِعْتَانٍ.

(1) ابن مَنْظُورٍ، لِسَانِ الْعَرَبِ، (ج11/126)، مَادَةُ (جَمَل). وَابْنُ فَارِسٍ، مَجْمَلُ اللُّغَةِ، (ج1، 2/189)، مَادَةُ (جَمَل).

والجُمْلَةُ: واحدة الجُمْلِ. وقد أَجْمَلْتُ الحسابَ، إذا رددته إلى الجُمْلَةِ. وَأَجْمَلْتُ الصنِيعَةَ عِنْدَ فلانٍ، وَأَجْمَلُ فِي صَنِيعِهِ⁽¹⁾.

إِنَّ تَتَبَعَ الدَّلَالَاتِ الْمُخْتَلِفَةَ لمادة (جَمَل)، وجمعها في حَقْلٍ واحدٍ، أو مزجها في بَوْتَقَةٍ وَاحِدَةٍ يبين أنه "رُبَّمَا يكون الأصلُ في استخدام اللفظِ، هو الاستعمال الماديّ الَّذِي يشكّل أكثر الدَّلَالَاتِ اللُّغَوِيَّةِ شيوعاً، ووفرةً، وهو إطلاقه على الحيوانِ الَّذِي عرفته البيئَةُ العَرَبِيَّةُ، وصحبَ العربيّ فِي حِلِّهِ، وتَرَخَّاله فِي الصَّحْرَاءِ، فالجملُ فِي نظرِ العربيّ، محبَّبٌ إلى نفسه، قريبٌ إلى ذاته حتَّى قِيلَ: إِنَّهُ عَدَا كَأحدِ أَبْنائِهِ يسعدُ برؤيته، ويستمتعُ إلى شكواه، ويشاركه تعبهُ ونصبه، قال الشَّاعِرُ:

شَكَى إِلَيَّ جَمَلِي طَوْلَ السَّرَى صَبْرًا جَمِيلًا فَكَلَانَا مُبْتَلَى⁽²⁾

وَلَمْ يَقِفِ الأَمْرُ عِنْدَ هَذَا الحَدِّ، فقد نشأت بين العربيّ، وناقته ألفةٌ كالتّي تنشأ بين البشرِ، فقد صوّر "الفنهم له، وتفاعلهم معه، وكأنّه يشاركهم فرحهم، وإحساسهم بالتعبِ والأذى، أو السُّرورِ، والرِّضا، وقد يتجسّد هَذَا فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ الَّذِي صوّر لنا معاناته من رحلته الطَّوِيلَةِ، بحيثُ أَضْفَى على جملة صوراً إنسانيَّةً حين أشعرنا أنّه شاركه الإحساسَ بالتعبِ، وطولِ الرِّحْلَةِ"⁽³⁾.

ومنَ الجَمَالِ اشتقتُ دلالاتٌ كثيرةٌ لها علاقةٌ بالحسنِ، والدُّوقِ الرِّفيعِ، وهي صفةُ المجاملةِ، يقال: جامَلَ الرَّجُلُ مجاملةً إذا بادله الجَمِيلَ، ووصف الإخاءِ، فكأنَّ المِجَامِلَ هو الَّذِي يظهر الحَسَنَ من خلقه في تعامله مع الآخرين.

الجَمَالُ اصْطِلَاحًا، إِنَّ المِتَبَّعَ لدلالاتِ الجَمَالِ فِي مَعَاجِمِ اللُّغَةِ، يجد وشائجَ كثيرةً بين المَعْنَى اللُّغَوِيَّةِ، والمَعْنَى الاصْطِلَاحِيَّةِ، وَالَّذِي يجمع هذه الدَّلَالَاتِ الْمُخْتَلِفَةَ هو أَنَّ لفظَ الجَمَالِ يحمل دلالاتِ الحَسَنِ فِي كلِّ شيءٍ الخَلْقِ والخُلُقِ، وهَذَا قريبٌ من المَعْنَى الاصْطِلَاحِيَّةِ الَّذِي يتداوله الكُتَّابُ فِي مجالِ الأَدَبِ، والفنِّ.

(1) الجَوْهَرِيُّ، الصَّحَاحُ- تاج اللغة، وصحاح العَرَبِيَّةِ، (ج5/2041) مادة (جمل)، والزيات ، المُعْجَم الوَسِيطُ- مجمع اللغة العَرَبِيَّةِ، (ج1/136).

(2) البيت فِي لِسَانِ العَرَبِ، (ج14/140) مادة (شكا). سيبويه، الكتاب، (ج1/321). هَذَا البيت نسب لشاعر مغمور اسمه الملبد بن حرملة فِي المرزبان السِّيرافي، شرح أبيات سيبويه (ج1/317).

(3) الصَّفَّار، التَّشْكِيلُ اللُّوْنِيُّ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، (ص37).

مفهومُ الجَمالِ، والجَميلِ، والجَماليَّةِ

قدَّمَ الثُّرُثُ العربيُّ العديِدَ من الرُّؤى الجَماليَّةِ في معالجةِ كَثيْرٍ من قَضائِيا الأدبِ، والفنِّ، واللُّغةِ، والبلاغةِ، فضلاً عن قَضائِيا الحَيَاةِ، والدِّينِ سِوَاها أتلَعَت بِمِساَلَةِ الشَّكْلِ الفنِّيِّ، أم تعلقَت بالمضمونِ. ولم تبرح قضيَّةُ الجَمالِ العُلَماءُ العربِ في الميادينِ كافَّةً، فقد جسدَ هؤلاءُ المعاييرَ الجَماليَّةَ في كُلِّ نمطٍ إبداعِيٍّ، وإن لم تصلْ إلى صفةِ الشُّموليَّةِ، أو إلى صفةِ الكَمالِ.

ولا يبتعدُ العُلَماءُ عن ذلكَ كَثيْراً، فمن يطَّلِعُ - مثلاً - على علمِ البلاغةِ العربيَّةِ "يدركُ بكلِّ وضوحٍ أنَّ مُصنَّحَ البلاغةِ الَّذي جعله البَلاغِيُّونَ العربُ غالباً مماثلاً للفصاحةِ، وكلاهما ملازمٌ للبيانِ، إنَّما يحملانِ ملامحَ الصِّفاءِ، والنِّقا، والبَهاءِ، والجودةِ والإتقانِ، والوضوحِ، والدقَّةِ في الدَّلالةِ، والاختيارِ، وتنقيَّةِ كُلِّ أسلوبٍ من أيِّ لفظٍ يشينه، تحسِيناً وتزيِيناً؛ ليغدو النَّصُّ متلاحماً الأجزاءِ، عذباً رقيقَ الحواشيِ، بعيداً عن التقيُّدِ، والغُموضِ، والهشاشةِ، والضعفِ والتنافرِ. إنَّه قطعةٌ نسيجِ حَبِرةٍ دقيقةِ الصُّنعِ، ناعمةِ الملمسِ، قويَّةِ التأثيرِ، مثيرةٌ للعاطفةِ والفكرِ معاً"⁽¹⁾.

إنَّ البَاحِثَ في أساليبِ البلاغةِ العربيَّةِ يدركُ أنَّ المتكلمَ لا يكتفي بأن يعرضَ أسلوبه بشكلٍ تقريرِيٍّ مباشرٍ؛ وإنَّما قد يرسله على سبيلِ المجازِ، مستخدماً أساليبَ مرافقةً له، كالترصيعِ، والنَّصْرِيَّةِ، والإشارةِ، والتلويحِ، والتجنيسِ، والتَّرديدِ؛ ليزيدَ كلامه تألقاً وإشراقاً، وتزداد كتاباته بهجةً وجَمالاً، وهذا كُلُّه من عَناصِرِ الجَمالِ التي يسعى الجَميعُ إلى الاستمتاعِ بها.

وكلُّ مادةٍ ترتقي إلى البلاغةِ والفصاحةِ إنَّما هي شكلٌ جَماليٌّ، أو قُلْ إن شئتَ تشكِيلاً جَماليًّا؛ وكذلك كلُّ ما يتعلَّقُ بأحوالِ الإسنادِ، والدُّكرِ، والحذفِ، والتَّعريفِ، والتَّنكيرِ، والإيجازِ والإطنابِ، والوصلِ والفصلِ، وكلُّ ما يتعلَّقُ بالبيانِ من تشبيهِ، واستعارةِ، وكنايةِ، وتعرِيضِ، وجميعِ ما يرتبطُ بالبدِيعِ من طباقِ، ومقابلةِ، وسجِّعِ، وجناسِ، كُلُّها مَشاهدٌ حيَّةٌ من مَشاهدِ الجَمالِ التي تبهرُ الألبابَ، وتخلبُ الأفتدةَ، والقلوبَ.

وإذا تحرَّكنا قليلاً مبتعدين عن البلاغةِ، إلى ميادينِ أُخرى، نجدُ أنَّ الجَمالَ يحملُ مفاهيمَ أُخرى، قد تكونُ مُتنوِّعةً، ومن هنا رأَى آخرونَ "أنَّ الجَمالَ يتركَّبُ - فقط - من نظامِ

(1) جمعة، جَماليَّةُ الكلمة، دراسة جَماليَّةُ بلاغيَّةُ نقدِيَّة، (ص21).

الأشياء، أو الظواهر وفق مفاهيم أرسطو⁽¹⁾، ومن ثم فإنّ "الجمال هو التعبير الجمالي الناجح عند كروتشه"⁽²⁾.

لقد غزا الجمال جميع الفنون والآداب، وسيطر على مناحي الحياة كافة، وعلى كثير من الأنماط الإبداعية الإنسانية، بيد أنّ الجمال وقع في الإبداع البلاغي، وكان وقعه أشدّ لاسيما حين حرصت أساليب البلاغة على استخراج أسرار الجملة اللغوية، والنحوية، والأدبية في وقت واحد؛ لتصل بالكلام العربي إلى مرتبة البيان الناصع المؤثر الساحر الذي يثير النفس، والفكر إذا سمعه البلغاء؛ كما جرى مع سيد المرسلين، مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حين استمع إلى عمرو بن الأهم⁽³⁾، وأعجب بقوله فقال: "إنّ من البيان لسحرا"⁽⁴⁾، ولعلّ هذا كلّ ما جعل ابن الأثير يربط بين البيان، والجمال؛ فيقول: "شيئان لا نهاية لهما: البيان، والجمال"⁽⁵⁾.

إنّ الجمال في أساليب العربية، أدباً، ونقداً، وبلاغةً غداً غاية الدراسات الحديثة؛ وذلك لاعتبار الأساليب الإبداعية التعبيرية إنتاجاً إنسانياً جمالياً؛ وباعتبار أنها تماثل الجمال الذي تلتقطه الحواس من الطبيعة، والأشياء، والظواهر. فالجمال يرتبط بالظواهر الطبيعية؛ وكذلك يتصل بكلّ إبداع إنساني من جهة الشكل غالباً؛ بينما الجميل يحتاج إلى الحواس والشعور معاً، وهو يرتبط بالقيود والقوانين على الرغم من أنّه يبدو مستقلاً عنها، فهو يراعيها، ويتفق معها. أمّا

(1) إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنة، (ص43).

(2) يُنظر: مطر، فلسفة الجمال، أعلامها ومذاهبها، (ص193- ص196)، العشاوي، فلسفة الجمال في الفكر المعاصر، (ص21- ص23). وإسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنة، (ص53). بندتو كروتشه - B-Croce (1866- 1956م) فيلسوف إيطالي من أتباع المدرسة الهيغلية الجديدة، وأستاذ بنابولي (1902-1920م)، وقد ظهر كروتشه قرب نهاية القرن التاسع عشر بنقد للنظريات الفلسفية، والاقتصادية للماركسية.

(3) يُنظر: ابن كثير، البداية والنهاية، (ج5/45، 46). هو عمرو بن سنان بن سمي بن سنان بن خالد المنقري التميمي، أبو ربيعي، لقب أبوه ب (الأهم) لأنّ ثنيتة هُتمت يوم الكلاب. وهو سيّد من سادات قومه، كان خطيباً بليغاً، شريفاً جميلاً، وكان يقال لشعره (الحلّ المنشرة). وفد على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وفد بني تميم، فلقى إكراماً وحفاوة، ولما تكلم بين يدي النبي أعجبه كلامه، وسأله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الزبرقان بن بدر (الشاعر) فمدحه، ثم هجاه ولم يكذب في الحالين، فقال المصطفى عليه الصلوة والسلام: (إنّ من الشعر حكماً، وإنّ من البيان سحراً). لم يكن في بادية العرب في زمانه أخطب منه، وهو صاحب البيت السّيار

المشهور: لَعْمَزَكَ مَا ضَاقَتْ بِلَادُهُ بِأَهْلِهَا وَلَكِنْ أَخْلَقَ الرَّجَالُ تَضِيقُ

(4) [مسلم: صحيح مسلم، كتاب (الجمعة)، 594/2: رَقْمُ الْحَدِيثِ 869].

(5) ابن الأثير، المثل السائر، (ج1/40).

الجمال فإنه يظل مرهوناً بالتذوق الفردي، ورهافة الحس، ودقته، وسلامته، ما يجعله متحرراً من كل قيد إلا ذلك. وتتمثل الأشكال الجمالية في الفن المبدع بظواهر أسلوبية عدة؛ فهي تتمثل في التناظر والإيقاع، والتوازن، والتناغم، والتوافق، والتنوع، مع الوحدة، والتناسب، والتصوير، ونظام التأليف، وحينما يلج الجمالون على الشكل في مفهوم الجمال، فإنهم يرون أن الجميل إنما هو تجلي الروح، والأفكار في الأشياء، والظواهر. والجميل في الفن، والأدب، والبلاغة هو نهاية المطاف من جهة ما تعرف له المضامين، أما الجليل فهو يتطلع إلى مقام رفيع سام يتجسد بالوجود الإلهي، وكل مثل أعلى للجمال.

ومن المصطلحات التي ترتبط بالجمال، مصطلح الجمالية، وهذا المصطلح يحمل دلالة على كل شيء جميل، أو أنها معنى الجمال، البيان، البلاغة في الأدب، والفن، وأساليب البلاغة العربية، وكأنها لون من ألوان الإبداع في الجمال، ولو مثل حالة من التناغم بين الشكل والموضوع. وإنما نتناولها باعتبارها منهجاً تحليلياً لدراسة نقدية فنية أدبية بلاغية يماثل المنهج الواقعي، أو النفسي، أو الرمزي، أو الاجتماعي، منهجاً يعالج جمالية النص الإبداعي كالدقة، والجودة، والإتقان، نظام التركيب وتناسبه، وإيقاع ألفاظه وصوره، لهذا تتعلق الجمالية بالتجربة الجمالية ذاتها من جهة الشكل، والمضمون⁽¹⁾؛ وتماثل ما أطلق عليه بعض الباحثين (المنهج الجمالي) الذي يركز في أساسه على نظرية (علم الجمال: الإستيقا)؛ ويحكم بها الناقد، أو البلاغي على الأشياء سواء كانت طبيعية أم مصنوعة، أم كانت إبداعاً فنياً أو لغوياً أو أدبياً، و بأحكام جمالية، كأن توصف بأنها جميلة، أو فائتة، أو ذميمة، أو مثيرة للسخرية⁽²⁾، علماً بأن الإبداع في النقد الأدبي يتركز بأربعة أشياء (العاطفة، والفكرة، والأسلوب، والخيال)⁽³⁾. فالخيال صانع للصور الجمالية التي تلبى جملة من الأهداف، والوظائف. والجمالية هي دراسة جملة من المسائل مجتمعة، أو منفردة؛ مثل: ما الجمال؟ ما الغاية التي يقوم عليها نص ما، مهما كان حجمه، وجنسه؟ ما علاقة الشكل بالمضمون في أي نمط إبداعي؟ ما العناصر التي تشترك في صياغة نص ما، وتكون ملامحه ووظيفته؟ إنَّها أسئلة كثيرة يسعى المنهج الجمالي (الجمالية) للإجابة عليها⁽⁴⁾ بروح موضوعية بعيدة عن العواطف، والأفكار المسبقة.

(1) يُنظر: جيروم، النقد الفني، دراسة جمالية وفلسفية، (ص3). والثانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، (ج1/187).

(2) يُنظر: عبدالله، مقدمة في النقد الأدبي، (ص48).

(3) أمين، النقد الأدبي، (ص22).

(4) يُنظر: لؤلؤة، موسوعة المصطلح النقدي، (ص273).

بهذا كله نحن نقف مع العديد من الباحثين الذين توسعوا في مفهوم الجمالية، وإن كان أكثر منظرها لا يقيمون اعتباراً ولا وزناً لمضمون النص، ووظيفته، وغايته أيّاً كان نوعه تاريخياً أم اجتماعياً، نفسياً أم فنياً، خلقياً أم دينياً؛ لغوياً أم بلاغياً؛ موسيقياً أم أدبياً⁽¹⁾.

وعند معالجة أي أسلوب بلاغي، فإنه يلزم الوُفوف عند بنينه كاملة من جهة الشكل والمضمون؛ في دلالاته الحقيقية، والمجازية الموحية بالظلال المعنوية الكثيرة من ناحية، وعدم إهمال قيمته الخلقية، لأن من يسعى إلى ذلك لا تمنعه آراء العديد من الذين رفضوا الوظيفة، والغاية الخلقية النبيلة في الإبداع من أصحاب النظرية الجمالية؛ فذهبوا إلى أن البحث في الأدب، أو الفن، أو أي إبداع آخر عن الوظيفة، والغاية السامية إنما هو أمر مضحك؛ فالأخلاق، والقيم، والصدق في القول، والفكر، والحياة لا يبحث عنه إلا الأنبياء، والمصلحون. ومن هنا رأى بعض الباحثين الجماليين أن الأخلاق ليست من معايير الجمال، فلم يحكموا على الأعمال الخيرة بالجمال؛ والشريعة بالقبح، وإنما نظروا إلى العناصر الجمالية باعتبار نظامها⁽²⁾.

والجمالية مصدر صناعي يقابل الجمالي؛ ولهذا فهو من جهة اللفظ الاصطلاحي يرادف عند بعض الباحثين "مفهوم (الشكلي، أو الفني) باعتباره بنية"⁽³⁾، على حين أصبحت نظرية النقاء الفني الجمالي عند تيار آخر تتمثل في تلك البنية الشكلية لمصطلح الجمالي/الجمالية⁽⁴⁾.

أما الجمالية فقد دار حولها جدل عظيم ارتبط بدلالاتها، وطبيعتها باعتبار أنها تشكل جوهر التجربة الجمالية؛ لأنها نظرية النقاء الفني الجمالي⁽⁵⁾ في عناصرها وفي آلياتها. فالجمالية - عند بعض النقاد - هي دراسة مسائل؛ مثل: "ما الجمال؟ ما علاقة الشكل بالمضمون في الموضوع الجمالي؟ ما الذي تشترك فيه الفنون المختلفة من عناصر الجمال؟"⁽⁶⁾.

ومهما تشعبت الآراء في مفهوم الجمالية؛ فإنها تعدّ منهاجاً تحليلياً نقدياً لدراسة البنية اللغوية، والأسلوبية، وما تؤسسه من دلالات، ووظائف، وأهداف؛ لأن النص الإبداعي أيّاً كان جنسه يؤكد خصائصه باتجاهين: الشكل والمضمون؛ ولا فصل بينهما، مما يحقق للنص صورته

(1) إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنة، (ص43).

(2) يُنظر: المرجع السابق، ص86.

(3) الطاهر، مقدمة في النقد الأدبي، (ص434).

(4) يُنظر: العشماوي، فلسفة الجمال في الفكر المعاصر، (ص52).

(5) جيروم، النقد الفني، دراسة جمالية وفلسفية، (ص3).

(6) لؤلؤة، موسوعة المصطلح النقدي، (ص273).

الإيجابية الفعالة، ومن ثمّ يجسّد حقيقة الجمال بكلّ خصائصها الدلالية؛ لأنّ للكلام جسداً وروحاً، وكذا لكلّ جسمٍ جوهرٌ، وحقيقةٌ، وأيّ أسلوبٍ بلاغيٍّ مهما قيل فيه قديماً وحديثاً. إنّما هو بنية لغويةٌ دلاليةٌ مباشرةٌ، وغير مباشرةٍ، يحمل وظائف الإثارة، والإمتاع في الوقت الذي يحمل وظيفة التوصيل، والإبلاغ، والإفادة بنقل الأفكار، ولهذا فوظيفة الأسلوب البلاغي ذات وجوه متعدّدة، بعكس الأسلوب العادي بين الناس، ومن ثمّ تتجاوز الأسلوب الأدبي في الشعر والنثر، وإن اقترب في وظيفته مع الأسلوب البلاغي من بعض الوجوه.

فالأسلوب البلاغي بوصفه ظاهرة بلاغية تجمع بين عناصر الأدب، والفن، واللغة، والحياة في بنية فنية مثيرة للعاطفة، والوجدان، والعقل، باعتبار ما تكتنزه من أسرارٍ موحية في الشكل، والمضمون. وما على القارئ المرفه المثقف الذي حاز الشروط الذاتية؛ ثم الموضوعية إلا أن يدرك مكونات كلّ أسلوبٍ، ويستوعبه ليفهم إشارات القريية، والبعيدة، دون أن يقع في إشكالية الأحكام الذاتية والانطباعية، المسبقة، والجاهزة. فالإحساس بالجمال استجابةً روحيةً، وموضوعيةً لعناصر الجمال في الأشياء، والظواهر. وإذا كانت الأحكام البلاغية الجمالية قد تباينت بين متلقٍ وآخر قديماً، وحديثاً لهذا الأسلوب، أو ذلك مع محاولة استكناه كل ما قيل فيه، والتعمق في فهم الظاهرة البلاغية القرآنية للوصول إلى تجربة جمالية جديدة في أسلوب الخبر، والإنشاء. وهو ما سعى إليه من قبل عدد من الباحثين، والدارسين في تناول جماليات الكلمة البلاغية⁽¹⁾. ومن هنا يمكن القول: إنّ السعي إلى تجاوز الرؤية الجمالية الجزئية التي استند إليها البلاغيون العرب القدماء؛ لبلوغ مرتبة الشمول وفق مبدأ التنظير، والتطبيق للرؤية الجمالية لدراسة الأسلوب البلاغي؛ وإن اجتزئ من نصّ أدبي، أو لغويّ أكبر. وهو الأسلوب الذي أسسه البلاغي الفدّ عند القاهر الجرجاني في نظرية (النظم)، وفي مصطلح (الهيئة) الذي يبنى على الصورة، والدلالة... وكذلك فعل عدد آخر غيره في النظر إلى الأسلوب البلاغي في سياق نصّي متكامل، ولاسيما ما كان عند البلاغيين الذين تناولوا النصّ القرآني، كالباقلائي، الرّمخشري، والرّماني.

ولا يمكن أن يساور الباحث الشك لحظة واحدة في أنّ البلاغيين العرب القدماء قد توفّقوا عند شكل الجملة اللغوية؛ ولكنهم لم يروا هذا الشكل محايداً بذاته. فقد ارتفع مفهوم التدوّق الفني البلاغي لديهم حينما انتهوا إلى أنّ أيّ شكلٍ بلاغيٍّ يحمل في طبيعته الجمالية وعي الإنسان لما يحيط به، بطريقة إرادية، أو لا إرادية. وبهذا ارتقوا عن مفهوم الجمال الطبيعيّ المجسّد في

(1) يُنظر: تليمة، مدخل إلى علم الجمال الأدبي، (ص22- ص25).

ماهية الأسلوب اللغوي. فاللغة، والصورة، والخيال، والإيقاع أدوات يتجسد فيها مضمون ما؛ ينطوي على وظائف متنوعة، وأهداف كثيرة؛ مما يحقق للشكل البلاغي الجمالي فلسفة تفسير الوجود، والكون، والمصير.

ولهذا كله فإنّ البلاغيين والنقاد القدماء قد أغنوا الأساليب البلاغية بنظراتهم الجمالية والفلسفية، ولاسيما ما يتعلق بالبلاغة القرآنية. ولما اختلفت تفسيراتهم لمعنى الشكل البلاغي - أحياناً - فإنهم أمّدوا الحضارة بتنوع لا نظير له من الفكر، والفن في كل أسلوب من تلك الأساليب. فالوجدان الجمالي الحقيقي في كل أطيافه انبثق من الشكل - دون ريب - ولكن عناصره لم تتقيد عندهم بزمان ما، أو مكان ما، أو سبب ما. فالتذوق الذي مارسوه على الشكل انخرط في صميم التجربة الإبداعية، فاستمدوا منه العديد من الرؤى الفكرية، والفنية التي لا يستطيع عامة الناس أن يستنبطوها. وكانوا كلما انغمسوا في الأسلوب البلاغي انغمس الصوفي الناسك، واستغرقوا في عالمه الخاص، كانوا يستخرجون ضروباً من الجمال الموحية بالصفاء، والنقاء، والبهاء. ومن ثم أكدوا أنّ الصورة اللغوية والبلاغية ليست مجردة؛ بل هي صورة تعيش في عالم الحياة، وتستجيب على الدوام لكل انفعال، ولكل فكر. فطلت أعمالهم خالدة حية في وجدان الدارسين الغربيين المُنصفين الذين اعترفوا لهم بالفضل، والريادة. ولعلّ هذا كله ما يبدو جلياً في جمالية مُفردات علوم البلاغة كافة.

إنّ الجمال مقترن بالبلاغة، والفصاحة، والبيان بمثل ما هو مقترن بالجودة، والإتقان، والدقة، وإنزال الألفاظ في مواضعها من نظامها الدقيق المؤتلف. فالجمال هو نظام التوافق، والتوازن، والتناظر، والرونق في الديباجة، والتناسب فيهما. ومن ثم فمن يتأمل مسائل الجمال في البلاغة العربية عامة، وفي علومها بصفة خاصة يدرك مدى الانسجام المطلق القائم على خطوط متوازنة، ومُنوّعة في إطار الوحدة، والتنوع، والمحل سواءً بأثرها في النفس، وما ترسمه من تشكيل مبدع كتب للبلاغة العربية الخلود. وبيان ما تتركه علاقة الجمال بالفن، وفي طبيعته فنّ البلاغة.

ويُعدّ التجانس بين العناصر من أهم قواعد الجمال؛ لذا فإنّ "قدامة ناقد شكلي يرُدُّ علّة الجمال في الشعر إلى ما ينطوي عليه من تجانس بين العناصر، والأجزاء، وهو يُحاول - بالتركيز على الصياغة - تبرير قيمة الشعر، تلك القيمة التي ترتد إلى صورة القصيدة، والتي لا يمكن أن تفهم منفصلة عن عناصرها، والتي يحددها أخيراً علم يميّز الجيد من الرديء في الشعر"⁽¹⁾.

(1) عصفور، مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي، (ص128، ص129).

الجمال في الفكر الفلسفي، والفني

لم يبرح مُصطلحَ الجَمالِ فكرَ الفلاسفةِ، والأدباءِ قديماً، وحديثاً، بل شغلَ عقولهم، واختلفوا في بيانِ مهمته، ووظيفته، وتحديدِ قيمته، وضوابطه بدءاً من فلاسفةِ اليونانِ الذينَ تذوّقوا الجَمالَ، واستطردوا في الحديثِ عنه، حتى الفلاسفةِ العربِ، والمُسلمينَ الذينَ استقوا مشاهدَ الجَمالِ من القرآنِ الكريمِ، ثم الفلاسفةِ، والفنّانينَ في العَصْرِ الحديثِ الذينَ لم يتركوا باباً من أبوابِ الجَمالِ إلا وطَرَفُوهُ.

لقدَ عرفَ الإنسانُ الجَمالَ، وأحسَّ به منذ أن وُجدَ على ظهر هذه البسيطةِ، ولفَتَ انتباهه مشاهدَ الجَمالِ حوله، فالأشجارُ الباسقةُ، والزُّروعُ الخضراءُ بالألوانِ المتعدِّدةِ، والأشكالِ المتنوّعةِ، وكلُّ ما حرَّكَ بصره في أيِّ مكانٍ بهرته الرُّوعَةُ، وكلُّ ما أطرقَ في كلِّ زمانٍ جذبَه الجَمالُ، وبهرته النُّجومُ المتلألئةُ، والقَمَرُ المنيرُ، وجذبَ انتباهه الشَّمسُ الساطعةُ، ونسماتُ الفجرِ التي تبدو كالحريرِ.

بدأت أَمامَهُ مشاهدُ السَّعادةِ، ولوحاتُ الهناءِ، وسيطرت على مخيلته، فأطلق العنانَ لريشته ليبدعَ أجَمَلَ اللُّوحاتِ، وظهرت أَمامَهُ صورَ الرُّعبِ والخوفِ، حرَّكت دوافعه، فمَنحَ الحُرِّيَةَ لقلمه ليكتبَ أجَمَلَ الكَلِماتِ، دُونَ النَّظَرِ إلى بساطةِ ما يرسمُ، أو الاهتمامِ بسداجةِ ما يكتبُ، لا يحركُ ريشته، ولا يقلبُ قلمَهُ سوى مبدأ المنفعةِ.

إنَّ بداياتِ الحديثِ عن الجَمالِ لا يمكنُ أن توثِّقها أزمانٌ، فالإنسانُ بالفطرة، وبلا أيَّةِ مقدّماتٍ انصهرَ في بوتقةِ الجَمالِ، وانسجمَ مع مكوناته، وإن أَرجعَ بعضَ الباحثينَ بداياتِ علمِ الجَمالِ في العالمِ القديمِ إلى القرنِ التاسعِ قبلَ الميلادِ، حيثُ ازدهرت حضاراتُ الشرقِ القديمِ في بلادِ الرافدينِ، وحوضِ نهرِ النيلِ، وآسيا الصُغرى، وهُنَا "يكفي أن تنظرَ إلى حضارةِ بابلِ، وآشورِ، وسومرِ، وآرامِ، وحضارةِ مصرِ الفرعونيةِ، والصِّينِ، والهندِ، والسُّندِ، وغيرها لتشيّد برقيّ الفنِّ، والآدابِ في آثارها الباقيةِ على امتدادِ عصورِ التاريخِ"⁽¹⁾.

لقدَ برَعَتِ الحضاراتُ القديمةُ في تصوّيرِ مشاهدِ الجَمالِ عن طريقِ الدقّةِ في استعمالِ الأشكالِ في النقوشِ البارزةِ، والرَّسْمِ والبراعةِ في استخدامِ الألوانِ. ويبرزُ في هذا الميدانِ اليونانيونَ، أما مفهومُ الجَمالِ عندهم فقد كان "نقطة انطلاقٍ لفلسفةٍ معينةٍ من الحياة، فقد كانت تلكَ الفلسفةُ من الفلسفاتِ التي تطلق الصِّفاتِ البشريةِ على الآلهةِ، ومجدت على القيمِ

(1) سالم، قراءات في علم الجَمالِ حول الإستطيقا النَّظريَّةِ والتطبيقيَّةِ، (ص3). والبرجاوي، فصول في علم الجَمالِ، (ص45).

الإنسانية، ولم تر في الآلهة سوى بشرٍ تضحمت أجسامهم، وكان الفنُّ مثلَ الدينِ تجسيدا للطبيعة وللإنسانِ بوجهٍ خاصٍّ بكونه ذروة مسارِ الطبيعة⁽¹⁾.

نظرَ فلاسفةُ اليونانِ إلى الجمالِ على أنه مثلُ "العدالة والحق"، ليسا ثابتين مطلقاً، ولا يرجعان إلى مصدرٍ إلهيٍّ، وإنما مردُّهما إلى قناعة الناس؛ لأنَّ الفنَّ نشاطٌ بشريٌّ لا يكتسب قيمه الجمالية من التعبير عن مثال مطلق الجمال، ولا هو هبة الآلهة، إنما هو مهارةٌ مكتسبة بالخبرة الإنسانية، والتعليم، وحتى معاني الخير، والعدالة، قابلة للتعلم⁽²⁾.

الجمال في الفكر العربي الإسلامي

تتعدَّد الإحساساتُ البشريَّةُ الداخليَّةُ، وتتغيَّر نتائجُ النظرِ إلى الأمورِ بالبديهة تبعاً لهذا التعدُّد، والنبأين، ولما كان كلُّ شيءٍ في الوجود يعبرُ عن قطعةٍ جماليةٍ بذاتها، خلقها الله الذي أتقن كلَّ شيء خلقه، حاول الكثيرون الوقوفَ بتأملٍ يشدُّ، وورود حوضِ فلسفة الجمال؛ ليشربوا من معينه بعد تنقيتها من الشوائب الدخيلة، والأغراض غير النبيلة، والسَّيرِ قدماً تجاه تدوِّقِ جماليٍّ هو غاية من يبحثون عن الجمال، ويفتشون عن البهاء، والجلال.

أدرك النقادُ والبلاغيون العربُ القداماء مفهومَ الجمالِ، كالجاحظ، وابن قتيبة، وابن طباطبا العلوي، وابن سينا، وابن رشد، والفارابي، وابن رشيق القيرواني، وحازم القرطاجني، وغيرهم كثير، وكان قد سبقهم إلى إطلاقِ الأحكامِ الجماليةِ عبد الله بن المقفع (ت 142هـ) حيثُ قال: "اعلم أنه ستمرُّ عليك أحاديثٌ تعجبك؛ إمَّا مليحة، وإمَّا رائعة، فإذا أعجبتك كنتَ خليفاً أن تحفظها؛ فإنَّ الحفظَ موكلٌ بما راع ومُح⁽³⁾".

الجمال في نظر الجاهليين

لم يعرف العربُ في العصرِ الجاهليِّ علماً للجمالِ، وإنما كان عندهم نظراتٍ حسيَّةً بسيطةً، لا تعطينا تصوُّراً كافياً عن آرائهم الجماليةِ، ولم يصلنا من فنونهم - باستثناء الأدب - ما يكون لدينا نظراتهم في الجمال، والفنِّ؛ لاعتمادهم على الشعرِ، وحصرِ القيمةِ الجماليةِ في مغازلة المرأة، والطبيعة حتى أضحى الشعرُ مرآةً لنفوسهم، وبرزت من خلاله مثلهم العليا، كالكرم، والشجاعة، والمروءة. واللينة الأولى للجمال تجلَّت عند ظهور الإسلام، وقيامه بثورةٍ في

(1) سالم، قراءات في علم الجمال حول الإستطيقا النظرية والتطبيقية، (ص9). البرجاوي، فصول في علم الجمال، (ص54).

(2) مطر، فلسفة الجمال، أعلامها ومذاهبها، (ص15).

(3) ابن المقفع، الأدب الكبير، (ص273).

جَمِيعَ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ، ووضِعَ قِيَمَ أَخْلَاقِيَّةٍ نَبِيلَةٍ، وَسَامِيَةٍ، كَمَا كَانَ لظُهُورِ الْخِلَافَةِ الْعَبَاسِيَّةِ دَوْرٌ كَبِيرٌ فِي ظُهُورِ الْقِيَمِ الْجَمَالِيَّةِ خَاصَّةً بِوُجُودِ مَزِيحٍ مِنَ الْقَوْمِيَّاتِ الْمُخْتَلَفَةِ أَثَرَتْ، وَتَأَثَّرَتْ بِبَعْضِهَا بَعْضًا. فَنظَرَةُ الْعَرَبِ لِلْجَمَالِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ كَانَ مَعكُوسًا عَلَى الْأَشْيَاءِ الْمَادِيَّةِ الْحَسِيَّةِ، مِثْلَ جَمَالِ الْمَرْأَةِ، وَالْبَعِيرِ، وَالْفَرَسِ، وَالْأَطْلَالِ، فَقَدْ دَفَعَتْ طَبِيعَتُهُمُ الْبَسِيطَةَ، وَفَطَرَتُهُمُ الصَّافِيَةَ إِلَى التَّلَقُّ بِكُلِّ جَمِيلٍ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ هَذَا مَادِيًّا، وَهَذَا مَا نَقَلَهُ النُّقَادُ: "وَنَرَاهُمْ يَقْفُونَ عِنْدَ الْمَرْأَةِ فَيَصْفُونَ جَسَدَهَا، وَلَا يَكَادُونَ يَتْرَكُونَ شَيْئًا فِيهَا دُونَ وَصْفٍ لَهَا، إِذْ يَتَعَرَّضُونَ لِجَبِينِهَا، وَخَدَّهَا وَعَنْقِهَا، وَصَدْرَهَا، وَعَيْنِهَا، وَفَمِّهَا، وَرِيقِهَا، وَمَعْصَمِهَا، وَسَاقِهَا، وَثَدْيِهَا، وَشَعْرَهَا، كَمَا يَتَعَرَّضُونَ لِثِيَابِهَا، وَزِينَتِهَا، وَحَلِيِّهَا، وَطَيِّبِهَا، وَحَيَاتِهَا، وَعَفْتِهَا، وَقَدْ يَتَعَرَّضُونَ لِبَعْضِ مَغَامِرَاتِهِمْ مَعَهَا"⁽¹⁾.

الْجَمَالُ فِي الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ

أَمَّا الْإِسْلَامُ فَقَدْ جَاءَ لِيَلْفِتَ الْأَذْهَانَ، وَالْقُلُوبَ، وَالْعُقُولَ جَمِيعًا إِلَى الْجَمَالِ الْحَقِيقِيِّ، وَلَيْسَ مَعْيَارَ الْجَمَالِ فِي الْإِسْلَامِ بِهَاءَ الصُّورَةِ، وَحَسْنَ الطَّلَعَةِ، وَالتَّنَاسُقِ بَيْنَ أَعْضَاءِ الْجَسْمِ، وَلَيْسَ مَنطَلِقُهُ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ تَتَبَعَتْ مِنْ صَاحِبِهَا، إِنَّهُ الدِّينُ الَّذِي لَا يَغْفُلُ الْفَطْرَةَ، بَلْ يَذَكِّيهَا، وَيَنْمِيهَا، وَيَحْتُ أَهْلَهُ، وَمَتَّبِعِيهِ عَلَى أَنْ يَعْمَلُوا وَفَقَّ الدَّلَالَاتِ الدَّعْوِيَّةِ الْمُبَاشِرَةِ، وَلِهَذَا فَلَيْسَ غَرِيبًا أَنْ نَقْرَأَ أَنَّ الرَّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يَرْجُلُ شَعْرَهُ، وَيَغْسِلُ ثَوْبَهُ، وَيَهْدُبُ شَكْلَ عَمَّتِهِ إِذَا وَضَعَهَا حَتَّى يَبْدُو مَظْهَرُهُ الْعَامُّ عَلَى أَفْضَلِ شَكْلِ، وَأَحْسَنِ طَلَعَةٍ، وَكَذَا كَانَ سَائِرُ الصَّحَابَةِ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - سِوَى مَنْ زَهَدَ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِ الْإِطْلَاقِ مِنْ أَمْثَالِ أَبِي ذَرِّ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: "إِنَّمَا حُبُّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا: النِّسَاءُ، وَالطَّيِّبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ"⁽²⁾، وَمَعَ كُلِّ هَذَا لَمْ يَكُنْ يَصِلُ بِهِ، وَبِصَحَابَتِهِ حُبَّ الْجَمَالِ، وَالهِيئَةَ الْبَهِيَّةَ إِلَى حَدِّ الْإِغْرَاقِ فِي هَذِهِ الطَّيِّبَاتِ، الَّتِي تَنْقَلِبُ عِنْدَ الْإِكْتَارِ مِنْهَا فِي غَيْرِ فَائِدَةٍ إِلَى خِبَائِثٍ، بَلْ حَصَلُوا فِي ذَلِكَ التَّوْازِنِ الْجَمِيلِ، فَلَا إِفْرَاطَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَجْمَلَاتِ، وَلَا تَقْرِيطَ بِتَرْكِهَا، بِحَيْثُ تَبْدُو هَيْئَةً أَحَدَهُمْ حَسَنَةً غَيْرَ مَنْقُورَةٍ، وَرَائِحَتُهُمْ طَيِّبَةٌ غَيْرَ شَائِنَةٍ.

أَمَّا الْفُرْزَانُ الْكَرِيمُ، فَإِنَّهُ يَنْقَلِبُ صُحْبَةَ الْجَمَالِ إِلَى مَعَانِي السُّمُوءِ، وَالْعُلُوقِ، وَالزُّهْدِ فِي الْمَادِيَّاتِ حُبًّا فِي الْمَعْنَوِيَّاتِ، وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ الْجَمَالَ فِي السُّورِ، وَالْآيَاتِ كَانَ "بَاعْتًا الْحَيَاةَ فِي الْمَعَانِي الْمَقْصُودَةِ، مُحَرِّكًا الْانْفِعَالَاتِ، مَثِيرًا لِمَشَاعِرَ شَتَّى تَرْتَسِمُ فِيهِ الْقِيَمُ الْجَمَالِيَّةُ، فَتَحْرُكُ

(1) ضيف، تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي، (ص212، ص213). يُنظَر: عبد الرحمن، الشعر الجاهلي - قضاياها الفنيَّة والموضوعيَّة، (ص277- ص279).

(2) [النسائي، المجتبى من السنن، كتاب عشرة النساء، باب (1)، حب النساء، ج61/7: رقم الحديث 3939].

الوجدان، خوفاً وخشية، راحةً واطمئناناً، رعباً وفرعاً، وشعوراً بالرَّاحةِ النَّائمةِ، كلُّ هذه البواعثِ الجَماليَّةِ تشكِّلُ طاقةً كبيرةً يحركها القرآنُ الكريمُ في نفس القارئِ المؤمنِ، تدعوه إلى التَّروُّدِ بها، وتوجِّهه ميوله الخياليَّةِ، وترسمُ في ذهنه انطباعاتٍ جماليَّةً تحيطُ بنفسه، وبيئته، والكونُ أجمع، أرضاً، وسماءً، ونباتاً، ومخلوقاتٍ أُخرى من بشرٍ، وحيوانٍ⁽¹⁾. وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ الطَّاقَةَ الجَماليَّةَ في ظواهرِ الكونِ كَانَتْ، ولا تزال، وستظلُّ محرَّكةً لوجدانِ الإنسانِ المخاطبِ بالآياتِ الكريمةِ، فكلُّ نظرةٍ، وأيُّ تأمُّلٍ لها كفيلاً بملءِ العينِ جَمالاً، وإحساساً بهذا الجَمالِ. كما أنَّه باعثٌ لتثبيتِ الأُفئدةِ، والربطِ على القلوبِ لتكونَ من المؤمنينَ.

ويبدو الانسجامُ مصدرًا من مصادرِ الطَّاقةِ الجَماليَّةِ في القرآنِ الكريمِ، ويتجلَّى هذا للنَّاطِرِ في جمالِ الكونِ، والطَّبيَّعةِ، وتوزيعِ الأشكالِ والألوانِ، وهذا الانسجامُ لم يصنع من الفوضى، بل هو من تقديرِ العزيزِ العليمِ، فمقدارُ ما يستوعبُ الإنسانُ من هذا الجَمالِ هو مقدارُ ما يدركه، ويستمتعُ به؛ لذا قيل: "إِنَّ الإنسانَ لا يستجملُ العالمَ إلا بمقدارِ ما في نفسه من جمالٍ، وهذا ما يجعلُ عادةً أجملنا نفساً هو أكثرنا استمتاعاً بالجَمالِ"⁽²⁾.

ويقترنُ الجَمالُ في الإسلامِ بالجَمالِ الشكليِّ، والرُّوحِيِّ، وقد وردت أحاديثٌ كثيرةٌ حملت في ثناياها هذا المضمونَ، ومنها قولُ النَّبيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "تتكح المرأةُ لأربعٍ: لمالها ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذاتِ الدينِ تربت يداك"⁽³⁾.

لقد وَضَعَ المُسلمونَ مفهومَ الجَمالِ، وضوابطه ضمن إطارِ الفكرِ الإسلاميِّ الَّذِي ينظرُ إلى الجَمالِ نظرةً كُليَّةً لها علاقتها الوثيقة باللهِ بدیعِ السَّمواتِ والأرضِ، فالجَمالُ عندَ المُسلمينَ "يتحدَّدُ ضمن هذه الوحدةِ المتكاملةِ من الانسجامِ بينَ سائرِ المخلوقاتِ المُتعدِّدةِ، الصَّادرةِ عن ذاتٍ واحدةٍ، هو الله الخالقُ ذو الجَلالِ، والإِكرامِ. لقد صار مفهومُ التَّنوعِ خاصاً بالفكرِ الإسلاميِّ، وأثار جدالاً بين بعض الباجثين منذ أن استقرت من النَّاحيةِ الرَّسميَّةِ دراسةُ الحضارةِ العَرَبيةِ الإسلاميَّةِ"⁽⁴⁾.

(1) الصَّفَّار، جَماليَّةُ التَّشكيلِ اللونيِّ في القرآنِ الكريمِ، (ص24).

(2) إبراهيم، فلسفة الفن في الفكر المعاصر، دراسات جَماليَّة، (ص381).

(3) [البُخاري، صحيح البُخاري، كتاب (النكاح)، باب (16) باب الاكتفاء في الدين، ج7/7: رَقْمُ الحَدِيثِ 5090]، يُنظَرُ: الألباني، غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام، (ص222).

(4) الصَّفَّار، جَماليَّةُ التَّشكيلِ اللونيِّ في القرآنِ الكريمِ، (ص29).

وعند الحديث عن مظاهر الجمال، فإننا نجد أن العلماء المسلمين أبهروا العالم، خاصة وأن نظرتهم إلى تلك المظاهر كانت تنطلق من وحدة الوجود، موسومة بأعلى صفة، وهي وحدانية الخالق، فكل المخلوقات بتنوعها، واختلاف ألوانها، وأشكالها تحمل دلالة ذهنية واحدة، هي صدورها عن خالق واحد، تجتمع، وتتآلف في صور، ولوحات تتداعى في ذهن الإنسان؛ لتثير فيه التفكير في معالم خلق الله وقدرته، وتحفزه على التأمل في سر الوجود، وقدرة الخالق سبحانه وتعالى. فلا مكان للتشطي، ولا متسع للقبح، ولا حيز للتشتت، بل هناك فضاءات واسعة تحمل في ثناياها لوحات الجلال، وآفاق شاسعة تستوعب كل معاني الجمال.

والإسلام بجماله، وجمال شرائعه، وجمال آدابه، وجمال ثقافته، وجمال جزئياته، وجمال كليته، أو قل إن شئت جماله بكل ما فيه، ومن فيه، دفع الفلاسفة، والأدباء العرب، والمسلمين إلى معالجة موضوع الجمال من هذا المنطلق، وتحدث بعضهم عن هذا المفهوم وظواهره، وذلك ضمن معالجات كثيرة متنوعة لبعض ظواهر الحياة الثقافية كل في عصره، فنجد (الجاحظ) يبدع في الحديث عن الجمال، ونرى (الغزالي) يقدم لوحة مضيئة له، ونقرأ عند (الزغب الأصفهاني)، و(التوحيدي) معايير تميزه، ونلمح (الفارابي) يبدع في تفسير المصطلح، وبيان مفرداته.

إن الجاحظ (ت255هـ) حمل في فكره نظرات جمالية متفرقة، متمثلة بالقيم العليا، بصفته فناً، ومفكراً استلهم مثل مجتمعه في فنه، وتحدث عنها في أفكاره، كما أنه (الجاحظ) كان يصبو إلى شيء من التمييز بين المفاهيم الجمالية، فالمليح عنده ليس كالجميل على الرغم من الترابط بينهما، فقد كان يحاول أن يضع لكل مفهوم درجته التي تناسبه حتى تداخلت هذه المفاهيم، وترابطت، وهذا التداخل كان نتيجة طبيعية للوعي الجمالي العام في زمنه.

أما فكرة الجمال عند الجاحظ، وبزوغها فقد تكونت المفاهيم الجمالية لديه نتيجة تطور المجتمع العربي فكرياً منذ العصر الجاهلي، وحتى بداية العصر العباسي، وفكرة الجمال تجلت عنده في مفاهيم عديدة كالحسن، والاعتدال، والوزن، والتناسق، والتناسب، والنمائم، والكمال الأزلي، كما احتل مفهوم الحسن مكانة مرموقة لديه؛ لأنه يحتوي النمام، والاعتدال، والاتزان، والتناسب؛ لأنها الصفة التي تضاف إلى الشيء فتفضله الناس على غيره، ومن هنا لخص الجاحظ مفهوم الجمال في ثلاث نظرات (النظرة الهندسية في تعريف الجميل، النظرة العقلانية إلى الجميل، ومبدأ الوسط في المقاييس الجمالية)، حيث رأى في النظرة الهندسية الكمال، وهو أحد المفاهيم الجمالية الهامة؛ لأن الوصول إلى الكمال يتطلب اجتماع صفات جمالية عديدة، ومنسجمة منها ما هو ظاهري، ومنها ما هو باطني، ومنها ما يكون محسوساً، كما تعمق في

المفاهيم الهندسيّة المركّبة مثل الحسن الخالص، والحسن المصمت، والجَمال الفائق، والجَمال المفرد، بالإضافة إلى الحسن المطلق الَّذِي لا يحتاج إلى غيره في صونه، ولا إلى سواه في اكتماله، ولا يتأثر بالدهر والأحداث، كما درس نسيبَة الجَمال أيضًا، ورأى أن جمال الإنسان أكمل أنواع الجَمال، ويتفوق على ما عداه من جمال أشياء الطَّبِيعَةِ، الطَّبِيعَةِ الَّتِي نَظَرَ إِلَيْهَا الجَاحِظُ من جوانب عديدة، وبأهمية بالغة، حتى أنه نقض مزاعم علماء الجَمال ذوي النزعة الدَنيَّة في أن جمال الطَّبِيعَةِ مقتصر على الفن، ولأنَّ الجَاحِظَ كان يدرك كثيرًا مستوى مجتمعه العقليّ لم يجرّد المفهوم الهزليّ من مفاهيمه الجَماليَّة؛ لِذَا دارَ حَوْلَ هَذَا المَفْهُومِ دوراتٍ واسعةٌ دُونَ توجيه الضوء إلى بؤرته المركزيَّة مباشرة؛ لِأَنَّهُ حاول دائمًا الوُصُولَ لعدليّ بين الجدِّ والمزح، ولم ينس المفهوم المأساويّ، واعتمد فيه على البكاء رَغْمَ أن كلامه فيه كان قليلًا وموجزًا؛ وفيه من الإشارة أكثر مما فيه من الشرح والتوضيح، فالبكاء عنده مفيدٌ لطبيعة الإنسان، وغرائزه فقط.

وَعُودَةٌ إِلَى الجَاحِظِ، وأقواله في الجَمال والحسن، فالجَمال عنده متغيّر بتغيّر النظرة إليه، وتغيّر دلالة الشيء الجَميل، ولا يتغيّر هذا الجَمال بالمنفعة فحسب، وإنما بالتأمل والتفكير، وقد يجمع الإحساس بالجَمال، والحسن المنفعة، والجَمال الشكليّ، فإحساس العربيّ بالنارِ ودفتها أيام القِرّة، ولياليه الباردة، هو غير إحساسه بها في غير هذين الوقتين، يقول: "لولا معرفتهم لإتلافها، والألم، والحرقة المولدين عنها لتضاعف الحسن عندهم، وأنهم ليرونها في الشتاء بغير العين الَّتِي يرونها بها في الصيف، وليس ذلك إلا ما حدث من الاستغناء عنها"⁽¹⁾.

أمّا نظريَّة الفارابيّ (ت339هـ) الجَماليَّة، فقد حاولَ مِنْ خِلَالِهَا الجمعَ بين فلسفة أفلاطون، وأرسطو، فقد كان لهما تأثيرٌ كبيرٌ في نظريّته الجَماليَّة، فمزج بنزعة رومانسيَّة صوفيَّة، تحملُ في طياتها الرُوحَ الشَّرقيَّة الإسلاميَّة، ما بين الفلسفة الجَماليَّة عند كلِّ من أفلاطون وأرسطو، والتوفيق بين الدين والفلسفة؛ فقد كان الجَمال بالنسبة للفارابيّ هو تحقيق القيم الخيرة في الأشياء الجَميلة مِنْ خِلالِ بنائها، وترتيبها، وقد عدَّ الفنُّ صفةً حسيَّةً أساسها التَّجريب، والفنانُ عندَ الفارابيّ يستطيع التَّقَرُّبَ من العقلِ الفَعَالِ عن طريق نُسكِهِ، وتنقية نفسه من شوائبِ المادة، والعمليةُ الإبداعيةُ عندَ الفارابيّ عمليةٌ إنسانيَّةٌ بفعلِ بناءِ الفنَّانِ الشَّخصيِّ، وإمكانيَّاته الفكرية، وهي نتاجُ خلاقٍ يمكنُ أن يُضفيَ على جَماليَّاتِ الطَّبِيعَةِ جَمالًا أكبرَ.

إنَّ التَّجربةَ الجَماليَّةَ عندَ أبي نصر الفارابيّ ليست تجربةً كان قد أودعها في إحدى مؤلفاته الفلسفية، بل هي تجربةٌ كامنةٌ بين ثنايا كتبه، وتتطلبُ جهداً لاستخراجها.

(1) الجاحظ، الحيوان، (ج4/96). القِرّة: ما يصيب الإنسان وغيره من البرد.

تناول الفارابيُّ الجَلالَ، والجَمالَ، والبَهَاءَ، والحُسْنَ، وإِذَا كَانَ الجَلالُ عِنْدَهُ يحصلُ من الاستشعارِ للذاتِ، والصفاتِ، والأفعالِ الإلهيَّةِ، فإنَّ الجَمالَ هو السَّمَةُ المشتركةُ بين الموجوداتِ كافَّةً، كلُّ حسبِ درجاتِ وجوده، ومراتبها. وَكَمَا أَنَّ الكَمالَ في الجَلالِ كائناً، فَكَذَلِكَ يَكُونُ الكَمالُ في الجَمالِ، وإنَّ كلَّ موجودٍ إنَّما كُونٌ لِيبلغَ أَقصى الكَمالِ الَّذي لَهُ أَنْ يبلِغَهُ بحسبِ رتبته في الوجودِ الَّذي تخصُّه، والكَمالُ هو أصلٌ للجَلالِ، والجَمالِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ كَمالَ الشَّيْءِ هو الَّذي يجعله جليلاً، أو جميلاً، وافتقاده يجعله قبيحاً؛ "فالجَمالُ، والبَهَاءُ، والزَّينَةُ في كلِّ موجودٍ هو أن يوجد وجوده الأفضل، ويحصل له كماله الأخيرُ. وَإِذَا كَانَ الأوَّلُ وجوده أفضلُ الوجودِ، فجماله فائتُ الجَمالِ؛ كلُّ ذي جمالٍ، وكذَلِكَ زينته، وبهاوؤه. ثمَّ هذه كُلُّها له في جوهره، وذاته، وَذَلِكَ في نفسه؛ وبما يعقله في ذاته. أما نحن فإنَّ جمالنا، وزينتنا لنا بأعراضنا؛ لا بذاتنا، ولِلأشياءِ الخارجةِ عنا، لا في جوهرنا، والجَمالِ، والكَمالِ ليسا هُما فيه سوى ذاتٍ واحدةٍ؛ وكذَلِكَ سائرُها"⁽¹⁾.

ولأبي حيان التُّوحِيدِيَّ (ت414هـ) نظراتٌ جديرةٌ بالاعتبارِ في الجَمالِ، ولَعَلَّهُ أوَّلَ عربيٍّ وضعَ علمَ الجَمالِ مأخوذاً عن آراءِ معاصريه، ومُدبَّجاً بأسلوبه، وقد جعلَ العقلَ معياراً لتمييزِ الجَمالِ والحُسَنِ، فإنَّ ما يستقبَّه العقلُ يبقى قبيحاً، وما يستحسنه العقلُ يبقى حسناً. فهو يطرحُ مسألةَ الجَمالِ، والتَّذوقِ الجَماليِّ وشروطِهِ، يَقُولُ: "ما سببُ استحسانِ الصُّورةِ الحسنَةِ؟ ثمَّ يتساءلُ، أهذه كُلُّها من آثارِ الطَّبِيعَةِ، أم هي عوارضُ النَّفسِ، أم هي من دواعي العقلِ، أم من سهامِ الرُّوحِ؟ أم هي خاليةٌ من العللِ جاريةٌ على الهذرِ، وهَلْ يجوزُ أَنْ يوجدَ مثلُ هذه الأُمُورِ الغالبةِ، والأحوالِ المؤثِّرةِ على وجهِ العبثِ، وطريقِ البطلِ"⁽²⁾.

ويطبِّقُ التُّوحِيدِيَّ النَّظريَّةَ الجَماليَّةَ على فنِّ البَلاغَةِ، فيقرِّرُ أَنَّهُ وإنَّ كانَ لا بُدَّ للأديبِ من طبيعةٍ جيِّدةٍ، ومزاجٍ صحيحٍ، وسليقةٍ سليمةٍ، إلاَّ أَنَّهُ لا بُدَّ له من صناعةٍ مُتقنةٍ، وإلمامٍ جيِّدٍ، ودراسةٍ طويلةٍ الباعِ، يَقُولُ: "إنَّ البَلاغَةَ هي الصِّدْقُ في المَعانيِ مَعَ ائتلافِ الأَسْماءِ، والأفْعالِ، والحُرُوفِ، وإصابةِ اللَّغَةِ، وتحريِّ الملاحَةِ المشكَلَةِ، برفضِ الاستكراهِ، ومجانبةِ التَّعسُّفِ"⁽³⁾.

ويستطرِدُ التُّوحِيدِيَّ في الحديثِ عن التَّذوقِ الجَماليِّ، فيرى "أَنَّ تَذوقَ الجَمالِ يخضعُ لعاملينِ رئيسينِ، الأوَّلُ: اعتدالُ مزاجِ المندوِّقِ، فلا ينظرُ إلى الغريبِ المتطرِّفِ، والشاذِّ

(1) الفارابيُّ، آراء أهل المدينة الفاضلة، (ص35).

(2) التُّوحِيدِيَّ، الهوامل والشوامل، (ص147).

(3) إبراهيم، أبو حيان التُّوحِيدِيَّ أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، (ص278)، ويهني، فلسفة الفن عند أبي

حيان التُّوحِيدِيَّ، (ص67، ص68).

المنحرف. والثاني: تناسب أعضاء الشيء بعضها إلى بعض في الشكل، واللون، وسائر الهيئات. على أن أبا حيان يرى أن هذين العاملين لا يجتمعان في جميع الأحوال، فالندوق الفني لا يتطلب شروطاً سهلة. بل هو معقد يحتاج إلى قوة إبداعية لدى المتذوق تساعده على الحكم الصحيح. هذه القوة هي نوع من الاعتدال بين المزاج، والأعضاء، والشكل، واللون، والحس⁽¹⁾.

إن الإدراك الانفعالي -عند التوحيد- ما هو إلا انفعال نفسي بإزاء فعل النفس في الطبيعية التي تنظم صورة المادة، وهنا تتحرك النفس في اتجاهين يكمل كل منهما الآخر، اتجاه فاعل يجعل الطبيعة موافقة لرغبة النفس، ودور منفعل تقوم به النفس في عملية الإدراك الجمالي، ومن هنا ينطلق التوحيد إلى إظهار الطبيعة النوعية للانفعال الجمالي، واختلافه عن الانفعالات النفسية الأخرى، كانفعال الخوف مثلاً، فمن المؤكد أن النفس في الحالتين تستقبل أنواعاً مختلفة، وتتأثر مع كل انفعال تأثراً يختلف عن الآخر، فبين تذوق الجمال، والشعور بالخوف بون واسع، ومساحة شاسعة.

أما الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ)، فقد أصر على الجمال في الشكل والمضمون كغيره من النقاد، والبلاغيين، والفلاسفة من العرب، وانتصر لمفهوم الجمال في الشكل، والمعنى في نظريته المعروفة بـ (النظم)، ويلمح ذلك في قوله: "علم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه، وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها"⁽²⁾. ثم قال: "وإذ قد عرفت أن مدار أمر النظم على معاني النحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أن الفروق، والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازدياداً بعدها، ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب من المعاني، والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض"⁽³⁾.

أما الراغب الأصفهاني (ت502هـ)، فقد تعلق عند الحديث عن الجمال بقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥]، ونظر إلى معنى الجمال على أنه مأخوذ من دلالة على الكثرة لتتسجم هذه الدلالة مع تعريفه الاصطلاحي للجمال بأنه الحسن الكثير، فقال:

(1) بهنسي، فلسفة الفن عند أبي حيان التوحيدي، (ص67، 68). يُنظر: إبراهيم، علم الجمال، قضايا تاريخية ومعاصرة، (ص40).

(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، (ص81).

(3) المرجع السابق، ص87.

"الجمال الحسن الكثير، وذلك ضربان: أحدهما يختص الإنسان به في نفسه، أو بدنه، أو فعله، والثاني: ما يوصل منه إلى غيره، وعلى هذا الوجه ما روي عنه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنه قال: "إن الله جميل يحبُّ الجمال" ويرى أن قولهم جميل، وجمال، وجمال على الكثير، قال تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]، ﴿فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥]، وقد جاملت فلاناً وأجملت في كذا، وجمالك أي أجمل، واعتبر منه معنى الكثرة. فقول لكل جماعة غير منفصلة جملة، ومنه قيل للحساب الذي لم يفصل، والكلام الذي لم يبين مجمل⁽¹⁾.

وتبنى الإمام الغزالي (ت 505هـ) نظرة متفردة تفصل بين المنفعة، والجمال، وهذا ما خالف به أرسطو الذي ربط الجمال بالمنفعة، يقول الغزالي: "ولا تظن أن حب الصور الجميلة لا يتصور لأجل قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها، وإدراك نفس الجمال أيضاً لذاتة، وكيف ينكر ذلك، والخضرة، والماء الجاري محبوب لا ليشرب، وتوكل الخضرة أو لا ينال منها سوى الرؤية"⁽²⁾. وقد ربط أحمد ياسوف بين رأي الغزالي هذا، والقرآن الكريم في الآية الكريمة التي تعدد نعم الله سبحانه وتعالى، ومنافع الحيوان الذي هيأه الله للبشر، وأن من منافعها متعة، والإحساس بالجمال ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦]، ويرى "أن الموقف الجمالي وفق ظاهر الآية الكريمة يقول بالغائية، إلا أنه يدعو إلى الترفع عن المنفعة المادية المباشرة، فلا يرتبط بالنافع مباشرة كما في فلسفة سقراط، والإبل مفيدة بلحمها وركوبها، وهناك هنيئات تأملية سامية يتجلى للبصر حينها جمال شكل الإبل، وهذا يدعو إلى تسبيح الخالق، فالشعور بالجمال يتكون بعد إشباع الحاجة المادية، فالظمان لا يشعر بجمال خربير النهر، كما أن الجائع لا يشعر بجمال الثمار، وأن الجميل يعني إثارة وجدانية لمشاعر راقية"⁽³⁾.

ولم يكتف الغزالي بوجود الجمال والحسن في المحسوسات، بل تجاوز ذلك إلى غير المحسوسات، إذ يقال هذا خلق حسن، وهذا علم حسن، هذه سيرة حسنة، وهذه أخلاق جميلة. إنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم، والعقل، والعفة، والشجاعة، والنقوى، والكرم، وسائر خلال الخير، وشيء من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الخمس، بل يدرك بنور البصيرة"⁽⁴⁾.

(1) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، (ص 127).

(2) الغزالي، إحياء علوم الدين، (ج 4/316).

(3) ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، (ص 4).

(4) العظم، موسوعة مصطلحات الإمام الغزالي، (ص 14).

إنَّ الغزاليَّ ينظرُ إلى مقاييسِ الجَمالِ المتوافرةِ في الشَّيءِ الجَميلِ، وبمقدارِ حضورِ صفاتِ جَماليَّةِ تَقَرُّبِ الشَّيءِ الجَميلِ إلى الكَمالِ يكونُ مقدارُ جماله، وبذا تتفاوتُ صفاتُ الجَمالِ بتفاوتِ صفاتِ الكَمالِ، واللياقةُ فيه. وفي هذه الحالةِ يكونُ العقلُ أَيْضاً هو المميِّزُ المتحسسُ للجَمالِ، ومع ذلكَ لا تتوافرُ صفاتُ الكَمالِ، والجَمالِ لأيِّ مخلوقٍ، أو كائنٍ؛ لأنَّ الكَمالَ لله وحدهُ، وليس لغيره جَمالاً إلا بمقدار ما منحه الله⁽¹⁾.

ولم يتوقف أبو حامد الغزاليُّ عندَ الحديثِ عن الجَمالِ، بل تجاوز ذلك، وتطرَّق إلى تقسيماته، فكلُّ "جمالٍ عندَ مدركِ ذلك الجَمالِ، والله تَعَالَى جميل يحب الجَمالَ، ولكنَّ الجَمالَ إذا كانَ يتناسب مع الخلقِ، وصفاء اللُّونِ، أدرك بحاسة البصرِ، وإذا كانَ الجَمالُ بالجَلالِ، والعظمةِ، وعلوِّ المرتبةِ، وحسن الصِّفاتِ والأخلاقِ، وإرادة الخيراتِ إلى غير ذلك من الصِّفاتِ الباطنة أدرك بحاسة القلبِ، ويؤكدُ الغزاليُّ أن لا خير، ولا جمالَ، ولا محبوب في العالم إلا وهو حسنةٌ من حسناتِ الله، وأثرٌ من كرمه، وغرفةٌ من بحر جوده، سواء أدرك هَذَا الجَمالَ بالعُقُولِ، أو بالحواسِ، وجماله تَعَالَى لا يتصور له ثانٍ لا في الإمكانِ، ولا في الوجودِ"⁽²⁾. ومن هُنَا تبدو ثلاثيَّةُ أقسامِ الجَمالِ، أولها: جمالٍ حسيٍّ يدرك بالحواسِ، وثانيها: جمالٍ وجدانيٍّ يدرك بالقلبِ، وثالثها: جمالٍ عقليٍّ يدرك بالعقلِ.

تلكَ هي النظرةُ الشُّموليَّةُ التي تبنَّاها الإمام، أبو حامد الغزاليُّ من منطلق القرآن الكريمِ، والسنة النبويَّةِ، والطبيعة البشرية، فالإسلام لم يهمل مَشاهدَ الجَمالِ سواء أكانت هذه المَشاهد ظاهرةً، أم باطنةً، والعلماءُ المسلمونَ استقوا مبادئهم من الدينِ، فقدموا ما عجز عنه الآخرون من الثقافات الأخرى من ربط الجَمالِ بالمنفعة فقط، ووضعوا مفهوماً للجَمالِ رُبما لم تتوصَّل إليه كثيرٌ من الثقافات الأخرى على مدى الأزمان والدُّهورِ.

إنَّ النَّصَّ الجَماليَّ يُؤكدُ جَماليَّته باتجاهين في الصُّورة، والدَّلالة، أي في المبنى، والمعنى، أو في الشَّكلِ، والمضمونِ، فهو بنيةٌ دلاليَّةٌ شاملةٌ تؤكدُ قيمتها بوظائفها، وأهدافها التي تعززها الذات المبدعة في إنتاجها، ومنهها الوظيفة الجَماليَّة الصَّرفيَّة.

والإنسانُ كلُّما ارتقى في إدراكِ الجَمالِ في الشَّكلِ والمضمونِ، ازداد اقتراباً من مرتبة الإبداع في الحسن الذي يشمل الإنسانَ، والظواهرَ، والفنَّ، علماً أنَّ إدراكِ الجَمالِ في المضمونِ أكثرُ دقَّةً وإثارةً من الجَمالِ الكامن في الشَّكلِ؛ لأنَّه يحتاج إلى عملٍ مُضاعفٍ في الفهمِ،

(1) الغزاليُّ، إحياء علوم الدين، (ج4/322).

(2) المرجع السابق، ج2/280.

والاستيعاب، والتحليل. وَمِنْ هُنَا يُمَكِّنُ الْقَوْلُ إِنَّ هُنَاكَ عِلَاقَةً وَثِيقَةً فِي التَّجْرِبَةِ الْجَمَالِيَّةِ بَيْنَ الشَّكْلِ، وَالْمُضْمُونِ؛ وَبَيْنَ الْجَمَالِ، وَالْوِظْفَةِ، أَوْ الْهَدَفِ لِأَيِّ إِبْدَاعِ إِنْسَانِيٍّ؛ بَلْ إِنَّ الْجَمَالَ فِي الْكُونِ، وَالْأَشْيَاءِ يُمْكِنُ أَنْ يَحْمِلَ الْعَدِيدَ مِنَ الْوِظَائِفِ، وَالْأَهْدَافِ تَبَعاً لِلْمَتَلَقِّي، وَخَبْرَتِهِ، وَثِقَاتِهِ.

ثانياً: التَّشْكِيلُ

التَّشْكِيلُ لُغَةً وَاصْطِلَاحاً

التَّشْكِيلُ فِي اللُّغَةِ، يَدُورُ الشَّكْلُ فِي اللُّغَةِ فِي دَلَالَتَيْنِ: الْأُولَى الْمَثَلُ وَالشَّبَهَ، وَالْجَمْعُ أَشْكَالٌ وَشُكُوفٌ. تَقُولُ: "وَقَدْ تَشَاكَلَتِ الشَّيْئَانِ، وَشَاكَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ، وَالْمُشَاكَلَةُ الْمَوَافَقَةُ، وَالنَّشَاكَلُ مِثْلُهُ. وَتَشَكَّلَ الشَّيْءُ: تَصَوَّرَ، فَالْأَشْكَالُ مِثْلًا مَا فِيهِ بَيَاضٌ وَسَوَادٌ، وَالشُّكْلَةُ الْحَمْرَةُ تَخْتَلِطُ بِالْبَيَاضِ، وَدَمٌ أَشْكَالٌ فِيهِ بَيَاضٌ وَحُمْرَةٌ، وَالْأَشْكَالُ مِنَ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ: الَّذِي تَخَلَّطَ سَوَادُهُ حُمْرَةً، وَغَيْرُهُ، أَوْ غَيْرُهُمَا، وَقِيلَ فِي صِفَةِ الْعَيْنِ أَشْكَالٌ الْعَيْنُ: أَيِ فِي بَيَاضِهَا شَيْءٌ مِنْ حُمْرَةٍ، وَقِيلَ الشُّكْلَةُ فِي الْعَيْنِ الصُّفْرَةُ الَّتِي تَخَالِطُ بَيَاضَ الْعَيْنِ الَّذِي حَوْلَ الْحَدِيقَةِ عَلَى صِفَةِ عَيْنِ الصَّقْرِ،... شَكَّلَتِ الْمَرْأَةُ شَعْرَهَا: ضَفَّرَتِ خَصَلَتَيْنِ مِنْ مَقَدِّمِ شَعْرِهَا عَنْ يَمِينٍ وَعَنْ شِمَالٍ، ثُمَّ شَدَّتْ بِهَا سَائِرَ ذَوَائِبِهَا، وَشَكَّلَ الرَّسَامُ لَوْحَتَهُ، رَكَّبَ أَلْوَانَهَا وَخَطَوَطَهَا، وَشَكَّلَ بَاقَةَ مِنَ الرَّهْوَرِ: أَلَّفَ بَيْنَ أَشْكَالِهَا"⁽¹⁾، وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 84]، أَيِ عَلَى طَرِيقَتِهِ، وَمَذْهَبِهِ.

وَلَمْ يَكْتَفِ الْعَرَبُ بِدَلَالَةِ الْكَلِمَةِ (شَكَّلَ) فِي مَعَاجِمِ اللُّغَةِ، بَلْ ابْتَعَدُوا كَثِيرًا فِي تَقْدِيمِ مَزِيدٍ مِنَ الْإِيحَاءَاتِ وَالذَّلَالَاتِ لَهَا، فَصِيغَةُ (تَشَكَّلَ) وَرَدَتْ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى التَّنَوُّعِ اللَّوْنِيِّ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُ الْعَرَبِ: تَشَكَّلَ الْعَنْبُ: أَيْنَعَ بَعْضُهُ، وَهَذَا فِيهِ دَلَالَةٌ لِلْوَنِ الْمُتَعَدِّدَةِ؛ لِأَنَّ الْعَنْبَ إِذَا اسْوَدَّ بَعْضُهُ، فَإِنَّ بَعْضَهُ الْآخَرَ سَتَبَقِيَ أَلْوَانُهُ مُتَعَدِّدَةً، أَوْ قَلَّ إِنَّ شَتَّتَ إِنَّ أَلْوَانَهُ مُتَدَرِّجَةً، وَمِنْ الْمَجَازِ قَوْلُ الْعَرَبِ: تَشَكَّلَ الشَّيْءُ: تَصَوَّرَ، وَشَكَّلَهُ: صَوَّرَهُ؛ لِأَنَّ أَسَاسَ التَّصَوُّرِ وَالتَّصْوِيرِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَخْيِيلِ الْأَلْوَانِ وَضَمِّ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ. وَأَمَّا صِيغَةُ شَكَّلَ فَقَدْ وَرَدَتْ مَعَ شَكْلٍ مِنْ أَشْكَالِ زِينَةِ الْمَرْأَةِ.

وَيُؤَكِّدُ صَاحِبُ مُعْجَمِ الصَّحَاحِ تِلْكَ الْوَشَائِحَ فِي تَنَاوُلِهِ مَادَةَ (شَكَّلَ)، فَقَدْ سَافَرَ بَيْنَ حُرُوفِ الشَّكْلِ مُتَنَقِّلاً مِنْ لَوْنٍ إِلَى لَوْنٍ، "فَالْأَشْكَالُ مِنَ الشَّاءِ: الْأَبْيَضُ الشَّالِكَةُ؛ وَالْأَنْثَى شَكْلَاءُ

(1) ابن مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ، (ج11/356، 357). وَمَجْمَعُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، الْمُعْجَمُ الْوَسِيطُ، (ج1، 2/94)، وَبِالْبَسْتَانِيِّ، مَحِيطُ الْمَحِيطِ، (ص477)، مَادَةُ (شَكَّلَ).

بَيِّنَةُ الشَّكْلِ، والشُّكْلَةُ كَهَيْئَةِ الحُمْرَةِ تَكُونُ فِي بِياضِ العَيْنِ، كَالسُّهْلَةِ فِي سَوَادِهَا، وَمِنْهَا عَيْنُ شِكَلاءَ، وَرَجُلٌ أَشْكَلُ العَيْنِ، وَدَمٌ أَشْكَلٌ إِذَا كَانَ فِيهِ بِياضٌ وَحُمْرَةٌ، وَيُقَالُ أَيضاً بِالْفَرَسِ شِكَالٌ، وَهُوَ أَنْ تَكُونَ ثَلَاثُ قَوَائِمٍ مَحْجَلَةٌ، وَوَاحِدَةٌ مُطْلَقَةٌ، وَمِنْهُ تَشَكَّلَ العَنْبُ: أَيَنْعَ بَعْضُهُ، وَأَشْكَلَ النَّخْلُ، أَي طَابَ رَطْبُهُ، وَأَدْرَكَ، وَالْأَشْكَالُ: السِّدْرُ الجَبَلِيُّ⁽¹⁾. قَالَ الشَّاعِرُ:

يَغْلُو بِهَا رُكْبَانُهَا وَتَعْتَلِي عَوَجاً كَمَا اعْوَجَّتْ قِيَاسَ الْأَشْكَالِ⁽²⁾

وَالَّذِي يَبْدُو جَلِيّاً مِنْ الْمَعْنَى اللُّغَوِيَّةِ تَنْبُهُ النُّقَادِ العَرَبِ، وَعِلْمَاءُ اللُّغَةِ الْأَقْدَمِينَ إِلَى العِلَاقَةِ الوَشِيجَةِ بَيْنَ أَنْمَاطِ الإِبْدَاعِ الفَنِيِّ المَادِيِّ رَسوماً، وَزَخارِفَ، وَنُقُوشاً، وَالإِبْدَاعِ الفَنِيِّ شِعْراً وَنَثْراً المَتَمْتِلُ فِي القُدْرَةِ الفَنِيَّةِ عَلَى التَّصْوِيرِ، وَالتَّعْبِيرِ عَنِ المَعَانِي بِأَسْلُوبِ أَدْبِيٍّ جَمِيلٍ، فَقَدْ انْطَلَقَ الأُدْبَاءُ يَرْسُمُونَ أَجْمَلَ التَّشْكِيلَاتِ مَعْتَمِدِينَ عَلَى أَنْمَاطِ الإِبْدَاعِ المَادِيِّ، فَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الأَنْمَاطُ بِمَثَابَةِ المَصْبَاحِ الَّذِي يَضِيءُ لَهُمْ سَبِيلَ الإِبْدَاعِ، وَدُرُوبَ التَّفَوُّقِ. فَانْدَفَعُوا يَنْظِمُونَ رِوَاغَ الأشْعارِ والأَبْيَاتِ، وَيَكْتُبُونَ أَرْوَاعَ القَصَصِ، وَالرِّوَايَاتِ، وَالمَقَامَاتِ، وَيُقَدِّمُونَ أَجْمَلَ الصُّورِ، وَالتَّشْكِيلَاتِ، وَيَصِيغُونَ أُبْهَى المُحَسَّنَاتِ.

لَقَدْ بَرَعَ عِلْمَاءُ البَلَاغَةِ فِي الحَدِيثِ عَنِ التَّشْكِيلِ بِأَسَالِيبَ تَنَمُّ عَنِ ذِكَاءِ، وَفِطْنَةٍ، وَإِنْ كَانَ تَنَاولُهُمْ بِطَرِقٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَمِصْطَلَحَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ. فَالمُشَاكَلَةُ الأَدْبِيَّةُ لَهَا دَلَالَةٌ مُجَازِيَّةٌ أُخْرَى، حَيْثُ وَرَدَتْ فِي كِتَابِ (البَيَانِ وَالتَّبْيِينِ) حِينَ تَحَدَّثُ الجَاحِظُ عَنِ عَمَلِيَّةِ الإِبْدَاعِ الأَدْبِيِّ، وَمِثْلِ النُّفُوسِ إِلَيْهِ، فَيَنْصَحُ المَتَأَدِّبَ إِنْ وَجَدَ نَفْسَهُ تَتَكَلَّفُ الصَّنْعَةَ الشَّعْرِيَّةَ، فَعَلِيهِ تَرْكُهَا إِلَى صَنْعَةِ أُخْرَى تَسْتَهْوِيهِ، وَتَتَقَبَّلُهَا نَفْسُهُ، يَقُولُ: "وَأَنَا أَوْصِيكَ أَنْ لَا تَدَعَ البَيَانَ وَالتَّبْيِينَ أَنْ لَكَ فِيهِمَا طَبِيعَةٌ، وَأَنْهُمَا يَنَاسِبَانِكَ بَعْضُ المُنَاسِبَةِ، وَيَشَاكِلَانِكَ بَعْضُ المُشَاكَلَةِ، وَلَا تَهْمَلْ طَبِيعَتَكَ فَيَسْتَوْلِي الإِهْمَالُ عَلَى قُوَّةِ القَرِيحَةِ...قَالُوا: وَالمُشَاكَلَةُ مِنْ جِهَةِ الاتِّفَاقِ فِي الطَّبِيعَةِ وَالعَادَةِ رُبَّمَا كَانَتْ أْبْلَغَ، وَأَوْغَلَ مِنَ المُشَاكَلَةِ مِنْ جِهَةِ الرَّحْمِ"⁽³⁾. فَالمُشَاكَلَةُ هُنَا الانْسِجَامُ وَالمُوافَقَةُ، وَقَدْ رَسَمَ بَشْرُ بِنِ المَعْتَمِرِ هَذَا المَشْهَدَ فِي صَحِيفَتِهِ بِقَوْلِهِ: "وَالشَّيْءُ لَا يَحْنُ إِلَّا إِلَى مَا يَشَاكِلُهُ، وَإِنْ كَانَتْ المُشَاكَلَةُ قَدْ تَكُونُ فِي طَبَقَاتٍ؛ لِأَنَّ النُّفُوسَ لَا تَجُودُ بِمَكْنُونِهَا مَعَ الرِّغْبَةِ، وَلَا تَسْمَحُ بِمَخْرُونِهَا مَعَ الرِّهْبَةِ، كَمَا تَجُودُ بِهِ مَعَ الشَّهْوَةِ وَالمُحِبَّةِ، فَهَذَا هَذَا"⁽⁴⁾.

(1) الجَوْهَرِيُّ، الصَّحَاحُ، (ج/5/1736، 1737)، مَادَةٌ (شِكَالٌ).

(2) ابْنُ العِجَاجِ، دِيْوَانُ العِجَاجِ، (ص/277).

(3) الجَاحِظُ، البَيَانِ وَالتَّبْيِينِ، (ج/1/189).

(4) المَرْجِعُ السَّابِقُ، ج/1/138.

وَلَمْ يَبْتَدِئْ ابْنُ طَباطبَا الْعُلُوِيَّ (ت322هـ) عَنِ الْجَاحِظِ (ت255)، وَبَشَّرَ ابْنَ الْمُعْتَمِرِ (ت201هـ)، فَقَدْ تَنَاطَلَ إِبْدَاعَ الشَّاعِرِ الْقَصِيْدَةِ، وَاخْتِيَارَ الْقَوَافِي الَّتِي تَشَاكُلُ مُفْرَدَاتِ الْقَصِيْدَةِ، حَيْثُ اسْتَخْدَمَ مُصْطَلِحَ الْمُشَاكَلَةِ قَائِلًا: "وَإِنْ اتَّفَقَتْ لَهُ قَافِيَةٌ قَدْ شَغَلَهَا فِي مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي، وَاتَّفَقَ لَهُ مَعْنَى آخَرَ مُضَادًّا لِلْمَعْنَى الْأَوَّلِ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْقَافِيَةُ أَوْقَعَ فِي الْمَعْنَى الثَّانِي مِنْهَا فِي الْمَعْنَى الْأَوَّلِ، نَقَلَهَا إِلَى الْمَعْنَى الْمُخْتَارِ الَّذِي هُوَ أَحْسَنُ، وَأَبْطَلَ ذَلِكَ الْبَيْتَ، أَوْ نَقَضَ بَعْضَهُ، وَطَلَبَ لِمَعْنَاهُ قَافِيَةً تَشَاكُلُهُ، وَيَكُونُ كَالنَّسَاجِ الْحَاقِقِ الَّذِي يُفَوِّفُ وَشَيْئُهُ بِأَحْسَنِ النَّقْوِيْفِ، وَيَسْدِيهِ وَيَنْبِيْرُهُ، وَلَا يَهْلَهُلُ مِنْ شَيْئًا فَيْشِيْنُهُ، وَكَالْفَنَاقِشِ الرَّفِيْقِ الَّذِي يَضَعُ الْأَصْبَاحَ فِي أَحْسَنِ تَقَاسِيْمِ نَقْشِهِ، وَيَشْبَعُ كُلَّ صَبْغٍ مِنْهَا حَتَّى يَتَضَاعَفَ حَسَنُهُ فِي الْعِيَانِ، وَكَنَازِمِ الْجَوْهَرِ الَّذِي يُؤَلَّفُ بَيْنَ النَّفِيْسِ مِنْهَا، وَالثَّمِيْنِ الرَّائِقِ، وَلَا يَشِيْنُ عَقُوْدَهُ، بَأَنْ يَفَاوَتْ بَيْنَ جَوَاهِرِهَا فِي نَظْمِهَا، وَتَنْسِيْقِهَا"⁽¹⁾.

لَقَدْ قَدَّمَ ابْنُ طَباطبَا الْعُلُوِيَّ مَفْهُومَ التَّشْكِيلِ عَلَى طَبَقٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَذَلِكَ حِينَ مَزَجَ بَيْنَ الْإِبْدَاعِ الْمَادِيِّ، وَالْإِبْدَاعِ الْفَنِيِّ كَأَرْوَعٍ مَا يَكُونُ النَّقْدِيْمُ، مُعْتَمِدًا عَلَى النَّقَاشِ الَّذِي يَبْدَعُ أَجْمَلَ اللَّوْحَاتِ، وَالصَّانِعِ يُؤَلَّفُ أَرْوَعِ عَقُوْدِ الدَّرِّ النَّفِيْسَاتِ.

وَتَسْتَحِيلُ الْمُشَاكَلَةُ وَالتَّشْكِيلُ مَعَانِي تَحْمُلُ فِي ثَنَائِهَا التَّوَافُقَ، وَتَضُمُّ فِي طَبَقَاتِهَا الْإِنْسِجَامَ وَالتَّرَابُطَ، فَتَرْتَدُّ النُّصُوصُ الْأَدْبِيَّةُ بِفَضْلِهَا قِصُورًا مُشِيْدَةً، وَمَنَاهِلَ عَذْبَةً يَرِدُ مَاوِهَا الْمُتَعَطِّشُونَ لِلْفَنِّ الْجَمِيْلِ، وَالْأَدَبِ الرَّفِيْعِ، فَيُرْوِي هُوْلَاءِ ظَمًا أَشْوَاقِهِمْ، وَيَشْبَعُونَ جُوعَ أَحْسَاسِهِمْ.

التَّشْكِيلُ فِي الْإِصْطِلَاحِ، إِنَّ الْمَتَنَقَّلَ بَيْنَ مَعَانِي مَادَةٍ (شَكَل) يَلْحَظُ الْعَلَاقَةَ الْوَشِيْجَةَ بَيْنَ الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةِ، وَالْمَعْنَى الْإِصْطِلَاحِيَّةِ، فَكَثِيْرٌ مِنْ اسْتِخْدَامَاتِ الَّلَفْظَةِ فِي الَّلُغَةِ تَحْمَلُ دَلَالَاتِ التَّشْكِيلِ فِي بَعْدِهَا الْإِصْطِلَاحِيَّةِ.

وَقَدْ تَنَاطَلَ عُلَمَاءُ الْبَلَاغَةِ الْمُشَاكَلَةَ فِي ثَنَائِهَا مُؤَلَّفَاتِهِمْ، حَيْثُ تَحَدَّثَتْ عَنْهَا صَاحِبُ (تَحْرِيرِ التَّحْبِيْرِ) ابْنُ أَبِي الْأَصْبَعِ الْمِصْرِيِّ (ت654هـ)، وَعَقَدَ لَهَا فِصْلًا، يَقُوْلُ: "إِنَّ الشَّاعِرَ يَأْتِي بِمَعْنَى مُشَاكَلٍ لِمَعْنَى فِي شَعْرٍ غَيْرِ ذَلِكَ الشَّعْرِ، أَوْ فِي شَعْرٍ غَيْرِهِ بِحَيْثُ تَكُونُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا وَصْفًا، أَوْ نَسْبًا، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْفُنُونِ، غَيْرَ أَنَّ كُلَّ صُورَةٍ أَبْرَزَ فِيهَا الْمَعْنَى فِيهَا غَيْرَ الصُّورَةِ الْآخَرَى. فَالْمُشَاكَلَةُ بَيْنَهُمَا مِنْ جِهَةِ الْغَرَضِ الْجَامِعِ لِهَمَا، وَالتَّفْرِيقَةُ بَيْنَهُمَا مِنْ جِهَةِ صُورَتَيْهِمَا الَّلَفْظِيَّةِ"⁽²⁾.

(1) الْعُلُوِيَّ، عِيَارُ الشَّعْرِ، (ص43، ص44).

(2) الْمِصْرِيِّ، تَحْرِيرِ التَّحْبِيْرِ، (ص394).

وتردّد مصطلح المُشاكَلَة عند أربابِ البلاغةِ، وأساطينِ الفصاحةِ العربِ، كابن طباطبا العلويّ، وابن الأثير، وعبد القاهر الجرجانيّ، والخفاجيّ، وابن أبي الأصبع العدوانيّ، والقزوينيّ، وحازم القرطاجنيّ، وقد سبق هؤلاء المحدثين الذين شرعوا يلوّنون في المصطلحات، ويبدّلون في المُسمّيات كالشكيل، أو البنى التّشكيلية، أو الرّخارف التّشكيلية، والتي لم تختلف عن مصطلح المُشاكَلَة الذي سبق إليه علماء البلاغة العرب، وقدّموا أروع الصّور التّشكيلية في أعمالهم الشعريّة، وإبداعاتهم النثرية، ولك أن تقرأ نصوص هؤلاء في عوالم المُشاكَلَة؛ لتطرب مع كلّ مقطوعة، وتستمتع مع أيّ منظومة بروعة المُشاكَلَة، وإبداع التّشكيل.

وذكر ابن الأثير ما أسماه الصنّاعة اللفظية التي تعتمد على اختيار الألفاظ، وشبه ذلك بحكم اللّالي: "فإنّا نتخير، وننتقي قبل النّظم الثاني نظم كلّ كلمة مع أختها المُشاكَلَة لها، لئلاّ يجيء الكلام قلقاً نافرأ عن مواضعه، وحكم ذلك العقد المنظوم في اقتران كلّ لؤلؤة منها بأختها المُشاكَلَة لها"⁽¹⁾.

وبرع الإمام عبد القاهر الجرجانيّ (ت471هـ) في رسم صورة رائعة للتّشكيل لما تحدّث عن علاقة الفنّ، والأدب بالأصباح، وحسن اختيار الألوان، فالقن من منظوره يُشبهه بالصّباغة، واختيار الألوان في صنّاعة النسيج، يقول: "وإنما سبيل المعاني سبيلُ الأصباغ التي تُعمل منها الصّور والنقوش، فكما أنّك ترى الرّجل قد تهدي من الأصباغ التي عمل منها الصّورة، والنقش في ثوبه الذي نسج إلى ضرب من التّخير والتّدبر في أنفاس الأصباغ، وفي مواقعها ومقاديرها، وكيفية مزجها لها، وترتيبه إياها إلى ما لم يتهدّ إليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب، وصورته أغرب، كذلك حال الشّاعر، والشّاعر في توخيها معاني النّحو، ووجهه التي علمت أنّها محصول النّظم"⁽²⁾.

ولم يهمل الإمام الجرجانيّ الأثر النّفسيّ الذي يحدثه التّصوير الذي يبدعه الرّسامون، والصّور الشعريّة التي يشكّلها الأدباء، وقد صرح بذلك قائلاً: "فكما أنّك تعجب، وتخلب، وتروق، وتدخل النّفس من مشاهدتها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها، ويغشاها ضرب من الفتنة لا ينكر مكانه، ولا يخفى شأنه، كذلك حكم الشعر فيما يصنعه من الصّور، ويشكّله من البدع، ويوقعه في النّفس من المعاني"⁽³⁾.

(1) ابن الأثير، المتلّ السائر، (ج1/149).

(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، (ص 88).

(3) المرجع السابق، ص 317.

وَعَوْدُهُ إِلَى النَّظْمِ الَّذِي أَبَدَعَهُ الْإِمَامُ عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيُّ، وَالَّذِي يُعَدُّ بِمَا تَحْوِيهِ هَذِهِ النَّظْرِيَّةُ مِنْ دَقَائِقَ، وَلَطَائِفَ أَجْمَلَ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ التَّشْكِيلِ، وَذَلِكَ بِمَا حَمَلَهُ مِصْطَلَحُ النَّظْمِ مِنْ وَجْهِهِ الْحُسْنِ، وَجَوَاهِرِ اللَّطْفِ، وَلَايِ الرِّقَّةِ، وَدُرِّ الْعَذُوبَةِ، وَقَبْلَ هَذَا وَذَلِكَ، جَمَالَ الْمُشَاكَلَةِ، وَجَلَالَ التَّشْكِيلِ. وَمِنْ هَذِهِ النَّظْرِيَّةِ قَصَدَ الْأُدَبَاءُ مَعِينًا لَا يَنْضَبُ، وَمِنْهُلَا لَا يَجْفُ يَرْدُونَ عَذَبَ كَلِمَاتِهِ، وَيَنْهَلُونَ مِنْ رَوَائِعِ صُورِهِ، وَبِدَائِعِ مَحْسَنَاتِهِ، فَرَسَمُوا لِمَنْ خَلْفَهُمْ سَبِيلَ الْإِبْدَاعِ، وَمَهَّدُوا لِمَنْ تَبِعَهُمْ ذُرُوبَ التَّمْيِيزِ، وَخَطُّوا لِمَنْ اقْتَفَى أَثَرَهُمْ طَرِيقَ النَّفُوقِ، فَأَوْدَعُوا فِي مَكْنُونَاتِ الْمَكْتَبَاتِ أَنْفَسَ الْأَثَارِ، وَرَوَائِعَ الْأَعْمَالِ فِي عَوَالِمِ اللَّغَةِ، وَالْأَدَابِ.

وَتَتَبَّأَيْنُ وَسَائِلَ التَّشْكِيلِ سِوَاءَ أَكَانَتْ حُرُوفًا، أَمْ أَلْوَانًا، وَيَأْتِي دَوْرُ الْأَدِيبِ فِي الْإِبْدَاعِ، وَالرَّسْمِ بِالْكَلِمَاتِ، أَوْ النَّصْوِيرِ بِالْأَلْوَانِ، فَالْحُرُوفُ الْمُتَبَاعِدَةُ الْمَخَارِجُ إِذَا أَحْسَنَ الْأَدِيبُ صِيَاغَتَهَا بِلا تَنَافُرٍ، وَتَرْكِيبِيهَا بِلا شَدْوِذٍ كَانَتْ أَكْثَرَ وَقَعًا، وَأَعْظَمَ أَثْرًا فِي النَّفْسِ، وَكَذَلِكَ الْأَلْوَانُ الْمُتَبَاعِدَةُ إِذَا أَظْهَرَ الرَّسَامُ بَرَاعَةً فِي تَأْلِيفِهَا، وَمَزَجَهَا كَانَتْ أَجْمَلَ مِنَ الْأَلْوَانِ الْمُتَقَارِبَةِ، وَعِلَّةُ ذَلِكَ " أَنَّ الْحُرُوفَ الَّتِي هِيَ أَصْوَاتٌ تَجْرِي مِنَ السَّمْعِ مَجْرَى الْأَلْوَانِ مِنَ الْبَصَرِ، وَلَاشِكَّ فِي أَنَّ الْأَلْوَانِ الْمُتَبَايِنَةَ إِذَا جُمِعَتْ كَانَتْ فِي الْمَنْظَرِ أَحْسَنَ مِنَ الْأَلْوَانِ الْمُتَقَارِبَةِ، وَلِهَذَا كَانَ الْبِياضُ مَعَ السَّوَادِ أَحْسَنَ مِنْهُ مَعَ الصُّفْرِ، لِقَرَبِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَصْفَرِ، وَبَعْدَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَسْوَدِ، وَإِذَا كَانَ هَذَا موجودًا عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ لَا يَحْسُنُ النَّزَاعُ فِيهِ، كَانَتْ الْعِلَّةُ فِي حَسَنِ اللَّفْظَةِ الْمُؤَلَّفَةِ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُتَبَاعِدَةِ فِي الْعِلَّةِ فِي حَسَنِ النُّقُوشِ، إِذَا مَزَجَتْ مِنَ الْأَلْوَانِ الْمُتَبَاعِدَةِ"⁽¹⁾.

وَلَمْ يَبْتَعِدْ حَازِمُ الْقُرْطَابِيُّ (ت684هـ) عَنْ سَابِقِيهِ، حَيْثُ أَبَدَى اِهْتِمَامًا وَاضِحًا بِمَا يَحْدِثُهُ الْأَثَرُ النَّفْسِيُّ بَيْنَ عَنَاصِرِ الصُّورَةِ الْمَرْسُومَةِ الْمَحْسُوسَةِ، أَوْ الصُّورَةِ الشَّعْرِيَّةِ الذَّهْنِيَّةِ، فَالْنَفْسُ تَتَلَدَّدُ بِالْأَشْكَالِ الْمُتَأَلِّفَةِ فِي تَكْوِينِهَا، الْمُتَنَاسِقَةِ فِي عَنَاصِرِهَا، الْمُتَأَلِّفَةِ فِي أَجْزَائِهَا، وَفِي الْمَقَابِلِ تَنْفَرُ مِنَ الْأَشْكَالِ الْمُتَنَافِرَةِ فِي تَرْكِيبِهَا، فَإِنَّ "مَنْزِلَةَ اللَّفْظِ الْمَحَاكِي بِهِ، وَأَحْكَامَ تَأْلِيفِهِ مِنَ الْقَوْلِ الْمَحَاكِي بِهِ بِمَنْزِلَةِ الْأَصْبَاغِ، وَحَسَنَ تَأْلِيفِهَا بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَنَاسُبَ أَوْضَاعِهَا مِنَ الصُّورِ الَّتِي يَمْتَلِئُهَا الصَّانِعُ، وَكَمَا أَنَّ الصُّورَةَ إِذَا كَانَتْ رَدِيئَةً، وَأَوْضَاعُهَا مُتَنَافِرَةً، وَجَدْنَا الْعَيْنَ نَابِيئَةً عَنْهَا غَيْرَ مُسْتَلْذَةِ لِمَرَاعَاتِهَا، وَإِنْ كَانَ تَخْطِيطُهَا صَحِيحًا، فَكَذَلِكَ الْأَلْفَاظُ الرَّدِيئَةُ، وَالتَّأْلِيفُ الْمُتَنَافِرُ، وَإِنْ وَقَعَتْ بِهَا الْمَحَاكَاةُ الصَّحِيحَةُ"⁽²⁾.

(1) الْخَفَاجِيُّ، سُرُّ الْفَصَاحَةِ، (ص64).

(2) الْقُرْطَابِيُّ، مِنْهَاجُ الْبَلْغَاءِ وَسِرَاجُ الْأُدَبَاءِ، (ص129).

وَرَعَمَ التَّرْكِيزَ عَلَى جَانِبِ الإِبْدَاعِ الفَنِيِّ فِي النَّحْتِ، والرَّسْمِ عِنْدَ الحَدِيثِ عَنِ التَّشْكِيلِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُ مِنْ تَنَاوُلِهِ فِي التَّشْكِيلِ الأَدَبِيِّ الَّذِي لَا يَعْنِي ظَاهِرَ اللَّفْظِ، أَوْ مَا عَرَفَ بِالشَّكْلِ، إِنَّمَا "هُوَ مَجْمُوعَةُ العَلَاقَاتِ، وَالْمَجْمُوعَاتِ التَّرْكِيبِيَّةِ الَّتِي تَحْمَلُ مَعَانِيَ مُخْتَلِفَةً تَثِيرُ انْفِعَالَاتٍ مُخْتَلِفَةً، سروراً، وحرزناً، خوفاً، وخشياً، أَوْ اطمئناناً"⁽¹⁾.

ويتوسَّعُ النُّقَادُ فِي تَعْرِيفِ التَّشْكِيلِ، فَهُوَ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِهِمْ "مِصْطَلَحٌ يَحْمَلُ دَلَالَتَيْنِ، تَدُلُّ الأُولَى عَلَى المَظْهَرِ الخَارِجِيِّ، أَي مَظْهَرِ الشَّيْءِ، وَتَدُلُّ الثَّانِيَّةُ عَلَى المَجْمُوعِ المَتَمَاسِكِ وَالمُتَوَازِنِ، وَالَّذِي لَا يَتَجَزَأُ، حَيْثُ إِنَّهُ نَتَاجُ عَمَلِيَّةٍ تَوْحِيدٍ تَرْتَبُ عَلَيْهَا تَنْظِيمُ عَنَاصِرٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَتَوْزِيْعُهَا بِحَيْثُ كَوْنَتِ هَيْكَلًا جَدِيدًا فَقَدَتِ عَنَاصِرُهَا فَرْدِيَّتَهَا، وَمَعْنَاهَا لِصَالِحِ الشَّكْلِ الَّذِي أَصْبَحَتْ جِزَاءً لَا يَتَجَزَأُ مِنْهُ"⁽²⁾.

وَيُرَى آخَرُونَ أَنَّ التَّشْكِيلَ "عَمَلِيَّةٌ تَرْكِيبِيَّةٌ مُتَكَامِلَةٌ تَهْتَمُّ بِالمُضْمُونِ اِهْتِمَامَهَا بِالشَّكْلِ، فَتَنْتَظِمُ فِيهَا كُلَّ عَنَاصِرِ الإِبْدَاعِ فِي كُلِّ حَيَوِيٍّ مُتَنَاعِمٍ"⁽³⁾.

إِنَّ التَّشْكِيلَ يَحْمَلُ فِي ثَنَائِيهِ مَعَانِيَ القُدْرَةِ عَلَى التَّلَاعُبِ بِالأَلْوَانِ لِرِسْمِ أبهى الصُّورِ، وَالرَّسْمِ بِالكَلِمَاتِ لِتَصْوِيرِ أَرْوَاعِ اللُّوْحَاتِ الأَدَبِيَّةِ، فَالتَّشْكِيلُ هُوَ "القُدْرَةُ عَلَى التَّشْكِيلِ بِأَشْكَالٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَمِنْ مَعْنَاهَا هَذَا ظَهَرَ الفُنُّ التَّشْكِيلِيُّ فِي الرَّسْمِ وَالنَّحْتِ، وَالمُهَنْدِسَةِ المَعْمَارِيَّةِ، لِقُدْرَةِ المَوَادِّ الَّتِي يَسْتَعْمِدُونَهَا عَلَى التَّشْكِيلِ المَرْغُوبِ"⁽⁴⁾. وَمِنْ هُنَا انْدَفَعَ الأُدْبَاءُ يَنْظِمُونَ، وَيَكْتُبُونَ، وَيَتَغَنُونَ، وَيَرَسِّمُونَ، وَيَصُورُونَ، وَيَشْكَلُونَ. يَنْظِمُونَ أَرْوَاعَ القَصَائِدِ، وَيَكْتُبُونَ أَعْدَبَ الكَلِمَاتِ، وَيَتَغَنُونَ بِأَحْلَى الأَلْحَانِ، وَيَرَسِّمُونَ أَجْمَلَ اللُّوْحَاتِ، وَيَصُورُونَ أَرْقَ الصُّورِ، وَيَشْكَلُونَ نَفَائِسَ النَّمَاذِجِ، وَالأَشْكَالِ. وَبِهَذَا انصَهَرَتِ الدَّلَالَاتُ المَادِيَّةُ، وَالدَّلَالَاتُ المَعْنَوِيَّةُ فِي بَوْتَقَةٍ وَاحِدَةٍ فَأَنْتَجَتْ لَنَا كَائِنًا يَحْمَلُ مَلَاحِمَ الإِبْدَاعِ، وَسَمَاتِ الإِبْهَارِ، وَلَعَلَّ هَذَا مَا حَمَلَهُ القَوْلُ: "إِعَادَةُ تَنْظِيمِ الأَشْيَاءِ وَفوقَ مِمَارَسَةِ تَشْكِيلِيَّةٍ تَوْجِدُ مُنْذُ فِتْرَةٍ طَوِيلَةٍ كَاتِّجَاهَ لَهُ بِإِخْرَاجِ الجَانِبِ الصُّورِيِّ؛ كَيْ تَسْتَعِيدَ المِمَارَسَةُ التَّشْكِيلِيَّةُ طَاقَتَهَا الحَسِيَّةَ البِنَائِيَّةَ فِي وَاجِهَاتِ الحَيَاةِ الحَضَارِيَّةِ، الحَدِيقَةِ وَمُكَوِّنَاتِهَا النَبَاتِيَّةِ، العِمَارَةِ، وَمَوَادِّهَا الصَّلْدَةِ، الكِتَابِ اللُّغَوِيِّ لِشَاعِرِ الشَّخْصِيِّ"⁽⁵⁾.

(1) الصَّفَّارُ، جَمَالِيَّةُ التَّشْكِيلِ اللُّوْنِيِّ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، (ص 59).

(2) بدوي، معجم مصطلحات الدراسات الإنسانية، (ص 148).

(3) العَف، التَّشْكِيلُ الجَمَالِيُّ فِي الشَّعْرِ الفِلَسْطِينِيِّ المُعَاصِرِ، (ص 4، ص 5).

(4) التُّونْجِي، المُعْجَمُ المِفْصَلُ فِي الأَدَبِ، (ص 253).

(5) الصَّفَّارُ، جَمَالِيَّةُ التَّشْكِيلِ اللُّوْنِيِّ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، (ص 59).

إِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ التَّشْكِيلِ لَا يَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ الْجَوَانِبِ الْمَادِيَّةِ، بَلْ يَتَجَاوَزُ ذَلِكَ إِلَى مَسَافَاتٍ أْبَعَدَ، فَعِنْدَ الْحَدِيثِ عَنِ التَّشْكِيلِ لَا يَقْصُدُ بِهِ "مَجْرَدَ الْاسْتِعَارَةِ الطَّرِيفَةِ حِينَ نَنْقُلُ الدَّلَالََةَ التَّشْكِيلِيَّةَ مِنْ مِيدَانِهَا الْأَصْلِيِّ فِي الْفُنُونِ التَّشْكِيلِيَّةِ، إِلَى مِيدَانٍ آخَرَ اصْطَلَحَ عَلَى تَسْمِيئِهِ بِالْفُنُونِ التَّعْبِيرِيَّةِ. فَعَمَلِيَّةُ التَّشْكِيلِ قَائِمَةٌ فِي هَذِهِ الْفُنُونِ، وَتَلْكَ عَلَى السَّوَاءِ، وَكُلُّ مَا يُمْكِنُ اسْتِدْرَاكُهُ مِنْ اخْتِلَافٍ هُوَ أَنَّ التَّشْكِيلَ فِي الْفُنُونِ التَّشْكِيلِيَّةِ حِسِّيٌّ، فِي حِينِ أَنَّهُ فِي الْفُنُونِ التَّعْبِيرِيَّةِ وَرَاءَ الْحِسِّيِّ"⁽¹⁾.

وَالْبُؤْنُ بَيْنَ التَّشْكِيلِ الْحِسِّيِّ، وَالتَّشْكِيلِ التَّعْبِيرِيِّ وَاسِعٌ رَغْمَ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يَحْدُثُ أَثْرًا فِي نَفْسِ الْمُتَلَقِّيِّ، سِوَاءَ أَكَانَ هَذَا التَّأثيرُ تَأثيرًا مُبَاشِرًا، أَمْ غَيْرَ مُبَاشِرٍ، وَمَعْنَى ذَلِكَ "أَنَّ الْفَنَّانَ التَّشْكِيلِيَّ إِنَّمَا يَشْكَلُ مَادَةً، وَيَنْتِجُ عَمَلًا، كِلَاهُمَا تَتَلَقَّاهُ الْحَوَاسُ تَلَقِّيًّا مُبَاشِرًا يَحْدُثُ مَعَهُ التَّوَثُّرُ الْعَصْبِيُّ الَّذِي تَنْثِيرُهُ الْمَحْسُوسَاتُ، فِي حِينِ أَنَّ الشَّاعِرَ - رَغْمَ أَنَّ عَمَلَهُ كَذَلِكَ تَتَلَقَّاهُ الْحَوَاسُ، وَيَحْدُثُ التَّوَثُّرُ الْعَصْبِيُّ الْمَنْشُودَ - يَتَجَاوَزُ الْمَحْسُوسَاتِ مِنْ حَيْثُ وَجُودِهَا الْعَيَانِيِّ الْقَائِمِ إِلَى الرُّمُوزِ الْمَجْرَدَةِ مِنْ كُلِّ مَا لِلشَّيْءِ الْمَحْسُوسِ ذَاتَهُ مِنْ خَصَائِصٍ، وَصِفَاتٍ"⁽²⁾. وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّ الْفَنَّانَ التَّشْكِيلِيَّ (الرَّسَّامَ مَثَلًا) يَقُومُ فِي عَمَلِهِ الْفَنِيِّ بِعَمَلِيَّةِ تَشْكِيلِ الْمَحْسُوسَاتِ، أَمَّا الْفَنَّانُ التَّعْبِيرِيُّ (الشَّاعِرَ مَثَلًا) فَيَتَجَاوَزُ عَوَالِمَ الْمَحْسُوسَاتِ، وَيَقُومُ فِي عَمَلِهِ الْفَنِيِّ بِعَمَلِيَّةِ تَشْكِيلِ تَرْتِحُلُ إِلَى مَا وَرَاءَ الْمَحْسُوسَاتِ، وَتَعْلُو عَلَيْهَا.

إِذَا كَانَتْ رِيشَةُ الرَّسَّامِ، وَأَنَامِلُ الْفَنَّانِ فِي عَوَالِمِ التَّشْكِيلِ لَمْ تَتَجَاوَزِ الْمَحْسُوسَاتِ، فَإِنَّ قَلَمَ الْأَدِيبِ يَتَجَاوَزُ الْمَحْسُوسَاتِ، وَيَسْبِرُ أَغْوَارَ الْمَعْنَوِيَّاتِ، وَرُبَّمَا يَتَجَاوَزُ إِلَى مَا وَرَاءَ ذَلِكَ فَيَنْفُوقُ الشَّعْرَ عَلَى اللَّوْحَاتِ الْفَنِيَّةِ، وَيَعْلُو النَّثْرَ عَلَى الرُّسُومَاتِ وَالْمَنْحُوتَاتِ؛ لِأَنَّ التَّشْكِيلَ فِي الشَّعْرِ "لَيْسَتْ مَجْرَدَ عَمَلِيَّةِ تَشْكِيلٍ لِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ كَمَا هُوَ الشَّانُ فِي آيَةٍ عِبَارَةٍ لُغَوِيَّةٍ، وَإِنَّمَا هُنَاكَ طَابِعٌ خَاصٌّ لِهَذَا التَّشْكِيلِ، يَجْعَلُ مِنَ الْكَلَامِ شِعْرًا دُونَ غَيْرِهِ مِنْ ضُرُوبِ الْكَلَامِ"⁽³⁾.

إِنَّ التَّشْكِيلَ مَرَحَلَةٌ تَحْوُلُ مِنَ الْإِبْهَامِ إِلَى الْوَضُوحِ، وَمِنْ الْعُمُوضِ إِلَى الْبَيَانِ خَاصَّةً فِي رَسْمِ الصُّورِ الْفَنِيَّةِ، سِوَاءَ أَكَانَتْ تَشْبِيهَاتٍ، أَمْ اسْتِعَارَاتٍ، أَمْ كِنَايَاتٍ، وَمِنْ هُنَا كَانَ الْأُدْبَاءُ فِي حَاجَةٍ إِلَى مَزِيدٍ جَهْدٍ، وَبَعْدَ نَظَرٍ عِنْدَ تَقْدِيمِ أَعْمَالِهِمُ الْأَدْبِيَّةِ، وَذَلِكَ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَنَاقُوا بِأَعْمَالِهِمْ عَنِ الْعُمُوضِ، وَيَسْلُكُوا دُرُوبَ الْوَضُوحِ، وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ الْقَوْلُ: "إِنَّ الشُّعُورَ يَظُلُّ مَبْهَمًا فِي نَفْسِ

(1) إِسْمَاعِيلُ، التَّفْسِيرُ النَّفْسِيُّ لِلأَدَبِ، (ص 57).

(2) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 57.

(3) الْمَرْجِعُ نَفْسَهُ، ص 58.

الشاعر، فلا يتضح له إلا بعد أن يتشكل في صورة، ولا بد أن يكون للشعراء قدرة فائقة على التصور تجعلهم قادرين على استكناه مشاعرهم، واستجلائها⁽¹⁾. ويبرز النقاد ذلك بقولهم "إن تشكيل الصورة الشعرية معضل، ولاشك، وتشكيل صورة القصيدة أكثر إعضالاً... فلماذا يلجأ الشاعر إلى تشكيل الصورة على هذا النحو؟ أي ماذا يدفعه إلى هذه المغامرة؟ ولماذا يؤثر الرمز دون الحقائق الواقعة؟ وما المعايير التي يصدر عنها في خلق علاقات بذاتها بين هذه الرموز المتباعدة غير المرتبطة من قبل؟"⁽²⁾.

إن الأمر الذي لا يمكن إهماله عند الحديث عن التشكيل، هو إطلاق العنان للفكر للإبداع، ومنح الحرية للأنامل للكتابة والتصوير، وفتح أبواب الخيال أمام مرأى الفنان؛ ليشكل ما شاء، متى شاء، وأتى شاء؛ فإن الحرية تفتح أبواباً كانت موصدة أمام الشاعر، والأديب، وترسم دروباً مضيئة للفنان، والمبدع، فيندفع هؤلاء جميعاً بلا أي حواجز، أو موانع للإبداع كل في ميدانه، ومن هنا ترسم أجمل اللوحات، وتنظم أروع القصائد، وتكتب أعذب الكلمات في عوالم الأدب، والفن، فيقضي كل وطره، ويسد رمق ظمئه، ويستمتع الجميع بكل ما هو حسن وجميل، أو بهي وجليل.

هكذا تحرك أنصار الجمال والتشكيل، ومن هذه القاعدة الثابتة انطلقوا، فأرسوا دعائم الجمال، وشيدوا قصور الحس والجلال، وأقاموا أبنية التشكيل، فلم يمنع انطلاقهم صوب الجمال مانع، ولم يوقف اندفاعهم تجاه التشكيل ساتر، فامتلكوا أجنحة الحرية التي حلّقوا بها في كل اتجاه، وصوب، وحازوا شرف البلاغة التي منحتهم السنة الفصاحة، والبيان، فجادت قرائحهم بديع الكلام، وكلام البديع، وعزفت مواهبهم ألحان الجمال، وجمال الألحان، وترنمت السننهم بأروع الكلمات، وأعذب النغمات، وأرق الأغنيات.

(1) إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، (ص 72).

(2) المرجع السابق، ص 74، ص 75.

الفصل الأول
فنُّ المقامة
في
العصر العثماني

الفصل الأول: فنّ المقامة في العصر العثماني

المبحث الأول: فنّ المقامة، المفهوم، النشأة، والتطور

يكاد يتفق كثير من النقاد أنّ فنّ المقامات من الفنون التراثية الأصيلة شأنها شأن شجرة راسخة الجذور، أصلها ثابت، وفرعها قد يرقى إلى السماء، رغم محاولة بعض النقاد غير العرب سرقة هذا النتاج الأدبي من ناحية، أو محاولات بعض النقاد العرب طمس معالم هذا الفنّ الأصيل من ناحية أخرى. كما يعدّ هذا الفنّ من أكثر الفنون النثرية إثارة للجدل، نظراً لكثرة المناهضين له، واختلاف الآراء في أصله ونشأته، وقلة، بل ندرة الدراسات التي تناولت هذا الفنّ في العصر العثماني على وجه الخصوص. بيد أنّ نقطة الاتفاق بين الدارسين أنّ هذا الفنّ نشأ في العصر العباسي، وبالتحديد في "نهاية القرن الرابع الهجري الذي شهد ميلاد جنس المقامات على يد بديع الزمان الهمداني الذي سارت مقاماته شرقاً وغرباً"⁽¹⁾. أضف إلى ذلك أنّ بديع الزمان الهمداني هو أول من "مهّد الطريق، وعبده لظهور هذا الفنّ"⁽²⁾.

ورغم ذلك، فإنّ هناك بعض التساؤلات يطرحها الدارسون، ويلقبها المهتمون بتتبّع تاريخ الأدب العربي وفنونه، أهمها: ما أصل المقامات؟ وما مدى أحقية بديع الزمان الهمداني بالسبق والريادة فيه؟ وهل سيواصل هذا الفنّ طريق النجاح؟ أم أنّ نجمه سيكون مصيره إلى الأفل في يوم من الأيام؟.

هذه التساؤلات، وغيرها كثير تُطرح، وتحتاج إلى إجابة قد يُحاول بعض الدارسين إيجاد الحلول لها، بينما يتهرّب الأكثرون من شقّ طريق هذا الفنّ، وسبر أغواره رغم عدم وعورة ذلك الطريق.

المقامة في اللغة، والاصطلاح

المقامة في اللغة، مأخوذة من مادة (قَوَّمَ)، والقوم: الرجال دون النساء، ولا واحد له، ومنه المقامة بالضم، والمقام والمقام⁽³⁾، والمقامة هي المجلس، ومقامات الناس مجالسهم، وقد استعملت بمعنى مجلس القوم، أو ناديها، ومن شواهد استعمال ذلك المعنى في الشعر، قول زهير بن أبي سلمى:

(1) مرتاض، في نظرية الرواية، (ص 167).

(2) ضيف، المقامة، (ص 5).

(3) يُنظر: الجوهري، الصحاح، (ج 5/2017). مادة (قَوَّمَ).

وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفِعْلُ⁽¹⁾

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حَسَنٌ وَجُوهُهُمْ

وَقَوْلُ بُشَامَةَ بْنِ الْغَدِيرِ الْغُدْرِيِّ⁽²⁾:

نَحْوُ الْمَقَامَةِ مِنْ بَنِي الْأَصْغَرِ⁽³⁾

وَشَرِبْتُ بِالْقَعْبِ الصَّغِيرِ وَقَادَنِي

وتأتي المقامة أيضاً بمعنى الجماعة التي يضمها المجلس، أو النادي، ومن شواهد

استعمالها بهذا المفهوم، قول لبيد بن ربيعة:

جِنُّ لَدَى بَابِ الْحَصِيرِ قِيَامٌ⁽⁴⁾

وَمَقَامَةٌ غَلْبُ الرِّقَابِ كَأَنَّهُمْ

والمقامة (بفتح الميم) في أصل اللغة اسم للمجلس، والجماعة من الناس، أما المقامة

(بضم الميم) فهي بمعنى الإقامة، ومنه قوله تعالى حكاية عن أهل الجنة: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ

الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: 35].

إن دار المقامة هي دار الإقامة التي لا نقلها معها عنها، والميم إذا ضمت في المقامة

فهي من الإقامة، وإذا فُتحت فهي من المجلس، أو المكان الذي يُقام فيه. ومن مشاهد هذا

المعنى، قول سلامة بن جندل:

يَوْمَ سَيْرٍ إِلَى الْأَعْدَاءِ تَأْوِيبٌ⁽⁵⁾

يَوْمَانِ يَوْمٌ مَقَامَاتٍ وَأَنْدِيَةٌ

لقد تزيين القرآن الكريم بهذه الكلمة فقد وردت في سبعة مواضع، في سبع آيات، منها

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: 125]،

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْهُم يَبْأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب: 13]، وقوله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان: 51].

(1) ابن أبي سلمى، ديوان زهير، (ص7).

(2) هو بشامة بن الغدير بن عمرو بن هلال بن سعد، شاعر محسن مقدم، وهو خال زهير بن أبي سلمى، ولد مقعداً، ولا ولد له، كان مكثراً من المال، فلما حضره الموت جعل يقسم ماله في أهل بيته، وبني أخوته، فأتاه زهير فقال: يا خاله، لو قسمت لي من مالك! فقال: والله يابن أختي، لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله، فقال:

وما هو؟ فقال: شعري ورتنتيه. الضبي، المفضل، (المفضليات، (ص55).

(3) الضبي، المفضليات، (ص407).

(4) ابن ربيعة، ديوان لبيد، (ص290).

(5) ابن جندل، ديوان سلامة بن جندل، (ص53).

ولم يتوقّف مفهوم المَقَامَةِ عند ذلك المَعْنَى، بل تطوّر عبر العُصُورِ حتى أصبحَ يعني (الأحداث من الكلام)، يَقُولُ صاحبُ (صَبْحُ الأَعْشَى فِي صِنَاعَةِ الإنْشَاءِ)، القَلْفَشْنَدِيّ فِي معرضِ حديثهِ عن المَقَامَةِ، ومحاولةِ وضعِ مصطلحٍ ثابتٍ لها، فقد "سُمِّيَتِ الأحداثُ من الكلامِ مَقَامَةً، كَأَنَّهَا تُذَكَّرُ فِي مجلسٍ واحدٍ يجتمعُ فِيهِ الجَمَاعَةُ من النَّاسِ لسماعِهَا"⁽¹⁾.

المَقَامَةُ فِي الاصْطِلَاحِ:

تعددتُ تعريفاتُ المَقَامَةِ عندَ النُّقَادِ، وَرَغِمَ تعدُّدُ التَّعْرِيفَاتِ نجدُ أَنَّ معظمها يصبُّ فِي بَوْتَقَةٍ وَاحِدَةٍ، فَإِذَا عدنا إِلَى العَصْرِ الإسلاميِّ مثلاً، نجدُ أَنَّ معناها المجلسُ الَّذِي يَقُومُ عَلَى شخصينِ بَيْنَ يَدَيِ الخليفةِ واعظاً، وقد استُخْدِمَت بِمَعْنَى المحاضرة⁽²⁾، وَهُنَاكَ عِلَاقَةٌ وَطِيْدَةٌ بَيْنَ المَعْنَى اللغويِّ، وَالمَعْنَى الاصْطِلَاحِيِّ، فَالمَعْنَى اللغويُّ بِمَثَابَةِ تمهيدٍ، وتوطئةٍ لِلْمَعْنَى الاصْطِلَاحِيِّ، حَيْثُ تُعْرَفُ بِأَنَّهَا: "سَرْدٌ قصصِيٌّ قصيرٌ، يعتمدُ عَلَى حادثٍ يقعُ لبطلٍ، ويرويهِ له راويةٌ فِي أسلوبٍ مُنَمَّقٍ، وَسُمِّيَتِ المَقَامَةُ بالأحداثِ من الكلامِ؛ لِأَنَّهَا تُذَكَّرُ فِي مجلسٍ واحدٍ يجتمعُ فِيهِ الجَمَاعَةُ لسماعِهَا"⁽³⁾.

أما السِّيَوطِيُّ (ت911هـ) فقد توسَّعَ فِي بيانِ مفهومِ المَقَامَةِ، فهي فِي عرفهِ "تصُّ أَدبِيٌّ مَسْجُوعٌ، مُرْصَعٌ بِالمُحَسَّنَاتِ البَدِيعِيَّةِ، وَغيرِ مقيِّدٍ بطولِ معيَّن، يتعاطاه الأديبُ لإظهارِ براعته، وتفوقهِ، أو لإبداءِ رأيه فِي قضيَّةٍ ما، أو لاتِّخاذه ستاراً للتَّعْبِيرِ عن نزعاتهِ الظَّاهِرَةِ، أو المكبوتَةِ، أو للدَّلالَةِ عَلَى مَكَانَتِهِ"⁽⁴⁾.

وَمِنَ النُّقَادِ مَنْ أوردَ تعريفاً للمقامة ارتبطَ بالقصصِ الَّتِي تتداخلُ فِيها فنونٌ شتَّى، فهي فِي عرفهم: "القصصُ القصيرةُ الَّتِي يودعها الأديبُ ما يشاءُ من فكرةٍ أدبيَّةٍ، أو فلسفيَّةٍ، أو نظريَّةٍ وجدانيَّةٍ، أو لمحَّةٍ من لمحاتِ الدُّعَابَةِ والمجونِ"⁽⁵⁾.

وَلَمْ يَبْتَعُدْ معظمُ النُّقَادِ عن هَذَا التَّعْرِيفِ كَثِيراً، بل داروا فِي ذاتِ الفلَكِ، فهي فِي عرفهم أَيْضاً: "قِصَّةٌ قصيرةٌ، أو حكايةٌ فِي ثوبٍ مُنَمَّقٍ من اللَّفْظِ، يتلاعبُ فِيها الأديبُ؛ لمقدرته

(1) القَلْفَشْنَدِيّ، صَبْحُ الأَعْشَى فِي صِنَاعَةِ الإنْشَاءِ، (ج14/110).

(2) يُنْظَرُ، ضيف، المَقَامَةُ، (ص7).

(3) القَلْفَشْنَدِيّ، صَبْحُ الأَعْشَى فِي صِنَاعَةِ الإنْشَاءِ، (ج14/110).

(4) السِّيَوطِيُّ، شرح مقامات السِّيَوطِيِّ، (ج1/43).

(5) مبارك، النثر الفني فِي القرنِ الرَّابِعِ، (ص242).

التعبيرية، ويرصّعها بضروبٍ من البديع، كما يقصد بها أن تكون طرفةً، ومتعةً للمجلس، أو للسامعين⁽¹⁾.

إنَّ الأمرَ الَّذِي لا يمكنُ أنْ يُنكرَه الدَّارِسُونَ حَوْلَ المَقَامَةِ "أنَّ استعمالها للدَّلالةِ عَلَى المَعْنَى الاصْطِلَاحِيِّ لِمَقَامَاتِ الأَدبِيَّةِ، فَلبَدِيعِ الزَّمَانِ الهَمْدَانِيِّ فَضْلَ السَّبْقِ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَطْلَقَ كَلِمَةَ مَقَامَاتٍ عَلَى هَذَا اللَّوْنِ الجَدِيدِ مِنَ ألوانِ الكِتَابَةِ الفَنِيَّةِ؛ إِذْ سَمَّى كِتَابَهُ المَعْرُوفَ بِاسْمِ كِتَابِ المَقَامَاتِ"⁽²⁾.

وَلَمْ يَبْتَعِدْ آخَرُونَ مِنَ النُّقَادِ عَنِ قِصَصِيَّةِ المَقَامَةِ، فَهِيَ عِنْدَهُمْ قِصَّةٌ وَجِيزَةٌ حِوَارِيَّةٌ لِعَوِيَّةٍ مَسْجُوعَةٌ، كَتَبَتْ بِأَسْلُوبٍ بَدِيعِيٍّ"⁽³⁾.

لَقَدْ بَرَعَ الأَدبَاءُ العَرَبُ فِي فَنُونِ أَدبِيَّةِ شَتَّى، أَبْهَرَتِ الأَلْبَابَ، وَفَتَتِ القُلُوبَ، وَسَمَتْ تِلْكَ الفُنُونُ حَتَّى فَاقَتْ الآدَابَ الأُخْرَى، وَلَعَلَّ "أَعْظَمَ الأَجْنَاسِ النَّثْرِيَّةِ، فِي الأَدَبِ العَرَبِيِّ شَأْنًا، وَأَطْوَلُهُ عُمُرًا، وَأَقْدَرُهُ عَلَى القِيَامِ فِي وَجْهِ الدَّهْرِ عَلَى مَدَى قَرِيبٍ مِنْ عَشْرَةِ قُرُونٍ؛ إِنَّمَا هُوَ جِنْسُ المَقَامَةِ. فَلَوْ حُفِظَتْ كُلُّ نِصُوصِ المَقَامَاتِ، ثُمَّ طُبِعَتْ وَنَشِرَتْ بَيْنَ النَّاسِ، لَشَكَّلَتْ تَرَاثًا أَدبِيًّا نَثْرِيًّا ضَخْمًا. وَعَلَى مَا أَصَابَ نُصُوصَهَا مِنْ تَلْفٍ وَضِياعٍ فِي المَشْرِقِ، وَالمَغْرِبِ جَمِيعًا فَقَدْ احْتَفِظَ لَنَا الزَّمَنُ بِكَثِيرٍ مِنْ تِلْكَ النُّصُوصِ الَّتِي تُعَدُّ كَثِيرَةً، كَثْرَةٌ نَسْبِيَّةٌ عَلَى الأَقْلِ، وَنَاهِيكَ أَنْ عَدَدَ كِتَابِ المَقَامَاتِ جَاوَزَ المِائَةَ والعَشْرِينَ مَقَامِيًّا"⁽⁴⁾.

احْتَفِظَتْ المَقَامَةُ بِشَكْلِهَا، وَمُضْمُونِهَا، وَأَصُولِهَا الفَنِيَّةِ، وَقَدْ ظَلَّ جِنْسُ المَقَامَةِ قَائِمًا بِتَقَالِيدِهِ الأَدبِيَّةِ، وَأَصُولِهِ الفَنِيَّةِ، مِنْ لَدُنْ بَدِيعِ الزَّمَانِ الهَمْدَانِيِّ إِلَى المُوَيْلِحِيِّ، بَلْ إِلَى حَافِظِ إِبرَاهِيمِ، بَلْ إِلَى مُحَمَّدِ البَشِيرِ الإِبْرَاهِيمِيِّ، وَإِذَا تَأَمَّلْتَ هَذَا الجِنْسَ الأَدَبِيَّ العَرَبِيَّ القَحَّ أَلْفِيَّتَهُ هُوَ الجِنْسُ الأَدَبِيَّ النَّثْرِيَّ الوَحِيدَ الَّذِي يَمْتَلُ وَجْهَ الإِبْدَاعِ الرَّاقِي فِي العَرَبِيَّةِ بِحَقِّ، أَوْ الإِبْدَاعِ المَعْتَرَفِ بِأَدبِيَّتِهِ أَكْثَرَ بَيْنَ أَدبَاءِ العَرَبِيَّةِ الغَابِرِينَ عَلَى الأَقْلِ. فَكَأَنَّ الَّذِي يَصَادِي الشُّعْرَ العَرَبِيَّ فِي رَأْيِنَا عَلَى الأَقْلِ إِنَّمَا هُوَ نَثْرٌ مَقَامِيٌّ، وَليس مطلق النَّثْرُ، فَالمَقَامَةُ هِيَ الجِنْسُ الأَدَبِيُّ المَعَادِلُ فِي مِيزَانِ تَارِيخِ الأَدَبِ العَرَبِيِّ لَجِنْسِ الشُّعْرِ"⁽⁵⁾.

(1) سلام، الأَدَبُ فِي العَصْرِ المَمْلُوكِيِّ، (ج2/99).

(2) أبو علي، نقد النَّثْرِ فِي تَرَاثِ العَرَبِ النَّقْدِيِّ حَتَّى نِهَايَةِ العَصْرِ العَبَاسِيِّ 656هـ، (ص309).

(3) سليم، الأَدَبُ العَرَبِيُّ وَتَارِيخُهُ فِي عَصْرِ المَمَالِيكِ وَالعُثْمَانِيَّينَ وَالحَدِيثِ، (ص37).

(4) مرتاض، فن المَقَامَاتِ فِي الأَدَبِ العَرَبِيِّ، (ص160).

(5) أبو علي، نقد النَّثْرِ فِي تَرَاثِ العَرَبِ النَّقْدِيِّ حَتَّى نِهَايَةِ العَصْرِ العَبَاسِيِّ 656هـ، (ص309).

وَرَعْمَ تَنَوُّعِ التَّعْرِيفَاتِ، وَتَعَدُّدِ مِنْ وَضَعِ الْمُصْطَلَحِ الْمَقَامِيِّ، إِلَّا أَنَّ مَعْظَمَ النُّقَادِ يُجْمَعُونَ عَلَى أَنَّ بَدِيعَ الزَّمَانِ هُوَ أَوَّلُ مَنْ أَعْطَى كَلِمَةَ مَقَامَةَ مَعْنَاهَا الْإِصْطِلَاحِيَّ بَيْنَ الْأَدْبَاءِ؛ إِذْ عَبَّرَ بِهَا عَنْ مَقَامَاتِهِ الْمَعْرُوفَةِ، وَهِيَ جَمِيعُهَا تَصَوَّرُ أَحَادِيثَ تَلْقَى فِي جَمَاعَاتٍ، فَكَلِمَةُ مَقَامَةَ عِنْدَهُ قَرِيبَةٌ الْمَعْنَى مِنْ كَلِمَةِ حَدِيثٍ⁽¹⁾.

وَقَدْ تَعْنَى كَثِيرٌ مِنَ الْكُتَّابِ بِالْمَقَامَةِ، وَرُوعَةَ أَسْلُوبِهَا، وَسِحْرَ بَيَانِهَا، وَجَمَالَ بَدِيعِهَا، وَتَعَلَّقَ السَّامِعِينَ بِإِبْدَاعِهَا، فَهِيَ فِي نَظْرِ هَؤُلَاءِ "رِيَاضُ أَزْهَارٍ، وَغِيَاضُ أَفْكَارٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، قَدْ أَطْرَدَتْ مِنْ مَنبَعِ الْبَلَاغَةِ أَنْهَارُهَا، وَغَرَّدَتْ بِأَلْسِنِ الْفَصَاحَةِ أَطْيَارُهَا"⁽²⁾.

نَشَأَةُ الْمَقَامَاتِ

اِخْتَلَفَ النُّقَادُ حَوْلَ نَشَأَةِ الْمَقَامَةِ فَرَأَى بَعْضُهُمْ أَنَّ أَسْلَ الْبَدِيعِ الْمَقَامَاتِ فَارِسِيٌّ، وَأَنَّهَا انْتَقَلَتْ مِنَ اللُّغَةِ الْفَارْسِيَّةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ، بَيِّنًا أَنَّ آخِرِينَ رَأَوْا أَنَّ الْمَقَامَاتِ ظَهَرَتْ فِي اللُّغَتَيْنِ الْعَبْرِيَّةِ وَالسَّرْيَانِيَّةِ بَعْدَ تَرْجُمَةِ مَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ، وَلَوْ كَانَ أَسْلُ الْمَقَامَاتِ فَارِسِيًّا لَكَانَ الْأَوْلَى أَنْ تَنْتَقَلَ الْمَقَامَاتُ إِلَى هَاتَيْنِ اللُّغَتَيْنِ مِنَ الْمَقَامَاتِ الْفَارْسِيَّةِ، وَلَيْسَ الْعَرَبِيَّةِ، هَذَا مِنْ نَاحِيَّةٍ، وَمِنْ نَاحِيَّةٍ أُخْرَى فَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ أَلْفَ مَقَامَاتٍ فَارِسِيَّةً، هُوَ الْقَاضِي حَمِيدُ الدِّينِ الَّذِي نَهَجَ نَهْجَ بَدِيعِ الزَّمَانِ الْهَمْدَانِيِّ، وَتَرَسَّمَ خَطَاهُ رَغْبَةً مِنْهُ فِي إِدْخَالِ هَذَا الْفَنِّ إِلَى اللُّغَةِ الْفَارْسِيَّةِ.

إِنَّ الْمَقَامَةَ فَنٌّ عَرَبِيٌّ أَصِيلٌ، وَلَا طَرِيقَ لِلتَّشْكِيكِ فِي ذَلِكَ، أَوْ سَرَقَةَ هَذَا السَّبْقِ، أَمَا هَدَفُهَا الْأَسَاسُ فَهُوَ تَعْلِيمُ النَّاسِ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ، وَأَسَالِيبَهَا مِنْ نَاحِيَّةٍ، وَمَعْرِفَةُ فَنُونِهَا، وَأَفْنَانِهَا مِنْ نَاحِيَّةٍ أُخْرَى.

وَإِذَا كَانَ تَضَارُبُ الْأَقْوَالِ شَدِيدًا فِي أَسْلِ الْمَقَامَاتِ، فَإِنَّ التَّضَارُبَ حَوْلَ مَخْتَرِهَا كَانَ أَشَدَّ وَأَعْنَفَ، وَيَبْدُو هَذَا التَّضَارُبُ بَيْنَ النُّقَادِ وَالدَّارِسِينَ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

الْفَرِيقُ الْأَوَّلُ: رَأَى أَنَّ السَّبْقَ لَابِنِ دَرِيدِ (223-321هـ)، وَأَنَّ بَدِيعَ الزَّمَانِ عَارِضَ ابْنِ دُرَيْدِ فَنَشَأَتِ الْمَقَامَاتِ، وَيَسْتَدِلُّ هَذَا الْفَرِيقُ بَعْدَةَ أَقْوَالٍ، مِنْهَا:

أَوَّلًا: قَوْلُ الْحَصْرِيِّ: "إِنَّ بَدِيعَ الزَّمَانِ لَمَّا رَأَى أَبَا بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَسَنِ بْنِ دَرِيدِ الْأَزْدِيِّ أَغْرَبَ بِأَرْبَعِينَ حَدِيثًا، وَذَكَرَ أَنَّهُ اسْتَنْبَطَهَا مِنْ يَنَابِيعِ صَدْرِهِ، وَانْتَخَبَهَا مِنْ مَعَادِنِ فِكْرِهِ، وَأَبْدَاهَا لِلْأَبْصَارِ

(1) مرتاض، في نظرية الرواية، (ص 160).

(2) شريف، المقامة الشريفة في مزايا اللغة العربية، (ص 3).

والبصائر، وأهداها للأفكار والضمائر، في معارض عجمية، وألفاظ حوشية... عارضه بأربعمائة مقامة في الكدبية، تذوب ظرفاً، وتقطر حسناً⁽¹⁾.

ثانياً: هناك نقاط التقاء واتفاق بين أحاديث ابن دريد، ومقامات بديع الزمان الهمداني، وتتمثل نقاط الالتقاء في الاسم، أي الاسم الذي سمى به بديع الزمان فنه الأدبي (الحديث)، ويجمع على (أحاديث)، وهو الاسم الذي اختاره ابن دريد لأقاصيصه، كما أن الغاية من أحاديث ابن دريد، ومقامات البديع واحدة، وهي تعليم الناس اللغة⁽²⁾.

الفريق الثاني: رأى أن بديع الزمان الهمداني هو مخترع هذا الفن، وحججهم رداً على قول الفريق الأول كثيرة، منها:

1- إن أحاديث ابن دريد نادر، ولطائف لم يستقل بها دون غيره، فقد خاض غمار هذه الأحاديث أبو عمرو الجاحظ (160-255هـ) في مؤلفيه (الحيوان)، و(البخلاء)، وابن قتيبة (213-277هـ) في (عيون الأخبار)، وابن عبد ربه (246-328هـ) في (العقد الفريد) كذلك.

2- إن ابن دريد كان يبدأ أحاديثه بذكر سند الحديث، بينما لا يفعل بديع الزمان الهمداني كذلك.

3- إن أبطال ابن دريد، ورواته كثر، فهم يختلفون من حديث لآخر، أما بديع الزمان الهمداني فبطله واحد، هو: (أبو الفتح الإسكندري)، وروايته أيضاً واحد، هو: (عيسى بن هشام).

4- جعل بديع الزمان الهمداني الكدبية محوراً رئيساً لأغلب مقاماته، بينما لم تنهج أحاديث ابن دريد هذا النهج، ولم تنح ذلك المنحى.

5- مالت أحاديث ابن دريد إلى الطريقة التقريرية المباشرة، أما بديع الزمان الهمداني فقد ابتعد عن تلك التقريرية، حيث غلف أهدافه داخل الحكمة الفنية للمقامة.

6- إن استشهاد أصحاب الرأي القائل بأن بديع الزمان الهمداني عارض ابن دريد في مقاماته، يحمل في ثناياه تناقضاً واضحاً حول معارضة البديع لابن دريد - وأعني في العدد - فأحاديث ابن دريد تبلغ أربعين حديثاً، ومقامات بديع الزمان - وفقاً لقول الحصري السابق، وبغض النظر عن الاختلاف في عدد المقامات - قد وصلت إلى أربعمائة مقامة، فكيف يعارض الهمداني أربعين حديثاً بأربعمائة مقامة؟ فالمقارنة هنا مقارنة ضيزى.

(1) الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، (ج1/106).

(2) الفلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، (ج14/125).

إنَّ اختلافَ الآراءِ حولَ تأثُرِ بَدِيعِ الزَّمَانِ الهَمْدَانِيِّ بأحاديثِ ابنِ دريدٍ لا ضيرَ فيه، إنَّ كانَ الأمرُ صحيحاً، فقد أظهرَ بَدِيعُ الزَّمَانِ الهَمْدَانِيُّ هَذَا الفَنَّ في صُورَةٍ فَنِيَّةٍ رَاضِيَةٍ، وقد عُدَّ رائدُ هَذَا المَجَالِ، وزعيمُهُ المُجِيدُ، بلْ لَقَدْ التَّصَقَّ اسْمُ المَقَامَاتِ بِبَدِيعِ الزَّمَانِ في أَذْهَانِ النَّاسِ، وحسبه ذلك⁽¹⁾.

وَيُمْكِنُ القَوْلُ هُنَا إِنَّ التَّأثُرَ، والتَّأثِيرَ ليسا عيباً، أو نقصاً في ميدانِ الأدبِ إذا ظهرَ الاختلافُ بينَ الأدباءِ، ولكنَّ العيبَ في التَّشَابِهِ التَّامِّ الَّذِي يَلْقَى بِظِلَالِ السَّرِقَةِ عَلَى الأَعْمَالِ الأدبيَّةِ، وَإِذَا كَانَ بَدِيعُ الزَّمَانِ الهَمْدَانِيُّ قد أخذَ من ابنِ دريدٍ حقاً، فَإِنَّ ذلكَ لا يعيبه، بلْ يزيدهُ من إبداعه الفذِّ النَّادرِ المثلِ؛ إذ ليسَ من السَّهْلِ أنْ يتفوقَ التلميذُ عَلَى أستاذه، وقد احتذى العديدهُ من الأدباءِ حذو هَذَا الأُسْتَاذِ الفذِّ، وَلَعَلَّ الحَرِيرِيَّ من أبرزهم، بالإضافةِ إِلَى الغزاليِّ (450 - 505هـ)، وصلاحِ الدِّينِ الصَّفَدِيِّ (696-764هـ)، وغيرهم، بيدَ أنْ هَوْلَاءِ كَلَّمَهُمْ لَمْ يصلوا مكانةَ بَدِيعِ الزَّمَانِ الهَمْدَانِيِّ في هَذَا الفَنِّ البَدِيعِ.

والأمرُ الثَّابِتُ الَّذِي لا مَجَالَ للشَّكِّ فيه في آخِرِ المَطَافِ أَنَّهُ "كَانَ يُمْكِنُ أَنْ نَصَلَ إِلَى نَفْسِ النَّتِيجَةِ، إذا ما قلنا إنَّ بَدِيعَ الزَّمَانِ الهَمْدَانِيِّ هو الَّذِي أرسى أصولَ هَذَا الفَنِّ الأدبيِّ بعدَ أنْ استفادَ من مُحَاوَلَاتِ سابقيه، أليستَ هذه هي النَّتِيجَةُ الَّتِي توصلَ إِلَيْهَا جميعُ الَّذينَ أشرنا إِلَيْهِمْ سِوَاءَ أَكَانَ اقتداءً البَدِيعِ بابنِ دريدٍ، أم بابنِ فارسٍ؟!!"⁽²⁾.

والْحَقِيقَةُ الَّتِي لا شكَّ فيها أَنَّ المَقَامَةَ تمثَّلُ أحدَ أهمِّ الأشكالِ الإبداعيةِ الَّتِي أفرزتها العَقْلِيَّةُ العَرَبِيَّةُ، وَالَّتِي عُدَّتْ كأحدِ الأجناسِ الأدبيَّةِ منذَ أنْ أبدعها بَدِيعُ الزَّمَانِ الهَمْدَانِيُّ، ووضعَ لها مِنْ جِلَالِ إبداعه شروطها الَّتِي تحقَّقتْ بعدَ ذلكَ في مقاماتِ الحَرِيرِيَّ، فبلغتِ الذَّرْوَةَ في هَذَا الشَّكْلِ، ولم يكنْ مبدعو فَنِّ المَقَامَةِ في العَصْرِ المملوكيِّ بأقلِّ درجةٍ في كتابَةِ المَقَامَاتِ، بلْ تفوقوا عَلَى سابقيههم، فبرزَ منهم ابنُ الورديِّ (691-749هـ)، والشَّابُّ الطَّرِيفُ (661-688هـ)، وأبو العباسِ القَلْفُشْنَدِيِّ (756-821هـ)، وجلالِ الدِّينِ السِّيَوطِيِّ (849 - 911هـ)، وما لبثَ أنْ انتهى العَصْرُ المملوكيُّ، وبدأ العَصْرُ العُثمانيُّ فأنجبَ أعظمَ كُتَّابِ المَقَامَةِ، أمثالَ شِهَابِ الدِّينِ الحَفَاجِيِّ (977 - 1069هـ)، وناصيفِ اليَارُجِيِّ (1800-1871م)، وأحمدِ فَارِسِ الشَّدِياقِ (1219 - 1305هـ)، ونقولا التُّركِ (1176-1244هـ)، وغيرهم كَثِيرُونَ ممن حملوا

(1) يُنظَرُ: ضيف، المَقَامَةَ، (ص9).

(2) أبو علي، نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي 656هـ، (ص309).

رأية الإبداع في هذا الميدان، وتبوؤوا مكانة بارزة في تاريخ الأدب العربي، وأسهموا مساهمة فعالة في رسم ملامح الأدب العثماني.

عوامل ازدهار فنّ المقامات في العصر العثماني

ازدهر فنّ المقامة في العصر العثماني شأنه شأن فنون النثر الأخرى، وربما تكون عوامل ازدهار الفنون الأخرى هي ذاتها عوامل ازدهار المقامة، وقد تشترك بعض العوامل فنري بعضها هي ذات العوامل في العصور السابقة، ومن أهم هذه العوامل:

1- اتساع رقعة الدولة العثمانية التي امتدت عبر ثلاث قارات، ومع هذا الاتساع ازداد عدد الأدباء من ناحية، وتنوعت مشاربهم من ناحية أخرى، وكان من البدهي أن يولد هذا الاتساع فناً متعددًا، وألوانًا متنوّعة من فنون الأدب، كان من بينها فنّ المقامة، وقد أدت المنافسة بين الأقطار التي انصوت تحت لواء الدولة العثمانية إلى الإجابة والإبداع، ولعلّ من صور هذا الإبداع تعدد المقامات التي غلبت عليها المسميات الوطنية، فمن المقامة المغربية إلى اللبنانية، ومن المصرية إلى اليمنية، ومن العمانية إلى الرصافية، ومن الدمشقية إلى الحلبية، ومن المقامات ما حملت مسمياتها معنى القدسية، كالمكية، والقدسية، والأزهرية، ومنها ما حمل عبق التراث، كالعكاظية، والكوفية، والبصرية، والتغلبية، والخزرجية، ومنها ما حمل صفة الوفاء للأفذاذ، كالمعريّة.

2- تشجيع السلاطين والأمراء للأدب، والأدباء حالّهم حال الدول الأخرى، فقد أعظم سلاطين الدولة العثمانية الأدباء، وأكرموا وفادتهم، فأجزلوا لهم المنح والعطايا، ولعلّ اهتمام هؤلاء السلاطين بالأدب كان له الدور الرئيس في تطور كثير من الفنون، كان من بينها تطور فنّ المقامة وازدهاره. كما كان لهم الدور العظيم في دفع الأدباء إلى القول، والتفنن فيه، فما هو السلطان سليمان بن سليم (ت 974هـ)، والذي بلغت الدولة العثمانية في عهده أوج عظمتها وقوتها، واتساعها، فقد تميّز عصره ببروز عدد كبير من المؤرخين، والشعراء، والكتّاب، ورجال القانون، ورجال العلم خاصّةً أنّه كان يريعى الآداب، ويشجع الأدباء⁽¹⁾، ونرى الكثير من أمراء العثمانيين يولي الأدب والأدباء، والشعر والشعراء عنايةً خاصّةً، بل كان بعضهم يقول الشعر بأكثر من لغة، "فكان الأمير ابن الأمير الشهير بابن منجك، جواداً كريماً يضرب به المثل في الجود والعطاء... وكان يحب العلماء، ويتواضع لهم"⁽²⁾.

(1) يُنظر: حسن، في أصول التاريخ العثماني، (ص 101، ص 102).

(2) الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، (ج 81/3).

3- وَلَعَلَّ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ ازدهارِ المَقَامَةِ أَنَّهَا مِنَ الفُنُونِ الَّتِي لَا تلتزم بقبودٍ متينةٍ تلتزم الأُدباءُ، شأنُها شأنُ القبودِ الَّتِي تفرضُ عَلَى الشعراءِ ، أو كِتَابِ القِصَّةِ مثلاً، وَمِنْ هُنَا انطلق الأُدباءُ بجيوبِ الفَيَافِي، يطلقون العَنَانَ لِقَرَائِحِهِم لِلإِبْدَاعِ، فاندفعوا يغرسون أجملَ الأفنانِ، ويتغنون بأعذبِ الألحانِ، فلم تحدُّهم أيُّ حدودٍ، ولم تمنعهم أيُّ سدودٍ، فانطلقوا عبرَ مقاماتهم إلى عوالم الإبداعِ، يتقلَّون من بستانٍ إلى بستانٍ، ويطيرون من زهرةٍ إلى أُخرى، فَمِنَ الوَصَايَا والمواعظِ، والمُنَاطَرَاتِ، إلى العَزَلِ، والنَّسِيبِ، والمُفَاخِرَاتِ، ومن المَدْحِ، والهَجَاءِ إلى الوصفِ، والرِّسْمِ بلوحاتٍ تحملُ الرُّوعَةَ، وتزخرُ بالبهاءِ.

4- ومن الأسبابِ الَّتِي أدَّتْ إلى ازدهارِ المَقَامَةِ فِي العَصْرِ العُثمانيِّ، وبشكلٍ كبيرٍ، أَنَّ أَدبَاءَ هَذَا الفَنِّ - أعني فَنِّ المَقَامَةِ - تلمَّسوا أدبَ سابقهم من لدنِ بَدِيعِ الزَّمانِ الهَمَدانيِّ، والحريريِّ، وابنِ الوردِيِّ، وشهابِ الدِّينِ التلمسانيِّ، وغيرهم، فنهجوا نهجهم، واقتفوا أثرهم، وحاولوا جاهدين مسابرتهم، بلُ والتفوقَ عليهم، فتحققَ لهم ما أرادوا .

5- كثرةُ الفتوحاتِ والحروبِ الَّتِي خاضتها الدَّولةُ العُثمانيَّةُ، والانتصاراتِ المبهرةِ الَّتِي حققتها هذه الدَّولةُ فِي سَنَى الأنحاءِ، فتحت أبواباً واسعةً أمامَ الأُدباءِ لِلإِبْدَاعِ، فقد أشعلت هذه الفتوحاتُ، وتلكَ الانتصاراتُ قرائحَ الأُدباءِ، وأيقظت أذهانَ العُلَمَاءِ، فأطلقوا العَنَانَ لأقلامهم لتسطيرِ الأحداثِ الجسامِ، ومنحوا الحُرِّيَّةَ كُلَّ الحُرِّيَّةَ لِقَرَائِحِهِم لتصويرِ الانتصاراتِ العظيمةِ، فتعددت المؤلفاتُ، وتدفقت الكتاباتُ، وتنوعت الإبداعاتُ، واستفاضت النصوصُ المَقَامِيَّةُ تتغنى بالأمجادِ بعدَ أن عرفتُ أروعَ الألحانِ. وَحَالَهَا حَالَ الفُنُونِ الأُخرى تلمَّست المَقَامَةُ ذاتَ الطَّرِيقِ، وسارت فِي نفسِ الدَّرْبِ تخطُّ رسومَ العزَّةِ والكرامةِ، وترسم مَشَاهِدَ النَّصْرِ والشَّهامةِ، وتشكِّلُ لوحاتِ الإبداعِ والبِراعةِ.

6- لَمْ يخلُ العَصْرُ العُثمانيُّ حَالَهُ حَالَ العُصُورِ السَّابِقَةِ مِنَ المجالسِ الأدبيَّةِ، والمطارحاتِ الشعريَّةِ، وهذه فطرةٌ فِي المجتمعاتِ، فأدَّى ذَلِكَ إلى كثرةِ التَّراجمِ والمؤلفاتِ فِي سَنَى الفُنُونِ والموضوعاتِ، ولم يحرم من ذَلِكَ أيضاً فَنِّ المَقَامَاتِ، حَيْثُ أسهمت هذه المجالسُ بشكلٍ أو بآخرَ فِي ازدهارِ فَنِّ المَقَامَةِ.

7- مواهب الحُكَّامِ والسُّلَّاطِينِ والأُمَرَاءِ الأدبيَّةِ فِي العَصْرِ العُثمانيِّ، فَقَدْ تحلَّى كَثِيرٌ منهم بالمواهبِ الأدبيَّةِ، والخلفيَّةِ، والعلميَّةِ، والشَّواهدِ عَلَى ذلك لَا حَصْرَ لَهَا، فالسُّلطانُ مراد خان الثَّانِي (ت 1003هـ) كان له اشتغالٌ ببعضِ العُلُومِ، ومشاركةٌ فِي مجالسِ الأَدبِ، وله شعرٌ بليغٌ بالعربيَّةِ، والفارسيَّةِ، والتركيَّةِ، فقد كان فطناً لبيباً، وشاعراً مجيداً، وكذلك الأمير مصطفى بن

سليم القانوني فقد كان شاعراً محباً للعلم والعلماء. وقد سبقهم جميعاً السلطان سليمان، قيل إنه من ذوي العقول، وفيه أقول:

سِرْنَا لَمَّا وُلِّيَ سُلْطَانُنَا ابْنُ عُثْمَانَ وَصِرْنَا فِي أَمَانِ
وَارِثًا لِلْمُلْكِ عَنْ أَجْدَادِهِ فَهُوَ فِي الْمُلْكِ سُلَيْمَانُ الزَّمَانِ

وكان من قبله جدّه عثمان يُحبُّ العلماءَ، ويُقرّب الصُّلحاءَ⁽¹⁾.

(1) يُنظَر: المصريّ، بدائع الزُّهور في وقائع الدُّهور، (ج3/1206، 1207).

المبحث الثاني: بناء المقامة، وأصولها الفنية

إنَّ المنتقلَ بين حدائق النصوصِ المقاميَّة، المنتسمِ عقبَ التُّراثِ فيها، المتذوقَ براعةَ بيانها، وروعةَ بديعها، لا يمكنُ أن يغفلَ بناءَ المقامةِ، وأصولها الفنية، ولعلَّ المنتقلَ بين حقولِ المقاماتِ يستطيعُ أن يصلَ إلى صورةٍ واضحةٍ المعالمِ عن البناءِ الفنيِّ للمقاماتِ، والتعرُّفِ على أصولها الفنية، ويمكنُ رسمَ هذه الأصولِ من خلالِ الآتي:

1- الرواي والبطل: لم يُنكر كثيرٌ من النُّقاد أن كلَّ فنٍّ سرديٍّ يعتمدُ على الحكيمِ أو القصِّ، سواءً أكانَ هذا العملُ قصةً، أم روايةً، سيرةً أم مقامةً، لا بدَّ وأن تقومَ على شخصياتٍ يتفاوتُ اهتمامُ الكتابِ بها حسبَ طبيعةِ دورها، في السردِ، ومكانتها فيه.

والشخصياتُ في النصوصِ المقاميَّة كغيرها في الفنونِ الأدبيَّة، فهي "عنصرٌ مهمٌّ؛ إذ عن طريقها يسوقُ الأديبُ أفكاره، وقضاياها العامة، ومشاعره، ورغباته التي يرغب في إثارتها"⁽¹⁾.

وتمثَّل الشخصياتُ في الرواية - مثلاً - مدارَ المعاني الإنسانية، ومحورَ الأفكار والآراء العامة، معظمهم يكونون من الواقع، ولكنهم يختلفون عمَّن تألفهم، والأديبُ يصوِّرُ أشخاصه في خلقهم من الواقعِ مُستعِيناً بالتجاربِ التي عاناها هو، أو أحدُ أقاربه، أو أفرادِ أسرته. ولهذا فإنَّ الشخصياتِ "إذا انبثقت في الرواية من الحياة و الواقع، إلا أنها في العملِ الأدبيِّ أوضحت جانباً؛ فالأديبُ ينتزعُ شخصياته من الحياة ثم يعيد رسمها، ويحدِّدُ خصائصها، ويضبطُ سلوكها، ويحلُّ تصرفاتها، وقد يفسرها بشكلٍ مباشرٍ، ويهيئ الأجزاء التي تساعد على تفسيرها"⁽²⁾.

وصورةُ الشخصيةِ في النصِّ المقاميِّ لن تكونَ كالشخصيةِ في الرواية، فصورةُ البطلِ لن تكونَ مُتكرِّرةً بنفسِ الصورة، ولا بنفسِ النمطِ عندَ الكتابِ والأدباء، فكلُّ كاتبٍ، أو أديبٍ يتفنَّنُ في رسمِ صورِ شخصياته سواءً أكانت واقعيَّة، أم غيرَ واقعيَّة من وحي إبداعاته، من خلالِ تفاعلٍ داخليٍّ بينه وبينها، وتختلفُ صورُ الأبطالِ عندَ الكتابِ باختلافِ جنسها أو فنتها، أو دورها، أو الطبقةِ الاجتماعيةِ التي تنتمي إليها، ومن هنا تتفاوتُ مكوناتُ شخصيةِ البطلِ من كاتبٍ إلى آخر، ومع ذلك كلُّهم ينهلون من الصفاتِ التي حدَّدها الهمدانيُّ، فقد تجتمعُ معظمُ هذه الصفاتِ في بطلٍ من أبطالِ المقاماتِ، وقد تجتمعُ بعضها، وقد تستدعي الظروفُ البيئيةُ المُختلفةُ أن يُحوِّرَ الأديبُ صفاتِ بطله بما يتناسبُ والبيئة التي يعيشُ فيها، فالْبطلُ عندَ ابن

(1) يموت، الفن الأدبيُّ أجناسه وأنواعه، (ص199).

(2) المرجع السابق، ص199.

ناقيا - مثلاً- أقلُّ ثقافةً وفطنةً من بطل الهَمْدَانِيّ، كما أنه يبدو كشخصيةٍ مكديّةٍ تجرّدت من التَّبُوغِ العِلْمِيّ، وتخلّت عن الدَّورِ الأدبيّ، والثَّقافيّ الَّذِي كَانَتْ تقوم به عِنْدَ الهَمْدَانِيّ⁽¹⁾.

وغالبا ما كان الراوي في المَقَامَاتِ يحملُ اسماً، وَلَكِنَّ بعضَ الأَدبَاءِ خرجَ عن هَذَا السِّيَاقِ، ومن هَؤُلاءِ أَحْمَدُ فَارِسِ الشَّدِيَّاقِ الَّذِي خالفَ الكِتَابَ في (المَقَامَةُ البَخشِيَّيَّةُ)، فراويةُ هذه المَقَامَةِ لا يحملُ اسماً كعادةِ المَقَامَاتِ سوى أَنَّهُ أحدُ السُّوَاخِ الأَجَانِبِ، يَقُولُ الشَّدِيَّاقُ: "حدّثَ أحدُ السُّوَاخِ الأَجَانِبِ قالَ: قد طالعتُ في بعضِ الصُّحُفِ الجامعةِ للأخبارِ، مما يحدثُ في الأمصارِ والأقطارِ، أنّ في بعضِ الممالكِ ملكاً يقال له البخشيش، مجدّ كميّش، أنيس بشيش، لا يُقَطِّعُ أمرٌ دونَ أمرِهِ، ولا ينفذُ رأيٌ دونَ خبرِهِ، وإذا شاءَ أن يُصيرَ الحقَّ باطلاً فعل، أو الباطلَ حقاً أمكنه العمل، فلا مردّ لحكمه، ولا معارضَ لرسمه، وحيثُ ما سرحت النظرَ ألفيته أمامك، ومهما تقصد من المآربِ كان لا يبدّ لك من أن تتخذَه إمامك.. فإنّ هو إلّا ملكٌ روحانيّ، وسلطانٌ علويّ ليس من النُّوعِ الإنسانيّ"⁽²⁾.

وأحياناً قد تتبدّلُ الأُمُورُ، وتتغيَّرُ الأحوالُ فيقوم الراوي مقامَ البطلِ، فهو الَّذِي يمسحُ فضاءَ المَقَامَةِ، ويتحرّكُ في أغلبِ أجزائها حتى ليكاد يكونُ هو البطلُ، أما الفارياقُ فهو الَّذِي تتحلُّ أزمَةُ المَقَامَةِ على يديه بما له من قولٍ فصلٍ، وسدادِ رأيٍ، وإطلاَعٍ واسعٍ، ومع ذلك فدوره لا يظهر إلا في الآخر، وكأنّ كلّ ما يسبق من المَقَامَةِ هو تمهيدٌ لذلك الدَّورِ الضَّئيلِ حضوراً، لكنه أساسيٌّ موضوعاً، بل إنّنا نجدُه أحياناً لا يظهرُ إلّا ليقُولَ قصيدةً فيها الجوابُ الشَّافي، أو أنّه لا يظهرُ أبداً، ويكتفي بإرسالِ رأيِهِ في رسالةٍ، وهذا هو المَعْنَى الحقيقيّ للبطولةِ التي يجسّمها الفارياقُ، فهي تكمنُ في أهميّةِ الحَرَكَةِ لا في مجالها واتساعها"⁽³⁾.

وإذا عُدنا إلى البطلِ في النُّصُوصِ المَقَامِيَّةِ، فإنّنا نجدُ ناصيفَ اليأزجيّ مثلاً قد "جعلَ راويةَ مقاماتِهِ سهلَ بنِ عباد، وبطلها ميمونَ بنِ خزام"⁽⁴⁾.

ولعلَّ ناصيفَ اليأزجيّ اقتفى آثارَ روادِ المَقَامَةِ، فبديعَ الرِّمَّانِ اخترعَ "شخصيةَ عيسى بن هشام لتقومَ بروايةِ أحداثِ مقاماتِهِ، وشخصيةَ أبي الفتح الإسكندريّ لتصنعَ تلكَ الأحداثِ،

(1) أبو علي، نقد النثر في تراث العرب النُفُديّ حتى نهاية العصر العباسيّ 656 هـ، (ص323).

(2) فارس، كنز الرغائب في منتخبات الجوانب، (ج70/1).

(3) المطويّ، أحمد فارس الشَّدِيَّاقِ، حياته وآثاره وأراؤه في التَّهْضَةُ العَرَبِيَّةُ الحديثة، (ج400/1).

(4) اليأزجيّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ، (ص5).

كما رأيناه يبدع في رسم شخصية البطل - الإسكندري - لكي تكون نمطاً خاصاً من الأنماط السلوكية التي توهم بواقعيتها"⁽¹⁾.

إن الشخصية في المقامة أدت دورها، وإن كانت خيالية لم تتضح معالمها، فبالرغم من أن الهمداني لم يفصل عن الواقع في تجميع مكونات شخصيته، واعتماده في رسم تلك الصورة المتكاملة الأبعاد لشخصية الإسكندري على الصفات المتناقضة التي كان يراها متفرقة في مختلف الشخصيات في بيئته. إلا أنها تبقى خيالية، حتى وإن أوهمتنا بوضوح معالمها، وانسجام بعض خصائصها مع تناقضات الواقع العباسي الذي كان مسرحاً لنشاطها، إذ لا يعقل أن نجد إنساناً اجتمع فيه شجاعة الفرسان، وروح المغامرة، واقتحام الأهوال، وعلو الثقافة مع روعة البيان، ثم هو شاعر متكسب، وخطيب واعظ، ونحوي متفوق، وساخر، وبهلوان... كل هذه الصفات مجتمعة في شخص واحد!!، والأدهى من ذلك كله أنه لا يتمكن من كسب قوته إلا بالكذبة، والاستجداء"⁽²⁾.

ويرسم ابن ميمون الجزائري عدداً من صفات البطل، إنها البلاغة والفصاحة، وروعة التعبير التي تأخذ بالألباب، وتونس القلوب، يقول: "يقذف لسانه لؤلؤه المكنون، ويصرف من بدائعه الأنواع والفنون، فلا يجارى في مضمار إحسان، ولا يبارى في بلاغة، وبراعة لسان، يقصر كل كريم عن نداءه، ويظهر الإعجاز فيما أظهره من البيان وأبداه"⁽³⁾.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد غدت أبعاد الشخصية المقامية التي وضعها يدع الزمان الهمداني أصلاً من الأصول التي تحتذى، وركيزة من الركائز التي تقوم عليها المقامة"⁽⁴⁾.

ولم يبتعد أدياء العصر العثماني عن ذلك، بل لم يبدعوا الجديد في هذا الميدان، ودليل ذلك أننا إذا تتبعنا شخصية البطل في مقامات ناصيف اليازجي، وأحمد فارس الشدياق، وشهاب الدين الخفاجي، وغيرهم، فإننا نجدها تحمل معظم الصفات التي رسمها الهمداني، فقد كانت شخصية ميمون بن خزام - بطل مقامات ناصيف اليازجي - معجماً حياً، وقاموساً متنوعاً يحمل شتى المعارف، فقد كان فقيهاً، ولغوياً، ونحويًا، ومع ذلك فقد كان هذا البطل رغم معرفته

(1) أبو علي، نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي 656هـ، (ص322).

(2) المرجع السابق ص322، ص323.

(3) الجزائري، النحلة المرضية، (ص121).

(4) أبو علي، نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي 656هـ، (ص323).

الواسعة، وعُلُومُه المُنْتَوَعَة "أديب شحاذ من نوع أبي زيد السروجي، وأبي فتح الإسكندري"⁽¹⁾، أو قل إن شئت: "أديب مُتَسَوِّل"⁽²⁾.

2- **الكُذِبَةُ**، الكُذِبَةُ أصلٌ من الأُصُولِ الَّتِي قَامَتْ عَلَيْهَا المَقَامَةُ، وهي موضوعٌ رئيسٌ تبرزُ من خِلالِه عيوبُ المجتمع، ومشكلاته المُنْتَوَعَة، ولَعَلَّ الأمرَ الملفتَ للنَّظَرِ أَنَّ الكُذِبَةَ هي المَوْضُوعُ الأوَّلُ الَّذِي قَامَتْ عَلَيْهِ المَقَامَاتُ منذ نشأتها، حتى رأينا صورها المُخْتَلِفَةَ فِي مَقَامَاتِهِمْ، كما رأينا حرصَهُمْ عَلَى إدارةِ الأَحْدَاثِ مِنْ خِلالِهَا بِطَرِيقَةٍ تَلْفَتِ الانتباهَ لما فِي تِلْكَ الأَحْدَاثِ مِنْ إثارةٍ، وغموضٍ... وقد أصبحت الكُذِبَةُ أصلًا من الأُصُولِ الَّتِي تقوم عليها المَقَامَةُ... فالكُذِبَةُ بجميع حللها، وعيوب المجتمع، ومشكلاته بمختلف أنواعها من الأُمُورِ الَّتِي تعمَّدَ كِتَابُ المَقَامَاتِ تجسيمها وإبرازها⁽³⁾.

ولم تَعُدِ المَقَامَةُ ذلك الفنَّ الَّذِي يجبُ أن يلتزم بالكُذِبَةِ، فقد تناولت بعضها واقعا سقطت منه الكُذِبَةُ، والحيلة، فلم تعد الكُذِبَةُ عموداً رئيساً في بناءِ المَقَامَةِ.

وتمثَّل الكُذِبَةُ أصلًا من أصولِ المَقَامَةِ، حَيْثُ قَامَتْ المَقَامَةُ عَلَيْهَا منذُ بدايتها، وَإِذَا ما جاءتْ مَقَامَةٌ دُونَ أَنْ تحتوي عَلَى الكُذِبَةِ، تأتي وكأنَّها ناقصةٌ، وبمرورِ الوقتِ حاولَ بعضُ كِتَابِهَا أَنْ يتحللوا من هَذَا الأَصْلِ شَيْئاً شَيْئاً، كما فعل الحريريُّ في بعضِ مقاماته، وجاءتْ مقاماتُ الرَّمْخَسَرِيِّ، وابن الجوزي خاليةً تماماً من الكُذِبَةِ.

لَقَدْ كَانَتْ المَقَامَةُ فِي العُصُورِ السَّابِقَةِ تعتمدُ عَلَى الكُذِبَةِ، والتَّسَوُّلِ، والألغازِ، والأحاجي، ولكنها في العَصْرِ المملوكيِّ، قد تجاوزتْ ذَلِكَ؛ لتعبَّرَ عن أحداثِ هَذَا العَصْرِ، مثل الحروبِ والفتنِ، وتُظهِرَ همومَ الكِتَابِ، وإخراجها في ثوبِ قصصيِّ، كما جعلها بعضُ الكِتَابِ هدفاً للوعظِ، والإرشادِ الدِّينِيِّ⁽⁴⁾.

وقد تجاوزَ بعضُ الأُدبَاءِ فِي العَصْرِ العُثمانيِّ هذه الحُدُودَ، فالْمَوْضُوعُ عِنْدَ أَحْمَدَ فَارِسِ الشَّدِيَّاقِ اختلفَ عمَّا كان عليه عِنْدَ غيره من المقاميينِ خَاصَّةً القُدَامَى، فقد تحوَّلَ من الكُذِبَةِ والاحتِيالِ إِلَى معالجةِ مواضعٍ أُخْرَى واقعيَّةٍ حيَّةٍ، "عصريَّةٍ مأخُودَةٍ من الحَيَاةِ، ومُنْتزَعَةٍ من

(1) ضيف، المَقَامَةُ، (ص 85).

(2) المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 87.

(3) يُنظَرُ: أبو علي، نقد النثر في تراث العرب النَّقْدِيِّ حتى نهاية العَصْرِ العباسيِّ 656 هـ، (ص 326).

(4) يُنظَرُ: سلام، الأَدَبُ فِي العَصْرِ المملوكيِّ، (99/2).

المجتمع الذي عاش فيه الأديب⁽¹⁾، ولعل ذلك سيظهر جلياً من خلال دراسة نماذج لمقامات كُتِبَ في هذا العصر.

3- الصنعة اللفظية، إذا ذُكِرَ فنَّ المقامة ذكرت معه الصنعة اللفظية، فهذه الصنعة أخذت شكلاً خاصاً توارثه كُتَّابها في مختلف العصور والبيئات، من ذلك السجع، والمحسنات البديعية التي لازمتها منذ نشأتها في القرن الرابع الهجري⁽²⁾. وقد كانت المحسنات البديعية طابعاً مميزاً ميّز المقامة عن الفنون التثرية الأخرى، وذلك لأنَّ نشأة المقامة في القرن الرابع الهجري هو الذي طبعها بطابع عصرها، عصر الزينة والاختصاب، وقد فرضت هذه الحقيقة نفسها على المقامات في مختلف العصور، ولا تُعرَفُ المقامة كمقامة إلا بالتزامها بالسجع، والمحسنات البديعية⁽³⁾.

وقد نَعَطَى كَثِيرٌ من أدباء المقامة الصنعة اللفظية؛ لإظهار براعتهم الكتابية مراعاة لذوق العصر، وهذا ما صرَّح به أحمد فارس الشدياق: "وقد مضت عليَّ برهة من الدهر من غير أن أتكلَّف السجع والتجنيس، وأحسبني نسيْتُ ذلك، فلا بدَّ أن أختبر قريحتي في هذا الفصل، فإِنَّهُ أَوْلَى بِهِ من غيره"⁽⁴⁾.

إنَّ المتنقّل بين حدائق المقامات يجذب انتباهه أمورٌ كثيرة، بيد أن أهم هذه الأمور هو الصنعة اللفظية خاصة السجع والتجنيس، والتشطير، حيثُ يجدُ القارئُ نفسه حائراً أيةً أزهارٍ يقطف، وأيةً ثمارٍ يجنى، فأمامه من روائع البديع في النصوص المقامية ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، فمن جمالٍ يبدأ قراءته إلى أجمل، ومن روعةٍ تطربُّ أذنه إلى أروع وأروع، ومن بهاءٍ يلامس إحساسه إلى أبهى وأحسن.

وإذا كان السجع هو الخصيصة الأولى لفنَّ المقامة، فإننا نجدُ بعضَ كُتَّابها غير ملتزمٍ بذلك أحياناً، فالشدياق مثلاً لم يلتزم "بالسجع في المقامة الشدياقية، ومن ثمَّ كان خفيف الوقع على الأذن، جملةً قصيرة، إلا فيما ندر، نابضةً يتخللها الترادف، والزخرف البديعي، لكن في غير إكثارٍ مُملٍّ حتى لا يكاد كلُّ ذلك يلحظ فيها، خاصةً في المقامة البخشيشية، ولهذا السبب قيل إنَّ الشدياق كان أقلَّ براعةً وحنفاً في تصميم المقامة، وفي استخدام فنون البديع والبيان،

(1) نجم، القصة في الأدب العربي الحديث (1870-1914م)، (ص250).

(2) أبو علي، نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي 656 هـ، (ص327).

(3) حسن، أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة، (ص20).

(4) الشدياق، الساق على الساق، (ص141).

وما ذلك إلا لأنه كان يكره هذه الرخارف، على أنه شاع في مقاماته بدل ذلك روحه الفكهة، ومزجها بنزعتيه المجونية، ومن هنا وصِفَ بأنه كان مُبتدعاً في أسلوب المقامات السّاخرة، ومتفرداً به⁽¹⁾.

ولم ينهج بعض الأدباء نهج سابقهم، ولم يقتفوا أثرهم في التعامل مع أصول المقامة الفنية، حيثُ تخلص بعضهم من بعض أصولها كالبطل، والكُدِيّة، بيدَ أن الصنعة اللفظية كانت ولا زالت الأصل الذي لم يفكر أدباء المقامات في التخلص منه، بل في المقابل أنقلوا مقاماتهم بهذه المحسنات، وإذا "كُنّا قد لاحظنا خلوّ بعض المقامات من شخصيّة البطل الخياليّة، أو خلوّها حتّى من الكُدِيّة، فإننا سوف لا نجدُ مقامةً لم يهتم صاحبها بالصنعة اللفظية، فقد نجدُ مقامةً أنقلت بفيود الصنعة حتّى بدا التكلّف واضحاً مستقبهاً، كما نجدُ مقامةً أكسبتها الصنعة اللفظية سحراً وجمالاً، ولكن لا نجدُ مقامةً تخلّت عن الصنعة اللفظية"⁽²⁾، وكأني أرى أن المقامة بلا سجع وجناس أشبه بحديقة جرداء خلت من كلّ مشاهد الجمال، وفقدت كلّ صور الجلال.

إنّ القارئ اعتاد في المقامة أن يرى فنوناً وأفناناً، وبديعاً من شتى الألوان، فلا يمكن أن تُقرأ مقامة بلا ازدواج وجناس، أو سجع واقتباس، فالألوان البديعية زينة كلّ مقامة من المقامات، ورونق، وجمال يزين ما شملته من موضوعات، وكأني أرى المقامة إذا خلت من البيان والبديع وصلت بين الفنون أدنى الدرجات، وهبطت حتّى أصابت أخط الدركات. فدُفنت في المقابر مع الأموات، وكتب لها الخلود في سجل النيران بما أكسبها كاتبها من السيئات.

أمّا إذا تزينت المقامة بالمحسنات، وازدانت بفنون البديع المختارات علّت فوق الهامات، وتبوأت بين الفنون أمكنةً عاليات، فعدت كالزليات الخافقات، وأصابت المجد في الوهاد والربوات، فأضحت كعقد الدرّ في جياذ الغيد والحسناوات، وكالتيجان المرصعة بالجواهر واللالئ فوق رؤوس الحسان، والملكات.

(1) عوض، تاريخ الفكر المصري الحديث من الحملة الفرنسية إلى عهد إسماعيل، (ج2/215).

(2) أبو علي، نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي 656 هـ، (ص326).

المبحث الثالث: أدباء فنّ المقامة في العصر العثمانيّ

رغمّ الهجمة الشرسة على العصر العثمانيّ من قِبَلِ بعض النقاد، ورغمّ الظلم البين لأدب هذا العصر، ورغمّ الجور الذي وقع على أدبائه، إلا أنّ عيون المنصفين لم تُغمض، والألسنة العادلة لم تسكت، والأصوات المحبّة للحقيقة لم تتوقف، فانبرى هؤلاء للدفاع عن العصر العثمانيّ، وردّ كيد الظالمين، ولعلّ ظهور الأسماء اللامعة في سماء هذا العصر في فنون الأدب كافّة، ومنها المقامة قد أسكنت ألسنة هؤلاء، وردّت كيدهم إلى نحرهم، فقد لمعت أسماء كثيرة من كتاب المقامة فكانت كالنجوم في السماء، وأثبتت هذه الأسماء للجميع عدم موت الأدب في العصر العثمانيّ كما ادّعى أصحاب الأقلام الجائرة، بل كتبت تلك الفنون تاريخاً ناصعاً، وحاضراً مشرقاً للعصر العثمانيّ.

إننا إذا تتبعنا أدباء فنّ المقامات، وتنقلنا بين إبداعاتهم، ندرك مع كلّ مقامة نقرأها مدى قيمة العصر العثمانيّ، وإذا دققنا النظر في تلك المقامات نوّمن لأوّل وهلة بعظمة هذا العصر أدبياً، وإذا عدنا وأبحرنا عميقاً في أسلوب المقامات نفق أمام عقليّة عربيّة فذة حقّ لنا أن نفخر بروائعها في كلّ زمانٍ ومكان، فالأسماء التي سافرت بعيداً في سماء المقامة، بل حلقت في الفضاء؛ لترسم أروع اللوحات للعصر العثمانيّ كثيرة لا حصر لها، ومن هذه الأسماء، ناصيف اليازجيّ، وأحمد فارس الشدياق، وشهاب الدين الخفاجيّ، ومحمد بن ميمون الجزائريّ، وحسن العطار، وعبد الله الإدكايّ، ونقولا الترك، وغيرهم كثير. أمّا أشهر أدباء المقامة في العصر العثمانيّ فيمكن تناول تاريخهم على النحو الآتي:

1- شهاب الدين الخفاجيّ (977-1069هـ/1569 - 1659م)

هو أحمد بن محمد بن عمر، شهاب الدين الخفاجيّ المصريّ، ونسبته إلى قبيلة خفاجة، ولد ونشأ بمصر، وقد نشأ في حجر أبيه فعلمه، واختلف إلى شيوخ الأزهر في زمنه، فتعلّم النحو، وعلوم العربية، والفقهاء الشافعيّ، كما درس الحديث، والتفسير، والأدب، والمنطق، والأصول، ورحل مبكراً مع أبيه إلى حج بيت الله الحرام، وأخذ عن شيوخ الحرمين⁽¹⁾.

ورحل إلى بلاد الروم، واتّصل بالسُلطان مراد العثمانيّ فولاه قضاء سلانيك، ثم قضاء مصر، ثم عزّل عنها فرحل إلى الشام وحلب، ونفي إلى مصر، وولي قضاء يعيش منه فاستقر إلى أن توفي، من أشهر كتبه (ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا)، و(شفاء العلّيل فيما في كلام

(1) يُنظر: الخفاجيّ، ریحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، (ج2/ 325 - 332).

العرب من الدّخيل)، و(شرح درّة الغواص في أوهام الخواص للحريري)، و(طراز المجالس)، و(نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض)⁽¹⁾.

وفي أشهر كتبه (رِيحَانَةُ الأَلْبَا وَرَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا) وَالَّذِي ختمه بعددٍ من المَقَامَاتِ، إنْ دَلَّتْ فَإِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى علوِّ كعبه في صناعة المَقَامَةِ، وقد ذيلَ (مُحَمَّدُ أمين المحبّي) كتاباً عَلَى كتاب الخَفَاجِيّ هو "نفحة الريحانة، ورشحة طلاء الحانة"⁽²⁾، يَقُولُ في (المَقَامَةُ الرُّومِيَّة): "أنبأنا النُّعْمَانُ بن ماء السَّمَاءِ عن شقيق، وقد رحل من وادي العقيق في الحجاز إِلَى القسطنطينية، ويصفها بأن البحر قد مدَّ لعناقها ساعديه، بَيْنَمَا تقبل الأمواج الأَرْضَ بين يديه، ويصف من بها من الجوار الحسان والفرسان الشجعان، ثم يهاجم متصوفيهَا وعلماءها، ولا يلبث أن يكوي المفتي دون ذكر اسمه بسياط من الهجاء المقذع، من مثل قوله لو قارنه السعد الأكبر إِلَى أعلى عليين، حَمَلْتُهُ بنات نعش إِلَى أسفل سافلين، أعمى البصيرة والبصر، عار عَلَى آدم أبي البشر، إِنَّمَا خلق اعتذاراً لإبليس في ترك السُّجود، وأنى يقبل له عذر وهو كفور جحود، وما أحسنه في زوال النعم، وأقبحه إذا قضى له الدهر وبدولته حكم"⁽³⁾. ثم يختم المَقَامَةَ بمديح السلطان العُثمانيّ، ويذكر بعدها مقامة تسمى مقامة الغربة، وللرجل عدّة مقامات كما قلت ذكرها في ختام كتابه (ريحانة الألبا)، ومن هذه المَقَامَاتِ المَقَامَةُ الرُّومِيَّةِ نسبة إِلَى بلاد الروم، ودفع الكربة بسلو الغربة، والمَقَامَةُ السَّاسَانِيَّةِ، والمَقَامَةُ المَغْرِبِيَّةِ⁽⁴⁾.

2- ناصيف اليازجيّ (1800-1871م)

هو ناصيف بن عبد الله بن جنبلاط بن سعد اليازجيّ، اللبنانيّ المولد، الحمصيّ الأصل. ولد في قرية كفر شيما من قرى الساحل اللبناني في 25 آذار سنة 1800م في أسرة اليازجيّ التي نبغ كثير من أفرادها في الفكر والأدب.

نشأ ناصيف ميّالاً إِلَى الأدب والشعر، وأقبل عَلَى الدرس والمطالعة بنفسه، وتصفّح ما تصل إليه يده من كتب النحو، واللغة، ودواوين الشعراء، نظم الشعر وهو في العاشرة من عمره، ولم تكن الكُتُب المطبوعة ميسرة في عصره، فكان جَلَّ اعتماده عَلَى كتب يستعيرها من المكتبات الخاصّة، فمنها ما يقرأها مرة فيحفظ زبدتها، وَمِنْهَا ما ينسخها بخط يده.

(1) الزركلي، الأعلام، (ج3/177).

(2) المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، (ج4/86).

(3) الخفاجي، رِيحَانَةُ الأَلْبَا وَرَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، (ج2/325).

(4) يُنظَر: المحبّي، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، (ج4/395-477).

بعد اكمال شخصيته الثقافية اتّصل بالأمر بشير الشهابي الكبير، أمير لبنان، فقربه إليه، وجعله كاتباً له، فلبث في خدمته اثنتي عشرة سنة، ولمّا كانت سنة 1840م وهي السنة التي خرج فيها الأمير بشير من لبنان إلى منفاه، انتقل ناصيف اليازجي بأهل بيته إلى بيروت، فأقام بها، وتفرغ للمطالعة، والتأليف، والتدريس، ونظم الشعر.

اتصل ناصيف اليازجي بالمرسلين الأميركيين يصحّح مطبوعاتهم، ودعي للتعليم في المدرسة الوطنية التي كان قد أسسها المعلم بطرس البستاني وذلك عام 1863م، واشتغل معه بتصحيح الجزء الأول من معجمه (محيط المحيط)، وشارك في أول ترجمة عربية للكتاب المقدس في العصر الحديث، وصنّف مجموعة من المؤلفات اللغوية التعليمية تعدّ بدء بعث اللغة العربية الفصحى في العصر الحديث.

أصيب ناصيف اليازجي بمرض عضال سنة 1869م، تبعه شلل نصفي عطل شطره الأيسر فلزم داره، وفي أثناء مرضه فجع بفقد ابنه البكر "الشيخ حبيب"، وهو بعد في شرح شبابه، فوقع عليه ذلك الحادث وقوع الصاعقة، ولم يعيش بعد ذلك إلا أربعين يوماً، وكانت وفاته في 8 شباط (فبراير) سنة 1871م⁽¹⁾.

مؤلفاته: ترك ناصيف اليازجي مؤلفات متعدّدة شملت الصرف، والنحو، والبيان، واللغة، والمنطق، والطب، والتاريخ، كما ترك ديواناً شعرياً متنوع الموضوعات، ومراسلات شعرية ونثرية، أمّا أهم هذه المؤلفات فهي كالاتي:

أولاً: (نار القرى في شرح جوف الفرا)، في الصرف، والنحو.

ثانياً: (فصل الخطاب في أصول لغة الأعراب)، وهي رسالة في التوجيهات النحوية.

ثالثاً: (عقد الجمان في علم البيان).

رابعاً: (ديوان ناصيف اليازجي).

خامساً: (مجمع البحرين) يشتمل هذا الكتاب على ستين مقامة على غرار مقامات الحريري، ويديع الزمان الهمداني. وتعدّ من أهم نتاج اليازجي، ومن نفائس المقامات، وهذه المقامات هي¹:

1- المقامة البدوية: تتضمّن تعرف سهيل بالحزامي، وابنته وغلّامه، وحيلة الحزامي مع اللصوص.

(1) يُنظر: الرُّكُلِي، الأعلام، (7/ 252، 253).

(1) يُنظر: اليازجي، مجمع البحرين، الفهرس (ص 327-331).

- 2- المَقَامَة الحجازيَّة: تتضمَّن دعوى الخُزَامِيّ أَنه خطب لابنه، واحتياله بتحصيل المهر.
- 3- المَقَامَة العقيقيَّة: تتضمَّن قيام الخُزَامِيّ خطيباً على جنازة.
- 4- المَقَامَة الشَّاميَّة: تتضمَّن دعوى الخُزَامِيّ معرفة الطب، ومحاورته أحد حذاق الأطباء.
- 5- المَقَامَة الصَّعديَّة: تتضمَّن ادِّعاء ابنة الخُزَامِيّ أَنه بعلها، وأنه غرَّها بالغنى، واختصامهما على ذلك.
- 6- المَقَامَة الخزرجيَّة: وفيها أسماء المطاعم، والنيران، والساعات، والرياح برد العجوز، وخيل السِّباق.
- 7- المَقَامَة اليمينيَّة: تتضمَّن احتكام الخُزَامِيّ ورجل على ناقةٍ استأجرها منه ثم محلَّ به، وحاول أخذ الناقة.
- 8- المَقَامَة البغداديَّة: و فيها مناداة ليلي في بيع اللبن، وإيراد مسائل نحوِيَّة.
- 9- المَقَامَة الحلبيَّة: تتضمَّن تعلق بعض الرجال بليلي، وتظاهر أبيها بأنه رجل فارسي، و احتياله على الرجل بسلب ماله.
- 10- المَقَامَة الكوفيَّة: وفيها محاوره في مسائل نحوِيَّة.
- 11- المَقَامَة العراقيَّة: وفيها الأبيات التي إذا طُرحت أنصافها صارت هجاءً، وذكر أبحر الشعر، وأجزائها، وأنواع القوافي، وما يتعلق بها.
- 12- المَقَامَة الأزهرية: وفيها الإلغاز بلفظي العين والنون، ولغز في اسم الصوت، وإيراد مسائل في العروض، والصرف.
- 13- المَقَامَة التغلبيَّة: وفيها أبيات الهجاء التي تتحول بالتصنيف مدحاً، وتعدد مشاهير العرب، وخيولها، وذكر أبياتها، وأنيتها، وأزلام المسير.
- 14- المَقَامَة الهزليَّة: تتضمَّن احتيال الخُزَامِيّ وابنته على سهيل بدعوى أنها زوجته، وتخليه عنها بالطلاق بعد أن أخذ منه مهراً مضاعفاً.
- 15- المَقَامَة الرَّمليَّة: وفيها منظومات بدعيَّة من جناسات الخط.
- 16- المَقَامَة الصوريَّة: تتضمَّن تظلم ليلي إلى القاضي بأن أباه قد أقعدها عن الزواج، واحتيالهما عليه بتزويجها منه، ثم فرارها من الطريق.
- 17- المَقَامَة الحكميَّة: تتضمَّن وصية الخُزَامِيّ لغلّامه، والقصيدَة الحكميَّة.

- 18- المَقَامَةُ الرَّجَبِيَّةُ: تتضمَّن خطبة الخُزَامِيّ في زوال النعيم، وفيها بيتا المديح اللذان إذا عكست قراءتها أصبحت هجاءً.
- 19- المَقَامَةُ الخَطِيبِيَّةُ: وفيها خطبة في مآثر العرب، وأرجوزة في أيّام حروبهم.
- 20- المَقَامَةُ البَصْرِيَّةُ: وفيها الأبيات التي لا تستحيل بالانعكاس، والبيتان اللذان طردهما مديح، وعكسهما هجاء.
- 21- المَقَامَةُ الدَّمَشَقِيَّةُ: وفيها خلاصة الخلاصة، وهي أرجوزة مختصرة في علم النُحو.
- 22- المَقَامَةُ السَّرُوجِيَّةُ: وفيها الوصية التي ظاهرها يخالف باطنها.
- 23- المَقَامَةُ الموصليَّةُ: تتضمَّن افتتاحان رجل بليلى، ونقده أباه المهر ثم انتقاض أبيها عليه، ودعواه عند الاحتكام أنها امرأته.
- 24- المَقَامَةُ المعريَّةُ: تتضمَّن خطبة الخُزَامِيّ على ضريح أبي العلاء.
- 25- المَقَامَةُ التَّمِيمِيَّةُ: تتضمَّن إضلال الخُزَامِيّ ناقته ثم احتياله على الذي وجدها عنده بأن استأجرها منه، ورهنه سهيلاً.
- 26- المَقَامَةُ اللغزيَّةُ: تتضمَّن ألباساً في مسميات شتّى.
- 27- المَقَامَةُ السَّاحِلِيَّةُ: تتضمَّن دعوى الخُزَامِيّ على رجب أنه بدل قوافي أبيات له، فتحوّل مديحها إلى الهجاء.
- 28- المَقَامَةُ الفلكيَّةُ: وفيها ذكر الكواكب السيّارة، والبروج، والمنازل، وغير ذلك من متعلقات الفلك.
- 29- المَقَامَةُ المصريَّةُ: تتضمَّن بيع الخُزَامِيّ لرجب في صفة عبد، وفرار رجب من مشتريه.
- 30- المَقَامَةُ الطَّبِيَّةُ: وفيها خطبة في الطب، ووصية في حفظ الصّحة، وإيراد مسائل طبيّة.
- 31- المَقَامَةُ العبسيَّةُ: وفيها ذكر مآثر بني عبس.
- 32- المَقَامَةُ العاصميَّةُ: وفيها وصية الخُزَامِيّ للدهقان.
- 33- المَقَامَةُ الرّشيدِيَّةُ: تتضمَّن دعوى الخُزَامِيّ أن ليلى زوجته، واختصامها.
- 34- المَقَامَةُ الأدبيَّةُ: وفيها ألباس الخُزَامِيّ في القلم، ووصيته لغلامه.

- 35- المَقَامَةُ الإِنطَاكِيَّةُ: تتضمَّن مَخَاصِمَةَ لَيْلَى لِلخَزَامِي بِدَعْوَى أَنَّهَا زَوْجُهَا، وَتَزْوِيجُهُ إِيَّهَا مِنْ القَاضِي بَعْدَ طَلَاقِهَا ثُمَّ فِرَارِهَا مِنْهُ.
- 36- المَقَامَةُ الطَّائِيَّةُ: فِيهَا ذَكَرَ مَآثِرَ الطَّائِيَّيْنَ، وَمَسَائِلَ فِي فَهْمِ اللُّغَةِ.
- 37- المَقَامَةُ العَدَنِيَّةُ: فِيهَا مَآثِرَ أَهْلِ اليَمَنِ، وَدَعْوَى الخَزَامِي أَنَّهُ اشْتَرَى رَجَبًا، وَقَضَى نِصْفَ ثَمَنِهِ، وَتَسْبِبه فِي النِّصْفِ البَاقِي.
- 38- المَقَامَةُ الحَمِيرِيَّةُ: فِيهَا مَبَاحِثُ لُغَوِيَّةٍ، وَمَسَائِلَ شَتَّى فِي فَهْمِ اللُّغَةِ.
- 39- المَقَامَةُ الأَنْبَارِيَّةُ: تتضمَّن دَعْوَى لَيْلَى عَلَي رَجُلٍ أَنَّهُ قَتَلَ أَبَاهَا، وَمَجِيئُهَا بِالخَزَامِي، وَرَجَبِ شَاهِدِينَ عَلَيْهِ.
- 40- المَقَامَةُ الجَدَلِيَّةُ: فِيهَا مَسَاجِلَةٌ فِي التَّفْضِيلِ بَيْنَ العِلْمِ وَالمَالِ.
- 41- المَقَامَةُ التُّهَامِيَّةُ: فِيهَا خُطْبَةٌ فِي صِلْحٍ، وَسَرْدٌ قِيُودِ الأَصْوَاتِ.
- 42- المَقَامَةُ المَضْرِيَّةُ: تتضمَّن دَعْوَى الخَزَامِي أَنَّهُ لَهُ سَبِيَّةٌ يَطْلُبُ فَكَاكُهَا، وَهُوَ يَعْنِي الخَمْرَ.
- 43- المَقَامَةُ البَحْرِيَّةُ: فِيهَا خُطْبَةٌ فِي فَرِيَةِ لُغَةِ العَرَبِ، وَالقَاءِ مَسَائِلَ فِي النُّحُو.
- 44- المَقَامَةُ الحَلِيَّةُ: فِيهَا مَعْمِيَّاتٌ، وَأَحَاجِي.
- 45- المَقَامَةُ الفَرَاتِيَّةُ: فِيهَا الأَلْفَاظُ الَّتِي تَتَنَازَعُهَا الضَّادُ وَالمُضَادُّ.
- 46- المَقَامَةُ السُّخْرِيَّةُ: فِيهَا اخْتِصَامُ الخَزَامِي، وَرَجَبِ.
- 47- المَقَامَةُ الرِّصَافِيَّةُ: فِيهَا ذَكَرَ مَا يَطْلُقُ عَلَي الخَيْلِ، وَالإِبِلِ بِاعتِبَارِ الأَسْنَانِ، وَالأَلْوَانِ.
- 48- المَقَامَةُ اللَادِقِيَّةُ: تتضمَّن خُطْبَةَ الخَزَامِي عَلَي تَلَامِذَةِ بَعْضِ الشُّيُوخِ، وَالقَصِيدَةَ الَّتِي أَعْجَازُهَا هِجَاءٌ.
- 49- المَقَامَةُ اللَبْنَانِيَّةُ: فِيهَا ذَكَرَ فُرُوقَ لُغَوِيَّةٍ، وَقِيُودِ القِطْعِ، وَالكَسْرِ، وَالحِصَصِ.
- 50- المَقَامَةُ الحَمُويَّةُ: فِيهَا الخُطْبَةُ الَّتِي ظَاهَرُهَا مَنكَرٌ، وَبَاطِنُهَا مَعْرُوفٌ.
- 51- المَقَامَةُ اليَمَامِيَّةُ: تتضمَّن مَخَاصِمَةَ الخَزَامِي لِرَجَبِ، وَدَعْوَاهُ أَنَّهُ أَعْجَمِي لَا يَحْسِنُ اللِّفْظَ العَرَبِي، وَالأَبْيَاتُ الَّتِي إِذَا جَرَتْ عَلَي لَفْظِ العِجْمِ أَدَّتْ إِلي مَعَانٍ فَظَّةً.
- 52- المَقَامَةُ العُمَانِيَّةُ: فِيهَا قِيُودِ المَسَاكِنِ، وَالمَسْعَةِ، وَالمَتَلَاءِ، وَالمُخَلَاءِ.

53- المَقَامَةُ الغَزِيَّة: تتضمَّن دعوى الخُزَامِيّ علي رجل أنه قتل نديماً يريد به كتاباً، وجمعه الدية من القوم.

54- المَقَامَةُ السَّوَادِيَّة: وفيها مسائل في دقائق النحو، والصرف.

55- المَقَامَةُ الدَّمِياطِيَّة: تتضمَّن اختصام رجب ووليى على أنها امرأته، وتطبيقه لها احتيالياً في تحصيل المهر.

56- المَقَامَةُ الإسكندريَّة: وفيها مسائل في الفقر، والبيان، والمنطق، ومطارحة أشياء من أحاجي العرب.

57- المَقَامَةُ النَّجْدِيَّة: وفيها إيراد أشياء من غريب اللُّغة، وقديمها.

58- المَقَامَةُ العكاظِيَّة: وفيها قيود لغويَّة شتَّى.

59- المَقَامَةُ المكيَّة: تتضمَّن حج الخُزَامِيّ، وخطبته على الحُجاج.

60- المَقَامَةُ القُدسيَّة: تتضمَّن خطبة الخُزَامِيّ في المسجد الأقصى، وتوبته.

3- ابن النُّقَيْب (1048-1081هـ)

هو عبد الرَّحمن بن مُحَمَّد بن كمال الدِّين مُحَمَّد، الحسيني، المعروف بابن النُّقَيْب، وابن حمزة، أو الحمزاويّ النُّقَيْب، ينتهي نسبه إلى الإمام عليّ بن أبي طالب، وعُرف بابن النُّقَيْب؛ لأنَّ أباه كان نقيب الأشراف في بلاد الشام، وكان عالماً محققاً ذا مكانة سياسيَّة واجتماعيَّة ودينيَّة.

ولد في دمشق، ونشأ ابن النُّقَيْب على يد والده، وتلقَّى منه علُومه الأوَّلَى من الآداب، والشريعة وغيرهما، كما تلقَّى على غيره من علماء عصره، واستكمل الاطلاع على مختلف أنواع العلُوم، وأتقن الفارسيَّة، والتركيَّة وهو ابن عشرين سنة، ومال إلى الإنشاء، ونظم الشعر فبرع فيهما، حتى صار من أعلامهما، وقد وصف شعره بأنه كَثِير الصُّور، بعيد التَّشابه، عجيب النُّكات، ضمنه - كما كان يصنع الشعراء في عصره - كَثِيراً من المُعميَّات والألغاز، وكان في شعره يجمع بين جزالة اللَّفظ، وجمال التَّركيب، وغازرة المُعاني المستمدة من محفوظه الشعريّ، والنثريّ الكبير.

لابن النُّقَيْب ديوان شعر، له قصائد كَثِيرة منها ملحمة غنائية في مئة وتسعة عشر بيتاً، جمع فيها أسماء أعلام الغناء القديم، وأسماء الملوك، وندمائهم، وجواربهم، وقبانهم، واقترب فيها من فلسفة عمر الخيام الشعريَّة، في ديوانه عددٌ من الموشحات أيضاً. ويمكن لمتصفح ديوانه أن

يقف على عدد من الأغراض الشعرية التي تناولها، ومنها المدائح النبوية. وهذا الغرض قليل في شعره لم يرد في ديوانه منه سوى مقطوعتين شعريتين، ومن المدح عنده تناوله لشخصيات عصره الاجتماعية والسياسية.

وتعد المطارحات، والحواريات الشعرية من الأغراض التي تطرق إليها ابن النقيب، فله كثير من القصائد المتبادلة بينه، وبين شعراء زمانه، كالأمير منجك الشاعر، ومنها ما كتبه أيضاً إلى بعض الأدباء، وربما تعدى ذلك إلى مطارحات خيالية رمزية في قصائد يخاطب فيها حمامة، أو شحروراً، يضاف إلى ذلك حواريات نثرية شعرية طريفة مثل (نبعة الجنان)، و(حديقة الورد)، و(المقامة الربيعية)، مما يستحق البحث والدراسة.

ومن أغراض شعره وصف بعض أنماط الشخصيات الاجتماعية التي كانت شائعة في عصره، بيد أن أكثر وصفه كان للطبيعة الدمشقية الساحرة والتي تنقل بريشته بين مشاهدتها، يقول متغنياً بسحرها:

سقى الله أياماً بغوطة جلق إلى أرضها الميثاء مسرى ففرجي
إلى تلعات السفح من قاسيونها مدارج دارى الصبا المتأرج
إلى مرجها الموشي غب سمائه إلى روضها الأخوى الأغن المدبج⁽¹⁾

وللغزل، والنسب حظاً الأوفر من شعره، فقد ملأ الحب، والشباب جسمه، ونحا شعر الغزل عنده؛ ليعكس صورة نفسه اللاهية المطربة العابثة في بعض الأحيان. وفي شعره ذكر للخمريات والغنائيات، ووصف للساقى والنديم، وأحاديث عن الكأس والخمر، مبيناً فيها أن الطبيعة الدمشقية، وكثرة الحانات، وشعوره الدائم بالصبا والشباب، من أهم الأسباب التي دفعته إلى معاقرة الصهباء، على أن الألباز، والأحاجي من الأغراض التي برع فيها الشاعر، وقد أدرجها بعض المتأخرين في فنون البديع⁽²⁾.

4- عبد الله السويدي (1104-1170هـ)

هو عبد الله بن الحسين بن مرعي بن ناصر الدين البغدادي الشهير بالسويدي، ولد عام

(1) ابن النقيب، ديوان ابن النقيب، (ص184).

(2) يُنظر: المحبي، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، (ج2/533-548)، يُنظر: المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، (ج2/390-404). يُنظر: الركابي، الأديب العربي من الانحدار إلى الازدهار، (ص194، ص195).

1104هـ ببغداد، طاف في كثير من البلدان ثم عاد إلى بغداد، له العديد من المؤلفات النافعة، منها شرح دلائل الخيرات المسمى بأَنْفَعِ الْوَسَائِلِ فِي شَرْحِ الدَّلَائِلِ، وألف متناً في الاستعارات سماها الجمادات، والمقامة المعروفة ضمنها الأمثال السائرة، ولما رحل إلى مكة ألف لذلك رحلة سماها بالنفحة المسكية في الرحلة المكية... له شعر لطيف منه قوله في مליح صائغ:

وَشَادِنٌ صَائِعٌ هَامٌ الْفُؤَادُ بِهِ وَحُبُّهُ فِي سُؤْيِدَا الْقَلْبِ قَدْ رَسَخَا
يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مُنْفَاخًا عَلَى فِيهِ حَتَّى أَقْبَلَ فَاهُ كُلِّمَا نَفَخَا

توفي في الحادي عشر من شوال 1170هـ⁽¹⁾.

5- أَحْمَدُ الْبَرْبِيرُ⁽²⁾ (1160 - 1226هـ) (1747 - 1811م)

أحمد البربير من أشهر أدباء العصر العثماني، ومن رواد فنّ المقامة فيه، جمع من العلوم أهمها، فهو "سهم الأغراض والأمانى، وكنانة البيان والمعاني، ذو الأدب الباهي الباهر، والأرب الزاهي الزاهر، والنفس الزكية والأخلاق المرضية، من تستعذب النفوس نثره، وتستطيب نظمه وشعره، فلا ريب أنه العمدة الإمام، والنخبة القطب الهمام، الذي ما رأى أحد مثله في مصر وشام"⁽³⁾. وهو العلامة الأديب، والشاعر الناثر؛ أديب الفقهاء، وفقه الأديباء، الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبداللطيف بن أحمد بن محمد البربير الحسني الشافعي البيروتي الأصل، الدمياطي المولد، الدمشقي وفاة.

ولد أحمد البربير في مدينة دمياط، وتوفي في دمشق، دفن بسفح جبل قاسيون بجوار محي الدين بن عربي. تنقل بين عدد من المدن فكانت حياته رحلة بين دمياط، وبيروت، وطرابلس الشام، ودمشق، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، ومدن عربية أخرى.

تُجمَعُ كتبُ التّراجُمِ عَلَى أَنَّ الشَّيْخَ أَحْمَدَ عَبْدِ الْوَلِيِّ الْبَرْبِيرِ، الشَّامِيَّ الْبَيْرُوتِيَّ، هُوَ أَحَدُ أَعْلَامِ الْأَدْبَاءِ اللَّبْنَانِيِّينَ فِي الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ. جَمَعَ فِي شَخْصِيَّتِهِ وَجُوهًا مُتَعَدِّدَةً، وَمُؤَلَّفَةً فِي آنٍ مَعًا؛ فَكَانَ الْقَاضِيَّ وَالْفَقِيهَ وَالشَّاعِرَ وَالْأَدِيبَ. عَرَفَ بِخِدْمَةِ الْعِلْمِ تَأْلِيفًا وَتَدْرِيسًا، كَمَا تَسَلَّمَ مَسْئُولِيَةُ الْقَضَاءِ، وَالْإِفْتَاءِ فِي مَجْلِسِ الْأَمِيرِ يَوْسُفِ الشَّهَابِيِّ الَّذِي عَرَضَ عَلَيْهِ هَذَا الْمَنْصِبَ

(1) يُنظَرُ، الْمَرَادِيَّ، سَلَكِ الدُّرَرِ، (ج3/84، 85).

(2) الْبَيْطَارُ، حَلِيَّةُ الْبَشَرِ فِي تَارِيخِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ، (ج3/217، 218).

(3) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ج3/217.

في بيروت التي كانت في جملة عمالته الإدارية، فقبله بشروط ثلاثة التزم بها الأمير؛ كي لا يحرم هذه الحاضرة كفاءات عالم كبير.

اشتهر أحمد البريبر بالنصفة، وحسن الآداب، وخشية الظلم، والتحامل، والانصراف إلى التماس العدل، ونصرة المظلوم. شغف بفنون العربية، فتضلّع فيها، لاسيما اللّغة، والفقهاء، والمنطق. ترك مؤلفات نفيسة لم يطبع إلا القليل، منها (الشرح الجليّ على بيتي الموصلي طبع عام 1884م)، و(مقامة في المُفَاخَرَة بين الماء والهواء طبعت عام 1882م)، وتشتت معظمها (11 مخطوطاً) في مكتبات الشرق والغرب. له ديوان شعر جمعه البأحث عمر الصقعان الأنسي (مخطوط). في ديباجته تماسك مميّز، وعبارته قويّة، يدلُّ شعره على إعماله فكره وروبوته في تعبيره، فهو على درجة من التميّز إذا قورن بشعراء جيله.

تلقى علومه الأولى في العربية والفقهاء، وحفظ القرآن الكريم في بيروت، كما استظهر في سن مبكرة (ألفية ابن مالك). تلقاه على أيدي اساتذته، ومشايخ أجلاء (الشيخ عبد الحي فتح الله البيروتى) في الفقه والحديث والأدب. وقرأ العلم على مشايخ عصره، الشيخ محمد مرتضى الزبيدي شارح (الأحياء) و(القاموس). ارتحل إلى بيروت في عام 1769م لطلب العلم. ثم تركها إلى دمشق ليغادرها بعد فترة إلى بيروت لدى قدوم محمد أبو الذهب فاتحاً.

وفي بيروت، ولي القضاء مدة طويلة، ثم تركه وغادر إلى دمشق هرباً من أجواء القلق والاضطراب التي سادت النُحُور آنذاك. ونتوقف عند إقامته البيروتية التي تركت آثاراً سلبية في مسيرة حياته. فقد قصد موطن آباءه وأجداده رغبة في طلب العلم على يد شيوخه. فألفاهم دون المستوى فخاب أمله. كما رغب في الاستقرار العائلي، فتزوج ولكن زواجه مني بالفشل. ولهذه الغاية نظم شعراً ساخطاً عبر فيه عن انزعاجه من سوء الإقامة، والمتاعب العائلية. وقد اتخذ الشعر في حياته مكانة ملحوظة؛ إذ توسله أداة بليغة، وفاعلة للتعبير عن شكواه، وظلامته، أو للاعتذار عن المضي في تحمّل المسؤولية، أو لتقريظ عالم كبير، أو لإظهار الندم على تركه موطنه الأصلي.

في دمشق، لاذ بحمى الشيخ خليل المرادي مفتي الشام ونقيب أشرافها. فأنزله في داره وأحسن وفادته. وبعد استقراره في عاصمة الأمويين، جرب حظّه مجدداً في الزواج، لكنّه لم يوفق أيضاً، وبقي عقيماً من أيّ ولد. وفي المقابل، أتيح له أن يتصل بمختلف الشرائح الاجتماعية، والأدبية في المجتمع الدمشقي. فتبادل وأعلامهم النشاطات الفكرية والأدبية، وارتبط معهم بوشائج عميقة، بدت آثارها في كتابه (الشرح الجلي). كما التقى شيوخاً أصابوا معرفة

وثقافة لغويّة، ودينيّة. فتتلمذ عليهم، أو نال إجازاتهم في بعض العُلُوم والفُنون. وقد تسنّى له أن يجتمع بهذه النُخب سِواء في بيت مضيفه الشَّيخ المرادي، أو في مجالس الوجيه الدَّمشقيِّ مُحَمَّد علي باشا العظم الَّذِي كان يختلف أَيْضاً إِلَى مكتبته الغنيّة. ومن جملة هَؤُلاءِ نذكر محدثي دمشق: الشَّيخ مُحَمَّد الكزبري، والشَّيخ أَحْمَد العطار. وفي المقابل، فإن مجالس الشَّيخ البَرَبير، في بيروت ودمشق، استقطبت طالبي العلم، والرَّاغِبين في اكتساب أسباب المعرفة والنِّقَافَة؛ لذا قصده العديد من الطلاب والمريدين في بيته، أو في مكتبته، للنهل من غزير أدبه، ووافر عُلُومه الشرعيّة. وقد تخرَّج بعضهم عليه، واستجازه بعض آخر منهم، وفي مقدمتهم الشَّيخ عبد اللطيف فتح الله، الَّذِي شغل منصب الإفتاء في بيروت لفترةٍ طويلةٍ، وغلب عليه لقب (المفتي)، والشَّيخ أَحْمَد الأغرّ الَّذِي تولى أَيْضاً منصب إفتاء بيروت. والشَّيخ أَحْمَد البَرَبير عالم جليل، وشخصيّة مرموقة تشكّل أنموذجاً لمظاهر الاحتكاك الفكري، والديني الَّذِي تواصل بين أعلام مصر، وبلاد الشام في القرن الثامن عشر. عرفته مختلف الحواضر العربيّة شيخاً فقيهاً، ومحدثاً، بليغاً، وشاعراً، ومعلماً، تميّز بجرأةٍ أدبيّةٍ أهلتَه لفرض شروط العالم على الحاكم. فكان له ما أراد⁽¹⁾.

وبكلمة، فخيبيات الأمل، على تنوعها، لم تقعد الشَّيخ البَرَبير عن طلب العَلم والتقوى على مشايخ أجلاء. كما أنّ عثرات الزمان، وتقلُّبات الأحوال لم تحلّ دونه، وأداء مهامه في نشر الدعوة، وخدمة رسالة الدين، ورفع لواء المعرفة. فصرف أيامه على أمور جليّة أهم من حياته، توفي الشَّيخ أَحْمَد البَرَبير - رحمه الله - في السَّابع عشر من ذي الحجة ختام سنة 1226هـ. وقد رثاه تلميذه، مفتي بيروت الشَّيخ عبد اللطيف فتح الله، بقوله:

مَا لِلْحَمَائِمِ لَا تَكَادُ تَطِيرُ؟	مَا لِلأَرْضِ بِالأَنَامِ تَمُورُ؟
مَا لِلجِبَالِ الشَّامِخَاتِ تَدَكَّدَكْتَ،	وَأَبُو قُبَيْسٍ قَدْ هَوَى وَثَبِيرُ
مَا لِلنَّفُوسِ تَكَادُ تُزْهِقُ لَوْعَةً،	وَلَهَا شَهيقٌ قَدْ عَلَا وَرَفِيرُ
مَا لِلغُيُونِ دُمُوعُهَا مَصْبُوبَةٌ	مِثْلُ الدِّمَاءِ عَلَى الخُدُودِ تَسِيرُ
فَكَانَهَا، حُمْرًا، وَسُودًا، أَحْرَفُ	لَكِنَّهَا فَوْقَ الخُدُودِ سَطُورُ
مَا بَالُ قَلْبِي قَدْ تَلَهَّبَ حُرْقَةً؟..	مِنْ أَيْنَ فِيهِ جَهَنَّمُ وَسَعِيرُ؟.. ⁽²⁾

(1) يُنظَر: البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، (ج3/ 217، 218).

(2) فتح الله، ديوان عبد اللطيف فتح الله، (ج1/375).

وَعَوْدَةٌ إِلَى أَهْمِ أَعْمَالِ أَحْمَدَ الْبَرْبِيرِ، وَهِيَ (مَقَامَةٌ فِي الْمُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ)، يَبْدَعُ قَائِلًا: "حَمْدًا لِمَنْ خَلَقَ الْعَنَاصِرَ، وَجَعَلَ لِكُلِّ مِنْهَا فَضْلًا تَعْقِدُ عَلَيْهِ الْعَنَاصِرُ، وَصَلَاةً وَسَلَامًا عَلَى الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ الَّذِي مِنْهُ عَرَضَ الْعَالَمُ، وَمَنْ هُوَ فِي الدَّارَيْنِ سَيِّدُ بَنِي آدَمَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ تَعَلَّقَ بِحَبِّهِ، مَا اكْتَحَلَتْ عَيُونُ الطُّرُوسِ بِمِرَاوِدِ الْأَقْلَامِ، وَقَلَدَتْ نَحْوَ الدُّرُوسِ بِعُقُودِ أَلْفَاظِ الْعُلَمَاءِ الْأَعْلَامِ. وَبَعْدَ فَإِنَّ الْفِكْرَ وَالْخَيَالَ، دَخَلَ بِي إِلَى رِيَاضِ ضَاعَ زَهْرُهَا فَتَمَّ عَلَيْهِ النَّسِيمُ، وَدَارَ عَلَيْهِ الْمَاءُ الزَّلَالُ، أَكَلَهَا دَائِمٌ وَظَلَّهَا، كَأَنَّمَا قَابَلَتْ مِرَاتَهَا جَنَّةَ النَّعِيمِ فَانطَبَعَ فِيهَا مِثَالُهَا وَشَكْلُهَا، فَتَلَقَّتْنَا عَوْدِيَّاتِ طَيُورِهَا بِالصَّدْحِ، وَمَجَامِرِ كِمَائِمِ وَرُودِهَا بِالنَّفْحِ، وَزَهْرُهَا بِثَغْرِ بَاسِمِ، وَنَهْرُهَا بِقَلْبِ صَافِي، وَأَدْوَاحِهَا بِبَسِطِ بَسَاطِ الْبَسِطِ مِنْ ظِلِّهَا الضَّافِي، وَقَامَتْ لَنَا الْأَشْجَارُ عَلَى سَوْقِهَا، وَسَفَرَتْ لَنَا عِرَائِسُ الْوُرُودِ عَنْ لَثَامِ غُبُوقِهَا، وَحَيِّتْنَا رَاحَةَ الرَّاحَةِ وَالسَّرُورِ، بِأَصَابِعِ الْمُنْتَوِرِ، وَغَنَتْ لَنَا مُطَوِّقَاتِ شَوَادِيهَا عَلَى الْعِيدَانِ، وَأَعْرَبَتْ وَهِيَ عَجْمَاءُ بَفَنُونَ تَمَائِلَتْ لَهَا قُدُودُ الْأَفْنَانِ، حَتَّى لَوْ سَمِعَهَا رَكِبَ الْعَشَّاقُ عَلَى النَّوَى لَنَسِيَ الْحِجَازَ وَالْعِرَاقَ، وَتَمَنَّى الدَّخُولَ لِذَلِكَ الْبَسْتَانِ، وَرَقِصَتْ بَيْنَ أَيْدِينَا جَوَارِي الْمَاءِ، وَظَهَرَتْ مَعَ وَجُودِ شَمُوسِنَا، وَبَدُورِنَا نَجُومَ النَّبَاتِ حَتَّى ظَنَّنَاهُمْ نَجُومَ السَّمَاءِ، وَوَلَّاحَ لَنَا عَرَضَ الْغَيْثِ وَشَارِبَ الْأَسِّ فَأَذْكَرْنَا الْعَيْشَ السَّالِفَ، وَطَافَ النَّسِيمُ بِكَعْبَةِ صَفَانَا طُوفَانَ الْقُدُومِ فَمَا كَانَ أَلْطَفَ ذَلِكَ الطَّائِفِ"⁽¹⁾.

6- مُحَمَّدُ الْمُبَارَكِ (1263-1330هـ/1847-1912م)

هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ الْمُبَارَكِ الْمَغْرِبِيِّ الْجَزَائِرِيِّ الدَّلَسِيِّ الْحَسَنِيِّ الْمَالِكِيِّ الدَّمَشْقِيِّ، أَدِيبٌ لِعُيُوبِ صُوفِيٍّ، وُلِدَ بِبَيْرُوتَ، وَتَعَلَّمَ بِدِمَشْقَ، وَتُوفِيَ سَنَةَ 1330هـ، وَدُفِنَ فِي الْمِزَّةِ بِظَاهِرِ دِمَشْقَ، نَبِغٌ فِي اللُّغَةِ وَالْأَدَبِ، وَبَرِعَ فِي الْمُنَاطَرَاتِ، وَالْمَحَاضِرَاتِ، وَالْمَسَاجِلَاتِ، تَخْرُجُ عَلَى يَدِهِ كَثِيرٌ مِنَ الْأَدْبَاءِ وَالْبُلْغَاءِ، أَبْدَعَ صَاحِبَ (حَلِيَّةِ الْبَشْرِ) فِي وَصْفِهِ قَائِلًا: "كَعْبَةُ الْأَفْرَادِ الْآتِيَةِ مِنَ الْإِبْدَاعِ بِمَا أَرَادَ، وَالنَّاطِمِ لِمُنْتَوِرِ الْأَدَبِ، وَالرَّاقِمِ فِي كِتَابِ دَلَائِلِهِ عَلَى فِضَائِلِهِ مَا يَقْضِي لَهُ بِأَسْمَى الرُّتْبِ، وَوُلِدَ سَنَةَ ثَلَاثِ وَسْتَيْنِ وَمِائَتَيْنِ وَأَلْفَ، وَقَرَأَ عَلَى السَّادَةِ الْأَفْضَلِ، ذَوِي الْفِضَائِلِ وَالْفَوَاضِلِ، إِلَى أَنْ بَرَقَ وَفَاقَ، وَاشْتَهَرَ فِي الْآفَاقِ، وَأَتَى مِنَ الْمُنْظُومِ وَالْمُنْتَوِرِ بِمَا يَدْهَشُ الْعُقُولَ، وَيُشْرِحُ الصُّدُورَ"⁽²⁾.

(1) البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، (ج3/ 218-220). مرآود: جمع مرؤد: وهو الميل من الزجاج أو المعدن يُكتحل به. ضاعت الرائحة: طابت وفاحت. نجوم: جمع نجم، وهو ما لا ساق له من النبات.

(2) المَرْجِعُ السَّابِقُ، ج3/ 1355.

ومن أعماله مَجْمُوعَةُ المَقَامَاتِ الَّتِي نَظَمَهَا، وَمِنْهَا: (عَرِيبُ الأَنْبَاءِ فِي مُنَاطَرَةِ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ)، وَ(نُضْرَةُ البِهَارِ فِي مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)، وَ(أَبْهَى مَقَامَةٍ فِي المَفَاخِرَةِ بَيْنَ العُزْبَةِ وَالإِقَامَةِ)، وَ(المَقَامَةُ اللُّغزِيَّةُ) (مخطوطة)، وَ(المَقَامَاتُ العِشْرُ لطلبة العَصْرِ) (مخطوطة).

كَانَتْ وفاته يوم الثلاثاء في 5 جمادى الثانية سنة 1330هـ في الصالحية، وأوصى أن تحمل جنازته بلا عمامة ولا غطاء، وصُلي عليه في الجامع السُّلَيْمِي فِي الصَالِحِيَّةِ، وَدُفِنَ فِي سَفْحِ قَاسِيُونِ فِي المَقْبِرَةِ المَنسُوبَةِ لِذِي الكِفْلِ عَلَيِّهِ السَّلَامُ.

وفي مقامة (عَرِيبُ الأَنْبَاءِ فِي مُنَاطَرَةِ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ) يبدع المُبَارَكُ فِي المُنَاطَرَةِ، يَقُولُ عَلَى لِسَانِ السَّمَاءِ: "﴿ نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ [الفرقان: 61] ، ومنح أشرف البشر إِلَيَّ عَرُوجًا، وَقَدَّمَنِي فِي الذِّكْرِ فِي مُحْكَمِ الذِّكْرِ، وَشَرَفَنِي بِحَسَنِ القِسْمِ، وَأَتَحَفَّنِي بِأَوْفَرِ القِسْمِ، وَقَدَّسَنِي مِنَ النَّقَائِضِ وَالعُيُوبِ، وَأَطْلَعَنِي عَلَى الغَوَامِضِ وَالعُيُوبِ، فَأَنَا المُنَزَّهُ عَنْ كُلِّ دَنَسٍ وَوَصْمَةٍ، وَجَنْدِي هُمُ الرَّاغِبُونَ فِي حِلِّ الحِفظِ وَالعِصْمَةِ، وَبِقَاعِي لَمْ يَعِصَ اللهُ عَلَيْهَا، وَلَمْ تَنسَبْ سِيئَةٌ مَدَى الدَّهْرِ إِلَيْهَا، فَلَا يَدْخُلُ حَرَمِي شَيْطَانٌ، وَلَيْسَ لَهُ عَلَى أَهْلِي سُلْطَانٌ، وَإِنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ مِنِّي، لِيُرَوِّي بَعْضَ الأَخْبَارِ عَنِّي، قَذَفْتُهُ بِشَهَابٍ ثَاقِبٍ، وَأَلْقَيْتُهُ فِي عَذَابٍ وَاصِبٍ"⁽¹⁾.

7- نقولا التُّرك (1176-1244هـ/1763-1828م)

هو نقولا بن يوسف التُّرك الإسطنبولي، شاعر له عناية بالتَّاريخ، أصله من بلاد التُّرك من أسرة يونانية، ومولده ووفاته في دير القَمَرِ فِي لِبْنَانَ. سَافَرَ إِلَى مِصرَ، وَاسْتَخْدَمَ كَاتِبًا فِي حَمَلَةِ نابليون الأول، وعاد إِلَى لِبْنَانَ فخدم الأمير بشير الشَّهابي، وله في مدحه قصائد. وعمي فِي أواخر أعوامه، فكان يملئ ما ينظمه عَلَى ابنته وردة.

عمل نقولا التُّرك فِي خِدمَةِ الأمير بشير الكبير، فكان شاعره، ونديمه، وكاتبه المقرب، ومعلم أولاده فِي نِهَايَةِ القَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ. وَبَعْدَ حِينٍ مِنَ الزَّمَنِ، وَبِتَكْلِيفٍ مِنَ الأمير بشير الثَّانِي، سَافَرَ نقولا التُّرك إِلَى دِمِياط ليراقب عن كثب تطورات الأَحْدَاثِ السِّيَاسِيَّةِ العَسْكَرِيَّةِ النَاجِمَةِ عَنِ الحَمَلَةِ البُونَابَرْتِيَّةِ عَلَى مِصرَ، وَلِيُرْسِلَ تَقَارِيرَ بِشَأْنِهَا إِلَى سَيِّدِهِ فِي لِبْنَانَ، بَقِيَ التُّرك فِي مِصرَ حَتَّى سَنَةِ 1804م وَاضْعًا مُصَنَّفَاتٍ تَارِيخِيَّةٍ عَيَانِيَّةٍ عَدَّهَا جَرَجِي زِيْدَانُ مِنْ أَهْمِ مَا أَلْفَ فِي التَّارِيخِ عَنِ التَّارِيخِ الاِحْتِلَالِ الفَرَنْسِيِّ، وَقَدْ نَسَبَ جَرَجِي زِيْدَانُ إِلَى نقولا التُّرك تَارِيخًا آخَرَ هُوَ: (تَارِيخُ أَحْمَدَ باشَا الجَزَارِ). وَمِنْ مَوْلفَاتِهِ التَّارِيخِيَّةِ كِتَابَانُ: أَحَدُهُمَا فِي حَوَادِثِ حَرْبِ

(1) الطِّيَّانُ، المَفَاخِرَاتُ وَالمُنَاطَرَاتُ (عَرِيبُ الأَنْبَاءِ فِي مُنَاطَرَةِ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ)، (ص 88).

فرنسا والنمسا سنة 1815م، طبع في باريس سنة 1817م، والآخر (نزهة الزمان في حوادث لبنان) في تاريخ الأمراء الشهابيين، منه نسخة خطية في باريس، ويعتقد زيدان أن الكتاب الأخير هو القسم الثاني من (تاريخ حيدر الشهابي) المؤلف من ثلاثة أقسام.

وعلاوة على ذلك فإن نقولا الترك كان شاعراً وأديباً، نبغ في قصر الأمير بشير، وخلف لنا ديواناً مخطوطاً. من المعروف أن هناك ست نسخ مخطوطة من ديوانه أقدمها مخطوط سنة 1858م، الذي يضم الأبواب الآتية: قصائد عامة، قصائد هزلية ساخرة، المدائح المكرسة للأمير بشير وقصره، ومزامير النبي داود، وإحدى عشرة مقامة، ومدائح الشيخ بشير جنبلاط، وبعد الديوان من أوثق المصادر في تلك الفترة من تاريخ لبنان. يصور الترك في أشعاره الحياة اليومية لسيدة الأمير بشير، ويقدم لنا أدق التفاصيل عن صفاته الشخصية، وحملاته العسكرية، ومعاركه، وأخلاقه، وسجاياه (عدله، وشجاعته، بره وإحسانه، أعماله الإنشائية، والعمرائية).

لقد أجاد الترك أيمًا إجادة في وصف الحياة البائسة، والعمل الشاق الذي يقوم به الجبلون اللبنانيون، فيقدم تفسيراً لأمر الكون، والمصير، والمجتمع، والإنسان من خلال تجاربه وعواطفه. وقد شعر نقولا الترك في أنه صاحب رسالة في إرشاد الناس إلى خيرهم، وغرس روح التفاؤل في نفوسهم دون مبالاة بالتميق، والزخرفة، والترزين؛ لأن الغاية أسمى من ذلك وأكبر، وكانت مقاماته قد نشرها إبراهيم صادر ضمن كتاب (حكاي عن عالية) مختلفة في المضمون عن مقامات ناصيف اليازجي، الذي تردّد أيضاً على قصر الأمير بشير الثاني مادحاً إياه في منظوماته المعروفة باسم (المحبوكات الشهابية)؛ إذ تركت أثراً بالغاً في الجيل الصاعد من الشعراء الشباب. داعية إياهم للإسهام في عملية تجديد الأدب العربي، وترويجه بين أبناء الشعب.

ويعدّ نقولا الترك من شعراء المناسبات، نظم في عددٍ من أغراض الشعر كالرثاء، والمدح، والوصف، والغزل، والهجاء، وله بعض الموشحات، جاءت بعض قصائده وصفاً للبيئة الأرستقراطية في المجتمع اللبناني، وبعضها سجلاً تاريخياً لعددٍ من أحداث عصره في إطار من المحافظة على النهج الخليلي، واللغة التراثية، والحرص الواضح على البديع.

والذي يهمننا أن للترك عدداً من المقامات المخطوطة (إحدى عشرة مقامة نشرت المقامة الدبرية منها في كتاب: الآداب العربية)، و(مجموع حوادث الحرب الواقعة بين فرنسا وفرنساوية والنمساوية)، و(تملك جمهور فرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية)⁽¹⁾.

(1) يُنظر: الزركلي، الأعلام، (ج8/ 46، 47).

8- الشَّهاب الألوِسيّ (1217-1270هـ/1802-1854م)

شَهَابُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الحِسينيِّ فقيهه، ومفسِّر، ومحدِّث. ولد في بغداد، وتلقَّى العُلُومَ على شيوخ عصره، وكان شديد الحرص على التَّعلم، ذكياً فطناً، لا يكاد ينسى شيئاً سمعه، حتى صار إمام عصره بلا منازع. اشتغل بالتَّأليف، والتَّدريس في سن مبكرة، فذاع صيته وكثر تلاميذه، تولى منصب الإفتاء، وبقي فيه حتى سنة 1263هـ⁽¹⁾.

يرجع نسبه إلى مدينة (الوس) وهي جزيرة في وسط نهر الفرات في محافظة الأنبار، حيثُ قرَّ إليها جدُّ هذه الأسرة من وجه هولاء التُّرّي عندما دهم بغداد فنُسب إليها.

قام ابن الألوِسيِّ بعدة زياراتٍ علميةٍ إلى الآستانة وغيرها. له عدة كتب قيِّمة، أبرزها تفسيره الكبير (روح المَعاني في تفسير القرآن العَظيم والسَّبع المثاني) الذي استغرق تأليفه خمس عشرة سنة، ويُعدُّ هذا التفسير موسوعة كبيرة جمع فيه الألوِسيُّ خلاصة علم المتقدمين في التفسير، وقد ذكر فيه بعض إشارات الصُوفية في التفسير، وله مقامات في التَّصوف والأخلاق، عارض بها مقامات الزمخشريِّ، توفي الألوِسيُّ في ذي القعدة في بغداد ودُفن فيها⁽²⁾.

من أهمِّ مؤلفاته، (روح المَعاني في تفسير القرآن العَظيم والسَّبع المثاني)، و(نشوة الشُّمول في السَّفَر إلى إسلامبول)، وهو عن رحلته إلى الآستانة، (نشوة المدام في العودة إلى دار السَّلام)، (غرائب الاغتراب)، (البرهان في اطاعة السُّلطان)، (الطرَّاز المُدهَّب في شرح قصيدة الباز الأشهب)، و(مقامات الألوِسيِّ)، وهي في التَّصوف والأدب والأخلاق، وهي: (رَجْر المَعزورِ عن رَجْرِ العُزورِ)، (في قطف الرُّهر من روض الصِّبر)، (أبناءُ الأبناءِ لأطيب الأبناءِ)، وهي وصيةٌ لأبنائه، (المقامة الخيالية)، (الأهوال من الأحوال)، و(سجع القمريَّة في ربع القمريَّة). ومن أشعاره:

لِمُعْظَمِ أَهْلِ الرُّومِ قَدْ كَسَدَ السَّجْعُ

وَإِنِّي مَلَأْتُ السَّجْعَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ

تَلَوْتُ بِأَرْجَاهَا فَمَا سَاعَهَا سَمْعُ

وَكَمَ فِئْرَةٌ قَدْ أَحْكَمْتُهَا قَرِيحَتِي

توفي أبو النشاء الألوِسيِّ في بغداد في 25 ذو القعدة 1270هـ، وقد أُرخ وفاته الإمام الأديب الشَّيخ عبد الباقي أفندي العمريِّ بقوله:

(1) يُنظَر: الزُّركلي، الأعلام، (ج7/176).

(2) يُنظَر: المرجع السابق، ج7/176.

قَبْرٌ قَدْ تَوَارَى بِهِ خَيْرٌ مَفْقُودٍ
أَبُو النَّثَاءِ شِهَابِ الدِّينِ فِيهِ
كَجَدِّهِ كَانَ سَيْفًا يُسْتَنْضَاءُ بِهِ
مَضَى تَعَمَّدَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ
فَاغْتَمَّ حُزْنًا عَلَيْهِ كُلُّ مَوْجُودٍ
فِيَا لِمَثْوَى يَرْفُدُ الْفَضْلَ بِمَرْفُودٍ
فَحَازَ فِي الرُّشْدِ حَدًّا غَيْرَ مَحْدُودٍ
فَلِيَفْتَخِرْ لِحَدِّهِ فِيهِ بِمَعْمُودٍ
لَمْ يَبِكْ مَيْتًا وَلَمْ يَفْرَحْ بِمَوْلُودٍ
مِنْ بَعْدِهِ لَا فَقَدْنَا مِنْ بَيْنِهِ فَتَى

ودفن في مقبرة الشيخ معروف الكرخي، وقبره مشهور بزار، وبلغ عمره نحو ثلاث وخمسين سنة⁽¹⁾.

9- أَحْمَدُ فَارِسِ الشُّدِّيَاقِ (1219-1305هـ/1882-1948م)

هو أَحْمَدُ فَارِسِ بْنِ يَوْسُفِ بْنِ يَعْقُوبِ بْنِ مَنْصُورِ بْنِ جَعْفَرِ شَقِيقِ بَطْرُسِ الْمُلقَّبِ بالشُّدِّيَاقِ، من أوائل الأفاضل الذين اضطلعوا برسالة التنقيف، والتوجيه، والتثوير، والإصلاح في القرن التاسع عشر، غير أن معظم الدراسات التي تناولته عنيت بالجانب اللغوي والأدبي، وأهملت الجانب الإصلاحي، ولم ينل ما ناله معاصروه من الاهتمام من أمثال ناصيف اليازجي (1800-1871م)، ورفاعة الطهطاوي (1801-1873م)، وعبد القادر الجزائري (1807-1883م). صحفي لبناني كان يصدر صحيفة الجوائب في إسطنبول. يُعدُّ من ألمع الرحالة العرب الذين سافروا إلى أوروبا خلال القرن التاسع عشر. كان الأديب، والصحفي، واللغوي، والمترجم الذي أصدر أول صحيفة عربية مستقلة بعنوان (الجوائب)، متقفاً لامعاً، وعقلاً صدامياً مناوشاً أيضاً⁽²⁾.

لقد كان الشُّدِّيَاقِ مارونياً بالولادة، وتحول أكثر من مرة في أكثر من طائفة في المسيحية إلى أن استقرَّ على الإسلام، عاش في إنجلترا ومالطة، ورحل أيضاً إلى فرنسا، يعدُّ أَحْمَدُ فَارِسِ الشُّدِّيَاقِ أحد أهم الإصلاحيين العرب في عهد (محمَّد علي)، وله منهجه الإصلاحي الخفي الذي يبدو فيه أنه فضَّل التوريَّة، والترميز على التصريح، والإشهار؛ وذلك لما كان يحويه منهجه من انتقادات لاذعة للقيادات الرجعية، ولخوفه من أن يُدان من قبلها، أو تحرق أعماله، ويظهر هذا في كتابه (السَّاقُ على السَّاقِ فيما هو الفَارِيزِاقُ)، وقيل إنَّ الطبعة الأولى منه صدرت بباريس سنة 1855م. وقد ألف الشُّدِّيَاقِ كتابه من باب تقليد سابقيه من المؤلفين، إذ

(1) يُنظَر: البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، (ج3/1450-1455).

(2) يُنظَر: الزُّركَلِي، الأعلام، (ج1/193).

يَقُولُ: "قلت في نفسي لا بأس أن أقفوا القوم الذين بيّضوا وجوههم بتسويد الطروس... (1)، كما يشير في مقدمة الكتاب إلى أن كل مادة الكتاب مبنية على أمرين أحدهما، إبراز غرائب اللّغة ونوادرها، والأمر الثاني ذكر محامد النساء ومذامهن" (2).

وعودة إلى فارس المَقَامَة العُثمانيّة الشّدياق، فقد "كتب زيادة على مقامة (نطق السيّط بالدرر واليواقيت) التي تنسب إليه في مدح الأمير بشير الشهابي، والمَقَامَة الأنفيّة، والمَقَامَة البخشيشيّة، أربع مقامات جعلها فُصُولاً من فُصُول كتابه السّاق، ويعود سبب هذا التّضمين الذي خالف به كُتّاب المَقَامَة إلى أنّ الشّدياق بنى كتابه السّاق على اللّغة، والمَقَامَة هي نتاج طبيعي لتعليم اللّغة كما هو معروف عن ابن دريد. ثم صارت نتاجاً أدبياً عند بديع الرّمان ومن تلاه" (3).

ويتفرّد أحمد فارس الشّدياق عن غيره من كُتّاب المَقَامَة في العَصْرِ العُثمانيّ، على أن أعظم ميزة امتاز بها الشّدياق في مَقَامَاتِهِ دون مقامي عصره تتجسّم في إخضاع تصوّسه لروح العَصْرِ، وللمَوْضُوعَاتِ الاجتماعيّة، والنّهضيّة في أدب القرن التاسع عشر، والعدول بها عن طور التقليد كما فعل ناصيف اليّازجيّ الذي كان دون الشّدياق نضجاً في مَجْمَعِ البَحْرَيْنِ إلى طورٍ آخر فيه من التّجديد ما يعدّ تطويراً لفن المَقَامَة العُربيّة، وهكذا كانت طرفة الشّدياق أوضح خصوصاً في نقده الدّينيّ، والاجتماعيّ، ومحاولته تحطيم شكل المَقَامَة" (4).

ويُمكنُ القولُ إنّ الشّدياق لمّا تمرّد على شكل المَقَامَة، فقد جنى عليها، وجعله يقترب شيئاً فشيئاً من فن القصّة القصيرة، فيذوب فيها ذوباناً سوّاء أكان ذلك عن طريق ترجمة القصص الأجنبيّة، أم بالفُصُولِ القصصيّة في كتابه السّاق على السّاق، أم بالفُصُولِ التي نشرها في (الجواب) (5) بعنوان (جمل أدبيّة).

(1) الشّدياق، السّاق على السّاق فيما هو الفاريق، (ص15). الطروس: جمع طرس، وهي الصّحيفة، الصّحاح، (ج3/943)، مادة (طرس).

(2) الشّدياق، السّاق على السّاق، (ص 5).

(3) المطويّ، أحمد فارس الشّدياق، حياته وأثاره وأراؤه في النّهضة العُربيّة الحديثة، (ج1/401، 402).

(4) المَرَجع السّابق، ج1/401.

(5) الجوانب: هي صحيفة أسبوعية سياسية برزت في الآستانة بتاريخ 1860م لمنشئها أحمد فارس الشّدياق اللبناني الذي كان ينشرها في المطبعة السلطانية. ومنذ السنة العاشرة أنشأ أحمد فارس مطبعة خاصّة بها، وجعلها بكل أدوات فن الطباعة حتى صارت تعد من أشهر المطابع في السلطنة العثمانية، وقد انتشرت الجوانب انتشاراً عظيماً في الشرق والغرب، ونالت شهرة واسعة لم تتلها جريدة سواها منذ ظهور الصحافة العُربيّة، حتى ذلك العهد، فكان يقرأها سلاطين العرب وملوكهم وامراؤهم وعلماءهم في تركيا، ومصر، ومراكش =

10- عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِيَّ بَاشَا (1250هـ - 1307هـ)

وهو أحد أركان نهضة الأدب في العصر العثماني، تعلم في الأزهر، واشتغل باللغة التركية، وعمل بالترجمة، حيثُ ترجم من التركية إلى العربية، وقد عمل في حاشية سعيد باشا، ثم إسماعيل باشا، وآخر ما تولاه إدارة المعارف سنة 1299هـ، وكان كاتباً بليغاً، سلك في كتاباته طريقة كتاب القرن الرابع الهجري، وله (المقامة الفكرية في المملكة الباطنية) المطبوعة في سنة 1299هـ⁽¹⁾، وله مقامة في حسن الوفاء، وله مقامة بعنوان: "(العمال والبطال)"⁽²⁾، يُقُولُ فِي مَقَامَتِهِ الْفِكْرِيَّةِ: "حدثنا أبو المقال بن ذاك، عن الخيال بن خاطر، قال: قعدت أتفكر في عجائب الزمان، وغرائب عالم الأمكان، وما في صنيع الإنسان من بديع الإحسان، ثم ما للإنسان مع فصاحة اللسان من المزايا الحسان، وما منحه الله تعالى من تمييز، ومن عقل عزيز، وبصيرة تقوده إلى هداه، وترده عن مهاوي هواه"⁽³⁾. حيثُ تأثر في أسلوبه الكتابي ببديع الزمان الهمذاني في التزام السجع القصير، والمحسنات البديعية في غير تكلف.

11- إبراهيم الأحذب (1242-1308هـ/1826-1891م)

هو إبراهيم بن علي بن أحمد الطرابلسي ثم البيروتي، العالم الذي طاول الثريا علمه، والشاعر الذي سحر الألباب نظمه ونثره، والإمام الذي شاد ربوع الشعر والخطابة، والهمام الذي لزم الأدب جنابه، ولثم أعتابه، والفصيح الذي بسقت في ناديه أدواح الفصاحة، والمليح الذي ما زال قدمه يوماً عن مناهج الفلاحة، ولد في طرابلس الشام 1242هـ، تتلمذ على يد كبار العلماء، ومن أشهر مؤلفاته: (كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان)، و(فرائد الأطواق

= والجزائر، وتونس، وزنجبار، وجاوا، والهند، وغيرها. وفي سنة 1879م صدر الأمر بتعطيل (الجوائب) مدة ستة شهور لامتناع مديرها من نشر مقالة تحمل طعناً في الخديو إسماعيل.

وكانت الجوائب لا تخلو من المناظرات العلمية أو السياسية بين صاحبها وبين أكبر علماء ذلك العهد كالشيخ إبراهيم النيازجي... والمعلم بطرس البستاني ورزق الله حسون... وكان مما يعاب على أحمد فارس خلطة المناظرة العلمية ثم العدول عن البرهان إلى الطعن، والدّم والشتم إلى ما شاكل ذلك.

جمع سليم بن أحمد فارس الشدياق أنفوس ما نشرته هذه الجريدة من منثور ومنظوم. ثم طبعه في سبعة مجلدات سماها (كنز الرغائب في منتخبات الجوائب). المصدر: تاريخ الصحافة العربية لفيليب دي طرازي، المطبعة الأدبية، بيروت سنة 1913م، (ص61-ص64)، الزركلي، الأعلام، (ج3/98)، كحالة، معجم المؤلفين، (ج4/226).

(1) يُنظَر: البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، (ج2/968).

(2) فكري، الآثار الفكرية، (ص94)، يُنظَر: المرجع السابق، ص2.

(3) المرجع السابق، ص276.

في أجياد محاسن الأخلاق)، و(الوسائل الأدبية في الرسائل الأحديبية)، و(كشف الأرب عن سرّ الأدب)، و(فرائد اللال في مجمع الأمثال)، و(نفحة الأرواح على مراح الأرواح)، و(كشف الأرب عن سر الأدب)، و(عقود المناظرة في بدائع المغايرة)، وكتاب (ذيل ثمرات الأوراق)، وكتاب (تفضيل اللؤلؤ والمرجان في فصول الحكم والبيان)، وله مقامات جعلها على لسان أبي عمر الدمشقي، وأسند رواياتها إلى أبي المحاسن حسان الطرابلسي، وهي عبارة عن تسعين مقامة جارى في إبداعها العلامة الحريري، وله كتاب (كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان)، وهي آخر مؤلفاته، ومن قصائده الأنيقة، وأشعاره الرقيقة قوله مادحاً حضرة السيد الأمير عبد القادر الجزائري:

عُقُودُ وُدَادِي نَظْمُهَا لَيْسَ يُفْسَخُ وَشَرْحُ غَرَامِي مُحَكَّمٌ لَيْسَ يُنْسَخُ
أَذَلُّ لِمَنْ أَهْوَى وَكَمْ ذَلَّ عَاشِقٌ أَشَمُّ لَهُ أَنْفٌ إِلَى الْمَجْدِ أَشْمَخُ
تَمَدُّ خُدُودُ الْغَيْدِ قَلْبِي بِنَارِهَا فَمَهْمَا جَرَى دَمْعِي لَا يَتَبَوَّخُ
وَلَمْ تَكْتَحِلْ عَيْنِي بِمَيْلٍ مِنَ الْكُرَى وَكَمْ وَبَيْنَ مَنْ أَهْوَى وَبَيْنِي فَرَسَخُ

وكانت وفاته رحمه الله في شعبان ألف وثلثمائة وثمان للهجرة⁽¹⁾.

12- شهاب الدين السويدي (1250-1325هـ/1834-1907م)

هو شهاب الدين بن أبي البركات السويدي، ولد في بغداد، أخذ العلم عن والده، ثم درس على كبار علماء بغداد، بعد ذلك شارك في امتحان القضاء حتى نال إجازته، عُيِّنَ نائباً في قضاء مدينة الهندية عام 1878م، بعدها عُيِّنَ قاضياً في السماوة عام 1879م، ثم في الكاظمية، ومدرساً في مسجد السويدي عام 1882م، ثم أصبح نائباً لقضاء الديوانية، والجزيرة عام 1901م، وظل بها حتى وفاته. شاعر مقلد، نظم على الموزون المفقى وفي أغراضه المألوفة، غير أن مجمل ما توفّر من شعره جاء في المدح، كما نظم في مدح المولى سليمان، وهو لا يخرج عن المألوف، كما برع في فن المقامات، حيث كتب المقامة (السويدية)، والتي مطلعها: الحمد لله الذي رفع منابر الأدب، وهي وصف بستان فيه من كل فاكهة زوجان⁽²⁾.

(1) يُنظَر: البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، (ج1/46-61). يُنظَر: شيخو، تاريخ الآداب العربية، (ص185، ص186).

(2) يُنظَر: سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، (ج1/1067).

13- ابن ميمون الجزائري

هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن ميمون الزواوي النجار الجزائري، المشهور بابن ميمون الجزائري، لم يعرف تاريخ ولادته، ولا تاريخ وفاته، وعلل المؤرخون ذلك لقلّة الاهتمام بالأدب الجزائري إجمالاً، وأدب العصر العثماني خصوصاً، "وإذا كنا حتى الآن لا نعرف تاريخ ميلاد ابن ميمون، ولا تاريخ وفاته، ولا مكانه أيضاً"⁽¹⁾.

ومن أشهر كتبه (التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية)، ويضم هذا الكتاب مجموعة من المقامات بلغت ست عشرة مقامة مرتبة ترتيباً رقمياً، بشكلٍ تصاعدي، وكل مقامة إضافة إلى وصفها برقمها، أُضيف إليها عنوان يعبر عن مضمونها، ويميزها عن غيرها، وقد وردت المقامات في الكتاب على النحو الآتي:

- 1- المقامة الأولى: فيها نبذة عن أخلاقه المرضية، ومما أشار عليه بعض السادات الصوفية
- 2- المقامة الثانية: في كونه سانجاق دار⁽²⁾ بلغة المجاهدين الأخيار.
- 3- المقامة الثالثة: في توليته على تقسيم خبز العسكر، وكيف نزع الظالم حين طغى وتجبر.
- 4- المقامة الرابعة: على أنه يتصدى ملكاً للإيراد والإصدار، فزحلق نفسه إلى تفتن دار.
- 5- المقامة الخامسة: في تغريبه من الجزائر، ورجوعه إليها بقدر الحكيم القادر.
- 6- المقامة السادسة: في استفتاح الملك صباحاً، وما جرى لأهل الدولة غدواً، ورواحاً.
- 7- المقامة السابعة: في اسمه، وأهل مملكته، ورسمه.
- 8- المقامة الثامنة: في تهنئة الشعراء، ومدحهم له، وتعريف كل واحد بما سطره، أو نقله.
- 9- المقامة التاسعة: في ذكر الخروج لوهران بقصد غزو الكفرة، وما حدث بعده من مقاتلة اللثام الفجرة.
- 10- المقامة العاشرة: في حصار حصن العيون، وكيف استفتحه -عنوة- المسلمون.
- 11- المقامة الحادية عشر: في استفتاح حصن الجبل، وكيف نزعه من أيدي الكفرة عن عجل.

(1) يُنظر: الزركلي، الأعلام، (ج7/121)، وسعد الله، أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، (ص137).

(2) سانجاق دار: حامل اللواء أو حامل الراية باللغة التركيبية.

- 12- المَقَامَةُ الثَّانِيَةُ عشر: في حصر حصن بن زهوة، وَكَيْفَ اسْتَفْتَحَهُ الْمُسْلِمُونَ عَنوة.
- 13- المَقَامَةُ الثَّالِثَةُ عشر: في اسْتَفْتَا ح مَدِينَةَ وَهْرَانَ، وَكَيْفَ صَارَ عَزُّ الْكُفْرَةِ إِلَى هَوَانَ.
- 14- المَقَامَةُ الرَّابِعَةُ عشر: في اسْتَفْتَا ح بَرَجِ الْأَحْمَرِ وَالْجَدِيدِ، وَكَيْفَ أَلْقَوْا لِأَبِي الْفَتْوحِ الْمَقَالِيدَ.
- 15- المَقَامَةُ الْخَامِسَةُ عشر: في حصر حصن المرسي، وَكَيْفَ افْتَتَحَهُ الْمُسْلِمُونَ، وَزَالَ بِاخْتِطَامِهِ الْأَسَى.
- 16- المَقَامَةُ السَّادِسَةُ عشر: في إِيَابِ خَلِيفَةِ سَيْدِنَا لِلْجَزَائِرِ سَالِمًا غَانِمًا بِالْأَسْرَى وَالذُّخَائِرِ.

وَلَعَلَّ قِيَمَةَ هَذَا الْكِتَابِ تَتَمَثَّلُ فِي كَوْنِهِ وَثِيْقَةً تَارِيخِيَّةً، تَعْطِينَا صُورَةَ الْحَيَاةِ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ الَّتِي تَتَوَلَّاهَا فِي مَخْتَلَفِ مَظَاهِرِهَا، خَاصَّةً السِّيَاسِيَّةِ، وَالدِّيْنِيَّةِ مِنْهَا، بَلْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ يَعْطِينَا الْوَجْهَ الْآخَرَ لِهَذِهِ الْفَتْرَةِ، غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي أَرَادَ الْاسْتِعْمَارُ الْفَرَنْسِيَّ أَنْ يَثْبِتَهُ فِي أَذْهَانِ الْجَزَائِرِيِّينَ عَنِ الْعَهْدِ الْعُثْمَانِيِّ، "الْعَهْدِ الَّذِي ظَلِمَ كَثِيرًا، وَأَعْطَانَا الْاسْتِعْمَارَ، وَأَعْوَانَ الْاسْتِعْمَارَ عَنْهُ صُورَةَ قَاتِمَةٍ بِشَعَةِ، لَا تَمْتُّ إِلَى الْحَقِيقَةِ التَّارِيخِيَّةِ بِسَبَبِ (1).

وَمِنَ النَّاحِيَةِ الْأَدْبِيَّةِ فَإِنَّ هَذَا الْكِتَابَ يَرُدُّ افْتِرَاءَاتِ الظَّالِمِينَ عَلَى الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ، فَهُوَ يَمْتَلِئُ نَمُوذَجًا لِلْكِتَابَةِ، وَمَسْتَوَاهَا الرَّاقِي فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ، كَمَا "يُضَعُّ بَيْنَ أَيْدِي الْقُرَّاءِ مَادَةٌ أَدْبِيَّةٌ دَسْمَةٌ، فَقَدْ وَرَدَ فِيهِ عَدَدٌ مِنَ الْقَصَائِدِ بَلَغَ عِدَدَ أُبْيَاتِهَا ثَمَانِمِائَةَ وَثَمَانِيَةَ وَتَسْعِينَ بَيْنًا، جَمِيعُهَا فِي أَدَبِ الْمَنَاقِبِ وَالْجِهَادِ" (2).

وَعَوْدَةٌ إِلَى ابْنِ مَيْمُونِ الْجَزَائِرِيِّ الَّذِي امْتَلَكَ قُدْرَةً لَعُوبَةً فَائِقَةً، وَمَقْدَرَةً أَدْبِيَّةً كَبِيرَةً، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَرَسُمَ مَلَامِحَ تَفُوقِهِ الْأَدْبِيِّ، وَقُدْرَتِهِ التَّعْبِيرِيَّةِ، وَمَعْرِفَتِهِ النَّقْدِيَّةِ، وَذَلِكَ يَتَأَكَّدُ مِنْ قَوْلِهِ: "وَلَا أَعْلَمُ أَنِّي لَقِيتُ مِثْلَهُ... وَلَوْ أَدْرَكَهُ الصَّاحِبُ وَالْبَدِيعُ، لِأَخْذِ عَنْهُ كُلِّ مَعْنَى بَدِيعٍ، وَإِذَا قَصِدَ وَأَخَذَ لِلشُّعْرِ بِمَرْصِدٍ، وَشَطَّرَ وَصَرَّعَ، وَجَنَسَ وَرَصَّعَ، وَطَابَقَ، وَقَابَلَ، وَوَازَنَ وَمَاتَلَ، وَاقْتَنَصَ وَلَمَّحَ، وَوَشَّحَ وَاسْتَعَارَ، وَرَشَّحَ وَكَمَّلَ، وَتَمَّمَ وَأَوْضَحَ، وَأَدْمَجَ وَسَمَّطَ، وَدَبَّجَ، وَجَمَعَ وَفَرَّقَ، وَبَالَغَ وَأَعْرَقَ، وَالتَّفْتُّ وَاحْتَرَسَ، وَضَمَّنَ وَاقْتَبَسَ، وَأَبْدَعَ وَطَرَّزَ، وَأَعْجَبَ وَأَعْجَزَ، فَالْسِحْرُ الْحَلَالُ، وَمَاءُ الزُّرْلَالِ، وَالْمَنْهَلُ الْعَذْبُ" (3). فَقَدْ جَمَعَ الْأَدِيبُ مَصْطَلِحَاتٍ بِلَاغِيَّةً، وَعَرُوضِيَّةً تَتَمُّ عَنْ امْتِلَاكِهِ قُدْرَاتٍ رَبِّمًا لَمْ يَمْتَلِكْهَا كَثِيرُونَ.

(1) يُنظَرُ: الْمَدْنِي، مَذْكَرَاتُ أَحْمَدَ الْحَاجِّ الشَّرِيفِ الزُّهَارِ، (ص 5).

(2) الْجَزَائِرِيُّ، النُّحْفَةُ الْمَرْضِيَّةُ، (ص 85).

(3) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 186.

المبحث الرابع: موضوعات المقامة في العصر العثماني

للفن أشكال وألوان، ولموضوعاته فصول وأبواب، فقد طرق أدباء المقامات في العصر العثماني أغراضاً شتى، وسلكوا دروباً متنوعة، وقصدوا أبواباً كثيرة، ومن تلك الأبواب: "أبواب العزل والعشق، ووصف الخمر، ومجالس المنادمة، وأبواب الفكاهة، والمداعبة، والمجون، وتسجيل الحوادث العامة، وبيان خطرهما، ووصف أخلاق الناس وعاداتهم، وتصوير مناظر البيئة، وأبواب الشكوى والمديح، وأبواب النقد واللغة، إلى غير ذلك من ألوان"⁽¹⁾.

وقد برع أدباء المقامة في رصد موضوعات نصوصهم، وأبدعوا في الخوض فيها، حتى أضحت مرآة صادقة تعكس صورة العصر، وتقدم تراثه الأدبي شعراً، ونثراً، وتبرز بوضوح التاريخ، والثقافة، والسياسة، والدين، والاجتماع، وبهذا كانت المقامة سجلاً متكاملًا رصد حياة العصر العثماني.

أولاً: الموضوعات السياسية

في ظل الظروف السياسية في العصر العثماني برز فن المقامة، واستوى على سوقه ناضجاً له أصوله، ومقوماته، وملامحه، وسماته، وقد أسهمت تلك الظروف في ظهور المقامة، وتنوع موضوعاتها، كما أسهمت تلك الأحداث السياسية الجسام التي شهدها العصر العثماني، والفتوحات التي حققتها جيوش هذه الدولة، في تطور تلك الموضوعات.

ولم يكن أدباء العصر العثماني بمعزل عن السياسة، وهذا أمر بدهي، فالأديب ابن بيئته يؤثر فيها، ويتأثر بها؛ لذا لم تخل كثير من تلك المقامات من الإشارة إلى تلك الحياة السياسية، والحديث عن بعض ملامحها من فتوحات واسعة في شتى أرجاء الدنيا شرقاً، وغرباً، شمالاً، وجنوباً.

وقد حملت المقامات في العصر العثماني الطابع السياسي، فلم يكن هذا الفن بمنأى عن السياسة، فقد استوعب مساحة شاسعة من هذا الغرض، ورُبما ارتبط هذا الاتساع بانساع الدولة العثمانية التي امتدت إلى ثلاث قارات، هي آسيا، أوروبا، وأفريقيا.

ومن المقامات التي حملت الطابع السياسي، المقامة التي عُرفت بعنوان (أعلام الأخبار بغرائب الوقائع، والأخبار)، حيث تناولت هذه المقامة العلاقة بين العلماء، والسلطة، وانتشار ظاهرة الوشاية بين أهل العصر، يقول فارس المقامة: "الحمد لله الذي جعل المصائب وسائل

(1) سليم، الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والحديث، (ص36).

لمغفرة الذنوب، والنائب فضائل لذي الأقدار والخُطوب، وسلط سُبْحَانَهُ وتَعَالَى عَلَى الأشراف أرباب الزور، والفجور، والإسراف؛ ليردّهم بِذَلِكَ إِلَى باب مناجاته، وليظفر المبتلى منهم بقضاء أوطاره وحاجاته... وبعد، أَيُّهَا الْعُلَمَاءُ الفضلاء الثُّبَلَاءُ الكَمَلَاءُ، فرِّغُوا أذهانكم، وألقوا آذانكم، وتأمّلوا ما يلقي إليكم من الخبر الغريب، وما يرسله الله تَعَالَى عَلَى كُلِّ عَاقِلٍ أريب، فقد ارتفعت الأشرار، واتّضعت أرباب المَعَارِفِ والأسرار، وانقلبت الأعيان، وفشا في النَّاسِ الزُّورُ والبهتان، وأهملت أحكام الشريعة، وتصدّى لها كُلُّ ذِي نَفْسٍ للشَّرِّ سريعة، بَيْنَمَا نحن في عيش ظلّه وريف، وفي أهني لذة بقراءة العلم الشريف... إذ سعى في تشيت أحوالنا وقلوبنا، وهتك أستارنا وعبوبنا، من لا يخاف الله، ولا يَنْقِيهِ، فرمى كُلَّ صالح وفقه بما هو لاقه، واغترّ في ذلك بقوم يظنون أنّهم أفاضل، وهم والله أياش أراذل، وما كفاه بثّ ذلك في كُلِّ ميدان؛ لأنه يسر للشيطان حتى أوصله لمسامع السلطان، فلم نشعر إلا ومكاتب واردة علينا من جانب الأمير بعزل صديقنا الشهير، من خطة الفتوى، مع أنّه ذو علم وتقوى... تحيّرنا من ذلك أشدّ التّحير، وتغيّرنا بسببه أعظم التّغير، ثمّ نادى منادي السُّرور، وقال أبشروا برفع السوء عنكم، ودفع كلّ السُّرور... فقلنا يا هَذَا أصدقنا في هذه البشارة...⁽¹⁾.

وَمِنَ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي طَرَقَ أَبْوَابُهَا، وبرع في تصويرها أدبَاءُ المَقَامَاتِ، فساد القضاة والقضاة، فقد صوّرت لنا (المقامة السَّاسَانِيَّة) ذلك، يَقُولُ صاحبها شهاب الدّين الخفّاجي: "وقضاة بلغ سيل الظلم بهم الرّبي، وشرقت أفواه التّلاع والرّبي، من كلّ منقوص لا يظهر رفعه، إذا رَقَّ دينه، وجفا طبعه، أحول عقله يرى الواحد من الرّشا اثنتين، ويبيع دينه نسيئةً بالدين. ويستفتي فرعون في قسمة الحياة قبل الأموات... ويفوق قاضي مُعزّ الدولة بفسوة الكلب في الهوان، وقد أحسن ابن شرف في هجوه غاية الإحسان، فقال:

إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاجِعُونَ فَقَدْ هَانَ عَلَى اللَّهِ أَهْلُ ذَا الْبَلَدِ
وَفَسُوهَ الْكَلْبِ صَارَ قَاضِيَنَا فَكَيْفَ لَوْ كَانَ ضَرْطَةَ الْأَسَدِ؟

فكم ركب بحر الأهوال، حتى وصل إلى ساحل الضلال، وأمعن السير في تيهه فلم يجد للهداية طرقاً، والمُنْبِتُ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى، وفقه تحت غبطه أجزاء رثة بها أفرط الجردان، وتعثت العنة أعمى العين والجنان"⁽²⁾.

(1) يُنظَر: سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، (ص 91- ص 102).

(2) الخفّاجي، رِيحَانَةُ الْأَلْبَاءِ وَرَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (المقامة السَّاسَانِيَّة)، (ص 392).

لَقَدْ رَسَمَ شِهَابُ الدِّينِ الْخَفَاجِيِّ صُورَةً مَظْلَمَةً لَطَائِفَةً مِنْ أَهَمِّ طَوَائِفِ الْمَجْتَمَعِ، وَلَا أَبَالِغُ
 إِنَّ قَلْتُ مِنْ أخطر طوائف المجتمع، وهي طائفة القضاة، التي إن أحسنت انتشر الأمن
 والأمان، وإن حادت عن الحق فشا الجور والضلال، حيث صور الخفاجي الصورة المظلمة
 للقضاة بعددٍ من الجمل المرعبة التي يحملها قوله: (وقضاة بلغ سيل الظلم بهم الزبي، وشرقت
 أفواه التلاع والرئي)، وقوله: (أحول عقله يرى الواحد من الرشا اثنين، ويبيع دينه نسيئة بالدين)،
 ثم يختم بقوله الذي يحمل في طياته منتهى الجور، وقمة الظلم مستلهماً من التراث شخصية
 فرعون: (ويستفتي فرعون في قسمة الحياة قبل الأموات). مع ما تحمله تلك الشخصية من
 القهر، والتسلط، والكبرياء، وسوء العاقبة، وعاقبة السوء.

وَلَمْ يَكْتَفِ الْأُدْبَاءُ بِتصوير فساد القضاة، بل تجاوزوا ذلك فكان للعلماء من تصويرهم
 نصيب، فأظهروا معائبهم، وكشفوا سوءاتهم، يقول شهاب الدين الخفاجي في (المقامة
 الساسانية): "ورؤساء الفقهاء والكتّاب، الراضين من الغنيمة بالإياب، وسعوا الأكماء، وطولوا
 الذيول، ومشوا في ظلمات الجهل والعلم مصباح العقول، قباب عمائمهم على قبور الأجسام
 دنياً منكوسة أهرقت الألباب والأفهام... اتخذوا سعة الأكماء زنبيلاً للخزي والملام، وطول
 الذيول، مكانس لطرق الغلول. إذا جلسوا يلقون دروساً، رأيت عنز الأخفش تقابل تيوساً. فإذا
 كبر وتكسرت قواريره، هب لتخريب الأوقاف دبورته وأعاصيره. وإذا صام عن الخبز أفرط بأكل
 أموالها، وتهجد ببيع أحجارها واستبدالها"⁽¹⁾. فقد تفوق الخفاجي في رسم المشهد معتمداً على
 عددٍ من التشكيلات الخيالية، كالتشكيل التشبيهي، والاستعاري، والكنائي، التي تجسد مساحة
 الظلم، والجور، وتصور حجم الضلال والكفر، الذي يبدو واضحاً في قول الخفاجي: (وسعوا
 الأكماء، وطولوا الذيول)، مع ما تحمله العبارتان من سوء السيرة، وقبح السريرة، وقوله: (وإذا
 صام عن الخبز أفرط بأكل أموالها) الذي يحمل صورة ساسة لبسوا عمائم السرقة والنهب.

وفي المقابل لم يهمل الأدباء من توسموا فيهم الخير من القضاة، فأنطلقوا يصورون
 مثالبهم، ويعددون محاسنهم في صورٍ نقيّة حملت الحسن والجلال، وضمت الروعة والجمال،
 يقول شهاب الدين الخفاجي في (المقامة الساسانية): "وقد فقد العلم لولا نفحة أنسٍ من نفر بقايا،
 فتح الله بهم خزائن كنوزٍ هي خبايا في الزوايا. من كل نقي العرض أبيض السجايا، إذا تدنست
 الأعراض فأعراضهم من العار عرايا

خَدَّ الرَّبِيعِ طُلُوعِ الْفَجْرِ مِنْ حَجَلٍ

أَبَدَتْ مَا تَرَاهُمْ نَفْصَ الزَّمَانِ فِي

(1) الخفاجي، ربحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا (المقامة الساسانية)، (ص 391، ص 392). الزنبيل: السّامد.

حمت شوكتهم رياضاً في ربا الدين العوالي، وأحيا الله بأنفاسهم العيسويّة موات المعالي. ولمّا شرح الله بهم صدر الدين، وفتح ببصائرهم عين اليقين، أيّدهم بأبناء الأعيان من أمرائها، فقالت الخلافة تحت أفياء لوائها، حتّى حموهم من نوائب الحتوف، وزهت جنة مთاهم تحت ظلال السيوف، فصارت بهم الأطراف، من منازة منازل الأشراف.⁽¹⁾

هكذا أبدع شهاب الدين الخفاجي لما اعتمد على المقابلات في رسم مشهدين متناقضين للقضاة، مشهد مظلم حالك الظلام، وآخر مشرق كلّ الإشراق، فبرزت المشاهد أكثر وضوحاً، هدأ من ناحيّة، ومن ناحيّة أخرى فقد برع الخفاجي في المزج بين الحقيقة والمجاز لبيان فكرته، حيث وظف مزيداً من الصور البلاغيّة لإيضاح الفكرة، أول هذه الصور التشكيل الاستعاريّ في قوله: (شرح الله بهم صدر الدين)، وثانيها التشكيل التشبيهيّ في قوله: (فتح ببصائرهم عين اليقين)، وقوله: (حتّى حموهم من نوائب الحتوف).

وقد توسّع الأدباء فانتقلوا من الأفراد إلى الدولة، والدعاء لها، يقول شهاب الدين الخفاجي: "أأوا من ذلك الظل بركن معتمد، ونزلوا فيه بين العلياء والسند، متعنا الله بهذه، وجعلها أطول الدول عمراً، وأرفعها مناراً، وأعظمها قدراً، سماء مجدهم مكلّلة بنجوم تهتدي بها الأمانى، ويستقر رجاء كلّ قلب عانى، والدهر لسعدهم من الخدم، وفيض أياديهم يغني عن الدّيم، وسحبهم مغدقة على الرّاجين بالكرم

قُلْتُ لِلْبَرْقِ إِذَا تَأَلَّقَ فِيهَا
يَا زِنَادَ السَّمَاءِ مَنْ أَوْرَاكَ
إِذَا تَشَبَّهْتَ بِالْكَرَامِ وَمَا قَدْ
كَانَ مِنْ جُودِهِمْ فَلَسْتُ هُنَاكَ

ومذ عيي لسان برقه الخلب، وقال: لا خلافة، وكلت دهم الأقالم من المشي في الكتابة⁽²⁾.

وهذه المرة يسلك الخفاجي طريقاً جديداً في رسم صورة بارعة للدولة، حيث انطلق من خصوصيّة الأفراد إلى عموميّة الدولة معتمداً على أسلوب التفضيل أكثر من مرّة في قوله: (وجعلها أطول الدول عمراً، وأرفعها مناراً، وأعظمها قدراً). ثم زين المشهد بعدد من المفردات تحمل في ثناياها السمو، والشموخ في قوله: (العلياء، مناراً، نجوم، برقه، سحبهم).

(1) يُنظَر: الخفاجي، ربحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا (المقامة الساسانيّة)، (ص392، 393). الدّيم: السخاء، الجوهري، الصحاح، (ج5/1942). مادة (دِيم).

(2) يُنظَر: المرجع السابق، ص395. دهم: سود.

إنَّ كَثِيرًا من المَقَامَاتِ العُثمانيَّة تتناولت موضوع القَضَاءِ، خَاصَّةً مقامات نَاصيف اليَازجِي، وَمِنْهَا المَقَامَةُ الغزِيَّة، والمَقَامَةُ الأنطاكيَّة، والمَقَامَةُ السُخريَّة، والمَقَامَةُ الدَمِياطيَّة، والمَقَامَةُ الصَّعيديَّة، وَلَعَلَّ ذَلِكَ يبرز ما للقضاء من أهميَّة بالغَةٍ في المجتمع العُثمانيِّ.

ثانياً: المَوْضُوعَاتُ الاجْتِمَاعِيَّةُ

الأدبُ والمجتمعُ عنصرانِ رئيسانِ يكمل كلُّ منهما الآخر، فالعلاقة بين الأدبِ والمُجتمَعِ علاقةٌ حميمةٌ، وتُوسِّمُ هذه العلاقةُ هنا بأنَّها تبادليَّةٌ بينَ الأدبِ والمُجتمَعِ، فكلاهما يؤثرُ في الآخر، وعلى مدى التَّاريخ لم ينكر أحدُ العلاقةِ بينهما، وَمِنْ هُنَا "كَانَتْ قَضِيَّةُ العِلَاقَةِ بَيْنَ الأدبِ والمُجتمَعِ، وما تزال موضوعاً شديداً الأهمية لقيم الأدبِ ودراسته، وبدونها لا يمكن فهم الأدبِ ولا المجتمع، وَرَغَمَ أَنَّ مصطلحي الأدبِ والمجتمع لم يحملوا نفس الدَّلالاتِ الحَدِيثَةِ عِنْدَ القدماء، إِلَّا إِنَّا نستطيع أن نلمح إسهاماتٍ حول هذه العِلَاقَةِ منذ القديم"⁽¹⁾.

إنَّ العمليَّةَ الإبداعيَّةَ تنطلق من الواقعِ باعتباره مرجعيَّةً أساسيةً، ومنطلقاً بديهيًّا لا يمكن أن يُنكره أحدٌ، كَمَا أَنَّ العِلَاقَةَ بَيْنَ الأدبِ والمُجتمَعِ يستحيل أن تكون هامشيَّةً في التَّاريخ الأدبيِّ؛ إذ تلعب هذه العِلَاقَةُ دوراً بارزاً في حركة الفُنون الأدبيَّة. وَمِنْ هُنَا يُمكنُ القولُ إنَّ الظَّاهرةَ العامَّةَ التي اتَّسمت بها المَقَامَةُ - شأنُها شأنُ الفُنون الأدبيَّة الأخرى - هي ظاهرة النِّقد للواقع، والنُّوْرَةُ على تقاليد ربَّما أصبحت بالية، وكشف العيوب الإنسانيَّة، وإظهار المشكلات الاجتماعيَّة، مع محاولة وضع البديل لها في بعض الأحيان، وإيجاد الحلول المناسبة من خِلالِ هَذَا الفنِّ الموسوم بـفنِّ المَقَامَةِ.

إِنَّا إِذَا تَتَبَعْنَا فنَّ المَقَامَةِ في العُصُورِ الأدبيَّةِ منذ بَدِيْعِ الزَّمانِ الهذاني، نجد أن هَذَا الفن ينلمس علاج المجتمع في حُلَّةٍ من اللَّفظ، رَغَمَ أَنَّ المُتلَقِّي يعجب بالصياغة، وينبهُرُ بحسن السبِّك، وجمالِ السَّجْعِ، وينشغل بهما، ولا يفرغ لِمَا تهدف إليه المَقَامَةُ في مضمونها إِلَّا بَعْدَ اكتمالها، وعمق التَّفكير في مضمونها.

لَقَدْ تناوَلَ الأَدبَاءُ مَوْضُوعَاتِ اجتماعيَّةٍ شَتَّى فِي نُصُوبِهِم المَقَامِيَّة، وتكشف هذه المَوْضُوعَاتُ وجودَ العِلَاقَةِ بينَ الفنَّانِ والمجتمع، رَغَمَ أَنَّ هَذَا التَّنَاولَ "لا يعني أنَّ الظَّواهر الاجتماعيَّة التي يتناولها الفنَّان في تعبيره الأدبي تكون طبق الأصل لمثيلاتها في الواقع الحقيقي؛ لِأَنَّ من حقِّ الفنَّان أن يجسِّم صورته الفنيَّة حتى تبدو أكثر دلالةً وعمقا، بشرط ألا يخلَّ

(1) البحرأوي، المدخل الاجتماعي للأدب، (ص3).

ذَلِكَ بِالتَّوَازُنِ لِلوَاقِعِ الحَقِيقِيِّ، وَالوَاقِعِ الفَنِيِّ؛ فغَايَةُ الفَنَّانِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ أَنْ تَكُونَ نَمَازِجَهُ نَابِضَةً بِالحَيَاةِ"⁽¹⁾.

وَمِنَ البِدْهِيِّ أَنْ تَكُونَ المَوْضُوعَاتُ الاجْتِمَاعِيَّةُ أَكْثَرَ المَوْضُوعَاتِ تَدَاوُلًا فِي التَّصْوَصِ المَقَامِيَّةِ، فَالأَدِيبُ مَعَ كُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا يَصْطَدِمُ بِقَضِيَّةِ اجْتِمَاعِيَّةٍ، وَفِي كُلِّ دَرْبٍ يَسْلُكُهُ يُوَاجِهُ بِمَشْكَلَةٍ وَاقِعِيَّةٍ تَسْتَحِقُّ أَنْ يَطْلُقَ العَنَانَ لِقَلَمِهِ لِيَرْسِمَهَا، وَمِنَ المَوْضُوعَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي تَتَاوَلَهَا أَدْبَاءُ المَقَامَاتِ فِي أَعْمَالِهِمْ مَوْضُوعُ الزَّوْاجِ، وَاخْتِيَارُ الزَّوْجَةِ، وَوَصْفُ النِّسَاءِ، وَالمِهْنِ، وَالحَرْفِ، وَالعَزَلِ، وَالتَّسْيِبِ، وَالتَّشْبِيبِ، إِذَا كَانَ العَزَلُ، وَالتَّسْيِبُ، وَالتَّشْبِيبُ يَدْخُلُ فِي المَوْضُوعَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي تَتَاوَلَهَا أَدْبَاءُ المَقَامَاتِ.

وَمِنَ المَوْضُوعَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي طَرَقَ الأَدْبَاءُ أَبْوَابَهَا، وَصَفُ النِّسَاءِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّدِيْقِ فِي مَقَامَةٍ (مُقِيمَةً): "فَخَرَجْتَ مِنْ بَيْتِي كَثِيْبًا مَبْتَسِمًا، سَاخِطًا عَلَيَّ جَمِيعِ النِّسَاءِ، فَبِينَا أَنَا فِي الطَّرِيقِ، إِذْ مَرَّ بِي سَرْبٌ مِنْهُنَّ يَخْطُرُ بِالنُّوْبِ الصَّفِيقِ، وَالحَلِيِّ ذِي البَرِيقِ، وَقَدْ أَرَجْتَ الأَرْجَاءَ بِطَبِيْهِنَّ العَتِيقِ، فَرَأَيْتُ مِنْ بَيْنِهِنَّ الهَيْفَاءَ وَالبَدِيْنَ، وَالعُرَّاءَ الزَّهْرَاءَ ضَرَّةَ حُورِ العَيْنِ، وَمُهَيَّدَةَ العَيْنِيْنَ، فَتَاقَتْ نَفْسِي إِلَى وَصَالِهِنَّ، وَتَبَلَّبَ بِأَلْيِ بَجْمَالِهِنَّ، وَنَسِيْتُ مَا لَقِيْتُ مِنْ لِكَاعِي فِي البَيْتِ، وَقَلْتُ لِيَتَكَنَّ لِي لَوْ تَنَفَّعَ لَيْتَ"⁽²⁾. وَكَأَنِّي بِالشَّدِيْقِ قَدْ عَادَ إِلَى الأَدَبِ الجَاهِلِيِّ يَسْتَلْهِمُ تَرَاثَهُ، حَيْثُ الوَصْفُ الحَسِيِّ لِمَفَاتِنِ المَرْأَةِ، وَرَبَّمَا فَاقَ شِعْرَاءَ العَزَلِ الحَسِيِّ فِي قَوْلِهِ: (فَرَأَيْتُ مِنْ بَيْنِهِنَّ الهَيْفَاءَ وَالبَدِيْنَ، وَالعُرَّاءَ الزَّهْرَاءَ ضَرَّةَ حُورِ العَيْنِ). مُسْتَلْهِمًا قَوْلَ الأَعْشَى:

عُرَّاءُ، فَرَعَاءُ مُصْفُوعِلٌ، عَوَارِضُهَا تَمْشِي الهُوَيْنِي كَمَا يَمْشِي الوَجِي الوَحْلُ"⁽³⁾

وَقَوْلُ كَعْبِ بِنِ زَهِيْرِ فِي رَائِعَتِهِ (بَانَتْ سَعَادُ):

هَيْفَاءُ مُقْبَلَةٌ، عَجْرَاءُ مُقْبَلَةٌ لَا يُسْتَكَى مِنْهَا قِصْرًا، وَلَا طُنُولُ"⁽⁴⁾

وَمِنَ المَوْضُوعَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي تَتَاوَلَهَا الأَدْبَاءُ، عَدَمُ التَّكَافُؤِ بَيْنَ الزَّوْجِ وَالمَرْوُجَةِ، سِوَا مَا كَانَ ذَلِكَ فِي السَّنِّ، أَمْ المَسْتَوَى الاجْتِمَاعِيَّ، وَهَذَا المَوْضُوعُ مِنَ المَوْضُوعَاتِ الجَدِيدَةِ

(1) عوض، فن المقامات بين المشرق والمغرب، (ص14).

(2) الشَّدِيْقِ، السَّاقُ عَلَى السَّاقِ، (ص279). الصَّفِيقُ: الجَمِيْلُ البَيِّنُ ذُو الصَّفَاقَةِ، أَو الكَثِيْفُ النُّسْجِ، تَبَلَّبَ: اخْتَلَطَ.

(3) الأَعْشَى، دِيْوَانَ الأَعْشَى، (ص55).

(4) ابن زهير، ديوان كعب بن زهير، (ص60).

القَدِيمَةَ الَّتِي لم يبرحها الأُدبَاءُ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيفِ الِيارِجِيِّ فِي (المَقَامَةِ الصُّورِيَّةِ):
 "قالت هو شيخٌ يَفِن، قد صار جلده كالسَفَن، يضمُّني إلى أضلاع له كالنَّعش، فتغشاني لحيته
 كالكفن... وهو فقير يتمنى الفلس، وتغلبه عزة النَّفس، فيعتقد ولا يسترفد...، ويغضي على القذى،
 ولا يشكو الأذى، وتبلغ بالثوباء على الهويناء، ويقنع من الشَّرَاب بالسَّرَاب، ويرضى من البيض
 بالبيض، وأنا فتاة غضة الشَّبَاب، لا تشبيني كُشي الضَّبَاب، ولا أرضى بخلق الجلباب، ولطالما
 حرصت على برّه، فطوبته على غِرّه، وكلفت نفسي كتم سرّه، حتّى صرْتُ أهزل من الجوزل،
 وأجوع من كُلبه حومل"⁽¹⁾.

لَقَدْ بَرَعَ الِيارِجِيُّ أَيْمًا براعةً في رسم المَشْهَدِ، حتى يخيل للقارئ أنه أمام مشهدٍ مرأىٍ
 تتقلَّب فيه الصُّور تباعاً، مُعْتَمِداً على تشكيلات تشبيهية بارعة تقوم على المفارقة بين الأنا،
 والآخر، الأنا يكتنفه الجَمال، والآخر يلفه القبح، حتى تقنع السامع بالتضامن معها، وموازرتها
 في مصيبتها؛ إذ لا مجال للمقارنة، فستان بين الثرى والثريا. كما يبدع في تصوير مشهد القبح،
 وقبح المَشْهَدِ فِي قَوْلِهِ: (هو شيخٌ يَفِن، قد صار جلده كالسَفَن، يضمُّني إلى أضلاع له كالنَّعش
 فتغشاني لحيته كالكفن) مع ما تحمُّله التشبيهات من توضيح لمشاهد القبح، ثم يرسم مشهد
 النهاية القبيح المؤلم قائلاً: (حتى صرت أهزل من الجوزل، وأجوع من كلبه حومل).

وَمِنْ المَوْضُوعَاتِ الاجتماعية الَّتِي ضَمَّنَهَا أدبَاءُ المَقَامَةِ نصوصهم، واستوعبت مساحةً
 شاسعةً فيها، موضوع الزواج، والصفات الَّتِي يجب أن تتوفر في الزوجة، وقد أبدع الأُدبَاءُ في
 رسم محاسن الجَمال في المرأة، سواء أكانت هذه المحاسن حسيّة أم معنويّة، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ
 الصُّورَةُ البَارِعَةُ الَّتِي رسمها الشَّدِيْقُ مُسْتَلْهِماً ثراثَ السَّابِقِينَ، يَقُولُ: "قابتدرت إليّ واحدة منهم
 لها عنق كالغزال، وحاجب كالهِلال... ثم التفتت إليّ أُخْرَى وجبينها يلمع كالصَّبّاح، ولحظها
 يدمي كالصَّفّاح... ثم تقدّمت إليّ أُخْرَى وحبب عرقها كاللّالي، وحالك فرعها كاللّياي، ثم دنت
 مني أُخْرَى وهي تهتز عجباً ودلالاً، وتبسم عن شنب ما رأى الناظر له مثلاً... ثم أقبلت عليّ
 الخامسة وهي من الخفر كالظبية المكانية... ثم تقدّمت السادسة باشة أنسة... ثم تقدّمت السابعة
 وكانت ذات حقيبة سابعة، وطلعة رائعة... ثم انبرت الثامنة وهي على ما يبدو لي رافنة
 زافنة... ثم استقبلتني التاسعة، وهي تفتت عن لآلي ناصعة، ثم تصدّت لي العاشرة، وهي ذات

(1) الِيارِجِيِّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَةِ الصُّورِيَّةِ)، (ص 127، 128). يعتقد: يغلّق بابَه حتى يموت جوعاً،
 تسترفد: يستعطي، الثوباء: ما يرش من الدقيق تحت العجين، الهويناء: السهولة، البيض: بيض الثمل، كشي:
 جمع كشيّة، وهي شحمة تكون في أحشاء الضَّب، الجوزل: فرخ الحمام قبل أن ينبت ريشه، .

قائمة معتدلة، وعين جائرة... ثم دعنتي الحادية عشرة، وهي متمائلة مُسَبَّكَة⁽¹⁾. فأبي جمالٍ
تحتويه هذه الأسطر، وأية روعةٍ تتضمنها تلك الكلمات، وقد زاد المشهد جمالاً، وأضفى عليه
روعةً لما استعان الأديب بعناصر الطَّبِيعَةِ في تقديم المشاهد، حيثُ صعد إلى السماء قاصداً
الهلال، ثم اندفع صوبَ البیداء قاصداً الغزال، وإلى عوالم الإشراق والضياء صُحْبَةَ الصَّباح،
والصَّفاح، ولم يبرح حُب عرقها التي غدت كاللآلئ، ولا فرعها الذي نافس في طولهِ اللَّيالي.

ويتابع أحمد فارس الشدياق في نُصُوصِهِ المَقَامِيَّةِ الحَدِيثِ عن النساء، فقد أكثر من
ذكر أوصافهنَّ الحسنة، يقولُ: "إنَّ ما خصَّ اللهُ تَعَالَى المَرْأَةَ من المزايا، وفضلها به من السَّجَايا
أَنَّ صوتها الرَّخيم لا يمدد عليه نكد، ولا يبدو معه همٌّ وكمدٌ، فأول ما تُحْرِكُ شفيتها. تَسْكُنُ
الْقُلُوبُ إِلَيْهَا، وَعِنْدَ مُعَاوَلَةِ عَيْنَيْهَا تَنْهَالُ الْمَسْرَاتِ عَلَى مَنْ هُوَ بَيْنَ يَدَيْهَا"⁽²⁾.

ولم يبرح ناصيف اليازجي هذا الأمر، حيثُ وظَّف ما يمتلكه من جَمَالِيَّاتِ اللُّغَةِ، في
وصف النساء، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي (المَقَامَةِ المَضْرِيَّة): "إنَّ لي سبيَّةً من ربات الحجال،
قد سباها بعض زعانف الرِّجال، وهي بكرٌ رقيقة القوام، كأنَّها ورد الكمام، لها نكهة الخزام،
وصفاء ماء الغمام، وبهجة بدر التمام، تفتن العُقول والألباب، وتستعبد السَّادة والأرباب، وهي
عذبة المرافش، لدنة المعاطف، باردة الرُّضاب، مَقْصُورَةٌ وَرَاءَ الحِجَابِ. تسفر عن مثل السَّحَر،
وتفتن عن مثل الدُّرر، وتسرُّ القلب والنَّظر"⁽³⁾. فقد جمع اليازجي عدداً كبيراً من مقاييس الجَمال
الحسيَّة، والمَعنويَّة؛ ليرسم صورة لملكةٍ من الملكات تقلدت عرش الجَمال، بل ونافست الأغصان
في لينها، والأزهار في عبيرها، ومياه الغمام في صفائها، والبدر في ضيائها، فهي رقيقة كنسيم
السَّحَر، مشرقة مثل نظيم الدُّرر، تنتهي بجلب ما يسرُّ القلب، ويبهج النَّظر.

وينقل الأديباء من مشاهد الجَمال التي تسرُّ الناظرين، إلى أستار القبح التي تؤدي
المشاهدين، وَمِنْ هُنَا فقد حذر الأديباء في المَرْأَةَ من الأوصاف القبيحة، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قول
الشدياق: "أعوذ بالله من هذا الافتتاح الذي يوسوس في صدور النَّاس، كلِّ غميس وغماس، إنَّ
تزوجت امرأة خرابية، لهاجة، ولأجة، نبأحة، مرغامة، معذامة، لؤامة، رطامة، خُبعة، طلعة
تُجاوبُ وَلَا سُؤال، وتُبارزُ وَلَا قِتال، وتُفترِحُ عَلَيَّ أَشياءَ يَعْجُزُ عَنْهَا الدِّينَارُ، وتَرْمِينِي فِي مَهالكِ
دُونِهَا النَّارِ، فَكانَ دأبي أَن أَصْبِرَ مَرَّةً عَلَيَّها عذيراً، وَأُخْرَى أَن أَشْكُو إِلَيْها فَلَا تَزْدَادُ إِلَّا شِرَّةً

(1) يُنظَر، الشدياق، السَّاقِ عَلَى السَّاقِ، (ص279، ص280). الخفر: شدة الحياء، الجَوْهَرِي، الصَّحاح،

(ج2/648)، مادة (خفر)، رافنة: نافرة، زافنة: شديدة، مسبكرة: مستقيمة معتدلة.

(2) الشدياق، السَّاقِ عَلَى السَّاقِ، (ص279).

(3) اليازجي، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَةِ المَضْرِيَّة)، (ص241).

ونفوراً⁽¹⁾. وهُنَا لم يترك الشَّدِيَّاق صفةً من صفات القبح إلا واستعاذ هو منها، وحذَّر الآخرين من مجاورتها، ومحاولة العيش في أكنافها؛ إذ لا مجال للراحة، ولا متَّسعَ للطمأنينة، ولا مكانَ للأمن، فلا مجال حينها أن ينفع الدَّينار من الوقوع في مهالكِ دونها النَّار.

وسافرُ أدباءِ المَقَامَاتِ العُثمانيَّةِ بعيداً، فلم يهمل فرسان تلك المَقَامَاتِ غير المتزوجين، بل رسموا ما تفرَّد به هؤلاء من محاسنٍ رُبَّما تفارق حياة المتزوجين، يَقُولُ أَحْمَدُ فَارِسُ الشَّدِيَّاق: "ومن قائلٍ لا بل عيش العزب أهناً، واللذات أجنى،... إذ ليس من تلزه كلَّ ليلةٍ للعظالم، وتوزِّقه من اللَّيْلِ عَلى ذي الحال، فهو عَلى هَذَا محبَّبٌ عِنْدَ البنات، محروصٌ عليه من النساء المتزوجات، مشارٍ إليه بالبنان من الأرامل الهائجات، وأتَّه إذا رجع إلى منزله رجع ويده خفيفة، ورائفته نظيفة، فلا من تقول له هات، ولا تلومه عَلى ما فات"⁽²⁾.

اقتحمَ الأدباءُ دُرُوبَ الحَيَاةِ الأُسريَّةِ، وتوغَّلوا في أسرارها، فلم يهملوا الخلافات الزَّوجيَّةَ كَثيرةَ الحدوث، ورُبَّما جاءت من هنا تسمية إحدى مقامات أحمد فَارِسِ الشَّدِيَّاق بمقامة (مُقيِّمة). فقد "كتبها لتسرَّ العزب والمتزوج معاً، وتوقيتها عِنْدَمَا رجع الفَارِيَّاق إلى بيروت بعد زيارته إلى الجبل حيثُ أهله، وهَذَا يعني أنَّ الفَارِيَّاق كان بعيداً عن زوجته التي تركها في مالطة"⁽³⁾.

وَمِنَ المَوْضُوعَاتِ الاجتماعيَّةِ التي تناولتها المَقَامَاتِ، أدبُ المجالس، وَاَعْلَى هَذَا الغرض من أكثر الأَعْرَاضِ التي اهتمَّ بها الأدباء، وقد برز ذلك في النُّصُوصِ المَقَامِيَّةِ منذ نشأتها، واعتمدَ فيه الأدباءُ عَلى تقنيَّتي الأمر والنهي التي تناسب الموقِف، وقد تتقلَّ ناصيف اليارِجِيِّ بين مَجْمُوعَةٍ من الآداب يصلح أن تكون دستوراً في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، يَقُولُ: "وإيَّاك والغيبة، فهي بسُّ الرِّيبة، وانظرُ إلى معايبك قبل معايب صاحبك، واجتنبِ المزاح، فإنَّه يخفُّضُ الجناح، ولا تكن إذا سألت ثقيلاً، ولا إذا سُئِلت بخيلاً، وإذا جلست فاعرفِ مقامك، وإذا حدثت فانقذُ كلامك، وإذا تكلمت ليلاً فاخفُضْ، وإذا دُعيت إلى الولائم، فكن آخرَ جالسٍ، وأوَّلَ قائمٍ، ولا تجالسِ الخسيس، فإنَّه يزري بالجليس، ولا تدخلُ في الفضول، فتخرج عن القبول"⁽⁴⁾.

(1) الشَّدِيَّاق، السَّاقُ عَلى السَّاق، (ص 358).

(2) المرَّجَعُ السَّابِقُ، ص 359. الرَّانفة: أسفل الألية وطرفها الذي يلي الأرض من الإنسان، الجَوْهريّ، الصَّحاح، (ج4/1367)، مادة (رنف).

(3) المطويّ، أحمد فارس الشَّدِيَّاق حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربيَّة الحديثة، (ج1/394).

(4) اليارِجِيّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ الأَدبيَّة)، (ص 251).

لَقَدْ بَرَعَ نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ أَيَّمَا بَرَاعَةٍ فِي رِصْدِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْأَدَابِ الَّتِي تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ مِنْهَا جَاءَ يُدْرَسُ، وَقَدْ اسْتَلْهَمَ مَعْظَمَ هَذِهِ الْأَدَابِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَقَدْ حَذَّرَ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ، وَبَرَّرَ عِلَّةَ التَّحْذِيرِ، فَقَدْ حَذَّرَ مِنَ الْغَيْبَةِ، وَبَرَّرَ لَذَلِكَ، وَحَذَّرَ مِنَ الْمَزَاحِ، وَذَكَرَ عِلَّةَ التَّحْذِيرِ، وَنَهَى عَنِ مَجَالِسَةِ الْخَسِيسِ، وَالذُّخُولِ فِي الْفُضُولِ، وَبَرَّرَ عِلَّةَ النَّهْيِ، فَأَمْتَعَ السَّمَاعَ غَايَةَ الْإِمْتَاعِ، وَأَقْنَعَ الْمُتَلَقِّي كُلَّ الْقِنَاعَةِ.

وَمِنْ الْمَوْضُوعَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي عَالَجَتْهَا الْمَقَامَاتُ الْعُثْمَانِيَّةُ، وَبَرَعَ الْأُدْبَاءُ فِي تَقْدِيمِهَا، الْإِخْتِصَامِ إِلَى الْفُضَاةِ، فِي (الْمَقَامَةِ الدِّمِياطِيَّةِ) يَصُورُ نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ إِخْتِصَامَ رَجَبٍ وَوَلِيْلَى عَلَى أَنَّهَا امْرَأَتُهُ، وَتَطْلِيْقَهُ لَهَا اِحْتِيَالًا فِي تَحْصِيلِ الْمَهْرِ حَيْثُ قَالَ: "بَرَزْنَا نَجْرُ الْأُرْدِيَةِ، حَتَّى مَرَرْنَا بِبَعْضِ الْأَنْدِيَةِ. وَإِذَا الْخُرَامِيُّ وَرَجَبٌ، تَلِيَهُمَا امْرَأَةٌ بَادِيَةِ الْحَدَبِ، مَنَادِيَةً بِالْحَرْبِ، وَتَقَدَّمَ رَجَبٌ كَالْأَيْهَمِ، وَهُوَ قَدْ بَسَرَ وَتَجَهَّمَ، وَقَالَ: ... إِنَّ امْرَأَتِي عَجُوزٌ حَمَقَاءُ، تَلْقَانِي بِلَمَّةٍ بِيضَاءَ، وَبِشْرَةٍ سَوْدَاءَ، وَعَيْنٍ صَفْرَاءَ، وَنَكْهَةٍ دَفْرَاءَ...، وَهِيَ عَلَى ذَلِكَ بَدِيَّةُ اللِّسَانِ، عَرِيَّةٌ مِنَ الْإِحْسَانِ، لَا تَذَكُرُ حَرْمَةً، وَلَا تَشْكُرُ نِعْمَةً، تَهْرُ كَالْكَلَابِ، وَتَعْوِي كَالذَّنَابِ،... كَأَنَّكَ تَمْنَحُنِي الذُّخُولَ إِلَى الدَّارِ، فَصَارَتْ تَمْنَعُنِي الْمَبِيْتَ حَوْلَ الْجِدَارِ"⁽¹⁾.

امْتَلَكَ نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ زَمَامَ الْبَلَاغَةِ، وَعَنَانَ الْخَيَالِ، وَقَدْ وَظَّفَ هَذَا الْخَيَالَ فِي تَصْوِيرِ الْمَشْهَدِ عَنِ طَرِيقِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ التَّشْكِيْلَاتِ التَّشْبِيْهِيَّةِ الَّتِي تَحْمَلُ فِي ثَنَائِيهَا كُلَّ مَعَانِي الْقَبْحِ، وَيَكْفِي ذَلِكَ قَوْلُهُ: (وَهِيَ عَلَى ذَلِكَ بَدِيَّةُ اللِّسَانِ، عَرِيَّةٌ مِنَ الْإِحْسَانِ، لَا تَذَكُرُ حَرْمَةً، وَلَا تَشْكُرُ نِعْمَةً، تَهْرُ كَالْكَلَابِ، وَتَعْوِي كَالذَّنَابِ)، فَكَيْفَ بَنَى لَوْ أَضْفْنَا إِلَى ذَلِكَ: (إِنَّ امْرَأَتِي عَجُوزٌ حَمَقَاءُ، تَلْقَانِي بِلَمَّةٍ بِيضَاءَ، وَبِشْرَةٍ سَوْدَاءَ، وَعَيْنٍ صَفْرَاءَ، وَنَكْهَةٍ دَفْرَاءَ). حَيْثُ لَمْ يَتْرِكْ نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الْقَبْحِ الْمُؤَصَّدَةِ إِلَّا طَرَقَهُ، وَلَمْ يَدَعْ مَشْهَدًا مِنْ مَشَاهِدِ الشَّيْنِ الْمَعْرُوفَةِ إِلَّا قَصَدَهُ.

وَلَمْ تَكُنِ الْمَرْأَةُ بِأَقْصَرَ لِسَانًا فِي حَدِيثِهَا أَمَامَ الْقَاضِي فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ، نَقُولُ: "فَتَارَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ السَّفِيْهَةَ، وَقَالَتْ: يَا لِلْعُضِيْهَةِ! قَدْ هَتَكَ هَذَا الْوَعْدَ أَسْتَارِي، حَتَّى كَأَنَّهُ جَرَدْنِي مِنْ أَطْمَارِي! ... أَمَا تَذَكُرُ عَيْبَكَ وَرَيْبِكَ؟ وَشَوْمَكَ وَلَوْمَكَ؟ وَفَاقْتِكَ الْمَدْقَعَةَ، وَأَسْمَالَكَ الْمَرْقَعَةَ... لَيْتَ شَعْرِي مَا أَصْنَعُ بِرَجْلِ أِبْرَدٍ مِنْ عَبْقَرٍ، وَأَذَلَّ مِنْ فِقْعٍ بِقَرَقَرٍ... وَهُوَ عَلَى ذَلِكَ أَظْلَمُ مِنَ الْخَيْفَقَانِ، وَأَنْقَصَ مِنَ الزَّرْبِقَانِ"⁽²⁾. وَيَحْمَلُ النَّصُّ هُنَا مَشْهَدَ صِرَاعٍ بَيْنَ الْأَنَّا، وَالْآخِرِ لِرَسْمِ مَشَاهِدِ الْقَبْحِ،

(1) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الدِّمِياطِيَّةِ)، (ص386، ص387). دَفْرَاءُ: مَنْتَنَةٌ.

(2) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص388، ص389. الْعُضِيْهَةُ: الْكُذْبُ وَالْبَهْتَانُ، أَطْمَارِي: أَثْوَابِي الْبَالِيَةِ، الْقَرَقَرُ: الْقَاعُ الْأَمْلَسُ، الْخَيْفَقَانُ: رَجُلٌ يَضْرِبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الظُّلْمِ، الزَّرْبِقَانُ: الْقَمَرُ.

فقد انطلقت المرأة تجابه الرجل وجهاً لوجه، وتصارعه نداءً لندي، وربما تفوّقت في هجائها المقذع معتمدةً على الاستفهام الإنكاريّ المتتابع في قولها: (أما تذكر عيبك وربيك؟ وشؤمك ولؤمك؟ وفاقتك المدقعة، وأسمالك المرقعة؟)، ولم تتوقّف، وكأَنَّها لم تكتفِ بِذَلِكَ، بل راحت تصبُّ جامً غضبها عليه، تتّهمه بقبیح الصّفات عن طريق المقارنة في قولها: (ليت شعري ما أصنع برجل أبرد من عبقر، وأذلّ من فقعٍ بقرقر، وهو على ذلك أظلم من الخيفان، وأنقص من الزبرقان)؛ علّ ذلك يطفئ نار غيظها.

كانتِ المَقَامَةُ العُثمانيَّةُ مرآةً صادقةً للعَصْرِ، فقد عالجت كثيراً من الآفات الاجتماعية التي انتشرت في هذا العَصْرِ، مثل الجدل والمعارضة التي تثير الشرور بين الناس، ومن شواهد ذلك ما قدّمه كاتب (المَقَامَةُ الفكرية) لتلك الآفات في صورة مرئية، يقول: "ورأيت أهلها أيضاً متبدلي الأوضاع، متلوني الأخلاق والطباع...فتثور بينهم الشرور في كثير من الأمور، لكثرة ما يقع بينهم من المعارضة والجدال، والمناقضة لما بينهم من مباينة الأهواء ومخالفة الآراء، وقد تعرض لهم الأفكار المناسبة، والآراء الصائبة، فتخلفها اللذات والشهوات، والأغراض والحاجات، فالمروءة، والطف، والمرحمة، قد يعارضها حبُّ الجاه، والحرص على نفوذ الكلمة، كذلك الحلم، والتدبّر يعارضه الغضب، والتهور"⁽¹⁾.

ومن الآفات الاجتماعية التي صورتها المقامات العثمانية أيضاً مشورة من هم ليس أهلاً للمشورة، وما يتبع ذلك من فسادٍ وضلالٍ، يقول عبد الله فكري: "ورأيت عندهم خمسة من الأمراء، وأكابر الوزراء في مثابة السفراء...وأعجب ما رأيت عندهم من سوء الحال، ودواعي النكال، وهي من أعظم الأسباب الداعية لوقوع الفتن والاختلال أن هؤلاء الوزراء يستشيرون في بعض الأمر جماعة تسمى بالأغراض النفسية من أهل الفساد، وطائفة أيضاً تسمى بالخصال الذميمة من أهل الشرّ والعناد، والبغي والاستبداد، والريغ عن طريق السداد، وكلاهما مصرّ على رأيه، مصمم على غبه وبغيه، فيشيرون بما يخالف صواب الصواب، ويُعاب عند ذوي الألباب"⁽²⁾.

إنّ الموضوعات الاجتماعية التي طرق أبوابها أدباء المقامات في العَصْرِ العُثمانيّ قد تكون هي ذاتها الموضوعات التي تناولها الأدباء في العَصْرِ المملوكي، وما سبقه من عصورٍ

(1) فكري، الآثار الفكرية (المَقَامَةُ الفكرية)، (ص6). الغب: الظلم، الجوهري، الصحاح، (ج1/190)، مادة (غيب).

(2) فكري، الآثار الفكرية (المَقَامَةُ الفكرية)، (ص6).

لم تهمل معظم تلك الموضوعات، وهذه طبيعة، بل سنّة في شتّى العصور الأدبيّة، وإن لم يظهر ذلك في المقامة، فإنّه ظهر في الفنون الأدبيّة الأخرى من نصائح ووصايا، أو رسائل، وخطابة.

ثالثاً: الموضوعات الدينيّة

إنّ العلاقة بين الأدب والدين علاقة متينة، وإنّ الصداقة بينهما صداقة حميمة، فالدين والأدب خيلان لا يفترقان؛ لأنّ الأديب هو الذي ينشر ما في الدين من أخلاق حميدة، ويبشّر بوصول رسالة الأدب الجيد الذي يحمل في طياته مكارم الأخلاق.

لقد أبدع الأدباء في تأليف مقاماتهم بهدف توصيل العظات الدينيّة، والنصائح الخلقية إلى القارئ والسامع، ففي اليمن مثلاً كان رجال الدين، والمتصوفون الذين يهون عادة عن قراءة الكتب الدنيويّة، كانوا يقبلون على قراءة مقامات الحريري، ويطلقون على تلك المقامات "طبق الحلوى" لما فيها من معارف متنوّعة، في فنون متعدّدة.

إنّ الموضوعات الدينيّة ظهرت في المقامات منذ نشأتها، فقد أكثر رواد هذا الفن من ذكر مثل هذه الموضوعات، وبرز ذلك في مقامات بدیع الزمان الهمداني، ومقامات ابن الوردي ومعاصريه لانتشار النزعة الصوفيّة التي كانت تشيع في المجتمع آنذاك.

ومن البدهي أن يحمل العصر العثماني مزيداً من القيم الدينيّة خاصّة أنّ المجتمع العثماني قد صُبغت معالم حياته بالدين، وتلونت بتلك الصبغة الدينيّة.

إنّنا إذا تطرقنا إلى مقامات ناصيف اليازجي، فإنّنا نجده متفتّحاً ببصيرته قبل بصره على الإسلام، ونلاحظ هذا من خلال العنوان الذي اختاره لمقاماته، حيث اختار اليازجي عنواناً لها مقطعاً من آية من سورة الكهف⁽¹⁾، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: 60]، وإذا عدنا إلى سياق استعمال هذا المقطع في النصّ القرآني من أجل أن نربطه بالمقامات لرأينا أنّ سيدنا موسى - عليه السلام - كان مسافراً مع غلامه، وهذا التّطواف في الأرض ما كان إلا لطلب نفع صالح تجسّد في قصة سفره، للقاء من هو على علم لا يعلمه، وغاية السّفر هنا لم تكن من أجل بسط الملك والسّلطان، ولكن لأجل تحصيل العلم والحكمة، إلا أن يبلغ وفتاه مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ، إذ إنّ سفره كان مشروطاً بالانتهاء إلى مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ، وهذا المكان حسب ابن عاشور "مكان من أرض فلسطين، والأظهر أنّه مصب نهر الأردن في بحيرة طبرية، فإنّه النهر العظيم الذي يمرّ بجانب الأرض

(1) يُنظر: ضيف، المقامة، (ص85).

التّي نزل بها موسى - عَلَيْهِ السَّلَام - وقومه، وَكَانَتْ تسمى عِنْدَ الإِسْرَائِيلِيِّينَ، بحر الجليل⁽¹⁾.
وهَذَا دليل عَلَى الْجَانِبِ الدِّينِيِّ فِي الْمَقَامَاتِ فِي الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ. وقد ذهب بعض العلماء أَنَّهُ
"يريد بالبحرين النُّظْم والنَّثْر"⁽²⁾.

وَإِذَا عدنا إِلَى الْعَصْرِ العُثْمَانِيِّ، وتتبعنا خُطَى الْمَقَامَاتِ فِي هَذَا الْعَصْرِ نجدها تَتَزَيَّنُ
بالأدعية، والمواعظِ الدِّينِيَّةِ، فَنَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ مِثْلًا: "نجده في غير مقامة يعظ ويذكر، ويدعو
النَّاسَ إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، ورفض الدُّنْيَا ومتاعها، وانتظار ما عِنْدَ اللَّهِ وَثوابه، والأمل في جَنَّتِهِ
ورضوانه"⁽³⁾. وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قول نَاصِيفِ الْيَازِجِيِّ فِي (الْمَقَامَةُ الْقُدْسِيَّةِ): الحمدُ لِلَّهِ الَّذِي جعل
حرمه أمناً للعباد، ومقاماً للعباد، وهو الَّذِي خلق فسوّى، وقَدَّرَ فهدى، وأضحك وأبكى، وأمات
وأحيا، وهو الَّذِي جعل الأَرْضَ مهاداً، والجبال أوتاداً، وبنى فوقكم سبعاً شداداً، وَالَّذِي مرج
البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان... فَإِنِّي طالما ارتكبت الأوزار، وتبطنت الأقدار،
واجترحت المغارم، واستبحت المحارم، وانتهكت الأعراض، فسوّدت منها كل بياض...وها أنا قد
اعتَمَدتِ الأوبة، واعتصمت بالنُّوبَةِ، فادعوا الله لي أن يأخذني بحلمه، ويعاملني بفضله لا
بعده، ثم أخذ في الأجيح والضَّجيج، وجعل يراوح بين النَّحِيبِ والنَّشِيجِ، حتى أبكى من حضر،
من البدو والحضر⁽⁴⁾.

وَمِنْ رَوَائِعِ الْأَدْعِيَةِ التّي حملت نفحات الأمن والأمان ما حَمَلْتُهُ (الْمَقَامَةُ المعرِّيَّة)، وقد
وقف فارسها خطيباً عَلَى ضريح أبي العلاء، يَقُولُ نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ: "إِنِّي لَأَتِ بِمَا لم تستطعه
الأوائلُ، هيهات قد صار الجَمِيعُ قوماً بوراً، وجعلهم الدهرُ هباءً منثوراً! فاضمحلَّت محاسنهم،
واشمعلَّت خزائنهم، ونُثِلت كنائنهم، وأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم! فلينتبه الغافل، ولا يشتهبه
العاقل، وليعتبر كلُّ جبارٍ عنيدٍ، ويذكر من كان له قلبٌ، أو ألقى السَّمْعَ وهو شهيد، وأعلموا أَنَّ
الله قد أرسلني إليكم نذيراً، وأقامني بينكم سراجاً منيراً، لأذكركم يوماً عبوساً قمطريراً، فلا تغفلوا
عن شرب تلك الكاسِ، وهول ذلك اليوم المجموع له النَّاسُ، واتَّعظوا بمن تقدّمكم من القرونِ
والأقرانِ، ومن درج أمامكم من العُيُونِ والأعيانِ، وتوبوا إِلَى باريكم واندموا عَلَى ما فات، فَإِنَّ اللَّهَ
يقبل النَّوبَةَ عن عباده، ويعفو عن السيئاتِ، واعتَمَدوا حفظ الفروضِ والسُّنَنِ، ولا تلوا عَلَى

(1) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّوْبِيرُ، (ج 15/362).

(2) ضيف، الْمَقَامَةُ، (ص 85).

(3) المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 88.

(4) يُنظَرُ: الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْقُدْسِيَّةِ)، (ص 421، ص 422).

خضراء الدمن؛ فإنَّ المحافظةَ عَلَى الصَّلواتِ، ومكابدة الصَّومِ، لا تنفع من يؤذي القوم، وتَجَسُّم الحج والعمرة، لا يزكِّي شارب الخمرة"⁽¹⁾.

إنَّ الملامحَ الدِّينِيَّةَ في مقاماتِ العَصْرِ العُثمانيِّ، وفي هذه المَقَامَةِ تظهر جلياً، ومن هذه الملامحِ الإكثار من الاستشهادِ بِالْقُرْآنِ الكَرِيمِ، والحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ. بحيثُ لا نجد فقراً من الفقراتِ فِي المَقَامَةِ السَّابِقَةِ إلا واقتبس فيها اليارُجِيَّ من الْقُرْآنِ الكَرِيمِ، أو الحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ، ولم يقتصر الأثر الدِّينِيَّ عَلَى هذه المَقَامَةِ فَقَطْ، بل يكاد يزيِّنُ مقاماتِ اليارُجِيَّ كَافَّةً.

وَمِنْ رَوَائِعِ الوَصَايَا والمواعظِ الَّتِي حملتُ فِي تَنَائِيهَا كلَّ إبداعٍ، ما حَمَلْتُهُ مقامة ابن الألوَسِيِّ (أَنْبَاءُ الأَبْنَاءِ لِأَطِيْبِ الأَنْبَاءِ)، حَيْثُ يوصي بالمحارمِ من الأحياءِ والأَمْواتِ، يترنمُ بها قَائِلاً: "يا بَنِيَّ، اللهُ اللهُ في أخواتكم، وعُدُوهُنَّ في عداد بناتكم، يا بَنِيَّ، اللهُ اللهُ في أممكم فلعمرى لقد كَانَتْ تسترُ بسروركم، وتغتمُ لغمكم، وهي عَلَى علاتها عزيزة عِنْدِي، ولها في سري من الشَّفَقَةِ أكثر عليها مما أبدي، يا بَنِيَّ تعاهدوني بالزَّيْرة والدُّعاء، واذكروني بالصدقة عَلَى ذوي الأرحامِ الفقراء، فقد انقطع صالح عملي إلا منكم، ولا يروي كاتب اليمين حديتاً حسناً إلا عنكم، بالله تَعَالَى عَلَيْكُمْ لا تغفلوا عني وأنا بين أطباق التراب، فعنبي عَلَى اللهُ تَعَالَى ثُمَّ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الأبناء الأَنْجَاب"⁽²⁾. ويختتم الألوَسِيُّ مقامة (أَنْبَاءُ الأَبْنَاءِ لِأَطِيْبِ الأَنْبَاءِ) بِأَطِيْبِ الكَلَامِ، يَقُولُ: "يا بَنِيَّ، عَلَى استيفاءِ الوَصَايَا لا أقوى، وجماع ذلك فيما أرى التَّقْوَى، فالتَّقْوَى التَّقْوَى، وليأتِ أحكم منها بما يقوى، فنقوا بالله تَعَالَى أتمَّ الوثوقِ، وإياكم أن تعتمدوا في أمرٍ عَلَى مخلوقٍ، وفقم اللهُ لما يحب ويرضى، وحفظكم جَمِيعاً من سؤالِ قضا"⁽³⁾.

وقد حملتُ مقاماتِ العَصْرِ العُثمانيِّ مزيداً من وَصَايَا الأَخْلَاقِ، والأَدَبِ، الَّتِي كتبت بمدادٍ من الدَّهَبِ، وحملتُ فِي تَنَائِيهَا عظيمَ الخلقِ والأَدَبِ، فصارت مصابيح تثير الدُّرُوبَ، ومشاعل ترسم السُّبُلَ، وهذا كله نجده فِي قولِ اليارُجِيَّ فِي المَقَامَةِ الأَدَبِيَّةِ: "وَإِذَا بِالرَّجُلِ يَقُولُ: يا غلام ادنُ مني، وحذِ الأَدَبَ عَنِّي. ثُمَّ قَالَ: يا بَنِيَّ عاملِ النَّاسِ ما استطعت بالإحسان، وكن بينهم عفيف الطَّرْفِ، واليدِ، واللسانِ، وقابلِ النُّعْمَةَ بالشُّكْرِ، وأحيِ الجَمِيلَ بالذِّكْرِ، وحافظِ عَلَى الصَّدِيقِ، ولو في الحريقِ. وإيَّاك والغيبة، فهي بئس الرِّبِيَّةُ، وانظرْ إِلَى معاييك قبل معايب صاحبك، واجتنبِ المِزَاحَ فَإِنَّهُ يخفض الجناحَ، ولا تكن إذا سألتَ ثقيلًا، ولا إذا سُئِلتَ بخيلًا، ولا

(1) يُنظَرُ: ناصيف، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ المعرِيَّة)، (ص188، 189). اشمعلت: تبددت، نثلت: استفرغت، قمطيرير: شديد.

(2) ابن الألوَسِيِّ، مقامات ابن الألوَسِيِّ، (ص20، ص21).

(3) المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص24.

تطلب ما في يد النَّاسِ، ولو طاقةً من الآسِ، وَإِذَا جَلَسْتَ فَاعْرِفْ مَقَامَكَ، وَإِذَا حَدَّثْتَ فَانْتَقِدْ كَلَامَكَ" (1).

ويكمل الأديب حديثه بفواصلٍ رائعةٍ من الوصايا الأدبية التي يصحُّ أن تكون وثيقةً في مكارم الأخلاقِ، ووصايا الأديبِ، يقولُ: "وَإِذَا تَكَلَّمْتَ لَيْلاً فَاخْفِضْ، وَإِذَا تَكَلَّمْتَ نَهَاراً فَانْفِضْ، وَإِذَا دَعَيْتَ إِلَى الْوَلَاتِمِ، فَكُنْ آخِرَ جَالِسٍ، وَأَوَّلَ قَائِمٍ، وَالزِّمِ الْوِدَاعَةَ وَالْحَيَاءَ، وَاجْتَنِبِ الرِّيَاءَ وَالْكِبْرِيَاءَ، وَاحْذِرِ الْكَسَلَ، فَإِنَّهُ آفَةُ الْعَمَلِ، وَلَا تَدْخُلْ فِي الْفُضُولِ، فَتَخْرُجَ عَنِ الْقَبُولِ، وَعَلِمُ أَنَّ الْأَدَبَ أَشْرَفُ مِنَ النَّسَبِ" (2).

فقد حملت هذه المقامة التي وسمت بـ (المقامة الأدبية) عالماً من عوالم مكارم الأخلاق التي تضيء للسالكين الآفاق، ومن يتنقل بين حدائق هذه المقامة، فإنه يجد ما تقرُّ بها عينه، وتطرب لها أذنه، ويطمئن بها لبه، وقلبه.

ومن الأدباء من نحا في وصاياه منحى آخر، فحملت من الدهاء والذكاء، ما لا يفهمه إلا الأذكياء، ومن روائع هذه الوصايا قول اليازجي في (المقامة السروجية) التي خالف ظاهرها باطنها، وأرى أن باطنها حمل الرحمة، وظاهرها كان ينذر بالعذاب، ولك أن تقول أن اليازجي قدّم لنا باقةً متنوّعة من أجمل الزهور، ونسائم رقيقة من أطيب العطور، يقولُ: "قَلَمًا سَكَنَتْ الضُّوْضَاءُ، وَأَعْرَضَ بَوَجْهِهِ إِلَى الْفُضَاءِ، وَقَالَ: يَا أَبَا عِبَادَةَ إِنِّي قَدْ أُرْمَعْتُ السَّقْرَ، وَلَا أُدْرِي هَلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا الْقَدْرَ، فَخَذَ عَنِّي مَا أَلْقِيهِ إِلَيْكَ، وَاللَّهِ خَلِيفَتِي عَلَيْكَ، قَلْتُ أَطْرَفُ بِمَا عِنْدَكَ لَا ذَقْتُ فَقْدَكَ، وَلَا حَبِيبَ بَعْدَكَ. فَقَالَ يَا بُنَيَّ إِذَا رَكَبْتَ مَتْنَ الصَّحْرَاءِ فَاطْلُبْ خَدَّ الْعِذْرَاءِ. وَإِذَا نَمْتَ فَاعْتَنِقِ الصَّبِيَّ، وَلَا تَصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ، واقنع بالسَّمَاءِ إِذَا عَزَّتِ الْبَيْضَاءُ. واشرب من كأس الفاجر لا من كأس التَّاجِرِ، وَتَصَدَّقْ عَلَى الْأَمِيرِ بِنَجَى غَرَسِ الْفَقِيرِ، وَإِذَا كُنْفَتِ حَمْلَ الْجَنَازَةِ، فَاطْلُبِ الْمَفَازَةَ، وَإِذَا اعْتَمَدْتَ السَّلْبَ فِي اللَّيْلِ، فَعَلَيْكَ بِنَهَبِ الْخَيْلِ. وَإِذَا دَخَلْتَ الْحَلْبَةَ فَاحْذِفِ السَّلَامَ، واقْتَصِرْ عَلَى مَا كَذَبَ مِنْ الْكَلَامِ، وَحَرِّمِ الصَّبْرَ عَلَى الْأَسِيرِ، وَالْجَبْرَ عَلَى الْكَسِيرِ، واقطع السَّوَادَ، وَلَا تَتَّبِعِ الْقَوَاعِدَ، واخْتَرِ مِنَ النِّسَاءِ الْعَلِيلَةَ الْمُنْتَصِفَةَ، واحذرِ الْجَمِيلَةَ الْمُتَعَفِّفَةَ، وَأَعْرَضْ عَنِ الشَّافِعِ إِلَى الدَّافِعِ، وانحرِ الشَّارِي كَالْبَائِعِ، واضربِ السَّاعِي بِعَصَا الرَّاعِي، وَفَضِّلِ الْقَوَافِلَ عَلَى النَّوَافِلِ، والغريب على السَّيْبِ، والإجازة على الإمارة، وقدمْ زيارة الميت على حجِّ البيت، واحذر لنفسك من الصَّومِ، وادخلِ السُّوقَ عِنْدَ النَّوْمِ، واتبعْ ملاحِ الجوّاري، وَلَا تَتَّبِعِ

(1) اليازجي، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (المقامة الأدبية)، (ص 250).

(2) المَرَجِعُ السَّابِقُ، ص 252.

الأديب والقارئ، واطرد اللابس، وأكرم العاري، وافتسر الليل والنهار، حتى يتيسر لك الفرار، واحرص على الأعراض دون الجواهر، واعدل عن المسلمات دون الكوافر، وكُن من العواطل، ولا تحاول قطع خيط الباطل. وأنكر الشهادة حيث لا ترى الإفادة، واضرب كبد الإمام، واستعد لله ما بقيت والسلام⁽¹⁾.

إنَّ المستمعَ لظاهرِ هذه الوصيةِ قد يظنُّ أنَّ ما فيها من الوصايا المغلوطة التي تجرُّ على صاحبها الويل، لكنَّ المدركَ للمعنى يجدُ في الوصيةِ مراده، ويحقق مرامه، فكثيرٌ من معاني هذه الوصيةِ تحمل عكس الظاهر، فعلى سبيل المثال معنى قوله: (إذا ركبت متن الصحراء فاطلب خذ العذراء. وإذا نمت فاعتق الصبي، ولا تصل على النبي)، فإنَّ العذراء بمعنى: الكوفة، والصبي: بمعنى السيف، والنبي بمعنى: الطريق. أمَّا قوله: (وإذا كلفت حمل الجنابة، فاطلب المفاضة)، فإنَّ الجنابة بمعنى: زق الخمر، وأما المفاضة فهي بمعنى: النجاة، أو الفلاة. وأمَّا قوله: (واعدل عن المسلمات دون الكوافر)، فإنَّ المسلمات بمعنى: اللواتي يبتذلن الرجال، والكوافر بمعنى: المستترات. وأمَّا قوله: (وحرِّم الصبر على الأسير، والجبر على الكسير، واقطع السواعد، ولا تتبع القواعد، واختر من النساء العليلة المنتصفة، واحذر الجميلة المتعفة)، فإنَّ الصبر هنا بمعنى: الحبس حتى الموت، والجبر بمعنى: القهر والاعتصاب، واقطع السواعد بمعنى: اعبر مجرى الماء، والقواعد بمعنى: النساء اللواتي لم يتزوجن، ومنه قول الله سبحانه وتعالى في سورة النور: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: 60]، وأما العليلة فإنَّ معناها الظاهر: المريضة، لكنَّ معناها في الوصية: المطيِّبة مرَّة بعد أخرى، وأما المنتصفة فهي المستترتة بالنصيف، وهو الحجاب، وأما المتعفة من النساء: فهي التي تشرب فضلة اللبن، وقوله: (وقدم زيارة الميت على حج البيت)، فإنَّ الميت بمعنى: المريض بنحو الصرع، وحج البيت بمعنى: زيارة القبور⁽²⁾.

والى جانب ما تحمله المقامة السروجية من إثارة الذهن، وعصف العقل، فإنها قد تدخل تحت مسمى الأحاجي والمعميات، فكلُّ جملةٍ من جمل المقامة السروجية تقوم مقام أحجية تحتاج إلى حلٍّ، أو لغزٍ يحتاج إلى توضيح، وكلُّ ذلك يُظهر أمانًا ما لكتاب المقامة من

(1) البازجي، مَجَمَعُ الْبَحْرَيْنِ (المقامة السروجية)، (ص175 - ص177).

(2) يُنظَرُ: البازجي، هوامش مَجَمَعِ الْبَحْرَيْنِ، (ص175 - ص177).

رجاحة فكر، وفتانة عقلٍ تفوق من يرسمُ بريشته أروعَ المشاهد، أو يعزفُ بآلته أعذبَ الألحان، وينشد بصوته أجملَ الأغنيات.

رابعاً: الموضوعات السلوكية، والأخلاقية

ارتبط الأدب بالدعوة إلى الأدب ومكارم الأخلاق منذ بداياته الأولى، وقد تناول هذا الارتباط كثير من العلماء، يقول الماوردي: "اعلم أن النفس مجبولة على شيمٍ مهملة، وأخلاقٍ مُرسلة، لا يستغني محمودها عن التأديب، ولا يكتفي بالمرضي منها عن التهذيب؛ لأنَّ لمحمودها أصداداً مقابلةً يسعدها هوى مطاع، وشهوةٌ غالبية، فإنَّ أغفلَ تأديبها تفويضاً إلى العقل، أو توكلَّ على تنقاد إلى الأحسن أعدمه التفويض درك المجتهدين، وأعقبه التوكل ندم الخائبين، فصار من الأدب عاطلاً، وفي صورة الجهل داخلاً؛ لأنَّ الأدب مكتسبٌ بالتجربة، أو مُستحسنٌ بالعادة، ولكلُّ قومٍ مواضع، وذلك لا ينال بتوقيف العقل، ولا بالانقياد بالطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة، ويستفاد بالثدبة والمعاطاة، ثم يكون العقل عليه قيماً، وزكي الطبع إليه مسلماً، ولو كان العقلُ مُغنياً عن الأدب لكان أنبياءُ الله عن أدبه مستغنين، ويعقوله مكتفين" (1).

إنَّ الحديث عن علاقة الأدب بالأخلاق يطول، وخير دليلٍ على ذلك أنَّ الفاروق، عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - كتب إلى أبي موسى الأشعريِّ واليه على الكوفة يقول له: "مُر من قبلك يتعلم الشعر؛ فإنه يدلُّ على معالي الأخلاق، وصوابِ الرأي، ومعرفةِ الأنساب" (2).

وإذا عاد القارئ أو الدارس إلى المقامة، وتتبع خطاها، وسلك سبلها، وقطع دُرُوبها، فإنه يلحظ أنَّ النصوص المقامية حملت منذ نشأتها هدف تعليم الناشئة اللغة العربية وأساليبها، كما أنَّ معظمها كانت تقوم على الوعظ والإرشاد. ولم تخالف المقامات في العصر العثماني هذه السنة، فقد سارت على درب أخواتها في العصور السابقة.

إنَّ الدارس للعصر العثماني، الباحث عن السلوك والأخلاق يجد ضالته في كثير من المقامات، وعلى رأس تلك المقامات، (المقامة الفكرية)، فهذه المقامة رصدت الموضوعات السلوكية، والأخلاقية بطريقة رائعة، بل وبأسلوبٍ متفردٍ، وبأكثر من وجهٍ، فهي تستخدم أسلوبِي الطباق، والمقابلة في تقديم السلوك، والأخلاق للقارئ، ولعلَّ ذلك يقرب إلى الأذهان الموضوعات بطريقة واضحة، ويبرزها بأسلوبٍ جليٍّ. كما أنَّ المقامة الفكرية لم تترك خلفاً حميداً

(1) الماوردي، أدب الدنيا والدين، (ص284).

(2) القيرواني، العمدة، (ج1/28).

إلا ورصدته، ولم تدع وصفاً ذمياً إلا ورسمته، فرصدت من مكارم الأخلاق الصبر، الحلم، البصيرة، التواضع، الجود، الكرم، الرفق، والحياء، والاستقامة، والعفة، والسلامة...، ورسمت من الأوصاف الذميمة الغضب، الحسد، الجهل، الحمق، المناقضة، الجدل، الشح، والبخل.

وَمِنْ رَوَائِعِ الْأَسْلُوبِ فِي الْمَقَامَةِ الْفِكْرِيَّةِ، وَمِنْ جَانِبِيَّةِ عَرْضِهَا أَنَّهَا تَتَنَاوَلُ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ أَوْلَى، ثُمَّ تَتَّبِعُ ذَلِكَ بِمَسَاوئِهَا فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ بِطَرِيقَةِ التَّصْوِيرِ الْبَارِعِ، وَمَا يَحْمِلُهُ هَذَا التَّصْوِيرُ مِنْ تَوْضِيحٍ، وَتَجْسِيمٍ، وَتَشْخِصٍ، فَقَدْ قَدَّمَتْ هَذِهِ الْمَقَامَةَ الصِّفَاتِ الْمَحْمُودَةِ فِي ثَوْبٍ قَشِيْبٍ، وَالصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ فِي لَوْنٍ غَرِيْبٍ، وَشَكْلِ عَجِيْبٍ.

وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْمَقَامَةِ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ فِكْرِيٍّ عِنْدَ تَنَاوُلِهِ لِخَلْقِ الْإِسْتِقَامَةِ، وَصِفَتِي الْعِفَّةِ وَالسَّلَامَةِ: "ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَيْهِ، فَرَأَيْتُ عِنْدَهُ امْرَأَتَيْنِ ظَرِيفَتَيْنِ عَفِيفَتَيْنِ، قَدْ زَانَهُمَا الْحَسَنُ وَالْجَمَالُ، وَعِلَاهُمَا الْأَدَبُ وَالْكَمَالُ، وَفِي يَدِ كُلِّ وَاحِدَةٍ شَعْلَةٌ تَسْطَعُ نَارَهَا، وَتَكَادُ تَغْشَى الْأَبْصَارَ أَنْوَارَهَا، وَعِنْدَهُمَا جَارِيَةٌ جَنَّتْهَا عَارِيَةٌ، وَفِي يَدَيْهَا مِرَاةٌ كَثِيرَةُ الْبَرِيقِ، مُسْتَوْرَةٌ بِغِشَاءٍ رَقِيْقٍ، فَكَانَتْ تُدِيرُهَا إِلَيَّ، وَلَا تَزَالُ تَجْلُوهَا عَلَيَّ، فَسَأَلْتُ الدَّلِيلَ عَنْهُنَّ، فَقَالَ إِحْدَاهُنَّ الْإِسْتِقَامَةَ، وَالثَّانِيَةَ الْعِفَّةَ، وَالثَّلَاثَةَ السَّلَامَةَ"⁽¹⁾.

وفي المقابل لم يهمل الأديباء تصوير مساوئ الأخلاق، ومن شواهد تصوير الأخلاق الذميمة ما رسمه عبد الله فكري للغضب والحسد، يقول: "وصرفت نظري عن تلك الجهة بأسرها، ودققت النظر في جهة ذلك الملك العادل، لعلي أنسى ما رأيت من ذلك المنظر الهائل، فإذا عند تخت سلطنته، عن ميسرته وميمنته أمورٌ عجيبةٌ، وأشياءٌ غريبةٌ تستوقع الطرف، وتستدعي الوصف، وبينها شخصٌ مهيبٌ المنظر، عجيبُ الخبر والمخبر، حديدُ المزاج، بعيدُ العلاج، قويُّ شديد، عنيدٌ مريدٌ، قليلُ التفكر والتدبر، كثيرُ النهور والتكبر، وهو يلحظ الحاضرين شزراً، ويوسعهم فحشاً وهجرأً، ويكثر لمن يكلمه نهراً وزجرأً، وهو أرحمُ أحمق، أهوَجُ أخرق، لا يمس شيئاً إلا مرَّقه، ولا يعالج أمراً إلا أتلفه وخرقه، فقلت للدليل ما هذا الشخص؟ فقال هذا هو الغضب، ثم رأيت في طرفٍ آخر شخصاً نحيلَ البدن، طويلَ الحزن، أصفرَ اللون، أحمرَ العين، أضناه همٌّ، وأفناه السقم والغم، وبإحدى يديه قدحٌ فيه سمٌّ نافع، وفي اليد الأخرى منه سيفٌ قاطع، وهو لا ينفك يسكب السم على بدنه ورأسه، ويجرح بذلك السيف الباتر أعضاء نفسه، فقلت من هذا الشخص البادي الكمد، البالي الجسد، فقال: هذا هو الحسد"⁽²⁾.

(1) فكري، عبد الله، الآثار الفكرية (المقامة الفكرية)، (ص284).

(2) المرجع السابق، ص285.

ومن مساوي الصفات التي تناولها الأدباء، الشهوة الحيوانية في بعض البشر، يقول عبدُ الله فكري: "نظرت فإذا في الطرف الآخر شابة ذات جمالٍ فاخرٍ، ودلالٍ ظاهرٍ، وحسنٍ زاهرٍ، ومنظرٍ باهرٍ، وهي تسحر العقول بألفاظها، وتسخر القلوب بألفاظها

إِذَا أَبْصَرْتَ قَلْبًا خَلِيًّا مِنَ الْهَوَى تَقُولُ لَهُ كُنْ مُغْرَمًا فَيَكُونُ

وعلى رأسها تاجٌ من الزهر كالكوكبِ لدى البدرِ، ورأيتها تتكلم بفصاحةٍ لسانٍ، وتتفنن في أساليب البيان، فلما وقع بصري عليها لم أتمالك أن صبوت إليها، وكدتُ أصيرُ أسيرَ جمالها، وزهينَ حباليها، وصريعَ نباليها، فسألتُ دليلي عنها، وقد تفرس ما أصابني منها، فقال هذه تُعرف في المملكة الإنسانية بالشهوة الحيوانية، وهي مع ما لها من الجمال، عارية عن خلل الكمال" (1).

ومن أروع المقامات التي تناولت مكارم الأخلاق، مقامة (أنباء الأبناء لأطيب الأبناء) لابن الألويسي، وفيها باقةٌ منتقاةٌ من روائع الوصايا لأبنائه، يقول: يا بني من رأيتموه يطير في الهواء، ويمشي على وجه الماء، وقد خالف شيئاً من الشريعة الغراء فهو من أولياء الشيطان، لا من أولياء الرحمن، فإياكم وإياه، واشتغلوا عنه بتقوى الله... يا بني، جودوا بالمال في موضع الحق، وابلخوا بالأسرار على جميع الخلق؛ فإنَّ أحمد جود المرء الإنفاق في وجه البرِّ، وأكرم بخل المرء الضنُّ بمكتوم السرِّ... يا بني، بالغوا في كتم الأسرار، لاسيما عن الأشرار، ولا ترغبوا في نقل الأخبار، ولو للسادة الأخيار، فربَّ أمرٍ فشا يكون لصاحبه نعشا، وربَّ نقلٍ يوصل صاحبه إلى القتل... يا بني، إذا أحببتهم فلا تفرطوا، وإذا بغضتكم فلا تفرطوا، فإنه كان يقال: أحبب حبيبك حباً ما عسى أن يكون بغيبك يوماً ما، وابغض بغيبك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما... يا بني إياكم وكثر المزاح فإنَّ منه ما هو كقطع الرماح، وإنه لينفر الرفيق، ويوغر صدر الصديق... يا بني، لا تتكلموا في أحدٍ بما يوجب الاستغفار، ويحوج يوماً من الأيام إلى الاعتذار، واعلموا أن مقولة السوء تسرع إلى أهلها إسراع السيل ينصب في الحُدود، وتنقض إليهم بأجنحة نقلتها كالطير ينقض إلى مألوف الكود... فاحفظوا ألسنتكم، واجعلوا ذلك طبيعتكم (2).

إن ابن الألويسي وضع دستوراً تضمّن صفحاتٍ ناصعةً احتوت جلّ مكارم الأخلاق، وعظيم الآداب، من قرأها وحفظها، ضمن الأمان والسّلامة، ومن خالفها انتهى به المطاف إلى

(1) فكري، الآثار الفكرية (المقامة الفكرية)، (ص 284).

(2) يُنظر: ابن الألويسي، مقامات ابن الألويسي (ص 7- ص 13).

الخسران، والندامة، ومِمَّا زادَ هذه الوصيَّةَ جَمَالاً أَنْ كَلَّ أمرٌ فيها تبعه ما يببره، وكلَّ نهْيٍ بين سطورها أرفه بعلَّة النهي، مع ما حَمَلَتْهُ الوصيَّةُ من حكمٍ حكيمةٍ، ومثُلٍ صالحةٍ لكلِّ مكانٍ وزمانٍ.

خَامِساً: الأَلْغَازُ، والأَحَاجِي، والمُعَمِّيَّاتُ:

الألغازُ، والأحاجي، والمعمَّياتُ مُصطلحاتٌ متعدِّدةٌ لعملةٍ واحدةٍ، و"أما اللغزُ فَإنَّه من ألغز اليربوع، ولغزٌ إذا حفر لنفسه مستقيماً، ثم أخذ يمينه ويسره ليعمِّي بِذَلِكَ عَلَى طالبه، وهو قولٌ استعمل فيه اللفظ المتشابه طلباً للمعاينة والمحاكاة. والفائدة في ذَلِكَ في العُلُومِ الدُّنْيَوِيَّةِ رياضة الفكر في تصحيح المعاني، وإخراجها عَلَى المناقضة، والفساد إِلَى معنى الصَّواب، والحقِّ، وقدح الفطنة في ذلك، واستتجاد الرأْي في استخراجهِ"⁽¹⁾.

إنَّ المتنبِّعَ لَفَنِّ المَقَامَاتِ منذ بدايات ظهوره يجد أَنَّهُ اعْتَمَدَ عَلَى الأَلْغَازِ والأَحَاجِي اعتماداً كَبِيراً، وقد أَطْلَقَ ناصِيفُ اليَازِجِيِّ عَلَى إحدى مقاماته "المَقَامَةَ اللُّغْزِيَّةَ"، وتضمَّنتُ هذه المَقَامَةُ أَلْغَازاً في مُسَمِّيَّاتٍ شَتَّى، كما تضمَّنت المَقَامَةَ الأَدْبِيَّةَ، والمَقَامَةَ الأَزْهَرِيَّةَ، والمَقَامَةَ الحَلِيَّةَ له معمَّياتٍ، وأحاجي مختلفة في مسائلٍ مُنْتَوَعَةٍ. وَمِنْ شَوَاهِدِ الأَلْغَازِ والأَحَاجِي فِي النُّصُوصِ المَقَامِيَّةِ قَوْلُ ناصِيفِ اليَازِجِيِّ فِي المَقَامَةِ الأَزْهَرِيَّةِ: "فانتدب سجيته السَّبْطَرَةَ، ورفع عقيرته الضَّبْطَرَةَ، وأنشد يُقُولُ:

أَيُّهَا الرَّاكِبُ المُمِيمُ مِصْرًا أَلِقِ سَمْعاً فَلِحَدِيثِ فَنُونِ
دُونِ مِصْرٍ عَيْنٌ وَعَيْنٌ وَعَيْنٌ قَامَ فِيهَا نُونٌ وَنُونٌ وَنُونٌ

قال فطارتِ السَّنَةُ من الجفون، بين تلك العَيْنِ والنون، وتحدَّثَ القوم بما يكون وما لا يكون"⁽²⁾. وَلَعَلَّ (المَقَامَةَ اللُّغْزِيَّةَ) تبرز لنا ملامح اهتمام كَتَّابِ المَقَامَةِ فِي العَصْرِ العُثمانيِّ بالألغاز والأحاجي والمعمَّيات، فقد حوت هذه المَقَامَةُ مزيداً من الأَلْغَازِ، فقد أنشد فارسها مُلْغِزاً في القَمَرِ:

(1) الكاتب، البرهان في وجوه البيان، (ص 67، ص 68).

(2) اليَازِجِيِّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ الأَزْهَرِيَّةِ)، (ص 67، ص 68). السَّبْطَرَةُ: المَاضِيَّةُ، الضَّبْطَرَةُ: الشَّدِيدَةُ، عين الأولى: ماء . عين الثانية: رصد . عين الثالثة: رئيس. نون الأولى: حوت ، ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَدَا النُّونَ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. نون الثانية: سيف. نون الثالثة: دواة. يعني أن بينهم وبين مصر مياهاً تقف فيها الأسماك، ولصوصاً تقف بأيديهم السيوف، ورؤساء ذوي محابر وأقلام.

وَمَوْلُودٍ بِدُونِ أَبِي وَأُمِّ
لَهُ وَجْهَةٌ وَلَيْسَ لَهُ لِسَانٌ،
بِأَلْفُوتٍ يَعِيشُ، وَلَا يَمُوتُ
فِيخْبِرُنَا وَيَلْزِمُهُ السُّكُوتُ⁽¹⁾

وَأُنشِدُ مُلْعِزاً فِي النَّارِ:

أَيُّ صَغِيرٍ يَنْمُو عَلَى عَجَلٍ
يَغْلِبُ أَقْوَى جِسْمٍ، وَيَغْلِبُهُ
يَعِيشُ بِالرَّيْحِ، وَهِيَ تُهْلِكُهُ
أَضْعَفُ جِسْمٍ بِحَيْثُ لَا يُدْرِكُهُ⁽²⁾

ومن الألغاز كذلك قولُ ناصيف اليازجيّ في (المقامة الإسكندرية): "ولقد رأيتك تخوض في المعقول والمنقول، وتمزج الفروع بالأصول. إن كنت من العلماء، فما هي أنواع الإنشاء؟ وبماذا يفرق أهل الدراية بين الاستعارة والتشبيه، وبينها وبين الكناية؟ وما هي المقولات العشر، والكليات الخمس، وما هو التناقض في الفضاء والعكس؟ فارتبك الرجل في تلك المسائل، ولم يكن عنده طائل ولا نائل. قال: إن كنت قد أنكرت هذه النظائر، فكم طائفة في جناح الطائر؟ وإن كنت قد استخشنت الشرس، فكم دائرة في جلد الفرس؟ فإن رأيت التخفيف أحب، فكم عقدة في ذنب الضب؟"⁽³⁾.

وقد أبدع أدباء المقامة كذلك في الأحاجي الفقهية، ومن شواهد ذلك قولُ ناصيف اليازجيّ في (المقامة الإسكندرية): "فقال: إني أراك بين الفقهاء، كالمستعصم بين الخلفاء! إن كنت فقيه العصر فأني رجل صحّ بيعه أباه، واستحق الثمن فاستوفاه؟ وأي غاصب لا يبرأ بالردّ على المالك، وأي رجل أتلّف شيئاً فلزمه شيئان هنالك، وأين تُردّ شهادة مسلمين، وتُقبل شهادة ذميّين؟"⁽⁴⁾.

(1) اليازجيّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (المقامة اللغزية)، (ص204).

(2) المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص205.

(3) اليازجيّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (المقامة الإسكندرية)، (ص401). قيل في جناح الطائر خمس طوائف، وفي جلد الفرس ثماني عشرة دائرة، وفي عقد الضب إحدى وعشرون عقدة.

(4) المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص398. أما مسألة الرجل الذي باع أباه، فهي فيما إذا رجل أذن لعبده أن يتزوج حرّة ففعل، فولدت له ابناً، ثم ماتت فورثها ابنها، فطلب الابن مالك أبيه بمهر أمه، فوكله في بيع أبيه، واستيفاء المهر من ثمنه ففعل فجاز. وأما مسألة الغاصب ففيما إذا كان المالك المعتصب صبيّاً لا يعقل، فإن الغاصب لا يبرأ برّد ماله عليه، ويضمن ما أتلّفه له مرة أخرى. وأما مسألة من أتلّف شيئاً فلزمه شيئان، ففيما إذا أتلّف أحد مصراعي الباب، أو زوجي الخفّ ونحوهما، وأما مسألة الشهادة ففيما إذا مات ذميّ وله ابنان مسلمان، فشهدا أنه مات ذميّاً، وشهد ذميّان أنه مات مسلماً، فتقبل هذه، وتُرُدُّ تلك. (هامش ص399).

سادساً: الطبّ والفلك

لقد اهتمت المقامات في العصر العُمانيّ بالعلوم، فتناول أدباؤها العلوم المختلفة، فوصفوا الطبّ والأطباء، وصعدوا إلى الفلك، ومن تفوّق من علماء، فذكروا الكواكب السيّارة، والبروج والمنازل في السماء، ولم يهملوا النّحاة والأدباء، فكلّ كان له نصيب من إبداعاتهم، ومن شواهد ذلك حديثهم عن الطبّ والأطباء، يقول ناصيف اليازجيّ في (المقامة الطبيّة) مبيناً فضل الطبّ والأطباء: "أما بعد فإنّ هذا العلم أفضل علوم الدنيا جميعاً؛ لأنّه أشرفها موضوعاً، وهو أدقّها نظراً، وأجلّها خطراً، وأقدمها وضعاً، وأعظمها نفعاً، وأغمضها سريرةً، وأوسعها حظيرةً. وهو يستطلع الخبايا. حتّى قيل: إنّه وحيّ قد هبط على الأطباء، كما هبط الوحي على الأنبياء. وصاحب هذه الصنّاعة أروج النّاس بضاعةً، وأريحهم تجارةً، وأشهّاهم زيارةً، وأكسبهم أجرهً وأجرأً، وأنفذهم نهياً وأمرأً، وعليه مدار الأعمال والمهن، وقيام الفروض والسُنن، فإنّ كلّ ذلك لا يتمّ إلا بصحة البدن"⁽¹⁾.

لم يتوقّف أدباء المقامة عند علوم الطبّ فقط، بل تجاوزوا ذلك إلى علم الفلك، ومع هذا العلم ارتحل الأدباء من الأرض إلى عنان السماء ليرسموا من خلال نصوصهم بعض المشاهد الكونيّة التي تمثّل عدداً من آيات الله في مخلوقاته، ومن مشاهد هذه الآيات قول ناصيف اليازجيّ في (المقامة الفلكيّة): "وإذا شيخٌ أطولٌ من شهر الصّوم، قد قام في صدر القوم، وهو يقسم تارة بالخنّس، وطوراً بالجوّاري الكنّس، ويلهج مرّة بمواقع النّجوم، وأخرى بفواقع الرّحوم... إن كنت من علماء الفلك، فأفدنا ما سيّارة النّجوم، والفضل لك، فلم يكن إلا كحلّ عقالٍ، حتّى أنشد فقال:

تلك الدّراري: زحلّ فالمشتري
ويَعده مريخها في الأثر
شمسٌ فزهرة عطارد قمر
وكُلّها سائرة على قدر

قال ذلك من أجوبة العلماء، فما هي أبراج السماء؟ فنظر إليه نظرة الصلّ الأصمّ، وقال اسمع وخلاك دمّ:

من البروج في السماء الحمل
تنزل فيه الشمس إذا تعدل
والثور والجوزاء نغم المنزلة
وسرطان أسد وسنبله

(1) اليازجيّ، ناصيف، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (المقامة الطبيّة)، (ص 226).

كَذَلِكَ الْمِيزَانُ ثُمَّ الْعَقْرَبُ

قَوْسٌ وَجَدِّي دَلُّو حُوتٍ يَشْرَبُ⁽¹⁾

سَابِعًا: الْوَصْفُ

عَشِقَ فِرْسَانُ الْمَقَامَةِ غِرَضَ الْوَصْفِ، وَتَقَلَّوْا فِي نُصُوصِهِمِ الْمَقَامِيَّةَ بَيْنَ حَدَائِقَ مُتَنَوِّعَةٍ مِنْ هَذَا الْغِرَضِ، فَقَطَّفُوا جَمِيلَ ثَمَارِهَا، وَنَشَرُوا عَبِيرَ وَرُودِهَا، فَقَدْ اتَّسَعَتْ مَقَامَاتِهِمْ حَتَّى اسْتَوْعَبَتْ أَشْكَالًا مُتَعَدِّدَةً، وَضُرُوبًا مُتَنَوِّعَةً كَانَتْ مَتْعَةً لِّلْمَتَذَوِّقِينَ، وَمِنْ هَذِهِ الضُّرُوبِ مَا يَأْتِي:

1- وَصْفُ الطَّبِيعَةِ:

حَفَلَتْ كَثِيرٌ مِنَ الْمَقَامَاتِ فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ بِوَصْفِ الطَّبِيعَةِ، وَمُظَاهِرِ جَمَالِهَا، وَآيَاتِ الْحَسَنِ فِيهَا، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ اللَّوْحَةُ الرَّائِعَةُ الَّتِي قَدَّمَهَا نَاصِيفُ الْيَازْجِيِّ فِي (الْمَقَامَةِ الْفِرَائِيَّةِ)، يَقُولُ: "نَزَلْنَا بِشَاطِئِ الْفِرَاتِ فِي إِحْدَى السَّفَرَاتِ، فَرَأَيْنَا مَا هُنَاكَ مِنَ الْمِيَاهِ الْخَصِرَةِ، وَالْخَمَائِلِ النَّضْرَةِ، وَلِبَتْنَا أَيَّامًا نَتَقَلُّ فِي تِلْكَ الْمَرْجِ، كَمَا نَتَقَلُّ الْكَوَاكِبَ فِي الْبُرُوجِ، وَنَجْتَلِي مَفَاكِهِ السَّمَرِ، كَمَا نَجْتَلِي مَفَاكِهِ الثَّمَرِ، وَنَتَوَسَّدُ كُلَّ قِضَّةٍ أَنْقَى مِنَ الْفِضَّةِ، وَنَرُدُّ كُلَّ سَبِيلٍ، أَعْذَبَ مِنَ السُّلْسَبِيلِ"⁽²⁾. حَيْثُ رَسَمَ الْيَازْجِيُّ صُورَةً بَارِعَةً لَمَّا انْتَقَلَ مِنْ رَوَائِعِ الْجَمَالِ فِي الْأَرْضِ إِلَى بَدَائِعِ الْحَسَنِ فِي السَّمَاءِ، مُعْتَمِدًا عَلَى الْبُنْيَةِ التَّشْبِيهِيَّةِ التَّمثِيلِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: (وَلِبَتْنَا أَيَّامًا نَتَقَلُّ فِي تِلْكَ الْمَرْجِ، كَمَا نَتَقَلُّ الْكَوَاكِبَ فِي الْبُرُوجِ)، مَتَحَرِّكًا بَيْنَ الْمَرْجِ، وَارِدًا كُلَّ مَنْهَلٍ أَعْذَبَ مِنَ السُّلْسَبِيلِ، مُوشِّحًا وَصْفَهُ بِضُرُوبٍ مُتَنَوِّعَةٍ مِنَ الْجِنَاسِ النَّاقِصِ، مِنْهَا: الْجِنَاسُ الْوَالِدِيُّ فِي قَوْلِهِ: (الْمَرْجِ، وَالْبُرُوجِ)، وَ(نَجْتَلِي، وَنَجْتَلِي)، وَالْجِنَاسُ الْمَصْحَفُ فِي قَوْلِهِ: (قِضَّةً، وَفِضَّةً)، وَالْجِنَاسُ الْمَطْرَفُ فِي قَوْلِهِ: (سَبِيلٍ، وَسَلْسَبِيلٍ).

وَمِنْ مَشَاهِدِ وَصْفِ الطَّبِيعَةِ أَيْضًا قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَازْجِيِّ فِي (الْمَقَامَةِ الْحَمَوِيَّةِ): "قَالَ سَهِيلُ بْنُ عَبَادٍ: لَقِيتُ الْخُزَامِيَّ فِي حِمَاةٍ، فَانْضَوَيْتُ إِلَى حِمَاهِ، وَلِبِثْتُ أَتَنْسَمُ رِيَاءَهُ، وَأَتَرَشَّفُ حِمْيَاهُ، وَهُوَ يَطُوفُ بِي عَلَى الرِّيَاضِ وَالْغِيَاضِ، وَيُرِدُّ الْمَعِينِ وَالْحِيَاضِ، وَيَتَفَقَّدُ الْأَجَارِعَ النَّضْرَةَ، وَالْخَمَائِلَ الْغَضْرَةَ، حَتَّى دَخَلْنَا إِلَى حَدِيقَةٍ، بِهَيْجَةٍ أَنْيَقَةٍ، وَالذَّوَالِيْبُ حَوْلَهَا تَحْنُ حَنِينَ النَّاقَةِ الرَّؤُومِ... فَجَعَلْنَا نَتَخَيَّرُ الْأَفْيَاءَ، حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى ظِلَالٍ لِمِيَاءٍ، فَجَلَسْنَا وَقَدْ أَطَاعَنَا الْعَاصِي،

(1) يُنْظَرُ، الْيَازْجِيِّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْفَلَكِيَّةُ)، (ص 213، ص 214). الْخَسُّ: الْكَوَاكِبُ، الْكُنْسُ: النُّجُومُ السَّيَّارَةُ، فَوَاقِعُ الرَّحُومِ: الشُّهُبُ الَّتِي تُرْسَقُ فِي الْجَوِّ كَأَسْهَمٍ مِنْ نَارٍ، الدَّرَارِي: الْكَوَاكِبُ الْمُضِيئَةُ، قَدْرٌ: مَنْهَجٌ مُحْكَمٌ، الصَّلُّ: حَيَّةٌ خَبِيْثَةٌ يُقَالُ إِنَّهَا مَلَكَةُ الْحَيَّاتِ، الْأَصَمُّ: الَّذِي لَا يَقْبَلُ رَقِيَّةَ الْحَاوِي، خَلَكَ نَمٌ: سَقَطَ عَنْكَ الدَّمُّ.

(2) الْيَازْجِيِّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْفِرَائِيَّةُ)، (ص 253). الْخَصِرَةُ: الشَّدِيدَةُ الْبَرْدِ، الْقِضَّةُ: الْحَصَى الصَّغِيرَةُ.

وتسخرت لنا مياهه من الأفاصي، وأخذنا نجتني الثمار الذوابل، من الأفنان السوابل، وقد رقص البلبل على نغمات البلابل⁽¹⁾.

ومن روائع هذا الغرض، وصف شهاب الدين الخفاجي للأستانة، حيث يقول: "فإذا هي جنة ملئت بالبحور والولدان، وحفت بالشهوات إذ حفت بالمكاره الجنان، من كل شادن سرق التفاتة الغزال، وتسلفت لترى لطفه الصبا والشمال، لولا خوف الوشاة والعدى، تساقطت القبل على ورد خده سقوط الندى. جرى فيه ماء النعيم والهياف، وحر فيه الرأي، فلو رآه سيل تلعة لوقف. فاق ذكاء سناً وسناء، فلو حاكته حازت الشرف صيفاً وشتاء، إذا جاده صيب الحياء والخجل، أنبت ورداً يجتبي بأنامل أهداب المقل⁽²⁾".

ومن مشاهد وصف الطبيعة، وجمال المنازل قول عبد الله فكري في (المقامة الفكرية): "وسرنا نظوي المنازل، ونقطع المراحل، من طريق إلى طريق، حتى وصلنا إلى مضيق، خرجنا منه إلى قبة بديعة، على ربوة ربيعة، يتصل بها كل ما اشتملت عليه المملكة في جميع أنحاءها، في مواردها وطرقاتها ومسالكها، وجداول مائها، وفي هذه القبة من الأنوار اللامعة، والأشعة الساطعة ما يغشي الأبصار، ويدهش النظار، ... ومع كل واحد مرآة كثيرة الأضلاع، لماعة الشعاع، ينعكس فيها ما في القبة من الأضواء، فيظهر كثير من الصور والأشكال، والألوان البديعة المثال، فكان بصري يضعف عن مقاومة هذه الأنوار، وقلبي يتعجب ما رأيت في الدار، حتى أتى لفرط ما هالني من غرابة الأمر، وإنه لم يسبق لي به عادة في سالف العمر⁽³⁾. حيث جمع فكري عند وصف مظاهر الطبيعة بين التشكيل الصوتي، واللوني، والحركي، فأبدع لوحة ذات جمال أخذ زينها بالأفعال المضارعة (نظوي، تقطع) بما فيها من تجدد واستمرار، ووشحها بالجمع في (المنازل، المراحل، الموارد، الطرقات، المسالك، الجدول، الأنوار، والصور، والأشكال، والألوان) وما حملته هذه الجموع من الكثرة، والتنويع، ثم ختم بمشهد يحمل في طياته كل الإعجاب والانبهار بمشاهد الطبيعة في قوله: (حتى أتى لفرط ما هالني من غرابة الأمر، وأنه لم يسبق لي به عادة في سالف العمر).

(1) اليانجي، مجمع البحرين (المقامة الحموية)، (ص355، 356). حمياه: خميره، الأجارع: الأراضي الطيبة

النبات، الغصرة: المخصبة، لمياء: كثيفة، السوابل: الأغصان المتدللية. البلابل: أنابيب تنصب منها الماء.

(2) الخفاجي، ریحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، (ص384). تلعة: ما ارتفع من الأرض، الجوهري، الصحاح، (ج3/1192)، مادة (تلع).

(3) فكري، الآثار الفكرية (المقامة الفكرية)، (ص11).

ومن مظاهر الطَّبِيعَةِ الَّتِي وصفها الأُدبَاءُ، الجبالُ وما فيها من روائعِ الجَمالِ، يَقُولُ ناصيفُ اليَازِجِيِّ: "مررنا بجبل لبنان، فراعنا ما به من الشَّعابِ والأوديةِ، والمجالسِ والأنديةِ، والخمائلِ، والغياضِ، والمياهِ، والرِّياضِ، والقرى، والدَّساكرِ، والعشائرِ الملتفَّةِ كالعساكرِ، فلبتنا أياماً في جنباته، نجول بين رِعاِنِه وهضباته"⁽¹⁾.

2- وَصْفُ الرِّحالاتِ

ظهرَ وصفُ الرِّحَلَةِ في العُصُورِ الأدبيَّةِ المُختلِفةِ بدءاً بالعصرِ الجاهليِّ، ومروراً بسائرِ العُصُورِ حَتَّى العَصْرِ العُثمانيِّ، فقد أظهر الأُدبَاءُ براعةً في وصفها، ووصف مَشاهدِ جمالها، وروعة زينتها.

ولم يختلفِ الحالُ في العَصْرِ العُثمانيِّ، فقد اتَّخذ الأُدبَاءُ وصفَ الرِّحَلَةِ منهجاً ثابتاً في معظم النُّصوصِ المَقامِيَّةِ، وَمِنْ سِوَاهِدِ ذَلِكَ قولُ ناصفِ اليَازِجِيِّ في (المَقامَةُ المِصرِيَّة): "أزمتُ الشُّخُوصُ إِلَى الكِنايَةِ، في ركبٍ من بني كنانة، فَلَمَّا فرغتُ من الأُهبَةِ أتيتُ القافلةَ، في اتِّخاذا الرِّاحِلَةِ. فعرض لي رجلٌ أدهمٌ، وقال آجرتك هَذَا المطهَّم، كلَّ يومٍ بدرهمٍ... وخرجنا نطوي الوهاد والرُّبى، بين الخيزلى والهيدبي، حَتَّى حللنا تلك الدِّيار، فنزلنا عن الأوكار، إِلَى الأوكار"⁽²⁾.

ولم يخرج ناصيفُ اليَازِجِيِّ في (المَقامَةُ الطَّبِيعِيَّة) عن وصفِ الرِّحَلَةِ كَذَلِكَ، فقد رسم ملامح تلك الرِّحَلَةِ فيها، حَيْثُ اعتلى صهوة جواده لبيداً الرِّحَلَةَ، يَقُولُ: "خرجت على فرسٍ جَمُوحٍ، إِلَى نِيَّةِ جُمُوحٍ، فأزعجني إهماجاً وخبباً، وأرهقني سعداً وصبباً، حَتَّى نهكني اللُّغُوبُ، وأعياني الرُّكُوبُ. فنزلت لأقيل وأستقيل، وَإِذَا ناقة ترعى، وهي تتساب كالأفعى، فوقفت أستشرفُ الهضاب، والوهاد"⁽³⁾.

وفي مقدِّمةِ (المَقامَةُ الأدبيَّةِ) يصف ناصيفُ اليَازِجِيُّ مشقَّةَ الرِّحَلَةِ، وعناءَ السَّفَرِ قائلاً: "ترامت بي سفرةٌ شاسعةٌ، في موماةٍ واسعةٍ، وكنت قد انضويت إِلَى صحبِ أحمى من الجمرات،

(1) اليَازِجِيِّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقامَةُ اللبنايَّةِ)، (ص350). راعنا: أعجبنا، الخمائل: الأشجار الظليلة، الغياض: الغابات، الدساكر: المزارع، رعانه: جمع رعن، وهو رأس الجبل، هضباته: تلاله المنبسطة.

(2) اليَازِجِيِّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ، (المَقامَةُ المِصرِيَّةِ)، (ص175). المطهَّم: الفرس التام الخلقة، الخيزلى: مشية متناقلة، الهيدبي: مشية سريعة، الأوكار: الأبيات.

(3) اليَازِجِيِّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ، (المَقامَةُ الطَّبِيعِيَّةِ)، (ص180). الإهماج: شديد الرُّكُض، الخيب: الرُّكُض المضطرب. اللُّغُوب: النَّعْب الشَّدِيد.

وأكرم من الطَّلحات، فسرت بينهم ناعم الببال، آمن البلبال، ومازلنا بين تصويبٍ وإصعادٍ، حتى هبطنا بطنٍ وادٍ⁽¹⁾.

وقد نهج ناصيف اليازجِي هَذَا الْمَنْهَجَ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَقَامَاتِهِ، كَالطَّائِيَّةِ، وَالْعَدْنِيَّةِ، وَالْأَنْبَارِيَّةِ، وَالْمَضْرِيَّةِ، وَغَيْرِهَا.

وَمِنْ هُنَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يُنْكَرَ الدَّارِسُ أَنَّ الْمَتَّبِعَ لِلشَّوَاهِدِ السَّابِقَةِ فِي النُّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ، وَغَيْرِهَا يَدْرِكُ لِأَوَّلِ وَهَلَةِ أَنْ وَصَفَ الرَّحْلَةَ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ "قَامَ مَقَامَ الْمَقْدَمَةِ الطَّلِيَّةِ فِي الْقَصِيدَةِ، حَيْثُ أَخَذَ الْكُتَّابُ يَسْتَفْتِحُونَ مَقَامَاتِهِمْ بِوَصْفِ الرَّحْلَةِ، ثُمَّ يَنْتَهُونَ إِلَى مَدْحٍ، أَوْ هَجَاءٍ لِشَخْصِيَّةٍ مِنْ الشَّخْصِيَّاتِ الَّتِي وَرَدَ ذِكْرُهَا فِي تِلْكَ الرَّحْلَةِ، أَوْ يَنْغَزِلُونَ بِحَسَنَاءَ قَابَلُوهَا فِي رِحْلَتِهِمْ تِلْكَ"⁽²⁾.

وَلَمْ يَنْتَعِدْ أَدْبَاءُ الْمَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ عَنِ مَنَهِجِ وَصْفِ الرَّحْلَةِ فِي مَسْتَهْلِّ مَقَامَاتِهِمْ، بَلْ سَارُوا عَلَى ذَاتِ الْمَنْهَجِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ ابْنِ حَمَادُوشِ فِي (الْمَقَامَةِ الْكَرْهَلِيَّةِ): "الْحَمْدُ لِلَّهِ حُدَى بِي حَادِي الرَّحْلَةِ، إِلَى أَنْ دَخَلْتُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِي كَرْهَلَةً، فَنَزَلْتُ بِهَا فِي خَانَ، كَأَنَّهُ مِنْ أَبْيَاتِ النَّيْرَانِ، أَوْ كَنَائِسِ الرُّهْبَانِ، بَلْ لَا شَكَّ أَنَّهُ مِنْ أَبْيَاتِ الْعَصِيَانِ، فَلِذَلِكَ لَا يَسِرُّ بِهِ النَّاطِرُ، وَلَا يَنْشُرُ بِهِ الْخَاطِرُ، فَاخْتَصَصْتُ مِنْهُ بِحَجْرَةٍ، أَوْ نَصْرَةٍ فِي حَجْرَةٍ، وَكَأَنِّي وَقَعْتُ مِنَ السَّمَاءِ فِي حَفْرَةٍ، أَوْ اتَّبَعْتُ أَفْعُونَ فِدَخَلْتُ فِي جِحْرِهِ، فَغَلَقْتُ بَابِي، لِأَحْفَظَ حَيَاتِي، وَأَوْمَنْ جَنَابِي، مَنْشَدَةً أَعْتَابِي، وَكَذَلِكَ كُلِّ مِنْ أَصْحَابِي، حَتَّى مَدَّ اللَّيْلُ جَنَاحَهُ، وَأَوْقَدَ السَّمَاءَ مِصْبَاحَهُ، وَهَدَّاتِ الْأَصْوَاتِ، وَصَرْنَا كَالْأَمْوَاتِ، وَتَوَعَّلْتُ فِي حَبَائِلِ النَّوْمِ، فَلَمْ يَوْقُظْنِي إِلَّا جَلْبَةُ الْأَصْوَاتِ، وَتَدَاعِي الْقَيْنَاتِ، فَإِذَا بَجَارِي بَيْنَ بَيْنٍ يَحَاسِبُ قَيْنَةَ عَلَى كَيْتِ كَيْتِ، وَهِيَ تَقُولُ لَهُ: فَعَلْتَ كَذَا فَعَلَةً، وَتَدْفَعُ أَجْرَ فَعَلَةٍ، فَوَ الَّذِي سَهَّلَ عَلَيَّ السَّفَاحَ، وَنَصَّبَنِي لِكُلِّ مَنْ أَرَادَ النَّكَاحَ...فَقُلْتُ: بَعْدًا لِهَذَا الْجَارِ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ بَسُّ الْقَرَارِ"⁽³⁾.

(1) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْأَدْبِيَّةِ)، (ص 200). الْبَلْبَالُ: الْهَمُّ، أَوْ وَسْوَاسُ الصَّدْرِ، الصَّحَاحُ، (ج 4/1640)، مَادَةٌ (بَلَل). الطَّلْحَاتُ الْمَعْرُوفُونَ بِالْجُودِ خَمْسَةٌ، الْأَوَّلُ: طَلْحَةُ بْنُ عَبِيدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ، وَهُوَ أَدُّ الْعَشْرَةِ الْمَبْشُرِينَ بِالْجَنَّةِ، وَهُوَ الْمَلْقَبُ بِالْفَيَاضِ، وَالثَّانِي طَلْحَةُ بْنُ عَبِيدِ اللَّهِ بْنِ مَعْمَرِ التَّمِيمِيِّ، وَيَلْقَبُ طَلْحَةَ الْجُودِ، وَالثَّلَاثُ: طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَوْفِ الزَّهْرِيِّ، وَيَلْقَبُ طَلْحَةَ النَّدِيِّ، وَالرَّابِعُ: طَلْحَةُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَهُوَ الْمَلْقَبُ بِطَلْحَةَ الْخَيْرِ، وَالْخَامِسُ، طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَلْفِ الْخَزَاعِيِّ، وَيَلْقَبُ بِطَلْحَةَ الطَّلْحَاتِ. يُنْظَرُ: الْخَفَاجِيُّ، طَرَازُ الْمَجَالِسِ، (ص 218).

(2) أَبُو عَلِيٍّ، نَقْدُ النَّثْرِ فِي تَرَاثِ الْعَرَبِ النَّقْدِيِّ حَتَّى نَهَايَةِ الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ 656، (ص 320).

(3) يُنْظَرُ: ابْنُ حَمَادُوشِ، رِحْلَةُ ابْنِ حَمَادُوشِ الْجَزَائِرِيِّ، (ص 9، ص 10).

3- وَصْفُ الْقُصُورِ

تُعَدُّ الْقُصُورُ إِحْدَى أَفْضَلِ الْوَجْهَاتِ الْجَمَالِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ، فَهِيَ تَرْضِي عَشَاقَ التَّارِيخِ وَالْعِرَاقَةِ، وَالْأَشْخَاصَ الَّذِينَ لَدَيْهِمْ شَغْفٌ بِالْحَدَاثَةِ وَالْعَصْرِيَّةِ، وَعَشَاقَ الطَّبِيعَةِ الْخَلَابِيَّةِ، كَمَا كَانَتْ هَدَفًا رَئِيسًا لِلْأَدْبَاءِ الَّذِينَ عَشَقُوا هَذَا الْجَمَالَ، فَرَسَمُوا لَهَا أَجْمَلَ اللَّوْحَاتِ الْأَدْبِيَّةِ الَّتِي تَوْشَّحَتْ بِوَشَاحِ الْأَنْفَاقَةِ، حَيْثُ شَكَّلَتْ أَحَدَ الرُّمُوزِ الْمَهْمَةِ فِي إِبْرَازِ هَذَا الْجَمَالَ الْفَاقِقِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ وَصْفِ الْقُصُورِ قَوْلُ ابْنِ الْأَلُوسِيِّ فِي مَقَامَةِ (رَجْرُ الْمَعْرُورِ عَنِ رَجْرِ الْعُرُورِ): "تَمَّ رُفَعَتْ إِلَى مَقَامِ كَرِيمٍ، كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنْ جَنَاتِ النَّعِيمِ، فِي قِصْرِ طَالِ مَبْنَاهِ، وَطَابَ مَعْنَاهُ، كَأَنَّهُ فِي الْحِصَانَةِ جَبَلٌ مَنِيعٌ، وَفِي اللَّطَافَةِ رَيْعٌ مَرِيحٌ، شَرَفَاتُهُ كَالْعِذَارَى شَدَدْنَ مَنَاطِقَهَا، وَتَوَجَّجْنَ بِالْإِكْلِيلِ مَفَارِقَهَا، وَأَقْرَّتْ لَهُ الْقُصُورُ بِالْقُصُورِ، إِذْ بَدَأَ كَأَنَّهُ سَحَابٌ فِي نَحْرِ السَّحَابِ، وَجَلَسَتْ فِي قَبَّةِ كَادٍ لَا يَبِينُ مِنْهَا رَأْسِي، وَتَنْقَطَعُ مِنَ التَّنَامِ جَوَانِبُهَا عَلَى أَنْفَاسِي، ثُمَّ طَلَعَتْ شَمْسُ الْمَدَامِ مِنْ أَفْقِ ذَلِكَ الْإِنْتِظَامِ، فَمَلَأَ الْمَكَانَ نُورَهَا، وَذَهَبَ مِنْ لَيْلَتِنَا دِيجُورَهَا"⁽¹⁾.

ثَامِنًا: الْهَجَاءُ

إِذَا كَانَ الْمَدْحُ قَدْ زَيَّنَ فَنَّ الْمَقَامَاتِ فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ، فَإِنَّ الْهَجَاءَ كَانَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ تِلْكَ الْمَقَامَاتِ، وَحِيْزٌ مِنْ هَذَا الْفَنِّ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِنَفْسِ الْمَسَاحَةِ الَّتِي اسْتَوْعَبَهَا غَرَضُ الْمَدْحِ، فَقَدْ أَسْرَفَ بَعْضُ أَدْبَاءِ الْمَقَامَاتِ فِي الْهَجَاءِ، حَتَّى أَصَابُوا الْهَجَاءَ الْمَقْدَحَ، وَمَا فِيهِ مِنْ أَوْصَافٍ تَنْفِرُ الْأَذَانَ مِنْ سَمَاعِهَا، وَبِمَجْهَاتِ الدُّوقِ السَّلِيمِ، وَمِنْ رَوَائِعِ الْهَجَاءِ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ قَوْلُ شِهَابِ الدِّينِ الْخَفَاجِيِّ فِي وَصْفِ رَجُلٍ يَذُمَّهُ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخَبْثِ وَالْخَبَائِثِ، وَالْوُدِّ بِكَ يَا نُورَ الثُّورِ إِذَا دَجَّتْ ظِلْمَاتُ الْحَوَادِثِ، فَإِنَّهُ مِمَّا صَبَّ مِنَ الْمَصَائِبِ، أَنْ حَمَلَ عَلَى كَاهِلِ الدَّهْرِ عِيْبَةَ الْمَعَائِبِ، نَسْخَةَ الْقَبَائِحِ، مَسْوَدَةَ الْفَحْشِ وَالْفَضَائِحِ، جَرِيدَةَ الْعِيُوبِ، تَمَثَالَ السَّيِّئَاتِ وَالذُّنُوبِ، إِكْسِيرَ الْفَسَادِ، وَشِمَاتَةَ الْأَعْدَاءِ وَالْحَسَادِ، أَنْمُودَجَ الْهَمُومِ، أَظْلَمَ مِنْ لَيْلِ الْمَرَضِ وَالْهَمُومِ، قَحْطَ الرِّجَالِ، قَائِدَ جَيْشِ الدَّجَالِ، قَبِيحَ الْفِعْلِ وَالْقَوْلِ، إِذَا اعْتَدَرَ عَنْ إِسَاءَتِهِ غَسَلَ الْغَائِطَ بِالْبَوْلِ... رَقَّةَ الرِّقْمِ، وَأَنْفَاسَةَ الْهَمُومِ، فَهُوَ لَعِينُ الدَّهْرِ قَذِي، لَا يَنْطِقُ بِغَيْرِ فَحْشٍ وَأَذَى، الْجَهْلَ رِدَاؤَهُ، وَالْجَذَامَ حَلِيَّتَهُ وَبِهَاؤَهُ... لَيْسَ فِي خَلْقِهِ مِنَ الْحُكْمِ وَالْأَعْرَاضِ، إِلَّا أَنْ تَقِفَ الْأَطْبَاءُ عَلَى مَا جُهِلَ مِنَ الْأَمْرَاضِ، وَتَنْضَحَ بِهِ حَقَائِقُ النَّشْرِيحِ، وَيُكْثِرُ رَأْيُهُ مِنَ الْإِسْتِعَاذَةِ وَالنَّسْبِيحِ"⁽²⁾.

(1) ابن الألويسي، مقامات ابن الألويسي، (ص103، ص104).

(2) الخفاجي، ربحانة الألباء وزهرة الحياة الدنيا، (ص284، ص285).

وَلَمْ يَكْتَفِ الْخَفَاجِيَّ بِذَلِكَ، بل شرع يرسم صورةً قبيحةً لهذا الرجل بالتشبيه، فيبدو أمام الناس كمشهدٍ مرئيٍّ، أو صورةٍ مشاهدَةٍ، يَقُولُ في هجائه: "أشأم من طويس، وأثقل في السَّمع من ليس، ومعنى يحمل لحية التَّيس، يا عينَ الشُّوم، وخليفةَ البُوم،...يا خيبةَ الأمل، ومجمع السَّقَل، وعدوَّ الأدب، وأسودَ اللِّقَب، أما استحيَ زمان حلَّ في صدره الخُصى، وأصبح لقدر العلم، والمال مُرخصاً، مادِرٌ لديه حاتم، والحجاج أعدل حاكمٍ

لَوْ كَانَ يَدْرِي جَدُّهُ أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ إِخْلِيلِهِ لِأَخْتَصَى

قربه أقبح من الحرمان، وبعده ألدُّ من وصل الحور الحسان، لا يهتدي إلى صواب، حتى يشيب الغراب، أو يستضاء شيطان بشهابٍ... أقبح من النِّعم، وأسوأ من زوال النِّعم... لا خير فيه إلا أنه لا يأثم له مغتابٌ، بل يحمد ويجازى بجزيل الثَّواب⁽¹⁾.

بَرَغَ ناصيف اليازجي في غرض الهجاء مُعْتَمِداً عَلَى الأوصاف الحسيَّة والمَعنويَّة، الظَّاهرة والجوهريَّة، يَقُولُ: "حتى إِذَا كَانَتْ الغداة، وقد تَأَلَّبَ الشَّيْخُ بمنتداه، وقد شَيْخُ بالٍ، في رثاث أسمال... أقبل رجل قد ترمَّل بكساءٍ خَلَقَ، واعتَمَّ بلفائف مكورةٍ كالطَّبَّق، قد جمعت ألوان قوس السَّحاب في الخِرَق، وأرخی لعمامته عَدَبَةً، أطول من قَصَبَةِ، وهو قد كَحَلَّ إحدى عينيه، ولبس خفّاً بإحدى رجليه، وأخذ عصا بكلتا يديه... فقال القوم تبارك اسم ربك الأعلى، من هَذَا الَّذِي منظره يضحك التُّكلى... وأنا أتعوذ من منظره الذَّميم، كما أتعوذ من الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ"⁽²⁾. فقد جمع بين بشاعة المظهر، وقبح المنظر الَّذِي يبدو في (شيخ بال، رثاث أسمال، كَحَلَّ إحدى عينيه، لبس خفّاً بإحدى رجليه)، وزاد المَشْهَدَ قبحاً وبشاعةً فِي قَوْلِ ناصيف اليازجي: (منظره يضحك التُّكلى) الَّذِي يوضِّح المَشْهَدَ الغريب، وَيَرَسِّمُ الشَّكْلَ العجيب، وبصوِّر المنظر القبيح.

تاسِعاً: الغَزَلُ

إنَّ غرضَ الغَزَلِ من أكثر الأَعْرَاضِ التي اهتمَّ بها النُّقَّاد، وللغزل قواعدٌ وأصولٌ، رُبَّمَا يكون التَّخَلِّي عنها من النِّواقص والعيوب في العمل الأدبيِّ، وقد رسم لنا بعض النُّقَّاد تلك القواعد، وعلى رأس هؤلاء، قدامة بن جعفر (ت337هـ)، حيثُ يَقُولُ: "ولمَّا كان المذهب في الغَزَلِ إنّما هو الرِّقَّة واللِّطافة، والشَّكْل والدِّمَاطة، كان ما يحتاج فيه أن تكون الألفاظ لطيفةً مستعذبةً، مقبولةً غير مستكرهة، فإذا كَانَتْ جاسيةً مستوخمةً كان ذلك عيباً، إلا أنه لم يكن عيباً

(1) الخَفَاجِي، رِيحَانَةُ الأَلْبَا وَرَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، (ص287).

(2) اليازجي، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المقامة السُّخْرِيَّة)، (ص333).

على الإطلاق، وأمكن أن يكونَ حسناً، إذ كان قد يحتاج إلى الخشونة في مواضع مثل ذكر البسالة، والتجدة، واليأس، والمرهبة، كان أحقّ المواضع التي يكون فيها عيباً الغزل لمنافرتة تلك الأحوال، وتباعده منها⁽¹⁾.

ومن روائع الغزل في المقامات في العصر العثمانيّ التغني بمكارم الأخلاق، والتغزل بها، وكأنّها غيدٌ حسناواتٌ، ومن بديع ذلك تغني عبد الله فكري، وتغزله بخلق الحكمة والبصيرة في المقامة الفكرية، يقول: "ثم رأيت امرأة مخدرة، معظمة موقرة، يلوح عليها الجمال، وتحيط بها أبهة الكمال، ويبدو عليها اللطف والكرم، ومحاسن الشيم، وعلو الهمم، ورأيت كلّ أحدٍ يعظمها، ويحييها ويكرمها، إلا جماعة من الأسافل، والأوباش الأراذل، كانوا لا يوقرونها، بل رأيتهم يحقرونها، ولكنها كانت لا تحفل بما بيديه أهل الفساد والشقاق، كما أنّها لم تكن تتخضع بتملّق أهل النفاق، بل كانت تنظر فيما يُعرض من الدعاوى، والشكاوى بالعدل والحلم، وتفصل فيها الحكم بالحكمة، والذكاء، والفضل، والعلم، ورأيت على رأسها إكليلاً من الزهر، لا يذبل مدى الدهر، فلا يزال يرفُ خضرةً، ويتلأأ بهجةً، ونضرةً، ويجلب للعين فرةً، وللخاطر مسرةً... فعسر عليّ معرفة أمرها، وسألت الدليل عن خبرها، فقال هي البصيرة المعروفة بحسن آرائها، وهي من نبهاء هذه الدولة ونبلائها، وأعظم أمرائها ووزرائها"⁽²⁾.

غزل الغلمان

من الأغراض التي ظهرت في الأدب العربيّ، غرض الغزل بالغلمان، ويؤيد ذلك سيرة عددٍ كبيرٍ من الشعراء العرب، "فلقد جنحوا إلى التغزل بالغلمان، وكانوا - على حدّ روايات التواريخ - يحققون أقوالهم بأفعالهم"⁽³⁾.

وقد برزت هذه الظاهرة في مقامات العصر المملوكيّ، وبلغت ذروة هذا الغرض في مقامة (لوعة الشاكي، ودمعة الباكي) لصلاح الدين الصفديّ، والذي تجاوز فيها على ما أظنّ، ويشهد غيري حدود الأدب والدوق في ظلّ مجتمع صبغ بصبغة التدين⁽⁴⁾، وقد زادت الطرُوف الاجتماعية في العصرين المملوكيّ، والعثمانيّ هذا الغرض ثباتاً ورسوخاً؛ لكثرة ما عجت به

(1) ابن جعفر، نقد الشعر، (ص36).

(2) فكري، الآثار الفكرية، (المقامة الفكرية، (ص13، ص14).

(3) أمين، مطالعات في الشعر المملوكي والعثمانيّ، (ص125).

(4) يُنظر، الصفدي، لوعة الشاكي ودمعة الباكي، (ص67، ص68).

الأسواق والدُّور من غلمان الأتراك، وما اتَّسموا به من حسنٍ، وجمالٍ، ورقَّةٍ، وملاحةٍ، واستسلامٍ⁽¹⁾.

ورُبِّمَا كَانَتْ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ أَقَلَّ وَضوحاً فِي مَقَامَاتِ العَصْرِ العُثمَانِيّ، لَكِنْ لَمْ "يَتَوَقَّف" شعراء العَصْرِ العُثمَانِيّ عَن مَجَارَاةِ أسلافهم فِي العُصُورِ السَّابِقَةِ، وإِظهارِ مَقدراتهم عَلَى جميع فنون القَوْل، وَمِنْهَا العَزَلُ بِالغلمانِ⁽²⁾.

وَإِذَا عَدْنَا إِلَى العَصْرِ العُثمَانِيّ فَإِنَّا نَجِدُ عَلَى اسْتِحْيَاءِ ملامحٍ لِهَذَا الغرضِ فِي بعضِ النُّصُوصِ المَقَامِيَّةِ، وَرُبِّمَا حَمَلَ هَذَا العَزَلُ جِبْرَ الخاطرِ لِبعضِ الغلمانِ الَّذِيْنَ حَمَلُوا بعضِ العاهاتِ كالحرِّقِ، وَقَبْحِ الخِلْقَةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ العَزَلِ بِالغلمانِ مَا نَجِدُهُ فِي مَقَامَةِ (رَجَزِ المَعْرُورِ عَن رَجَزِ العُرُورِ) لابن الألويسيّ، يَقُولُ: "فَقُلْتُ: أَيُّهَا الشَّيْخُ الإِمَامُ مِنْ أَحَقِّ أَنْ يُعْشَقَ الجاريةُ أَمْ الغلامُ، فَقَالَ: أَرَى الأُوْلَى بِأهلِ المدارسِ، أَنْ يَسْتَيْقِظُوا لِعشْقِ الغلامِ ذِي الطَّرْفِ النَّاعِسِ

فَحُبُّكَ المُرْدِ والصَّبِيانِ أَيْسَرُ مِنْ حُبِّكَ العَوَانِي دَوَاتِ الدَّلِّ وَالْحَقَرِ
فالمرد فِي كُلِّ وَقْتٍ لَا حِجَابَ لَهُمْ وَالْبَيْضُ تُحْجَبُ فِي بَيْضِ وَفِي سُمُرِ

لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ، وَتَتَحَقَّقَ وَتَفْهَمَ، أَنَّ العَفَافَ أَهْمُ مَا يَلْزِمُ العاشِقَ، وإِلا فَهُوَ بِاسْمِ الفاسِقِ أَحَقُّ وَأُوْلَى مِنْ اسْمِ العاشِقِ⁽³⁾.

وَمِنْ شَوَاهِدِ العَزَلِ بِالغلمانِ أَيْضاً قَوْلُ ابنِ الألويسيّ: "ثُمَّ خَتَمَ الكَلَامَ، وَتَرَكَ الفاعِلَ التَّارِكَ عِنْدِي الغلامَ، وَجَعَلْتُ أَعْلَاهُ بِرَفِيقِ كَلَامٍ، وَهُوَ يُعَلِّنِي بِرائِقِ غنَجٍ وَابْتِسامِ، وَيَعْبُرُ عَلَى قَلْبِي عَلَى جِسْرِ عِبَارَاتٍ، وَيَغْيِرُ عَلَى لُبِّي بِصَوادِمِ غَمَزٍ، وَأَسِنَّةِ إِشَارَاتٍ، فَنَزَعَ بِنَا هَوَاهُ شَوَى اخْتِياري قَبْلَ أَنْ تَشْوِي الشَّمْسُ كَبِدَ السَّمَاءِ، فَلَمْ يَطُوَ فِرَاشَ الفلكِ بِساطِ نَهاري، حَتَّى طَوَى عَشْقَهُ مَنِي فَواداً عَمِيقِ الأَرْجاءِ، فَنَسِيْتُ نَفْسِي، وَذَهَلْتُ ذَلِكَ اليَوْمَ عَن دَرَسِي"⁽⁴⁾.

وَيَتَجَاوَزُ ابنُ الألويسيّ الحُدُودَ عِنْدَ الحَدِيثِ عَنِ الغلمانِ، وَلَعَلَّ أَلْفاظَ المَقَامَةِ تَبَيَّنَ هَذَا التَّجَاوُزَ مِنْ نَاحِيَةِ، وَرِجاءِ الشَّيْخِ لَكُتْمِ سِرِّهِ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى، يَقُولُ: "وَلَمَّا كَادَ أَنْ يَحْسِرَ اللَّيْلُ لثامَ الظَّلَامِ، نادى الشَّيْخُ الخدمَ فَقَالَ اتَوْنَا بِالطَّعامِ...حَتَّى إِذَا قَعَدْتُ عَنِ الأَكْلِ الأَضْراسِ، وَقامَ

(1) يُنظَرُ، سَلِيمَ، عَصْرُ سِلاطِينِ المَمالِكِ وَنَتاجِهِ الأَدبِيِّ، (ج3/410).

(2) أَبُو عَلِيٍّ، الأَدبُ العَرَبِيُّ بَيْنَ عَصْرَيْنِ المَمْلُوكِيِّ وَالعُثمَانِيِّ، (ص148).

(3) ابنُ الألويسيّ، مَقاماتِ ابنِ الألويسيّ، (ص83).

(4) المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص91.

عن المائدة الجلّاس، فلَمَّا غُسِلَتِ الأيدي من أثر الطَّعام، هبَّ كلُّ من الحاضرين إثرَ ذلكِ إلى المنام، وقمت أنا، ووسدتُ الغلامَ يميني، وضممتهُ إلى صدري لأقيّه البردَ وبقيني، فنمنا وما علينا لحاف، إلا الصَّيانة والعفاف، ولم يوقظنا إلا حرُّ الهجير بلواه، وفانتنا صلاة الفجر وحسبنا الله، فاستنكمت الشَّيخَ سرِّي، واستأذنته في العود إلى مقرِّي، فحلف أن يكتم ما وقع إلى يوم الحساب⁽¹⁾.

ويسافرُ ابن الألويسيِّ بعيداً في النُّعزُل بالغلّمان، ويطلق العنانَ لقلمه ليتجاوز حدود أدب اللسان، فيجد في الغلمان بديلاً عن المدام، يَقُولُ: "والله العَظِيم نسمة صداع المدام، وأحداث ذلك من عاداتها منذ قديم الأيام، وهي أيضاً أحسن دواء لما أحدثته من داء، وإذا تعذَّر الآن استعمالها عليك، فهذا رضابي الذي هو خير منها بين يديك، فقلت لقد أعظمت عبَّ المنة، وآتيتني غبَّ ما أنستني بنعيم الجنَّة، فدنا مني، ووضع شفته على شفتي، فجعلت أرشف من هاتيك الشِّفاء ما هو لدى القلب أهم من ماء الحياة، حتَّى إذا ارتضعت، ومن ذباك البارد العذب تَضَلَّعتُ..."⁽²⁾.

عاشراً: المُفَاخَرَاتُ والمُنَاظَرَاتُ

المُفَاخَرَاتُ والمُنَاظَرَاتُ من الأَعْرَاضِ التِّي تَرْتَبِنُ بها أدب العَصْرِ العُثمانيِّ، وقد أبدع الكُتَّاب في تقديمها للقراء أيماً إبداع، فأنت تشعر، حينَما تنتقل بين تلك المُفَاخَرَات، وتتحرك بين فُصُول المُنَاظَرَات كأنك في ميدان معركة، أو ساحةٍ وَعَی، بيد أنك لا تعرف لمن ستكون الغلبة في نهاية المطاف، مع ما يصحب تلك المُفَاخَرَات والمُنَاظَرَات من شدِّ وجذب، وما تترتب به من روائع البيان، وسحر البديع، وعذوبة المؤسِّبِقا، وما يصاحبها من حسن اختيار الألفاظ، وجمال العبارات، وعمق المعاني، وروعة الصُّور والأخيلة.

وَلَعَلَّ من أشهر المُفَاخَرَاتِ والمُنَاظَرَاتِ التِّي أبدعها أدباء العَصْرِ العُثمانيِّ: (المفاخرة بين الشَّمْسِ والقَمَرِ) للشَّيخِ بهاء الدِّين البِيطار، و(المُفَاخَرَة بين الماء والهواء) للشَّيخِ أَحْمَد البَرَبير، و(عَرِيبُ الأَنْبَاءِ فِي مُنَاظَرَةِ الأَرْضِ والسَّمَاءِ)، و(نُضْرَة البَهَارِ فِي مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ)، و(أَبْهَى مَقَامَة فِي المُفَاخَرَة بين العُرْبَة والإِقَامَة) للشَّيخِ مُحَمَّدِ المُبَارَك، و(مناظرة بين العلم والجهل) للشَّيخِ مُحَمَّدِ الدِّييسيِّ الجزائريِّ.

(1) ابن الألويسيِّ، مقامات ابن الألويسيِّ، (ص108).

(2) المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص112. العبَّ: الشُّرب من غير مَصِّ، الغبَّ: العقاب، ذباك: مأوك، تَضَلَّعت: امتلأت شعباً ورباً. الجَوْهَرِي، الصَّحَّاح، (ج3/1251)، مادة (ضَلَع).

وَمِنْ رَوَائِعِ الْمُفَاخَرَاتِ (المُفَاخَرَةَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ) لِلشَّيْخِ أَحْمَدَ الْبَرْبِيرِ، الَّذِي شَرَعَ يَنْتَقِلُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ بِرَشَاقَةِ الْغَزَلَانِ، وَلِيُونَةِ الْأَغْصَانِ، وَرَقَّةِ الْفَرَاشَاتِ، يَتَحَرَّكُ حَرَكَةً رَقِيقَةً يَسِيرَةً عَلَيْهَا الْأَنْفَاقَةُ، يَقُولُ عَلَى لِسَانِ الْمَاءِ مُفَاخَرًا: "أَنَا أَوْلُ مَخْلُوقٍ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا لَذَّةُ الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةِ، وَيَوْمَ الْحِشْرِ، وَأَنَا الْجَوْهَرُ الشَّفَافُ، الْمُشَبَّهَ بِالسَّيْفِ إِذَا سُلِّ مِنَ الْغِلَافِ، وَقَدْ خَلَقَ اللهُ مِنِّي جَمِيعَ الْجَوَاهِرِ، حَتَّى اللَّالِئِ فِي الْأَصْدَافِ، أَحْيَى الْأَرْضَ بَعْدَ مَمَاتِهَا، وَأَخْرَجَ مِنْهَا لِلْعَالَمِ جَمِيعَ أَقْوَاتِهَا، وَأَكْسَوَ عِرَائِسَ الرِّيَاضِ أَنْوَاعَ الْحَلْلِ، وَأَنْثَرَ عَلَيْهَا لَالِيَّ الْوَبْلِ وَالطَّلَّ، حَتَّى يَضْرِبَ بِهَا فِي الْحَسَنِ الْمِثْلَ، كَمَا قِيلَ:

إِنَّ السَّمَاءَ إِذَا لَمْ تَبْكِ مُقْلَتْهَا لَمْ تَضْحَكِ الْأَرْضُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الزَّهْرِ

وَأَنَا الَّذِي أَقْتَلُ الْعَجُوزَ، وَأَذْهَبُ حَرَارَةَ آبٍ وَتَمْؤُزَ، وَقَدْ أَفْتَانِي الْأَفَاضِلُ: أَنَّ مِنْ دَخَلَ عَلَيَّ مِنْ بَابِ الْمَفَاخَرَةِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ، فَكَيْفَ يَنْكَرُ فَضْلِي مِنْ دَبِّ أَوْ دَرَجٍ، وَأَنَا الْبَحْرُ فَرَعِي، وَفِي الْأَمْثَالِ: حَدَّثَ عَنِ الْبَحْرِ وَلَا حَرْجَ. وَأَمَّا أَنْتَ أَيُّهَا الْهَوَاءُ، فَكَمْ ذَهَبْتَ فِيكَ نِصَائِحُ النَّصَاحِ، كَمَا قَالَ ابْنُ هَرْمَةَ:

وَبَعْضُ الْقَوْلِ يَذْهَبُ فِي الرِّيَاحِ

وَلَعَمْرِي إِنَّهُ لَا يَفِي قَبُولِكَ بِدَبُورِكَ، وَلَا تَقُومُ جَنَّتِكَ بِسَعِيرِكَ، وَلَطَالَمَا أَهْلَكْتَ أَمَمًا بِسَمُومِكَ وَزَمْهَرِيرِكَ، فَكَمْ تَوَاتَرَ عِنْدَكَ حَدِيثٌ تَشْمَتُّ مِنْهُ النَّفْسُ، وَتَمَجُّهُ الْأُذُنُ، وَحَسْبُكَ مِنَ الْعِنَادِ أَنَّكَ تَجْرِي بِمَا لَا تَسْتَهِي السَّفِينُ. وَأَنْتَ الْمَوْلَعُ بِرُقُصِ الْجَوَارِي كَفَعَلَ الْفَسَاقِ، وَأَنْتَ الَّذِي تَهِيحُ الثَّرَابَ وَتَغْرِي النَّارَ بِالْإِحْرَاقِ، كَمَا قَالَ فِيكَ ابْنُ الرَّؤْمِيِّ:

لَا تُظْفِنَنَّ جَوَى بَلُومٍ، إِنَّهُ كَالرِّيْحِ يُغْرِي النَّارَ بِالْإِحْرَاقِ⁽¹⁾.

وَمِنْ عِيُوبِكَ أَنَّكَ لَا تَسْكُنُ وَلَا يَقْرُ لَكَ قَرَارٌ، وَلَمْ تَفْهَمْ الْإِشَارَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:13]. وَقَدْ ضَرَبَتْ الْعَرَبُ بَعْدَ اسْتِقَامَتِكَ الْأَمْثَالَ، كَمَا نَقَلَ عَنْهُمْ أَصْحَابُ الْقِصَصِ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ:

إِنَّ ابْنَ آوَى لَشَدِيدُ الْمُقْتَنَصِ وَهُوَ إِذَا مَا صِيدَ رِيحٌ فِي قَفْصِ

(1) ابْنُ الرَّؤْمِيِّ، دِيُونَابْنُ الرَّؤْمِيِّ، (ج2/472).

وأما قولك: لولايَ لما عاش إنسانٌ، ولا بقي على الأرض حيوانٌ. فجوابه: لو شاء الله لعاش العالم بلا هواء، كما عاش عالم الماء في الماء⁽¹⁾.

أما قلائدُ المناظراتِ فيتوسطها (نُضْرَةُ الْبَهَارِ فِي مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) للشيخ مُحَمَّدُ الْمُبَارَكِ، وقد قَدَّمَ لها الْمُبَارَكُ بِقَوْلِهِ: "فهي مقامةٌ بديعةٌ تُغني عن مقاماتِ الْبَدِيعِ، ومقالةٌ ظريفةٌ تحتوي على بديعِ المحاسن، ومحاسنِ الْبَدِيعِ. بل فُكاهةٌ أحلى من عيشِ الصَّبَا، ونفثةٌ أرقُّ من نسيمِ الصَّبَا، أخلصت في حسنِ تخلصها لمدح أميرِ المغرب، وضممتها معنى المرقصِ والمطرب، فهي عنقاءٌ مُغْرِب. وسميتها: "نُضْرَةُ الْبَهَارِ فِي مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ"⁽²⁾.

ثمَّ بدأ المحاورَ إثر ذلك متحدِّثاً بلسانِ اللَّيْلِ قائلاً: "أحمد من جعلني خلوةً للأحباب، وجلوةً لعرائسِ العرفانِ ونفائسِ الآداب. وخلقني مثوىً لراحةِ العباد، ومأوىً لِخَاصَّةِ النَّسَاكِ وَالْعُبَادِ، والله دُرٌّ من قال فأجاد:

أَيْهَا اللَّيْلُ طُلْ بِغَيْرِ جُنَاحٍ لَيْسَ لِلْعَيْنِ رَاحَةً فِي الصَّبَاحِ
كَيْفَ لَا أَبْغِضُ الصَّبَاحَ وَفِيهِ بَانَ عَنِّي نُورُ الْوُجُوهِ الصَّبَاحِ

أتردّد على أربابِ المجاهدةِ بفنونِ الغرائب، وأتودّد إلى أصحابِ المشاهدةِ بعيونِ الرغائب، تدور في ساحتهم بدورِ الحسنِ والبهاءِ، وتُدار في راحتهم كؤوسِ الأُنسِ والهناءِ، فتُحييهم نغماتُ السَّمْرِ، وتُحييهم نسَمَاتِ السَّحْرِ. فأحياناً وَصَلِي بِاللَّهَانِي مَقْمَرَةٌ، وَأفنانُ فَضْلي بِالْأَمَانِي مَثْمَرَةٌ، وحسبي كرامةً أَنِّي لِلنَّاسِ خَيْرِ لِبَاسٍ، أَقِيهِمْ بِلُطْفِ الْإِيْناسِ مِنْ كُلِّ بَاسٍ. ومن واصلِ الإِدْلاجِ وَهَجَرَ طِيبِ الْكِرَى، قيل له: (عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى):

وَمَا اللَّيْلُ إِلَّا لِلْمُجَدِّ مَطِيَّةٌ وَمِيدَانُ سَبْقِي فَاسْتَبِقْ تَبْلُغُ الْمُنَى

ففتنَّ بِمَعَانِي بِيَانِهِ الْبَدِيعِ، وتفنَّنَ في أَفانِينِ النَّصْرِيعِ وَالتَّرْصِيعِ. ثمَّ أتمَّ خُطْبَتَهُ بِالتَّماسِ الْمَغْفِرَةِ وَالْعَفْوِ، واستعاذَ بِاللهِ مِنْ دَوَاهِي الْغَفْلَةِ، ودواعيِ الْلهوِ⁽³⁾.

لقد وُلِدَ الْإِبْدَاعُ مِنْ رَحْمِ الْمَفَاخِرَاتِ، وَالْمُنَاطَرَاتِ، فَالْمَتَقَلُّ بَيْنَ فَيَافِيهَا يَبْصُرُ أَرْوَغَ الْأَلْفَافِ، وَيَلْمَحُ أَجْمَلَ الْمَعَانِي، وَيَتَسَمُّ أَرْقَ الْأَخْيَلَةَ، وَيَسْمَعُ أَعْدَبَ الْمُوسِيقَا، كَيْفَ لَا؟ وَكُلُّ

(1) الطَّيَّانِ، الْمَفَاخِرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (مَقَامَةٌ فِي الْمَفَاخِرَةِ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ)، (ص32، ص33). الْوَيْلُ: الْمَطْرُ

الشَّدِيدِ الضَّخْمِ الْقَطْرِ، وَالطَّلُّ: الْمَطْرُ الْخَفِيفُ

(2) الطَّيَّانِ، الْمَفَاخِرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (نُضْرَةُ الْبَهَارِ فِي مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)، (ص124).

(3) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص126.

مفاخرٍ حاول أن يدلي بدلوه بأجمل ما يمتلك، وَيَرَسِمُ بريشته أروع ما يستطيع، ويخرج من جعبته أقوى ما يحتفظ، وَمِنْ هُنَا أنتجت المنافسة الإبداعَ، وجاء المخاضُ بمولودِ امتلاكِ كلِّ صفاتِ الحسنِ، والجَمالِ، حَيْثُ أضاف هَذَا الفَنُّ إِلَى الأدبِ العُثمانيِّ إضافاتٍ رائعةً في أبواب الألفاظ، والمعاني، والصُّورِ والأخيلةِ.

حادي عشر: ما لا يستحيل بالانعكاس

مُصْطَلَحُ (ما لا يستحيل بالانعكاس)، أو (القلب المستوي)، أو (مقلوب الكل) هو نوعٌ من البيان، والتلاعب الدقيق بالحروف، أو بالكلمات، يكون في الغالب على صورة جملٍ متناظرة الأحرف، أو الكلمات، وقد يكون أحياناً على شكل كلماتٍ متناظرة الأحرف تُقرأ في الاتجاهين من اليمين، ومن اليسار فلا يتغير معناها مثل كلمة (نون)، وَمِنْهَا قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَرَبِّكَ فَكَّرٍ﴾ [المدثر: ٣]، ويعرّف العلويُّ ما لا يستحيل بالانعكاس بقوله: "هو الذي أوله، وآخره على جهة الاستواء، وهو قليلٌ نادرٌ صعب المسلك، وعُرِّ المرتقى، لا يكاد يأتي به إلا من أفلق في البلاغة، وتقدّم في الفصاحة"⁽¹⁾.

كَمَا بَرَعَ الشعراءُ في ابتداعِ فنونٍ جديدةٍ، برع مثلهم أدباءُ المقامة، فقد خاضوا كذلك في فنون الأدب، والبلاغة، وَمِنْ شَوَاهِدِ هَذَا النوعِ قولُ ناصيف اليازجي: " فأخذوا يتناولونَ الفنونَ، ويبرزون كلَّ مكنون، حتى خاضوا في فنِّ البديع، وأفاضوا في التّجنيس، والتنويع، فكان في صدر الحلقة، شيخُ أفضسُ العربيّة، كأنه أحدُ الأغرّية، فقال: قد علمتم أيُّها النَّاسُ، أنَّ أعظمَ الجِناسِ، ما لا يستحيل بالانعكاس، فمن ظفر بفرائده الحسنى، فاز بالمقام الأسنى، وسلّم له البديع لفظاً ومعنى... ثمَّ أنشد يقولُ:

قَمَرًا يَفْرِطُ عَمَدًا مَشْرِقُ	رَشَّ مَاءٍ دَمَعُ طَرْفٍ يَرْمُقُ
قُرْطُهُ يَفْدِي جَلَاهُ أَيْمَنُ	مِنْ مِيَاهِ الْجِيدِ فِيهِ طُرُقُ
قَبَسٌ يَدْعُو سَنَاهُ عَنِ جَفَا	فَجَنَاهُ أُنْسٌ وَعَدٍ يَسْبِقُ
قَدْ حَلَا كَاذِبٌ وَعَدٍ تَابِعِ	لِعِبَاءٍ تَدْعُو بِذَلِكَ الْحَدَقُ
قَرَحَتْ ذَا عِبْرَاتٍ أَرْبَعِ	عَبْرَاتٍ أَرْبَعِ إِذْ تُحْرِقُ

(1) العلوي، الطراز، (ص 446).

وواصل فقال: أعوذ بالله من زلّة العمد، وسفاهة العبد، إنّي نظمت بينين لبعض الأُمراء،
طردهما مديح، وعكسهما هجاء... وأنشد:

كَرَمًا قَدِيرٌ مُسْنَدٌ
غُنْمٌ لَعْنُكَ مُرْفِدٌ

بَاهِي الْمَرَّاحِمِ لِأَبْسٍ
بَابٌ لِكُلِّ مُؤَمِّلٍ

ثمّ عمد إلى قلبهما، فأذا هو يقولُ بهما:

كَسَبَ الْمَحَارِمِ لَا يَهَابُ
نَعْلُ مُؤَمِّلٍ كُلِّ بَابِ

دَنَسٌ مَرِيدٌ قَامِرٌ
دَفِرٌ مَكْرٌ مَعْلَمٌ

قال: فاستقرت القوم تلك الصنّاعة العذراء، وقالوا: علم الله أنّها لأغرب من العنقاء، ثم أقبلوا
على الرّجل يرحمونه بالأحداق، وقالوا: فذاك أهل العراق، فمن أنت ومن أيّ الآفاق⁽¹⁾.

ولعلّ ما يميّز هذا النوع أنّه غالباً "ما يأخذ شكل النّسق الرّياضيّ، أو الترتيب الهندسيّ،
وهو يقوم في تركيبه على نمطٍ تكراريّ في الحُرُوف والكلمات، وقد أطلق عليه السّكاكي (مقلوب
الكلّ)، وهو أن تعاد فيه قراءة الكلمات من آخر حرفٍ، فنجد المعنى بتمامه دون تغييرٍ في
الشكل، والدّلالة"⁽²⁾.

لقد تفرّد الأدباء العُثمانيّون بهذا النوع، حيثُ كان لهم قصب السّبِق في هذا الفنّ، فقد
حمل هذا اللون من الغرابة والتّمكّن ما يبهر العقول، فهو يعتمد على التّقدير المرسوم بدقّة
صناعيّة، وإمكاناتٍ راقيةٍ قلّ أن يمتلكها المبدعون، حتى قيل إنّه "لونٌ بديعيّ هو أشبه بألعاب
الصّعار، وأحاجي الكبار"⁽³⁾.

هذه هي المقامة، وتلك هي ظروف نشأتها، وعوامل ازدهارها في العصر العُثمانيّ،
حيثُ غدّت النّصوصُ المقاميّةُ علامةً بارزةً في الأدب العربيّ على مرّ العصور، وقد تفوّق عددٌ
كبيرٌ من الأدباء في هذا الميدان، كتب هؤلاء فأبدعوا، ونظموا ففاقوا، وخطّوا فتفوّقوا أحياناً على
سابقهم، وفتحوا أبواب الإبداع لتابعيهم، فلم يكن الأدباء مجردَ أسماءٍ ظهرت في العصر
العُثمانيّ ألقت أعمالها دونما اكتراثٍ، ولكن حفر هؤلاء أسماءهم بحروفٍ من الذهب بما قدّموه

(1) يُنظر، اليازجيّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (المقامة البصرية)، (ص155- ص160). العرتبة: الأنف، الفرائد: الدرر
الكبيرة في العقد، الأسنى: الأشرف.

(2) عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، (ص298).

(3) المرجع السابق، ص298.

من نصوصٍ مقاميةٍ ألفت بظلال جمالها على ذلك العصر، ونشرت نسائم عبيرها في كل بقعةٍ من بقاع الوطن الكبير، ففي كلِّ مقامةٍ كانت أمطارُ الإبداعِ تتساقطُ، ودُررُ الجواهرِ تتناثرُ، وِغَدَتِ سيولُ الجَمالِ تتدفَّقُ، وارتدَّت مواردُ البهاءِ تنتشر في شتَّى الأصقاع ينهل منها المُتَعَطِّشُونَ، ويردها البَاحِثُونَ، أدباءٌ وأدباءٌ حملوا رايات الإبداع، وانطلقوا بها على صهوات خيولهم؛ ليجوبوا الفلوات والفيافي، ويقطعوا الوهادَ والرَّوابي، ينشروا نتاجهم في كلِّ زمانٍ، ويعلقوا لوحاتِ روائعهم في كلِّ مكانٍ.

مثلما برع الأدباء في اختيار أسماء مقاماتهم، برعوا كذلك في انتقاء موضوعاتهم، ولعلَّ ما يميِّز هؤلاء أنَّ موضوعاتهم كانت بمثابة تمثيل للواقع في كلِّ مظهره، وفي شتَّى جوانبه، قَصَدُوا السِّيَاسَةَ والسَّاسَةَ، فصوَّروا المشهدَ كأزوع ما يكون التصوير، وتوغَّلوا في أعماقِ المجتمع، فرسموا صورته كأجمل ما يكون الرِّسم، وارتحلوا صوب الموضوعات السلوكية والأخلاقية، فوضعوا دستوراً في مكارم الأخلاق، وكريم الصفات، نوعوا فأصابوا الهدف، وشكَّلوا باقةً تتناسب كلُّ الأذواق، فعاشوا حياة الأطباء، وسيرة الأدباء، ونسجوا خيوط التشويق في الأحاجي والألغاز، وغادروا صوب النجوم والأفلاك، وارتحلوا عبر الوصفِ إلى باحات القصور، والحياض، وساحات الحدائق والرياض، ومن قلب الجنان تغنَّوا بالغيد، والحسان، ذوات الطول الفارع، والجَمالِ البارِع، فاخروا وناظروا، وحاوروا وناقضوا، ووضعوا في النهاية مشهد النهاية، ونهاية المشهد، بروائع ما لا يستحيل بالانعكاس، فأضحت مقاماتهم موسوعةً يقصدها الدارسون، وينلمس خطاها الباحثون.

الفصلُ الثَّانِي
التَّشْكِيلُ البَيَانِيُّ
فِي
المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةِ

الفصل الثاني: جماليات التشكيل البياني في المقامات العثمانية

المقامات حديقة غناء غنية بالتصوير الحقيقي، ومنهل فياض للتصوير الخيالي، وعالم متكامل يجمع بين الحقيقة والخيال. فإذا ما قلبنا صفحات المقامات فإنه بإمكاننا أن نلمح الحوادث المحسوسة، والمشاهد المنظورة، كأنها لوحة فنية متكاملة نتلمس فيها الجمال، ونحس فيها الإبداع، ونرى فيها الحسن والبهاء، ونسمع فيها عذب الغناء، ونتذوق فيها الروعة، والصفاء.

وهي عالم من سحر البيان، فيها الاستعارة التي طالما سحرت القارئ، والتشبيه الذي يخلب ألباب السامعين، والكناية التي تبهر أفئدة المبدعين، والمجاز المرسل الذي يدهش مخيلة المتعاطفين، وفيها الصورة التي تبهر الفصحاء المتميزين، والدارسين المتفوقين، وتبطل دعاوى من كانوا على العصر العثماني جائرين، لا مكان للضعف الذي ترد على ألسنة الباجئين، ولا متسع للانحطاط الذي وسم به على أيدي بعض المنتقدين، ولا مساحة للألوان المجردة، والخطوط الجامدة.

وإذا أردت أن ترى قمة الإبداع في التصوير، فلنك أن تتلمس أية صورة جزئية؛ لتلمح فيها جمال الاستعارة، وروعة التشبيه، وحسن المجاز المرسل، وجلال الكناية، وعليك أن تبصر أية صورة كلية؛ لترى عبرها الألوان المبهرة، وتسمع خلالها الأصوات العذبة، وتحس صوبها الحركات الرائعة، وتقف على مواضع الجمال المتفرقة، فتتابعها العين، والأذن، والخيال.

إن المقامات إذا ما قورنت بالأجناس الأدبية الأخرى، فإننا نجدتها تحمل سمات متفردة، وخصائص متنوعة في التعبير تميزها عن باقي الفنون، وهذا ما نجده عند تطوافنا بين صفحاتها، وتحركنا بين سطورها.

وإذا انتقلنا إلى التصوير الفني في النصوص المقامية؛ فإننا حتماً سنجد أنه يمثل الأداة المفضلة لدى كثير من الأدباء في هذا الميدان. كما أن الانتقال بين صفحاتها بإمكانه أن يرى المشاهد أمامه ماثلة، يسمع خلالها الأصوات، ويتابع الحركات، والسكنات، ويتفاعل مع القصص، والروايات فينسى المستمع أن هذا الكلام يقرأ، ويتخيل أنه مشهد يعرض، وحادث يقع، وشخص تتحرك في أمكنة ظاهرة، وأزمنة بائنة. فأما الحوادث والمشاهد، والقصص، والمناظر، فيراها شاحصة حاضرة؛ فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخيل. فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول الذي وقعت فيه، أو سنقع حيث تتوالى المناظر، وتتجدد

الحركات، وينسى المستمع أن هذا كلام ينلّ، ومثل يضرب، ويتخيّل أنّه منظرٌ يُعرضُ، وحادثٌ يقعُ. فهذه شخصٌ تروحُ على المسرح وتغدو، وهذه سماتُ الانفعالِ بشتّى الوجداناتِ، المنبعثة من الموقّفِ، المتساوقة مع الحوادثِ، وهذه كلماتٌ تتحرّكُ بها الألسنةُ فتنمُّ عن الأحاسيسِ المضمرّةِ. إنّها الحياةُ هنا، وليست حكاية الحياة⁽¹⁾.

ومشاهدُ التّصويرِ لونٌ، وشكلٌ، ومعنى، وحركةٌ، وقد تكون الحركةُ أصعبَ ما فيه؛ لأنّ تمثيلها يتوقّفُ على ملكةِ الناظرِ، ولا يتوقّفُ على ما يراه بعينه، ويدركه بظاهر حسّه، ووصفِ الحركةِ كما يقولُ البلاغيون: "من بديعِ التّصويراتِ وجليلها؛ لأنّ التقاطها وهي جادةٌ في حركتها، واضطرابها دليلُ المقدرة، والوعي، وقوّة الملاحظة، ثم تصويرها وهي تتحرّكُ أعنى المحافظة على هذه الحركةِ الحيّةِ الباعثةِ للنفسِ، والتي تنفي عنها مللَ الجمودِ ملكةٌ أخرى"⁽²⁾.

إنّ الحديثَ عن التّصويرِ الفنيّ في المقاماتِ يطولُ، وتأثيره في العقلِ والقلبِ يستحيلُ أن يُنكره ذو لبٍّ، أو يجحده صاحبُ رشدٍ. فالتّصويرُ فيها له جماليّاتهُ الفنيّةُ التي تؤثرُ في العقلِ، والقلبِ معاً. فهي تخاطبُ الدّهْنَ في أرقى عملياته الفكرية والإدراكية، وتخرقُ كوامنَ الوجدانِ فترقّفه؛ حتى يصبحَ صافياً حياً، ونابضاً متألّقاً. ومن ثمّ يكونُ المنطقُ التّأثيريُّ آخذاً بالنفسِ البشريّةِ، متمكناً لجوانبها، وأبعادها.

والتّصويرُ في المقاماتِ ملمحٌ متكاملٌ الأبعادِ، محكمُ الجوانبِ، نرى فيه جمالَ التّصويرِ، ونلمحُ روعةَ السبكِ، ونسمعُ عذبَ الموسيقى، ونتمتعُ فيه بجمالِ قطعةٍ فنيّةٍ بارعةٍ، أضفْ إلى ذلك أنّ الرّغبةَ تتفجّرُ في تشكيلِ الصّورةِ عندَ كثيرٍ من الأدباءِ، فنتعدّدُ محاولاتِ التّصويرِ، وتتنوّعُ مجالاتُ الرّسمِ، وتزدادُ الرّغبةُ لدى هؤلاءِ في رسمِ المزيدِ من اللّوحاتِ الفنيّةِ، فتنشعبُ أعمالهم بكثيرٍ من روائع التّشبيهِ، وتتدفّقُ مقاماتهم بعيونٍ عذبةٍ من بديعِ الاستعارةِ، وتحدّرُ شلالاتُ الكنايةِ في مشهدٍ مُبهرٍ؛ لتتصهّرَ هذه الصّورُ جميعاً في بوتقةٍ مثيرةٍ لا يضاهاها إثارة، وتلتئمُ في باقةٍ عاطرةٍ لا يدانيها باقة، فتغدو هذه الصّورُ شُموساً مشرقةً، ونجوماً متلألئةً، ونسائمَ طيبةً يفوح شذاها في كلّ مكانٍ، ويتنسمُ غيرها القارئونَ في كلّ زمانٍ.

تتقلبُ المشاهدُ، وتتشكّلُ الصّورُ في المقاماتِ كأزوع ما يكون التّشكيلُ، فمن تشبيهٍ مختارٍ إلى استعارةٍ منتقاةٍ، ومن كنايةٍ لطيفةٍ إلى تعريضٍ مبهرٍ، ومجازٍ مرسلٍ مؤثّرٍ.

(1) قطب، التّصويرِ الفنيّ في القرآن، (ص36).

(2) أبو موسى، التّصويرِ البيانيّ، (ص51، ص52).

وتظهر ألوان البيان بأنواعها كافةً في الفنون الأدبية بصفة عامة، وفي المقامات العُمانيّة بصفة خاصّة، والتشكيلات البيانيّة التي تضمّنتها المقامات هي:

المبحث الأول: التشكيل التشبيهي

يُعدُّ التشبيه من الأساليب البيانيّة المميّزة، وهو وسيلة رئيسة من وسائل تشكيل الصور الفنيّة في النّصّ الأدبيّ؛ إذ يزداد به المعنى رفعةً وشأنًا، ويبرزه إيضاحاً وبياناً، ويكسبه تأكيداً وبلاغةً، إنّه بمثابة الوعاء الكبير الذي يستوعب الأفكار والمشاعر، فيستحيل في يد الأديب أداةً طيّعةً في كلّ غرضٍ من أغراض الكلام التي يريد التعبير عنها، وهو من أكثر الألوان البيانيّة دوراناً في الأدب العربيّ، لذلك احتلّ مكانةً مرموقةً بين غيره من أساليب البيان، فهو "ومضة الإنارة التي ينكشف المعنى عبرها بجلاءٍ، ولكن لهنيهة فحسب، وذلك ليترك لخيال المتلقّي أن يبحث عن الترابطات" (1) التي تحقّق فنيّةً راقيةً راقيةً نظراً لما تحمله من عواطف عميقة، وأحاسيس مرهفة.

والتشبيه أحد ألوان البيان في البلاغة العربيّة، وقد تناول معظم علماء البلاغة هذا اللون، واستطردوا في شرح تقسيمات التشبيه، وضروبه. وتعمّق كثيرٌ منهم في رصد القيم الجماليّة للتشبيه، وبيان مواطن الحسن والقبح، وإظهار محاسن التشبيه ونقده، وذكر أمثلة من مליح التشبيه، وعقيمه. والحديث حول التشبيه يطول، إذ يستحيل أن تحتويه صفحات معدودة، أو تستوعبه وريقاتٌ محدودة.

وتعريفات التشبيه لا تكاد تحصى عدداً، وإن كانت رَغَمَ كثرتها تلتقي جميعها في نقطة واحدة، أو تكاد تلتقي، وهذه النقطة هي مشاركة المُشَبَّه للمُشَبِّه به في صفةٍ أو أكثر، ومن هذه التعريفات: "الدلالة على مشاركة أمرٍ لأمرٍ آخر في معنى" (2)، ويتوسّع الفيرواني في مُفردات التعريف قائلًا: "التشبيه صفةُ الشيء بما قاربه وشاكله من جهةٍ واحدة، أو جهاتٍ كثيرةٍ لا من، جميع جهاته؛ لأنّه لو ناسبه كليّةً لكان إيّاه" (3). ومن هنا فإنّ التشبيه هو الدلالة على أنّ شيئاً أو أشياءً شاركتُ غيرها في صفةٍ، أو أكثر بواسطة أداةٍ من أدوات التشبيه.

(1) اليوسف، مقالات في الشعر الجاهليّ، (ص 260).

(2) القزويني، الإيضاح، (ص 328).

(3) الفيرواني، العمدة، (ج 2/286)، القزويني، الإيضاح، (ص 328).

أما القِيَمَةُ الْجَمَالِيَّةُ لِلتَّشْبِيهِ فلا يمكن أن يغفلها أحدٌ، فهو بابٌ من أبوابِ البَلَاغَةِ أثنى عليه النُّقَادُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَذَلِكَ؛ لِمَا لَهُ من أثرٍ عظيمٍ في بناءِ الصُّورَةِ الأدبيَّةِ، ورسمِ اللُّوْحَةِ الفنيَّةِ الرَّائِعَةِ المؤثِّرةِ في العواطفِ، والمشاعرِ الإنسانيَّةِ؛ لِأَنَّ التَّشْبِيهَ من الفُنُونِ التَّصَوُّيرِيَّةِ يُضفي بهاءً، وجمالاً عَلَى الأسلوبِ، ويمنحه الطَّرَافَةَ، والجِدَّةَ، والابتكارَ، ويخلع عليه القوَّةَ، والمُنَعَّةَ، والحَرَكََةَ، والنَّشَاطَ⁽¹⁾.

والقَرَوِينِيُّ أورد في القِيَمَةِ الفنيَّةِ لِلتَّشْبِيهِ قولَهُ: "فاعلم أَنَّهُ ممَّا اتَّفَقَ العقلاءُ عَلَى شرفِ قدرِهِ، وفخامةِ أمرِهِ في فنِّ البَلَاغَةِ، وأنَّ تعقيبَ المَعَانِي به - لاسيَّمَا قسمُ التَّمثِيلِ منه - يضاعفُ قواها في تحريكِ النُّفُوسِ إِلَى المَقْصُودِ بها مدحاً كَانَتْ، أو ذمّاً، أو افتخاراً، أو غيرَ ذلك"⁽²⁾.

ويدورُ أَحْمَدُ الهاشميُّ فِي نَفْسِ الدَّائِرَةِ حَيْثُ يرى أَنَّ: "لِلتَّشْبِيهِ موقِعاً حسناً في البَلَاغَةِ، وَذَلِكَ لإخراجه الخفيِّ إِلَى الجليِّ، وإدنايهِ البعيدِ من القريبِ، يزيدُ المَعَانِي رفعةً ووضوحاً، ويكسبها توكيداً وفضلاً، ويكسوها شرفاً ونبلاً. فهو فنٌّ واسعُ النِّطاقِ، فسيحُ الخطوةِ، ممتدُّ الحواشي، متشعبُ الأطرافِ، متوعرُ المسلكِ، غامضُ المدركِ، دقيقُ المجرى، غزيرُ الجدوى"⁽³⁾.

والنُّصُوصُ الأدبيَّةُ تعتمدُ فِي تَشْكِيلِ الصُّورِ الفنيَّةِ عَلَى الأساليبِ البَيَانِيَّةِ، إذ تتخذُ الألفاظُ والعباراتُ شكلاً فنياً بعد أن ينظمها الأديبُ في سياقٍ بيانيٍّ خاصٍ يعتمدُ عَلَى الأساليبِ البَيَانِيَّةِ المُخْتَلِفَةِ (التَّشْبِيهِ، الاستِعَارَةَ، والكِنَايَةَ)، وقد وظَّفَ كِتَابُ المَقَامَةِ العُثمانيَّةِ هذه الوسائلَ فِي مَقَامَاتِهِمْ؛ إذ نجدُ هَوْلَاءِ يحشدونَ في رسمِ صورٍ فنيَّةٍ تطرُّزُ مقاماتهمُ بقيمةً فنيَّةً عليا، وتعينهم عَلَى نقلِ أفكارِهِمْ، ومَعَانِيهِمْ نقلاً مجازياً يهزُّ الوجدانَ، ويحركُ الشُّعُورَ.

وَيُعَدُّ التَّشْبِيهُ من الأساليبِ البَيَانِيَّةِ الَّتِي استعانَ بها أدباءُ المَقَامَةِ كَثِيراً فِي تَشْكِيلِ صورِهِمْ، وإبرازِ قيمتها البلاغيَّةِ، والفنيَّةِ، لِمَا لهذا الفنِّ من قيمةٍ عليا في التَّشْكِيلِ التَّصَوُّيرِيِّ، فهَذَا التَّشْكِيلُ "محاولةٌ بلاغيَّةٌ جادَّةٌ لصقلِ الشُّكْلِ، وتطويرِ اللَّفْظِ، ومهمته تقريبُ المَعْنَى إِلَى الدَّهْنِ بتجسيده حياً، ومن ثمَّ فهو ينقلُ اللَّفْظَ من صورةٍ إِلَى أُخْرَى عَلَى النُّحُوِّ الَّذِي يريده المصوِّرُ"⁽⁴⁾.

(1) الجري، البَلَاغَةُ التَّطْبِيقِيَّةُ - دراسة تحليلية لعلم البيان، (ص126).

(2) القَرَوِينِيُّ، الإِبْضَاحُ، (ص328، ص329)، يُنظَرُ: الزُّرْكَشِيُّ، البرهان في علوم القرآن، (ج3/472).

(3) الهاشمي، جواهر البَلَاغَةِ، (ص219).

(4) الصَّغِيرُ، الصُّورَةُ الفنيَّة في المثل القرآني، (ص180).

إنَّ المتتبعَ لَفَنِّ المَقَامَةِ يجدُ أنَّ التَّشْبِيهَ من أقوى الوسائلِ البلاغِيَّةِ الَّتِي اعْتَمَدَهَا كِتَابُهَا فِي تَشْكِيلِ صُورِهِمْ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى قَدْرَتِهِمُ الفَائِقَةِ فِي رَسْمِ الصُّورِ البَيَانِيَّةِ خَاصَّةً التَّشْبِيهِيَّةِ؛ إذ امتلكَ هؤلاءُ زمامَ أساليبِ البَيانِ، وأطلقوا العنانَ لقرائِحِهِم لتجودَ بأجملِ الصُّورِ، بل بأجملِ اللُّوحَاتِ الفَنِّيَّةِ الَّتِي توشَّحت بأزوعِ التَّشْكِيلاتِ التَّشْبِيهِيَّةِ رغبةً فِي متعةِ السَّامِعِينَ، المتلهِّفِينَ إِلَى تذوقِ جَدِيدِ المَقَامَاتِ فِي عَصْرِ غلبِ عَلى أهلهِ حُبِّ الجَمالِ، والسَّيرِ فِي دُرُوبِ الحِسنِ، والجَلالِ.

البُنى التَّشْبِيهِيَّةُ المُرْسَلَةُ

إنَّ فَنِّ المَقَامَةِ فِي العَصْرِ العُثمانيِّ زاخرٌ بالتَّشْبِيهاتِ، فقد أسهمت البُنى التَّشْبِيهِيَّةُ فِي تَشْكِيلِ صُورٍ مُكْتَنِزَةٍ بالأبعادِ الدَّلاليَّةِ والرُّويويَّةِ نثيرِ إحياءاتٍ فكريَّةٍ مُتنوِّعةٍ، وهي تهدفُ مِنْ خِلالِ استخدامِ التَّشْبِيهِ إِلَى التَّصوِيرِ، والتَّأثيرِ مَعاً بِحَيْثُ تُمَثَّلُ أَمَامَنَا الصُّورَةُ البَيَانِيَّةُ كَأَنَّهَا مرئيَّةٌ. وقد برعَ أدباءُ المَقَامَاتِ فِي رَسْمِ اللُّوحَاتِ الفَنِّيَّةِ فِي نُصُوصِهِم، وَهُنَا نرى اليَازجِي يوظِّفُ التَّشْبِيهَ فِي المَقَامَةِ القُدسيَّةِ توظيفاً رائعاً، فينقلُ مَشْهُداً تشبِيهياً يحملُ فِي ثَنائِها ملامحاً من ملامحِ العَصْرِ؛ ليرسمَ صورةً تبدو ماثلةً للعيانِ، ومرئيَّةً للسَّامِعِينَ: "والنَّاسُ قد تألَّبوا عليه كالأجربينِ، وأحاطوا به كالأخشبينِ... فانقضت إليه كالأجدلِ، وسقطت عليه كالجنْدلِ"⁽¹⁾.

وتتجلى عظمةُ ناصيفِ اليَازجِي وطاقتهُ التَّخيلِيَّةُ العالِيَّةُ فِي تَشْكِيلِ الصُّورِ التَّشْبِيهِيَّةِ، فها هو يسافرُ بعيداً فِي (المَقَامَةِ الهزليَّةِ)؛ ليشكِّلَ لوحةً تشبِيهِيَّةً بارعةً من واقعِ الحَيَاةِ: "قَبِينَمَا ألقِيْتُ وسادي، وتلقِيْتُ مائي وزادي، سمعتُ غطيظاً كأطيظِ البعيرِ، وزفراةٍ تتصاعدُ كالرَّفِيرِ"⁽²⁾. وَمِنْ شَوَاهِدِهِ أَيْضاً: "ولمَّا لم أجدُ من تروقِ بعيني، أزمعتُ الاغترابَ، وبكَّرتُ بكورِ الغرابِ"⁽³⁾.

أبدعَ الأدباءُ فِي رَسْمِ صُورٍ تشبِيهِيَّةٍ منتزعةٍ من الواقعِ الماديِّ، ومن حياةِ الإنسانِ الَّذِي يرى الأنينَ والبكاءَ مِنْ أُمَّمِ المُفْرَدَاتِ الَّتِي تدلُّ دلالةً واضحةً عَلى الحزنِ والألمِ، وَذَلِكَ لَمَّا رَبطَ حزنه بحياةِ التَّكاليِّ، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ ناصيفِ اليَازجِي فِي (المَقَامَةِ القُدسيَّةِ): "قَآنَ أنِيناً

(1) اليَازجِي، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ القُدسيَّةِ)، (ص 420).

(2) اليَازجِي، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ الهزليَّةِ)، (ص 80). الغطيظ: صوت النائم من خياشيمه، الأطيظ: صوت البعير من ثقل حملة، الرَّفِير: صوت لهب النار.

(3) المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 101.

كأنين التُّكلى، ورفع طرفه إلى الأفق الأعلى⁽¹⁾، حيث رسم مشهداً حياً من مشاهد البيئة العريية التي لا يجهلها أبناؤها. وكذلك "الصدقُ خمرٌ مزاجها الكذب، والجهلُ ثوبٌ طرازه اللعب"⁽²⁾.

ولم يبرح اليازجيّ مشاهد مألوفة في تشكيلِ البنى التَّشبيهيّة مستثمراً طبيعة الإنسان العربيّ التي تأنسُ بلقاء الأحبّة، وتبتهجُ بزيارتهم، ومن روائع التَّشكيلاتِ التَّشبيهيّة التي نقلت تلك الصُّورة قولُ اليازجيّ في (المقامة الحليّة) يُصوِّرُ مشهداً متداولاً من مشاهد الحياة التي تدركه طبيعة البشر: "نزلت بحلّة في ديارِ الحلّة، فلقيتُ بها شيخنا أبا ليلي، يسحبُ في أكفانها ذيلاً، ويخطر ميلاً، فابتهجتُ به ابتهاجَ المحبِّ بزيارةِ الحبيبِ، أو المريضِ بعيادةِ الطَّبيبِ"⁽³⁾. حيثُ أطلق العنانَ لأردية السَّعادة، والابتهاجِ كي تغشى المكان، وتغطي الفضاء، وتتبع الرَّغبة التلقائيّة للنفس الإنسانيّة.

ومن البنى التَّشبيهيّة المُرسّلة قولُ شهاب الدّين الخفاجيّ في (المقامة الفكريّة): "فالعقلُ في المملكةِ الإنسانيّة كالمكِّ الكبير، والهوى كالجليسِ الخائن، والصَّاحبِ المائنِ المدهن"⁽⁴⁾. حيثُ اعتمدَ الأديبُ على البنية التَّشبيهيّة المُرسّلة لما شبّه الهوى بالجليسِ الخائن، ثمّ يمتدُّ بخياله فيصوِّره بالصَّاحبِ المائنِ المدهن، مقدّماً صورةً قبيحةً لمن يطلقُ العنانَ لهواه، مع ما في البنية التَّشبيهيّة من تجسيمٍ للهوى في صورةِ إنسانٍ جمعَ بين معاني الخيانة، والكذب، والنِّفاق، والرياء. وهو يقتربُ كثيراً من قولِ الرُّسولِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "إنَّما مثلُ الجليسِ الصَّالحِ، والجليسِ السُّوءِ كحامِلِ المسكِ، ونافخِ الكبر"⁽⁵⁾.

ومن دواعي الرُّوعة في البنى التَّشبيهيّة التي قدّمها الكُتّابُ أنّهم شكّلوها في أسلوبٍ فنيٍّ امتزج فيه الواقعُ الفنيُّ بالواقعِ النَّفسيِّ، والفكريِّ، الذي عاشه في بيئته، فهو يقلِّبُ صفحاتِ البيئةِ الحيّة، ويَرسِّمُ من خلالِ تلك الصّفحاتِ أجملَ التَّشكيلاتِ، يقولُ شهاب الدّين الخفاجيّ مصوراً حالته: "وقد فنعتُ من صبغِ الأدام، بعضُ السُّلامى والسُّلام، فحتى متى أنا من سكرةِ الحيرة لا أستفيقُ، كأنني مُصحفٌ في بيتِ زنديقٍ.

(1) اليازجيّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المقامة الفُدسيّة)، (ص424).

(2) اليازجيّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المقامة الحليّة)، (ص318).

(3) المَرَجِعُ السَّابِقُ، ص320.

(4) فكري، الأثار الفِكريّة (المقامة الفِكريّة)، (ص3). المائن: الكاذب، الجُوهريّ، الصَّحاح، (ج6/2210)، مادة (مين). المدهن: الغاش أو المنافق، الجُوهريّ، الصَّحاح، (ج5/2116)، مادة (دهن).

(5) [مسلم، صحيح مسلم، كتاب (البر والصلة والآداب)، باب (45) استحباب مجالسة الصالحين، ومجانبة قرناء السوء، 4/2026: رَقْمُ الْحَدِيثِ 2628].

فَإِنْ تَسْأَلَانِي مَا دَوَائِي فَأَتِنِّي بِمَنْزِلَةِ أَعْيَى الطَّيِّبِ سُقَامَهَا

كجردِ بسني يوسفَ في دارِ ذي متريةٍ، يأكلُ بالقرضِ لازماً ريبضه، فإذا نفذَ القرضُ، وسدَّ البأسُ مذهبه، أكلتُ كتبي كأنني أرضةٌ⁽¹⁾.

لَقَدْ بَرَعَ شِهَابُ الدِّينِ الْخَفَاجِيُّ أَيْمًا بَرَاعَةً فِي رَسْمِ مَشْهَدِ بَيْرِزِ حَالَتِهِ النَّفْسِيَّةِ، حَيْثُ وَظَّفَ تَشْبِيهَاتٍ يَسْتَشْعِرُ الْقَارِئُ مِنْ أَرْكَانِهَا مَوْقِفَ الْأَدِيبِ الْمَأْرُومِ، وَحَيَاتِهِ الَّتِي لَا طَائِلَ مِنْهَا، وَكَأَنَّهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَجْرَدُ مَصْحَفٍ حُكِمَ عَلَيْهِ بِالْإِغْلَاقِ، أَوْ جِرْدَانِ اشْتَكَّتْ مِنْ فَقْرِ الْبُيُوتِ فَمُنِعَتْ دُخُولَهَا.

إِنَّ حَجْمَ الْمَعَانَاةِ وَالْأَلَمِ الَّتِي صَوَّرَهَا شِهَابُ الدِّينِ الْخَفَاجِيُّ فِي هَذِهِ الْمَقَامَةِ لَا حُدُودَ لَهَا، وَلَا خِلَاصَ مِنْهَا، فَهَوُّ مَا يَلْقَى مِنْ عَذَابٍ، وَمَا يَعْانِي مِنْ تَهْمِيشٍ جَعَلَتْ الْمُتَلَقِّيَّ يَتَعَاطَفُ مَعَهُ.

وَقَدْ عَمَدَ كِتَابُ الْمَقَامَةِ أحياناً إِلَى تَوْظِيفِ الْبِنَى التَّشْبِيهِيَّةِ بِهَدَفِ إِظْهَارِ مَهَارَاتِهِمِ اللُّغَوِيَّةِ، وَإِمْتِنَاعِ السَّامِعِينَ بِمَزِيدٍ مِنَ الْجَمَالِ، لَيْسَ ذَلِكَ فَحَسْبَ، بَلِ رَسْمِ وَاقِعٍ رُبَّمَا لَمْ يَدْرِكْ مَلَاحِمَهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَمِنْ هُنَا تَبَدُّأُ دَقَّةُ الْأَدِيبِ فِي تَشْكِيلِ صُورَةٍ مَعْبُورَةٍ عَنِ الْوَاقِعِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ أَحْمَدَ الْبَرْبَيْرِ: "وَلَا تَبْصُرُ مِنْهُ إِلَّا رَأْيًا كَالنَّجْمِ فِي الدَّادِي الْمَدْلَهْمَةِ عِنْدَ الْحُجْنَةِ"⁽²⁾. وَهَذَا الْمَشْهُدُ مَأْلُوفٌ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ حَيْثُ اعْتَادَ هَؤُلَاءِ تَشْبِيهَ الرَّأْيِ لَوْضُوحِهِ بِالنَّجْمِ، وَهَذَا يُشْبِهُ قَوْلَ ابْنِ الرُّومِيِّ:

أَرَاؤُكُمْ وَوَجُوهَكُمْ وَسُيُوفَكُمْ فِي الْحَادِثَاتِ إِذَا دَجُونَ نُجُومٍ
مِنْهَا مَعَالِمٌ لِلْهُدَى وَمَصَابِحُ تَجَلُّو الدُّجَى وَالْأَخْرِيَاتِ رُجُومٍ⁽³⁾

وَلَمْ يَبْرَحِ الْأَدْبَاءُ مَشَاهِدَ الطَّبِيعَةِ لِرَسْمِ الْبِنَى التَّشْبِيهِيَّةِ الْمُرْسَلَةِ، فَقَدْ اسْتَعَانُوا بِأَغْصَانِ الْبَانِ، وَأَزْهَارِ الرِّمَّانِ لِتَصْوِيرِ قِصَبَاتِ السَّبْقِ، يَقُولُ أَحْمَدُ الْبَرْبَيْرِ: "قِيَا لَهَا مِنْ قِصَبَاتٍ تَدْهَشُ الْأَبْصَارَ، كَأَنَّهَا أَغْصَانُ بَانٍ فِي طَرْفِ كُلِّ غِصَنِ زَهْرَةٍ مِنْ جُلَّنَارٍ"⁽⁴⁾.

(1) الْخَفَاجِيُّ، رِيحَانَةُ الْأَلْبَا وَزَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، (ج2/153).

(2) الطَّيَّانُ، الْمَفَاخِرَاتِ وَالْمُنَاطِرَاتِ (مَقَامَةٌ فِي الْمَفَاخِرَةِ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ)، (ص39). الدَّادِي مِنْ اللَّيَالِي: الشَّدِيدَةُ الظُّلْمَةُ، الْحُجْنَةُ: الْاِعْوَجَاجُ.

(3) ابْنُ الرُّومِيِّ، دِيْوَانُ ابْنِ الرُّومِيِّ، (ج3/319).

(4) الطَّيَّانُ، الْمَفَاخِرَاتِ وَالْمُنَاطِرَاتِ (الْمَفَاخِرَةُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ)، (ص43).

واستلهم الأديباء تشبيهاتهم من التراث لما أردوا الفخر بأنفسهم، ورسم تفوقهم على أندادهم، ومن مشاهد ذلك قول محمد المبارك: "وهل أنت مني في القدر، إلا كقلامة الظفر؟"⁽¹⁾. ومثله قول الشاعر:

وَلَا قَمَرٌ إِلَّا صَغِيرًا كَأَنَّهُ فُلامَةٌ أَظْفُورِ الفَتَاةِ المَخْضَبِ

وقلامة الظفر: مثل يضرب في القلة والحقارة، وكان محمد المبارك أراد أن يستلهم جماليات التراث العربي عائداً إلى روائع العصر الأموي؛ ليُرسم قدر الحقارة، وصورة التهكم والسخرية من خلال بنية تشبيهية مُرسلة تحمل في ثناياها كل تلك المعاني، مُعتمداً على قول جميل بنية:

لَوْ أَنَّ فِي قَلْبِي، كَقَدْرِ فُلامَةٍ، فَضْلاً، وَصَلْتِكِ، أَوْ أَتَيْتُكَ رَسَائِلِي⁽²⁾

استعان الأديباء بالبنية التشبيهية المُرسلة لما قصدوا التهكم والسخرية، وقد وظفوها توظيفاً بارعاً حمل في ثناياه الازدراء والتحقير، يقول ناصيف اليازجي: "ولم ينظروا عمامتك الحانية، وجبتك القانية، وبردتك اليمانية، وأظفارك التي كالمناجل، وما تحتها من سخام المراجل"⁽³⁾. فالأديب رسم صورة قبيحة تشمئز منها النفس، مُستعيناً بالألوان، فقد صور أظفاره لطولها وبشاعتها بالمناجل، ولم يكتف بذلك بل أكمل مشهد القبح برسم ما تكدس من أوساخ في أظفاره كانت كسواد القدر الملتصق بها من الدخان، وزاد الصورة وضوحاً اعتماداً على صورة مألوفة تحفظها البيئة العربية منذ العصر الجاهلي.

إن مشاهد البيئة الخلابة لم تفارق خيال الأديباء في العصر العثماني، فقد انطبعت تلك المشاهد في أذهانهم، فاستعانوا بها في تشكيل بنية تشبيهية مُرسلة، يقول محمد المبارك: "وقد غديتك بدر كالدُرِّ واللؤلؤ، وربيتك في حجر الرفاهية والدلال"⁽⁴⁾. فقد صور المبارك الاهتمام البالغ بالطعام الذي يشبه في أهميته ونفاسته الدرُّ واللؤلؤ، مع ما في الصورة من دلالة واهتمام.

(1) الطيَّان، المُفَاخِرَاتِ والمُنَاظِرَاتِ (مناظرة بين الشمس والقمر)، (ص57).

(2) ابن معمر، ديوان جميل بنية، (ص54).

(3) اليازجي، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المقامة السخرية)، (ص335). الحانية: الشديدة الخضرة، القانية: الشديدة الحمرة، سخام: الوسخ المجتمع تحت الأظفار، المراجل: القدور النحاسية.

(4) الطيَّان، المُفَاخِرَاتِ والمُنَاظِرَاتِ (غريب الأبناء في مُنَاظِرَةِ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ)، (ص43). الدرُّ: اللين، الدرُّ: كبار اللؤلؤ.

وَلَمْ يَبْرَحْ نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ عَنَّا صِرَ الطَّبِيعَةَ لَمَّا قَصَدَ تَصْوِيرَ الشُّمُوحِ وَالْكَبْرِيَاءِ، فَقَدِ اسْتَعَانَ بِالنَّخِيلِ لِرَسُوخِهِ، وَشَمُوخِهِ، يَقُولُ: "فَنصَبُوا السُّرَادِقَ، وَانْتَصَبُوا حَوْلَهُ كَالرِّزَادِقِ"⁽¹⁾. فَقَدِ شَبَّهَ الرَّجَالَ فِي ثِبَاتِهِمْ، وَشَمُوخَهُمْ بِأَشْجَارِ النَّخِيلِ، مُعْتَمِدًا عَلَى أُنْسَنَةِ الْجَمَادَاتِ، وَتَشْخِصِ عَنَّا صِرِ الطَّبِيعَةِ. وَهَذِهِ الصُّورَةُ مَأْلُوفَةٌ فِي الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

وَلَمْ يَتَوَقَّفِ الْأَمْرُ عِنْدَ حُدُودِ الطَّبِيعَةِ، فَقَدِ اسْتَخْدَمَ الْكُتَّابُ الْبُنْيَةَ الشَّبِيهِيَّةَ فِي رَسْمِ صُورَةِ لِحْمَالِ الْمَرْأَةِ، مُسْتَمْدِينَ مَعْطِيَاتَهَا مِنَ الْبَيْئَةِ الَّتِي عَاشُوا فِيهَا، فَعَقَدُوا مِشَابَهَةً بَيْنَ جَمَالِ الْمَرْأَةِ، وَالْغَزَالِ، وَعَنْقِهَا الطَّوِيلِ، وَعَنْقِ الْغَزَالِ، وَمَقَارَنَةً بَيْنَ حَاجِبِهَا الْأُنْبُقِ، وَالْهَلَالِ، وَمِمَّا ثَلَّةً بَيْنَ جَبِينِهَا الْمَضِيءِ، وَالصَّبَّاحِ، وَمِحَاكَاةً بَيْنَ عَيُونِهَا الْحَوْرَاءِ الَّتِي تُدْمِي أَسِيرَهَا، وَالصَّفَّاحِ، وَبَيْنَ حَبِّ عَرْقِهَا، وَاللَّالِيِّ، وَبَيْنَ حَالِكِ فَرْعِهَا، وَاللِّيَالِيِّ، يَقُولُ الشُّدِّيَاقُ: "فَابْتَدَرْتُ إِلَيَّ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ لَهَا عُنُقٌ كَعُنُقِ الْغَزَالِ، وَحَاجِبٌ كَالْهَلَالِ... ثُمَّ تَقَدَّمْتُ إِلَيَّ أُخْرَى وَجَبِينَهَا يَلْمَعُ كَالصَّبَّاحِ، وَلِحْظُهَا يَدْمِي كَالصَّفَّاحِ، ثُمَّ تَقَدَّمْتُ إِلَيَّ أُخْرَى وَحَبِّ عَرْقِهَا كَاللَّالِيِّ، وَحَالِكِ فَرْعِهَا كَاللِّيَالِيِّ"⁽²⁾.

فَالشُّدِّيَاقُ هُنَا يَقَدِّمُ وَصْفًا حَسِيًّا لِحْمَالِ الْمَرْأَةِ، فَيَصِفُ عَنْقَهَا بِعَنْقِ الْغَزَالِ، فَهُوَ طَوِيلٌ أَنْبُقٌ، وَيَصِفُ حَاجِبَهَا بِالْهَلَالِ فِي تَقْوَسِهِ وَدِقَّتِهِ، فَهُوَ جَمِيلٌ دَقِيقٌ، وَفَرْعِهَا فِي الطُّولِ بِاللِّيَالِيِّ، فَهُوَ لَيِّنٌ رَشِيقٌ، وَحَبِّ عَرْقِهَا اسْتِحَالَ مِنْ رُوْعَتِهِ لَالِيًّا، أَمَّا عَيُونُهَا فَإِنَّهَا تُدْمِي الْعَاشِقِينَ كَمَا تَدْمِي الصَّفَّاحُ الْمَعْتَدِينَ. وَمِنْ هُنَا أَعَادَ الشُّدِّيَاقُ تَشْكِيلَ صُورَةِ الْمَحْسُوسَاتِ فِي هَيْئَاتٍ جَدِيدَةٍ أَكْسَبَتْهَا صِفَةَ الرُّوْعَةِ وَالْجَمَالِ، وَزَادَهَا جَمَالًا وَرُوْعَةً، الْبِرَاعَةَ فِي الْمَقَارَنَةِ، وَالْأَنَاقَةَ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ الْمُؤْتَلَفِ.

أَجَادَ كُتَّابُ الْمَقَامَةِ عَلَى اخْتِلَافِ مَشَارِبِهِمْ، وَتَنَوُّعِ أذْوَاقِهِمْ فِي رَسْمِ صُورِ تَشْبِيهِيَّةٍ أَقْرَبَ مَا تَكُونُ إِلَى اللَّوْحَاتِ الْفَنِّيَّةِ الْمَرْثِيَّةِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِهَا وَشَائِجُ الصَّدَقِ، وَعِلَاقِقُ الْوَأَقِيعَةِ، وَذَلِكَ مَنَحَ الْمَقَامَاتِ تَفَرُّدًا أَحَالَهَا إِلَى مِرَاةٍ يُشَاهَدُ عِبْرَهَا سَمَاتُ الْعَصْرِ، وَمَلَاحُ الْبَيْئَةِ، وَعَنَّا صِرُ الطَّبِيعَةِ. وَقَدْ قَدَّمَ نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ ذَلِكَ فِي (الْمَقَامَةِ الْأَنْطَاكِيَّةِ)، يَقُولُ: "وَإِذَا شِخْنَا الْمَيْمُونَ، تَتَقَدَّمُهُ لَيْلَى كَالنَّاقَةِ الْأُمُونِ... حَتَّى إِذَا وَقَفَ بِالْمِحْرَابِ، انْقَضَتِ الْفَتَاةُ كَالْعَقَابِ"⁽³⁾. حَيْثُ رَسَمَ الْيَازِجِيُّ مَشْهَدَيْنِ تَشْبِيهِيَيْنِ مُعْتَمِدًا عَلَى عَنَّا صِرِ الْبَيْئَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ كَيْ يَصَوِّرَ قُوَّةَ الْمَرْأَةِ،

(1) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ السُّوَادِيَّةِ)، (ص 380). الرِّزَادِقُ: الصُّوْفُوفُ مِنَ النَّخِيلِ.

(2) الشُّدِّيَاقُ، السَّاقُ عَلَى السَّاقِ (مَقَامَةُ مُقِيمَةٍ)، (ص 279، ص 280).

(3) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْأَنْطَاكِيَّةِ)، (ص 255). الْأُمُونُ: الشُّدِيدَةُ الْقَوِيَّةُ.

وشدة بأسها، وأكمل المشهد لما أكد قوتها مقارناً هجومها بهجوم العقاب، وينقلنا ذلك إلى الحدة وسرعة الانقراض، مع ما يحمله المشهد من عودة إلى تراث العصر الجاهلي.

ومن شواهد انسجام ناصيف اليازجي مع عناصر البيئة ومعطياتها قوله: "فجعل الشيخ يدور كاللؤلؤ، ويرفس كالتولب"⁽¹⁾. حيث تأثر بالبيئة فصور ثورة الرجل، وغضبه، وحركة أقدامه برفس التولب معتمداً على التوضيح في رسم هذه الصورة.

لقد حاول الأدباء عند تشكيل بنياتهم التشبيهية إخراج الصور من قالب الإدراك العقلي إلى مجال الرؤية الملموسة بغية تحويل ذلك الأمر المعنوي إلى إدراك مشاهد بالأثر المادي حتى تجمعت أمم المتلقي تلك المراني البصرية، ومن مشاهد ذلك قول محمد المبارك: "وقد جرت بينه وبين الورد، مناظرات تروق معانيها كالجوهر الفرد"⁽²⁾. فقد استحال المعقول بين أنامل المبارك مشهداً مرثياً مفعماً بالجمال، وقل إن شئت قمة الجمال، كيف لا؟ والمعاني غدت كالجواهر المنفردة في الحسن، والروعة، إلى جانب ما حملته الصورة من تجسيم المعنوي في صورة حسية.

البنى التشبيهية البليغة

لم يتوقف أدباء المقامة عند حدود البنى التشبيهية المرسلّة، بل تجاوزوا ذلك إلى البنى التشبيهية البليغة، وهذه البنى تتركز فيها الدلالة على العلاقة المزدوجة بين الدال، والمدلول من جهة، وبين المتلقي من جهة أخرى مما يزيد المعنى رسوخاً، واتساعاً، ففيها تتسع مجالات استعمال الكلمة؛ لأن حذف الأداة، ووجه الشبه فيها، وامتداد دلالته في الاتساع بالوقوف على المعنى الأساسي، والمعنى الإضافي، وهو المعنى الذي يملكه اللفظ عن طريق ما يشير إليه، إلى جانب معناه التصويري الخالص"⁽³⁾.

وأدباء المقامة شأنهم شأن أغلب الأدباء، وظفوا البنية التشبيهية البليغة في سياق يقوم على الإبداع، والتلاعب بالمفردات كيفما شاءوا وفق تصوراتهم الخاصة، إذ كان هو الطريق الأودح، والسبيل الأصدق في التعبير عن أنفسهم، وإظهار مكنوناتها، وبذلك تكون البنية التشبيهية قد أسهمت في تكوين صورة تخلق الألباب، وتبهر القلوب.

(1) اليازجي، مجمع البحرين (المقامة العكاظية)، (ص413). التولب: ولد الحمار.

(2) الطيّان، المفازات والمناظرات (عرب الأبناء في مناظرة الأرض والسماء)، (ص103).

(3) عمر، علم الدلالة، (ص37).

أطلق الأدباء العنانَ لخيالهم لرسم الصور، وتشكيل بنى تشبيهيةً بليغةً لتصوير أحوالهم النفسية، وما يحيطُ بها من همومٍ وأحزانٍ، ومن شواهد ذلك قولُ شهاب الدين الخفاجي: "فطوّحتني الطوائح بأرجوحة الأمانى، وهزّرتي الأشعبيةً إلى ماجدٍ يبارزُ الزمنَ الجاني"⁽¹⁾. فالأمانى في خيال الأديب أرجوحةٌ يتقلّب فيها يُمَنّةً ويساراً، ومع هذا التقلّب ترتسم صورةُ المعاناةِ والمأساةِ التي يعيشها الإنسانُ.

ويتملّسُ الأديبُ أحياناً البنيةَ التشبيهيةَ لتجسيمِ المعنوياتِ، ويبدو ذلك في قولِ شهاب الدين الخفاجي: "حتّى أتيتُ كورةَ خراسان، فأذاً بها قيل نصب عرضه لسهام الهوان"⁽²⁾. وقد برع الأديبُ في رسمِ مشهدٍ منفردٍ لما صورَ الهوانَ بالسّهام، فقدم صورةً ذميمةً بأنفها الدوقُ السليمُ في مشهدٍ متقلّبٍ بالدّل والهوان، وهُنَا تظهرُ براعةُ الأديبِ في تقديم التشبيهِ لما اختارَ بدقةً بالغةٍ المُشَبَّه به في البنيةِ التشبيهيةِ.

ويُبدعُ الأدباءُ أيّما إبداعٍ في تجسيمِ المعنوياتِ بالبنى التشبيهيةِ البليغةِ، وما حملتهُ تلك البنى من مساحاتٍ شاسعةٍ للخوفِ، والرعبِ، والضيقِ رقيقةً مشاقِ الرحلةِ، وطولِ المسيرِ، فقد جسّدَ شهابُ الدين الخفاجي ذلك في قوله: "فكم ركبَ بحرَ الأهوالِ، حتّى وصلَ إلى ساحلِ الضلالِ"⁽³⁾. فالأهوالُ الجسامُ متتابعةٌ تتابعُ الأمواجِ، والنّهايةُ مروعةٌ بعدَ المشقّةِ والعذابِ، وبعدَ التعبِ والعناءِ، فهي نهايةٌ حزينةٌ لمقدّماتٍ كانت حنماً شديدةً وعسيرةً.

إنّ مهمّةَ البنيةِ التشبيهيةِ البليغةِ هي المشاركةُ في تشكيلِ الصورةِ التي قد تكونُ وليدةَ الاستخدامِ المبدعِ للغةِ، فالعناصرُ الإبداعيةُ من تجاربِ شعوريةٍ، ولغةٍ موحيةٍ، وخيالٍ فاعلٍ تتواشج لتشكلِ لوحةً تشبيهيةً لرسمِ صورةِ الواقعِ، أو تشكيلِ صورٍ منفردةٍ تجاوزَ سطوحَ الأشياءِ إلى مكنونٍ عميقٍ"⁽⁴⁾.

أمّا محمّدُ الورغيّ فقد قدّمَ فاصلاً عذباً من البنى التشبيهيةِ البليغةِ المتتابعةِ، التي قامت على فكرةِ تجسيمِ المعنوياتِ تارةً، وتشخيصِ الجماداتِ، واستنطاقها تارةً أُخرى، منتهياً إلى تشكيلِ لوحاتٍ جماليةٍ ترسمُ الواقعَ في أدقِّ تفاصيله، ومن شواهد ذلك قوله: "ولبت على تلك الصّفةِ العجيبةِ، يجلو كلُّ يومٍ غريبةً، إلى أن أظهرَ الدهرُ القطوبَ، وأطبقَ الغارةَ ليلُ

(1) الخفاجي، ربحانة الألباء (المقامة الرومية)، (ص368).

(2) الخفاجي، ربحانة الألباء (المقامة الساسانية)، (ص390).

(3) المرجع السابق، ص392.

(4) قاسم، التصوير الشعري، رؤية نقدية لبلاغتنا العربية، (ص206).

الْخُطُوبِ⁽¹⁾. حَيْثُ بَرَعَ الْوُرُغِيُّ فِي رَسْمِ مَشْهَدِ الْأَمْرِ الْجَلِيلِ، وَبَيَانَ هَوْلِ الْمَصِيبَةِ لَمَّا شَبَّهَ الْخُطُوبَ بِاللَّيْلِ، مَعَ مَا يَصَاحِبُ اللَّيْلَ مِنْ هُمُومٍ وَأَلَامٍ، وَزَادَ الْمَشْهَدَ جَمَالاً لَمَّا جَاوَرَ الْبُنْيَةَ التَّشْبِيهِيَّةَ بِنُبْيَةِ اسْتِعَارِيَّةٍ فِي قَوْلِهِ (الدَّهْرُ الْقُطُوبُ) وَكَأَنَّ الْكُلَّ شَارَكَهُ حَزَنُهُ حَتَّى الدَّهْرُ.

لَقَدْ بَرَعَ الْكُتَّابُ فِي رَسْمِ الْبُنْيَةِ التَّشْبِيهِيَّةِ الْبَلِيغَةِ الْقَائِمَةِ عَلَى التَّقْرِيْبِ بَيْنِ الْمَشْبَهِ وَالْمُشَبَّهِ بِهِ، مَعَ حَذْفِ الْأَدَاةِ، وَوَجْهِ الشَّبْهِ، وَبِذَلِكَ يَظْهَرُ لَنَا مَدَى التَّقَارِبِ بَيْنَهُمَا، وَبِتَوْهَمِ الْمُتَلَقِّي أَنَّهُمَا مَتَّحَدَانِ، وَقَدْ زَالَتْ بَيْنَهُمَا الْخُدُودُ، وَاخْتَفَتِ الْفَوَاصِلُ، فَضَمَّ كُلُّ مِنْهُمَا الْآخَرَ إِلَيْهِ كَأَنَّهَا فِي عِنَاقٍ، أَوْ قَلَّ إِنْ شِئْتَ كَأَنَّهَا حَبِيبَانِ تَعَلَّقَ كُلُّ مِنْهُمَا بِالْآخَرَ فَفَشَلَتْ كُلُّ مُحَاوَلَاتِ الْفَصْلِ بَيْنَهُمَا؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ "حَذْفَ الْأَدَاةِ يُوْحِي بِتَسَاوِي الطَّرْفَيْنِ، وَعَدَمَ تَفَاضُلِهِمَا، وَحَذْفَ وَجْهِ الشَّبْهِ يُوْهِمُ بِأَنَّهَا مَتَشَابِهَانِ فِي أَغْلَبِ الصِّفَاتِ، وَيُوَسِّعُ آفَاقَ التَّصْوِيرِ وَالْخَيَالِ"⁽²⁾.

وَتَوْسَّعَ كَثِيرٌ مِنَ النُّقَادِ فِي تَنَاوُلِ الْبُنْيَةِ التَّشْبِيهِيَّةِ الْبَلِيغَةِ الَّتِي تَقُومُ عَلَى الْعَلَاقَةِ الْمَزْدُوجَةِ بَيْنِ الدَّلَالِ وَالْمَدْلُولِ مِنْ جِهَةٍ، وَبَيْنِ الْمُتَلَقِّي مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، وَمِنْ هُنَا "تَتَّسَعُ مَجَالَاتُ اسْتِخْدَامِ الْكَلِمَةِ؛ لِأَنَّ حَذْفَ الْأَدَاةِ، وَوَجْهِ الشَّبْهِ فِيهَا، وَامْتِدَادِ دَلَالَتِهِ فِي الْإِتْسَاعِ بِالْوُفُوفِ عَلَى الْمَعْنَى الْأَسَاسِيَّةِ، وَالْمَعْنَى الْإِضَافِيَّةِ، وَهُوَ الْمَعْنَى الَّذِي يَمْلِكُهُ الْفِظُّ عَنْ طَرِيقٍ مَا يَشِيرُ إِلَيْهِ إِلَى جَانِبِ مَعْنَاهِ التَّصْوِيرِيِّ الْخَالِصِ"⁽³⁾.

وَأَدْبَاءُ الْمَقَامَةِ فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ شَأْنُهُمْ شَأْنُ أَغْلَبِ الشُّعْرَاءِ فِي افْتِتَانِهِمْ بِالصُّورِ الْبَلَاغِيَّةِ، وَظَفَوْا الْبُنْيَةَ التَّشْبِيهِيَّةَ الْبَلِيغَةَ فِي تَشْكِيلَاتٍ تُوْحِي بِقُدْرَتِهِمُ الْفَائِقَةِ فِي تَوْضِيحِهَا، حَيْثُ امْتَنَكَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ زِمَامَ التَّلَاعِبِ بِالْأَلْفَاظِ، فَأَبْدَعُوا أَشْكَالاً بَارِعَةً مِنَ التَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ، وَهَذَا مَا قَدَّمَهُ صَاحِبُ (الْآثَارِ الْفِكْرِيَّةِ) فِي أَكْثَرِ مِنْ مَنَاسِبَةٍ، يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِي: "وَإِذَا شَخْصٌ عَظِيمٌ كَأَنَّهُ مَلِكٌ كَرِيمٌ يَسْعَى دَائِماً فِي تَسْكِينِ الْفَتَنِ، وَإِخْمَادِ نَارِ الْمَحَنِ"⁽⁴⁾. فَقَدْ رَسَمَ صُورَةً مَظْلَمَةً لِلْمَحَنِ الَّتِي غَدَتْ بِمِثَابَةِ نَارٍ مَلْتَهَبَةٍ تَحْرِقُ الْأَخْضَرَ، وَالْيَابِسَ، وَتَحِيلُ كُلَّ جَمِيلٍ إِلَى مَشَاهِدِ الْقَبْحِ وَالذَّمَارِ.

وَلَمْ يَبْتَعِدْ عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِي كَثِيراً عَنِ أَنْدَادِهِ، فَقَدْ رَسَمَ صُورَةً تَشْبِيهِيَّةً بَلِيغَةً أُخْرَى حَيْثُ صَوَّرَ الْغَيْظَ بِالنَّارِ، يَقُولُ: "وَحَسَا بِالْغَيْظِ وَالْحَقْدِ أَحْشَاءَهُ، فَالْتَهَبَ نَارُ غَيْظِهِ الْكَامِنِ، وَبَدَتْ آثَارُ

(1) الْوُرُغِيُّ، مَقَامَاتُ الْوُرُغِيِّ وَرَسَائِلُهُ (المَقَامَةُ الْبَاهِيَّةِ)، (ص 43).

(2) يَمُوتُ، عِلْمُ أَسَالِيبِ الْبَيَانِ، (ص 154).

(3) عَمْرٌ، عِلْمُ الدَّلَالَةِ، (ص 37).

(4) فِكْرِي، الْآثَارُ الْفِكْرِيَّةُ (المَقَامَةُ الْفِكْرِيَّةُ)، (ص 282، ص 283).

غضبه من المكامن⁽¹⁾. وتصويرُ الغيظِ بالنَّارِ الملتهبة أَضَافَ جَمَالاً إِلَى جَمَالِ، حَيْثُ رَسَمَ لوحَةً تحملُ معالمَ القسوةِ، وَمَلَامِحَ الشَّدَّةِ، وتبدي مَشَاهِدَ الخوفِ والرُّعبِ، مُتَعَلِّقاً بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ [الملك: ٨].

ثُمَّ واصلَ عبدُ الله فِكْرِيَّ المسيرَ، ووظفَ البنيةَ التَّشْبِيهِيَّةَ البليغةَ مرَّةً أُخْرَى فِي قَوْلِهِ: "فزدت تحيراً بما سمعته، ولكنه سكت فسار وتبعته، وقلتُ لَعَلِّي أرى ما يزيلُ حجابَ الوهمِ، ويفتح لي إن شاء الله بابَ الفهمِ"⁽²⁾. حَيْثُ شَبَّهَ الوهمَ بالحجابِ توضيحاً لما يتركه الوهمُ من ظلمةٍ على حياةِ الآخرين. فالوشائجُ بين الحجابِ، والوهمِ تبدو حميمةً، مع قوَّةِ الصِّلةِ بينهما، وما يمثله الوهمُ من ظلاميةٍ لا ملامحَ لها، ولا حدودَ، وما يرسمه الحجابُ من سريةٍ لا ظهورَ لها، ولا وجودَ، مع امتدادِ دلالةِ الوهمِ، والحجابِ نحوَ العمقِ لتسبُرِ أغوارِ النفوسِ، وتوجَّحِ بواعثِ التأثرِ فِي أَعْمَاقِ القُلُوبِ فيُحيلُ السَّعادةَ شقاءً.

أَطْلَقَ الأُدبَاءُ العَنَانَ لأخيلتهم لتشكلِ بِنَى تشبهيَّةَ بليغةً؛ كي يَقْرَبَ هَوْلًا صورةَ المُشَبَّهِ فِي ذهنِ المُتلقِّي؛ لِيُحَلِّقَ فِي آفاقِ خياليَّةٍ يتحرَّرُ فيها قَلِيلاً أو كَثِيراً من أغلالِ القيودِ اللُّغويَّةِ، فتغدو لغته لغةً ساحرةً معبرةً عن صدقِ إحساسه، وَلَعَلَّ الأثارَ الفكريَّةَ حملت مزيداً من روائعِ تلك التَّشْبِيهَاتِ، ففي (المقامة الفكريَّة) يقدِّمُ فارسها، عبدُ الله فِكْرِيَّ فاصِلاً متنوعاً من روائعِ التَّشْبِيهَاتِ أولها: "ولكنها مع ذلك لا تألو الجهدَ في مناصحةِ العقلِ، وكفَّه عن السُّلوكِ في مسالكِ الغوايةِ والجهلِ"⁽³⁾. فقد أَضَافَ فِكْرِيَّ جَمَالاً إِلَى جَمَالِ فِي بِنْيَةِ التَّشْبِيهِ البليغِ، وَلَعَلَّ الرُّوعَةَ تبدو في تجسيمِ المعنويِّ مِنْ نَاحِيَّةٍ، وَجَمَعَ (المسالك) مِنْ نَاحِيَّةٍ أُخْرَى، وَالَّذِي حمل في ثناياه النَّوعَ، والكثرةَ. وَيُواصلُ هنا عبدُ الله فِكْرِيَّ طريقه في رسمِ البِنْيَةِ التَّشْبِيهِيَّةِ البليغةِ مُعْتَمِداً على تَجْسِيمِ المَعْنَوِيَّاتِ فِي قَوْلِهِ: "وإذا شخصٌ عظيمٌ يسعى دائماً في تسكينِ الفنِّ، وإخمادِ نارِ المحنِ"⁽⁴⁾. فقمةُ الجَمَالِ، ومنتهى الحسنِ والبهاءِ يبدو في تصويرِ المحنِ بالنَّارِ، وللمتلقي أن يتصوَّرَ ما في النَّارِ من شدةٍ ولهيبٍ يأتي على الأَخْضَرِ واليابسِ؛ إذ يستحيلُ أن ترتدَّ النَّارُ برداً وسلاماً لمن سلكَ مسالكها، وقصدَ دُرُوبها.

اننقى عبدُ الله فِكْرِيَّ تشببهاته بعنايةٍ بالغةٍ، وَبِرَعٍ فِي مَرَّاتٍ عديدةٍ فِي تَجْسِيمِ المَعْنَوِيَّاتِ،

(1) فكري، الأثار الفكريَّة (المقامة الفكريَّة)، (ص 283).

(2) فكري، الأثار الفكريَّة (مقامة في حسن الوفاء)، (ص 308).

(3) فكري، عبد الله الأثار الفكريَّة (المقامة الفكريَّة)، (ص 278).

(4) المرجع السابق، ص 280، ص 281.

وَكَاثِي بِهِ يُصِرُّ كُلَّ الْإِصْرَارِ عَلَى إِزَالَةِ كُلِّ غَمُوضٍ قَدْ يَسِيطِرُ عَلَى تَشْكِيلَاتِهِ التَّشْبِيهِيَّةِ الَّتِي يَتَلَقَّاهَا الْمُخَاطَبُ، يَقُولُ: "فَزِدْتُ تَحِيْرًا بِمَا سَمِعْتَهُ، وَلَكِنِّي سَكْتُ فَسَارَ وَتَبِعْتَهُ، وَقَلْتُ لَعَلِّي أَرَى مَا يَزِيلُ حِجَابَ الْوَهْمِ، وَيَفْتَحُ لِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ بَابَ الْفَهْمِ"⁽¹⁾. لَعَلَّ صُورَةَ الْوَهْمِ هُنَا قَدْ سَيْطَرَتْ عَلَى فِكْرِ الْأَدِيبِ، وَمَا يَحْمِلُهُ الْوَهْمُ مِنْ تَخِيلَاتٍ مَرْعَبَةٍ، وَتَصَوُّرَاتٍ مَخِيفَةٍ، فَصَوَّرَهَا بِكَلِمَةِ (حِجَابٍ)؛ لِيَزِدَادَ الْأَمْرَ حَفَاءً، وَغُمُوضًا.

أَمَّا قَوْلُهُ: "وَكُنْتُ أَسْمَعُ هَذَا الْكَلَامَ، وَأَتَجَدَّدُ لَوْعِ سِهَامِ الْمَلَامِ"⁽²⁾. فَيُقَدِّمُ مَشْهَدًا تَشْبِيهِيًّا يَرَسُمُ قَسْوَةَ الْوَلْمِ، وَشِدَّةَ وَقْعِهِ عَلَى النَّفْسِ حَتَّى كَانَ كَالسَّهَامِ، مَعَ مَا فِي الصُّورَةِ مِنْ رُوعَةٍ يَتَّبِعُهَا جَمَالُ صُحْبَةِ تَجْسِيمِ الْمَلَامِ فِي صُورَةِ سِهَامِ مَاضِيَاتٍ.

وَيُؤَاوِلُ الْكِتَابَ طَرَقَ أَبْوَابِ تَجْسِيمِ الْمَعْنَوِيَّاتِ؛ لِإِزَالَةِ الْغُمُوضِ وَالْخَفَاءِ، مُعْتَمِدِينَ عَلَى عَنَاصِرِ الطَّبِيعَةِ، وَيَبْدُو ذَلِكَ لَمَّا حَذَرَ هَوْلَاءِ مِنْ مَسَاوِي الْأَخْلَاقِ، يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِي: "وَمَنْ انْحَرَفَ عَنْ صِرَاطِ الْإِعْتِدَالِ، ذَاتَ الْيَمِينِ أَوْ ذَاتَ الشَّمَالِ، وَقَعَ فِي الدُّنْيَا فِي نِيرَانِ مَسَاوِي الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ"⁽³⁾. فَقَدْ صَوَّرَ الْأَخْلَاقَ السَّيِّئَةَ بِالنَّيْرَانِ، وَكَأَنَّهُ يَتَمَثَّلُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السُّوءِ كَحَامِلِ الْمَسْكِ، وَنَافِخِ الْكَبِيرِ. فَحَامِلُ الْمَسْكِ، إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً. وَنَافِخُ الْكَبِيرِ، إِمَّا أَنْ يَحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً"⁽⁴⁾. وَيَتَابِعُ هَذَا التَّجْسِيمَ بِقَوْلِهِ: "وَعِنْدَيْدِ اشْتِدَادِ اشْتِعَالِ نَارِ الْإِخْتِلَالِ، وَانْتِشَرِ شَرَرِ الشَّرِّ فِي جَمِيعِ الْمَحَالِ"⁽⁵⁾. مَصُورًا تَوَابِعَ الْإِخْتِلَالِ، وَأَثَارَ الْإِضْطِرَابِ الَّتِي تَسْتَحِيلُ أَشْبَهَ بِالنَّارِ الْمَشْتَعَلَةِ، وَقُلْ إِنْ شِئْتَ: بَلْ هِيَ النَّارُ ذَاتُهَا، وَلَعَلَّ الْأَدِيبَ يَحْذُرُ هُنَا مِنْ عَوَاقِبِ الْإِضْطِرَابِ، وَتَوَابِعِ الْفَسَادِ، وَمَا يَتَّبِعُهُمَا مِنْ دَمَارٍ وَخِرَابٍ.

ويَتَابِعُ فِكْرِي حَدِيثَهُ عَنِ الصُّورَةِ فِي رَسْمِ مَشْهَدِ الْغَيْظِ، يَقُولُ: "تَذَكَّرْتُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الرَّجُلِ الَّذِي سَاءَ، وَحَسَا بِالْحَقْدِ وَالْغَيْظِ أَحْسَاءَهُ، فَالْتَهَبَتْ نَارُ غَيْظِهِ الْكَامِنِ، وَبَدَتْ أَثَارُ غَضَبِهِ فِي الْمَكَامِنِ"⁽⁶⁾. فَالْغَيْظُ نَارٌ مَلْتَهَبَةٌ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ، وَتَحْمَلُ الْبُنْيَةَ التَّشْبِيهِيَّةَ تَحْذِيرًا مُبَاشِرًا

(1) فِكْرِي، الْأَثَارُ الْفِكْرِيَّةُ (الْمَقَامَةُ الْفِكْرِيَّةُ)، (ص 283).

(2) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 283.

(3) الْمَرْجِعُ نَفْسُهُ، ص 295.

(4) [مُسلِم، صَحِيحُ مُسلِم، كِتَابُ (الْبِرِّ وَالصَّلَةِ وَالْأَدَابِ)، بَابُ (45) (اسْتِحْبَابِ مَجَالَسَةِ الصَّالِحِينَ، وَمُجَانِبَةِ قِرْنَاءِ السُّوءِ)، 4/2026: رَقْمُ الْحَدِيثِ 2628].

(5) فِكْرِي، الْأَثَارُ الْفِكْرِيَّةُ (الْمَقَامَةُ الْفِكْرِيَّةُ)، (ص 295).

(6) فِكْرِي، الْأَثَارُ الْفِكْرِيَّةُ (مَقَامَةُ فِي حَسَنِ الْوَفَاءِ)، (ص 303).

شديد اللّهُجَة لمن ترك الغيظَ يسيطرُ على نفسه، بأن يكظمَ غيظَهُ، ويعفو عن غيره؛ لَعَلَّهُ يكونُ من المُحسنين.

ومن مشاهد تشبيهية سيطرَ عليها السّوادُ، إلى أُخرى زيّنَها الخيرُ، وجملها الثّمَرُ، وزادَ كذلك من بهائِها وجمالِها، البراعةُ في تجسيمِ المعنوياتِ، وهو ما يُضفي على المعاني وضوحاً وجلاءً. وهذا يمثّلُ في قولِ عبدِ الله فكريّ: "كان ببعضِ الأمصارِ، فيما مضى من الأعصارِ، رجلٌ من النّجارِ قد رزقَ سعةَ الغنى، وجنى ثمراتِ المني" (1). فهنا صاغَ فكريّ بنيةً تشبيهيةً بليغةً أسهمت في تشكيلِ صورةٍ فنيةٍ أظهرت حلاوةَ المني، وانجذابَ النفوسِ إليها، فهي أشبه بثمراتِ دانيةٍ قد أبتعت، وحانَ قطافُها، مع ما في المشهدِ من لذّةٍ تتوقُّ إليها النفوسُ.

ولا يغادرُ عبدُ الله فكريّ عوالمَ تجسيمِ المعنوياتِ، بل واصلَ رحلةَ الإبداعِ في قوله: "غارقينِ آناءَ اللّيلِ، وأطرافِ النّهارِ في بحارِ الأفكارِ" (2). وكأنّه أراد أن يرسمَ هولَ المأساةِ، وشدّةَ المعاناةِ لما شبّه الأفكارَ التي تتوالى، وما يرافقها من قسوةٍ بالبحارِ في سعتها، وتلاطمِ أمواجِها، وزادَ المشهدَ قسوةً لما استعملَ (غارقينِ آناءَ اللّيلِ، وأطرافِ النّهارِ) التي شكّلتَ مشهدَ سيطرةِ الألمِ والمعاناةِ، واستمرارهما دونما توقّفٍ، مع ما تحمّلهُ كلمةُ (غارقين) من الرعبِ والخوفِ؛ إذ لا مجالَ للنّجاةِ هنا من وحشيّةِ الأفكارِ، ولا سبيلَ للفكاكِ منها، ولو للحظةٍ.

أما محمّدُ المَبَارَكِ فقد كانَ له باعٌ طويلٌ في تجسيمِ المعنوياتِ، حتّى غدت تلكَ المعنوياتِ ماثلةً أمامنا، وكأنّها صورٌ مرئيةٌ، حيثُ وظّفَ البنيةَ التشبيهيةَ البليغةَ في قوله: "وهلّ صفتُ أوقاتك إلا بوجودي، أو طابت أوقاتك إلا بوابلِ كرمي وجودي؟!" (3). فقد شبّه الكرمَ والجودَ بالوابلِ؛ لينقلَ للمتلقّي مشهدَ الكرمِ الفياضِ، والعطاءِ العَظيمِ، والجودِ اللامتناهي، مُدعماً فكرته بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَّبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾ [البقرة: ٢٦٥].

كما لجأ محمّدُ المَبَارَكِ إلى عنصرٍ من عناصرِ الطَّبِيعَةِ، وهو النَّارُ لرسمِ صورٍ تشبيهيةٍ بليغةٍ، كقوله: "فاشتعلتُ بينهما نارُ النّزاعِ والشّقاقِ، وقامت حربُ الجِلالِ والجِبالِ على

(1) فكري، الآثار الفكرية (مقامة في حسن الوفاء)، (ص 303).

(2) فكري، الآثار الفكرية (مقامة العمال والبطال)، (ص 312).

(3) الطيّان، المُفَاخَرَاتِ والمُنَاظَرَاتِ (غريب الأنبياء في المُفَاخَرَةِ بين الأرض والسَّمَاءِ)، (ص 104).

ساقٍ⁽¹⁾. وكان الأديب أراد أن يُحذّر من نتائج النزاع، ومغبة الشقاق، اللذين يحرقان ما يعترضهما من الأخضر واليابس. وأبدع إبداعاً نوعياً لمّا صورَ الجدالَ بالحربِ التي تقضي على الإنسان والحيوان، وقد تكررَ هذا المشهدُ في كلِّ الأزمنة، وشَتَّى الأمكنة.

ومثل ذلك ما برع فيه الأديب من تجسيم المعنويات في قوله: "وليت شعري هل تستوي لدّة المنادمة مع الأحبة بمن رقّ وراق، ولوعة من أضحى يتقلّى بنار البعد والفراق؟!"⁽²⁾. فالأديب انتزع صورةً تكررت كثيراً في أشعار العرب، وهي صورة تشبيه البعد، والفراق بالنار، لما يحدثانه من أثر على نفوس الأحبة والعاشقين. وهذا يقترب من قول أبي فراس الحمداني:

تَكَادُ تُضِيءُ النَّارُ بَيْنَ جَوَانِحِي إِذَا هِيَ أَذْكَتْهَا الصَّبَابَةُ وَالْفِكْرُ⁽³⁾

ويواصل الأديب حكاية عشقه للطبيعة، فيصورُ الاغتراب، وتتابع ويلاتِهِ، وقسوة معاناتِهِ باليم، وللمتلقي أن يتصورَ مدى تلك المعاناة من خلال تجسيمها في صورة البحر.

ركّز الأديب على طرح الصفات التي تترك آثاراً سيئة على المجتمع، وتصويرها بصورة مرعبة؛ لعل من يتعاطى مثل هذه الصفات أن يدعها، ومنها الجدال، يقولُ مُحَمَّدُ الْمُبَارَكُ: "فسد ما بين الخافقين بسواده، وطفق يرمي بسهام جداله في جلده"⁽⁴⁾. حيثُ شكّل بنيةً تشبيهيةً بليغةً مُعتمداً على تجسيم المعنويات، مُشبهاً الجدالَ بالسهمِ النَّافذة، مع ما في المشهد من رعب، وخوف زاد من أثره جمعُ كلمة (سهام)، وجملة (طفق يرمي) بما فيهما من استمرارية وتجدد.

ويشارك الأديب أفراد المجتمع في عاداتهم وتقاليدهم، فلم يعد يعبأ هؤلاء بصديق وجدوا منه ما يكرهون، فدنفوا هذه الصداقة التي لا تستحق التمسك بصاحبها في لحد النسيان، ومن هنا حاول هؤلاء عند تشكيل بنياتهم التشبيهية التليغية إخراج الصور من قالب الإدراك العقلي إلى مجال الرؤية الملموسة؛ بغية تحويل ذلك الأمر المعنوي إلى إدراك مشاهد بالأثر المادي حتى تجمعت أمام المتلقي تلك المرئي البصريّة المشاهدة، ومن هذا المشهد يشكّل المباركُ بنيةً تشبيهيةً جديدةً يخرج فيها الصورة من عوالم المعقول إلى مشاهد بصرية ظاهرة للعيان، يقول: "إن رأيت من صديق لي ما أكره، واريته في لحد التناسي، وعظمت لقلبي فيه أجره"⁽⁵⁾.

(1) الطيّان، مُحَمَّد، المُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (أبهى مَقَامَةٍ فِي الْمُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْعُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص 165).

(2) المَرَجُ السَّابِق، ص 164.

(3) الْحَمْدَانِي، دِيُونُ أَبِي فِرَاسٍ، (ص 165).

(4) الطيّان، المُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (ثُضْرَةُ الْبَهَارِ فِي مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)، (ص 130).

(5) الطيّان، المُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (أبهى مَقَامَةٍ فِي الْمُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْعُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص 174، ص 175).

إنَّ الخَلَّ الوَفِيَّ كَنَزٌ منَ أعظَمِ الكُنُوزِ الَّتِي يَمْتَلِكُهَا الإِنْسَانُ، كَيْفَ لا؟ وَهُوَ مِفْتَاحُ النِّفْعِ، وَجَالِبُ الخَيْرِ، أَمَّا صَدِيقُ المَنْفَعَةِ فَعَلَى التَّقْيِضِ، وَمِنْ هُنَا صَوْرٌ مُحَمَّدٌ المُبَارَكِ التَّنَاسِي بِاللَّحْدِ مَقْدَمًا المَعْنَوِيَّ، وَهُوَ التَّنَاسِي فِي صُورَةٍ مَرِيئَةٍ مَحسُوسَةٍ، وَهِيَ صُورَةُ اللَّحْدِ مَعَ مَا يَحْمِلُهُ المَشْهَدُ مِنْ حَزَنِ، وَمَا يَسْتَحْفُهُ صَدِيقُ المَنْفَعَةِ مِنْ مَوَارَاةٍ فِي لِحودِ التَّنَاسِي، وَقَبُورِ النِّسْيَانِ.

يُقَدِّمُ مُحَمَّدُ المُبَارَكِ مَجْمُوعَةً مِنَ البِنَى التَّشْبِيهِيَّةِ البَلِيغَةِ المِتْجَاوِرَةِ، مُعْتَمِدًا عَلَى عُلُومِ البَلَاغَةِ الثَّلَاثَةِ، يَقُولُ: "كَيْفَ تَهْتِكُ بَسَانِ لِسَانِكَ ثُوبَ عَرَضِي، وَتَفْتَكُ بِي وَأَنْتَ فِي حَيِّي وَأَرْضِي؟"⁽¹⁾، حَيْثُ انْتَقَى مِنْ عِلْمِ المَعَانِي الِاسْتِنْفَاهِ فِي قَوْلِهِ: (كَيْفَ تَهْتِكُ؟) وَمَا حَمَلَهُ الِاسْتِنْفَاهُ مِنَ الإِنكَارِ، وَاخْتَارَ مِنَ البَيَانِ التَّشْبِيهَ البَلِيغَ فِي قَوْلِهِ: (بَسَانِ لِسَانِكَ)، حَيْثُ صَوَّرَ اللِّسَانَ، وَمَا يَقْدَفُ مِنْ حِمَمِ الفَحْشِ بِنَصْلِ الرِّمْحِ، مَعَ مَا فِي المَشْهَدِ مِنْ تَوْضِيحِ اللُّفْحِشِ، وَالبِدَاةِ، ثُمَّ وَاصَلَ بِبِنِيَّةٍ تَشْبِيهِيَّةٍ بَلِيغَةٍ أُخْرَى فِي قَوْلِهِ: (ثُوبَ عَرَضِي) مَصُورًا العَرَضَ بِالثُّوبِ الَّذِي يَتَعَرَّضُ لِلدَّنَسِ إِثْرَ هَفَوَاتِ الأَلْسِنَةِ مَعَ مَا فِي المَشْهَدِ مِنْ تَجْسِيمِ المَعْنَوِيَّ فِي صُورَةٍ حَسِيَّةٍ، وَلَمْ يَبْرَحْ مُحَمَّدُ المُبَارَكِ المَشْهَدَ حَتَّى زَيَّنَهُ بِلَوْنٍ مِنَ البَدِيعِ، وَهُوَ الجِنَاسُ النَّاقِصُ (المُضَارِعُ) فِي قَوْلِهِ: (أَرْضِي، وَعَرَضِي) مَعَ مَا يَحْدِثُهُ الجِنَاسُ مِنْ جَرَسِ مَوْسِيقِيٍّ مُفَعِّمٍ بِالعَذُوبَةِ، وَالنَّقَاءِ.

هَكَذَا أَطْلَقَ الأَدْبَاءُ العَنَانَ لِأَقْلَامِهِمْ لَتَكْتَبَ أَجْمَلَ الكَلِمَاتِ، وَتَشكُلَ أَرْوَاعَ اللُّوْحَاتِ، وَتَعْرِفَ أَعْدَبَ المَقْطُوعَاتِ فِي عَوَالِمِ التَّشْبِيهِ البَلِيغِ مَعْتَمِدِينَ عَلَى تَجْسِيمِ المَعْنَوِيَّاتِ مِنْ نَاحِيَّةٍ، وَاسْتِنْفَاقِ الجَمَادَاتِ مِنْ نَاحِيَّةٍ أُخْرَى، فَفَتَحُوا أَمَامَ المُتَلَقِّينَ أَبْوَابًا كَانَتْ مُوَصَّدَةً، وَحَرَّكُوا دَاخِلَهُمْ مَشَاعِرَ كَامِنَةً كَانَتْ يَوْمًا دَفِينَةً، فَعَاشَ هَوْلَاءِ صُحْبَةَ البِنَى التَّشْبِيهِيَّةِ حَيَاةَ العَصْرِ العُثْمَانِيَّ، وَأَلْفُوا عَادَاتِهِ وَتَقَالِيدَهُ، وَأَدْرَكُوا خُصُوصِيَّاتِهِ الَّتِي كَانَتْ تَخْفَى عَلَيْهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ. فَتَزَيَّنَتِ المَقَامَاتُ بِهَذِهِ التَّشْبِيهَاتِ، وَعَلَتِ التَّشْبِيهَاتُ صُحْبَةَ المَقَامَاتِ، وَكَانَ كَلًّا مِنْهُمَا تَكْفُلُ بِإِخْفَاءِ هُنَاتِ الآخَرِ.

البِنَى التَّشْبِيهِيَّةُ التَّمثِيلِيَّةُ

وَلِلتَّشْبِيهِ التَّمثِيلِيَّ نَصِيبٌ فِي المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةِ، وَإِنْ كَانَ حِطَّةً أَقَلَّ مِنَ التَّشْبِيهِ المَرْسَلِ وَالبَلِيغِ، وَالتَّشْبِيهِ التَّمثِيلِيَّ مَا كَانَ وَجْهَ الشَّبهِ فِيهِ وَصْفًا مُنْتزِعًا مِنْ مُتَعَدِّدٍ، أَوْ هُوَ تَشْبِيهُ هَيْئَةٍ مَرْكَبَةٍ بِهَيْئَةٍ مَرْكَبَةٍ، وَقَدْ أوردَ القُرُونِيُّ ذَلِكَ قَائِلًا: "التَّمثِيلُ مَا وَجْهُهُ وَصْفٌ مُنْتزِعٌ مِنْ مُتَعَدِّدٍ أَمْرِينَ، أَوْ أُمُورٍ"⁽²⁾.

(1) الطَّبَّانِ، المُفَاخَرَاتِ وَالمُنَاطَرَاتِ (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِي المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الغُرَبَةِ وَالإِقَامَةِ)، (ص 178).

(2) القُرُونِيُّ، الإِيضَاحُ، (ص 371).

وَبُعْدُ التَّشْبِيهِ التَّمثِيلِيُّ مِنْ أْبْلَغِ أَنْوَاعِ التَّشْبِيهِ وَأَغْنَاهَا بِخَطْوَتِهِ وَأَلْوَانِهِ، وَأَكْثَرُهَا حَيَوِيَّةً وَحَرَكَةً؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ تَشْبِيهاً مَيْسُوراً يَدُورُ حَوْلَ صِفَةٍ وَاحِدَةٍ، وَإِنَّمَا تَتَعَدَّدُ فِيهِ الصِّفَاتُ الْمَنْشُودَةُ فَيُضِجُ بِالْحَرَكَةِ، وَتَتَابِعُ نَبْضِ الْحَيَاةِ.

وَقَدْ اسْتَوْعَبَتِ الْبُنْيَةُ التَّشْبِيهِيَّةُ التَّمثِيلِيَّةُ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ مَسَاحَةً قَلِيلَةً، وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَعُودُ إِلَى طَبِيعَةِ الْمَقَامَةِ الَّتِي تَرَكَّزُ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ عَلَى الْمُحَسَّنَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ التَّشْبِيهِ التَّمثِيلِيِّ فِي الْمَقَامَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ قَوْلُ أَحْمَدَ الْبَرْبَيْرِ: "وَسِيرَ بِي الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ كَمَا تَسِيرُ الْعَيْسُ فِي الْبَطَاحِ"⁽¹⁾، حَيْثُ شَكَّلَ الْبَرْبَيْرُ بِذِكَاةٍ خَارِقٍ، وَرَسَمَ فِي بَرَاةٍ فَائِقَةٍ مَشْهُدًا مِنْ مَشَاهِدِ الْحَيَاةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَقَدْ صَوَّرَ هَيْئَةَ الْفَلَكَ الَّتِي تَسِيرُ فِي الْبَحْرِ وَسَطَ تَتَابِعِ الْأَمْوَاجِ، وَمَا تَتَعَرَّضُ لَهُ مِنْ عَوَاصِفَ، بِهَيْئَةِ الْعَيْسِ الَّتِي تَحْمِلُ الْأَثْقَالَ فِي الصَّحْرَاءِ، وَمَا تَوَاجَهُ مِنْ صَعُوبَاتٍ، مَعَ مَا فِي هَذَا الْمَشْهُدِ مِنْ رِسْمٍ لِلْوَحَةِ مَأْلُوفَةٍ فِي الْبَيْئَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

لَقَدْ اسْتَعَانَ الْأُدَبَاءُ فِي تَشْكِيلِ الْبُنْيَةِ التَّشْبِيهِيَّةِ التَّمثِيلِيَّةِ بِمَا اخْتَرْنَ فِي أَذْهَانِهِمْ مِنْ صُورٍ وَأَحْدَاثٍ، يَقُولُ أَحْمَدُ الْبَرْبَيْرُ: "وَهُمْ يَمْزِجُونَ جَدَّهُمْ بِالْمَفَاكِهِةِ، وَالْمَدَاعِبَةِ، وَالْمَبَاسِطَةِ، وَيَزْهَوْنَ كَالْعَقْدِ وَصَاحِبِ الْمَنْزِلِ لَهُمْ كَالْوَاسِطَةِ، وَمَجْلِسُهُ يَحْتَفِلُ بِالْوَافِدِينَ، وَيَغْصُ بِالْوَارِدِينَ"⁽²⁾. فَقَدْ وَظَّفَ الْأَدِيبُ مَشْهُدًا حَيًّا مُفَعَّمًا بِالْحَرَكَةِ يَقُومُ عَلَى دَالِيْنِ يَكْمَلُ كُلُّ مِنْهُمَا الْآخَرَ، وَهُمَا (الْوَافِدُونَ)، وَ(صَاحِبِ الْمَنْزِلِ)، ثُمَّ عَفَدَ مَفَارِقَةً بَارِعَةً مُعْتَمِدًا عَلَى دَالِيْنِ جَدِيدِيْنِ هُمَا (العقد)، وَ(وَاسِطَةُ الْعَقْدِ) تَتِمَّازُ فِي هَذِهِ الْبُنْيَةِ مَشَاهِدَ الْجَمَالِ مُعْتَمِدًا عَلَى تَرَاثِ السَّابِقِيْنِ، فَجَعَلَ هَيْئَةَ صَاحِبِ الْمَنْزِلِ، وَمَكَانَتَهُ السَّامِيَةَ بَيْنَ الضُّيُوفِ الْوَافِدِيْنِ بِكُلِّ شَمُوحٍ بِهَيْئَةِ عَقْدِ الدَّرِّ التَّمِينِ الَّذِي يُمَثِّلُ صَاحِبَ الْمَنْزِلِ، وَوَاسِطَتَهُ، بِجَامِعِ سُمُوِّ الْمَكَانَةِ وَالْمَنْزِلَةِ، وَعُلُوِّ الرُّتْبَةِ فِي كِلَيْهِمَا، وَزَادَ الْمَشْهُدَ رُوعَةً اسْتَلْهَامُ تَرَاثِ السَّابِقِيْنِ مُتَمَثِّلًا قَوْلَ أَبِي تَمَّامٍ:

فَأَضَحْتَ بِكَ الْأَحْيَاءُ أَجْمَعُ أُلْفَةً كَمَا أَحْكَمْتَ فِي النَّظْمِ وَاسِطَةَ الْعَقْدِ⁽³⁾

وقول ابن الرومي:

تَوَخَّى حِمَامَ الْمَوْتِ أَوْسَطَ صَبِيئِي فَلِلَّهِ كَيْفَ اخْتَارَ وَاسِطَةَ الْعَقْدِ؟⁽⁴⁾

(1) الطِّيَّان، الْمُفَاخِرَاتِ وَالْمُنَاطِرَاتِ (مَقَامَةٌ فِي الْمَفَاخِرَةِ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ)، (ص 29).

(2) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 44.

(3) أَبُو تَمَّامٍ، شَرْحُ دِيَّوَانِ أَبِي تَمَّامٍ، (ج 1/238).

(4) ابْنُ الرَّؤْمِيِّ، دِيَّوَانُ ابْنِ الرَّؤْمِيِّ، (ج 1/400).

وَيُبَدِّعُ الْأَدْبَاءُ فِي عَوَالِمِ التَّشْبِيهِ التَّمثِيلِيِّ، بِالْعُودَةِ إِلَى رَوَائِعِ الشَّعْرِ الْعَبَّاسِيِّ، وَرَسْمِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ النَّذَلِّ وَالْخُضُوعِ لِمَنْ يَسْتَحِقُّ، فَلَا مَكَانَ لِلْمُنَافِقِينَ، وَلَا مَتَّسَعٍ لِلْمُرْجَفِينَ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ شِهَابِ الدِّينِ الْخَفَاجِيِّ فِي مَقَامَةِ (الغربة):

لَوْ أَنْصَفُوهُ لَقَامُوا فِي مَجَالِسِهِ عَلَى الرُّؤُوسِ قِيَامَ الظَّلِّ فِي الْمَاءِ⁽¹⁾

فقد برع شهاب الدين الخفاجي في رسم المشهد لما استعان بمفردات الطبيعة من ظلال ومياه، حيث صور هيئة الملك وقد أحاطه الشموخ والعظمة والكبرياء، فوقف له الجميع دونما تردد إنصافاً، بهيئة الظل لما يقع في الماء فيبدو ثابتاً بجامع العظمة، والشموخ، والرُسوخ في كليهما. مع ما في المشهد من تحويل عناصر الطبيعة إلى لمسات تشخيصية متجانسة كل التجانس، ومتناسقة كأروع ما يكون التناسق، بما يحقق العمق الفني للتمثيل بأروع نماذجها، وأرقى مشبهاته.

الْبِنْيَةُ التَّشْبِيهِيَّةُ الضَّمْنِيَّةُ

وفي مشاهد قليلة ظهر التشبيه الضمني في المقامة، وهو تشبيه لا يوضع فيه المشبه، ولا المشبه به في صورة من صور التشبيه المعروفة، بل يلمح المشبه والمشبه به، ويفهمان من المعنى. ويكون المشبه به دائماً برهاناً على إمكان ما أسند إلى المشبه⁽²⁾. أو هو التشبيه الذي لا يذكر فيه المشبه والمشبه به صراحةً، وإنما يفهمان من فحوى الكلام، وسياق الحديث، و بمعنى آخر لم يُصرح فيه بأركان التشبيه، و لم يأت على الطريقة المألوفة المتعارف عليها في أسلوب التشبيه، وإنما يكون دليلاً لإثبات أمر غريب يُدعى حصوله، أو تعليلاً لحكم عجيب يُدعى إمكانه.

ومن روائع التشبيه الضمني ما حمله قول أحمد البربر: "وأنا لا أحب المعالي، وأنا سلم للمحل المنخفض، وحرب للمكان العالي"⁽³⁾. فقد شبه البربر خلو الرجل الكريم من الغنى، وحرمانه من المال لكثرة عطاياه، وهذا أمر غريب، لذلك ساق له دليلاً، فشبهه بحرمان المكان العالي من استقرار المياه عليه بجامع مطلق الحرمان، ولعل الروعة تبدو في تشكيل هذه الصورة بطريقة غير مباشرة، حيث يحتاج المتلقي إلى مزيد جهد، وإطالة فكر للوصول إلى طرفي

(1) الخفاجي، ربحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، (ص374).

(2) الجري، البلاغة التطبيقية، (ص106)، الهاشمي، جواهر البلاغة، (ص205).

(3) الطيآن، المفاحرات والمناظرات (مقامة في المفاحرة بين الماء والهواء)، (ص36).

التَّشْبِيهِ، وَهَذَا يَزِيدُ التَّشْبِيهَ جَمَالًا، وَيَمْنَحُهُ بِلَاغَةً بَخِلَافِ التَّشْبِيهَاتِ الصَّرِيحَةِ. وَقَدْ اعْتَمَدَ
الْأَدِيبُ فِي رَسْمِ الْبِنْيَةِ التَّشْبِيهِيَّةِ عَلَى قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ:

لَا تُكْرِي عَظَلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْغَنَى فَالَسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِيِ⁽¹⁾

إِنَّ الْأَدَبَاءَ بَرَعُوا فِي نَسْجِ صُورِهِمُ الشَّعْرِيَّةِ، وَتَشْكِيلِهَا مِنْ خِلَالِ تَوْظِيهِ الْبِنْيِ التَّشْبِيهِيَّةِ
الْمُرْسَلَةِ وَالْبَلِيغَةِ، مِمَّا أُعْطِيَ لَصُورِهِمْ بَعْدًا فَنِيًّا، وَمَقْيَاسًا جَمَالِيًّا يَدْفَعُ الْمُتَلَقِّيَ إِلَى الْوَلُوجِ فِي
عَوَالِمِ الْخَيَالِ لِرِصْدِ جَمَالِيَّاتِهَا، وَالْوُقُوفِ عَلَى مَوَاطِنِ الْإِبْدَاعِ فِيهَا، فَرَسَمُوا صُورًا لِلطَّبِيعَةِ
بِمُظَاهَرِهَا الْمُخْتَلَفَةَ، بِمَا فِيهَا الْإِنْسَانَ، وَالْحَيَوَانَ، وَالنَّبَاتِ، فَكَانَتْ أذْوَاقُهُمْ لِهَذِهِ الطَّوَاهِرِ أذْوَاقًا
مُمَيَّزَةً تَنْبِضُ بِالْحَيَاةِ، وَتَحْمَلُ رُؤْيَا عَمِيقَةً، وَتَظْهَرُ اعْتِرَازَهُمْ بِمَا كَانُوا يَتَنَاوَلُونَ مِنَ الصُّورِ،
وَافْتِخَارَهُمْ بِمَا يَقْدَمُونَ مِنْ مَشَاهِدٍ، وَلَمْ يَقِفِ الْأَمْرُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، بَلْ رَاحُوا يَسْتَلْهِمُونَ الْمَعَانِي
مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَالْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ، وَمَا حَفِظُوهُ مِنْ تَرَاثِ أَسْلَافِهِمْ فِي الْعُصُورِ السَّابِقَةِ،
حَيْثُ تَرَكَتْ تِلْكَ الْأُمُورُ بَصَمَاتٍ وَاضِحَةً عَلَى نُصُوصِهِمُ الْمَقَامِيَّةِ، وَجَسَدُوا كُلَّ مَا يَجُولُ فِي
خَوَاطِرِهِمْ بِأَسْلُوبِ أَدْبِي رَفِيعٍ يَظْهَرُ مَقْدَرَتُهُمُ الْفَنِيَّةَ فِي الصِّيَاغَةِ، وَالتَّعْبِيرِ، وَبِرَاعَتِهِمْ فِي
التَّشْكِيلِ، وَالتَّصْوِيرِ.

(1) أبو تمام، شرح ديوان أبي تمام، (ج2/38).

المبحث الثاني: التشكيل الاستعاري

الاستعارة أحد أبواب علم البيان. وقد تعددت تعريفاتها في مواضع شتى في مؤلفات علم البلاغة. وهي في اللغة مشتقة من الفعل (عور) يقال: استعار ثوباً فأعاره إياه ومنها قولهم: (كبر مستعار). وقد قيل مستعار بمعنى متعاور، أو مُتداول⁽¹⁾.

أما في الاصطلاح فلها تعريفات عديدة، وقد تنافس العلماء في وضع تعريفات لها تبين مفهومها لدى كبار علماء البلاغة العربية في عصورها المختلفة، وهي وإن اختلفت عباراتها؛ فإنها تكاد تكون متفقة مضموناً. ومن هذه التعريفات: "استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى الأصلي للكلمة، والمعنى الذي نقلت إليه الكلمة مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي"⁽²⁾. وقد عرفها القاضي الجرجاني بقوله: "ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصلي، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها، وملاكها بقرب التشبيه، ومناسبة المستعار للمستعار له، وامتزاج اللفظ بالمعنى، حتى لا يوجد بينهما منافرة، ولا يتبين في أحدهما إعراض عن الآخر"⁽³⁾.

ويورد ابن رشيق القيرواني رأيه في منزلة الاستعارة قائلاً: "الاستعارة أفضل المجاز، وأول أبواب البديع، وليس في حلي الشعر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعا، ونزلت موضعها"⁽⁴⁾.

وقد نالت الاستعارة اهتماماً كبيراً من أدباء المقامة، حيث تمكن هؤلاء من توظيف الصور البيانية الاستعارية في مقاماتهم تمكنهم من الصور التشبيهية في براعة، وقدرة فنية، باعتبار أن الاستعارة تمثل التطور الطبيعي للتشبيه، فهي تشبيه حذف أحد طرفيه، وهي لذلك طور النضج، والدقة الفنية، وقوة التصوير، وبعد الخيال⁽⁵⁾، مع ملاحظة أن التشبيه مواضعه التي لا يصلح فيها غيره.

وعند استعراض النصوص المقامية لأدباء العصر العثماني، نجد أن الاستعارة تمثل تصويراً بارعاً لصدق عاطفتهم، في خيال خصب، وإيقاع قادر على تصوير الانطباع الذاتي

(1) الجوهري، الصحاح، (ج2/761). مادة (عور).

(2) علوان، من بلاغة القرآن الكريم، (ص214)، أبو موسى، التصوير البياني، (ص215).

(3) القيرواني، العمدة، (ج1/172).

(4) المرجع السابق، ج1/268.

(5) الداية، جماليات الأسلوب والصورة الفنية في الأدب العربي، (ص125، ص126).

المتوافق مع المشاعر والوجدان، إضافة إلى ذلك فقد استنطأوا أن يجعلوا صورهم تموج بالحياة، والحركة، والصوت، والألوان التي أضفت على لوحاتهم بهجةً فوق بهجة، وجمالاً إلى جمال يصلان بالقارئ في نهاية المطاف إلى الإيمان بقدرة هؤلاء الفذة على تصوير رؤاهم، وعواطفهم، ورسم لوحاتهم، وصورهم الشعرية بالاستعارة أحياناً، ومع التشبيه أحياناً ببراعة، واقتدار.

إن المقامات تموج بفيض من فرائد الاستعارات التي تبعث الحياة في الأشياء، وتخلق بالقارئ في عالم الجمال، وتنقل إلى نفسه ما يدور في نفس الأديب، ووجدانه من أحاسيس، فإذا أحب شيئاً وصفه بفيض من الصفات التي تصوّره ملكاً علاً فضله على كل فضل، وإذا أحس بجمال الطبيعة جاء باستعارات هي الأقرب إلى نفثات السحر الحلال، تسبر أغوار النفوس فتفتح لها أبواب الجلال الموصدة التي نرتحل من خلالها إلى عوالم الحسن، وقضاءات الجمال.

وكما برع أدباء المقامة في رسم الصور التشبيهية، أبدعوا كذلك في تقديم المشاهد الاستعارية في نصوصهم المقامية، سواء التي اعتمدت على تشخيص المعنويات، أو استنطاق الجمادات، أو تلك التي تقوم على إضفاء الصفات الإنسانية على كل من المحسوسات المادية، والأشياء المعنوية، والظواهر الطبيعية، والانفعالات الوجدانية، وبث الحياة فيها، والتي قد ترتقي فتستحيل حياة إنسانية تهب لهذه الأشياء عواطف آدمية، وخلجات إنسانية⁽¹⁾.

تعد الاستعارة من الأساليب البيانية التي تسهم إسهاماً كبيراً في تشكيل الصورة الفنية، فهي "أفضل أساليب البيان، وأدقها تعبيراً وتأثيراً، وأجملها تصويراً، وأكملها تأدية للمعنى"⁽²⁾، وهي "أسمى من التشبيه في التصوير، وخلق الشعرية؛ لأنها تحمل طابع التخيل، فهي تقوم بنقل اللفظ أو العبارة من سياقها اللغوي الأصلي إلى سياق جديد غير مألوف، بغية إثراء النص بدلالات أبعده وأعمق؛ إذ إن جمالياتها تكمن في نقلها للمعنى مما هو مفهوم إلى ما هو انفعالي"⁽³⁾، لذلك نجد أدباء المقامة قد اعتمدوا على التشكيل الاستعاري في مقاماتهم اعتماداً كبيراً؛ لينطلقوا بها نحو إضاءات جديدة، وإبهاءات مقصودة. ومن روائع الاستعارات التي قامت على تشكيل عناصر الطبيعة، وتشخيصها في صورة فارسٍ منهزمٍ بعد مشهدٍ حركيٍّ يبدو في: "ومن تردى بساطع الأنوار، واحتبى بحباء الوقار، ولم يبق له ليل يصيح بجانبه نهار"⁽⁴⁾.

(1) يُنظر: قطب، النقد الأدبي - أصوله ومناهجه، (ص 61).

(2) عباس، البلاغة فونها وأفنانها - علم البيان والبدیع، (ص 158).

(3) كوهن، بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد الولي، ومحمد العمري، (ص 205).

(4) اليازجي، مجمع البحرين (المقامة الحليية)، (ص 58).

فَمَشَاهِدُ الرَّوْعَةِ، وروعةُ المَشَاهِدِ تبدو جليّةً هنا، فمَشَهُدُ اللَّيْلِ، وَمَا يَحْمِلُهُ من خوفٍ، ورعبٍ، وقسوةِ التَّفَاعُلِ مع مَشَاهِدِ الهزيمةِ، وما يتبعها من دُلٍّ، وعارٍ، قَدَّمت لنا لوحةً فنيّةً تمثّلت في ليلٍ منهزمٍ يصيحُ خلفه من يهزمه، وهو النَّهَارُ، مع ما في المَشَاهِدِ من إبداعٍ، وروعةٍ تجاوزتِ الحُدُودَ لَمَّا زَيْنَ المَشْهَدَ بِالمُتَنَاقِضَاتِ الَّتِي صورها قَوْلُهُ: (ليل يصيح بجانبه نهار).

وَمِنَ الرُّوَائِعِ الَّتِي جمعتُ بين البِنَى التَّشْبِيهِيَّةِ، والبِنَى الاستِعَارِيَّةِ ما رسمه شِهَابُ الدِّينِ الخَفَاجِي فِي قَوْلِهِ: "ولم تنتثر دُرُرُ المَدَامِعِ، إِلَّا من دُرٍّ مُودَعٍ في صدفِ المَسَامِعِ"⁽¹⁾. حَيْثُ تمثّلَ المَشْهَدُ فِي استعارتينِ مكنيتينِ، فقد جعلَ ما جرى من دموعه دُرّاً في نسقٍ رائقٍ، وجعل ما سمعه من أبي مضرٍ دُرّاً ذاتَ نظمٍ فائقٍ. كَمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ المَشْهَدُ تشبيهاً بليغاً لَمَّا صَوَّرَ المَدَامِعَ بالدُّرِّ، والمَسَامِعَ بالصدفِ من بابِ إضافةِ المُشَبَّهِ بهِ إِلَى المُشَبِّهِ، وما حَمَلَهُ التَّشْبِيهَانِ من توضيحٍ للمعاني، وبيانها.

وَمِنَ البِرَاعَةِ هُنَا "أَنَّهُ بَنَى عَلَيْهِ ما صيرَهُ بديعاً مستغرباً، حَيْثُ صيرَ الدُّرَّ الَّذِي كان مودعاً في الأذَانِ لرقتهِ دمعاً جرى من العُيُونِ والأجفَانِ، وتصرّف فيه تصرفاً آخرَ أخرجه من بابِ آخرٍ، فالظَّاهِرُ أَنَّهُ من قلبِ الأعيانِ الجوهريّةِ، كقلبِ عصا موسى حيّةً، فلنسمّه سحرَ الشعراءِ، وقلبِ أعيانِ المعاني"⁽²⁾.

وَيَتَفَوَّقُ ابنُ مَيْمُونِ الجزائريّ عَلَى أقرانه لَمَّا جمعَ بين البِنَى التَّشْبِيهِيَّةِ، والبِنَى الاستِعَارِيَّةِ أثناءَ حديثه عن الوطنِ، الَّذِي غَدَا في عقله قلادةُ النَّحْرِ، وواسطةُ عقودِ الدُّرِّ، فبدأ يرسمُ هَذَا المَشْهَدَ قَائِلاً: "فَتَحُّ وهرانَ، وما أدراك ما وهران؟، قاعدةٌ للملكِ، وواصلةٌ للسُّلُوكِ، وقلادةُ النَّحْرِ، وحاضرةُ البرِّ والبحرِ... أصبحت لسهامِ الأملِ هدفاً، ولدرِّ العُلَمَاءِ صدقاً، حساناً تسبي العُقُولَ، بين النَّقْطِ والسُّفُورِ"⁽³⁾.

إِنَّ ابنَ مَيْمُونِ الجزائريّ لَمَّا عَشِقَ الوطنَ شرعَ يرسمُ أجملَ اللُّوحَاتِ مزوجاً بين التَّشْبِيهِ والاستِعَارَةِ فِي مَشْهَدٍ أَخَذَ يستحقّه الوطنُ، فانتنقى من الكَلِمَاتِ أروعها، ومن المعاني أبعدها، استهلَّ خطوطه باقتحامِ حصونِ الجَمَالِ؛ ليصوّرَ وهرانَ بغادةٍ حساناً تتقلدُ الجواهرَ مع ما فِي المَشْهَدِ من حُسْنٍ، وبهاءٍ، ثمَّ يُشكِّلُ بِنِيَّةً استعاريّةً صُحْبَةَ تَشْخِيصِ المعنويّاتِ حَيْثُ ارتدّتِ العُقُولُ فِي ناظِرِيهِ فتاةً جَمِيلَةً تُسَبِّى، مع ما فِي المَشْهَدِ من إبداعٍ فِي الوصفِ، وجماليّةٍ فِي

(1) الخَفَاجِي، رِيحانة الألبانِ وَزَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا (مقامة الغربة)، (ص386).

(2) المرجع السابق، ص389.

(3) الجزائري، التُّحفة المرضيّة، (ص248).

التَّعْبِيرِ، وَيَبْدُو أَنَّ الْحَالَةَ النَّفْسِيَّةَ لِلأَدِيبِ أَسْهَمَتْ فِي إِتْمَامِ مَشَاهِدِ الْجَمَالِ، فَلَيْسَ أَجْمَلَ مِنَ الْوَطَنِ، وَلَا أَرْوَعَ مِنَ النَّصْرِ لِرِسْمِ أَجْمَلِ اللُّوْحَاتِ.

إِنَّ تَدَاخُلَ الْبِنَى يُعْطِي حَيَوِيَّةً تَثْرِي النُّصُوصَ الْمَقَامِيَّةَ، فَالْبِنَى الْمُتَجَاوِرَةَ نَتَلَمَّسُ إِحْيَاءَهَا فِي الصُّورَةِ التَّشْبِيهِيَّةِ وَالاسْتِعَارِيَّةِ، وَتَكُونُ أَحْفَلَ بِالذَّلَالَةِ الْوَجْدَانِيَّةِ، وَكَشَفَهَا عَنِ الْجَوَانِبِ الْخَفِيَّةِ فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ، خَاصَّةً إِذَا اتَّسَمَتْ بِالانْسِجَامِ وَالِاتِّسَاقِ، فَتَبْدَعُ لَنَا مَشْهُدًا تَسْعُدُ بِهِ النَّفُوسُ، وَتَقَرُّ لِرُؤْيَتِهِ الْعِيُونُ، وَتَطْمَئِنُّ صُحْبَتُهُ الْقُلُوبُ.

وَمِنْ رَوَائِعِ التَّشْكِيلَاتِ الْاسْتِعَارِيَّةِ مَا حَمَلْتُهُ (الْمَقَامَةَ السَّرُوجِيَّةَ) فِي قَوْلِ نَاصِيفِ الْيَازْجِي: "حَتَّى كَانَ يَوْمَ الْمَهْرَجَانِ، فَضَبَنْتُ مَخَالِبَ الشَّيْخِ بِالصَّوْلُجَانِ"⁽¹⁾. الْمَخَالِبُ أَظْفَارُ السَّبَاعِ اسْتَعَارَهَا لَهُ تَشْبِيهًا بِهَا فِي الْاِفْتِرَاسِ، وَالْمَشْهُدُ يَحْمَلُ فِي عِنَاوَانِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ مَا يَفِيدُ نَوْعًا مِنَ الصَّرَاحِ بَيْنَ عَنَاصِرِ الْبِنْيَةِ، وَالْمَمَارَسَةَ التَّشْكِيلِيَّةَ الْمُتَعَارَفَ عَلَيْهَا فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ، وَهِيَ صُورَةُ الْمَخَالِبِ وَالْأظْفَارِ الَّتِي طَالَ مَا رَسَمَهَا الشُّعْرَاءُ فِي أَعْمَالِهِمْ، حَيْثُ صَوَّرَ كَثِيرٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ الْمَنَايَا بِالْوَحُوشِ الضَّارِيَّةِ، وَشَرَعَ أَدْبَاءُ الْمَقَامَةِ يَقْتَفُونَ آثَارَهُمْ فِي اسْتِلْهَامِ هَذِهِ الصُّورَةِ فِي نُصُوصِهِمِ الْمَقَامِيَّةِ، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ أَبِي ذُوَيْبِ الْهَذَلِيِّ:

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتُ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تُنْفَعُ⁽²⁾

وَمِثْلُ هَذَا الْمَشْهُدِ تَمَامًا قَوْلُ شِهَابِ الدِّينِ الْخَفَاجِيِّ: "وَصَارَ لَا يَقْدُرُ عَلَى الْحَرَكَ، وَأَتَى وَقَدْ أَنْشَبَتْ بِهِ أَظْفَارُ الْهَلَائِكِ"⁽³⁾. فَقَدْ رَسَمَ الْخَفَاجِيُّ مَشْهُدًا تَشْكِيلِيًّا مَرُوعًا مِنْ مَشَاهِدِ الصَّرَاحِ الْكَامِنِ فِي تَنَائِيَا تَجْسِيمِ الْمَعْنَوِيَّاتِ، وَمَا حَمَلَهُ هَذَا الْمَشْهُدُ مِنْ رَهْبَةٍ، وَرَعْبٍ، وَسُوءِ عَاقِبَةٍ يَتَصَوَّرُهَا الْمُتَلَقِّي مَائِلَةً أَمَامَ نَاطِرِيهِ، وَقَدْ وَقَعَتِ الضَّحِيَّةُ بَيْنَ فَكَيِ الْمَوْتِ، وَأَظْفَارِ الْهَلَائِكِ.

وَتَتَشَكَّلُ الْبِنَى الْاسْتِعَارِيَّةُ فِي السَّاقِ عَلَى السَّاقِ، وَيُبْدَعُ أَحْمَدُ فَارِسُ الشُّدِّيَاقِ فِي تَقْدِيمِ أَرْوَعِ الصُّورِ مُعْتَمِدًا عَلَى تَجْسِيمِ الْمَعْنَوِيَّاتِ، وَاسْتِنْبَاطِ الْجَمَادَاتِ، فَتَبْدُو الْمَشَاهِدُ مَائِلَةً أَمَامَنَا وَكَأَنَّهَا صُورٌ مَرِيئَةٌ، فَيَرَسُمُ فِي قَوْلِهِ: "فَأَقَمْتُ فِي أَسْوَأِ حَالٍ، وَشَرُّ بَلْبَالٍ، وَالْهَمُومُ قَدْ انْتَالَتْ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَالْأَفْكَارُ مُتَطَايِرَةٌ عَلَى كُلِّ مُقَابِرٍ"⁽⁴⁾. فَقَدْ رَسَمَ مَشْهُدِي الْأَرْقِ وَالْأَلَمِ كَأَرْوَعِ مَا يَكُونُ الرَّسْمُ، وَنَظَمَ قَصِيدَةَ حَزْنٍ تَلْفُهَا الْهَمُومُ، وَتَتَنَابَهَا الشُّكُوى، وَيَرَسُمُ خُطُوطَهَا الضَّجْرَ، فَيَبْدُو

(1) الْيَازْجِي، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ السَّرُوجِيَّةَ)، (ص 174).

(2) دِيوَانُ الْهَذَلِيِّينَ، الشُّعْرَاءُ الْهَذَلِيِّينَ، (ج 3/1).

(3) الْخَفَاجِيُّ، رُبْحَانَةُ الْأَلْبَا (الْمَقَامَةُ الَّتِي عَارِضُ بِهَا الْوَطُوطِ)، (ص 397).

(4) الشُّدِّيَاقِ، السَّاقُ عَلَى السَّاقِ، (ص 50).

وكأنه يعيش في ليلِ كموج البحر أرخى سدوله عليه بأنواعٍ من الهموم، وأصنافٍ من الأحزان. ومن هنا انطلق يُصوِّرُ مشهداً جديداً حملة قوله: "فقلتُ من عنده غضبانَ نادماً، ولعنتُ الأرقَ الذي كان السببَ في أن أكونَ لمعلمي الصبيانِ مكالماً"⁽¹⁾. فلم يجدُ بدءاً حينها إلا أن يصوِّرَ الأرقَ عدواً لدوداً، وخصماً عنيداً يصبُّ عليه اللعناتِ مُعتمداً على تشخيصِ المعنوياتِ.

ويُبدعُ الأديبُ لما يزوج في بنيته الاستعارية بين الجمال، والضحك، والبكاءِ مُعتمداً على أنسنةِ عناصرِ الطبيعةِ في صورةِ أخاذه، يقولُ محمدُ المبارك: "فتضاحكتُ بماسمِ الرياضِ والغياضِ، غبَّ أن تباكتُ عيونُ الجداولِ والحياضِ"⁽²⁾. حيثُ استحالتِ الرياضُ والغياضُ حوراً تتعالى ضحكاتُها، وفي المقابلِ تبدو الجداولُ والحياضُ حسناواتِ انهمرتِ دموعهنَّ فبدتُ على الخودِ كاللآلئِ المضيئةِ، مع ما نقله المشهدانِ من تشخيصِ عناصرِ الطبيعةِ، وما حملاه من وضوحٍ وجلاءٍ صُحبةِ البنيةِ التقابليةِ التي رسمتُ لوحيتينِ متباعدينِ، لوحةَ الفرحِ، ولوحةَ الحزنِ.

لقد حملتِ المقامةُ معطياتِ تشكيليةً بيانيةً ذاتِ طبيعةٍ أخاذهِ رُبما فاقَتِ الشعرَ، بما امتلكه الأدباءُ من حريةٍ تتأى عن قيودِ الوزنِ، وأغلالِ القوافي، فاندفعوا يتلاعبونَ بالألفاظِ، ويرسمونَ بالكلماتِ لوحاتٍ تظهرُ في كلِّ جزءٍ من أجزاءِ المقامةِ، فلا تكادُ تتناولُ مشهداً من مشاهدِها حتى تُواجهَ بتشبيهه، أو تستمتعُ باستعاره، أو يجذبُ سمعَكَ كنايةً، ويبدو ذلكَ جلياً في (رِخانةِ الألبا وَزَهرةِ الحياةِ الدنيا) في قولِ فارسها، شهابِ الدينِ الخفاجي: "فطوحتني الطواحُ بأرجوحةِ الأمانِي، وهزنتني الأشعبيَّةُ إلى ماجدِ يبارزُ الرَّمَنَ الجاني"⁽³⁾.

إنَّ الممارسةَ التشكيليةَ في الاستعارةِ هنا قدَّمتُ مشهداً حيويّاً متحركاً دارتُ فصولُهُ بين ماجدٍ تقلدُ سيفه، قابلَ زماً شرعَ كذلكَ سيفه؛ ليشاركَ في هذه المبارزةِ، مع ما في التشكيلِ من تشخيصٍ للزمنِ في صورةِ فارسٍ صنيديٍّ، وما حملة ذلكَ من روعةِ الوشائجِ بين طرفي الصراعِ.

إنَّ فاعليةَ البنى الاستعاريةِ في المقاماتِ تأخذُ صداها وتألُقها في كثيرٍ من الأحيانِ، وذلكَ من خلالِ جعلِ تشكيْلِها يتركزُ على بثِّ الحياةِ في الماديَّاتِ والمعنويَّاتِ، وحينها ترتقي الأشياءُ إلى مرتبةِ الأحياءِ، ولعلَّ هذا التَّعبيرُ هو المرادفُ لما ينادي به المحدثونَ الآنَ، وهو تشخيصُ الجماداتِ، أو استنطاقِ عناصرِ الطبيعةِ، ومن مشاهدِ ذلكَ قولُ شهابِ الدينِ

(1) الشدياق، الساق على الساق، (ص51).

(2) الطيَّان، المفآخرات والمناظرات (غريب الأنباء في مناظرة الأرض والسَّماء)، (ص104). غبَّ: بمعنى العاقبة.

(3) الخفاجي، رِخانةِ الألبا وَزَهرةِ الحياةِ الدنيا (المقامة الروميَّة)، (ص368).

الْخَفَاجِيّ: "قَلَمًا عَطَسَ الصَّبَاحُ، شَمَّتَتْهُ كُلُّ ذَاتِ جَنَاحٍ"⁽¹⁾. فقد استحال الصَّبَاحُ إنساناً يعطس، وارتدَّت الطُّيُورُ رجالاً تشمَّتْ هَذَا العاطسَ، مع ما يحمله التَّشْكِيلُ الاستعاريُّ من جمالٍ تمثَّل في استِنطاقِ عَنَاصِرِ الطَّبِيعَةِ (الصَّبَاحِ)، و (كُلُّ ذَاتِ جَنَاحِ).

لَقَدْ بَرَعَ الْخَفَاجِيُّ فِي تَشْكِيلِ بِنْيَةِ اسْتِعَارِيَّةٍ مَزْدُوجَةٍ وَظَفَهَا تَوْظِيفاً رَائِعاً مُعْتَمِداً عَلَى دَالِّينِ هُمَا دال (الصَّبَاحِ)، ودال (كُلُّ ذَاتِ جَنَاحِ)، وكأني به يُحَاوِلُ بَثَّ الحَيَاةِ فِي عَنَاصِرِ الطَّبِيعَةِ، وجعلها حَيَّةً ناطقةً؛ لتمثَّل كَذَلِكَ قِيماً إِسْلَامِيَّةً، وهي حقُّ المسلمِ عَلَى أَخِيهِ المسلمِ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "خَمْسٌ تَجِبُ لِلْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ: رُدُّ السَّلَامِ، وتشمِيتُ العاطسِ، وإِجابَةُ الدَّعْوَةِ، وِعيادةُ المريضِ، وأتباعُ الجنائزِ"⁽²⁾.

انسجم الأديباءُ مع الواقعِ، وانصهروا في بوتقتهِ، ورسموا مشاهدَ حَيَّةً تبدو في كَثِيرٍ من النُّصُوصِ المَقَامِيَّةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ شِهَابِ الدِّينِ الْخَفَاجِيِّ: "ثُمَّ أَتَى لَزِيَارَةَ البَيْتِ والمَقَامِ، فلقِيَ من كانَ يبرِضُ مَعَهُ ثَدِي المِدامِ"⁽³⁾. ويُظهِرُ هَذَا المِقطعُ مِيلَ الْخَفَاجِيِّ لِتَشْكِيلِ الصُّورَةِ، فهو يُعْجِزُ مع فِعْلِ الرِّضَاعَةِ مَشْهُداً يَتفاعلُ فِيهِ الجامدُ مع المتحرِّكِ، فقد صَوَّرَ المِدامَ لِتَعَلُّقِ النَّاسِ بِهَا بِالْأُمِّ الَّتِي يَتَعَلَّقُ الرِّضِيعُ بِثَدِيهَا، مع ما فِيها من رِسمِ صُورَةِ تَشْخِيسِ المِدامِ فِي صُورَةِ طِفْلِ يَتَعَلَّقُ بِأُمِّهِ.

ويُلبِغُ الأَدِيبُ أحياناً إِلَى تَشْكِيلِ اسْتِعَارِيٍّ تَكُونُ فِيهِ لِلبِنْيَةِ التَّجْسِيمِيَّةِ بُعْداً فَنِيّاً يُضْفِي عَلَى النَّصِّ دلالاتٍ إِيحائِيَّةً، مستفيداً من التَّجَارِبِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي تَعتمدُ عَلَى المُقَابَلاتِ، ويُظهِرُ ذَلِكَ فِي قَوْلِ أَحْمَدَ فَارِسِ الشُّدِّيَّاقِ: "تَغيبُ فِيهِ الأَتْرَاحُ، وتَطْلُعُ مِنْهُ الأَفْرَاحُ"⁽⁴⁾. الَّذِي شَكَّلَ بِنْيَةَ تَجْسِيمِيَّةً صَوَّرَ فِيهَا الأَتْرَاحَ نُجُوماً تَغيبُ، وتَأفُلُ، وصَوَّرَ الأَفْرَاحَ شَمِساً تَشْرُقُ، وتَسْطَعُ، فتَمَلأُ الكونَ بِهَجَّةٍ وسَعادَةٍ. وَلَعَلَّ الشُّدِّيَّاقَ أَرادَ بِهَذَا التَّجْسِيمِ تَحْوِيلَ الأَتْرَاحِ والأَفْرَاحِ إِلَى تَصْوِيرِ مَرئِيٍّ يَمكِنُ مَشَاهِدَتَهُ؛ لِأَنَّ الصُّورَةَ البَصْرِيَّةَ تَكُونُ لَهَا قِيَمَةٌ رَمزِيَّةً تَأْتِي لِتَمثَّلَ عَمقَ الشُّعُورِ الَّذِي لا يَمكِنُ إِدراكَهُ إِلا بِالْحَسِّ والمَشَاهِدَةِ.

(1) الْخَفَاجِيُّ، رِيحانةُ الأَلْبَا (مَقامَةُ الغَرِيبَةِ)، (ص383).

(2) [مسلم، صحيح مسلم، كتاب (السلام)، باب (من حق المسلم للمسلم)، 1704/4: رَقْمُ الحَدِيثِ 2162].

(3) الْخَفَاجِيُّ، رِيحانةُ الأَلْبَا (مَقامَةُ عارِضِ بِهَا الْخَفَاجِيُّ مَقامَةُ الوَطواطِ، وهو رَشيدُ الدِّينِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ مُحَمَّدِ العَمريِّ المَعروفِ بالوَطواطِ)، (ص394). المِدامِ: الخمرِ.

(4) الشُّدِّيَّاقِ: السَّاقُ عَلَى السَّاقِ (مَقامَةُ مَشِيبَةِ)، (ص358).

وَمِنَ الْبِنَىِ الْاسْتِعَارِيَّةِ فِي النُّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَازْجِيِّ فِي (الْمَقَامَةِ الْحَلِيَّةِ): "وَقَالَ أَمَا إِنْ كَانَ قَدْ غَرَّكَ الْهَزَالُ، حَتَّى دَعَوْتُمْ نَزَالَ"⁽¹⁾. فَتَشْكِيلُ الصُّورَةِ الْاسْتِعَارِيَّةِ فِي قَوْلِ الْيَازْجِيِّ قَائِمٌ عَلَى تَشْخِيصِ الْمَعْنَوِيِّ، وَهُوَ (الْهَزَالُ)، وَذَلِكَ بِمَنْحِهِ صِفَةَ مِنْ صِفَاتِ الْأَحْيَاءِ (غَرَّكُمْ)، الَّتِي رَكْنَ إِلَيْهَا الْأَدِيبُ لِكَيْ يَتِمَّكَنَ مِنَ الْإِنْتِقَالِ إِلَى الدَّلَالَةِ الْإِشَارِيَّةِ لِلْأَلْفَاظِ؛ لِتَوْقُظَ حَالَةَ شُعُورِيَّةٍ، وَلَحْظَةَ انْفِعَالِيَّةٍ.

وَمِنَ التَّشْكِيلِ الْاسْتِعَارِيِّ كَذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَازْجِيِّ فِي (الْمَقَامَةِ الْفُؤْسيَّةِ): "تَبَطَّنَتْ الْأَقْدَارُ، وَاجْتَرَحَتْ الْمَغَارِمُ. فَأَخَذَ الْقَوْمُ فِي تَسْكِينِ ارْتِعَاشِهِ، وَتَمَكِينِ ارْتِعَاشِهِ، حَتَّى خَمَدَتْ لَوْعَتُهُ، وَهَمَدَتْ رَوْعَتُهُ"⁽²⁾، حَيْثُ لَجَأَ الْأَدِيبُ إِلَى تَجْسِيمِ الْمَعْنَوِيَّاتِ، فَاللُّوْعَةُ نَارٌ تُخَمَدُ، وَالرَّوْعُ أَشْيَاءٌ مَادِيَّةٌ تَهْمَدُ، حَتَّى انْتَهَى الْمَشْهُدُ بِالْتَوْقُفِ عَنِ النَّشِيحِ وَالتَّحْيِيْبِ مَعَ مَا يَصَاحِبُ الْمَوْقِفَ مِنْ هُدُوءٍ، وَسَكِينَةٍ تَضَمَّنْتَهُمَا كَلِمَتَا (خَمَدَتْ)، وَ(هَمَدَتْ).

وَمِنَ رَوَائِعِ التَّشْخِيصِ بِالْاسْتِعَارَةِ قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَازْجِيِّ فِي (الْمَقَامَةِ الْهَزَلِيَّةِ): "حَكَى سَهِيلُ بْنُ عَبَّادٍ قَالَ كَانَ لِي زَوْجَةٌ صَنَاعُ الْيَدَيْنِ، كَرِيمَةُ النَّبْعَتَيْنِ، فَحَسَدْتَنِي عَلَيْهَا الْمُنُونُ، وَخَانَنِي فِيهَا الدَّهْرُ الْخَوُونُ، فَلَبِثْتُ بَعْدَهَا طَوِيلًا، أَرَدْتُ زَفْرَةً وَعَوِيلًا، وَأَنُوحَ بَكْرَةً وَأَصِيلًا، حَتَّى حَالَ عَلَيْهَا الْحَوْلُ، وَآلَتِ الْفَرِيضَةُ إِلَى الْعَوْلِ، فَجَاجَتَنِي الْحَوْبَاءُ أَنْ أُسْتَبَدَلَ مَا طَابَ لِي مِنَ النِّسَاءِ"⁽³⁾. حَيْثُ بَرَعَ الْيَازْجِيُّ فِي تَوْظِيْفِ بِنْيَةِ تَشْخِيصِيَّةٍ فِي تَشْكِيلِ اسْتِعَارِيٍّ مَنْحَ فِيهَا الْمَعْنَوِيَّاتِ الَّتِي يَأْلِفُهَا بَعْضُ صِفَاتِ الْبَشَرِ، وَهِيَ الْحَسَدُ فِي قَوْلِهِ: (حَسَدْتَنِي الْمُنُونُ) فَصِيرَ الْمُنُونَ إِنْسَانًا يَحْسُدُ، وَقَوْلِهِ: (خَانَنِي الدَّهْرُ)، حَيْثُ أَلْبَسَ الدَّهْرَ رِدَاءَ الْخِيَانَةِ، ثُمَّ خَتَمَ بِقَوْلِهِ: (نَاجَتَنِي الْحَوْبَاءُ)، وَكَأَنَّ الْيَازْجِيَّ أَلْفَ الْعَلَاقَةِ مَعَ النَّفْسِ، وَبَدَأَ بِمَنَاجَاتِهَا مَنَاجَاةَ الْعَاقِلِ؛ عَلَيْهِ يَجْدُ فِيهَا مَا يُؤْنَسُ وَحَسَنَةٌ، وَيُدَاوِي عِلَّتَهُ.

ارْتَحَلَ كُتَّابُ الْمَقَامَةِ صُحْبَةَ الْبِنَىِ التَّشْخِيصِيَّةِ، وَأَطْلَقُوا الْعَنَانَ لِقَرَائِحِهِمْ لِتَشْخِيصِ الْمَعْنَوِيَّاتِ، وَيَبْدُو ذَلِكَ لَدَى صَاحِبِ (الْآثَارِ الْفِكْرِيَّةِ) عَبْدَ اللَّهِ فِكْرِيٍّ، الَّذِي بَنَى الْحَيَاةَ فِي الْمَعْنَوِيَّاتِ فِي ثَنَائِهَا مَقَامَاتِهِ، يَقُولُ فِي (الْمَقَامَةِ الْفِكْرِيَّةِ): "فَيْسِرِي لِلْجَمِيعِ مَا يَسِرِي مِنْ تِلْكَ الْآرَاءِ السَّقِيمَةِ، وَيَحْدُثُ عَنْهَا مَا يَحْدُثُ مِنَ الشُّرُورِ وَالْمَصَائِبِ الْعَظِيمَةِ"⁽⁴⁾. فَالشَّوَاهِدُ تَكْشِفُ لَنَا أَنَّ كُتَّابَ الْمَقَامَةِ فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ وَظَفُوا الْبِنَىِ التَّشْخِيصِيَّةَ لِتَشْكِيلِ صُورٍ مُخْتَلِفَةٍ تَرَسِّمُ مَلَامِحَ

(1) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةِ الْحَلِيَّةِ)، (ص 321).

(2) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةِ الْفُؤْسيَّةِ)، (ص 421، ص 422).

(3) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةِ الْهَزَلِيَّةِ)، (ص 101). الْحَوْبَاءُ: النَّفْسُ، الْمُنُونُ: الْمَوْتُ.

(4) فِكْرِيٍّ، الْآثَارُ الْفِكْرِيَّةُ (الْمَقَامَةِ الْفِكْرِيَّةِ)، (ص 280).

العصر عن طريق تشخيص المعنويات، وكأنهم أرادوا أن ينقلوا مشهداً من مشهد الحياة، فالساسة سيطر عليهم الهوى، والآراء غلب عليها السقم والمرض، فأنزل فكري الآراء منزلة الإنسان السقيم الذي أعياه المرض؛ رغبة منه في رسم واقع يبدو أكثر تفاؤلاً.

ويواصل الفارس الرحلة، يعتلي صهوة جواده مُطلقاً تجاه البنى التجسيميّة؛ ليشكل صورة استعاريّة جديدة، ملامحها: "ويستخلص عنان السياسة من أيدي الأغراض النفيسة، والخصال الذميمة"⁽¹⁾. فالسياسة جواد أصيل يتحكم فarseه في عنانه، يحركه صوب دُرُوب السّلامَة، وينأى به عن سبل الندامة، مع ما في الصّورة من تجسيم للمعنوي في صورة حسيّة بارعة.

ولم يتوقف سيل البنى التشخيصية في مقامات عبدالله فكري، فهو يقدم مجموعة من التشكيلات الاستعارية المتتابعة، "فقامت النخوة في حسن روائها وهي تجر رداء كبرياتها، وتختال في ثوب خيالها"⁽²⁾.

إن الصفات الحميدة عبّرت عن شدة اعتداد الأديب بها، فقد رسم لوحة مشرقة للنخوة، زاد من جمالها لما كساها برداء الكبرياء، وثوب الخيلاء، وكأنه يصنهر المتلقي العربي في بوتقة المبادئ التي يصبو إليها، ويرسم أمامه دُرُوب الكرامة التي تزيئها النخوة، ويعلوها الكبرياء في رداء العفة والإباء. متمثلاً قول أبي العتاهية:

أَتَتْهُ الْخِلَافَةُ مُنْقَادَةً إِلَيْهِ تَجْرُرُ أَدْيَالُهَا⁽³⁾

ويقترّب ابن ميمون الجزائري في (الثحفة المرضية) كثيراً من هذا التشكيل، ومن قول أبي العتاهية لما قصد التشخيص للمعنويات، يقول: "وبالجُملة فقد وافقته الرّياسة، وانفادت إليه السياسة، فانتقل إليها انتقال الشمس في مطلع السُّعود"⁽⁴⁾. فتشكيل الصورة هنا قائم على تشخيص المعنويات، حيث بدأ حديثه بتصوير الرّياسة في صورة إنسان يأتي طائِعاً، والسياسة في صورة رجل ينفاد مُذعناً للأمير، مع ما تحمله الصورتان من مكانة سامية، وهمة للأمير عالية دفعت الرّياسة والسياسة إلى منافسة البشر لخدمته، وتمهيد الطريق لمسيرته، فاعتلى المنصب، وانتقل لمهامه انتقال الشمس في مطلع السُّعود.

(1) فكري، الآثار الفكرية (المقامة الفكرية)، (ص 287).

(2) المرجع السابق، ص 289.

(3) أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، (ص 375).

(4) الجزائري، الثحفة المرضية، (ص 122).

ويرتدي صاحب (السَّاقِ عَلَى السَّاقِ)، أَحْمَدُ فَارِسُ الشَّدِيْقِ رِءَاءَ الإِبْدَاعِ، وَبِتَوْشَّحِ بوشاحِ البَّرَاعَةِ، يَقُولُ: "قَالَ وَذَلِكَ إِنِّي صَعَدْتُ فِي دَرَجَاتِ هَذِهِ الخَطَّةِ، وَنَزَلْتُ فِي دَرَكَاتِهَا، وَعَانَيْتُ ضَرْوِيًّا مِنْ أخطَارِهَا وَهَلَكَاتِهَا، فَوَجَدْتُ عِنْدَ كُلِّ دَرَجَةٍ مِنْهَا مَهْوَاةً تَغِيْبُ فِيهَا الأَحْلَامُ، وَتَضِيْعُ الأَفْهَامُ"⁽¹⁾.

إِنَّ تَشْكِيلَ الصُّوْرِ الاسْتِعَارِيَّةِ فِي الأَسْطُرِ السَّابِقَةِ قَائِمٌ عَلَى تَجْسِيمِ المَعْنَوِيَّاتِ، فَقَدْ وَظَّفَ نَاصِيفَ الِيارِجِيِّ البِنِيِّ التَّجْسِيمِيَّةَ فِي تَشْكِيلِ صُوْرِ نُعْدُ مِنْ أْبْرَزِ الأَدْوَاتِ الَّتِي يَلْجَأُ إِلَيْهَا الأَدِيبُ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ رُؤْيَيْهِ، وَإِصْالِ تَجْرِبَتِهِ إِلَى المُتَلَقِّي، فَلَمَّا أَنْ نَتَّصَرَ الأَحْلَامَ شَمْسًا تَغِيْبُ، وَلَمَّا أَنْ نَتَخَيَّلَ الأَفْهَامَ أَمْوَالًا تَضِيْعُ، مَعَ مَا فِي المَغِيْبِ وَالضِّيَاعِ مِنْ حَالَةِ يَأْسٍ وَقُتُوْطٍ تُسَيِّطِرُ عَلَى نَفْسِ المُتَلَقِّي، وَتُذَكِّرُهُ دَوْمًا بِالمَوْتِ وَالنَّهَائِيَّةِ، وَتَنْقُلُهُ إِلَى مَشَاهِدِ يَوْمِ القِيَامَةِ.

وَمِنَ البِنِيِّ الاسْتِعَارِيَّةِ فِي النُّصُوصِ المَقَامِيَّةِ قَوْلُ الخَفَاجِيِّ فِي (المَقَامَةِ الرُّومِيَّةِ): "عَلَّ أَنْ يَفْتَحَ عَيْنُهُ عَمَّا تَتَنَّى عَلَيْهِ الحَقَائِبُ، وَيَبْتَسِمُ فَمَّ الأَفْقِ عَنِ صَبْحِ وَعْدِ صَادِقٍ، أَوْ كَاذِبٍ

قِيلَ لِي تَرْضَى بِوَعْدِ كَاذِبٍ قُلْتُ إِنْ لَمْ يَكُ شَحْمَ فَمَرَقٍ"⁽²⁾

فقد برع شهاب الدين الخفاجي في توظيف بنية تشخيصية في تشكيل استعاري أعطي فيها لأحد عناصر الطبيعة التي ألفها بعض صفات البشر، وهي (الابتسام) في قوله: (يبتسم فم الأفق)، وكأنه ألف الطبيعة، وبدأ بالاستمتاع بروعة مشهد ابتسام الأفق؛ علّه يجد فيها ما يؤنس وحشته، ويفرح كربته، كيف لا؟ وقد شاركه الأفق سعادته.

إِنَّ أُنْسَنَةَ الأَخْبَارِ، وَوَسْمَهَا بِسَمَاتِ العَاقِلِ، وَتَشْخِيصَهَا فِي التَّعْبِيرِ الاسْتِعَارِيِّ يَكْسِبُهَا صِفَةً إِنْسَانِيَّةً جَدِيدَةً سَعَى شِهَابُ الدِّينِ الخَفَاجِيُّ مِنْ خِلَالِهَا إِلَى رِسْمِ لَوْحَةٍ اسْتِعَارِيَّةٍ تُبَيِّنُ قُدْرَتَهُ الفَائِقَةَ عَلَى تَشْخِيصِ المَعْنَوِيَّاتِ، وَاسْتِنطَاقِ الجَمَادَاتِ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْقِفٍ، ثُمَّ البَّرَاعَةَ فِي الجَمْعِ بَيْنَ المُتَنَاقِضَاتِ، وَيَبْدُو ذَلِكَ جَلِيًّا فِي قَوْلِهِ: "وَلَمَّا بَعْدَتْ شَقَّةُ الِالْتِمَاسِ، وَعَمِيَتْ عِيُونُ الأَخْبَارِ، تَابَعَتْ جَوَاسِيْسُ الحَوَاسِ، تَقْفُو أَثَرَ بَرِيدِ الِانْتِظَارِ... ارْتَحَلَتْ الأَطْعَانُ، وَأَقْفَرَتْ الدِّيَارُ مِنْ السُّكَّانِ وَالجِيرَانِ. وَالكَرْمُ أَقَلَّ نَجْمُهُ، وَرَكَدَتْ رِيحُهُ، وَقَلَّ عِزْمُهُ، وَتَضَعَعَ رُكْنُهُ، فَمَا تَمَّ أَنَيْسُ، وَلَا الِيعَافِيرُ، وَلَا العَيْسُ"⁽³⁾.

(1) الشَّدِيْقِ، السَّاقِ عَلَى السَّاقِ (مَقَامَةٌ مَقْعَدَةٌ)، (ص 132).

(2) الخَفَاجِيُّ، رُحْبَانَةُ الأَلْبَا وَزَهْرَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا (المَقَامَةُ الرُّومِيَّةِ)، (ص 368).

(3) المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 368.

والصُورَةُ هذه تموجُ بالحركة، وتَفَجَّرُ بالحيويَّةِ الَّتِي حَمَلَتْهَا (ارتحلت الأظعان)، ثُمَّ تَرْتَدُّ إلى الهدوءِ والسُّكونِ في (ركدت ربحه، وأقل عزمه)، وهذا الانتقالُ يكسو البنى الاستعارية مزيداً من الجَمالِ والبهاءِ مِنْ نَاحِيَةِ، وينتقلُ بالمتلَقِّي من عوالمِ السَّامةِ والمللِ إلى التَّسليَةِ والانشراحِ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى، ويرتقي به من دُرُوبِ الضَّجْرِ، والتَّبَرُّمِ إلى فضاءاتِ الرِّضا، والقبولِ مِنْ نَاحِيَةِ ثالثة.

لَقَدْ شَكَّلَ شِهَابُ الدِّينِ الحَفَاجِي من البنيةِ التَّشخيصِيَّةِ استعارةً أعطى فيها لعنصرِ الطَّبِيعَةِ الَّتِي أَلْفَهَا، وعاشَ فيها بعضَ صفاتِ البشري، وهي العناق والتَّقبيلُ لإنتاجِ صورِهِ، وتحويلِ المَشاهدِ إلى صُورٍ تشخيصِيَّةٍ تَقْرُبُ المَعْنَى في ذهنِ المَتَلَقِّي، وَمِنْ رَوَائِعِ هَذَا التَّصْوِيرِ قَوْلُهُ: "والبحرُ قَدْ مَدَّ لعناقِها ساعديه، والأمواجُ تَقْبَلُ الأَرْضَ بين يديه، فأسمت في رياضها سوامي النَّظَرِ، وأجلت في حلبةِ الذَّهْنِ قَداحَ الفِكرِ"⁽¹⁾. فتشكيلُ الصُّورَةِ الاستعارِيَّةِ في المَقْطُوعَةِ السَّابِقَةِ قائمٌ عَلَى تَشخيصِ الطَّبِيعَةِ، واستِنطاقِ عَنَاصِرِهَا، وكأنَّ الأديبَ أراد أن يقدِّمَ لنا لوحةً فنيَّةً بارعةً لا مثيلَ لها، فأطلقَ العنانَ للعيونِ لتستمتعَ برؤيةِ مَشْهَدِ البحرِ يَمُدُّ ساعديه لعناقِ الأحبَّةِ، والأمواجُ تبدو متلهفةً لرؤيةِ الأصدقاءِ، فنُقْبَلُ الأَرْضَ بين أيديهم. وبذلك أضافَ جَمالاً إلى جَمالِ، وإبداعاً إلى إبداعِ في إطارِ أسلوبِيٍّ مغايرٍ موسومٍ بالإدهاشِ والطَّرَافَةِ، وبتُّ الحَيَاةِ في الجَماداتِ، فيرسمُ الخُطى للمتلقِّي؛ ليكتسبَ مزيداً من المُتعةِ، والانسجامِ.

كَانَتْ الفِتْنُ، وما زالتُ مادةً خصبةً للأدباءِ يشكِّلونَ حولَها أروعَ الصُّورِ، حَيْثُ استغلَّ الأدباءُ هذه المفردةَ في رسمِ خطورةِ المواقفِ، وما يتبعها من خرابٍ ودمارٍ، وَمِنْ هُنَا انطلقَ ابنُ مَيْمُونِ الجزائريُّ مُشاركاً سابقه في رَسْمِ مَشْهَدِ الفِتْنِ وخطورتِهَا، يَقُولُ: "ولنذكر ما كانَ من أمرِ الشَّرِيفِ ومعرشه، وإخراجهم إلى بدوِ البلادِ من حضره، ومن أوقَدَ ناراً صليَ بها، ومن أسالَ دماءَ الفتنَةِ غرقَ في بحرِها"⁽²⁾. حَيْثُ أرهبَ ابنُ مَيْمُونِ السَّامِعِينَ، وألقى الرُّعبَ في قلوبِ المَتَلَقِّينَ لَمَّا صَوَّرَ الفتنَةَ إنساناً مقتولاً غرقَ في بحرِ دمايهِ، وَلَمْ يَكْتَفِ بِذَلِكَ، بل أحاطَ المَشْهَدَ بالنَّيرانِ، وجعلَ الفتنَةَ بحراً متلاطمَ الأمواجِ مُعْتَمِداً عَلَى دالِ الشَّرْطِ (مَنْ)، والفعلِ المَاضِي في الشَّرْطِ والجزاءِ؛ ليكملَ مَشاهدَ الرُّعبِ عن طريقِ التَّحْقِيقِ؛ لِأَنَّ من أوقَدَ ناراً سيصطلي حتماً بلهيبِهَا، ومن أسالَ دماءَ الفتنَةِ سيغرقُ دوماً في بحرِهَا، مع ما يحمله المَشْهَدُ من تشخيصِ للمعنويِّ في صورةِ إنسانٍ (أسالَ دماءَ الفتنَةِ)، وتجسيمه في صُورَةٍ ماديَّةٍ مرعبةٍ في قَوْلِهِ: (غرق في بحرِها).

(1) الحَفَاجِي، رُبْحَانَةُ الألبا وزهرة الحَيَاةِ الدنيا (المقامَةُ الرُّوميَّةِ)، (ص 369).

(2) الجزائري، التُّحفة المرضِيَّة، (ص 141).

إِنَّ دِيدَنَ كُتَابِ الْمَقَامَةِ التَّوْبِيعِ الْمُتَجَدِّدِ فِي أَعْمَالِهِمْ، حَيْثُ لَمْ يَكْتَفِ هَوْلًا بِالْبِنَى التَّشْخِصِيَّةِ، بَلْ وَظَفُوا الْبِنَى التَّجْسِيمِيَّةَ لِتَشْكِيلِ صُورٍ اسْتِعَارِيَّةٍ قَادِرَةٍ عَلَى تَصْوِيرِ الْمَعْنَوِيَّاتِ، وَتَجْسِيمِ الْخَلْجَاتِ الَّتِي مَرُّوا بِهَا، وَإِبْرَارِ الْمَعَانِي بِصُورَةٍ تَبْدُو جَدِيدَةً تَعْبُرُ عَنِ مَوَاقِفِهِمُ الْعَاطِفِيَّةِ، وَتَجَارِبِهِمُ الشُّعُورِيَّةِ، وَتَوْشِيحِهَا بِأَثْوَابِ مَادِيَّةٍ، وَحِينَهَا يَتَرَاءَى الْغَائِبُ مَائِثًا، وَالْخَفِيُّ جَلِيًّا، وَالْمَعْنَوِيُّ مَادِيًّا، وَكَأَنَّ هَوْلًا الْكُتَّابِ ارْتَدَّ كُلُّ مِنْهُمْ رَسَامًا يَخُطُّ أَجْمَلَ اللَّوْحَاتِ، أَوْ فَنَانًا يَتَعَنَّى بِأَرْوَاعِ الْكَلِمَاتِ، فَيَسْبِرُ أَغْوَارَ النُّفُوسِ، وَتَسْتَحِيلُ أَعْمَالُهُ مِنْهَلًا عَدْبًا يَرِدُهُ الْمُشْتَاقُونَ، وَتَرْتَدُّ صُورُهُ دَوْحَةً عَظِيمَةً يَتَفَيُّوْا وَارْفَ ظِلَالِهَا الْمُتَعَطِّشُونَ.

هَكَذَا رَسَمَ مُحَمَّدُ الْوُرْغِي هَذِهِ الْمَشَاهِدَ الْاسْتِعَارِيَّةَ فِي (الْمَقَامَةِ الْخَمْرِيَّةِ) قَائِلًا: "وَإِذَا رَأَى فِي بَعْضِ صَحْبِهِ انْقِبَاضًا، نَزَعَهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَاضٍ، وَرُبَّمَا مَلَحَ مَعَهُمْ وَمَزَحَ، إِذَا نَضَبَ الْخَاطِرُ وَنَزَحَ، فَهَا أَنَا أَمْرُحُ فِي ظِلَالِهِ، وَلَا يَطْرُقُنِي طَارِقٌ بِمَجَالِهِ. فَلَعَلَّكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَحْمَدُوهُ، وَتَنْهَلُوا مِنْ فَوَاضِلِهِ وَتَعَلَّوْا"⁽¹⁾. فَهِنَا يَبْدَعُ الْوُرْغِيُّ فِي تَجْسِيمِ الْمَعْنَوِيَّاتِ، فَيَصِيرُ الْخَاطِرُ بَيْنَ أَنْأَمِلِهِ مِنْهَلًا لَا يَنْضَبُ، وَتَرْتَدُّ الْفَوَاضِلُ مُورِدَ مَاءٍ يَنْهَلُ مِنْهُ الْمُتَعَطِّشُونَ، وَتَعْدُو الظَّلَالَ مُوْطِنَ مَرِحٍ يَحْمَلُ ذِكْرِيَّاتِ الصَّبَا، وَأَحْلَامِ الطُّفُولَةِ الْمَمْرُوجَةِ بِطَيْبِ الرِّيَاحِينَ، الْمَعَطَّرَةِ بِنَسِيمِ الصَّبَا.

وَيُؤَاصِلُ مُحَمَّدُ الْوُرْغِي رِحْلَتَهُ صُحْبَةَ تَشْكِيلِ الصُّورِ الْاسْتِعَارِيَّةِ، وَيَرْتَحِلُ بَعِيدًا إِلَى عَوَالِمِ الْحَزَنِ، وَتَشْخِصِ الْمَعْنَوِيَّاتِ، يَقُولُ: "وَلَبِثَ عَلَى تِلْكَ الصَّفْحَةِ الْعَجِيبَةِ، يَجْلُو كُلَّ يَوْمٍ غَرِيبَةً، إِلَى أَنْ أَظْهَرَ الدَّهْرُ الْقُطُوبَ، وَأَطْبَقَ الْغَارَةَ لَيْلُ الْخُطُوبِ"⁽²⁾. حَيْثُ انْدَفَعَ سَرِيعًا نَحْوَ دُرُوبِ الْحَزَنِ عَبْرَ الْبِنَى التَّشْخِصِيَّةِ، فَرَسَمَ صُورَةَ الدَّهْرِ يَلْفُهُ الْحَزَنُ، وَيَكْتَفِيهِ الْأَلْمُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَتَّى بَدَتْ مَلَامِحُ الْكَأَبَةِ فِي تَقَاسِيمِ وَجْهِهِ، بَلْ ابْتَعَدَ كَثِيرًا فِي تَكثِيفِ الدَّلَالَاتِ الْإِيْحَائِيَّةِ عَبْرَ كَلِمَاتٍ مُنْتَقَاةٍ بِدَقَّةٍ فِي عِبَارَةِ (لَيْلِ الْخُطُوبِ)، مَعَ مَا يَحْمَلُهُ اللَّيْلُ مِنْ رَعْبٍ، وَمَا تَحْمَلُهُ مُفْرَدَةٌ (الْخُطُوبِ) مِنْ جَلَلِ الْمُصَابِ، وَتَنَوُّعِ الْمَصَائِبِ عَبْرَ اسْتِخْدَامِ هَذِهِ الْمَفْرَدَةِ جَمْعًا.

وَلَا يَزَالُ كُتَّابُ الْمَقَامَةِ يَبْحَرُونَ فِي عَوَالِمِ الْجَمَالِ صُحْبَةَ التَّشْكِيلَاتِ الْاسْتِعَارِيَّةِ عَبْرَ تَجْسِيمِ الْمَعْنَوِيَّاتِ، يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِي: "أَمَّا تَسْتَحِي مِنْ اللَّهِ مِنْ رُكُوبِ هَذِهِ الْآثَامِ"⁽³⁾.

إِنَّ الْوُلُوجَ إِلَى أَعْمَاقِ (رُكُوبِ هَذِهِ الْآثَامِ) يَضَعُنَا أَمَامَ بِنْيَةِ تَجْسِيمِيَّةٍ، لَيْسَتْ زِينَةً زَخْرَفِيَّةً، أَوْ صُورَةً بِلَاغِيَّةً عَابِرَةً، بَلْ هِيَ تَجْسِيمٌ لِلْحَالَةِ الدَّاخِلِيَّةِ لِلْكَاتِبِ الَّذِي يَأْبَى فِي قَرَارِهِ نَفْسِهِ

(1) الْوُرْغِي، مَقَامَاتُ الْوُرْغِي وَرَسَائِلُهُ (الْمَقَامَةُ الْخَمْرِيَّةِ)، (ص 40).

(2) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 43.

(3) فِكْرِي، الْآثَارُ الْفِكْرِيَّةُ، (ص 298).

مساوئ الأَخلاق، ويرفضُ شرورَ الآثامِ عَبْرَ دلالةِ إيحائيةٍ تبدو سريعةً، يحملها قائدٌ هُمَامٌ يمتطي صهوةَ خيلٍ عربيٍّ أصيلٍ، وينشرُها في الآفاقِ انتشارَ النَّارِ في الهشيمِ.

وَرَغْبَةُ الْإِنْسَانِ الْجَارِفَةُ فِي طَلِبِ الْمَعَالِي لَا تَتَوَقَّفُ، وَحِينَهَا يُحَاوِلُ أَنْسَنَةَ تِلْكَ الْمَعَالِي، وَمَا يُرَافِقُ طَالِبَهَا مِنَ الْمَشَاقِّ لِلْوُصُولِ إِلَيْهَا، يَقُولُ مُحَمَّدُ الْمُبَارَكُ: "يُعَانِقُ الْمَشَاقَّ وَالْأَهْوَالَ، فِي كُلِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ. وَيُؤَيِّرُ مَا يُورِثُ الْمَجْدَ وَالسُّوْدُدَ، وَلَوْ أُلْفَ فِيهِ نَفْسَهُ وَأَجْهَدَ"⁽¹⁾. حَيْثُ شَكَّلَ بِنِيَّةٍ تَشْخِصِيَّةً مُعْتَمِدًا عَلَى تَصْوِيرِ الْمَشَاقِّ وَالْأَهْوَالِ بِإِنْسَانٍ يُعَانِقُ، مُسْتَلْهِمًا قَوْلَ أَبِي فِرَاسِ الْحَمْدَانِيِّ:

تَهُونُ عَلَيْنَا فِي الْمَعَالِي نَفُوسُنَا وَمَنْ خَطَبَ الْحَسَنَاءَ لَمْ يُغْلَهَا الْمَهْرُ⁽²⁾

لقدْ عشقَ الأُدبَاءُ الطَّبِيعَةَ، وعاشوا في أحضانها، فلم يبرحوا عنصرًا من عنَّا صيرها إلا قَدَمُوهُ فِي تَشْكِيلِ اسْتِعَارِيٍّ مُبْهِرٍ أَخَازِ، معتمدينَ عَلَى تَشْخِصِ تِلْكَ الْعَنَاصِرِ، واسْتِنْتَاقَهَا، يَقُولُ أَحْمَدُ الْبَرْبِيرُ: "وأنتما حبيبتما بالسَّلام، وحبيبتما ما عطسَ الفَجْرُ، ودبَّ الظَّلامُ"⁽³⁾، فالتَّعبيرُ هنا فِي قَوْلِهِ: (عَطَسَ الْفَجْرُ) حمل أنسنةَ عنصرٍ من عنَّا صير الطَّبِيعَةَ، حَيْثُ غَدَا الْفَجْرُ رَجُلًا يعطسُ شأنه شأنُ كلِّ إنسانٍ عَلَى ظَهْرِ هَذِهِ الْبَسِيطَةِ.

وَلَمْ يَبْتَعُدْ أَحْمَدُ الْبَرْبِيرُ كَثِيرًا فِي قَوْلِهِ: "ورقصتُ بين أيدينا جوارِي الماءِ، وظهرتُ مع وجودِ شمسِنَا وبدورِنَا نُجُومُ النَّبَاتِ حَتَّى ظَنَنَّاها نُجُومَ السَّمَاءِ"⁽⁴⁾. فقد استحالَت جوارِي الماءِ فِي البِنْيَةِ الاستِعَارِيَّةِ فَنِيَاتٍ يَرْقِصْنَ، مع ما يحمله المَشْهُدُ مِنْ جَمَالِيَّاتِ التَّشْكِيلِ فِي حَرَكَةِ جوارِي الماءِ مِنْ نَاحِيَّةٍ، وتصويرِ تِلْكَ الْحَرَكَةِ بِرَقْصِ الْفَنِيَّاتِ الْحَسَنِ مِنْ نَاحِيَّةٍ أُخْرَى، وبِذَلِكَ أَضَافَ الْأَدِيبُ جَمَالًا إِلَى جَمَالٍ فِي هَذَا الْمَشْهُدِ صُحْبَةَ أَجْوَاءِ السَّعَادَةِ وَالْفَرَحِ.

وفي أحضانِ عنَّا صيرِ الطَّبِيعَةِ، وَعَوَالِمِ تَجَسُّيمِ الْمَعْنَوِيَّاتِ تَوَعَّلَ بِهَاءِ الدِّينِ الْبَيْطَارِ قَائِلًا: "قال: رويثُ عن الورقاءِ، بسندها عن العنقاءِ، قالت: نشرتُ جناحَ الهمةِ، وطرثُ في فضاءِ الحكمةِ"⁽⁵⁾. حَيْثُ شَكَّلَ الْأَدِيبُ لُوحَةً بَارِعَةً مِنْ التَّشْكِيلَاتِ الاستِعَارِيَّةِ، فقد استحالَتِ الْمَعْنَوِيَّاتُ بَيْنَ أَنْامِلِهِ طَائِرًا يَنْشُرُ جَنَاحِيهِ، وبتحرُّكٍ فِي سَنَى الْأَمْكَنةِ، مُصَوِّرًا عُلُوَّ الهمةِ فِي

(1) الطَّيَّان، المُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِي الْمُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرَبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص167).

(2) الحمداني، ديوان أبي فراس الحمداني، (ص165).

(3) الطَّيَّان، المُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (مَقَامَةٍ فِي الْمُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ)، (ص25).

(4) المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص25.

(5) الطَّيَّان، المُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (المُفَاخَرَةُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ)، (ص55).

المشهد. ولعلَّ المشهدَ الاستعاريَّ قريبٌ من الاستعارة التي صورها قوله تعالى: ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: 24].

وتغدو الأرض في نظر الأُدباءِ فارساً مغوراً استلَّ سيفه من غمده في قولٍ محمَّد المَبَارَك: "سَلَّتِ الْأَرْضُ سَيْفَ الْإِنْتِصَارِ مِنْ غَمْدِهِ، وَبِرَاعَةِ مَطْلَعِهَا عِبَارَةٌ عَنْ حَسَنِ الْإِبْتِدَاءِ بِشُكْرِ اللَّهِ وَحَمْدِهِ"⁽¹⁾. حيثُ شكَّلَ الأديبُ صورةً استعاريَّةً عبَّرَ تشخيص الجَمَادَاتِ، تمثَّلَتْ في تصوير الأرض في هيئة فارسٍ صنديدٍ استلَّ سيفه من غمده، وشرعَ يبارزُ الأعداءَ حتى حقَّقَ الانتصارَ.

ويسبحُ ابن الألويسيِّ في فضاءاتِ تجسيمِ المعنويَّاتِ، وينتقي ما يشاء من مشاهدِ الجَمالِ، فيشكِّلُ أروعَ اللُّوحاتِ في قوله: "وَمَتَّى كَانَتْ نَسَائِمُهُ تَغْشَى سَحَابَ الْإِكْتِنَابِ، وَتُمْطِرُ الْهَمُومَ فِي سَوْحِ الْأَلْبَابِ، وَكَانَ مُوَلَّعًا بِإِقْفَاعِ طَائِرِ الْقَلْبِ فِي أَشْرَاكِ الْمَصَائِبِ، وَعَضَّ الْأَفْتَدَةَ بِأَنْيَابِ النَّوَائِبِ"⁽²⁾. حيثُ قدَّم ابن الألويسيِّ صوراً مروعةً متتابعةً للاكتئابِ والمصائبِ، ومشاهدَ متواليَّةٍ لليأسِ والنَّوَابِ، فالكلماتُ تحملُ في ثناياها مزيداً من الرُّعبِ، والخوفِ، وازداد هذا الرُّعبُ لما صوِّرَ الهمومَ لكثرتها بالمطرِ، وشبَّه النَّوَابِ لعظمتها بالوحوشِ الضَّاريةِ، مما يُضفي على المشهدِ رعباً فوق رعبٍ، وخوفاً إلى خوفٍ، حيثُ نقلَ ابنُ الألويسيِّ المتلقِّي إلى ساحاتِ شاسعةٍ، ومساحاتٍ واسعةٍ يسيطرُ عليها الرُّعبُ، ويكتنفها الخوفُ، وتلفها الهمومُ، فترتعدُ فرائضه، وترتجفُ عواطفه.

وعودٌ على بدءٍ فقد قدَّم الأُدباءُ في نُصُوصِهِم المَقَامِيَّةِ صوراً جديدةً تحملُ في ثناياها كلَّ معاني الإبداعِ، حيثُ استخدَموا براعتهم في حشدِ المعاني، ومهاراتهم في صياغتها، وقدرتهم على استنباطِ الصُّورِ، فاستعملوا البنى التَّشخيصِيَّةَ والتَّجسيمِيَّةَ في تشكيلاتٍ استعاريَّةٍ عبَّرت عن كلِّ ما يجول في خواطرهم من مشاعرٍ وأحاسيسٍ، تجاوزت تلكَ البنى الدَّلالاتِ الأصليَّةِ إلى دلالاتٍ أُخرى إيحائيَّةٍ، فاستحال المعقولُ إلى محسوسٍ، والمحسوسُ إلى معقولٍ، وقد وفق الأُدباءُ أيَّما توفيقٍ في توظيفِ البنى التَّجسيمِيَّةِ والتَّشخيصِيَّةِ لتشكيل الاستعاراتِ؛ لأنَّهم وجدوا فيها الطَّرِيقَ الأقصرَ الذي يوصلهم إلى تجسيمِ المعاني، ونقلها من عالمها الجامدِ المُجرَّدِ إلى عالمٍ ينبضُ بالحياةِ، ويحملُ في طياته التجربةَ النَّفسيَّةَ، والفنيَّةَ للمبدعِ من جهةٍ، والتَّشويقِ والمُنعةِ للمتلقِّي من جهةٍ أُخرى.

(1) الطَّيَّان، المُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (عَرِيبُ الْأَنْبَاءِ فِي مُنَاطَرَةِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ)، (ص89).

(2) فكري، الآثارُ الفكريَّة، (ص88).

وتبقى الطَّبِيعَةُ دَوْمًا كما رأينا مصدرًا من مصادرِ تشكيلِ الصُّورَةِ الشَّعْرِيَّةِ، وتظلُّ عَنَّا صِرْهَا دالًّا من دوالِ رسمِ الألوانِ البَيَانِيَّةِ، حَيْثُ أَضْحَتْ بِكُلِّ ملامِحِهَا، وأشكالِهَا، وصفاتِهَا رافدًا جَدِيدًا، وأرضًا خصبَةً، ومناهلَ متدفِّقَةً يَرِدُهَا الأدبَاءُ لتشكلِ الصُّورَةَ الاستِغَارِيَّةَ النَّابِغَةَ من ذَهْنِ الأَدِيبِ وعاطفَتِهِ، وَمِنْ هُنَا استحالَتِ المَقَامَاتُ مرآةً صادقةً لأحداثِ العَصْرِ بِكُلِّ تجارِيهِ وآمالِهِ، وجميعِ بواعثِهِ وآلامِهِ.

المبحث الثالث: التشكيل الكِنائي

الكِنَايَةُ إِحْدَى فُنُونِ الْبَيَانِ، وَهِيَ طَرِيقَةٌ مِنْ طَرَائِقِ الْبَلَاغَةِ، وَصُورَةٌ مِنْ صُورِهَا الَّتِي لَا يَصِلُ إِلَيْهَا إِلَّا مَنْ لَطَفَ طَبْعُهُ، وَصَفَتْ قَرِيحَتُهُ، وَلَهَا مِنْ أَسْبَابِ الْبَلَاغَةِ فِي مَيْدَانِ التَّصْوِيرِ الْأَدَبِيِّ مَا يَجْعَلُهَا دَائِمَةً الْإِشْرَاقَ، وَاضِحَةً الْمَعَالِمِ، دَقِيقَةً التَّعْبِيرِ وَالتَّصْوِيرِ، فَهِيَ تَأْتِي بِالْفِكْرَةِ مَصْحُوبَةً بِدَلِيلِهَا، وَالْقَضِيَّةِ وَفِي طَيِّهَا بُرْهَانُهَا⁽¹⁾.

وَالْكِنَايَةُ مِنْ أَسَالِيبِ الْبَيَانِ الْعَرَبِيِّ الَّتِي لَا يَقْوَى عَلَيْهَا إِلَّا كُلُّ بَلِيغٍ مَتَمَرِّسٍ بِفُنُونِ الْقَوْلِ، وَهِيَ لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ الْبَيَانِ، يَقْصُدُ بِهَا "لَفْظٌ أُرِيدُ بِهِ لَازِمٌ مَعْنَاهُ، مَعَ جَوَازِ إِرَادَةِ مَعْنَاهُ حِينَئِذٍ"⁽²⁾. وَقَدْ سَبَقَ السَّكَاكِيُّ إِلَى تَعْرِيفِ الْكِنَايَةِ قَائِلًا: "هِيَ تَرْكُ التَّصْرِيحِ بِذِكْرِ الشَّيْءِ إِلَى ذِكْرِ مَا يَلْزِمُهُ؛ لِيَنْتَقَلَ مِنَ الْمَذْكُورِ إِلَى الْمَتْرُوكِ"⁽³⁾. وَقَدْ قَرَنَهَا أَبُو هَلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ بِالتَّعْرِيضِ قَائِلًا: "وَهُوَ أَنْ يَكْنَى عَنِ الشَّيْءِ وَيَعْرِضَ بِهِ، وَلَا يَصْرُحُ عَلَى حَسَبِ مَا عَمَلُوا بِالتَّوْرِيَةِ عَنِ الشَّيْءِ"⁽⁴⁾.

أَمَّا الْإِمَامُ عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيُّ فَقَدْ عَبَّرَ عَنِ الْكِنَايَةِ بِصُورَةٍ أُخْرَى قَائِلًا: "أَنْ يَرِيدَ الْمُتَكَلِّمُ إِثْبَاتَ مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي فَلَا يَذْكُرُهُ بِاللَّفْظِ الْمَوْضُوعِ لَهُ فِي اللَّغَةِ، وَلَكِنْ يَجِيءُ إِلَى مَعْنَى هُوَ تَالِيَهُ، وَرَدْفَهُ فِي الْوُجُودِ فَيُؤَمِّئُ بِهِ إِلَيْهِ، وَيَجْعَلُهُ دَلِيلًا عَلَيْهِ"⁽⁵⁾.

وَتَنْقَسِمُ الْكِنَايَةُ بِاعْتِبَارِ الْمَكْنَى إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: كِنَايَةٌ عَنِ صِفَةٍ، وَكِنَايَةٌ عَنِ مَوْصُوفٍ، وَكِنَايَةٌ عَنِ نَسْبَةٍ، وَ"الْمَطْلُوبُ بِالْكِنَايَةِ لَا يَخْرُجُ عَنِ أَقْسَامِ ثَلَاثَةٍ؛ أَحَدُهَا: طَلَبُ نَفْسِ الْمَوْصُوفِ، وَثَانِيهَا: طَلَبُ نَفْسِ الصِّفَةِ، وَثَالِثُهَا: تَخْصِيصُ الصِّفَةِ بِالْمَوْصُوفِ"⁽⁶⁾.

وَلَعَلَّ أَسْلُوبَ الْكِنَايَةِ مِنْ أُنْسَابِ الصُّورِ الْبَيَانِيَّةِ لِأَدْبَاءِ فَنِّ الْمَقَامَةِ، لِحَاجَتِهِمْ دَوْمًا إِلَى عَدَمِ التَّصْرِيحِ إِمَّا احْتِرَامًا لِلْمُخَاطَبِ، أَوْ لِإِبْهَامِ عَلَى السَّامِعِينَ.

وَعِنْدَ الْحَدِيثِ عَنِ الْكِنَايَةِ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ، عَلَيْنَا أَلَّا نَغْفَلَ بِبَلَاغَتِهَا، وَسِرِّ جَمَالِهَا الَّذِي يَكْمُنُ فِي إِمْكَانِ تَنَاوُلِهَا دُونَ حَرَجٍ أَوْ لَوْمٍ. فَهِيَ كَمَا يَرَى ابْنُ حَبَّكَةَ الْمِيدَانِيُّ: "أَسْلُوبٌ ذَكِيٌّ مِنْ أَسَالِيبِ التَّعْبِيرِ عَنِ الْمَرَادِ بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ، وَهِيَ مِنْ أَجْمَلِ وَأَبْدَعِ فُنُونِ الْأَدَبِ،

(1) عبد التَّوَّابِ، الصُّورَةُ الْأَدَبِيَّةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، (ص 67، ص 68).

(2) الْقُرُونِيُّ، الْإِبْضَاحُ، (ص 456).

(3) السَّكَاكِيُّ، مِفْتَاحُ الْعُلُومِ، (ص 402).

(4) الْعَسْكَرِيُّ، الصَّنَاعَتَيْنِ، (ص 407).

(5) الْجُرْجَانِيُّ، دَلَائِلُ الْإِعْجَازِ، (ص 66).

(6) السَّكَاكِيُّ، مِفْتَاحُ الْعُلُومِ، (ص 403).

ولا يستطيع تصيّد الجَمِيلِ النَّادِرِ منها، ووضعه في الموضع الملائم لمقتضى الحال إلا أدكياًءِ
البُلغَاءِ، وفطناؤهم، وممارسو التّعْبِيرِ عَمَّا يريدون التّعْبِيرَ عنه بطرقٍ جَمِيلَةٍ بديعةٍ غيرِ
مباشرةٍ⁽¹⁾.

وَيَرِسُ أَحْمَدُ الْهَاشِمِيُّ لَوْحَةً بَارِعَةً فِي بَلَاغَةِ الْكِنَايَةِ قَائِلًا: "الْكِنَايَةُ مِنَ الْأَطْفِ أَسَالِيبِ
الْبَلَاغَةِ وَأَدَقُّهَا، وَهِيَ أْبْلَغُ مِنَ الْحَقِيقَةِ وَالتَّصْرِيحِ؛ لِأَنَّ الْإِنْتِقَالَ فِيهَا يَكُونُ مِنَ الْمَلْزُومِ إِلَى اللَّازِمِ،
فَهُوَ كَالدَّعْوَى بَبَيِّنَةٍ... كَيْفَ لَا؛ وَأَنَّهَا تَمَكَّنُ الْإِنْسَانَ مِنَ التَّعْبِيرِ عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ يَتَحَاشَى
الْإِفْصَاحَ بِذِكْرِهَا، إِمَّا احْتِرَامًا لِلْمَخَاطَبِ، أَوْ لِلإِبْهَامِ عَلَى السَّامِعِينَ، أَوْ لِلتَّيْلِ مِنْ خِصْمِهِ دُونَ
أَنْ يَدَعَ لَهُ سَبِيلًا عَلَيْهِ، أَوْ لِتَنْزِيهِ الْأُذُنِ عَمَّا تَتَبَوُّ عَنْ سَمَاعِهِ، وَتَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْرَاضِ،
وَاللَّطَائِفِ الْبَلَاغِيَّةِ"⁽²⁾.

إِن التَّشْكِيلَ الْكِنَائِيَّ يُعَدُّ أَحَدَ الْأَنْظُمَةِ الْفَاعِلَةِ فِي النُّصُوصِ الْأَدْبِيَّةِ، فَهِيَ تَمْنَحُ النَّصَّ
حَيَوِيَّةً وَثَرَاءً وَتَكْنِيفًا دَلَالِيًّا وَجَمَالِيًّا فِي أَنْ؛ إِذْ إِنَّهُ إِقْصَاءٌ لِلْمَعَانِي الْمُبَاشِرَةِ لِلدَّوَالِ، وَالتَّحْوُلُ عَنْهَا
إِلَى دَلَالَاتٍ إِحْيَائِيَّةٍ عَمِيقَةٍ، مَا يَجْعَلُ الْمُتَلَقِّيَّ يَشْعُرُ بِلَذَّةٍ فِي رِحْلَتِهِ الزَّمَانِيَّةِ وَالْمَكَانِيَّةِ فِي الْكُونِ
النَّصِّيِّ، لِاسْتِكْشَافِ تِلْكَ الدَّلَالَاتِ الْغَائِبَةِ، السَّابِحَةِ فِي فِضَائِهِ الْوَاسِعِ، وَحِيْزِهِ الشَّاسِعِ، مُعْتَمِدًا
عَلَى عِلَاقَةِ الْمَجَاوِرَةِ الَّتِي تَقُومُ أَسَاسًا عَلَى الْإِنْحِرَافِ بِالْأَلْفَازِ عَنْ طَرِيقِ التَّرْكِيبِ إِلَى أَلْفَازٍ
أُخْرَى مَجَاوِرَةٍ لَهَا فِي الدَّلَالَةِ، بِيَدِ أَنَّهَا أَكْثَرُ إِثَارَةً لِلْمَشَاعِرِ، وَالْإِحْيَاءِ الدَّفِينَةِ وَالْغَائِبَةِ فِي
مَنْطِقَةِ اللَّوْعِيِّ، أَيْ تَجَاوَزَ الْمَعْنَى الْحَقِيقِيَّ الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ إِلَى مَعْنَى آخَرَ أَكْثَرَ إِضَاءَةً
وَإِحْيَاءً؛ لِيَصْبِحَ التَّشْكِيلُ الشَّعْرِيُّ الْمُنَكَّرُ جَوْهَرَ الْإِبْدَاعِ الشَّعْرِيِّ فِي اعْتِمَادِهِ عَلَى الْإِنْزِيَاخِ
وَالخَرْقِ اللَّذِينَ يُخْرِجَانِ النَّصَّ الشَّعْرِيَّ مِنْ دَائِرَةِ الْمَأْلُوفِ إِلَى دَائِرَةِ التَّوَثُّرِ، وَإِثَارَةِ الْمُتَلَقِّيِّ
وَمَفَاجَأَتِهِ⁽³⁾.

والتَّشْكِيلَ الْكِنَائِيَّ "لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ الْأَسَالِيبِ يَخْرُجُ بِهِ الشَّاعِرُ إِلَى مَعَانٍ فِي اللُّغَةِ، يَتَجَوَّزُ
فِيهَا الْأَسَالِيبَ الَّتِي تَخْدُمُهُ إِلَى غَرَضِهِ مَعَ مَرَاعَةِ الْعِلَاقِ، وَالرُّوَابِطِ بَيْنَ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ
وَالْمَعْنَى الْمَذْكُورِ"⁽⁴⁾.

وَالْكِنَايَةُ مِنَ الْأَسَالِيبِ الْبَلَاغِيَّةِ الَّتِي تَمْلِكُ مَزَايَا تُصْنَفِي عَلَى الْمَعْنَى جَمَالًا، وَتَزِيدُهُ قُوَّةً فِي

(1) الْمَيْدَانِي، الْبَلَاغَةُ الْعَرَبِيَّةُ أَسْهَأُ وَعِلْمُهَا وَفَنُونُهَا، (ج2/141).

(2) الْهَاشِمِيُّ، جَوَاهِرُ الْبَلَاغَةِ، (ص290).

(3) يُنْظَرُ، يَاسِينُ، خِصَائِصُ الْأُسْلُوبِ فِي شَعْرِ الْبَحْتَرِيِّ، (ص345).

(4) أَحْمَدُ، الْكِنَايَةُ أَسَالِيبُهَا وَمَوَاقِعُهَا فِي الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ، (ص33).

إبراز المعاني وتجسيدها بصورة محسوسة مؤثرة، وعدّ العرب الكناية "من البراعة والبلاغة، وهي عندهم أبلغ من التصريح"⁽¹⁾.

اعتد كتاب المقامات التشكيل الكنائي في رسم صورهم، فقد شرع هؤلاء في تقديم مزيد من الكنايات في نصوصهم المقامية؛ لتثبيت دعواهم في نفس المتلقي، وهذا ما جعل النبي المتجاوزة عندهم تسهم في تشكيل صور متعددة، بل تدفعه إلى رسم لوحات بارعة، فقد عبروا عن كل ما تجود به قرائحهم، ويعينهم بذلك خيالهم؛ ليدل ذلك كله على سخاء هذه اللغة ومقدرتها في التعبير، وأداء المعنى بصور لا حصر لها، تعتمد على إبداع الكتاب وخيالهم في جميع هذه الصورة وتركيبها، فهي أبلغ من الحقيقة والتصريح، وهي أبلغ من الإفصاح والتعريض، وأوقع في النفس من التفرع⁽²⁾.

والكناية كغيرها من ألوان البيان تقف إلى جانب التشبيه والاستعارة عنصراً مهماً من عناصر التشكيل التصويري في المقامات العثمانية، كما تلعب دوراً كبيراً في رسم اللوحات البيانية، وهي تستمد جمالها بوصفها عنصراً تصويرياً من خلال ما تحمله من تشبيه الملكات، واستنارة الأذواق من خلال اللمحة، والإشارة، والتعريض، والرمز، والإيحاء، والمبالغة في وضع المعنويات في صور المحسوسات، ومن هنا ينطلق المتلقي؛ ليغوص في فضاءات الإيحاء والتخييل، ويلتقط المعاني والدلالات، ويقلب الوجوه والاحتمالات، وفي المقابل ينطلق الأديب في رسم بالكلمات أجمل اللوحات، ويخط بريشته أروع الكنايات، منتقلاً بين كناية الصفة، وكناية الموصوف، منتبهاً الجمال بالخطى الواقعات، فلا يدع للمتلقي باباً من أبواب الجمال إلا طرقة، ولا درياً من دروب الجلال إلا سلكه، ولا منهلاً من مناهل البهاء إلا وردّه.

وإذا عدنا إلى النصوص المقامية في العصر العثماني، فإننا نجد ما قد تزيّنت بنماذج رائعة للكناية، وقد عبر كتابها عن كل ما صاغته أذواقهم، ويعينهم بذلك أحاسيسهم المرهفة، ليدل ذلك كله على امتلاكهم زمام اللغة، وقدرتهم على التلاعب بمفرداتها كلما دعت الحاجة.

ونحن إذا تتقلنا بين صفحات (مجمع البحرين) لناصيف اليازجي، فإننا نجد عالماً شاسعاً من الكنايات البارعة، ومنها قوله في (المقامة الهزلية): "قلت أنا والمال في يدك، وكلانا لك واليك، قال حيالك الله فسنستبدل الجمر بالتمر، ولكن اليوم خمر، وغداً أمر، فقضينا يوماً

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (ج2/300).

(2) ينظر: القزويني، الإيضاح، (ص468). عتيق، علم البيان، (ص221).

صفا زلاله، وغاب عُدَّالُه⁽¹⁾. فَإِنَّ الْجَمْرَ كِنَايَةٌ عَنِ الشَّرِّ، وَالتَّمْرَ كِنَايَةٌ عَنِ الْخَيْرِ، أَمَا قَوْلُهُ: (يوماً صفا زلاله) فهو كناية عن طيبه مع ما صاحب الكناية من الإتيان بالمعنى صُحْبَةَ الدَّلِيلِ.

لَقَدْ فَجَّرَ أَدْبَاءُ الْمَقَامَةِ طاقاتهم الإبداعية في تشكيل صور كنائية عبروا من خلالها عن كثير من الصفات، كالحزن والقلق، والظرف، والتشمير، والجد، والاستقرار، والرجيل لرسم مشاهد الواقع في المجتمع العثماني، فقد طرق ناصيف اليازجي جميع الأبواب في عوالم الصور الكنائية، ومن هذه المشاهد قوله: "لمحت شيخنا الخزامي وابنته بجانب الطريق، ولديهما فتى قد لبس البياض، وتختم بالعقيق"⁽²⁾. فقوله: لبس البياض، كناية عن الظرفة، يقولون من لبس البياض، وتختم بالعقيق فقد حاز الظرف كله.

ومن الظرفة والفراغ ينتقل ناصيف اليازجي إلى صورة كنائية معاكسة تحمل في ثناياها التعب والنصب في قوله في (المقامة الأزهرية): "فשמذنا إزار السفر، وأوغلنا في تلك الفقر"⁽³⁾. وقوله في السطر السابق كناية عن صفة، وهي التشمير والجد، وكأنه أراد أن يرسم واقعا حقيقيا، ومشهدا حيا من مشاهد البيئة العثمانية الآخذاً.

لجأ كثير من الأدباء إلى البيئة لرسم صور كنائية يقتفون من خلالها حطى سابقهم من الشعراء العرب في رسم مشاهد الطبيعة، وتصوير شدة الحر في أشهر الصيف، ومن هؤلاء ناصيف اليازجي في قوله: "إلى أن حلت الشمس برج الأسد، ففارقني فراق الروح للجسد"⁽⁴⁾. فقوله: (حلت الشمس برج الأسد) كناية عن اشتداد حر الصيف، وهذا المشهد متعارف عليه في البيئة البدوية؛ لذا قيل في الأمثال البدوية: "برج الأسد يلصق الثوب على الجسد"⁽⁵⁾.

لم يبرح أدباء المقامة في العصر العثماني البيئة، فقد اعتمدوا على عناصرتها لتشكيل الصور الكنائية التي تتيح لهم عكس تجاربهم في أشكال أدبية تنسج بالمهارة الفارقة، والتنظيم الدقيق، والبراعة المنفردة، حتى وإن دفعهم ذلك إلى السفر بعيداً للخلف حيث البيئة الجاهلية، التي لا يزال صدق ملامحها، وصدق تراثها ماثلاً أمامهم يسيطر على ألبابهم، ويترك مسامع قلوبهم، ويبدو هذا في قول ناصيف اليازجي في (المقامة الرمليّة): "وقضيئاً ثميلة ليلنا البارح،

(1) اليازجي، مجمع البحرين (المقامة الهزلية)، (ص 109).

(2) اليازجي، مجمع البحرين (المقامة الحلبيّة)، (ص 56).

(3) اليازجي، مجمع البحرين (المقامة الأزهرية)، (ص 76).

(4) المرجع السابق، ص 83.

(5) الطويل، إقاعات مسجوعة لدى أصحاب المزارع في المدينة، makkahnewspaper.com/arti/.

إلى أن صدح الصّادح، وسكت النَّابح⁽¹⁾. فقوله: (صدح الصّادح، وسكت النَّابح) كناية عن طلوع الصُّبح؛ لأنَّ الطَّائر عادةً يترنم عند الصُّبح، والكلب كذلك يمسيك عن النَّباح.

يوصلُ ناصيفُ اليازجِيّ التفاعلَ مع عناصرِ البيئَةِ، فقد أزعجَ الرَّحيلُ عَبرَ مشهدٍ من مشاهدِ البيئَةِ الجاهليَّةِ، وفي أسلوبٍ كِنائيٍّ يرسمُ الوَاقِعَ بكلِّ ملامحِهِ، وشَتَّى سَمَاتِهِ، يَقُولُ: "فأجفلَ الفتى أيَّ إجمالٍ، وقالَ ما بالكم تَرْمُنُ الجِمالَ"⁽²⁾. فقوله: (تَرْمُنُ الجِمالَ) هنا كناية عن الرَّحيلِ. ومن المشهورِ أنَّ مشهدَ الرَّحيلِ في البيئَةِ البدويَّةِ مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بِرَمِّ الجِمالِ.

ويتركُ ناصيفُ اليازجِيّ مساحةً شاسعةً، وبوناً واسعاً للمتلقِّي لكي يتخيَّلَ مشهدَ الرَّحيلِ، فلا يقفُ الأمرُ عندَ حدِّ رَمِّ الجِمالِ، ولا عندَ حملِ الخيامِ، بل يتجاوزُ الأمرُ كُلَّ ذلكِ إلى تجسيدِ المأساةِ التي يخلفها مشهدُ الرَّحيلِ، حيثُ الوطنُ الجديدُ، أو قُل - إن شئت - المنفى الجديدُ.

امتلكَ الأدباءُ في العَصْرِ العُثمانيِّ زمامَ اللُّغةِ، ومُفرداتِ الوَاقِعِ، ومن هُنا لجأوا إليه كَثِيراً لتَشكيلِ صورٍ في أسلوبٍ كِنائيٍّ يعبرُ عن تجربةٍ واقعيَّةٍ، ورؤيةٍ فنيَّةٍ، استوحاها هؤلاءُ الأدباءُ من خيالهم المبدعِ، وإحساسهم المرهفِ، وقريحتهم الوفاةِ، معتمدين على ما حفظوه من أمثالٍ عربيَّةٍ، وظفوا معانيها كُلَّما دعتِ الحَاجةُ إلى ذلكِ، ومن هُنا انطلقَ ناصيفُ اليازجِيّ يرسمُ هَذَا المَشهدَ قَائِلاً: "ولقدَ خطبني كرامُ الأصهارِ، فأبى إلا أن أكونَ منه مَعقِدَ الإزارِ"⁽³⁾. فقوله: (معقد الإزار) مثلٌ فيه كنايةٌ عن شدَّةِ القُربِ.

لجأَ الأدباءُ إلى الطَّبِيعَةِ كَثِيراً لتَشكيلِ صورٍ كِنائيَّةٍ ترسمُ لوحاتٍ فنيَّةً رائعةً، فقد برعَ ناصيفُ اليازجِيّ في تصويرِ مشهدٍ من مَشاهدِ الجِمالِ، وهو صفاءُ الجوّ بعد توقُّفِ سقوطِ المطرِ مُعتمداً على دَلالةِ الفِعلَيْنِ المَاضِيَيْنِ (نَضَبَ، وَتَهَلَّلَ) مِنْ نَاحِيَةِ، وتَشخيصِ عَنَاصِرِ الطَّبِيعَةِ فِي قَوْلِهِ: (تهلَّلَ وجهُ السَّمَاءِ) مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى. وهذا ما حَمَلَتْهُ العبارةُ: "حتى إذا نضَبَ الماءُ، وقد تهلَّلَ وجهُ السَّمَاءِ"⁽⁴⁾. فعبارته: (تهلَّلَ وجهُ السَّمَاءِ) حملت في ثناياها كنايةً عن الصَّحوِ، وصفاءِ الجوّ بحيثُ لا يُرَجَى سقوطُ المطرِ، وزادَ المَشهدَ روعةً تشخيصُ السَّمَاءِ في صورةِ إنسانٍ عن طريقِ بِنْيَةِ استعاريَّةٍ رائعةٍ، مع ما حَمَلَتْهُ البِنْيَةُ الكِنائيَّةُ، والاستعاريَّةُ المتجاوزةُ من إضفاءِ مزيدٍ من الحُسْنِ والجِمالِ على المَشاهدِ.

(1) اليازجِيّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ الرِّمليَّة)، (ص 114).

(2) اليازجِيّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ الموصليَّة)، (ص 182).

(3) اليازجِيّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ الصوريَّة)، (ص 128).

(4) اليازجِيّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ التَّميميَّة)، (ص 192).

وَلَمْ يَبْرَحِ الْأُدْبَاءُ كَذَلِكَ عَنَّا صِرَ الطَّبِيعَةِ، وَمَشَاهِدَ الْبَيْئَةِ فِي أَيَّامِ الصَّيْفِ الْحَارَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَازْجِيِّ فِي (الْمَقَامَةِ الْأَزْهَرِيَّةِ): "قَالَ سُهَيْلٌ: فَمَكَثَ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ وَإِيَّاهُ، أَتَيْمُنُ بِهَلَالِ مُحْيَاهُ، وَأَتَهَلُّ بِزُلَالِ حُمْيَاهُ، إِلَى أَنْ حَلَّتِ الشَّمْسُ بَرَجَ الْأَسَدِ، فَفَارَقَنِي فِرَاقَ الرُّوحِ لِلْجَسَدِ"⁽¹⁾. فَإِنَّ قَوْلَهُ: (أَتَيْمُنُ بِهَلَالِ مُحْيَاهُ) كِنَايَةٌ عَنِ طَيْبِ الْمَعَاشِرَةِ، وَقَوْلُهُ: (حَلَّتِ الشَّمْسُ بَرَجَ الْأَسَدِ) كِنَايَةٌ عَنِ اسْتِدَادِ حَرِّ الصَّيْفِ. مَعَ مَا تَحْمِلُهُ الْكِنَايَتَانِ مِنَ الْإِتْيَانِ بِالْمَعْنَى بِدَلِيلٍ.

أَوْلَعَ الْأُدْبَاءُ فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ بَرَوَائِعَ سَابِقِيهِمْ فِي الْعُصُورِ الْمُخْتَلِفَةِ، حَيْثُ ارْتَحَلَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِلَى مَوَانِي الْأَدَبِ الْجَاهِلِيِّ، وَالْإِسْلَامِيِّ، وَالْعَبَّاسِيِّ، فَشَرَعُوا يَسْتَلْهِمُونَ تَرَاثِمَهُمْ، وَيَسْتَبْطِنُونَ قِيَمَهُ، وَيَقْتَفُونَ أَثَرَ فِرْسَانِهِ فِي الشَّعْرِ وَالنَّثْرِ، فَلَمْ يَنْسَ هَوْلَاءِ رَوَائِعِ حَسَّانَ، وَالنَّابِغَةَ، وَلَا مَآثِرَ عَنْتَرَةَ، وَالْخُنْسَاءِ، وَلَا بَدَائِعَ الْبَحْرِيِّ، وَلِزَوْمِيَّاتِ أَبِي الْعَلَاءِ، كَمَا لَمْ يَقِفْ تَغْيِيرُ الظُّرُوفِ، وَتَبَدُّلُ الْأَحْوَالِ حَاجِزًا أَمَامَهُمْ لَطْمَسِ تَرَاثِمِهِمْ، وَالتَّخَلِّيَ عَنِ هَوِيَّتِهِمُ الْعَرَبِيَّةِ، وَمِنْ هُنَا يَطِيرُ نَاصِيفُ الْيَازْجِيِّ مُحَلِّقًا فِي سَمَاءِ رَوَائِعِ الْخُنْسَاءِ، يَقُولُ: "فَبَيْنَمَا دَخَلْتُ يَوْمًا إِلَى بَعْضِ الْأَحْيَاءِ، وَقَدْ مَسَّنِي لُغُوبُ الْإِعْيَاءِ، إِذَا شَيْخٌ طَوِيلُ النَّجَادِ، مُزَمَّلٌ بِبِجَادٍ"⁽²⁾. مُتَأَثِّرًا بِالْقَدِيمِ، وَمُسْتَلْهِمًا التَّرَاثِمَ لِيَعْبُرَ عَنِ طَوْلِ الْقَامَةِ، مُتَمَثِّلًا قَوْلَ الْخُنْسَاءِ:

طَوِيلُ النَّجَادِ رَفِيعُ الْعِمَا دَسَادٌ عَشِيرَتُهُ أَمْرَادٌ⁽³⁾

وَلَمْ يَبْتَدِعْ مُحَمَّدُ الْوُرْغِيُّ عَنِ إِبْدَاعَاتِ الْخُنْسَاءِ، بَلْ نَهَلَ مِنْ ذَاتِ الْمَعِينِ قَائِلًا: "وَسَأَخْبِرُكَ عَنْهُ بِمَثَلِ حَدِيثِ أَبِي زَرْعٍ، إِنَّهُ لَرَفِيعُ الْعِمَادِ كَثِيرُ الرَّمَادِ"⁽⁴⁾. فِي قَوْلِهَا:

طَوِيلُ النَّجَادِ رَفِيعُ الْعِمَادِ كَثِيرُ الرَّمَادِ إِذَا مَا شَتَا

وَمَعْلُومٌ أَنَّ كَثْرَةَ الرَّمَادِ كِنَايَةٌ عَنِ صِفَةِ، وَهِيَ الْكِرْمُ، لَمَا يَسْتَلْزِمُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّمَادِ، كَثْرَةُ إِحْرَاقِ الْحَطَبِ، وَمِنْ كَثْرَةِ إِحْرَاقِهِ طَهِيَ الطَّعَامُ، وَإِعْدَادُهُ لِلضُّيُوفِ الْقَاصِدِينَ الْمَدْوُوحِ الْكَرِيمِ، وَهَذِهِ الصُّورَةُ مِنَ الصُّورِ الْكِنَائِيَّةِ الْأَكْثَرِ تَدَاوُلًا فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ.

تَفَوَّقَ مُحَمَّدُ الْوُرْغِيُّ عَلَى نَفْسِهِ أَيَّمَا تَفَوَّقٍ، حَيْثُ قَدَّمَ لَوْحَةً بَارِعَةً مِنْ لَوْحَاتِ التَّشْكِيلِ الْكِنَائِيِّ جَمَعَ فِيهَا بَيْنَ صِفَاتِ الْكِرْمِ، وَالشَّجَاعَةِ، وَالْفُرُوسِيَّةِ، وَالشَّرْفِ، وَكِرْمِ الْأَصْلِ، وَعُلُوِّ

(1) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْأَزْهَرِيَّةِ)، (ص 71).

(2) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ التَّمِيمِيَّةِ)، (ص 192).

(3) الْخُنْسَاءُ، دِيْوَانُ الْخُنْسَاءِ، (ص 31).

(4) الْوُرْغِيُّ، مَقَامَاتُ الْوُرْغِيِّ وَرَسَائِلُهُ (الْمَقَامَةُ الْخَمْرِيَّةِ)، (ص 20).

المنزلة، والجَمال، والعَفَّة، والعَفاف، فلم يترك صِفَةً من صفاتِ الكِرَامِ إلا رصدها، وكأني به يستلهم تراثَ العربِ في شَتَى العُصُورِ، يَقُولُ: "فَقَالَتْ بَخِ بَخِ، فخر رسخ، ذلك الفحلُ الَّذِي لا يُقَدِّعُ أنْفَهُ، والفيضُ الَّذِي لا يَنْقَبِضُ كَفَّهُ، لم يفته من المحاسنِ أصْلٌ ولا فرْعٌ، وسأخبرك عنه بمثلِ حديثِ أبي زرعٍ، إنَّه لرفيعُ العمادِ كَثِيرُ الرِّمَادِ، خفيفٌ على ظهورِ الخيلِ، ثقيلٌ على أعدائِهِ يومَ الويلِ، راضي الأهلِ والجنابِ، رائقٌ للعيونِ والألبابِ، ليست شملتهُ بالتفافِ، ولا شربه باشتفافِ، ولا ضجعتُهُ بانجعافِ، ولا يَشْبَعُ ليلَةً يُضَافُ، ولا ينامُ ليلَةً يَخَافُ"⁽¹⁾. لا أدري، وسوفَ أخالُ أدري آيَةَ قريحةٍ هذه الَّتِي جمعتُ فأحسنتُ، وخطتُ فأبدعتُ، وانتقتُ فبرعتُ، وجاوزتُ حدودَ الجَمالِ واستقرتُ، حيثُ تحرَّكَ الوُرْعِيُّ خطواتٍ واثقةً بينَ حواضرِ العربِ، وبواديهِم، ورَسَمَ ما استنطاعَ الرَّسَمَ أَرْوَعَ لَوْحَةٍ، بأجملِ الألوانِ صُحْبَةَ تشكيلاتٍ كَنائِيَّةٍ متتابعةٍ استهلها بالأصالةِ، والشَّرَفِ، وغلُو النَّسَبِ فِي قَوْلِهِ: (الفحلُ الَّذِي لا يُقَدِّعُ أنْفَهُ)، وتابعتها بصفةِ الجودِ، والكرمِ فِي قَوْلِهِ: (الفيضُ الَّذِي لا يَنْقَبِضُ كَفَّهُ) مَعَ ما تَحْمَلُهُ الصُّورَةُ من تجددٍ واستمرارٍ، واستحضارٍ لذلك المشهَدِ البارِعِ للكرمِ الفياضِ، ثُمَّ واصلَ سيرَهُ صَوَّبَ محاسنِ الأخلاقِ، فقدمَ مَشْهُدًا جَدِيدًا مِنْ خِلالِ تشكيلِ كَنائِيٍّ جديدٍ فِي قَوْلِهِ: (رفيعُ العمادِ)، وَمِنْ كَانِ الكرمُ طبعَهُ، والعروبةُ أصلَهُ لا بدَّ أَنْ يواصلَ رحلةَ الأصالةِ، ويتوقَّفُ هذه المرَّةَ عِنْدَ محطتينِ اثنتينِ، الأولى: الفروسيةِ فِي قَوْلِهِ: (خفيفٌ على ظهورِ الخيلِ)، والثَّانِيَّة: القوةِ والبأسِ، فِي قَوْلِهِ: (ثَقِيلٌ على أعدائِهِ يومَ الويلِ)، ثُمَّ يَنْتَقِلُ إلى صفاتِ الحُسْنِ والجَمالِ الَّتِي تَقَرُّ لها العيونُ، وتطمئنُّ بقربها القلوبُ فِي قَوْلِهِ: (رائقٌ للعيونِ، والألبابِ). وعادَ إلى رسمِ صورةٍ نشاطِهِ، وخَفَّةِ نومِهِ فِي قَوْلِهِ: (ليست شملتهُ بالتفافِ)، ولِضَمِّ يبرحِ العَفَّة، وأدبِ المأكَلَةِ فِي قَوْلِهِ: (ولا يَشْبَعُ ليلَةً يُضَافُ)، ولا تمنعه الموانعُ من أنْ يُكرمَ أهلَ بيتهِ فِي قَوْلِهِ: (ولا ينامُ ليلَةً يَخَافُ)، وهذه الصفاتُ كُلُّهَا تَعَنَّتْ بها العربُ مُنْذُ الجاهليةِ، فقد تردَّدَ في كتبِ التراثِ أَنَّهُ قِيلَ لأعرابيةٍ: ما لَكَ لا تُحبِّينَ زوجَكَ؟ قالتُ: لخصالٍ كُنَّ فِيهِ: خبيثُ العرقِ، قليلُ المَرَقِ، ضجعتُهُ انجعافٌ، وشملتهُ التفافٌ، يشبعُ ليلَةً يُضَافُ، وينامُ ليلَةً يَخَافُ، ولا يقضيَنِي أمرِي - أي الجماع"⁽²⁾.

لَقَدْ وَجَدَ الكُتَّابُ فِي البيئَةِ مَلَاذًا لِلتَّعْبِيرِ عَنِ انفعالاتِهِم الدَّفِينَةِ، ومشارِعِهِم المكبوتَةِ، وتصويرِ رحلاتِ سفرِهِم، وحالةِ التَّعبِ والمشقَّةِ الَّتِي تنتابُهُم طوَالَ المسيرِ، مَعَ ما فِي الكِنَايَةِ من حَرَكَةٍ تَحْمَلُ فِي تَنَائِيهَا كُلَّ مَقَوِّماتِ الحيويَّةِ والاضطرابِ، والحَرَكَةِ المتوتِّبَةِ الَّتِي يَخْتَفِي خَلْفَهَا ثورَةٌ عارمةٌ تَدْفُقُ من العروقِ. وهذا ما حَمَلْتُهُ العبارةُ: "وأخذنا نخترلُ الخرادلَ والأوصالَ من كلِّ

(1) الوُرْعِيُّ، مَقَاماتُ الوُرْعِيِّ وَرَسَائِلُهُ (المَقَامَةُ الخمريةِ)، (ص 20).

(2) التَّوْحِيدِي، البصائرُ والدُّخائرُ، (ج 2/175). يُنظَرُ: المِيدَانِي، مَجْمَعُ الأَمْثالِ، (ج 1/394)

خنساءً وذِيَالٍ، إلی أن صغیت الشَّمْسُ نَحْوَ المَغْرِبَانِ، وكادت تلبس حُلَّةَ الأَزْجَوَانِ⁽¹⁾. فقَوْلُهُ: (تلبس حُلَّةَ الأَزْجَوَانِ) كنايةٌ عن احمرارِ الشَّمْسِ عِنْدَ الغُرُوبِ، وهي صُورَةٌ كنايةٌ حملت في ثَنَائِهَا طولَ الرِّحْلَةِ، وعناءَ السَّفَرِ، وبُعْدَ المشقَّةِ، والمسیرِ.

برعَ ناصيفُ الیازجی في استلھام التُّراثِ لتشكيلِ الصُّورِ الكنايةِ مُعْتَمِداً على ما جادت به القريحةُ العَرَبیَّةُ من أقوالٍ ماثورةٍ، لا زالت عالقةً في الأذهانِ حتَّى یومنا هَذَا، ولا یزالُ كَثِیرٌ من العربِ یردُّها في المجتمعاتِ العَرَبیَّةِ حتَّى یومنا هَذَا، رُبَّما للإهانةِ والتَّحقیرِ، أو للإشادةِ والتَّعظیمِ، ومِنْ هُنَا قِيلَ: فلانٌ طویلُ الذَّیْلِ، وفلانٌ قصیرُ الذَّیْلِ.

وهَذَا ما رَدَّدَهُ ناصيفُ الیازجی: "تَمَّ قَالُوا إِنَّا لَنرَاكَ غزیرَ السَّیْلِ، لكَتَكَ قصیرُ الذَّیْلِ"⁽²⁾. والعبارةُ فیها کنایتان، فقَوْلُهُ: (غزیر السَّیْلِ) كنايةٌ عن شدَّةِ الدَّهَاءِ والحذاقةِ، وقَوْلُهُ: (قصیر الذَّیْلِ) كنايةٌ عن قِلَّةِ المالِ. أمَّا (طویل الذَّیْلِ) فقد رَدَّدَهَا مُحَمَّدُ الوُرْعِيّ في (المَقَامَةُ الخمریَّة) قَائِلاً: "وخلوئُها لها أطوارٌ، طویلَةُ الذَّیْلِ في ذِكرٍ واعتبارٍ طرفي النَّهَارِ"⁽³⁾. وتحملُ هذه الكِنَايَةُ في باطنِها كثرةَ المالِ، قالَ الحریریُّ:

إِنَّ العَرِيبَ طویلُ الذَّیْلِ مُمْتَهَنٌ فَكَيْفَ حَالُ غَرِيبٍ مَا لَهُ قُوَّةٌ؟⁽⁴⁾

وَمِنْ التَّشْكِيلِ الكِنَائِيِّ قَوْلُ ناصيفِ الیازجی في (المَقَامَةُ الفُؤْسیَّة) یرسُمُ صورةً تردَّدتْ كَثِیراً في صفحاتِ الأدبِ: "حتَّى صارتْ مدامعُهُم تَصُوبُ، وكادتْ أكبادُهُم تَدُوبُ"⁽⁵⁾ والعبارةُ كنايةٌ عن صفةٍ، وهي شدَّةُ الشَّوْقِ، وفي قَوْلِهِ: "حتَّى انقضتْ أيامُ الشَّعْبِ"⁽⁶⁾. فقَوْلُهُ (انقضتْ أيامُ الشَّعْبِ) كنايةٌ عن الإحرامِ، زَادَ جَمَالَ الكِنَايَةِ الإتيانُ بالمعنى وهو الإحرامُ صُحْبَةَ الدَّلِيلِ.

وَلَمْ يَبْرَحِ الأُدبَاءُ تصویرَ حالتِهِم الوجدانيَّةِ، ومشاعرِهِم النَّفْسیَّةِ، بل اندفعوا للتَّعبیرِ عنها مِنْ خِلالِ تشكيلاتٍ كِنَائِيَّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ فِي نُصُوصِهِم المَقَامِيَّةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ عَبْدِ اللهِ فَكْرِيٍّ: "واعتراني مِنَ الخجلِ والحياءِ بقدرِ ما كانَ عِنْدِي مِنَ الغرورِ والخيلاءِ، وسِرْتُ أَجْرُ رِجْلِيَّ

(1) الیازجی، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ السُّخْرِيَّة)، (ص331).

(2) الیازجی، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ الأَنْبَارِيَّة)، (ص289).

(3) الوُرْعِيّ، مَقَامَاتُ الوُرْعِيّ وَرَسَائِلُهُ (المَقَامَةُ الخمریَّة)، (ص24).

(4) الشَّرِيشِي، شرح مقامات الحريري، (ص295)، يُنظَرُ: المصري، تحرير التَّعبير، (ص537)، والحموي،

خزانة الأدب وغبية الأرب، (ج1/175).

(5) الیازجی، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ الفُؤْسیَّة)، (ص420).

(6) المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص420.

والخلق يضحكون عليّ" (1). فقوله (وسرت أجر رجلي) كناية عن شدة التعب حتى امتنع عن القيام، وهذا يشبه قول المتنبي:

عَلِيلُ الْجِسْمِ مُنْتَبِعُ الْفِيَامِ شَدِيدُ السُّكْرِ مِنْ غَيْرِ الْمُدَامِ (2)

لَقَدْ اخْتَارَ الْأُدْبَاءُ مِنَ الْبَيْئَةِ كَثِيرًا مِنَ الْمَشَاهِدِ لِرَسْمِ صُورِ كِنَائِيَّةٍ يَبْتُنُونَ مِنْ خِلَالِهَا أَحْزَانَهُمْ، وَتَبْرُمَهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَارْجِيِّ فِي (الْمَقَامَةِ الْهَزْلِيَّةِ): "فَلَبِثْتُ بَعْدَهَا طَوِيلًا، أُرْدَدُ زَفْرَةً، وَعَوِيلًا، وَأَنُوحُ بُكْرَةً، وَأَصِيلًا، حَتَّى حَالَ عَلَيْهَا الْحَوْلُ، وَآلَتِ الْفَرِيضَةُ إِلَى الْعَوْلِ" (3). فَإِنَّ قَوْلَهُ: (وَآلَتِ الْفَرِيضَةُ إِلَى الْعَوْلِ) كِنَايَةٌ عَنْ زِيَادَةِ مَدَّةِ الْبُكَاءِ عَلَى هَذَا الْقَدْرِ الْمَفْرُوضِ لَهَا، مَعَ مَا حَمَلَتْهُ الْكِنَايَةُ أَيْضًا مِنْ شِدَّةِ الْحَزَنِ.

بَرَغَ الْأُدْبَاءُ فِي رَسْمِ صُورَةِ السَّامَةِ، وَالْمَلَلِ، وَعَدِمِ الْقُدْرَةَ عَلَى الْهَجْوِ فِي لَيْلِ كَمْوَجِ الْبَحْرِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَارْجِيِّ فِي (الْمَقَامَةِ الْهَزْلِيَّةِ): "قَبْتُ عِنْدَهُ بَلْبِلَةَ الْمَلْسُوعِ، وَعَيْنِي لَا يَأْخُذُهَا الْهَجْوُ" (4). وَالْعِبَارَةُ كِنَايَةٌ عَنْ طُولِ اللَّيْلَةِ، وَهَذِهِ الْكِنَايَةُ تَعَلَّقَ بِهَا الشُّعْرَاءُ كَثِيرًا كُلَّمَا قَصَدُوا وَصَفَ اللَّيْلَ وَطَوَّلَهُ وَهَمَّوْهُ، وَهِيَ صُورَةٌ مَأْلُوفَةٌ فِي مُعْجَمِ الشُّعْرَاءِ الْعَرَبِ.

لَقَدْ وَظَّفَ الْأُدْبَاءُ التَّشْكِيلَ الْكِنَائِيَّ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ عِظَمِ الْمُصَابِ، وَتَصْوِيرِ حِجْمِ الْأَلْمِ الَّذِي يَشْعُرُ بِهِ الْإِنْسَانُ إِثْرَ تَجْرِبَةٍ مَرِيرَةٍ عَاشَهَا، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ أَحْمَدَ فَارِسِ الشُّدِّيَّاقِ: "ثُمَّ التَفَتَ إِلَيَّ مُسْتَعْبِرًا، وَقَالَ: وَأَنْتَ فَمَا تَرَى، قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنَّهَا لِأَحْدَى الْكُبْرِ، وَمُعْضَلَةٌ تَفِيضُ لَهَا الْعَبْرُ" (5). فَإِنَّ قَوْلَهُ: (وَمُعْضَلَةٌ تَفِيضُ لَهَا الْعَبْرُ) كِنَايَةٌ عَنْ عِظَمَةِ الْمُصَابِ، مَعَ مَا أَضْفَى الْفِعْلُ الْمُضَارِعُ (تَفِيضُ)، وَمَا فِيهِ مِنْ تَجَدُّدٍ وَاسْتِمْرَارٍ وَاسْتِحْضَارٍ لِلصُّورَةِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَجَمَعَ كَلِمَةَ (الْعَبْرُ) مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى إِلَى الْكِنَايَةِ مِنْ جَمَالٍ يُؤَكِّدُ هَوْلَ الْمُصَابِ الَّذِي تَفِيضُ لَهُ الْعِبْرَاتُ، وَعِظَمَ الْخَطْبِ الَّذِي تَهَنَّرُ لَهُ الْمَشَاعِرُ.

وَلَعَلَّ تَجَارِبَ الْأُدْبَاءِ الدَّائِيَّةِ، وَحَالَاتِهِمِ النَّفْسِيَّةَ الَّتِي تَقْفُ سَدًّا مَنِيعًا فِي سَبِيلِ الْوُصُولِ إِلَى أَهْدَافِهِمْ، وَتَحْقِيقِ آمَالِهِمْ كَانَتْ دَافِعًا لَهُمْ لِإِبْدَاعِ مَزِيدٍ مِنَ التَّشْكِيلَاتِ الْكِنَائِيَّةِ الَّتِي زَيَّنَتْ نُصُوصَهُمُ الْمَقَامِيَّةَ، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَارْجِيِّ فِي (الْمَقَامَةِ الْأَزْهَرِيَّةِ): "فَإِنَّ الْفَوَائِدَ

(1) فكري، الآثار الفكرية (المقامة الفكرية)، (ص302).

(2) المتنبي، ديوان المتنبي، (ص484).

(3) اليازجي، مجمع البحرين (المقامة الهزلية)، (ص101).

(4) المرجع السابق، ص106، ص107.

(5) الشدياق، الساق على الساق، (ص132).

تُشْتَرَى بِالذَّخَائِرِ، فَتَرْتَحُتُ أَعْطَافُ الشَّيْخِ ابْتِهَاجاً بِالظَّفَرِ، وَقَالَ: إِنَّ النَّاسَ يَسْتَنْزِلُونَ الْبَدْرَ
بِالْبَدْرِ⁽¹⁾. فَقَوْلُهُ: (الْبَدْرُ) كِنَايَةٌ عَنِ الْأَمْرِ الْبَعِيدِ الْمَنَالِ.

وَالْأَدْبَاءُ فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ شَأْنُهُمْ شَأْنُ أُنْدَادِهِمِ الْآخِرِينَ لَهُمْ أَسْلُوبُهُمُ الْمُتَقَرِّدُ،
وَطَرِيقَتُهُمُ الْخَاصَّةُ فِي بِنَاءِ النَّصِّ، فَهَمُ يَعْتَمِدُونَ بِشَكْلِ أَوْ بَآخَرَ عَلَى طَاقَاتِهِمُ الْإِبْدَاعِيَّةِ،
وَقَدْرَاتِهِمُ الْفَنِّيَّةِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ أَنْظِمَةِ اللَّغَةِ بِشَكْلِ يَفْسُحُ الْمَجَالَ لِمَوْهَبَتِهِمْ لِأَنَّ تَعَلِّي سُلْمِ الْإِبْدَاعِ
فِي إِنْتَاجِ الصُّورَةِ، فَقَدْ اسْتَطَاعُوا أَنْ يَسْتَعْمَلُوا تَقْنِيَّاتٍ مُتَعَدِّدَةً، وَأَدْوَاتٍ مُخْتَلَفَةً فِي إِنْتَاجِ الدَّلَالَاتِ
الْإِيْحَائِيَّةِ الَّتِي تَرْتَبِطُ بِالشُّكْلِ الْكِنَائِيِّ، وَقَدْ تَفَنَّنَ هَؤُلَاءِ فِي هَذَا الضَّرْبِ رُبَّمَا لِأَنَّ عَدَمَ التَّصْرِيحِ
يَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهِ مَزِيداً مِنَ الْجَمَالِ لِحَاجَتِهِ إِلَى التَّأَمُّلِ، وَإِعْمَالِ الْفِكْرِ، وَإِثَارَةِ الذَّهْنِ.

لَمْ يَكْتَفِ الْأَدْبَاءُ بِالشُّكْلِ الْكِنَائِيِّ الْمُرْتَبِطِ بِالصِّفَةِ، بَلْ شَكَّلُوا كَثِيراً مِنْهَا مَعْتَمِدِينَ عَلَى
الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ الصِّفَاتِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْفِ الْيَازْجِيِّ فِي (الْمَقَامَةِ الشَّامِيَّةِ): "دَخَلْتُ يَا
ابْنَ أَخِي هَذَا الْبَلَدَ، وَأَنَا غَرِيبٌ لَا سَبَدَ لِي وَلَا لَبَدٌ"⁽²⁾. فَقَوْلُهُ: (السَّبَدُ، وَاللَّبَدُ) كِنَايَتَانِ عَنِ صِفَتَيْنِ،
وَهُمَا: الْقَلَّةُ، وَالكَثْرَةُ.

وَكَذَلِكَ لَمْ يَكْتَفِ الْأَدْبَاءُ بِالْكِنَايَةِ عَنِ الصِّفَةِ، بَلْ طَرَقُوا أَيْضاً أَبْوَاباً كَثِيراً لِتَشْكِيلِ صُورِ
كِنَائِيَّةٍ تَرْتَبِطُ بِالمُوصُوفِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْفِ الْيَازْجِيِّ: "فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ سِحْرِ السَّحْرِيِّ،
انْهَالَ عَلَيْهِ الشَّمْسِيُّ، وَالْقَمْرِيُّ"⁽³⁾. فَقَوْلُهُ: (الشَّمْسِيُّ، وَالْقَمْرِيُّ) كِنَايَتَانِ عَنِ مَوْصُوفَيْنِ، وَهُمَا:
الدَّيْنَارُ، وَالذَّرْهَمُ.

كَذَلِكَ حَاوَلَ الْأَدْبَاءُ تَوْظِيْفَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الصُّورِ الْكِنَائِيَّةِ بِنُؤَا مِنْ خِلَالِهَا قِيماً إِنْسَانِيَّةً
سَامِيَّةً، جَادَتْ بِهَا قَرَائِحُهُمْ مِنْ مَنَظَرٍ لَطِيفٍ، كَانَتْ نَتِيجَتُهُ تَوَجُّهَهَا بِفَضَائِلِ رَفِيعَةٍ فِي سُلُوكِهَا
الْعَامِّ وَالْخَاصِّ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْفِ الْيَازْجِيِّ: "وَهُمُ ضُرَابُ السُّيُوفِ، وَشُرَابُ الْحُنُوفِ،
وَقِرَاةُ الضُّيُوفِ، وَحُبَابَةُ الْأُلُوفِ، وَحُمَاةُ السُّجُوفِ"⁽⁴⁾. وَهَذِهِ كِنَايَاتٌ مُتَتَابِعَةٌ عَنِ الشَّجَاعَةِ، وَالكَرَمِ،
وَحِمَايَةِ الْحَرَمَاتِ. كَمَا وَظَّفَ الْيَازْجِيُّ صَيْغَ الْجَمْعِ (ضُرَابُ) مَعَ (السُّيُوفِ)، وَ(شُرَابُ) مَعَ
(الْحُنُوفِ)، وَ(قِرَاةُ) مَعَ (الضُّيُوفِ)، وَ(حُبَابَةُ) مَعَ (الْأُلُوفِ)، وَ(حُمَاةُ) مَعَ (السُّجُوفِ) لِلدَّلَالَةِ
عَلَى تَكَرُّرِ الْحَدِيثِ عَلَى سَبِيلِ الْمَبَالِغَةِ وَالكَثْرَةِ، وَتَأْكِيدِ الْقُوَّةِ، وَالْقَدْرَةِ الْفَائِقَةِ فِي سَاحَاتِ الْوَعْيِ،

(1) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْأَزْهَرِيَّةُ)، (ص 69).

(2) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الشَّامِيَّةُ)، (ص 24، ص 25). السَّبَدُ: الشَّعْرُ، وَاللَّبَدُ: الصُّوفُ.

(3) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْكُوفِيَّةُ)، (ص 66).

(4) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ التَّغْلِيْبِيَّةُ)، (ص 88). السُّجُوفُ: السُّتُورُ.

وميادين النَّزَالِ، حَيْثُ لَا مَجَالَ لِلْهَزِيمَةِ، وَلَا مَتَسَعٍ لِلضَّعْفِ، فَالْعَرَبِيُّ بِطَبْعِهِ هَكَذَا، وَفِي الْمَقَابِلِ، وَفِي وَقْتِ السَّلْمِ يَجْمَعُ الْعَرَبِيُّ فِي جَعْبَتِهِ كُلَّ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، فَهُوَ بَيْنَ الْكِرَامِ أَكْرَمُهُمْ، وَبَيْنَ أَهْلِ الْجُودِ أَجْوَدُهُمْ، وَبَيْنَ نَاصِرِي الضُّعْفَاءِ، وَحَامِي الْحَرَمَاتِ أَوْلُهُمْ.

لَقَدْ طَرَقَ الْأَدْبَاءُ كَثِيرًا مِنَ الْأَبْوَابِ لِتَشْكِيلِ صُورٍ كُنَائِيَّةٍ تَكْشِفُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الصَّفَاتِ الَّتِي عَشَقَهَا أَصْحَابُ الذَّوْقِ الرَّفِيعِ، وَالْحَسِّ الْمَرْهَفِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَازْجِيِّ: "قَالُوا لِلَّهِ دَرَكٌ أَبِيهَا الْجَنْدَلَةُ، فَمَا تَقُولُ فِي الْمَسْأَلَةِ"⁽¹⁾، فَقَوْلُهُ (الْجَنْدَلَةُ) كُنَايَةٌ عَنْ صِفَةٍ، وَهِيَ الْمَتَانَةُ فِي الْحَبَّةِ. وَفِي الْمَقَابِلِ وَظَفُّوا مَجْمُوعَةً مِنَ الصُّورِ الْكُنَائِيَّةِ حَدَّرُوا مِنْ خِلَالِهَا مِنْ أَخْلَاقِ ذَمِيمَةٍ تَعَاْفَهَا النَّفْسُ، كَالرَّشْوَةِ وَشَرِبِ الْخَمْرِ، وَمِنْ مَشَاهِدِ هَذِهِ الصُّورِ قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَازْجِيِّ فِي (الْمَقَامَةِ الْعَاصِمِيَّةِ): "وَلَا تَبِعِ الْحَقَّ بِالْمَالِ، فَذَلِكَ بَسَسَ الْأَعْمَالَ... ثُمَّ انْطَلَقْتُ بِي إِلَى الْخَانِ، وَأَنَا كَشَارِبِ ابْنَةِ الْحَانَ"⁽²⁾. فَقَوْلُهُ: (لَا تَبِعِ الْحَقَّ بِالْمَالِ) كُنَايَةٌ عَنْ مَوْصُوفٍ، وَهُوَ الرَّشْوَةُ، وَقَوْلُهُ: (ابْنَةُ الْحَانَ) كُنَايَةٌ عَنْ مَوْصُوفٍ، وَهُوَ الْخَمْرُ.

إِنَّ النَّظْرَةَ الصَّائِبَةَ إِلَى الصُّورَةِ الْأَدْبِيَّةِ تَأْتِي مِنْ قَدْرَتِهَا عَلَى تَرْكِ أَثَرٍ عِنْدَ الْمُتَلَقِّي، وَيَأْتِي ذَلِكَ مِنْ تَدَاخُلِ التَّلْوِينَاتِ الْبَيَانِيَّةِ لِتَشْكِيلِ صُورَةٍ فَنِيَّةٍ فِي تَرَكَيبِ لُغَوِيَّةٍ مُشْتَرَكَةٍ تَنْصَهَرُ جَمِيعًا فِي بَوْتَقَةٍ وَاحِدَةٍ، يُعْبَرُ عَنْهَا الْأَدِيبُ "مُسْتَعْمَدًا طَاقَاتِ اللَّغَةِ، وَإِمْكَانَاتِهَا فِي الدَّلَالَةِ وَالتَّرْكِيبِ، وَالْإِيْقَاعِ، وَالْحَقِيقَةِ، وَالْمَجَازِ، وَالتَّرَافِيفِ، وَالتَّضَادِّ، وَالْمُقَابَلَةِ، وَالتَّجَانُسِ، وَغَيْرِهَا وَمِنْ وَسَائِلِ التَّعْبِيرِ الْفَنِيِّ"⁽³⁾. وَهَذَا مَا جَسَدَهُ شِهَابُ الدِّينِ الْخَفَاجِيُّ عِنْدَمَا آلَفَ بَيْنَ التَّشْكِيلِ الْاِسْتِعَارِيِّ، وَالتَّشْكِيلِ الْكُنَائِيِّ، وَارْتَكَزَ عَلَى بَثِّ الْحَيَاةِ فِي الْمَادِيَّاتِ، وَالْمَعْنَوِيَّاتِ، وَحِينَهَا تَرْتَقِي الْأَشْيَاءُ إِلَى مَرْتَبَةِ الْأَحْيَاءِ، يَقُولُ: "فَلَمَّا عَطَسَ الصَّبَاحُ، شَمَّتَتْهُ كُلُّ ذَاتِ جَنَاحٍ"⁽⁴⁾. فَقَدْ اسْتَحَالَ الصَّبَاحُ إِنْسَانًا يَعْطُسُ، وَارْتَدَّتِ الطُّيُورُ رَجَالًا تَشَمَّتُ هَذَا الْعَاطِسِ، مَعَ مَا يَحْمَلُهُ التَّشْكِيلُ الْاِسْتِعَارِيُّ مِنْ جَمَالٍ تَمَثَّلَ فِي اسْتِنطَاقِ عَنَاصِرِ الطَّبِيعَةِ (الصَّبَاحِ)، وَ(كُلِّ ذَاتِ جَنَاحٍ).

لَقَدْ بَرَعَ شِهَابُ الدِّينِ الْخَفَاجِيُّ فِي تَشْكِيلِ بَنِيَّةِ اسْتِعَارِيَّةٍ، وَأُخْرَى كُنَائِيَّةٍ مَزْدُوجَةٍ، وَظَفَّهُمَا تَوْظِيفًا رَائِعًا مُعْتَمِدًا عَلَى دَالِيْنِ هَمَا: دَالِ (الصَّبَاحِ)، وَدَالِ (كُلِّ ذَاتِ جَنَاحٍ)، وَكَأَنَّيْ بِهِ يُحَاوِلُ اسْتِنطَاقَ أَدَبِ الصَّعَالِيكِ فِي تَشْكِيلِ الْكُنَائِيَّةِ عَنْ مَوْصُوفٍ، وَهُوَ الطُّيْرُ فِي قَوْلِهِ: (كُلِّ ذَاتِ جَنَاحٍ).

(1) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الصَّعِيدِيَّةِ)، (ص 30). الْجَنْدَلَةُ: الصَّخْرَةُ.

(2) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْعَاصِمِيَّةِ)، (ص 114).

(3) الْقَطُّ، الْاِتِّجَاهُ الْوَجْدَانِي فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ الْمُعَاصِرِ، (ص 391).

(4) الْخَفَاجِيُّ، رِيْحَانَةُ الْأَلْبَا وَزَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (مَقَامَةُ الْغُرَبَةِ)، (ص 383).

ذات جناح)، حيثُ ترددتِ العبارةُ كثيراً عندَ الشعراءِ الصَّعاليك، فلمَ يبرحْ هؤلاءِ هذا المشهدَ الكنائي، ومن مشأهده قولُ تَأَبَّطَ شراً:

لَا شَيْءَ أَسْرَعُ مِنِّي لَيْسَ ذَا عُدْرٍ وَذَا جَنَاحٍ بِجَنبِ الرِّيدِ خَفَاقٍ⁽¹⁾

تَتَوَشَّحُ النُّصُوصُ المَقَامِيَّةُ بالبِنَى المتجاورة التي تُدَلُّ دلالةً قاطعةً على نكاهِ الكُتَّابِ، وقدراتِهِم الفائقة، وامتلاكِهِم لزمَامِ اللُّغَةِ، وممن نهجوا ذلك النهجَ في الجمعِ بين الصُّورِ البَيِّنَاتِيَّةِ ابنُ مَيْمُونِ الجزائري، يَقُولُ: "قَدْ صَقَلَ عَمَامُ العَدْلِ أَزْهَارَ الوُجُوهِ حَتَّى أَذْهَبَ طَيْشَهَا، وَسَقَى فَأرَوَى عَطَشَهَا، ثُمَّ أَسَّسَتِ الدَّوْلَةَ الَّتِي أَرَجَتْ نَفْحَاتَهَا، وَتَفَتَّحَتْ أَكْمَامُ عَدْلِهَا، وَأَفْصَحَتْ حَمَائِمُ التَّنَاءِ عَلَى أَهْلِهَا، وَتَجَرَّدَتْ جَدَاوِلُ كَرَمِهَا، وَرَمَقَتْ عَيُونُ الأَمَانِي وَجوهَ حَشْمِهَا"⁽²⁾.

إنَّ تداخلَ البِنَى المتجاورة في الفقرةِ السَّابِقَةِ وَضَعَ أَمَامَنَا صورةً مكتملةً الأركانِ للدَّوْلَةِ الفَنِيَّةِ، الَّتِي يَفْخَرُ الأَدِيبُ بِهَا مِنْ خِلَالِ تَشْكِيلَاتِهِ المُنْتَوَعَةِ الَّتِي بَدَأَهَا بِبِنْيَةٍ تَشْبِيهِيَّةٍ بليغة، صَوَّرَ فِيهَا العَدْلَ بالغَمَامِ فِي قَوْلِهِ: (غَمَامِ العَدْلِ)، ثُمَّ تَابَعَ بِتَجْسِيمِ المَعْنَوِيِّ، وَهُوَ العَدْلُ فِي صورةٍ حَسِيَّةٍ مِنْ خِلَالِ تَشْكِيلِ اسْتِعَارِيٍّ فِي قَوْلِهِ: (تَفَتَّحَتْ أَكْمَامُ عَدْلِهَا)، وانتهى بتشخيصِ المَعْنَوِيِّ فِي صورةِ إنسانٍ تحرسُ عيونه الأخرينَ فِي تَشْكِيلِ اسْتِعَارِيٍّ آخَرَ فِي قَوْلِهِ: (رَمَقَتْ عَيُونُ الأَمَانِي وَجوهَ حَشْمِهَا). فبَدَتْ وَجوهُ المَحَاسِنِ، وَمَحَاسِنُ الوُجُوهِ تَلْفُ الدَّوْلَةَ، وَتَحْمِي أركانِهَا، وَتَدْعَمُ قَوَاعِدَهَا، وَقَدْ أَكْمَلَ الجَمْعَ بَيْنَ التَّشْكِيلَاتِ البِلاغِيَّةِ المُنْتَوَعَةِ الجَمَالَ الأَخَاذِ.

يُذَرِّكُ المُنْتَبِعُ للتَّشْكِيلَاتِ الكِنَائِيَّةِ دورها في الارتقاء بالنصِّ الأدبي، وهذا ما صرَّحَ به الإمامُ عَبْدُ القَاهِرِ الجُرْجَانِي قَائِلاً: "إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ بَدَتْ هُنَاكَ مَحَاسِنُ تَمَلُّ الطَّرْفَ، وَدَقَائِقُ تُعْجِزُ الوَصْفَ، وَرَأَيْتَ هُنَاكَ شِعْرًا شَاعِرًا، وَسِحْرًا سَاحِرًا، وَبِلاغَةً لَا يَكْمَلُ لَهَا إِلَّا الشَّاعِرُ المَفْلِقُ، وَالخَطِيبُ المَصْنَعُ، وَكَمَا أَنَّ الصِّفَةَ لَا تَأْتِي مَصْرَحًا بِهَا، مَكشُوفًا عَن وَجْهِهَا، وَلَكِنْ مَدْلُولًا عَلَيْهَا بغيرِهَا، كَانَ ذَلِكَ أَفْخَمَ لَشَأْنِهَا، وَالطَّفُّ لِمَكَانِهَا، كَذَلِكَ إِثْبَاتُكَ الصِّفَةَ تَثْبِتُهَا لَهُ، إِذَا لَمْ تَلْفَهُ إِلَى السَّامِعِ صرِيحًا، وَجِئْتَ إِلَيْهِ مِنْ جَانِبِ الكِنَائِيَّةِ، وَالتَّعْرِيزِ، وَالرِّمِزِ، وَالإِشَارَةِ، كَانَ لَهُ مِنَ الفَضْلِ وَالمِزِيَّةِ، وَمِنَ الحَسَنِ وَالرَّوْنِقِ، مَا لَا يَقِلُّ قَلِيلَهُ، وَلَا يُجْهَلُ مَوْضِعُ الفَضِيلَةِ فِيهِ"⁽³⁾.

لَقَدْ اسْتَطَاعَ كُتَّابُ المَقَامَةِ أَنْ يَمْنَحُوا نِصْوَصَهُمْ سَمَةَ التَّأثيرِ؛ وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ تَجَاوُزِ البِنَاءِ اللُّغَوِيِّ لِلنَّصِّ إِلَى مَا هُوَ ضَمْنِيٌّ فِيهِ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ الضَّمْنِيَّ هُوَ الَّذِي يَكُونُ مَصْدَرُهُ تَأثيرًا

(1) تَأَبَّطَ شراً، دِيوَانُ تَأَبَّطَ شراً وَأَخْبَارِهِ، (ص 129).

(2) الجزائري، التُّحفة المرضِيَّة، (ص 126).

(3) الجُرْجَانِي، دَلَائِلُ الإِعْجَازِ، (ص 306).

فَعَالاً يُعَدُّ النَّصَّ تَكْتِيكاً لُغَوِيًّا، أَي إِجْرَاءَ تَدَاخُلٍ بَيْنَ الْبَنَى الْمُتَجَاوِرَةِ، وَفَنونِ الْبَيَانِ الْأُخْرَى؛ إِذْ يَتَحَوَّلُ بِهِ الْأُسْلُوبُ مِنْ مَعْنَاهِ الْعَيْتَادِيّ، إِلَى مَعْنَاهِ غَيْرِ الْعَيْتَادِيّ؛ لِأَنَّ الْأَدِيبَ انْتَهَكَ قَوَانِينَ الْعَادَةِ، وَأَنْتَجَ لَنَا أَدْباً يَنْبِضُ بِالْدَّهْشَةِ وَالْإِثَارَةِ الَّتِي تَجِدُ لَهَا صَدَى فِي نَفْسِ الْمُتَلَقِّي، الَّذِي يَقُومُ بِرِبْطِ أَجْزَائِهَا وَإِنْتَاجِهَا عَلَى شَكْلِ صُورَةٍ، تَعْبِرُ عَنْ ذَلِكَ التَّحَوُّلِ لِلْغَةِ فِي الْمَقَامَةِ مِنْ كَوْنِهَا انْعِكَاساً لِلْعَالَمِ أَوْ تَعْبِيراً عَنْهُ، أَوْ مَوْقِفاً مِنْهُ، إِلَى أَنْ تَكُونَ هِيَ نَفْسُهَا عَالِماً آخَرَ رُبَّمَا بَدَلاً عَنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ، فَكُلَّمَا كَانَ الْكَلَامُ قَادِراً عَلَى سِحْرِ الْمُتَلَقِّي، وَحَمَلَهُ عَلَى التَّخْيِيلِ كَانَ الْكَلَامُ نَصّاً أَدْبِيًّا، وَبِهَذَا امْتَلَكَ كُتَّابُ الْمَقَامَةِ كُلِّ مَقَوْمَاتِ الْإِبْدَاعِ الْفَنِّيِّ مِنْ خِلَالِ تَرْكِيْبِ تَشْكِيلَاتٍ بِلَاغِيَّةٍ قَائِمَةٍ عَلَى تَدَاخُلِ فَنِّيٍّ جَمِيلٍ يَتَجَاوَزُ كُلَّ حُدُودِ الْجَمَالِ، وَيَتَخَطَّى جَمِيعَ حَوَاجِزِ الْإِبْدَاعِ فِي النُّصُوصِ الْأَدْبِيَّةِ، أَوْ قُلْ إِنَّ شِئْتَ فِي النَّصِّ الْمَقَامِيِّ.

المبحث الرابع: المجاز المرسل

ومن ألوان البيان في البلاغة العربية، المجاز المرسل؛ وهو "ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه، وما وضع له ملابسة غير التشبيه"⁽¹⁾. وعرفه آخرون بقولهم: "هو نوع من المجاز اللغوي، وعلاقته غير المشابهة، بمعنى أن له عدة علاقات باعتباريات مختلفة، ولهذا سمي مرسلًا؛ لأنه أرسل، وأطلق من العلاقة الواحدة"⁽²⁾. وسمي بالمرسل؛ لأنه غير مُقيد بعلاقة واحدة، كما هو الحال في الاستعارة المفيدة بعلاقة المشابهة فقط، ولأن علاقاته كثيرة تتجاوز حدود الرقم الواحد، وتتعدى حواجز المفردة الواحدة.

وقد ظهر المجاز المرسل في المقامات العُثمانيّة في مواضع قليلة، ولعل ذلك يرجع إلى اهتمامهم بالتشبيه، والاستعارة، والكناية، ومن قبل ذلك الولوع بالمحسنات البديعية خاصة السجع والتجنيس، ومن شواهد المجاز المرسل في النصوص المقامية، قول ناصيف اليازجي: "من لم يؤخذ بالبنان، فخذ بالسنان"⁽³⁾. والمجاز المرسل هنا وقع في كلمة (البنان) علاقته الجزئية، فقد عبر عن اليد بالبنان من باب تسمية الكل باسم الجزء، مع ما حمله المجاز من إعمال للفكر، وإثارة للذهن، إلى جانب البراعة في الإيجاز.

ويستظل ناصيف اليازجي في (المقامة الرملية) بظلال العلاقة الجزئية في مشهد آخر من مشاهد المجاز المرسل في قوله: "ونزلنا جميعاً على تلك السلام، وتطرحنا السلام بالسلام"⁽⁴⁾. والسلام (عظام الأصابع) مجاز مرسل عن الأيدي، علاقته الجزئية، فقد عبر عن اليد بالسلام من باب تسمية الكل باسم الجزء.

وينطبق شهاب الدين الخفاجي من بساتين العلاقة الجزئية إلى حقول العلاقة السببية في قوله: "وأصابعه تشير لكنوز خصبة تُستخرج من معادن أقطاره، إلا أن أصابع الناس في الراحة والأيدي، وفي أصابعه أياد لكل حاضر وبادي"⁽⁵⁾. والعلاقة هنا سببية بمعنى إطلاق السبب وإرادة المسبب. والشاهد (أياد)، والعلاقة في المجاز المرسل في كلمة (أياد) سببية، حيث أطلق السبب، وهو: (أياد)، وأراد المسبب وهو (الخير). وتكرر العلاقة السببية في مقامات عبد الله

(1) القزويني، الإيضاح: (ص379).

(2) الجري، البلاغة التطبيقية، (ص207).

(3) اليازجي، مجمع البحرين (المقامة اليمنية)، (ص30).

(4) اليازجي، مجمع البحرين (المقامة الرملية)، (ص114). السلام: عظام الأصابع.

(5) الخفاجي، ربحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، (المقامة الساسانية)، (ص390).

فِكْرِي، فِي قَوْلِهِ: "وَكَانَ لَهُ يَدٌ فِي صِنَاعِ لَطِيفَةٍ، وَمَعْرِفَةٌ بِبَعْضِ عُلُومِ شَرِيفَةٍ"⁽¹⁾، كَمَا تَظْهَرُ ذَاتُ الْعَلَاقَةِ فِي (المُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ) فِي قَوْلِ بَهَاءِ الدِّينِ البَيْطَارِ: "وَلِي إِلَيْهِمُ أَيَادٍ وَأَيُّ أَيَادٍ، حِينَمَا يَصِدُّونِي لِلصَّوْمِ وَالْأَعْيَادِ"⁽²⁾.

وَيَعُودُ ابْنُ مَيْمُونِ الجَزَائِرِيِّ إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، لِيَشْكَلَ مَجَازًا مُرْسَلًا يَحْمِلُ عِلَاقَةً جَزْئِيَّةً، يَقُولُ: "نَسَأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ هَذِهِ الحَادِثَةَ آخَرَ حَوَادِثِهِ، وَأَعْظَمَ مَوَارِثِهِ، تَتَعَمُّ بِأَلِهِ وَخَاطِرُهُ، وَتَقْرُ عَيْنُهُ وَنَاطِرُهُ"⁽³⁾. وَالْعِلَاقَةُ هُنَا جَزْئِيَّةٌ بِمَعْنَى إِطْلَاقِ الجِزْءِ، وَإِرَادَةِ الكُلِّ. وَالشَّاهِدُ (عَيْنُهُ)، وَالْعِلَاقَةُ فِي المَجَازِ المُرْسَلِ فِي كَلِمَةِ (عَيْنُهُ) جَزْئِيَّةٌ، حَيْثُ أُطْلِقَ الجِزْءَ وَهُوَ، (عَيْنُهُ)، وَأُرَادَ الكُلَّ، وَهُوَ (الْإِنْسَانُ). قَالَ تَعَالَى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القِصَصُ: ١٣].

وَبَعْدُ فَقَدْ كَتَبَ أَدْبَاءُ المَقَامَةِ نُصُوصَهُمْ فَأَجَادُوا، وَنَظَمُوا الكَلِمَاتِ فَأَبْدَعُوا، وَرَسَمُوا اللُّوْحَاتِ الفَنِيَّةَ فَبَرَعُوا، وَسَارُوا عَلَى خُطَى سَابِقِيهِمْ فَاقْتَدُوا، وَفَاقُوا، وَاسْتَلْهَمُوا تَرَاثَ أَمْثَالِهِمْ فَأَحْسَنُوا. وَرَدُوا مَنَاهِلَ التَّشْبِيهِ فَنَسَجُوا صُورًا حَمَلَتْ كُلَّ مَعَالِمِ الجَمَالِ، وَاسْتَحَالَتْ الدَّلَالَاتُ المُعْجَمِيَّةُ بَيْنَ أَنَامِلِهِمْ أَشْكَالًا جَدِيدَةً تَحْمِلُ دَلَالَاتٍ نَفْسِيَّةً وَوَجْدَانِيَّةً لَمَّا سَافَرُوا بَعِيدًا فِي عَوَالِمِ الخَيَالِ، وَوَلَجُوا عَوَالِمَ الاسْتِعَارَةِ فَشَكَّلُوا لُوحَاتٍ سَاحِرَةً، ارْتَدَّتْ بِأَقَاتِ زَهْرِ نَشْرَتِ عَيْبَرِهَا فِي كُلِّ الفَضَاءَاتِ، وَقَصَدُوا الكِنَايَةَ فَسَبَرُوا أَغْوَارَهَا، وَغَاصُوا فِي أَعْمَاقِهَا.

نَظَمُوا مِنَ التَّشْكِيلَاتِ التَّشْبِيهِيَّةِ مَا سَرَّ السَّامِعِينَ، وَمِنَ التَّلَوِينَاتِ الاسْتِعَارِيَّةِ مَا سَدَّ رَمَقَ المُنْعَطِشِينَ، وَمِنَ الصُّورِ الكِنَايَةِ مَا أَبْهَرَ أَلْبَابَ المَتَدَوِّقِينَ، فَلَمْ يَدْعُوا دَرْبًا مِنَ دُرُوبِ الجَمَالِ إِلَّا سَلَكَوهُ، وَلَا سَبِيلًا مِنَ سُبُلِ الحَسَنِ إِلَّا قَصَدُوهُ، وَلَا بَابًا مِنَ أَبْوَابِ البَهَاءِ إِلَّا طَرَفُوهُ، وَكَأَنِّي بِهِمْ قَدْ امْتَلَكُوا زِمَامَ اللُّغَةِ وَالفَصَاحَةِ، وَأَعِنَّةَ البَيَانِ وَالبَلَاغَةِ، وَفَوْقَ كُلِّ هَذَا وَذَلِكَ وَظَفَوْا عَوَالِمَ جَدِيدَةً، فَغَدَتْ صُورُهُمْ مَنَاهِلَ تَفِيضٍ بِالطَّاقَاتِ الإِيحَاتِيَّةِ، وَاسْتَحَالَتْ أُخْيَلُهُمْ لِأَلْيِّ تَتَوَهَّجُ بِالأَلْوَانِ الجَمَالِيَّةِ، وَدُرَّرًا تُضِيءُ سَطُورَ مَقَامَاتِهِمْ مِنْ جِهَةٍ، وَنَمَازِجَ حَيَّةً نَابِضَةً بِالحَرَكَةِ تَفْتَنُ القُلُوبَ، وَتُبْهِرُ الأَلْبَابَ وَالعُقُولَ مِنْ جِهَاتٍ أُخْرَى. وَفَوْقَ هَذَا وَذَلِكَ فَإِنَّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ كَتَبْتُ لِهَذَا الفَنِّ السَّبْقِ، وَسَجَّلْتُ لِهَذَا العَصْرِ حَقَّ المَنَافَسَةِ وَالتَّقَدُّمِ.

(1) فِكْرِي، الأَثَارُ الفِكْرِيَّةُ (مَقَامَةُ العَمَالِ وَالبَطَالِ)، (ص 311).

(2) الطَّيَّانِ، المُفَاخَرَاتِ وَالمُنَاطَرَاتِ (مَنَاطِرَةُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ)، (ص 65).

(3) الجَزَائِرِيُّ، التُّحْفَةُ المَرْضِيَّةُ، (ص 137).

الفصل الثالث
التشكيل البدعي
في
المقامات العثمانية

الفصل الثالث: جماليات التشكيل البديعي في المقامات العثمانية

البلاغة ألوان وأفنان، والبديع عالم واسع من الجمال يُشار إليه بالبنان، وبحرٍ عظيمٍ به الجمال كامن، والبهاء ساكن، والحسن فاتن، وألوان البديع من الكثرة بحيث لا يمكن حصرها، فقد اكتشف البلاغيون في النصوص البليغة ذات البيان الرفيع منثورات جمالية متفرقة لفظية، ومعنوية، وهذه المتفرقات المتناثرات في صفحات الكتب يعسر تأليفها في أبواب وفصول، وقد أعطى هؤلاء أسماء لهذه المنثورات المتنوعة، وجموعها في مسمى علم واحد أطلقوا عليه (علم البديع)، وهذه الجماليات البديعية ضربان، منها جماليات معنوية (محسنات معنوية)، ومنها جماليات لفظية (محسنات لفظية).

وتتعدد جهات نظر العلماء في التعريف بهذا الفن، فعلى الرغم من كثرة من تناول تعريف علم البديع، إلا أن معظم هذه التعريفات تدور في فلك واحد، فالبديع من وجهة نظر بعضهم: "علم يُعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال، ووضوح الدلالة"⁽¹⁾. والمحسنات الجمالية التي تكسو الكلام حلة التزيين، قسماً: "قسماً يرجع إلى المعنى، وقسماً يرجع إلى اللفظ"⁽²⁾.

والنصوص المقامية لوحات فنية عامرة بألوان البديع، تنزى صفحاتها بهذه الألوان، وتزدان كثير من كلماتها بروائع هذا الفن، وقد رأى بعض العلماء أن روعة المقامات تُعرف من جهة ما تتضمنه من البديع، وقصدوا بالبديع هنا ألوان البيان من ناحية، وفنون البديع من ناحية أخرى.

ولا يمكن أن ينكر أحد أن النصوص المقامية تزدان بألوان البديع، ويأتي في مقدمة هذه الألوان السجع، والازدواج، والتجنيس، وبكفي هذا الفن خصوصية في هذا الجانب ما حملته صفحاته المتعددة من ألوان البديع المختلفة، فلا تكاد تخلو صفحة من لون بديعي، بل قد لا تمر مقطوعة من مقطوعاته، أو سطر من أسطره إلا ويتوشح بفن من فنونه البارعة، التي أضاعت بروعتها وأناقيتها صفحات النصوص المقامية.

وعودة إلى النصوص المقامية في العصر العثماني؛ فقد حفلت هذه النصوص بفنون البديع، وتزينت بألوان متعددة من هذه الفنون؛ ومنها: الطباق، المقابلة، والنورية، والسجع، والجناس، والاقنباس، العكس والتشطير.... إلى جانب الألوان الأخرى التي تضمنتها، والتي

(1) القزويني، الإيضاح، (ص 477).

(2) السكاكي، (ص 423)، يُنظر: الميذاني، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، (ج 2/369).

يُمْكِنُ رصدها مِنْ خِلالِ مَبْحَثَيْنِ رَئِيسِيَيْنِ يَشْتَمِلُ كُلُّ مَنهُمَا عَلَيَّ أَلوانِ بَدِيعِيَّةٍ، تَجذبُ أَسْماعَ المَتَلَقِّينَ، وتَخْلِبُ أَلبابَ المَتَذَوِّقِيْنَ.

المَبْحَثُ الأَوَّلُ: المُحَسَّناتُ البَدِيعِيَّةُ المَعنَوِيَّةُ

تَعَدَّدتِ المُحَسَّناتُ البَدِيعِيَّةُ المَعنَوِيَّةُ، وتَلَأأتُ فِي النُّصُوصِ المَقامِيَّةِ حَتَّى عَدَّتْ أَشْبَهَ بِشَموسٍ مَشْرِقَةٍ، وَأَقمارٍ بَارِزَةٍ، أَضاعتُ سماءَ المَقاماتِ، وَمِنْ هذِهِ المُحَسَّناتِ:

1- الطَّباقُ

الطَّباقُ لُغَةً واصْطِلَاحاً

الطَّباقُ لُغَةً، مَأخُودٌ مِنَ الفِعْلِ الثَّلَاثِيِّ (طَبَقَ) وَهُوَ وَضْعُ الرِّجْلِ مَوْضِعَ اليَدِ فِي مَشْيِ ذواتِ الأَرَبِ، وَفِي مُعْجَمِ الصَّحاحِ: "طابقتُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، إِذا أَجمَعْتَ بَيْنَهُما عَلَيَّ حَذوِّ واحِدٍ، وَأَلزقتَهُما"⁽¹⁾، وَيَسْمَى المُطابَقَةُ، والنَّضادُ، والمُفْصُودُ بالطَّباقِ: "الجمْعُ بَيْنَ المُتضادِّينَ، أَي مَعنِيَيْنِ مُتقابِلِيْنَ فِي الجُمْلَةِ"⁽²⁾.

الطَّباقُ اصْطِلَاحاً:

أَجْمَعَ العُلَماءُ أَنَّ "المُطابَقَةَ فِي الكَلَامِ هِيَ الجَمْعُ بَيْنَ الشَّيْءِ وَضدِّهِ"⁽³⁾، أَو الجَمْعُ بَيْنَ مُتضادِّينَ، أَي مَعنِيَيْنِ مُتقابِلِيْنَ فِي الجُمْلَةِ، وَفِي اصْطِلَاحِ رِجالِ البَدِيعِ يُسَمَّى المُطابَقَةُ، والطَّباقُ، والنَّضادُ، والتَّكافؤُ، وَيَنقَسِمُ إِلى ثَلَاثَةِ أَقسامٍ: "طَباقُ الإِيجابِ، وطَباقُ السَّلْبِ، وطَباقُ التَّرديدِ"⁽⁴⁾.

وَلَمْ يَعدِ البَدِيعُ مَجْرَدَ رِصدٍ للأَلوانِ البَدِيعِيَّةِ، بَلْ تَجاوزَ ذَلِكَ إِلى مَعانٍ أَكثَرَ فاعِلِيَّةً فِي التَّحْسِينِ، وَالتَّجْمِيلِ، فَقدَ أَصْبَحَ "أداةً تَعْبيريَّةً يَعمَدُ الفارِقَةُ الحِسيَّةُ وَالْمَعنَوِيَّةُ لُغَةً بذاتِها، كَمَا يَجْعَلُ مِنَ الإِيقاعِ التَّكراريِّ خَاصِيَّةً بذاتِها، وَكُلُّ ذَلِكَ يَمثُلُ عَمليَّةً تَنظِيمٍ للأدواتِ التَّعبيريَّةِ التِّي كانَ الإِلاحُ عَلَيْها وَسيلَةً لِقَبولِها أَوَّلاً، ثُمَّ الإِعجابُ بِها ثانياً"⁽⁵⁾.

(1) الجَوْهريُّ، الصَّحاحُ، (ج/4/1512). مادة (طَبَقَ).

(2) القَرَوينيُّ، الإِضاحُ، (ص/477)، يُنظَرُ: مَعجمُ المِصْطَلِحاتِ البَلاغِيَّةِ وَتَطوُّرها، (ص/522).

(3) العِسكريُّ، الصَّناعتِينَ، (ص/399).

(4) المِصريُّ، تَحْريِرُ التَّحْبيرِ، (ص/112).

(5) عَبدُ المُطَلِّبِ، الأَبْلَغَةُ العَرَبِيَّةُ قِراءةً أُخْرى، (ص/348).

إِنَّ بُنْيَةَ التَّقَابِلِ هِيَ أَكْثَرُ البُنَى ائْتِشَاراً فِي الخُطَابِ اللُّغَوِيِّ عَموماً، والأدبِي خصوصاً، وبرغم اعتمادها عَلَى التَّخَالَفِ، فَهِيَ تَعْتَمِدُ عَلَى خَطِّينِ مُتَقَابِلِينَ، كَالسَّوَادِ وَالبِياضِ، وَالحُضُورِ وَالعِغَابِ.

والمَقَامَاتُ فِي العَصْرِ العُثمَانِي تَوَشَّحَتْ بِالطَّبَاقِ، فَلَمْ يَكْتَبِ الأَدبَاءُ مَقَامَةً إِلَّا وَزَيْنُوهَا بِهَذَا اللَّوْنِ، وَمِنْ رَوَائِعِهِ قَوْلُ نَاصِيفِ اليَازِجِي فِي (المَقَامَةُ الهَزَلِيَّةُ): "فَقَلْتُ لَهُ شَهِدْ اللهُ أَنَّكَ لِأَمَكْرُ أَهْلِ الخَافِقِينَ، وَأَقْدَرَهُمْ عَلَى الرِّينِ وَالشَّيْنِ، قَالَ يَا بُنَيَّ إِنَّ الخَلَّةَ تَدْعُو إِلَيَّ السَّلَّةِ، وَالصَّدْقُ خَمْرٌ مَزَاجُهَا الكَذِبُ، وَالجُدُّ ثَوْبٌ طَرَارُهُ اللَّعِبُ"⁽¹⁾. فَالجَمْعُ بَيْنَ (الرِّينِ، وَالشَّيْنِ)، وَ(الصَّدْقِ، وَالكَذِبِ)، وَ(الجُدِّ، وَاللَّعِبِ) يَأْتِي عَلَى تَدَاخُلِ الطَّرْفَيْنِ تَدَاخُلًا كَامِلًا، يُنتِجُ حَالَةً وَجُودِيَّةً جَدِيدَةً، وَهَذِهِ الحَالَةُ مِنَ الضَّدِّيَّةِ تَمَلَأُ السِّيَاقَ بِمَسَاحَةٍ شَاسِعَةٍ مِنَ الوُضُوحِ وَالبَيَانِ، وَتَبْتَعُدُ عَنِ العُمُوضِ وَالخَفَاءِ.

وَمِنْ الطَّبَاقِ كَذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيفِ اليَازِجِي فِي (المَقَامَةُ الهَزَلِيَّةُ): "فَجَنَحْتُ عَنِ القَمَرِ إِلَى السَّمَرِ، وَأَخَذْتُ لِنَفْسِي الحِذْرَ، وَلَبِثْتُ أَتَكْتَبُ الغَمَضَ، وَأَقْلَبُ طَرْفِي بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ"⁽²⁾. حَيْثُ تَجْمَعُ هَذِهِ الدَّفْقَةُ مِنَ النِّصِّ المَقَامِي بَيْنَ ثَنَائِيَّتَيْنِ تَقَابِلِيَّتَيْنِ مُوظَّفَةً فِي إِنْتَاجِ دَلَالَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ السَّمَاءِ، وَالأَرْضِ. وَهَذِهِ الدَّلَالَةُ (السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) تَزِينُ بِهَا القُرْآنَ الكَرِيمَ فِي كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِهِ، حَيْثُ وَرَدَتِ الكَلِمَتَانِ مَجْتَمِعَتَيْنِ فِي خَمْسَةِ عَشَرَ مَوْضِعًا، مِنْهَا قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ يَعْلَمُ أَقْوَلُ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ [الأَنْبِيَاءُ: 4].

وَقَدْ تَجْمَعُ الدَّفْقَةُ الوَاحِدَةُ فِي النِّصِّ المَقَامِي مَجْمُوعَةً مِنَ الثَّنَائِيَّاتِ التَّقَابِلِيَّةِ الَّتِي تَتَجَاوَزُ الرِّقْمَ الوَاحِدَ إِلَى رِقْمٍ أَعْلَى، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيفِ اليَازِجِي فِي (المَقَامَةُ القُدْسِيَّةُ): "ثُمَّ أَخَذَ فِي الأَجِيجِ وَالضَّجِيجِ، وَجَعَلَ يَرَاوِحُ بَيْنَ النُّحَيْبِ وَالنُّشَيْجِ، حَتَّى أَبْكَى مَنْ حَضَرَ، مِنْ البَدْوِ وَالحَضَرِ"⁽³⁾. فَقَدْ وَظَّفَ الطَّبَاقَ فِي إِنْتَاجِ دَلَالَةٍ طَارِئَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ (المَفَارِقَةِ، وَالمُوَافِقَةِ) عَلَى صَعِيدٍ وَاحِدٍ: (الأَجِيجِ، وَالضَّجِيجِ)، (النُّحَيْبِ، وَالنُّشَيْجِ)، وَ(البَدْوِ، وَالحَضَرِ). مَعَ مَا تَحْمِلُهُ الدَّلَالَاتُ مِنْ إِبْرَازٍ لِلْمَعَانِي وَتَوْضِيحِهَا.

وَمِنْ الطَّبَاقِ الجَمْعُ بَيْنَ (صَادِقِ، وَكَاذِبِ) فِي قَوْلِ شِهَابِ الدِّينِ الخَفَاجِي فِي (المَقَامَةُ الرُّومِيَّةُ): "عَلَّ أَنْ يَفْتَحَ عَيْنَهُ عَمَّا تَثْنِي عَلَيْهِ الحَقَائِبُ، وَبِيَتَسَمُّ فَمُ الأَفْقِ عَنِ صَبْحِ وَعِدِّ صَادِقِ

(1) اليَازِجِي، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ الهَزَلِيَّةُ)، (ص 108).

(2) المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 102.

(3) اليَازِجِي، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ القُدْسِيَّةُ)، (ص 421، ص 422).

أو كاذب⁽¹⁾. وَمِنْهُ قَوْلُ نَاصِيْفِ الْيَازِجِيِّ: "فَعَرَضَ لِي رَجُلٌ أَدْهَمُ، وَقَالَ آجَرْتُكَ هَذَا الْمَطْهَمَ، كُلَّ يَوْمٍ بَدْرِهِمْ... وَخَرَجْنَا نَطْوِي الْوَهَادَ وَالرُّبَى، بَيْنَ الْخَيْرَلِيِّ وَالْهَيْدَبِيِّ"⁽²⁾. حَيْثُ جَمَعَ الْأَدِيبُ بَيْنَ (الوهاد، والرُّبَى)، و(الخَيْرَلِيِّ وَالْهَيْدَبِيِّ).

وَيُطَابِقُ الْأَدْبَاءُ أحياناً فِي السَّطْرِ الْوَاحِدِ بَيْنَ أَكْثَرِ مِنْ شَيْءٍ؛ وَذَلِكَ لِإِبْضَاحِ الْفِكْرَةِ، وَإِصْالِ الْمَعْنَى الَّذِي يَرِيدُهُ الْمُتَلَقِّي؛ إِذِ الْأَشْيَاءُ بَضْدُهَا تَنْضَحُ. وَمِنْ رَوَائِعِ ذَلِكَ مَا نَجَدُهُ مِنْ تَتَابُعِ هَذَا الطَّبَاقِ فِي الْمَقَامَةِ الْفِكْرِيَّةِ، يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِي: "فَنظَرْتُ مِنْ خِلَالِ لِمَعَاتِ الشُّعَاعِ، فَإِذَا جَمَاعَاتٌ مَخْتَلِفُو الْأَوْضَاعِ، مَتَبَايِنُو الْهَيْئَاتِ، وَالصُّوَرِ، وَالطَّبَاعِ مَا بَيْنَ صَغِيرٍ، وَكَبِيرٍ، وَطَوِيلٍ، وَقَصِيرٍ، وَقَوِيٍّ، وَضَعِيفٍ، وَجَسِيمٍ، وَنَحِيفٍ"⁽³⁾. فَقَدْ طَابَقَ فِكْرِي أَرْبَعَ مَرَّاتٍ فِي سَطْرِ وَاحِدٍ بَيْنَ (صَغِيرٍ، وَكَبِيرٍ)، و(طَوِيلٍ، وَقَصِيرٍ)، و(قَوِيٍّ، وَضَعِيفٍ)، و(جَسِيمٍ، وَنَحِيفٍ). فَتَبَدُّو الْهَيْئَاتُ وَاضِحَةٌ لَا غَمُوضَ فِيهَا وَلَا خَفَاءَ. وَلَعَلَّ هَذَا التَّدَاخُلُ فِي الْبِنْيَاتِ التَّقَابِلِيَّةِ يُعْطِي الْكَلَامَ دَفَقَاتٍ مِنَ الْوُضُوحِ، وَالْجَلَاءِ، وَالْبَيَانِ.

وَيُقَدِّمُ عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِي فَاصِلاً عَذْباً مِنْ الطَّبَاقَاتِ الْمُتَتَابِعَةِ فِي نُصُوصِهِ الْمَقَامِيَّةِ، يَقُولُ: "وَكَفَّهُ عَنِ السُّلُوكِ فِي مَسَائِلِ الْغَوَايَةِ، وَالْجَهْلِ، وَالْكَشْفِ لَهُ عَنِ حَقَائِقِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالْعَرَفِ وَالنُّكْرِ، وَالنَّفْعِ وَالضَّرِّ، وَالْحَلِيِّ وَالْعَاطِلِ"⁽⁴⁾. حَيْثُ طَالَعْنَا بَطَانِفَةَ مِنَ الْبِنْيِ التَّقَابِلِيَّةِ الْمُتَجَاوِرَةِ دُونَ فَوَاصِلَ ظَهَرَتْ فِي (الخير، والشَّرِّ)، و(العرف، والنُّكْرِ)، و(النَّفْعِ وَالضَّرِّ)، و(الحلِّيِّ، وَالْعَاطِلِ). مَعَ مَا تَحْمَلُهُ هَذِهِ الْبِنْيَاتُ مِنْ رُوعَةِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْمُتَقَابِلَاتِ، وَالَّتِي كَسَتِ الْمَشْهَدَ بِالْوُضُوحِ، وَالْجَلَاءِ.

وَفِي مَقَامَتِهِ (فِي حَسَنِ الْوَفَاءِ) يُوَظَّفُ عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِي الطَّبَاقَ فِي تَوْضِيحِ مَعَانِيهِ الَّتِي قَدْ تَبَدُّو أحياناً غَامُضَةً لِلْمُتَلَقِّي، يَقُولُ: "لَا يَتَحَمَّلُ لِمَخْلُوقٍ مِنْهُ وَلَا مَكْرُمَةً، وَلَا يَرَى عَلَيْهِ لَغَيْرِ خَالِقِهِ نِعْمَةً، فَلَا يَتَمَلَّقُ لِعَنِيٍّ وَلَا فَقِيرٍ، وَلَا يَنَافِقُ لَصَغِيرٍ وَلَا كَبِيرٍ، وَلَا يَرْزَأُ مِنْ جَلِيلٍ وَلَا حَقِيرٍ"⁽⁵⁾. فَقَدْ رَسَمَ لَوْحَةً ثَلَاثِيَّةً عَنَوَانُهَا: الطَّبَاقُ فِي (عَنِيٍّ، وَفَقِيرٍ)، (صَغِيرٍ، وَكَبِيرٍ)، و(جَلِيلٍ، وَحَقِيرٍ). وَقَدْ أَضْفَى الصَّوْتُ الْمُنْبَعِثُ مِنَ الدَّالِّ (الرَّاءِ) الْمَسْبُوقِ بِحَرْفِ الْمَدِّ (الياءِ) عَلَى الْمَشْهَدِ جَرَساً مُوسِيقِيّاً مِنْ نَوْعٍ خَاصٍّ، تَطَرَّبُ لَهُ الْأَسْمَاعُ.

(1) الْخَفَاجِي، رِيحَانَةُ الْأَلْبَا وَرَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (الْمَقَامَةُ الرُّومِيَّةِ)، (ص 368).

(2) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْمِصْرِيَّةِ)، (ص 219). الْخَيْرَلِيُّ: مَشِيَّةٌ مُتَنَاقِلَةٌ، الْهَيْدَبِيُّ: مَشِيَّةٌ سَرِيعَةٌ.

(3) فِكْرِي، الْآثَارُ الْفِكْرِيَّةُ (الْمَقَامَةُ الْفِكْرِيَّةِ)، (ص 284).

(4) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 277.

(5) فِكْرِي، الْآثَارُ الْفِكْرِيَّةُ (مَقَامَةُ فِي حَسَنِ الْوَفَاءِ)، (ص 311).

لَقَدْ أُولِعَ الْكُتَّابُ بِالْوَانِ الْبَدِيعِ خَاصَّةً الطَّبَاقِ، وافتتنَ هؤلاءِ بنتابُعِها، ومن توالي الطَّبَاقَاتِ اللامتناهية، والتي تُضفي روعةً على نصوصِ أَحْمَدَ فَارِسِ الشَّدِياقِ، وترسمُ مقدرتهُ الفائقةُ في التَّلَاعُبِ بِالْأَلْفَاظِ، والرَّسْمِ بِالْكَلِمَاتِ، تقديمه لعاشقيه لَوْحَةً بديعةً من روائع الطَّبَاقَاتِ الَّتِي تَرَاهَا الْعَيْنُ فَتَقَرُّ بِهَا، وتسمعها الأذنُ فتتربُّ لسماعِها، يَقُولُ في (مقامة مُقَعَدَة): "وأما في أمرِ الْمَرْأَةِ، فالقانعُ العزوفُ يَغْدُو شرها رغبياً، والرَّشِيدُ غوياً، والحليمُ سفياً، والمهتدي ضالاً، والحكيمُ عمهاً، والعالمُ جاهلاً، والفصيحُ عيباً وبالعكسِ، والصَّبُورُ جزوعاً ولا عكسَ، والفتى شيخاً ولا عكسَ، والغنيُّ فقيراً وبالعكسِ، والفظُّ لطيفاً ولا عكسَ، والسَّمِينُ نحيفاً وبالعكسِ، والمُعافَى مُبتلىً ولا عكسَ، والمثبَّتُ متغشماً وبالعكسِ، والبخيلُ كريماً ولا عكسَ، والسَّاكِنُ متحركاً وبالعكسِ، والطرْدُ عكساً وبالعكسِ، وهَلُمَّ جِزاً"⁽¹⁾.

لَقَدْ نَافَسَ الشَّدِياقُ الْإِبْدَاعَ، واقتحمَ بواباتِ الإمتاعِ، وواصلَ بروعةِ أسلوبِهِ الإقناعَ مُعْتَمِداً عَلَى عِدَدِ كَبِيرٍ مِنَ الطَّبَاقَاتِ الْمزدوجةِ، فاستحالَ الغُمُوضُ أَمَامَ الْمُتَلَقِّي وَضوحاً بَحِيثُ لَمْ يَدْعُ لَهُ أَيُّ مَتَسَعٍ لِسُؤَالِ، كما أثبتَ كَذَلِكَ قَدْرَةَ لُغَوِيَّةِ فائِقَةٍ رَبَّما عَجَزَ عَنْهَا كَثِيرُونَ. فأبى حَديثِ يُلقِي، وأبىةُ ذُرِّ يَنْظُمُ، وأبىةُ قَدْرَةَ فائِقَةٍ يُبدي، وأبىةُ إقناعِ يَشفي، حَيْثُ رَصَدَ الْأَدِيبُ سَبْعَ عَشْرَةَ جَمَلَةً تُمَثِّلُ بِنَى تَقابليَّةً متجاورةً دُونَ أَنْ يَفصلَ بَيْنَها فَاصِلٌ، وَلَمْ يَدْعُ لِلْمُتَلَقِّي مَجالاً لِلبَحْثِ، ثُمَّ زَيَّنَ هَذِهِ الْجَمَلَ بِالْتَكْرارِ عَن طَرِيقِ اسْتِخدامِ الدَّالِ (والعكسِ) فَتَرَكَ البابَ أَمَامَ الْمُتَلَقِّي مُشْرَعاً لِمُضاعِفَةِ تلكَ البِنَى التَّقابليَّةِ أضعافاً كَثيرةً، ومع كلِّ واحدةٍ جلاءً ووضوحاً.

طَبَاقُ السَّلْبِ، المَقْصُودُ بِطَبَاقِ السَّلْبِ: "الجمعُ بَيْنَ فِعْلي مُصدرٍ، واحِدٍ مُثبِتٍ ومُنفيٍّ، أو أمرٍ ونهْيٍ"⁽²⁾. ويُلاحَظُ أَنَّ التَّضادَ في هَذَا اللَّوْنِ "إِنَّمَا هو تَضادٌ صَوْتِيٌّ بِنْفِي الدَّالِ، وإثباتِهِ فِي آنِ، كَمَا أَنَّ طَرَفِي الطَّبَاقِ لَيْسا هُما مِحْورَ هَذَا التَّضادِ الْأُسْلُوبِيِّ، إِنَّمَا المِحْورُ الحَقِيقِيُّ هو (أداةُ النَّفْيِ)؛ إذِ يَتَمُّ في ضَوْئِها هَذَا الانزِياحُ الصَّوْتِيُّ، والدَّلاليُّ مَعاً"⁽³⁾.

وَمِنْ شَواهِدِ طَبَاقِ السَّلْبِ في المَقاماتِ قَوْلُ ناصيفِ اليارْجِي: "قالَ فطارتِ السَّنَةُ مِنْ الجُفُونِ، بَيْنَ تلكَ العَيْنِ والنُّونِ، وتحدَّثَ القومُ بِما يَكونُ، وما لا يَكونُ"⁽⁴⁾. حَيْثُ كَرَّرَ اليارْجِي

(1) الشَّدِياقِ، السَّاقِ عَلَى السَّاقِ (مقامة مقعدة)، (ص136). عَمِهاً: العمه المنحير المتردد. مادة (عمه)، الجَوْهَرِي، الصَّحاح (ج2242/6). المتغشمر: من يأتي الأمر من غير تثبيت. مادة (غشمر)، الجَوْهَرِي، الصَّحاح (ج770/2).

(2) القَزويني، الإْبْضاح، (ص480).

(3) جاب الله، جماليَّات التلويْن الصَّوْتِي في القُرْآن الكَرِيم، (ص107).

(4) اليارْجِي، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المقامة الأزهرية)، (ص77).

لفظة (يكون) بالإثبات والنفي، فطابق بينهما سلباً مُعْتَمِداً عَلَى الدال (لا). وقد نتجت المُقَابَلَةُ هنا بعوامل صياغية إضافية هي (النفي)⁽¹⁾.

وَطَبَاقُ السَّلْبِ أَقْلُ وَرُوداً فِي النُّصُوصِ المَقَامِيَّةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ كَذَلِكَ (فقدت، لا فقدت) فِي قَوْلِ ابْنِ الأَلُوسِيِّ: "مَا الَّذِي أَصَابَكَ، وَأَعْظَمَ أَوْصَابَكَ، هَلْ فَقدت - لا فقدت - أَحداً مِنْ أَحْبَابِكَ"⁽²⁾، حَيْثُ كَرَّرَ لَفْظَةَ (فقدت) بالإثبات والنفي، فطابق بينهما سلباً، فَمَنَحَ الكَلَامَ مَزِيداً مِنَ الوُضُوحِ وَالبَيَانِ.

2- المُقَابَلَةُ

المُقَابَلَةُ أُسْلُوبٌ شائعٌ فِي البَلَاغَةِ العَرَبِيَّةِ، فَالبَلِيغُ يُكثِرُ فِي نَظْمِهِ مِنَ اسْتِخْدَامِهَا، وَيَجْعَلُهَا وَسِيلَةً لِلتَأثيرِ فِي النُّفُوسِ، وَأداةً فَنِيَّةً لِلبَيَانِ، وَظَاهِرَةً بارِزَةً فِي البَيَانِ العَرَبِيِّ. وَالمَقْصُودُ بِهَا عِنْدَ عُلَمَاءِ البَلَاغَةِ: "أَنْ يُؤْتَى بِمَعْنِيَيْنِ مُتَوَافِقَيْنِ، أَوْ مَعَانٍ مُتَوَافِقَةٍ، ثُمَّ بِمَا يَقَابِلُهُمَا، أَوْ يَقَابِلُهَا عَلَى التَّرْتِيبِ، وَالمَرادُ بِالتَّوَافُقِ خِلافُ التَّقَابُلِ"⁽³⁾.

وَرَأى آخَرُونَ أَنَّ المَقْصُودَ بِالمُقَابَلَةِ: "إِيرَادُ الكَلَامِ ثُمَّ بِمُقَابَلَتِهِ بِمِثْلِهِ فِي المَعْنَى، وَاللَّفْظِ عَلَى جِهَةِ المِوَافَقَةِ، أَوْ المِخَالَفَةِ"⁽⁴⁾.

أَضْرِبُ المُقَابَلَةَ

وَفِي المَقَامَاتِ العُثمَانِيَّةِ جَادَتْ قَرَائِحُ الأُدْبَاءِ فِي نُصُوصِهِمْ بِتَشْكِيلَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ فِي بَابِ المُقَابَلَةِ، مِنْ سَنَى الأَنْوَاعِ، فَلَمْ يَتْرَكُوا بَاباً مِنْ أَوْبَاهِهَا إِلاَّ وَطَرَفُوهُ فِي نُصُوصِهِم المَقَامِيَّةِ، وَلَعَلَّ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ رَغْبَتُهُمْ فِي تَوْضِيحِ المَعْنَى، وَإِزَالَةِ مَا يَعْتَرِي الكَلَامَ مِنْ غَمُوضٍ، وَيُمْكِنُ رَسْمَ أَضْرِبِهَا عَلَى النَّحْوِ الآتِي:

أ- مُقَابَلَةُ اثْنَيْنِ بِاثْنَيْنِ، وَهَذَا الضَّرْبُ هُوَ الأَكْثَرُ وَرُوداً فِي النُّصُوصِ المَقَامِيَّةِ لِسَهولَتِهِ، وَمِنْ شَوَاهِدِهَا فِي المَقَامَاتِ العُثمَانِيَّةِ قَوْلُ ناصيفِ اليَازِجِيِّ فِي (المَقَامَةُ المُقَدِّسِيَّة): "فَإِنْ أَصَبْتَ فَرَمِيَّةً مِنْ غَيْرِ رَامٍ، وَإِنْ أَخْطَأْتَ فَلِي مَعْدَرَةٌ عِنْدَ الكَرَامِ، وَاللهُ المُسَوِّولُ أَنْ يَحْسَنَ خَوَاتِمَنَا المُلاحِقَةَ، كَمَا

(1) عِنْدَ المُطَلِّبِ، البَلَاغَةُ العَرَبِيَّةُ قِراءَةُ أُخْرَى، (ص358).

(2) ابْنُ الأَلُوسِيِّ، مَقَامَاتُ ابْنِ الأَلُوسِيِّ (رَجَزُ المُعْرُورِ عَنِ رَجَزِ العُرُورِ)، (ص101). أَوْصَابُ: جَمْعُ الوِصْبِ، وَهُوَ الوَجَعُ وَالمَرَضُ.

(3) القُرُونِيُّ، الإِبْضَاحُ، (ص485).

(4) العَسْكَرِيُّ، الصَّنَاعَتَيْنِ، (ص371). يُنْظَرُ: القَيْرَوَانِيُّ، العُمْدَةُ، (ج2/15).

أحسنَ فواتحنا السابقة⁽¹⁾. حيثُ طالعنا بمقابلةِ اثْنَيْنِ باثْنَيْنِ في (خواتمنا اللاحقة)، و(فواتحنا السابقة). مع ما حملتهُ العبارتانِ من روعةِ التَّقْسِيمِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وعذبِ المُوسِيقَا مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى.

أما عبدُ اللهِ فِكْرِي فقد قدّمَ في مَقَامَاتِهِ طائفةً مننقاةً من هَذَا الضَّرْبِ، فأبدعَ في تشكيلها، ومِنْ شَوَاهِدِهَا في (المَقَامَةُ الفِكْرِيَّةُ)، قَوْلُهُ: "المروءةُ، واللُّطْفُ، والمرحمةُ، قد يعارضها حبُّ الجاهِ والحرصِ عَلَى نفوذِ الكلمةِ، كَذَلِكَ الحلمُ، والتدبُّرُ يعارضُهُ الغضبُ، والتَّهَوُّرُ"⁽²⁾. فَإِنَّ الشَّاهِدَ فِيهِ مُقَابَلَةُ اثْنَيْنِ باثْنَيْنِ هما: (الحلم والتدبُّرُ)، و(الغضب والتَّهَوُّرُ).

وَمِنْ مُقَابَلَةِ اثْنَيْنِ باثْنَيْنِ (طيب الحلال، خبث الحرام) فِي قَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ فِكْرِي: "أما تستحي من الله من ركوبِ هذه الآثامِ، ما في طيبِ الحلالِ غنيَّةٌ عن خبثِ الحرامِ"⁽³⁾. وَمِنْهَا أَيْضاً (صباح اليسر، وليل العسر) فِي قَوْلِهِ: "وهو واثقٌ بالنَّجَاحِ، جازمٌ بالفلاحِ، مُسْتَيْقِنٌ بَأَنَّ صباحَ اليسرِ من ليلِ العسرِ"⁽⁴⁾.

وَمِنْهَا كَذَلِكَ (للعلماءِ والأتقياءِ، وللجهلاءِ والأشقياءِ) فِي قَوْلِهِ: "والمعاشرُ للعلماءِ والأتقياءِ، والملازمُ للجهلاءِ والأشقياءِ"⁽⁵⁾.

وَمِنْ البِنَى التَّقَابِلِيَّةِ المتواليَةِ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ فِكْرِي: "فتجلو الحقُّ في صورةِ الباطلِ، والباطلُ في صورةِ الحقِّ، وتُبدي الصدقُ في هيئةِ الكذبِ، والكذبُ في هيئةِ الصدقِ"⁽⁶⁾.

ويُقَدِّمُ ابنُ الألوَيْسِيِّ لَوْحَةً مِنْ لَوْحَاتِ هَذَا اللُّونِ فِي مَقَامَتِهِ (أَنْبَاءُ الأَبْنَاءِ لِأَطْيَبِ الأَنْبَاءِ)، يَقُولُ: "يَا بَنِيَّ، اللهُ اللهُ فِي أَمِّكُمْ فَلَعَمْرِي لَقَدْ كَانَتْ تَسْتُرُ بِسُرُورِكُمْ، وَتَعْتَمُّ لِعَمِّكُمْ"⁽⁷⁾. حَيْثُ رَسَمَ بِالمُقَابَلَةِ صُورَةَ التَّرَابِطِ، وَقُوَّةِ الأَوَاصِرِ بَيْنَ الأُمَّ، الأَبْنَاءِ.

كَمَا بَرَعَ الكُتَّابُ فِي التَّلَاعُبِ بِالأَلْفَاظِ عَنْ طَرِيقِ المُقَابَلَاتِ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ كَانَ مَلْمَحاً واضِحاً فِي النُّصُوصِ المَقَامِيَّةِ؛ وَذَلِكَ لِإِزَالَةِ كَثِيرٍ مِنَ العُمُوضِ الَّذِي قد يسيطرُ عَلَى المُتَلَقِّينَ، وَمِنْ هُنَا قَدَّمَ هَوْلَاءِ فَوَاصِلَ عَذْبَةٍ مِنَ الرُّوَائِعِ الَّتِي أْبْرَزَتْهَا المُقَابَلَاتُ، يَقُولُ أَحْمَدُ فَارِسُ الشَّدِياقِ:

(1) اليَازِجِي، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ الفُؤْسيَّةُ)، (ص 424).

(2) فِكْرِي، الأَثَارُ الفِكْرِيَّةُ (المَقَامَةُ الفِكْرِيَّةُ)، (ص 280).

(3) المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 298.

(4) فِكْرِي، الأَثَارُ الفِكْرِيَّةُ (مَقَامَةُ فِي حَسَنِ الوَفَاءِ)، (ص 306).

(5) فِكْرِي، عبدُ اللهِ، الأَثَارُ الفِكْرِيَّةُ (مَقَامَةُ الفِكْرِيَّةُ)، (ص 276).

(6) المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 299.

(7) ابنُ الألوَيْسِيِّ، مَقَامَاتُ ابنِ الألوَيْسِيِّ (أَنْبَاءُ الأَبْنَاءِ فِي أَطْيَبِ الأَبْنَاءِ)، (ص 20، ص 21).

"تغيب الأتراح، وتطلع الأفرح"⁽¹⁾. حيثُ رَسَمَ الأديبُ مَشَاهِدَ الفرحِ والسَّعادةِ، وغيابِ الحزنِ والشَّقَاءِ عن طريقِ المُقابَلَةِ، كما قدَّمَ صورةَ دوامِ السَّعادةِ مِنْ خِلالِ توظيفِ الفِعلَيْنِ المُضارِعَيْنِ (تغيب، وتطلع) إلى جانبِ المُوسِيقَا الظَّاهِرَةِ في الدَّالِ (الحاء) المسبوقِ بالرَّاءِ والألفِ في قَوْلِهِ: (الأتراح، والأفرح).

وَمِنْ رَوَائِعِ المُقابَلاتِ الَّتِي تَزخُرُ بِالْحَرَكَةِ، وَالْحَيَوِيَّةِ هَبوطاً إِلَى الوهادِ، وَصعوداً إِلَى الرَّوَابِي، قَوْلُ أَحْمَدَ فَارِسِ الشَّدِّيَاقِ: "إِنَّ الرُّوجَةَ إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ جِسْمَ زَوْجِهَا أَدغَمَ فِيهَا، وَأصبحَ سِرُّهُ فِي فِيهَا، فَصارَ فَراداً لا زَوْجاً، سَوَاءَ هبَطَا وَهدَّةً، أو صعدَا أَوْجاً"⁽²⁾.

وتبدو روعةُ الشُّكَيْلِ، ودقَّةُ التَّنسيقِ في المُقابَلاتِ لَمَّا ترتبَطُ بِالوَأَقِعِ، وَتُصوَّرُ حَيثِيَّاتِهِ في الفرحِ والبلاءِ، وَفي السَّعادةِ والشَّقَاءِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ (خلعتُ ملابسَ الأَنسِ، ولبستُ ثيابَ الحدادِ) فِي قَوْلِ مُحَمَّدِ المُبارَكِ: "وَهَلْ صَفَتْ أوقانَكَ إِلاَّ بِوجودِي، أو طابَتْ أوقانَكَ إِلاَّ بِوابِلِ كرمي وَجودي؟! ولو قَطَعْتَ عَنكَ لَطائِفَ الإِمدادِ، لخلعتُ مَلابِسَ الأَنسِ، ولبستُ ثيابَ الحدادِ"⁽³⁾. مع ما يَصوِّره المَشْهُدُ مِنْ شِدَّةِ الحزنِ المُخيمِ صُحْبَةَ الفِعلَيْنِ المَاضِيَيْنِ (خلعتُ، ولبستُ)، وَمِنْهَا (سلبِ نعمةٍ، وجلبِ نعمةٍ) فِي قَوْلِهِ: "وَهَلْ لغيرِ اللهِ تَأثيرٌ بِحالٍ أو هَمَّةٍ، في سلبِ نعمةٍ، وجلبِ نعمةٍ"⁽⁴⁾.

وَيَرسُمُ أَحْمَدُ البَرَبيرِ مَجْمُوعَةً مِنَ البِنَى التَّقابِلِيَّةِ فِي نُصُوصِهِ المَقامِيَّةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ مُقابَلَةِ اثْنَيْنِ بِاثْنَيْنِ قَوْلُهُ: "وباللهِ قُلِّ لي: أَيِّ فخرٍ لِمَنْ يِعزُّ مَفقوداً، وَيهونُ موجوداً"⁽⁵⁾. مَعَ ما يَحْمِلُهُ المَشْهُدُ مِنْ نَفْيِ الأَمْرِ عَن طَرِيقِ الاستِغْهامِ مَعَ الدَّالِ (أَي).

ورفعاً لِمَنْزِلَةِ الحَقِّ، وإزهاقاً لِلباطِلِ رَسَمَ أَحْمَدُ البَرَبيرِ مُقابَلَةَ أُخْرَى قَائِلاً: "وَدَعُ عَنكَ زخارفَ التَّلَبيسِ، فأكْبُرُ مِنَ الحَقِّ مِنْ قِبَلِهِ، وَأصغُرُ مِنَ الباطِلِ مِنْ عَمَلِهِ"⁽⁶⁾.

ب- مُقابَلَةُ ثَلَاثَةٍ بِثَلَاثَةٍ، لَمْ يَكْتَفِ الأَدبَاءُ بِالضَّرْبِ الأَوَّلِ، بَلْ تابَعُوا مَسيرَهُمْ إِلَى مُقابَلَةِ ثَلَاثَةٍ بِثَلَاثَةٍ، وَمِنْ شَوَاهِدِهَا قَوْلُ شَهَابِ الدِّينِ الحَفَّاجِيِّ: قُرْبُهُ أَقْبَحُ مِنَ الحَرَمَانِ، وَبُعْدُهُ أَلذُّ مِنْ وَصْلِ

(1) الشَّدِّيَاقِ، السَّاقُ عَلَى السَّاقِ (مَقامَةٌ مَشبِيَّة)، (ص358).

(2) المَرْجِعُ السَّابِقُ (مَقامَةٌ مَقْعَدَةٌ)، ص133. الوهدة: المَكانُ المَنخَفُضُ، جَمعُها وَهادِ.

(3) الطَّيَّانِ، المُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاظَرَاتِ (غَرِيبُ الأَنْبَاءِ فِي المُفَاخَرَةِ بَيْنِ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ)، (ص104).

(4) الطَّيَّانِ، المُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاظَرَاتِ (أَبْهَى مَقامَةٌ فِي المُفَاخَرَةِ بَيْنَ العُرْبَةِ وَالإِقامَةِ)، (ص158).

(5) الطَّيَّانِ، المُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاظَرَاتِ (مَقامَةٌ فِي المُفَاخَرَةِ بَيْنِ المَاءِ وَالهِوَاءِ)، (ص30).

(6) المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص46.

الحرور الحسان⁽¹⁾. حيث قابل الخفاجي بين (قربه، وبعده)، و (أقبح، وأذ)، و (وصل، والحرمان) مع ما حملته المقابلة من موسيقاً نابعة من دال (الراء) المسبوق بحرف المد (الألف) إضافة إلى توضيح المعاني، وإزالة الخفاء والغموض.

ومن مقابلة ثلاثة بثلاثة كذلك قول عبد الله فكري في (المقامة الفكرية): "ومنهم من هو نديم السيرة، خبيث السريرة، مبغض للخير والبر، محب للفساد والشر"⁽²⁾. فهي من باب مقابلة ثلاثة بثلاثة حيث قابل (مبغض) و (محب)، و (الخير) و (الشر) و (البر)، و (الفساد). بأسلوب بلاغي أخذ أكسب المشهد جلاءً ووضوحاً.

ويواصل عبد الله فكري الإجابة، فيقدم طائفة من المقابلات البارة والمتابعة لإضفاء نوع من الوضوح على أعماله، مصوراً محاسن الجرأة والإقدام، ومهالك الجبن والإحجام، يقول: "وربما كان الجبن ذريعة لتجنب الهلاك، والإقدام سبب لحصول النجاة"⁽³⁾. فلا نجاة من المهالك إلا بالإقدام، ولا سقوط في مهاوي الردى إلا ويكون الجبن، والإحجام من أسبابه.

ولم يبرح عبد الله فكري الحديث عن مكارم الأخلاق، وتقديمها من خلال البنية التقابلية، ومن شواهد ذلك قوله في (المقامة الفكرية): "وقالوا جود الرجل يحبه إلى أصدائه، وبخله يبغضه إلى أولاده"⁽⁴⁾، فجود الإنسان وعطاؤه مجلبة للحب حتى من الأعداء، والبخل طريق للبغض حتى من الأصدقاء. ويدعم ذلك قوله: "وهكذا الجود مثلاً إفراطه إسراف وتبذير، والتفريط فيه شح وتقتير"⁽⁵⁾.

ج- مقابلة أربعة بأربعة

ويظهر هذا النوع في مشاهد قليلة في النصوص المقامية، ومن خلاله يقدم عبد الله فكري علاجاً ناجعاً للفوز بالسلامة، والبعد عن الوقوع في الندامة من خلال البنية التقابلية في قوله: "فمن غلب بصيرته على هواه فاز بالمنى والسلامة، ومن غلب هواه على بصيرته وقع في

(1) الخفاجي، ربحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، (ص287).

(2) فكري، عبد الله، الآثار الفكرية (المقامة الفكرية)، (ص280).

(3) المرجع السابق، ص292.

(4) المرجع نفسه، ص292.

(5) المرجع نفسه، ص295.

العنا والندامة⁽¹⁾. وقد اعتمد الأديب على دال الشرط (من) رغبة في إضفاء إقناع إلى إقناع، وجمال إلى إمتاع، مع ما حملته المقابلة من إزالة الغموض والإبهام عن طريق التضاد.

د - مقابلة خمسة بخمسة

لقد برع كاتب المقامة في توظيف هذا الضرب من المقابلة في أعمالهم رغم قلته، حيث طرحه على استحياء، ومن شواهد هذه البراعة قول أحمد فارس الشدياق: "إن سعادتي في الكون هي أن أرضى عن أميري، ويرضى عني، وشقاوتي هي أن أغضب منه، ويغضب مني"⁽²⁾. حيث قابل الشدياق (سعادتي)، و(شقاوتي)، و(أرضى) و(أغضب)، و(عن)، و(من)، و(يرضى)، و(يغضب)، و(عني)، و(مني). فجمع في بنيته التقابلية الأسماء، والأفعال، والحروف في أسلوب أدبي أخذ.

3- التورية

التورية لغة واصطلاحاً

التورية لغة⁽³⁾: التورية مصدر للفعل الرباعي (ورى) على وزن (فعل)، وهي مأخوذة من الفعل الثلاثي (ورى) تقول ورئت الخبر تورية إذا سترته، وأظهرت غيره، كأنه مأخوذ من وراء الإنسان، أو كأنه يجعله وراءه حتى لا يظهر، ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿يَبْنِيءَ آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَآتِكُمْ وَرِيسًا وَلِبَاسِ الْفَقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 26].

التورية اصطلاحاً، ويسمى هذا اللون التوجيه، والإيهام أيضاً، والمقصود به "أن تكون الكلمة تحتمل معنيين، فيستعمل المتكلم أحد احتماليهما، ويهمل الآخر، ومزاده ما أهمله، لا ما استعمله"⁽⁴⁾، ومعنى ذلك أن التورية ذكر لفظ له معنيان؛ أحدهما قريب، ظاهر، متبادر إلى الذهن، غير مراد، والثاني بعيد، خفي، غير متبادر إلى الذهن، وهو المراد.

برع كاتب المقامة في توظيف الغموض والخفاء في نصوصهم المقامية، فقد كان ذلك ديدنهم في العصر العثماني مجارةً لسابقيهم من الأدباء العرب، ومن شواهد التورية لفظ (الغزاة)

(1) فكري، الآثار الفكرية (لمقامة الفكرية)، (ص 277).

(2) الشدياق، الساق على الساق، (ص 62).

(3) الجوهري، الصحاح، (ج 6/2522، 2523)، مادة (ورى).

(4) المصري، تحرير التحيير، (ص 268). المصري، بديع القرآن، (ص 102). يُنظر: القزويني، الإيضاح،

(ص 499).

فِي قَوْلِ نَاصِيفِ الْيَازِجِيِّ: "فَلَا أَنْتَبُهُ إِلَّا وَقَدْ ذَرَّ قَرْنُ الْغَزَالَةِ الضَّاحِي"⁽¹⁾. أَمَّا التَّوْرِيَّةُ فَقَدْ وَقَعَتْ فِي لَفْظِ (الْغَزَالَةِ) حَيْثُ إِنَّ الْمَعْنَى الْقَرِيبَ، الظَّاهِرَ، المتبَادِرَ إِلَى الذَّهْنِ، وَغَيْرَ الْمَرَادِ هُوَ: (الْغَزَالَةُ الْوَحْشِيَّةُ)، وَالْمَعْنَى الْبَعِيدَ، الْخَفِيَّ، غَيْرَ الْمَتَبَادِرِ إِلَى الذَّهْنِ، وَالْمَرَادُ هُوَ (الشَّمْسُ). وَهَذَا شَبِيهٌ بِقَوْلِ الْقَاضِي عِيَاضَ:

كَأَنَّ نَيْسَانَ أَهْدَى مِنْ مَلَابِسِهِ لِشَهْرٍ كَأَنَّهُ أَنْوَعًا مِنَ الْخُلْلِ
أَوْ الْغَزَالَةَ مِنْ طُولِ الْمَدَى خَرَفَتْ فَمَا تَفَرَّقَ بَيْنَ الْجَدْيِ وَالْحَمَلِ⁽²⁾

وَمِثْلُ هَذِهِ التَّوْرِيَّةِ قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَازِجِيِّ: "إِنَّ شَتَّتِ رَفَعْنَا زَوْجَكَ إِلَى قَرْنِ الْغَزَالَةِ، لِيَنْعَمَ بِأَلْكَ بِأَحْسَنِ حَالَةٍ"⁽³⁾. وَمِثْلَهَا تَمَامًا قَوْلُ بَهَاءِ الدِّينِ الْبَيْطَارِ: "وَلَمَّا رَعَتْ الْغَزَالَةُ مَا أَبْدَاهُ، وَرَعَتْ مِنْبَدَى كَلَامِهِ وَمَنْتَاهُ"⁽⁴⁾.

وَمِنْ التَّوْرِيَّةِ الَّتِي اسْتَوْعِبَتْ كُلَّ مَعَانِي الْخَفَاءِ وَالتَّلَطُّفِ، وَتَضَمَّنَتْ فِي تَنَائِيهَا دُرَرًا فَائِقَةً الْجَمَالِ قَوْلُ الْيَازِجِيِّ: "وَكَنْتُ قَدْ انْضَوَيْتُ إِلَى صَحْبٍ أَحْمَى مِنَ الْجَمْرَاتِ، وَأَكْرَمَ مِنَ الطَّلْحَاتِ"⁽⁵⁾. فَقَدْ وَقَعَتْ التَّوْرِيَّةُ فِي كَلِمَةِ (الْجَمْرَاتِ)؛ فَالْمَعْنَى الْقَرِيبُ الظَّاهِرُ الْمُتَبَادِرُ إِلَى الذَّهْنِ، وَغَيْرَ الْمَرَادِ هُوَ: (الْجَمْرَاتُ الْمَعْرُوفَةُ فِي النَّارِ)، وَالْمَعْنَى الْبَعِيدُ الْخَفِيُّ غَيْرُ الْمَتَبَادِرِ إِلَى الذَّهْنِ، وَالْمَرَادُ هُوَ جَمْرَاتُ الْعَرَبِ (الْجَمَاعَةُ)، وَهِيَ أَرْبَعَةٌ: "بَنُو نُمَيْرِ بْنِ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ؛ وَبَنُو الْحَارِثِ بْنِ كَعْبِ بْنِ عُلَّةَ بْنِ جَلْدٍ؛ بَنُو ضَبَّةَ بْنِ أَدَّ بْنِ طَابِخَةَ، وَبَنُو عَبْسَانَ بْنِ بَغِيضَ، وَإِنَّمَا قِيلَ لِهَذِهِ الْقَبَائِلِ؛ جَمْرَاتُ الْعَرَبِ، لِأَنَّهَا تَجَمَّعَتْ فِي أَنْفُسِهَا، وَلَمْ يُدْخَلُوا مَعَهُمْ غَيْرَهُمْ"⁽⁶⁾.

وَمِنْ التَّوْرِيَّةِ الَّتِي حَمَلَتْ رُوعَةَ الْخَفَاءِ وَالتَّعْمِيَةَ كَأَجْمَلِ مَا يَكُونُ، قَوْلُ أَحْمَدَ الْبَرْبَرِيِّ: "وَرَفَّصَتْ بَيْنَ أَيْدِينَا جَوَارِي الْمَاءِ، وَظَهَرَتْ مَعَ وَجُودِ شَمُوسِنَا وَبِدُورِنَا نُجُومَ النَّبَاتِ حَتَّى ظَنَّاهَا نَجُومَ السَّمَاءِ"⁽⁷⁾. فَالتَّوْرِيَّةُ فِي كَلِمَةِ (نُجُومَ)، وَمَعْنَاهَا الْقَرِيبُ الْمُتَبَادِرُ إِلَى الذَّهْنِ هُوَ (نَجُومَ السَّمَاءِ)، أَمَّا الْمَعْنَى الْبَعِيدُ غَيْرُ الْمَتَبَادِرِ إِلَى الذَّهْنِ فَهُوَ (مَا لَا سَاقَ لَهُ مِنَ النَّبَاتِ).

(1) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ الْهَزْلِيَّةُ)، (ص 110).

(2) الْحَمَوِيُّ، خَزَانَةُ الْأَدَبِ، (ج 2/244).

(3) الشَّيْبَانِيُّ، أَحْمَدُ فَارِسُ، السَّاقُ عَلَى السَّاقِ (مَقَامَةُ مَشِيَّةٍ)، (ص 358).

(4) الطَّيَّانُ، الْمُفَاخَرَاتُ وَالْمُنَاطَرَاتُ (المُفَاخَرَةُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ)، (ص 57).

(5) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ الْأَدْبِيَّةُ)، (ص 250).

(6) ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ، الْعَقْدُ الْفَرِيدُ، (ج 3/318).

(7) الطَّيَّانُ، الْمُفَاخَرَاتُ وَالْمُنَاطَرَاتُ (مَقَامَةُ فِي الْمُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ)، (ص 24).

وَيُبَدِّعُ نَاصِيْفُ الْيَارِجِيِّ فِي تَوْظِيْفِ النَّوْرِيَّةِ فِي (الْمَقَامَةِ الْحَمَوِيَّةِ)، يَقُولُ: "وَأَخَذْنَا نَجْتِنِي النَّمَارَ الذَّوَابِلَ، مِنَ الْأَفْنَانِ السَّوَابِلِ، وَقَدْ رَقَصَ الْبَلْبُلُ عَلَى نَعْمَاتِ الْبَلَابِلِ"⁽¹⁾. فَالنَّوْرِيَّةُ وَقَعَتْ فِي كَلِمَةِ (الْبَلَابِلِ)، وَمَعْنَاهَا الْقَرِيبُ الْمَتَبَادِرُ إِلَى الذَّهْنِ الْبَلْبُلُ، وَهُوَ (الطَّيْرُ الْمَعْرُوفُ)، وَالَّذِي رَشَحَ لَهُ كَلِمَةُ (نَعْمَاتِ)، أَمَا الْمَعْنَى الْبَعِيدُ غَيْرُ الْمَتَبَادِرِ إِلَى الذَّهْنِ فَهُوَ: (أَنَابِيْبُ النَّوَاعِيْرِ الَّتِي يَنْصَبُ مِنْهَا الْمَاءُ)، وَفِي النَّوْرِيَّةِ مِنَ الْخَفَاءِ وَالنَّطْفِ مَا يُبْهَرُ السَّامِعِينَ، وَيَخْلُبُ أَلْبَابَ الْقَارِيْنَ.

4- الَّلَّفُ وَالنَّشْرُ

الَّلَّفُ وَالنَّشْرُ عَالَمٌ مِنَ الْإِبْدَاعِ تَظْهَرُ فِيهِ مَلَامِحُ النَّظْمِ الْعَجِيْبِ، وَسَمَاتُ الْإِتْسَاقِ الْبَدِيْعِ، وَالْمَقْصُودُ بِالَّلَّفِ وَالنَّشْرِ؛ "نَكَرٌ مُتَعَدِّدٌ عَلَى جِهَةِ التَّفْصِيْلِ، أَوْ الْإِجْمَالِ، ثُمَّ ذَكَرُ مَا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ غَيْرِ تَعْيِيْنٍ؛ ثَقَّةٌ بِأَنَّ السَّامِعَ يَرُدُّهُ إِلَيْهِ"⁽²⁾. وَيَبْرَى السَّكَائِيَّ أَنَّ الَّلَّفَ وَالنَّشْرَ هُوَ: "أَنَّ تَلَفَّ بَيْنَ شَيْئَيْنِ فِي الذِّكْرِ، ثُمَّ تَتَّبَعُهُمَا كَلَامًا مُشْتَمِلًا عَلَى مُتَعَلِّقٍ بِوَاحِدٍ وَبِآخَرَ مِنْ غَيْرِ تَعْيِيْنٍ؛ ثَقَّةٌ بِأَنَّ السَّامِعَ يَرُدُّ كُلًّا مِنْهُمَا إِلَى مَا هُوَ لَهُ"⁽³⁾.

أَمَا الَّلَّفُ وَالنَّشْرُ فَهُوَ فَنٌّ فِي الْمَتَعَدَّدَاتِ الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَمْرٌ لِأَحَقِّ؛ فَالَّلَّفُ يُشَارُ بِهِ إِلَى الْمَتَعَدَّدِ الَّذِي يُؤْتَى بِهِ أَوَّلًا، وَالنَّشْرُ يُشَارُ بِهِ إِلَى الْمَتَعَدَّدِ الَّلَّاحِقِ الَّذِي يَتَعَلَّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُ بِوَاحِدٍ مِنَ السَّابِقِ دُونَ تَعْيِيْنٍ، أَمَا ذَكَرُ الْمَتَعَدَّدَاتِ مَعَ تَعْيِيْنٍ مَا يَتَعَلَّقُ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا فَهُوَ التَّفْصِيْمُ.

وَالَّلَّفُ وَالنَّشْرُ الْمَفْصَلُ ضَرْبَانِ⁽⁴⁾، الْأَوَّلُ: أَنَّ يَأْتِي النَّشْرُ عَلَى تَرْتِيْبِ الَّلَّفِ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ. وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الْقَصَصُ: 73].

وَالثَّانِي: يَكُونُ فِيهِ النَّشْرُ عَلَى غَيْرِ تَرْتِيْبِ الَّلَّفِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ هَذَا النَّوْعِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي يَجِدُكَ يَتِيمًا فَكَوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۗ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا نَهْرَ ۗ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا نَهْرَ ۗ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۗ ﴿١١﴾﴾ [الضْحَى: 6 - 11].

(1) الْيَارِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ، (ص 276). حَمِيَاهُ: خَمْرَتُهُ، الْأَجَارِعُ: الْأَرَاضِي الطَّيْبَةُ النَّبَاتِ، الْغَضْرَةُ: الْمَخْصِبَةُ، لَمِيَاءٌ: كَثِيْفَةٌ، السَّوَابِلُ: الْأَعْصَانُ الْمَتَدَلِّيَةُ. الْبَلَابِلُ: أَنْابِيْبُ تَنْصَبُ مِنْهَا الْمَاءُ.

(2) الْقَرْوِيْنِيُّ، الْإِبْضَاحُ: (ص 503).

(3) السَّكَائِيَّ، مِفْتَاحُ الْعُلُومِ، (ص 452).

(4) الْقَرْوِيْنِيُّ، الْإِبْضَاحُ، (ص 503). يُنْظَرُ، الْمَصْرِيُّ، بَدِيْعُ الْقُرْآنِ، (ص 73).

أما هذا الضرب فقد ورد في مواضع قليلة في المقامات العثمانية، وذلك لتقديمهم السجع والتجنيس، ومن شواهد قول ناصيف اليازجي: "فلما سمع القوم كلامه فيه لغواً ولحناً، عابوه لفظاً ومعنى"⁽¹⁾. فالسطر السابق من باب الطي والنشر غير المرتب؛ لأن عيب اللفظ يرجع إلى اللحن، وعيب المعنى إلى اللغو.

ومن اللف والنشر غير المرتب أيضاً قول ناصيف اليازجي في (المقامة العديّة): "فخلع الزعيم عليه، إحدى بردتيه، وانصرف الغلام بين يديه، وكنت قد عرفت الشيخ والغلام، إنهما رجب، وابن الخزام"⁽²⁾. والقول في الأسطر السابقة من باب الطي والنشر غير المرتب. حيث طالعت اليازجي بقوله: (الشيخ، والغلام)، ثم لم يرتب قائلاً: (رجب، وابن الخزام)؛ فالشيخ هو (ابن الخزام)، والغلام هو (رجب).

5- الافتباس

الافتباس وما اشتق منه من فروع وهي: التضمن، العقد، الحل، والتلميح من فنون البديع. والمقصود به: أن يضمّن المتكلم كلامه من شعرٍ أو نثرٍ كلاماً لغيره بلفظه أو بمعناه، وهذا الافتباس يكون من القرآن الكريم، أو من أقوال الرسول - صلى الله عليه وسلم -، أو من الأمثال السائرة، أو من الحكم المشهورة، أو من أقوال كبار البلغاء، والشعراء المتداوله دون أن يعزو المقتبس القول إلى قائله. ويطلق عليه كذلك في عرف المحدثين، التناص، وهو لا يبتعد كثيراً في محتواه عن الافتباس، فمفهومه "أن يتضمن نص أدبي ما خصوصاً أو أفكاراً أخرى سابقة عليه، عن طريق الافتباس، أو التضمن، أو التلميح، أو الإشارة، أو ما شابه ذلك من المقروع الثقافي لدى الأديب، بحيث تندمج هذه النصوص، أو الأفكار مع النص الأصلي، وتندغم فيه؛ ليشكل نصاً جديداً متكاملًا"⁽³⁾.

والافتباس منه ما هو حسنٌ بديعٌ يقوي المتكلم به كلامه، ويحكم به نظامه، ولاسيما ما كان منه عند الخطباء، والمواظ، وأقوال الحكمة، ومقالات الدعوة والإرشاد، ومقالات الإقناع والتوجيه للفضائل في نفوس المؤمنين بكتاب الله - سبحانه وتعالى -، وكلام رسوله - صلى الله عليه وسلم -، ومنه ما يهدف عن الهدف فيكون عالية على النص الأدبي، ولا يتعدى كونه حشواً لا يضيف على الكلام شيئاً من الجمال، بل قد يؤدي ذلك إلى فساد النص الأدبي.

(1) اليازجي، مجمع البحرين (المقامة الحموية)، (ص 358).

(2) المرجع السابق، ص 358.

(3) يقطين، الرواية والتراث السردية - من أجل وعي جديد بالتراث، (ص 52).

وَبَعْضُ الْأُدْبَاءِ يَلْجَأُ إِلَى الْأَقْتِبَاسِ لَتَقْوِيَةِ فِكْرَتِهِ، أَوْ لِتَزْيِينِ كَلَامِهِ فِي أَغْرَاضٍ مُخْتَلِفَةٍ، كَالْمَدْحِ، وَالْهَجَاءِ، وَالغَزْلِ، وَالْإِخْوَانِيَّاتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإِذَا لَمْ يَحْرَفْ فِي الْمَعْنَى، وَلَمْ يَكُنْ فِي اقْتِبَاسِهِ سُوءٌ أَدَبٍ مَعَ كَلَامِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، أَوْ كَلَامِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَلَا بَأْسَ بِاقْتِبَاسِهِ، أَمَّا إِذَا كَانَ فِي اقْتِبَاسِهِ تَحْرِيفٌ فِي الْمَعْنَى، أَوْ سُوءٌ أَدَبٍ يَتَنَافَى مَعَ الشَّرْعِ فَهُوَ مَمْنُوعٌ، وَيَأْتِمُّ بِهِ الْمُقْتَبِسُ، وَقَدْ يَصِلُ بَعْضُ الْأَقْتِبَاسِ إِلَى دَرَكَةِ الْكُفْرِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَدَرَجَةِ الْإِلْحَادِ وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ. وَتَتَمَثَّلُ أَضْرَبُ الْأَقْتِبَاسِ فِي النُّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ فِي الْمَشَاهِدِ الْآتِيَةِ:

أَوَّلًا: الْأَقْتِبَاسُ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الْأَقْتِبَاسُ فَنٌّ بَدِيعِيٌّ تَتَرَيُّنُ بَرُوعَتَهُ الْمَقَامَاتُ، وَيَأْنَسُ بِلَطْفِهِ الْقَارِئُ فِي مَعْظَمِهَا، وَتَتَفَرَّدُ ظَاهِرُهُ الْأَقْتِبَاسِ الْقُرْآنِيِّ بِكَثَافَةٍ عَالِيَةٍ، بِحَيْثُ مَثَلَتْ خَطًّا مَمْتَدًّا فِي النُّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ، فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ كَانَ، وَلَا زَالَ، وَسَيَظُلُّ مِنْهَلًا عَذْبًا يَرُدُّهُ الدَّارِسُونَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَسَيَبْقَى مَنبَعًا يَسْتَمْدُونَ مِنْهُ ثَرَوَتَهُمُ اللَّغْوِيَّةَ، وَحَدِيقَةً غَنَاءٍ يَجْتَنُونَ مِنْهَا الْأُسْلُوبَ الْمَعْجَزَ، وَالصُّورَةَ الْبَارِعَةَ، وَالْمَحْسَنَ الْبَدِيعَ، فَيَشْكَلُونَ بِأَقَاتٍ مُتَنَوِّعَةً مِنْ فَنُونِ الْبَلَاعَةِ وَأَفْنَانِهَا، كَيْفَ لَا؟ وَقَدْ صُبِغَتِ الْحَيَاةُ فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ بِصَبْغَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ فِي سَنَى مِيَادِينِهَا، وَفِي كُلِّ جَوَانِبِهَا، وَمِنْ هُنَا كَانَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ قِبْلَةَ الْأُدْبَاءِ، وَكَعْبَةَ الشُّعْرَاءِ يَدِينُونَ لَهُ بِالسَّبْقِ، وَالتَّفُوقِ، وَالتَّقَرُّدِ.

انْطَلَقَ الْأُدْبَاءُ فِي هَذَا الْعَصْرِ إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَقْلَبُونَ صَفْحَاتِهِ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي سُورِهِ، وَيَنْدَبَّرُونَ آيَاتِهِ، فَيَقْتَبِسُونَ مِنْهُ مَا دَعَتِ الْحَاجَةُ، فَجَادَتْ قَرَائِحُهُمُ بِرَوَائِعِ التَّشْكِيلِ، وَحَمَلَتْ عَقُولُهُمْ قَدْرَةَ فَائِقَةً فِي اخْتِيَارِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ بِدَقَّةٍ مُتَنَاهِيَّةٍ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْفِ الْيَازْجِيِّ: "صَدَقْتَ حَدِيثٌ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْغَرْبِ، تَصْدُرُ الرَّعَاءَ بَعْدَمَا اسْتَقَوْا بِكُلِّ سَجَالٍ"⁽¹⁾، حَيْثُ عَادَ الْيَازْجِيُّ إِلَى رَسْمِ مَشْهَدٍ حَيٍّ لِازْدِحَامِ النَّاسِ عَلَى مَوَارِدِ الْمِيَاهِ، وَسَبَقَ مِنْ كَانَ يَمْتَلِكُ الْقُوَّةَ، أَمَّا مَنْ كَانَ دُونَهُمْ فَعَلِيهِ الْإِنْتِظَارُ حَالَهُ حَالُ ابْنَتِي شَعِيبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَهَذَا الْمَشْهَدُ مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَمَّا رَدَّ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣].

(1) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْمَكِّيَّةُ)، (ص 416).

وَبَرَسَمُ شَهَابِ الدِّينِ الْخَفَاجِيِّ مَشْهَدًا مِنْ مَشَاهِدِ الْحَزَنِ الذِّي يَسِيْطُرُ، وَأَجْوَاءِ الْكَأْبَةِ الَّتِي تَكْتَنُفُ بَعْضَ الْمُتَقَلِّبِينَ بِالْهَمُومِ مِنْ خِلَالِ قَوْلِهِ فِي (الْمَقَامَةِ السَّاسَانِيَّةِ): "فَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ حَالِي، ففُوَادِي بِهَا فُوَادُ أُمَّ مُوسَى فَارُغُ مِنْ آمَالِي"⁽¹⁾. حَيْثُ اقْتَبَسَ شَهَابُ الدِّينِ الْخَفَاجِيُّ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُوَادُ أُمَّ مُوسَى فَرِحًا إِنْ كَادَتْ لِنُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: ١٠]. وَكَأَنَّ أَنْ تَتَصَوَّرَ مَلِيًّا مَشْهَدَ حُزْنٍ مُؤَلِّمٍ عُنْوَانَهُ: قِصَّةُ أُمَّ فَقَدَتْ وَلَيْدَهَا الذِّي لَا يَقْوَى عَلَى شَيْءٍ عُنُوءَ بِطَرِيقَةٍ مَرُوعَةٍ لَمَّا أَلْقَتْ بِهِ فِي الْيَمِّ، وَهِيَ لَا تَعْلَمُ مَصِيرَهُ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَسَمَ لَهَا مَشْهَدَ عَوْدَةِ وَلَيْدِهَا إِلَى أَحْضَانِهَا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَكَلِّمِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧]. وَبِطَرِيقَةٍ فِيهَا الْأُسْلُوبُ الْمَعْجَزُ فِي تَرْتِيبِ مَنْطِقِيٍّ عَظِيمٍ، حَيْثُ رَسَمَ لَهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ خَطَّةَ النَّجَاةِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُحْكَمَةَ بَدَأَ بِقَوْلِهِ: (أَرْضِعِيهِ)، ثُمَّ دَالِ الشَّرْطِ (إِذَا) الذِّي رَسَمَ فِي ثَنَائِهَا الرُّعْبَ النَّجَاةَ، وَيَتَابَعُ بِدَالِ النَّهْيِ (لَا) مِنْ خِلَالِ مَشْهَدَيْنِ مُتتَالِيَيْنِ أَوْلَهُمَا: الْحَثُّ عَلَى عَدَمِ الْخَوْفِ فِي قَوْلِهِ: (وَلَا تَخَافِي)؛ لِيُغْرَسَ فِي قَلْبِهَا الطَّمَأْنِينَةُ، وَثَانِيَهُمَا: عَدَمُ الْحُزْنِ فِي قَوْلِهِ: (لَا تَحْزَنِي)؛ لِنَقَرِّ عِيُونُهَا بِالْهُدُوءِ وَالسَّكِينَةِ، وَيَخْتَمُّ بِمَشْهَدِ الْعَوْدَةِ وَالْجَائِزَةِ الْقِيَمَةِ مِنْ خِلَالِ التَّكْيِيدِ فِي قَوْلِهِ: (إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ، وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) مَعَ مَا حَمَلَهُ الْمَدُّ فِي (رَادُّوهُ) مِنْ امْتِدَادِ الْفَرَحِ، وَإِحَاطَتِهِ بِهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. وَيَأْتِي الرَّدُّ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ فَردَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِنَعْلَمَ أَنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ١٣].

وَيُبْدِعُ نَاصِيفَ الْيَازِجِيِّ فِي تَشْكِيلِ مَشْهَدِ الْحَزَنِ مُعْتَمِدًا عَلَى الذِّكْرِ الْحَكِيمِ فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْمَوْتِ، مِنْ خِلَالِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْأَبْيَاتِ الَّتِي جَذَبَ بِهَا قُلُوبَ السَّامِعِينَ، لِيَحْصَلَ عَلَى الْمَالِ، يَقُولُ فِي (الْمَقَامَةِ الْحَكْمِيَّةِ): "قَلَمًا فَرَعُ مِنْ أُبْيَانِهِ، اسْتَهْلَتْ دَمُوعُهُ الْمَاقِي، وَقَالَ سُبْحَانَ الْحَيِّ الْبَاقِي، ثُمَّ سَجَا عَلَى مَضْجَعِهِ حَتَّى خُيِّلَ أَنْ رُوحَهُ قَدْ بَلَغَتْ التَّرَاقِي"⁽²⁾. وَيَبْدُو الْحَزْنَ وَاضِحًا فِي (اسْتَهْلَتْ دَمُوعَهُ الْمَاقِي)، حَتَّى يَنْقَنَ مَشْهَدَ التَّسْوُلِ، وَهَذَا الْمَشْهَدُ الْحَزِينُ مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِي ﴾ [القيامة: ٢٦].

(1) الْخَفَاجِيُّ، رِيحَانَةُ الْأَلْبَا وَزَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، (الْمَقَامَةُ السَّاسَانِيَّةِ)، (ص 390).

(2) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْحَكْمِيَّةِ)، (ص 140).

تَتَوَالَى الْحِكْمَ عَلَى لِسَانِ نَاصِيْفِ الْيَارِجِيِّ، وَيَرْسِمُ هُنَا مَشْهَدَ اللَّامْبَالَاةِ، يَقُولُ: "قَامَرَ
الْأَمِيرُ بَاعْتِقَالِهِ، وَجَعَلَ فِي أُذُنِيهِ وَقَرَأَ عَن تَتَصُّلِهِ وَسُؤَالِهِ"⁽¹⁾.

ويسبقُ هَذَا الْقَوْلَ مَشْهَدُ اعْتِقَالِ الْفَتَى بَعْدَ شَكْوَى الْمَرْأَةِ، حَيْثُ أَبْدَى الْاِعْتِدَارَ وَالْأَسْفَ،
لَكِنَّ الْأَمِيرَ أَمَرَ بَاعْتِقَالِهِ، وَلَمْ يَأْبَهُ بِتَوْسُّلَاتِهِ، وَبِرَاعَتِهِ مِنَ التُّهْمَةِ، وَهَذَا الْمَشْهَدُ اقْتِنَاسٌ مِنْ قَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا نُنُتِلَ عَلَيْهِ ءَايُنُنَا وَلَمْ يُسْتَكْبَرِكُمْ أَكَّانَ لَمْ يَسْمَعَهَا كَأَنَّ فِي أُذُنِيهِ وَقَرَأَ فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾
[لقمان: 7].

ويطرحُ مُحَمَّدُ الْوُرْغِيِّ عَدَدًا مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي يَحْمِلُهَا الرَّوْجُ، وَالَّتِي تَدْفَعُ الْفِتَاةَ إِلَى
الرَّغْبَةِ فِي الرَّوْاجِ، ثُمَّ يَسْتَشْهَدُ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِدَعْمِ فِكْرَتِهِ، يَقُولُ: "فَلَوْ لَمْ تَكُنْ لَهَا صَفْوًا، لَمَا
قَطَعْتَ لَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا"⁽²⁾. وَفِي هَذَا الْمَشْهَدِ الَّذِي يَرَسِمُ صُورَةَ الْجَرِيِّ خَلْفَ الرَّجْلِ لَمَّا تَتَوَقَّرُ فِيهِ
صِفَاتٌ تَتَمَنَّاها أَيُّهُ فِتَاةٌ، يَسْتَشْهَدُ الْوُرْغِيُّ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ
مُعْرَفُونَ ﴾ [الدخان: 24].

شَارَكَ أَحْمَدُ فَارِسُ الشُّدِّيَاقِ كُتَابَ الْمَقَامَةِ فِي تَشْكِيلِ لُوحَاتِ الْاِقْتِنَاسِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ،
وَيَبْدُو ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: "قَالَ فِي أَيِّ أَمْرٍ مَرِيحٍ كُنْتُمْ تَخُوضُونَ، وَعَنْ أَيِّ نُكْرٍ مَشِيحٍ أَنْتُمْ
تَجِيضُونَ"⁽³⁾. وَهُنَا يَلْتَقِي الْاِسْتِقْفَاهُ عَن طَرِيقِ الدَّالِ (أَيِّ)، مَعَ الْفِعْلَيْنِ الْمُضَارِعَيْنِ (تَخُوضُونَ)،
وَ(تَجِيضُونَ)، وَلِزُومِ مَا لَا يَلِزُ حَيْثُ سَبَقَ النُّونُ فِي الْفِعْلَيْنِ حَرْفَانِ هُمَا: (الضَّادُ، وَالْوَاوُ)، إِلَى
جَانِبِ الْاِقْتِنَاسِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ ﴾ [ق: 5]. وَكَأَنِّي
بِهِ أَرَادَ أَنْ يَحْدَرَ مِنْ هَذَا الْمَشْهَدِ، وَيَنْكَرَهُ.

تَتَرَيُّنُ مَعْظَمَ مَقَامَاتِ نَاصِيْفِ الْيَارِجِيِّ بِالْاِقْتِنَاسِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ
قَوْلُهُ فِي (الْمَقَامَةِ الْقُدْسِيَّةِ): "فَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ حَرَمَهُ أَمْنًا لِلْعِبَادِ، وَمَقَامًا لِلْعِبَادِ، وَهُوَ
الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى، وَقَدَّرَ فَهَدَى"⁽⁴⁾، مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ
فَهَدَى ۝ [الأعلى: 2، 3]، وَقَوْلُهُ فِي (الْمَقَامَةِ الْحَلِيَّةِ): "فَقَالَ الشَّيْخُ مَا الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ، لَعَلَّنَا
نَقْتَفِيهِ، فَأَعْرَضُوا عَنْهُ بِوَجْهِهِ بِاسْرَةٍ، وَقَالُوا إِنَّهَا لَصَفْقَةٌ خَاسِرَةٌ"⁽⁵⁾ حَيْثُ يَرَسِمُ الْأَدِيبُ مَشْهَدَ الْحَزَنِ

(1) الْيَارِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْأَنْبَارِيَّةِ)، (ص 288).

(2) الْوُرْغِيُّ، مَقَامَاتُ الْوُرْغِيِّ وَرَسَائِلُهُ (الْمَقَامَةُ الْبَاهِيَّةِ)، (ص 50).

(3) الشُّدِّيَاقُ، السَّاقُ عَلَى السَّاقِ (مَقَامَةٌ مَقْعَدَةٌ)، (ص 131). تَجِيضُونَ: تَحِيدُونَ عَنِ الْحَقِّ.

(4) الْيَارِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْقُدْسِيَّةِ)، (ص 321).

(5) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 320.

الَّذِي سَيَّرَ عَلَى الرَّجُلِ مَسْتَشْهَدًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة: 24]، وَقَوْلُهُ فِي (المَقَامَةِ الهَزْلِيَّةِ): "وَإِذَا بِالشَّيْخِ قَدِ اسْتَوَى، وَقَالَ مَا ضَلَّ صَاحِبَكُمْ وَمَا غَوَى، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى" (1). وَهَذَا مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى ﴿٣﴾﴾ [النجم: 2، 3]، وَمِنْهُ قَوْلُهُ أَيضًا: "قَالَ أَنَا المُبَارَكُ بْنُ رِيحَانَ، مِنْ بَطُونِ قَحْطَانَ، وَإِنِّي لِأَرَى الفَتَاةَ قَدْ شَغَفَتْكَ حُبًّا، وَخَلَبَتْ مِنْكَ لُبًّا" (2). وَيَرِيسُمُ البَيَازِجِيُّ مَشْهَدَ العَاشِقِينَ الَّذِي لَمْ يَعدْ أَمَامَهُمْ إِمْكَانَ الخِلاصِ مِنْ سَيِّطَرَتِهِ، وَالفَكَاكِ مِنْ قَيْدِهِ، وَانْتَقَى مَشْهَدًا يَلْتَمِ ذلكَ، وَهُوَ مَشْهَدُ يوسُفَ عَليهِ السَّلَامِ، وَامْرَأَةَ العَزِيزِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي المَدِينَةِ امْرَأَتُ العَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَفْسِهِ فَدَّ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: 30]. فَسَيِّطَرَةُ الحُبِّ، وَاسْتِعْمَالُ الفِعْلِ المَاضِيِ المَسْبُوقِ بِ (قَد) (قَدِ شَغَفْتَهُ) أَضْفَى عَلَى المَشْهَدِ جَمَالَ إِلَى جَمَالٍ، وَحَسَنًا إِلَى بَهَاءٍ.

أَمَّا قَوْلُهُ فِي (المَقَامَةِ المَكِّيَّةِ): "فَهِيهَاتَ أَنْ تَبْرَحَ مِنْ بَيْنِنَا قَبْلَ بَيْنِنَا، قَالَ إِنِّي لَمَّا تَرِيدُونَ أَقْرَبُ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ، وَأَجْرِي مِنْ خَيْلِ البَرِيدِ" (3). فَهُوَ مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْثُورًا ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَيْدِيَنَا إِلَيْهِ فَأَنْزَلْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [الإنسان: 1-5]. وَقَوْلُهُ فِي (المَقَامَةِ الحَلِيَّةِ): "قَالَ إِنَّ لِي أَسِيرًا أَسْعَى فِي فِدَائِهِ قَبْلَ أَنْ يَهْلِكَ فِي عَنَائِهِ بَدَائِهِ، فَلْيَنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ، وَكُلَّ يَعمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ" (4). مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ [الطلاق: 7]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: 84].

وَلَمْ يَبْرَحْ أَحْمَدُ فَارِسُ الشَّدِيَّاقِ هَذَا اللَّوْنُ مِنَ البَدِيعِ، وَمِنَ الاقْتِنَاسِ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ فِي (السَّاقِ عَلَى السَّاقِ) قَوْلُهُ: "ثُمَّ النَفْتِ إِلَى مَسْتَعْبَرًا، وَقَالَ: وَأَنْتَ فَمَا تَرَى، قَلْتِ: وَاللَّهِ إِنَّهَا لِإِحْدَى الكُبْرَى، وَمَعْضَلَةٌ تَفِيضُ لَهَا العَبِيرُ" (5). وَهَذَا الكَلَامُ مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهَا لِإِحْدَى الكُبْرَى﴾ [المدثر: 35].

والاقْتِنَاسُ مَلْمَحٌ بَارِزٌ تَزَيَّنَتْ بِهِ النُّصُوصُ المَقَامِيَّةُ. وَمِنْهُ قولُ عَبْدِ اللَّهِ فِكْرِي: "فَهَا هِيَ تَهْيَأُ لِأَمْرِ جَسِيمٍ، وَتَتَجَهَّزُ لِإيقَاعِ سِحْرِ عَظِيمٍ، تَعُدُّ لَهُ الجِبَالَ وَالعِصِيَّ، لِتَسْحَرَ الدَّانِيَّ

(1) البَيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ الهَزْلِيَّةِ)، (ص 104).

(2) المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 106.

(3) البَيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ المَكِّيَّةِ)، (ص 320).

(4) البَيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ الحَلِيَّةِ)، (ص 319).

(5) الشَّدِيَّاقُ، السَّاقُ عَلَى السَّاقِ، (ص 133).

والقصي⁽¹⁾. اقتباس من قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِجَابُهُمْ وَعَصِيهِمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنهَا تَسْعَى ﴾ [طه: 66].

وَلَمْ يَهْمَلْ أَدْبَاءُ (المُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ) الاقْتِبَاسَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، بَلْ وَظَفُوا آيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي تَشْكِيلِ لُوحَاتٍ بَارِعَةٍ مُعْتَمِدِينَ عَلَى قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ، يَقُولُ بِهِاءِ الدِّينِ الْبَيْطَارِ: "هَذَا مَا جِئْتُ بِهِ مِنْ بَضَاعَتِي الْمَرْجَاةِ، لِسَيِّدِي عَزِيزِ الْقَدْرِ وَالْجَاهِ"⁽²⁾. منقول من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الْفُضْرُ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَنَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ [يوسف: 88].

وَلَمْ يَبْتَعِدْ مُحَمَّدَ الْمُبَارَكِ عَنْ بِهِاءِ الدِّينِ الْبَيْطَارِ، بَلْ سَافَرَ يَتَلَمَّسُ جَمَالَ التَّشْكِيلِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، يَقُولُ: "فَالِي مَتَى وَنَحْنُ فِي جِدَالٍ وَجِلَادٍ؟ نَتَطَاعُنُ بِأَسْنَةِ الْأَسْنَةِ حَدَادٍ؟"⁽³⁾. يرسم مشهداً متداولاً كان، ولا زال حيث تعالي الأصوات، ويشتد الجدل، وتطول الألسنة الحداد التي تستحيل سيوفاً مشرعات تصيب في كل أن، وتطعن في كل مكان صُحْبَةَ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ (نتطاعن)، والجمع (أسنة)، وكلمة (حداد) مع ما فيها من جدّة، ومضاء، متيمناً بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَشْحَةً عَلَيْكُمْ إِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ إِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالْأَسْنَةِ حَدَادٍ ﴾ [الأحزاب: 19]. وكأني بالمبارك يريد أن يحذر من شر الألسنة، وخطر الجدل.

ويكمل محمد المبارك المسير في التعلّق بخير كتاب، مُستلهمًا منه المعاني في قوله: "وأضعت مندوب مطالبي، وواجب حقوقي! ألم يأن لك أن تخشع للذكر، فتعترف لي برتبة التقدّم في الذكر"⁽⁴⁾. فالمشهد هنا يرسم صورة من صور المفاخرة بين الليل والنهار، مُعْتَمِدًا عَلَى دَالِ الاسْتِفْهَامِ (الهمزة)، وَمَا يَحْمِلُهُ الْاسْتِفْهَامُ مِنْ إِنْكَارٍ، حَيْثُ يَدَافِعُ اللَّيْلُ عَنْ أَحْقِيَّتِهِ بِالسَّبْقِ، مُتَلَمِّسًا قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَيَسْقُوتُ ﴾ [الحديد: 16].

(1) فكري، الآثار الفكرية (المقامة الفكرية)، (ص 280).

(2) الطيّان، المفاخرات والمناظرات (المفاخرة بين الشمس والقمر)، (ص 77).

(3) الطيّان، المفاخرات والمناظرات (غريب الأنباء في المفاخرة بين الأرض والسما)، (ص 106).

(4) الطيّان، المفاخرات والمناظرات (نصرة البهار في محاورّة الليل والنهار)، (ص 130).

ويعودُ مُحَمَّدُ الْمُبَارَكُ فَيَرْسُمُ مَشْهَدَ الْمُؤَامَرَةِ الْوَاهِيَةِ فِي قَوْلِهِ: "سُحْقاً لَكَ أَيُّهَا النَّهَارُ، فَقَدْ أَسَسْتَ بِنْيَانَكَ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ"⁽¹⁾. حَيْثُ يُصَوِّرُ الْمُبَارَكُ الْجِدَالَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَكُلُّ مِنْهُمَا يَأْبَى التَّنَازَلَ، لَكِنَّ اللَّيْلَ يَرْسُمُ لَهُ مَشْهَدَ النَّهَائَةِ لضعفِ دَعَائِمِهِ مُقْتَبِساً حديثَهُ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ رَبِّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأْتَاهَا بِيهٍ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 109].

وَمِنْ الاقْتِبَاسِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قَوْلُهُ: "إِنِّي أَدْمَنْتُ التَّرْدُّدَ عَلَى فِرْقَةٍ مِنْ أَهْلِ الرِّقَةِ وَالْأَدَبِ، فَأَلْفَيْتِهِمْ لِاقْتِنَاصِ شَوَارِدِ الْمَعَانِي مِنْ كُلِّ حَدَبٍ"⁽²⁾. مَاخُذُودٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا فُجِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: 96].

وَلَمْ يَتَوَقَّفْ مُحَمَّدُ الْمُبَارَكُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَقَدْ اسْتَحْدَمَ الْمُتَنَاقِضَاتِ فِي نُصُوصِهِ الْمَقَامِيَّةِ مُعْتَمِداً عَلَى تَوْظِيهِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي قَوْلِهِ: "قَدْ مَدَّتْ عَلَى أَبْنَائِهَا وَارِفَ ظِلِّهَا، وَحَبْتَهُمْ وَافِرَ وَبِلِهَا وَظَلَّهَا"⁽³⁾؛ لِيَرْسِمَ مَشْهَدَ الشِّتَاءِ، وَمَشَاهِدَ الْخَيْرِ الَّتِي تَمَلَأُ الرُّبَى، وَالْوَهَادَ طَوَلاً، وَعَرْضاً رِغَمَ اخْتِلَافِ الظُّرُوفِ، فَالْجَنَّةُ جَنَّةٌ، إِنْ أَصَابَهَا الْوَابِلُ آتَتْ فَأَكْرَمَتْ، وَإِنْ لَامَسَهَا الطَّلُّ جَادَتْ فَأَغْنَتْ، وَقَدْ تَعَلَّقَ الْبَرَبِيُّرُ هُنَا بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 265].

وَشَارَكَ مُحَمَّدَ الدِّيْسِيَّ أَقْرَانُهُ مِنْ كُتَّابِ الْمَقَامَةِ عَوْدَتَهُمْ إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَالِاقْتِبَاسِ مِنْ نُصُوصِهِ الْحَكِيمَةِ، يَقُولُ: "يَا هَادِمَ الْبُيُوتِ، وَيَا أَوْهَى مِنْ نَسِجِ الْعَنْكَبُوتِ"⁽⁴⁾. وَهُنَا لَمْ يَجِدْ مُحَمَّدَ الدِّيْسِيَّ وَصفاً أَكْثَرَ حَقَارَةً مِنْ هَذَا الْوَصْفِ لِيُخْلَعَهُ عَلَى الْجَهْلِ وَالْجَاهِلِينَ، وَقَدْ انْتَقَى الْأَلْفَافَ بِدِقَّةٍ بِالْغَةِ لِإِضْفَاءِ مَزِيدٍ مِنَ التَّهْكُمِ وَالْإِزْدِرَاءِ، وَالْحَطِّ مِنْ قَدْرِ هَوْلَاءِ مِنْ نَاحِيَةِ، وَالتَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ: (هَادِمَ الْبُيُوتِ) مَعَ مَا حَمَلَهُ الْهَدْمُ، وَجَمَعَ (الْبُيُوتِ) مِنَ الْخَطَرِ الشَّدِيدِ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى، وَتَابَعَ بِاسْتِعْمَالِ الدَّالِ (أَوْهَى) التَّفْضِيلِ الَّتِي تَحْمَلُ بَيْنَ حُرُوفِهَا شِدَّةَ الضَّعْفِ مِنْ نَاحِيَةِ ثَالِثَةٍ، وَزَادَ الْمَشْهَدَ ضَعْفاً دَالِ (الْعَنْكَبُوتِ) الْأَنْثَى الَّتِي تَرْمِزُ لِلْوَهْنِ الشَّدِيدِ، وَالتَّدَاعِي، وَالتَّأْكُلِ مِنْ نَاحِيَةِ

(1) الطِّيَّان، الْمُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (نُضْرَةُ الْبِهَارِ فِي مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)، (ص 130).

(2) الطِّيَّان، الْمُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِي الْمُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْعُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص 151).

(3) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 171.

(4) الطِّيَّان، الْمُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (مِنَاطَرَةُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ)، (ص 192).

رابعة، وهذا مُفْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ أَخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١]. فبيوت الجهل واهية، وقصور جاهلين أوهن، وأوهى من بيت العنكبوت.

ثانياً: الاقتباس من الحديث الشريف

لَم يَبْتَعُدْ أَدْبَاءُ الْمَقَامَةِ عَنِ السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ، فَقَدْ أَخَذُوا يَسْتَقُونَ مِنْهَا كُلَّمَا دَعَتِ الْحَاجَةُ إِلَى ذَلِكَ، وَيُضْمَنُونَ مَقَامَاتِهِمْ مِنْ عِبَقِهَا الطَّاهِرِ، وَيَزِينُونَ نُصُوصَهُمْ بِأَقْوَالِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، بِيَدِ أَنْ الْاِقْتِبَاسَ مِنَ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ لَمْ يَكُنْ بِتِلْكَ الدَّرَجَةِ الَّتِي سَبَقَتْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَرَبَّمَا يَعُودُ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ الْاِقْتِبَاسَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَانَ أَكْثَرَ يَسْرًا مِنْ نَاحِيَةٍ، وَكَثْرَةُ الْوَضَّاعِينَ لِلْحَدِيثِ الشَّرِيفِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى.

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يُمَكِّنُ الْقَوْلُ إِنَّ بَعْضَ النَّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ تَوَشَّحَتْ بِالْاِقْتِبَاسِ مِنَ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ كُلَّمَا دَعَتِ الْحَاجَةُ إِلَى ذَلِكَ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ، قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَازِجِيِّ: "فَخَرَجْتُ بِالْغَلَامِ أَسْعَى، حَتَّى أَفْضَيْتُ إِلَى تِلْكَ الْبُقْعَةِ الْوُسْعَى، وَهُوَ غَلَامٌ فَارِهِ، أَرَى مِنْهُ جَنَّةً لَمْ تَحْفَ بِالْمَكَارِهِ"⁽¹⁾. حَيْثُ بَدَأَ الْيَازِجِيُّ يَصِفُ الْغَلَامَ، وَمَا يَحْمِلُهُ مِنْ وَسَامَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ، فُطُوفُهَا دَانِيَةً، وَهَذَا اِقْتِبَاسٌ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "حُقَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُقَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ"⁽²⁾.

وَيَرِسُّمُ بَهَاءِ الدِّينِ الْبَيْطَارِ مَشْهَدَيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ فِي قَوْلِهِ: "وَمِنْ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ بِقَوْلِهِ أَوْ فِعْلِهِ، فَهَلَاكُهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ"⁽³⁾. حَيْثُ يَصَوِّرُ الْبَيْطَارُ مَشْهَدَ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا، وَمَشْهَدَ النَّارِ وَجَحِيمِهَا فِي مَشْهَدَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ يُضْفِيَانِ عَلَى اللَّوْحَةِ الْمَزِيدَ مِنَ الْوَضُوحِ وَالْجَلَاءِ، مُقْتَبِسًا ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ"⁽⁴⁾.

وَبِحِثُّ شِهَابِ الدِّينِ الْحَفَاجِيِّ الْجَمُوعَ عَلَى الْمَحَافِظَةِ عَلَى الْخِلَافَةِ، وَحِمَايَتِهَا بِشَتَّى الْوَسَائِلِ حَتَّى تَقَفَ عَلَى قَدَمَيْهَا، وَمِنْ هُنَا يَعْتَمِدُ عَلَى الْاِقْتِبَاسِ مِنَ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ فِي (الْمَقَامَةِ

(1) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْعَدْنِيَّةُ)، (ص 273).

(2) [مُسلِم، صَحِيحُ مُسلِم، كِتَابُ الْجَنَّةِ وَصِفَةُ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا، بَابُ (51)، ج 4/2174: رَقْمُ الْحَدِيثِ (282)].

(3) الطِّيَّانُ، الْمَفَاخِرَاتُ وَالْمُنَاطَرَاتُ (غَرِيبُ الْأَنْبَاءِ فِي مُنَاطَرَةِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ)، (ص 89).

(4) [الْبُخَارِيُّ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ، دَارُ طُوقِ النَّجَاةِ، بَابُ (29)، ج 8/102: رَقْمُ الْحَدِيثِ (6488)].

السَّاسَانِيَّةِ)، يَقُولُ: "فَقَالَتِ الْخَلِيفَةُ تَحْتَ أَفْيَاءِ لَوَائِهَا، حَتَّى حَمَوْهُم مِّنْ نَّوَابِ الْحَتُوفِ، وَزَهَتْ جَنَّةُ مَثْوَاهُمْ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ"⁽¹⁾. وَالْكَلَامُ اقْتِبَاسٌ مِّنْ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "يَأْيُهَا النَّاسُ! لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ. فَإِذَا لَقَيْتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا. وَعَلِمُوا أَنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ"⁽²⁾. وَقَدْ بَرَعَ الْأَدِيبُ هُنَا فِي انْتِقَاءِ الْأَلْفَافِ الَّتِي تُضْفِي عَلَى الْمَشْهَدِ الْحَقَائِقَ، مُعْتَمِدًا عَلَى الْبَنَى التَّشْبِيهِيَّةِ الْبَلِيغَةِ الْمُسْتَمَدَّةِ مِنْ عَنَاصِرِ الْبَيْئَةِ، حَيْثُ صَوَّرَ الْخَلِيفَةَ بِشَجَرَةٍ وَارِفَةِ الظَّلَالِ، عَظِيمَةِ الْأَفْيَاءِ، وَصَوَّرَ السُّيُوفَ كَذَلِكَ بِالظَّلَالِ، وَكَأَنِّي بِهِ يَحْدُرُ مِنَ الْخُنُوعِ وَالضَّعْفِ، وَيَحْتُّ عَلَى الْقِتَالِ، وَالْقُوَّةِ لِحِمَايَةِ الْخَلِيفَةِ.

وَلَمْ يَبْرَحِ الْأَدْبَاءُ أَرْكَانَ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ، بَلْ تَنَاوَلُوهَا فِي نُصُوصِهِمِ الْمَقَامِيَّةِ بِصُورَةٍ مَتَفَرِّدَةٍ لَمَّا تَحَدَّثُوا عَنِ الْمَاءِ وَفَضْلِهِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ هَذَا الْاِقْتِبَاسِ، قَوْلُ أَحْمَدَ الْبَرْبَرِيِّ: "أَمَا عَرَفْتَ أَنَّنِي أَرْفَعُ الْأَحْدَاثَ، وَأُطَهِّرُ الْأَخْبَاتَ، وَأَجْلُو النَّظَرَ، وَأَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ نُورًا فِي مَحَلِي التَّحْجِيلِ وَالغَرْرِ"⁽³⁾. حَيْثُ رَسَمَ الْبَرْبَرِيُّ لُوحَاتٍ مُتَابِعَةً لِأَفْضَالِ كَثِيرَةٍ يَتَنَعَّمُ بِهَا الْمَاءُ عَلَى الْبَشَرِ، مُعْتَمِدًا عَلَى دَالِ (الْمُضَارِعِ) أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، فِي قَوْلِهِ: (أَرْفَعُ، أُطَهِّرُ، أَجْلُو، أَكُونُ)، مُتَعَلِّقًا بِقَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "إِنَّ أُمَّتِي يَدْعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مَحْجَلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ"⁽⁴⁾.

ثَالِثًا: الْاِقْتِبَاسُ مِنَ الْأَدَبِ

الْحَدِيثُ حَوْلَ الْأَدَبِ، شِعْرُهُ وَنَثْرُهُ يَطُولُ، وَالْعِبَارَاتُ الَّتِي تَصِفُ الشَّعْرَ أَكْثَرُ طَوْلًا؛ فَهِيَ دِيْوَانُ الْعَرَبِ، وَصَفْحَاتُهُ الَّتِي خَطُّوا فِيهَا عَادَاتِهِمْ، وَتَقَالِيدَهُمْ، وَسَجَلُوا عَقَائِدَهُمْ وَأَيَامَهُمْ، فَأَضْحَى الشَّعْرُ بِمَثَابَةِ الْمِرَاةِ الَّتِي يَرَى فِيهَا الْعَرَبِيُّ صُورَتَهُ، وَغَدَا أُغْنِيَتُهُ الْجَمِيلَةَ الَّتِي يَتَرْتَمُ بِكَلِمَاتِهَا، وَمُوسِيقَاهُ الْعُدْبَةَ الَّتِي يَسْتَمْتَعُ بِنَغْمَاتِهَا، وَمَعْنَاهُ الرَّائِعُ، وَمَلَادَهُ لَمَّا يَشْعُرُ بِالْحَنِينِ، وَوَطْنَهُ عِنْدَمَا تُهَاجِمُهُ الْعُرْبَةُ، وَعَمْرُهُ الْمَدِيدَ الَّذِي لَمْ يَنْتَهِ بَعْدُ، وَرَأْيُهُ السَّدِيدَ لَمَّا تَضَمَّحَلُ الْآرَاءُ، وَظَلُّهُ الْوَارِفَ لَمَّا تَشْتَدُّ الْحَرَارَةُ، وَلَمْ تَنْعَمْ عَلَيْهِ بِالْبَرْدِ السَّمَاءِ، وَرَوْضَتُهُ الْجَمِيلَةَ الَّتِي تَمْنَحُهُ السَّعَادَةَ وَالْهِنَاءَ، وَشَمْسَهُ الْمَشْرِقَةَ الَّتِي تَجُودُ عَلَيْهِ بِالضِّيَاءِ، وَصَفْحَتَهُ النَّاصِعَةَ الَّتِي تَهْبِيهِ الْآيَاتِ، وَالْآلَاءِ.

(1) الْخَفَاجِيُّ، رِيحَانَةُ الْأَلْبَا وَزَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، (الْمَقَامَةُ السَّاسَانِيَّةُ)، (ص 393).

(2) [مُسلِم، صَحِيح مُسلِم، كِتَابُ الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ (6) عَدَمِ تَمَنِّيِ لِقَاءِ الْعَدُوِّ، وَالْأَمْرِ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْلِقَاءِ، ج 3/1362، 1363: رَقْمُ الْحَدِيثِ 1742].

(3) الطِّيَّانُ، الْمَفَاخِرَاتُ وَالْمُنَاطَرَاتُ (مَقَامَةٌ فِي الْمَفَاخِرَةِ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ)، (ص 36).

(4) [مُسلِم، صَحِيح مُسلِم، كِتَابُ (الطَّهَارَةِ)، بَابُ (12)، ج 1/216: رَقْمُ الْحَدِيثِ 246].

وَعَوْدَةٌ إِلَى النُّصُوصِ المَقَامِيَّةِ الَّتِي لَا تَكَادُ تَخْلُو مِنْ شَوَاهِدِ الاقْتِبَاسِ مِنَ الشُّعْرِ كونه مورداً عَدْباً لِهَذَا اللُّونِ، فَهِيَ تَحْفَلُ بِمِثْلِ هَذِهِ الاقْتِبَاسَاتِ، حَيْثُ تَنْسَمُ الأُدْبَاءُ عَبَقَ التَّارِيخِ، وَاقْتَفَوْا تَرَاثَ السَّابِقِينَ يَنْهَلُونَ مِنْهُ مَتَى شَاءُوا، فَارْتَحَلُوا عَائِدِينَ إِلَى رَوَائِعِ الشُّعْرِ الجَاهِلِيِّ، وَالإِسْلَامِيِّ، وَالأُمَوِيِّ، وَلَمْ يَبْرَحُوا كَذَلِكَ بِدَائِعِ الشُّعْرِ العَبَّاسِيِّ، وَالأَنْدَلُسِيِّ، وَمِنْ شَوَاهِدِ التَّعَلُّقِ بِأَسْتَارِ العَبَّاسِيِّينَ، وَشِعْرِهِمْ قَوْلُ نَاصِيفِ اليَازِجِيِّ فِي (المَقَامَةِ الهَزَلِيَّةِ): "وَرُبَّ طُرْفَةٍ خَيْرٌ مِنْ ثُحْفَةٍ، فَإِنْ كُنْتَ قَدْ ظَمَنْتَ إِلَى الصَّحْلِ، وَنَسِيتَ أَنْ لَابَدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ"⁽¹⁾، مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّيِّ:

ثُرَيْدِينَ لُقْيَانَ المَعَالِي رَخِيصَةً وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ⁽²⁾

وَيَصُورُ نَاصِيفُ اليَازِجِيِّ مَعَانَاتِهِ آلامَ المَلِّ وَالسَّامِ، فَقَدْ أَضْحَى لِيْلُهُ طَوِيلًا لَا يَكَادُ يَنْتَهِي، يَشْبَهُ مَوْجَ البَحْرِ فِي تَتَابُعِهِ، فَلَقَّ لَا يَنْدَوِّقُ طَعْمَ النُّومِ حَالَهُ حَالَ المَلْسُوعِ، يَقُولُ اليَازِجِيُّ فِي (المَقَامَةِ الهَزَلِيَّةِ): "قَبْتُ عِنْدَهُ بَلِيلَةَ المَلْسُوعِ، وَعَيْنِي لَا يَأْخُذُهَا الهَجُوعُ"⁽³⁾. وَهَذَا الكَلَامُ مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِ كَثِيرٍ عَزَّةً:

أَتَيْتُ رِيَانَ الجُفُونِ مِنَ الكَرَى وَأَبَيْتُ مِنْكَ بِإِيلَةِ المَلْسُوعِ⁽⁴⁾

وَمِنْ اسْتِلهَامِ تَرَاثِ المُتَنَبِّيِّ قَوْلُ مُحَمَّدِ المَبَارِكِ: "وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى حُسْنِ مَا اسْتَمَلْتُمْ عَلَيْهِ، وَقَدْ قِيلَ شَبِيهَ الشَّيْءِ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ"⁽⁵⁾. يَقُولُ:

وَشِبَهُ الشَّيْءِ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ وَأَشْبَهْنَا بِدُنْيَانَا الطَّغَامِ⁽⁶⁾

وَيَفْخَرُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ المَبَارِكُ عَلَى لِسَانِهِ بِسُمُومِ السَّمَاءِ، وَعِظَمِ قَدْرِهَا لَمَّا فَاحَرَتِ الأَرْضُ، وَمِنْ شَوَاهِدِ الاستِشْهَادِ بِالشُّعْرِ قَوْلُهُ: "فَمَنْ أَعْظَمَ مَا فُقْتُ بِهِ حُسْنًا وَجَمَالًا، وَكِدْتُ بِأَخْمَصِي أَطَا الثُّرَيَّا فَضْلًا وَكَمَالًا"⁽⁷⁾. وَهُوَ مَاخُودٌ مِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

(1) اليَازِجِيُّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَةِ الهَزَلِيَّةِ)، (ص 108).

(2) المُتَنَبِّيُّ، دِيْوَانَ المُتَنَبِّيِّ، (ص 518).

(3) اليَازِجِيُّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ، (ص 106، ص 107).

(4) كَثِيرٌ عَزَّةً، دِيْوَانَ كَثِيرٍ عَزَّةً، (ص 328).

(5) الطَّيَّانُ، المَفَاخِرَاتُ وَالمُنَاطَرَاتُ (غَرِيبُ الأَنْبَاءِ فِي مُنَاطَرَةِ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ)، (ص 92).

(6) المُتَنَبِّيُّ، دِيْوَانَ المُتَنَبِّيِّ، (ص 102). الطَّغَامُ: الأَرَاذِلُ أَوْ الأَوْغَادُ.

(7) الطَّيَّانُ، المَفَاخِرَاتُ وَالمُنَاطَرَاتُ (غَرِيبُ الأَنْبَاءِ فِي مُنَاطَرَةِ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ)، (ص 95).

وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفًا وَتَيْهًا وَكِدْتُ بِأُخْمِصِي أَطَا الثَّرِيًّا⁽¹⁾

وَهُنَا يَرْتَعُ وَيَسْمُو، وَيَفُوقُ وَيَعْلُو، وَيَتَفَرَّدُ بِالْحَسَنِ وَالْجَمَالِ، وَيَغَادِرُ الثَّرَى، وَيَطَأُ الثَّرِيًّا مُتَفَوِّقًا عَلَى الْأَرْضِ، كَيْفَ لَا؟ وَهُوَ كَائِنٌ فِي السَّمَاءِ، وَمُسْتَقَرٌّ فِي الْعَلْيَاءِ.

وَيَدْمِجُ شِهَابُ الدِّينِ الْخَفَاجِيَّ بَيْنَ مَشْهَدَيْنِ مُتَفَارِقَيْنِ، مَشْهَدِ الْجَمَالِ، وَمَا فِيهِ مِنْ رَاحَةٍ نَفْسِيَّةٍ، وَمَشْهَدِ الدُّمُوعِ، مَا يَكْتَفُهُ مِنْ حَزْنٍ فِي أَسْلُوبِ بِلَاغِيٍّ مُتَفَرِّدٍ تَنْتَفِي خِلَالَهُ الْمَفَارِقَةُ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي (مَقَامَةِ الْغُرْبَةِ): "وَلَمْ تَنْثُرْ دُرَّرَ الْمَدَامِعِ إِلَّا مِنْ دُرٍّ مُودَعٍ فِي صَدْفِ الْمَسَامِعِ"⁽²⁾. وَهَذَا الْقَوْلُ أَسْلُهُ قَوْلُ الرَّمَخَشَرِيِّ:

وَقَابِلَةٌ: مَا هَذِهِ الدُّرُّ الَّتِي تُسَاقِطُهَا عَيْنَاكَ سِمَطَيْنِ سِمَطَيْنِ؟⁽³⁾

فَقَدْ جَمَعَ شِهَابُ الدِّينِ الْخَفَاجِيَّ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ، فَقَدْ تَمَثَّلَ الْمَشْهُدُ فِي اسْتِعَارَتَيْنِ مَكْنِيَتَيْنِ، حَيْثُ جَعَلَ مَا جَرَى مِنْ دَمُوعِ دُرًّا فِي نَسْقٍ رَائِقٍ، وَجَعَلَ مَا سَمِعَهُ مِنْ أَبِي مُضَرِّ دُرَّرًا ذَاتَ نَظْمٍ فَائِقٍ. كَمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمَشْهُدُ تَشْبِيهًا بَلِيغًا لَمَّا صَوَّرَ الْمَدَامِعَ بِالذُّرْرِ، وَالْمَسَامِعَ بِالصَّدْفِ مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الْمُشَبَّهِ بِهِ إِلَى الْمُشَبَّهِ. وَمِنْ الْبَرَاعَةِ هُنَا "أَنَّهُ بَنَى عَلَيْهِ مَا صَيَّرَهُ بَدِيعًا مُسْتَعْرَبًا، حَيْثُ صَيَّرَ الذُّرَّ الَّذِي كَانَ مُودَعًا فِي الْأَذَانِ لِرُقَّتِهِ دَمْعًا جَرَى مِنَ الْعُيُونِ وَالْأَجْفَانِ، وَتَصَرَّفَ فِيهِ تَصَرُّفًا آخَرَ أَخْرَجَهُ مِنْ بَابِ آخَرَ، فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مِنْ قَلْبِ الْأَعْيَانِ الْجَوْهَرِيَّةِ، كَقَلْبِ عَصَا مُوسَى حَيَّةً، فَلِنَسْمِهِ سِحْرَ الشُّعْرَاءِ، وَقَلْبِ أَعْيَانِ الْمَعَانِي"⁽⁴⁾.

وَيُبْدِعُ الْأُدْبَاءُ فِي عَوَالِمِ الْاِقْتِيَّاسِ، بِالْعُودَةِ إِلَى رَوَائِعِ الشُّعْرِ الْعَبَّاسِيِّ الَّتِي كَانَتْ وَلَا تَزَالُ مِنْهَلًا عَذْبًا يَرِدُهُ الْمُتَعَطِّشِينَ لِلْجَمَالِ، فَقَدْ قَصَدَهُ الْأُدْبَاءُ لِرِسْمِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ النَّدْلِ وَالْخُضُوعِ لِمَنْ يَسْتَحِقُّ، فَلَا مَكَانَ لِلْمُنَافِقِينَ، وَلَا مَتَسَعٍ لِلْمَرْجِفِينَ، مِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ شِهَابِ الدِّينِ الْخَفَاجِيَّ فِي مَقَامَةِ (الغربة):

لَوْ أَنْصَفُوهُ لَقَامُوا فِي مَجَالِسِهِ عَلَى الرُّؤُوسِ قِيَامَ الظِّلِّ فِي الْمَاءِ⁽⁵⁾

وَهَذَا الْقَوْلُ أَسْلُهُ قَوْلُ الْبَحْتَرِيِّ:

(1) هَذَا الشُّعْرُ يُنْسَبُ إِلَى الْإِمَامِ الْقَاضِي (عِيَاضُ بْنُ مُوسَى الْيَحْصِي الْأَنْدَلُسِيِّ) (ت544هـ).

(2) الْخَفَاجِيَّ، رِيحَانَةُ الْأَلْبَا وَزَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (مَقَامَةُ الْغُرْبَةِ)، (ص386).

(3) الرَّمَخَشَرِيُّ، دِيْوَانُ جَارِ اللَّهِ الزَّمَخَشَرِيِّ، (ص588). (السَّمَطُ: الْخَيْطُ مَا دَامَ فِيهِ الْخَرْزُ).

(4) الْخَفَاجِيَّ، رِيحَانَةُ الْأَلْبَا وَزَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (مَقَامَةُ الْغُرْبَةِ)، (ص389).

(5) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص374.

لَوْ أَنْصَفُوكَ وَهُمْ قِيَامٌ أَشْبَهَتْ أَشْخَاصَهُمْ أَشْبَاهُهَا فِي الْمَاءِ⁽¹⁾

فهو يستحق أن يقف له الجَمِيعُ تَجِيلاً، واحتراماً من بابِ الإِنْصَافِ والْعَدْلِ مَعَ تَضْمِينِ الْكَلَامِ بروائعِ التَّشْبِيهِ التَّمثِيلِيِّ.

وَمِنْ مَشَاهِدِ اسْتِلْهَامِ التَّرَاثِ الْعَبَاسِيِّ قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَازْجِيِّ: "وحواليه حلقة من ذوي البُوسَى، كأنهم من بقايا قوم مُوسَى"⁽²⁾. وَهَذَا مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِ أَبِي نَوَاسٍ:

كَأَنَّكَ مِنْ بَقَايَا قَوْمِ مُوسَى فَهُمْ لَا يَصْبِرُونَ عَلَى طَعَامِ⁽³⁾

كَمَا عَادَ الْأَدْبَاءُ إِلَى فِرْسَانَ الْكَلِمَةِ فِي الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ، فَلَمْ يَهْمَلْ هَوْلَاءُ رَوَائِعَ مِثْلِ الرُّعْبِ الْأُمَوِيِّ، جَرِيرِ، وَالْفَرَزْدَقِ، وَالْأَخْطَلِ، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ مَا حَمَلَتْهُ (الْمَقَامَةُ الْحَلِيبِيَّةُ): "وَمِنْ تَرَدَّى بِسَاطِعِ الْأَنْوَارِ، وَاحْتَبَى بِحَبَاءِ الْوَقَارِ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبِيهِ نَهَارٌ"⁽⁴⁾. وَالْقَوْلُ اقْتِبَاسٌ مِنْ بَيْتِ الْفَرَزْدَقِ:

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي السَّوَادِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبِيهِ نَهَارٌ⁽⁵⁾

فَقَدْ كَانَتْ عَنَاصِرُ الطَّبِيعَةِ، وَلَا تَزَالُ مَهْلًا عَذْبًا يَرُدُّهُ الْأَدْبَاءُ كُلَّمَا دَعَتِ الْحَاجَةَ إِلَى ذَلِكَ، فَكَيْفَ إِذَا أَحَاطَتْ هَذِهِ الْعَنَاصِرُ بِالْإِنْسَانِ إِحَاطَةً الثُّوبِ بِالْجَسَدِ، أَوِ الْإِسْرَةِ بِالْمَعْصَمِ، فَأُضْحَتْ الْأَنْوَارُ ثَوْبًا جَمِيلًا، وَارْتَدَّ الْوَقَارُ كِسَاءً بَارِعًا أَضَاءَ ظِلْمَةَ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ.

وَلَمْ يَهْمَلِ الْأَدْبَاءُ رَوَائِعَ الْعَصْرِ الْأَنْدَلُسِيِّ، فَقَدْ تَلَمَّسُوا رَوَائِعَهُ كُلَّمَا دَعَتِ الْحَاجَةَ إِلَى ذَلِكَ، فَقَدْ اسْتَلْهَمَ هَوْلَاءُ تَرَاثِهِمْ، وَضَمَّنُوهُ فِي نُصُوصِهِمِ الْمَقَامِيَّةِ، كَيْفَ لَا؟ وَحَنِئُهُمُ الْجَارِفُ دَفَعَهُمْ إِلَى تِلْكَ الْحَقْبَةِ الْمُضِيئَةِ مِنْ حَقَبِ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ، وَمِنْ شَوَاهِدِ الْاِقْتِبَاسِ مِنَ النَّصُوصِ الْأَنْدَلُسِيِّ قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَازْجِيِّ: "فَأَذْهَلَنِي ذَلِكَ الطَّوِيلُ الْعَرِيضُ، عَنِ الدَّوَاءِ وَالْمَرِيضِ"⁽⁶⁾. وَهَذَا قَصْدُ الْيَازْجِيِّ الْحَدِيثَ عَنِ الْعِظْمَةِ وَالشُّمُوحِ مِنْ خِلَالِ بِنْيَةِ كِنَائِيَّةٍ، مُعْتَمِدًا عَلَى قَوْلِ ابْنِ سِنَاءِ الْمَلِكِ:

(1) الْبَحْرِيُّ، دِيْوَانَ الْبَحْرِيِّ، (ص 53).

(2) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ التَّغْلِيْبِيَّةُ)، (ص 85).

(3) أَبُو نَوَاسٍ، دِيْوَانَ أَبِي نَوَاسٍ، (ص 652).

(4) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْحَلِيبِيَّةُ)، (ص 58).

(5) الْفَرَزْدَقُ، دِيْوَانَ الْفَرَزْدَقِ، (ص 323).

(6) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْحَلِيبِيَّةُ)، (ص 58).

تَقَلَّبُ الشَّعْرَ عَلَى رَدْفِهِ أَوْقَعَ قَلْبِي فِي الْعَرِيضِ الطَّوِيلِ⁽¹⁾

وَمَلَّمَحُ الْجَمَالِ هُنَا يَتَمَثَّلُ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ فَنُونِ الْبَيَانِ وَالْوَاوِ الْبَدِيعِ، حَيْثُ كَتَبَ عَنِ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ بِقَوْلِهِ: (الطَّوِيلُ الْعَرِيضُ)، ثُمَّ أَضْفَى جَمَالًا آخَرَ لَمَّا عَادَ إِلَى عُصُورِ الْجَمَالِ، مُقْتَبِسًا كَلَامَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ سَنَاءِ الْمَلِكِ.

وَيَظَلُّ الْحَرِيرِيُّ فِي عَقُولِ الْأَدْبَاءِ عَلَى مَدَى الْعُصُورِ نَقْطَةً فَارِقَةً، وَمِنْهَذَا يَسْتَفُونَ مِنْهُ كَلَّمَا دَعَتِ الْحَاجَّةُ إِلَى ذَلِكَ، كَيْفَ لَا؟ وَهُوَ إِمَامُ أَدْبَاءِ الْمَقَامَةِ، فَقَدْ نَهَلَ مِنْ مَوْرِدِهِ نَاصِيفَ الْيَارُجِيِّ فِي قَوْلِهِ: "فَحَسَرْتُ عَنْ سَاقِي وَيَدِي، وَقَلْتُ سُرُوجَ يَا نَاقَ فَسِيرِي وَخَدِي"⁽²⁾. وَالْكَلامُ اقْتِبَاسٌ مِنْ أَبْيَاتٍ لِلْحَرِيرِيِّ فِي مَقَامَاتِهِ، فِي قَوْلِهِ:

سَرُوجَ يَا نَاقَ فَسِيرِي وَخَدِي وَأَدْلَجِي وَأَوْبِي وَأَسْنِدِي⁽³⁾

تَتَوَعَّتُ مَشَارِبُ الْأَدْبَاءِ فِي الْاِقْتِبَاسِ، فَقَدْ نَهَلُوا مِنَ الْأَدَبِ الْجَاهِلِيِّ، وَالْأُمَوِيِّ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَارُجِيِّ: "فَحَدَّقَ الْقَوْمُ إِلَيْهِ بِالنَّظَرِ، وَقَالُوا: قَدْ عَرَفْنَا، وَهَلْ يَخْفَى الْقَمْرُ؟"⁽⁴⁾. وَهَذَا الْقَوْلُ مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِ عَمْرِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ:

بَيْنَمَا يَذْكُرُنِي أَبْصَرْتَنِي دُونَ قَيْدِ الْمِيلِ يَغْدُو بِي الْأَغْرَ

قَالَتِ الْكُبْرَى: أَتَعْرِفَنِ الْفَتَى؟ قَالَتِ الْوَسْطَى: نَعَمْ، هَذَا عُمَرُ

قَالَتِ الصُّغْرَى، وَقَدْ تَيَّمَتَهَا قَدْ عَرَفْنَا، وَهَلْ يَخْفَى الْقَمْرُ؟⁽⁵⁾

تَفُوقَ الْيَارُجِيِّ لَمَّا أَحْسَنَ الْاِخْتِيَارَ، وَاعْتَلَى الْقِمَمَ عِنْدَمَا أَجَادَ الْاِئْتِقَاءَ، فَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ الْمَثَلِ وَالْاِقْتِبَاسِ، إِلَى جَانِبِ الْاِعْتِمَادِ عَلَى اسْلُوبِ الْحَوَارِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى رَسْمِ مَشْهَدِ الشُّهُرَةِ مُعْتَمِدًا عَلَى دَالِ الْاِسْتِنْفَاهِ (هَلْ) الَّذِي خَرَجَ عَنْ مَعْنَاهِ الْأَصْلِيِّ إِلَى مَعْنَى النَّفْيِ فِي قَوْلِهِ: (وَهَلْ يَخْفَى الْقَمْرُ؟)، فَالْمَدْحُ عَالِي الْقَدْرِ، لِيَا خَتَمَ الْيَارُجِيِّ حَدِيثَهُ قَائِلًا: "وَحَيَّاهُ تَحِيَّةَ الرَّئِيسِ الْأَجَلِّ"⁽⁶⁾.

(1) ابن سناء الملك، ديوان ابن سناء الملك: (ص 437).

(2) اليازجي، مجمع البحرين (المقامة السروجية)، (ص 172).

(3) الحريري، مقامات الحريري، (ص 74).

(4) اليازجي، مجمع البحرين (المقامة الأدبية)، (ص 252).

(5) ابن أبي ربيعة، شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي، (ص 143). وابن أبي ربيعة، ديوان عمر بن أبي ربيعة، (ص 90).

(6) اليازجي، مجمع البحرين (المقامة الأدبية)، (ص 253).

لَمْ يُهْمِلِ الْأَدْبَاءُ فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ مَشَاهِدَ الْبَيْئَةِ الَّتِي عَرَفَهَا الْعَرَبُ، فَقَدْ طَرَقُوا أَبْوَابَهَا، وَتَغَنَوْا فِي أَشْعَارِهِمْ بِهَا، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَازِجِيِّ: "فَإِنَّكُمْ أَهْدَى فِي الْخَطَى مِنَ الْقَطَا"⁽¹⁾. وَالْقَوْلُ مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ، الطَّرْمَاحِ بْنِ حَكِيمٍ:

تَمِيمٌ بِطُرُقِ اللُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ الْقَطَا وَلَوْ سَلَكَتِ طُرُقَ الْمَكَارِمِ ضَلَّتْ⁽²⁾

وَمِنِ الْاِقْتِبَاسِ مِنَ الشُّعْرِ أَيْضاً قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَازِجِيِّ فِي (المَقَامَةِ الْأَنْبَارِيَّةِ): "عَرَفْتُ حِينَئِذٍ أَنَّهَا لَيْلَى الْخُرَامِيَّةُ، وَاسْتَنْبَأْتُهَا عَنْ تِلْكَ الْمَقَالَةِ الْحَذَامِيَّةِ"⁽³⁾. وَهُوَ اِقْتِبَاسٌ مِنْ قَوْلِ ابْنِ قَلَاقِسَ:

إِذَا قَالَتْ حَذَامٌ فَصَدَّقُوهَا فَإِنَّ الْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامٌ⁽⁴⁾

وَلَمْ يُهْمِلِ الْأَدْبَاءُ فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ الْمَشَاهِدَ الْحَيَّةَ، وَالْأَحْدَاثَ الْمَتَدَاوِلَةَ الَّتِي تَتَاقَلَّتْهَا الْعَرَبُ فِي الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ، وَمِنْ اسْتِنْهَامِ التُّرَاثِ الشُّعْرِيِّ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَوْلُ مُحَمَّدِ الْمُبَارَكِ: "فَاسْوَدَّ وَجْهُ اللَّيْلِ، وَانْقَلَبَ بِحَشْفٍ وَسَوْءِ كَيْلٍ، وَنَدِمَ عَلَى مَنَاضِلَةِ النَّهَارِ، نَدَامَةَ الْفَرَزْدَقِ حِينَ فَارَقَ النَّوَارَ"⁽⁵⁾. مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِ الْفَرَزْدَقِ:

(1) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ الْعَدْنِيَّةُ)، (ص 272). الْقَطَا: طَائِرٌ يُوصَفُ بِالْهَدَايَةِ. يُضْرَبُ بِهَا الْمَثَلُ بِصَدَقِهَا، فَقَدْ قَالَتْ الْعَرَبُ فِي أَمْثَالِهَا (أَصْدَقُ مِنَ الْقَطَا)، وَبِنَاءِ عَلَيْهِ عَلَّلَ أَهْلُ الْعِلْمِ تَشْبِيهَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْمَسْجِدَ بِمَفْحَصِهَا. إِشَارَةٌ إِلَى الْإِخْلَاصِ فِي بِنَاءِ الْمَسْجِدِ، فَالرَّسُولُ الْكَرِيمُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - = قَالَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ فِي سُنَنِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعاً: "مَنْ بَنَى مَسْجِداً لِلَّهِ وَلَوْ كَمَفْحَصِ قِطَاةٍ أَوْ أَصْغَرَ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ"، وَلَعَلَّ اخْتِيَارَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَوْطِنِ الْقِطَاةِ فِي حَدِيثِهِ دُونَ سِوَاهِ مِنْ مَوْاطِنِ الطِّيُورِ، أَوْ غَيْرِهَا لِسَبَبِ أَنَّهَا لَا تَبْيَضُ فِي عَشٍّ، أَوْ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ، وَإِذَا أَرَادَتْ أَنْ تَبْيَضَ فَحَصَتْ فِي الرَّمْلِ بِجِدِّ، وَصَدَقَ، وَاخْلَاصَ، وَكَشَفَتْهُ حَتَّى تَضَعَ بَيْضَهَا فِيهِ عَلَى بَسِيطِ الْأَرْضِ، لِذَلِكَ شَبِهَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَفْحَصِهَا الْمَسْجِدَ، وَلِأَجْلِ صَدَقِهَا كَمَا قِيلَ عَنْهَا إِشَارَةٌ إِلَى الْإِخْلَاصِ فِي بِنَائِهِ. (الْقَطَا فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ وَكَلَامِ الْعَرَبِ)، مَوْقِعُ الْإِكْتِرُونِيِّ (المَعْهَدُ الْإِسْلَامِيُّ):

www.islamicforumarab.com

(2) الطَّرْمَاحُ، دِيُونُ الطَّرْمَاحِ، (ص 74)، يُنْظَرُ: ابْنُ عَبْدِ رَيْهِ، الْعَقْدُ الْفَرِيدُ، (ج 2/318).

(3) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ الْأَنْبَارِيَّةُ)، (ص 290). حَذَامٌ: زُرْقَاءُ الْيَمَامَةِ.

(4) ابْنُ قَلَاقِسَ، دِيُونُ ابْنِ قَلَاقِسَ، (ص 64). وَيُنْسَبُ إِلَى دَيْسَمِ بْنِ طَارِقِ، الْأَنْصَارِيِّ، أَوْضَحَ الْمَسَالِكَ عَلَى أَلْفِيَةِ ابْنِ مَالِكِ، (ج 3/153). ابْنُ عَقِيلِ، شَرَحَ ابْنُ عَقِيلِ عَلَى أَلْفِيَةِ ابْنِ مَالِكِ، (ج 1/94). الْأَنْصَارِيُّ، مَغْنِي اللَّيْبِ عَنْ كُتُبِ الْأَعْرَابِ، (ج 1/220).

(5) الطِّيَّانُ، الْمُفَاخَرَاتُ وَالْمُنَاطَرَاتُ (نُصْرَةُ الْبِهَارِ فِي مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)، (ص 127).

نَدِمْتُ نَدَامَةَ الْكُسَعِيِّ لَمَّا غَدَتُ مِنِّي مُطْلَقَةً نَوَارُ⁽¹⁾

فَقَدِ اعْتَمَدَ الْمُبَارِكُ هُنَا عَلَى الْاِقْتِبَاسِ مِنَ الْمَثَلِ "أَحْشَفًا وَسُوءَ كَيْلَةٍ"⁽²⁾، مِنْ نَاحِيَةٍ، وَالْبُنْيَةِ التَّشْبِيهِيَّةِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، وَاسْتَلْهَمَ الشَّخْصِيَّاتِ مِنْ نَاحِيَةٍ ثَالِثَةٍ؛ لِيُصَوِّرَ مَدَى النَّدَامَةِ وَعَظَمَهَا يَوْمَ لَا يَنْفَعُ النَّدْمُ؛ فَالْهَزِيمَةُ نَكَرَاءٌ، وَالخِصْمُ عَنِيدٌ لَا مَجَالَ لِمَنَاضِلَتِهِ، وَلَا طَاقَةَ لِمَجَابَهَتِهِ.

وَمِنْ الْمَشَاهِدِ الَّتِي تَكَرَّرَتْ كَثِيرًا فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ مَشْهَدُ النَّاقَةِ، خَاصَّةً فِي الْأَدَبِ الْجَاهِلِيِّ، وَتَبَعَهُمْ فِي تَصْوِيرِ الْمَشْهَدِ - رَعْمَ بُعْدِ الْمَسَافَةِ - أَدْبَاءُ الْمَقَامَةِ، يَقُولُ نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ: "وَلَكِنْ قَدْ أَنَاخَ الدَّهْرُ عَلَيَّ بِكُلِّهِ، وَأَخْنَى عَلَيَّ الْهَرْمُ بِأَفْكَلِهِ"⁽³⁾. فَقَدْ تَفَوَّقَ الْيَازِجِيُّ فِي تَقْدِيمِ مَشْهَدِ السَّامَةِ وَالْأَرْقِ، مُعْتَمِدًا عَلَى أَرْوَعٍ مَا نُظِمَ حَوْلَ هَذَا الْمَعْنَى فِي الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ، مُقْتَفِيًا أَثَرَ امْرِئِ الْقَيْسِ فِي قَوْلِهِ:

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأُرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءً بِكُلِّهِ⁽⁴⁾

وَيُصَوِّرُ الْحَدِيثُ هُنَا الْحَالَةَ النَّفْسِيَّةَ السَّيِّئَةَ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا الْمُقْصُودُ، حَيْثُ تَعَاقَبَتْ عَلَيْهِ الْمِحْنُ وَالصُّرُوفُ، وَتَوَالَتْ الْمَصَائِبُ، وَصَعَبُ الظُّرُوفِ، وَتَأَمَّرَ عَلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الدَّهْرُ، وَالْهَرْمُ، فَغَدَا ضَعِيفًا أَصَابَهُ الْوَهْنُ، فَهُوَ يَرْتَعِدُ مِنْ شِدَّةِ ضَعْفِهِ، وَيَرْتَجِفُ مِنْ عِظَمِ وَهْنِهِ.

وَلَمْ يَبْرَحْ شِهَابُ الدِّينِ الْخَفَاجِيُّ الْعَاشِقِينَ مِنَ الشُّعْرَاءِ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ كَثِيرٌ عَزَّةً، فَهَا هُوَ يَصْدُحُ بِأَرْوَعِ الْأَبْيَاتِ الَّتِي تَغَنَّتْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتَنَاوَلَتْهَا كَتَبُ الثَّرَاثِ بِالشَّرْحِ وَالتَّحْلِيلِ، يَقُولُ: "أَفْسَمْتُ بِنَيْتِ سَأَلْتِ بِنَبْطَحَائِهِ أَعْنَاقُ الْمَطَايَا، وَثَمَلِ رُكْبَانُهُ بِكَأْسِ السُّرَى فِي الْغَدَايَا وَالْعَشَايَا"⁽⁵⁾. اِقْتِبَاسٌ مِنْ قَوْلِ كَثِيرٍ عَزَّةً:

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مَنَى كُلِّ حَاجَةٍ وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ

وَشَدَّتْ عَلَى دُهِمِ الْمَهَارَى رِحَالَنَا وَلَمْ يَنْظُرِ الْعَادِي الَّذِي هُوَ رَائِحُ

(1) الْفَرَزْدَقُ، دِيْوَانُ الْفَرَزْدَقِ، (ص 257). الْكُسَعِيُّ: هُوَ مُحَارِبُ بَنِ قَيْسٍ، يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي النَّدَامَةِ، وَيَذْكُرُونَ مِنْ خَبْرِهِ أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ اقْوَاسٌ رَمَى بِهَا بَعْضَ حَمْرِ الْوَحْشِ فَأَصَابَهَا، وَظَنَّ أَنَّهُ أَخْطَأَهَا، فَكَسَرَ الْأَقْوَاسَ. النَّوَارُ زَوْجُ الْفَرَزْدَقِ، وَقَدْ طَلَفَهَا فَنَدِمَ عَلَى ذَلِكَ. يُنْظَرُ، الْعَسْكَرِيُّ، جَمَهْرَةُ الْأَمْثَالِ، (ج 2/257).

(2) الْمَيْدَانِيُّ، مَجْمَعُ الْأَمْثَالِ، (ج 1/207).

(3) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ النَّجْدِيَّةُ) (ص 407). الْأَفْكَلُ: الرُّعْدَةُ.

(4) الْقَيْسُ، دِيْوَانُ امْرِئِ الْقَيْسِ، (ص 117).

(5) الْخَفَاجِيُّ، رِيحَانَةُ الْأَلْبَا وَزَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، (مَقَامَةُ الْغَرْبَةِ) (ص 382).

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَأَلَتْ بِأَغْنَاكِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ⁽¹⁾

وَيَعُودُ أَحْمَدُ الْبَرْبِيرُ إِلَى رَوَائِعِ الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ، مُسْتَلْهِمًا تُرَاثَ أَبِي تَمَّامٍ، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ مَا حَمَلَهُ قَوْلُهُ: "وَأَنَا لَا أَحِبُّ الْمَعَالِي، وَأَنَا سَلَمٌ لِلْمَحَلِّ الْمُنخَفِضِ، وَحَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِيِّ"⁽²⁾. وَهَذَا اقْتِبَاسٌ مِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ:

لَا تُكْرِئِي عَطَلُ الْكَرِيمِ مِنَ الْغِنَى فَالَسَيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِيِّ⁽³⁾

وَقَدْ اعْتَمَدَ أَحْمَدُ الْبَرْبِيرُ عَلَى رَوَائِعِ التَّشْبِيهِ الضَّمْنِيِّ فَقَدْ شَبَّهَ خُلُوَّ الرَّجُلِ الْكَرِيمِ مِنَ الْغِنَى، وَحِرْمَانَهُ مِنَ الْمَالِ لِكَثْرَةِ عَطَايَاهُ، وَهَذَا أَمْرٌ غَرِيبٌ، لِذَلِكَ سَأَقَ لَهُ دَلِيلًا، فَشَبَّهَهُ بِحِرْمَانِ الْمَكَانِ الْعَالِيِّ مِنْ اسْتِقْرَارِ الْمِيَاهِ عَلَيْهِ، بِجَامِعِ مَطْلَقِ الْحِرْمَانِ فِي كِلَيْهِمَا، مَعَ مَا يَحْمَلُهُ الْمَعْنَى فِي بَاطِنِهِ مِنْ مَكَانَةٍ سَامِيَةٍ، وَمَنْزَلَةٍ رَفِيعَةٍ.

وَشَارَكَ بَهَاءُ الدِّينِ الْبَيْطَارُ أُنْدَادَهُ فِي اقْتِفَاءِ آثَارِ الشُّعْرَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ فِي (الْمُفَاحِرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ)، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُهُ: "قَالَتِ الْعَنْقَاءُ: فَهَاجَ بِي نَسِيمُ الْغَرَامِ، وَمَاجَ بِي بَحْرُ الْوَجْدِ وَالْهِيَامِ. أَنْ أَنْحُو نَحْوَ هَذَا الْأَثْرِ، وَأَنْ أُتَشَبَّهَ بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؛ لِأَنَّ التَّشْبِيهَ بِالْكَرَامِ فَلَاحُ، وَالتَّشْبِيهَ لِلِاقْتِدَاءِ بِهِمْ نَجَاحٌ"⁽⁴⁾. فَقَدْ حَمَلَ الْحَنِينُ الْأَدِيبَ إِلَى تَرَاثِ الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ، مُقْتَدِيًا بِقَوْلِ السَّهْرُورِيِّ:

فَتَشَبَّهُوا إِنْ لَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ إِنْ التَّشْبِيهَ بِالْكَرَامِ فَالَاحُ⁽⁵⁾

وَمِنْ الْحِكْمِ الْبَلِيغَةِ، وَالْأَمْثَالِ الْحَكِيمَةِ الَّتِي سَتَظَلُّ تَاجًا مِنْ تِيْجَانِ الْأَدَبِ الرَّفِيعِ، وَعَقْدًا مِنْ عُقُودِ الدَّرِّ النَّضِيدِ مَا ضَمَّنَهُ أَحْمَدُ الْبَرْبِيرُ نُصُوصَهُ الْمَقَامِيَّةَ عَائِدًا إِلَى رَوَائِعِ الشُّعْرِ الْعَبَّاسِيِّ، وَأَيَّةَ عَوْدَةٍ حَمِيدَةٍ هَذِهِ الَّتِي تَتِمَّلُ فِي قَوْلِهِ: "فَكَمْ تَوَاتَرَ عَنْكَ حَدِيثٌ تَشْمُرُ مِنْهُ النَّفْسُ، وَتَمَجُّهُ الْأُدُنُّ، وَحَسْبُكَ مِنَ الْعِنَادِ أَنْكَ تَجْرِي بِمَا لَا تَشْتَهِي السُّفُنُ"⁽⁶⁾. مُسْتَلْهِمًا تُرَاثَ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّيِّ فِي قَوْلِهِ:

(1) كَثِيرٌ عِزَّةً، دِيْوَانُ كَثِيرِ عِزَّةٍ، (ص 525).

(2) الطَّيَّانُ، الْمُفَاحِرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (مَقَامَةٌ فِي الْمُفَاحِرَةِ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ)، (ص 36).

(3) التَّبْرِيزِيُّ، شَرْحُ دِيْوَانِ أَبِي تَمَّامٍ، (ج 2/38).

(4) الطَّيَّانُ، الْمُفَاحِرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (الْمُفَاحِرَةُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ)، (ص 75).

(5) السَّهْرُورِيُّ، دِيْوَانُ السَّهْرُورِيِّ، (ص 7).

(6) الطَّيَّانُ، الْمُفَاحِرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (مَقَامَةٌ فِي الْمُفَاحِرَةِ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ)، (ص 33).

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ تَجْرِي الرِّيحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي السُّفُنُ⁽¹⁾

فَالْإِنْسَانُ يَجْتَهُدُ وَيَجِدُّ، وَيَسْعَى وَيَكْدُ، وَيَصْعَدُ الْجِبَالَ هَرُوبًا مِنَ الْعَيْشِ فِي الْحَفْرِ، بَيِّدَ أَنْ النَّيَّارَ الْمَعَاكِسَ قَدْ يَغَالِبُهُ أحيانًا، فلا يدرك ما يتمنى، ولا يحقق ما يصبو إليه.

ويُشكِّلُ أَحْمَدَ الْبَرْبِيرَ لَوْحَةً ثنائِيَّةَ الأبعادِ مُعْتَمِدًا عَلَى الْاقتِنَاسِ مِنَ الشَّعْرِ مِنْ نَاحِيَّةِ، وَالتَّشْكِيلِ الْكِنَائِيِّ مِنْ نَاحِيَّةِ أُخْرَى، مُسْتَلْهِمًا ثُرَاثَ الْعَبَّاسِيِّينَ، وَمِنْ رَوَائِعِ هَذَا الْاقتِنَاسِ، قَوْلُهُ: وَاسْتَفْتَحَ بَابًا بَعْدَ بَابٍ. إِلَى أَنْ وَصَلَتْ مَوَاطِئَ الْأَنْوَارِ، وَحَصَلَتْ بِمَوَاطِنِ الْأَسْرَارِ⁽²⁾، حَيْثُ اسْتَلْهَمَ الْأَدِيبُ ثُرَاثَ أَبِي فِرَاسِ الْحَمْدَانِيِّ:

فَلَمَّا شَرِبْنَاهَا وَدَبَّ دَبِيبُهَا إِلَى مَوْطِنِ الْأَسْرَارِ قُلْتُ لَهَا قَفِي⁽³⁾.

حَيْثُ تَابَعَ الْبَرْبِيرَ الْمَسِيرَ خَطْوَةً تَتْلُوهَا خَطْوَةً، وَاسْتَفْتَحَ الْأَبْوَابَ بَابًا يَتَّبِعُهُ بَابٌ حَتَّى أَدْرَكَ النُّورَ، وَأَصَابَ الْفُلُوبَ مِنْ خِلَالِ بِنْيَةِ كِنَائِيَّةٍ مِنْ بَابِ الْمَوْصُوفِ وَهُوَ (القلب) فِي قَوْلِهِ: (مواطن الأسرار). فَجَمَعَ بِذَلِكَ بَيْنَ الْبَدِيعِ وَالْبَيَانِ فِي صُورَةٍ بَارِعَةٍ.

وَلَمْ يَبْرَحْ أَدْبَاءُ الْمَقَامَةِ فَحَوْلَ الشُّعْرَاءِ، فَقَدْ كَانَ لِأَشْعَارِهِمْ نَصِيبٌ فِي نُصُوصِهِمْ الْمَقَامِيَّةِ، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ مُحَمَّدِ الدَّيْسِيِّ: "فَالْفَقْرُ شِعَارُ الصَّالِحِينَ الْأَخْيَارِ، وَحَلِيَّةُ عِبَادِ اللَّهِ الْأَبْرَارِ، فَاقْعُدْ عَنِ الْمَكَارِمِ؛ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي"⁽⁴⁾، وَهَذَا مَاخُودٌ مِنْ قَوْلِ الْحُطَيْئَةِ:

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِبُعَيْتِهَا وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي⁽⁵⁾

وَكَأَنِّي بِمُحَمَّدِ الدَّيْسِيِّ يَخَالِفُ الْمَأْلُوفَ، فَيَمْدُحُ الْفَقْرَ وَالْفُقَرَاءَ، وَيَهْجُو الْغِنَى وَالْأَغْنِيَاءَ، عَنْ طَرِيقِ بِنْيَةٍ تَقَابُلِيَّةٍ رَائِعَةٍ دُونَ ذِكْرِ النَّقِيبِ تَارِكًا الْبَابَ مَفْتُوحًا أَمَامَ الْمُتَلَقِّي لِيَقْدَرَ الْمَحْذُوفَ كَمَا يَشَاءُ، فَإِذَا كَانَ الْفَقْرُ شِعَارَ الصَّالِحِينَ الْأَخْيَارِ، وَحَلِيَّةَ عِبَادِ اللَّهِ الْأَبْرَارِ، فَإِنَّ الْغِنَى عَلَى نَقِيبِ ذَلِكَ، فَلَا يَحِقُّ لَهُمْ صُعُودَ دَرَجَاتِ الْمَجْدِ، وَلَا طَلِبَ الْمَكَارِمِ مُبَرِّزًا ذَلِكَ بِدَالِ الْأَمْرِ (اقْعُدْ) مُعْتَمِدًا عَلَى النَّعْبِيرِ عَنِ اسْمِ الْمَفْعُولِ بِاسْمِ الْفَاعِلِ فِي قَوْلِهِ (الطَّاعِمُ الْكَاسِي)، وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ الْمَطْعُومَ وَالْمَكْسُوفَ مَبَالِغَةً فِي هِجَائِهِ، وَالْحَطُّ مِنْ قَدْرِهِ.

(1) الْمُتَنَبِّي، دِيْوَانُ الْمُتَنَبِّي، (ص 472).

(2) الْبَيْطَارِ، الْمَفَاخِرَاتِ وَالْمُنَاطِرَاتِ (الْمَفَاخِرَةُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ)، (ص 55).

(3) أَبُو نَوَاسٍ، دِيْوَانُ أَبِي نَوَاسٍ، (ج 4/215).

(4) الطَّيَّانِ، الْمَفَاخِرَاتِ وَالْمُنَاطِرَاتِ (مِنَاطِرَةُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ)، (ص 193).

(5) الْحُطَيْئَةُ، دِيْوَانُ الْحُطَيْئَةِ، (ص 119).

رابعاً: الاقتباس من الأمثال العربية

تفوق الاقتباس من الأمثال العربية تفوقاً واضحاً في النصوص المقامية في العصر العثماني، فلا تكاد تخلو مقامة من مثلٍ أو أكثر، والأمثال جمعٌ مثلٍ، وقد عرفوه بأنه "قولٌ سائرٌ يشبه به حالُ الثاني بالأول، فمواعيدُ عَرَفُوبٍ مثلاً علمٌ لكلِّ ما لا يصحُّ من المواعيد"⁽¹⁾.

وتلعب الأمثال دوراً مهماً في عُرْفِ الأدباء والحكماء، فهم "لا يزالون يضرِبون الأمثال، ويبينون للناس تصرفَ الأحوال بالنظائر، والأشباه، والأشكال؛ ويرَوْنَ هَذَا النَّوعَ مِنَ الْقَوْلِ أَنْجَحَ مطلباً، وأقرب مذهباً، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩]"⁽²⁾.

ولم يخالف أدباء هذا العصر عُرْفَ الأدباء، والحكماء في العصور السابقة، فقد تزيّنت مقاماتهم باقتباساتٍ متنوّعةٍ من الأمثال العربية حالها حالُ الفنون الأدبية الأخرى، بيد أنهم تفوّقوا على غيرهم في هذا الاقتباس، ودليل ذلك أنّ نسبة ورودِ المثل في مقاماتِ ناصيف اليازجيّ بلغت ثلاثة أمثالٍ في كلِّ مقامةٍ من مقاماته الستين، فقد بلغ عددُ الأمثلة (187) سبعاً وثمانين، ومائة مثلاً، ولم يقف الأمر على ناصيف اليازجيّ فقط، فقد توشّحت (المفاخرات والمناظرات) بعددٍ كبيرٍ من الأمثال التي تناثرت في نصوص الأدباء المقامية.

ومن شواهد الاقتباس من الأمثال قولُ ناصيف اليازجيّ في (المقامة الهزلية): "فقال حاشاً أن تتركني الليلة سَمِيرَ الفرقدين، ولكنَّ غداً تذهب أنتِ بالعروس، وأنا بخفي حنين"⁽³⁾، والكلام مُقتبسٌ من المثل العربيّ "عاد بخفي حنين"، ومنه أيضاً قوله في (المقامة القدسية): "وأدركت ما أدركته بتكرار المراجعة، فإن أصبت فرميةً من غير رام، وإن أخطت فلي معذرة عند الكرام"⁽⁴⁾. والكلام مُقتبسٌ من المثل العربيّ: "رَبِّ رَمِيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ"⁽⁵⁾، وهو مثلٌ يُضربُ للمخطئ يصيبُ أحياناً، وقد بدا الحديث أكثر وضوحاً لما اعتمد اليازجيّ على دال الشرط (إن) الذي فتح أمامه أكثر من دربٍ للخلاص. ومن الاقتباس من المثل في (المقامة الهزلية) قولُ اليازجيّ: "قال سهيلٌ فافتنتت بفصاحتها، ولم أنفت إلى قيد ملاحظتها... فأنشدت:

(1) الكاتب، البرهان في وجوه البيان، هامش (ص 66).

(2) المرجع السابق، ص 66.

(3) اليازجيّ، مجمع البحرين (المقامة الهزلية)، (ص 106).

(4) اليازجيّ، مجمع البحرين (المقامة القدسية)، (ص 424).

(5) العسكريّ، جمهرة الأمثال، (ج 1/399).

وَاهَا لَهْدِي الطَّرْفَةَ الْمُتَّفِقَةَ إِنَّ لَمْ نَقُلْ وَافَقَ شَنْ طَبَقَهُ

فَإِنَّا أَحْمَقُ مِنْ هَبَقَّة⁽¹⁾، مُقْتَبَسٌ مِنَ الْمَثَلِ الْعَرَبِيِّ الْمَشْهُورِ: "وَافَقَ شَنْ طَبَقَهُ"، و"أَحْمَقُ مِنْ هَبَقَّة"⁽²⁾.

أَمَّا قَوْلُهُ: "إِنَّ هَذِهِ النَّخْلَةَ عِنْدِي خَيْرٌ مِنْ نَخْلِ هَجْرٍ، وَعِرَائِسِ الْحُصَيْبِ، فَاعْتَنَقَنِي كَمَنْ تَمَلَّقَ، وَقَالَ كِلَانَا أَفْلَسُ مِنْ ابْنِ الْمَذْلُوقِ"⁽³⁾. مُقْتَبَسٌ مِنَ الْمَثَلِ الْعَرَبِيِّ: (كَمَسْتَبْضِعِ النَّمْرِ إِلَى هَجْرٍ)، وَالْمَثَلُ: "أَفْلَسُ مِنْ ابْنِ الْمَذْلُوقِ"⁽⁴⁾. وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ كَانَ لَا يَجِدُ فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ قُوَّةَ لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَكَذَلِكَ كَانَ أَبُوهُ. قَالَ الشَّاعِرُ فِي أَبِيهِ⁽⁵⁾:

فَإِنَّكَ إِنْ تَرَجُّو تَمِيمًا وَنَفَعَهَا كِرَاجِي النَّدَى وَالْعُرْفِ عِنْدَ ابْنِ الْمَذْلُوقِ

وَمِنْ رَوَائِعِ الْاِفْتِنَاسِ مِنَ الْأَمْثَالِ الْعَرَبِيَّةِ قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَازْجِيِّ فِي (الْمَقَامَةِ الْحَلِيَّةِ): "وَقَالُوا تَحْسِبُهَا حَمَقَاءَ وَهِيَ بَاحْسٌ، فَلَا بُدَّ بَيْنَنَا مِنْ حَرْبٍ دَاحِسٍ"⁽⁶⁾. مِثْلَانِ عَرَبِيَّانِ الْأَوَّلُ يُضْرَبُ لِشِدَّةِ الدَّهَاءِ مَعَ ظَنِّ الْحَمَقِ، وَالثَّانِي يُضْرَبُ لِشِدَّةِ الْحَرْبِ. وَمِنْهُ كَذَلِكَ: "وَقَالَ: يَا لُكَاعِ! تَذَكِّرِينَ الْعُنُوقَ، وَتَتَكَّرِينَ النُّوقَ"⁽⁷⁾. مُقْتَبَسٌ مِنَ الْمَثَلِ الْعَرَبِيِّ: "الْعُنُوقُ بَعْدَ النُّوقِ"⁽⁸⁾، وَهُوَ مَثَلٌ يُضْرَبُ لِمَنْ كَانَتْ حَالُهُ حَسَنَةً ثُمَّ سَاعَتْ، وَيُرَادُ بِهِ الْأَمْرُ الصَّغِيرُ بَعْدَ الْعَظِيمِ، فَإِنْ أَرَادُوا خِلَافَ ذَلِكَ قَالُوا: أَبْعِدِ الْعُنُوقَ النُّوقَ؟.

(1) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْهَزْلِيَّةِ)، (ص 103).

(2) هَبَقَّةٌ رَجُلٌ مِنْ بَنِي قَيْسٍ، اسْمُهُ يَزِيدُ بْنُ ثُرْوَانَ، يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْحَمَقِ، كَانَ قَدْ اتَّخَذَ قِلَادَةً مِنَ الْوَدَعِ وَالْخَرَزِ الْمَلُونِ، الْعِظَامَ، وَجَعَلَهَا فِي عُنُقِهِ لِكَيْ يَعْرِفَ نَفْسَهُ بِهَا إِذَا ضَلَّ، وَكَانَ لَهُ أَخٌ يُقَالُ لَهُ مِرْوَانَ، فَسَرَقَ الْقِلَادَةَ مِنْ عُنُقِهِ وَهُوَ نَائِمٌ، وَجَعَلَهَا قِلَادَةً لَهُ، فَلَمَّا انْتَبَهَ يَزِيدُ رَأَاهَا فِي عُنُقِ أَخِيهِ، فَقَالَ يَا مِرْوَانَ سَرَقْتَنِي مِنْي، أَنْتَ يَزِيدُ فَمَنْ أَنَا؟. الْعَسْكَرِيُّ، جَمَهَرَةُ الْأَمْثَالِ، (ج 2/309).

(3) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْهَزْلِيَّةِ)، (ص 109). ابْنُ الْمَذْلُوقِ: رَجُلٌ مِنْ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ سَعْدِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ، وَكَانَ لَا يَجِدُ فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ فِي بَيْتِهِ قُوَّةَ لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَكَذَلِكَ كَانَ أَبُوهُ، فَقَالَ الشَّاعِرُ عَنْ أَبِيهِ: فَإِنَّكَ إِذَا تَرَجُّو تَمِيمًا وَنَفَعَهَا ... كِرَاجِي النَّدَى وَالْعُرْفِ عِنْدَ الْمَذْلُوقِ. يُنْظَرُ، الْعَسْكَرِيُّ، جَمَهَرَةُ الْأَمْثَالِ، (ج 1/159).

(4) الْعَسْكَرِيُّ، جَمَهَرَةُ الْأَمْثَالِ، (ج 2/92).

(5) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ج 2/92.

(6) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْحَلِيَّةِ)، (ص 321).

(7) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ، (ص 71). الْعُنُوقُ: الْإِنَاثُ مِنْ أَوْلَادِ الْمَعْرِزِ.

(8) الْعَسْكَرِيُّ، جَمَهَرَةُ الْأَمْثَالِ، (ج 2/50).

وَمِنَ الْاِفْتِيَّاسِ مِنَ الْأَمْثَالِ قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَارْجِيِّ فِي (الْمَقَامَةِ الْكُوفِيَّةِ): "فَجَعَلْتُ أَرْحُ تَلْقَاءَهُمْ وَأَجِيءُ، وَأَقُولُ لَيْسَ هَذَا بَعْشُكَ فَادِرْجِي"⁽¹⁾. وَهَذَا مِثْلٌ يُضْرَبُ لِمَنْ يُرِيدُ الدُّخُولَ فِي مَا لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ.

وَمِنَ الْاِفْتِيَّاسِ مِنَ الْمِثْلِ كَذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَارْجِيِّ فِي (الْمَقَامَةِ الْيَمَامِيَّةِ): "وَقَالَ قَدْ تَجَنَّى عَلَيَّ هَذَا الْعُمْرِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ لَيْسَ لِي ذَنْبٌ إِلَّا ذَنْبُ صَحْرٍ"⁽²⁾. وَهُوَ مِثْلٌ يُضْرَبُ لِمَنْ يُعَاقَبُ بِلَا أَيْ ذَنْبٍ.

وَلَمْ يَبْرَحْ شَهَابُ الدِّينِ الْخَفَاجِيُّ الْأَمْثَالَ الْعَرَبِيَّةَ، حَيْثُ ضَمَّنَهَا كَثِيرًا فِي نُصُوصِهِ الْمَقَامِيَّةِ، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ فِي (رِيحَانَةِ الْأَلْبَا) قَوْلُهُ: "أَضَلُّ مِنْ سِنَانٍ، وَلَا أَفْعَلُ كَذَا حَتَّى تَرْجِعَ ضَالَّةً غُطْفَانَ"⁽³⁾. وَ"أَضَلُّ مِنْ سِنَانٍ"⁽⁴⁾ مِثْلٌ عَرَبِيٌّ، وَمِنْهُ أَيْضًا قَوْلُ الْخَفَاجِيِّ فِي (الْمَقَامَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ): "وَأَنَّهُ قَنَعَ مِنَ الْكَثِيرِ بِقَلِيلٍ مِمَّا قَلَّهْ، عَمَلًا بِالْمِثْلِ: لَمْ يُحْرَمَ مِنْ فُزْدَلِهِ"⁽⁵⁾، وَهُوَ مِثْلٌ عَرَبِيٌّ يُضْرَبُ لِمَنْ طَلَبَ شَيْئًا لَمْ يَنبَسِرْ لَهُ، وَالْمَعْنَى لَمْ يُحْرَمَ مَنْ نَالَ بَعْضَ حَاجَتِهِ، وَرَوَى "لَمْ يُحْرَمَ مِنْ فُصْدٍ لَهُ". وَمِنْهُ كَذَلِكَ: "وَالآنَ قَدْ ائْتَدَسَ النَّسَبُ، وَدُبِحَتِ الدَّجَاجَةُ الَّتِي كَانَتْ تَبْيِضُ الدَّهَبَ"⁽⁶⁾. تَلْمِيحٌ لِمِثْلِ عَامِيٍّ مُتَدَاوِلٍ فِي قِصَّةٍ، وَهُوَ يُضْرَبُ لِكُلِّ مَنْ طَلَبَ شَيْئًا بَعْدَ فَوَاتِ زَمَانِهِ.

اهْتَمَّ أَدْبَاءُ (الْمُفَاحِرَاتِ وَالْمُنَاطِرَاتِ) بِالْاِفْتِيَّاسِ مِنَ الْمِثْلِ فِي نُصُوصِهِمُ الْمَقَامِيَّةِ، وَذَلِكَ دَعْمًا لِأَفْكَارِهِمْ، وَبَيَانًا لِمَعَانِيهِمْ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ، قَوْلُ بَهَاءِ الدِّينِ الْبَيْطَارِ: "قَالَتِ الْعَنْقَاءُ:

(1) الْيَارْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةِ الْكُوفِيَّةِ)، (ص 56).

(2) الْيَارْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ، (الْمَقَامَةِ الْيَمَامِيَّةِ)، (ص 363). صَحْرٌ، بِنْتُ لَقْمَانَ بْنِ عَادٍ. عَوَّقِبْتُ عَلَى الْإِحْسَانِ، فَضْرَبْتُ بِهَا الْمِثْلَ، فَقِيلَ: (مَا لِي ذَنْبٌ إِلَّا ذَنْبُ صَحْرٍ)، وَابْنُهُ لُقَيْمٌ خَرَجَا فِي إِغَارَةٍ، فَأَصَابَا إِبِلًا، فَسَبَقَ لُقَيْمٌ، فَأَتَى مَنْزِلَهُ، فَنَحَرَتْ أَحْتَهُ صَحْرٌ جُزُورًا مِنْ غَنِيمَتِهِ، وَصَنَعَتْ مِنْهَا طَعَامًا تَتَحَفُّ بِهِ أَبَاهَا إِذَا قَدِمَ، وَقَدْ كَانَ لَقْمَانٌ حَسَدًا لُقَيْمًا فِي تَبْرِيزِهِ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَدِمَ لَقْمَانٌ قَدِمَتْ لَهُ الطَّعَامُ، وَكَانَ يَحْسَدُ لُقَيْمًا، فَلَطَمَهَا وَلَمْ يَكُنْ لَهَا ذَنْبٌ، فَصَارَتْ عَقُوبَتُهَا مِثْلًا لِكُلِّ مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ وَيُعَاقَبُ فَقِيلَ: "مَا لِي ذَنْبٌ إِلَّا ذَنْبُ صَحْرٍ". الْعَسْكَرِيُّ، جَمَهْرَةُ الْأَمْثَالِ، (ج 2/211، 212) الرَّيْدِيُّ، تَاجُ الْعُرُوسِ مِنْ جَوَاهِرِ الْقَامُوسِ، (ج 12/290)، مَادَةٌ (صَحْرٌ).

(3) الْخَفَاجِيُّ، رِيحَانَةُ الْأَلْبَا وَزَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (الْمَقَامَةِ الرَّوْمِيَّةِ)، (ص 381).

(4) الْمِيدَانِيُّ، مَجْمَعُ الْأَمْثَالِ، (ج 1/287). الْعَسْكَرِيُّ، جَمَهْرَةُ الْأَمْثَالِ، (ج 2/9).

(5) الْخَفَاجِيُّ، رِيحَانَةُ الْأَلْبَا وَزَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (الْمَقَامَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ)، (ص 409). يُنْظَرُ: الْعَسْكَرِيُّ، جَمَهْرَةُ الْأَمْثَالِ، (ج 2/160).

(6) الْخَفَاجِيُّ، رِيحَانَةُ الْأَلْبَا وَزَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (الْمَقَامَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ)، (ص 410).

فقلت: هل أنتما بالمشهد المأنوس، ولا عطر بعد عروس⁽¹⁾. وهذا مقتبس من المثل: "لا مخبأ لعطر بعد عروس"⁽²⁾. وهو مثل يضرب للشيء يستعجل عند الحاجة إليه.

ومن الاقتباس من المثل قول محمد المبارك: "فهو في ذلك كمن بحث عن حنفيه بظلفه، وجدع بكفه مارن أنفه"⁽³⁾. وهذا اقتباس من المثل: "كالباحثة عن حنفيها بظلفها"⁽⁴⁾.

ومن الاقتباس من المثل، قول بهاء الدين البيطار: "فلا تعد بعد إلى الحيف، فتكون كمن ضيع اللبن بالصيف"⁽⁵⁾. وهذا المثل يضرب لمن يطلب شيئاً قد فوته على نفسه، ونصه: "الصيف ضيعت اللبن"⁽⁶⁾.

لجأ الأدباء أحياناً إلى الأمثال لبيان الفكرة التي قصدوا تناولها، ومن شواهد ذلك قول محمد المبارك: "حديث فضلي أسرى من المثل، وأسرع من القمر في النقل. فالزمي معي حسن الأدب، وتظفري بكمال المنى والأرب. وإن عادت العقرب الغادرة، فإن النعال لها حاضرة"⁽⁷⁾. فقد عدد الأديب على لسان السماء محاسنها، ثم انتقل إلى دال (الأمر) الذي يحمل في ثناياه التهديد والوعيد في قوله: (الزمي، تظفري)، وختم برسم مشهد النهاية المؤلم معتمداً على المثل:

إِنْ عَادَتِ الْعُقْرَبُ عُذْنَا لَهَا وَكَانَتِ النَّعَالُ لَهَا حَاضِرَةً⁽⁸⁾

إنَّ الباب لا يتسع هنا لتناول مشاهد الاقتباس كافة، خاصة أن الأدباء انطلقوا مجتهدين صوب القرآن الكريم، والحديث الشريف يتلمسون منهما أروع الألوان، ثم اندفعوا جادين تجاه الشعر، والأمثال، ووشحوا نصوصهم المقامية بروائع الشعر، وبدائع الأمثال، وكأنهم أرادوا أن يثبتوا للداني والقاصي شوقهم الجارف، وحنينهم الكبير إلى التراث في عصور الأدب المختلفة من ناحية، ومن ناحية أخرى أرادوا أن يرسلوا رسالة مفادها أنهم جزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي العظيم.

(1) الطيآن، المفاخرات والمناظرات (المفاخرة بين الشمس والقمر)، (ص 69).

(2) الميداني، مجمع الأمثال، (ج 2/211). العسكري، جمهرة الأمثال، (ج 2/307).

(3) الطيآن، المفاخرات والمناظرات (أبهي مقام في المفاخرة بين الغزبة والإقامة)، (ص 157).

(4) صيني، معجم الأمثال العربية، (ج 3/93).

(5) الطيآن، المفاخرات والمناظرات (المفاخرة بين الشمس والقمر)، (ص 63).

(6) الميداني، مجمع الأمثال، (ج 2/68). العسكري، جمهرة الأمثال، (ج 1/473).

(7) الطيآن، المفاخرات والمناظرات (عريب الأبناء في مناظرة الأرض والسماء)، (ص 92).

(8) الليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم، (ج 1/313).

المبحث الثاني: المحسنات البديعية اللفظية

تزيّنت النصوص المقامية في العصر العُمانيّ بالمحسنات البديعية اللفظية، فقد كانت هذه المحسنات سمة بارزة في المقامة، كيفَ لا؟ والصنعة اللفظية عنصر رئيس من عناصرها، وجزء لا ينفصل عن كيانها، ومن هذه المحسنات:

1- الجناس

يعدُّ الجناس أحد أنواع المحسنات البديعية اللفظية في علم البديع. وبعض العلماء يسميه التجانس، ومن العلماء من يطلق على هذا الفن؛ التجنيس أو المجانسة، وجميع المسميات وجوه لمصطلح واحد، والمقصود به: "أن يورد المتكلم كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبها في تأليف حروفها"⁽¹⁾. وحقيقة الجناس عند ابن الأثير: "أن يكون اللفظ واحداً، والمعنى مختلفاً"⁽²⁾.

ويستمدُّ البلاغيون من مباحث اللغة حول المشترك اللفظي، ومن مباحث الصرفين حول الاشتقاق الذي توافقت فيه الصور اللفظية الكلام في التجنيس باعتباره "أقرب النمطيات إلى الناحية الصوتية الخالصة، وقد تناولوه بتفريعات معقدة حرصاً منهم على أن يتمثل في التركيب أقصى درجات التوازن، خاصة فيما أسموه بالجناس التام الذي تتساوى فيه أنواع الحروف وأعدادها، وهيئاتها بين كلمتين ينتج عنها صورة لفظية، لها إيقاعها الخاص هي الجناس"⁽³⁾.

وعودة إلى المقامات، فقد زين الأدباء حذائق نصوصهم بأزهار متنوعة من الجناس، حيث غرسوا أصنافاً شتى من إبداعاتهم أبهرت الدارسين، فما أن يطلق الدارس العنان لبصره صوب مقامة حتى يبدأ الدخول إلى عوالم الجمال التي تُضفي موسيقا الجناس إلى جمالها جمالاً من نوع آخر تطرب لإيقاعاته الآذان، وتقر بنغماته الأبصار، وكأنني بهؤلاء قد ارتدت ألوان البديع بين أناملهم أداة طيعة يقبلون فيها كيف يشاءون دون تكلف أو إسراف، كيفَ لا؟ والمقامة هي فن الجناس، والنسج.

ويظهر الجناس في النصوص المقامية على ضربين رئيسين، يتفرع من خلالهما فروع كثيرة تنتقل بين الجناس التام، وغير التام على النحو الآتي:

(1) العسكري، الصنائع، (ص353).

(2) ابن الأثير، المثل السائر، (ج1/262).

(3) عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، (ص293).

أ- الْجِنَاسُ التَّامُّ، وَهُوَ مَا اتَّفَقَ فِيهِ اللَّفْظَانِ فِي أُمُورٍ أَرْبَعَةٍ هِيَ: أَنْوَاعِ الْحُرُوفِ، وَهَيْئَاتِهَا الْحَاصِلَةِ مِنَ الْحَرَكَاتِ، وَالسَّكَنَاتِ، وَأَعْدَادِهَا، وَتَرْتِيبِهَا. يَقُولُ الْقَزْوِينِيُّ: "التَّامُّ مِنَ الْجِنَاسِ أَنْ يَتَّفَقَ اللَّفْظَانِ فِي أَنْوَاعِ الْحُرُوفِ، وَأَعْدَادِهَا، وَهَيْئَاتِهَا، وَتَرْتِيبِهَا"⁽¹⁾. وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥]. وَمِنْ الْمَنْظُومِ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

أَخْشَى الْعُيُونَ النَّيَّ فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ كَمَا أَخْشَى عَلَى الْأَوْطَانِ مِنْ تِلْكَ الْعُيُونَ⁽²⁾

الْجِنَاسُ الْمُمَاتِلُ: وَهُوَ "مَا كَانَ رُكْنَاهُ أَوْ لَفْظَاهُ مِنْ قِسْمٍ وَاحِدٍ مِنْ أَقْسَامِ الْكَلِمَةِ، بِمَعْنَى أَنْ يَكُونَ اسْمِينَ، أَوْ فَعْلِينَ، أَوْ حَرْفَيْنِ"⁽³⁾.

وَمِنَ الْجِنَاسِ التَّامِّ الْمُمَاتِلِ مَا يَقَعُ بَيْنَ اسْمَيْنِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَازْجِيِّ: "وَالآنَ دَعْنَا نَتَمَتَّعَ بِالْحَدِيثِ، مَعَ صَاحِبِكَ الْحَدِيثِ، الَّذِي يُمَيِّزُ بَيْنَ الْقَشِيبِ وَالرَّثِيثِ، وَالسَّمِينِ وَالغَثِيثِ"⁽⁴⁾. فَالْجِنَاسُ التَّامُّ الْمُمَاتِلُ وَقَعَ بَيْنَ اسْمَيْنِ هُمَا: (الْحَدِيثِ)، فَالْحَدِيثُ الْأَوَّلُ بِمَعْنَى (تَبَادُلِ الْكَلَامِ)، وَالْحَدِيثُ الثَّانِي بِمَعْنَى (الْجَدِيدِ).

وَمِنْهُ كَذَلِكَ قَوْلُ شَهَابِ الدِّينِ الْخَفَاجِيِّ: "حَتَّى لَاحَتْ مِنْ جَانِبِ الْغَرْبِ قَافِلَةٌ، وَفِيهَا فَنِيَّةٌ لِبَابِ التَّوْبَةِ غَيْرِ قَافِلَةٍ"⁽⁵⁾. وَالْجِنَاسُ التَّامُّ الْمُمَاتِلُ وَقَعَ بَيْنَ اسْمَيْنِ هُمَا (القَافِلَةُ)، فَالْقَافِلَةُ الْأُولَى بِمَعْنَى: (مَوْكَبِ السَّيْرِ)، أَوْ الرَّفْقَةِ الرَّاجِعَةِ مِنَ السَّفَرِ، وَالْقَافِلَةُ الثَّانِيَّةُ بِمَعْنَى: (مَغْلَقَةٌ). مَعَ مَا فِي الْجِنَاسِ مِنْ جَرَسٍ مُوسِيقِيٍّ رَائِعٍ.

وَيَعُودُ نَاصِيفُ الْيَازْجِيِّ لِيَقْدِمَ فَوَاصِلَ عَذْبَةً مِنْ رَوَائِعِ الْجِنَاسَاتِ فِي مَقَامَاتِهِ كَافَّةً، فَيَمْتَعُ وَيُعْجَبُ، وَيُبْهَرُ وَيَخْلَبُ، كَيْفَ لَا؟ وَقَدْ امْتَلَكَ مَهَارَةَ الْبَلَاغَةِ، يَقُولُ: "قَابَنْدَرْتُ التَّسْلِيمَ عَلَيْهِ، وَالتَّسْلِيمَ إِلَيْهِ"⁽⁶⁾. حَيْثُ طَالَعْنَا بِالْجِنَاسِ فِي كَلِمَتِي (التَّسْلِيمِ)، الْأُولَى مِنْهُمَا بِمَعْنَى (السَّلَامِ)، وَالثَّانِيَّةُ بِمَعْنَى: (الانْقِيَادِ). مَعَ مَا يُضْفِيهِ الْجِنَاسُ عَلَى النَّصِّ مِنْ جَرَسٍ مُوسِيقِيٍّ أَخَازٍ.

(1) الْقَزْوِينِيُّ، الْإِيضَاحُ، (ص 535).

(2) الْبَيْتُ مِنْ قَصِيدَةٍ لِلْبَاحِثِ بِعَنْوَانِ (مَرَايَا مَقْلُوبَةٌ).

(3) الْقَزْوِينِيُّ، الْإِيضَاحُ، (ص 535). يُنْظَرُ، الْمَصْرِيُّ، تَحْرِيرُ التَّحْبِيرِ، (ص 105).

(4) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْأَنْبَارِيَّةُ)، (ص 291). الْقَشِيبُ وَالرَّثِيثُ: الْجَدِيدُ وَالْبَالِي، الْغَثِيثُ: الْمَهْزُولُ.

(5) الْخَفَاجِيُّ، شَهَابُ الدِّينِ، رُبْحَانَةُ الْأَكْبَا (الْمَقَامَةُ الْمَغْرِبِيَّةُ)، (ص 398).

(6) الْيَازْجِيُّ، نَاصِيفُ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْمَضْرِبِيَّةُ)، (ص 310).

ويتلاعبُ ناصيفُ اليازجِيِّ بالمُفرداتِ فِي قَوْلِهِ: "وأخذنا نجتني الثَّمارَ الدَّوَابِلَ، مِنِ الأفنانِ السَّوَابِلِ، وَقَدْ رقصتِ البَلابِلُ عَلَى نَعَمَاتِ البَلابِلِ"⁽¹⁾. فَقَدْ رَسَمَ الجِناسَ الثَّامَّ المُماتِلَ بَيْنَ اسمينِ، فَكَلِمَةُ (البَلابِلِ) الأُولَى هي (الطُّيورُ المَعْرُوفَةُ)، و(البَلابِلِ) الثَّانِيَةُ هي جَمْعُ بُلْبُلَةٍ، وهي (الأنبوبةُ الَّتِي يَنصبُ منها الماءُ فِي السَّواقِي، والنَّواعيرِ) فِي الأريافِ.

ويُواصلُ ناصيفُ اليازجِيِّ تَقوُّفَهُ فِي هَذَا البَابِ، يَقُولُ: "والآنَ قَدْ علمتَ يا شَيْخَ الحَرَمِ، أَنَّ انتهاكَ الحَرَمِ من الحَرَمِ"⁽²⁾. (الحَرَمِ) الأُولَى هي (خرقُ المهابَةِ)، و(الحَرَمِ) الثَّانِيَةُ هي (المحرِّماتِ).

ولِدالِ (الفراقِ، والبينِ) نَصيبٌ من تَشكِيلاتِ الجِناسِ الثَّامَّ المُماتِلِ، وَمِنْ مَشاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ ناصيفِ اليازجِيِّ: "فهيها تِ أَنْ تَبْرَحَ مِنْ بَيْنِنَا قَبْلَ بَيْنِنَا"⁽³⁾. فَكَلِمَةُ (بَيْنِنَا) الأُولَى ظَرْفِيَّةٌ، والثَّانِيَةُ بِمَعْنَى (الفراقِ).

وذاتُ الجِناسِ حَمَلتُهُ مَقاماتُ مُحَمَّدِ المُبارَكِ فِي قَوْلِهِ: "ثمَّ أَدخَلَ يُزِيلُ عنهما ما أَضَرَ بهما مِنَ الجِفا والبينِ، وَيوقِعُ بينهما أنواعَ الألفَةِ، ويصلِحُ ذاتَ البينِ"⁽⁴⁾. فَكَلِمَةُ البينِ الأُولَى بِمَعْنَى: (الفراقِ)، أما الثَّانِيَةُ فهي بِمَعْنَى: (ما بينَ القومِ مِنَ القِرابَةِ، والصِّلَةِ). قالَ العباسُ بن الأحنفِ:

أَرى البينَ يَشْكُوهُ الأَحِبَّةُ كُلُّهُم
فيا رَبِّ قَرِّبْ دارَ كُلِّ حَبِيبٍ⁽⁵⁾

وَمِنَ الجِناسِ المُماتِلِ فِي النُّصُوصِ المَقامِيَّةِ قَوْلُ أَحْمَدَ فارِسِ الشَّدِيقِ فِي (السَّاقِ عَلَى السَّاقِ): "فكانَ يَخطُرُ ببالي كُلُّ مُمكنٍ ومُحالٍ، ويعاودني ما كُنْتُ فَكَّرْتُ فِيهِ مِنَ الأحوالِ، مَرَّةً مُنْذُ أحوالٍ"⁽⁶⁾. فقد طالَعنا جِناساً تامَّ مُماتِلٍ فِي كَلِمَةِ (أحوالِ)، الأُولَى بِمَعْنَى (حالِ)، والثَّانِيَةُ جَمْعُ حَوْلِ، وهو (السَّنَةُ).

ويُشاركُ أَحْمَدَ فارِسَ الشَّدِيقِ أَقرانُهُ مُحَمَّدُ المُبارَكِ، وشَهابُ الدِّينِ الحَفاجِي فِي إِضفاءِ المُنتَعَةِ عَلَى المُتَلَفِّينِ، وإِبهارِهِم بِروائِعِ الجِناساتِ، فَقَدِ التقى هَولاءِ جَميعاً فِي جِناسٍ تامٍّ مُماتِلٍ

(1) اليازجِي، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقامَةُ الحمويَّةُ)، (ص356).

(2) اليازجِي، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقامَةُ الاسكندريَّةُ)، (ص399، ص400).

(3) اليازجِي، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقامَةُ المكيَّةُ)، (ص419).

(4) الطَّيَّانِ، المُفاحِزاتِ والمُناظِراتِ (أبْهَى مَقامَةُ فِي المُفاحِزَةِ بَيْنَ العُربَةِ والإِقامَةِ)، (ص180).

(5) ابن الأحنفِ، ديوانُ العباسِ بن الأحنفِ، (ص6).

(6) الشَّدِيقِ، السَّاقِ عَلَى السَّاقِ، (ص51).

في دال (الأسفار)، يَقُولُ الْخَفَاجِيُّ: "فَقَالَ لِي خَبِيرُ الْأَيَّامِ، الْهَجْرَةُ مِنْ سُنَنِ الْكِرَامِ، كَمَا قَرَّ مُوسَى حِينَ هَمَّ بِهِ الْقَيْطُ، وَقَدْ كُنْتُ قَرَأْتُ فِي بَعْضِ الْأَسْفَارِ، إِذَا أَرَادَ اللَّهُ سِعَةَ رِزْقِ عِبْدِ حَبِّبَ لَهُ الْأَسْفَارَ" (1).

ومثله قَوْلُ مُحَمَّدِ الْمُبَارَكِ: "وَقَدْ امْتَلَأْتُ بَطُونَ الْكُنْبِ وَالْأَسْفَارِ، بِذِمِّ السُّكُونِ إِلَى الْإِقَامَةِ وَمَدْحِ التَّغْرِبِ وَالْأَسْفَارِ" (2). وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَحْمَدَ فَارِسِ الشَّدِّيَاقِ: "فَقُلْتُ إِنْ كَانَ مَرْجِعُهُ إِلَى الْعَقْلِ فَقَدْ كَلَفْتُمُونِي إِذَا، وَشَطَطْتُمْ فِي انْتِظَامِي مَعَكُمْ جَدًّا، إِذْ لَسْتُ بِصَاحِبِ أَسْفَارٍ، بَلْ حَلِيفُ تَطَوُّفٍ وَأَسْفَارٍ، وَإِنْ كَانَ إِلَى الطَّبَعِ، فَإِنَّهُ بِي لَطَبْعًا سَلِيمًا، وَحُلُقًا قَوِيمًا" (3). فَقَدْ طَالَعْنَا الْفَرَسَانَ الثَّلَاثَةَ فِي أَقْوَالِهِمْ بَجِنَاسٍ تَامٍّ مِمَّا نَلِّ فِي دَالِ (الْأَسْفَارِ) الْأُولَى مِنْهَا بِمَعْنَى: (الْكُنْبِ)، وَأَسْفَارِ الثَّانِيَةِ بِمَعْنَى: (الرَّحَلَاتِ وَالسَّفَرِ). قَالَ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الَّذِينَ يُحْمَلُونَ بِحِمْلِ غَيْرِهِمْ أَفَرَأَيْتُمْ أَصْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]. حَيْثُ جَمَعَ ثَلَاثَتَهُمُ التَّائِرُ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَالِاقْتِبَاسُ مِنْ نُصُوصِهِ.

وَيَنْتَقِي شِهَابُ الدِّينِ الْخَفَاجِيُّ مِنَ الْجِنَاسِ مَا يَزِينُ مَقَامَاتِهِ، وَكَأَنِّي بِهِ يَخْطُ بِأَنَامِلِهِ أَجْمَلَ الْخَطُوطِ، يَقُولُ: "ذَا رَّ يَسَافِرُ بِهَا النَّظْرُ، وَيَتَسَابَقُ فِي مَحَاسِنِهَا السَّمْعُ وَالْبَصْرُ، دَاخِلُهَا بِهِوٌّ وَقُصُورٌ، وَسِرَادِقٌ لَا يَعْرِفُ كَمَالَهُ الْقُصُورُ" (4).

وَيُشَارِكُهُ بِهَاءِ الدِّينِ الْبَيْطَارِ فِي ذَاتِ الْجِنَاسِ، يَقُولُ: "وَمَعَ هَذَا فَلَيْتَنِي لَزِمْتُ حَدِّي مِنْ الضَّعْفِ وَالْقُصُورِ، وَلَمْ أَتَسَوَّفْ بِجَدِّي لِارْتِقَاءِ هَاتِيكَ الْقُصُورِ" (5). حَيْثُ وَقَعَ الْجِنَاسُ فِي (الْقُصُورِ)، أَمَّا الْأُولَى فَهِيَ بِمَعْنَى: (الْعَيْبِ، أَوْ النَّقْصِ)، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَهِيَ بِمَعْنَى: (جَمْعُ قَصْرِ، وَهُوَ الْبَيْتُ الْفَخْمُ الْوَاسِعُ). قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَكَأَنَّ مِنَ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَمِىْ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرُ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]. وَمِنْهُ فِي النَّظْمِ قَوْلُ مَيْسُونَ بِنْتِ بَحْدَلِ:

لَبَيْتٌ تَخْفُقُ الْأَزْيَاحُ فِيهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرِ مَنِيْفٍ (6)

(1) الْخَفَاجِيُّ، رِيْحَانَةُ الْأَلْبَابِ (مَقَامَةُ الْغُرْبَةِ)، (ص 382).

(2) الطَّبَّانِ، الْمُفَاحِرَاتِ وَالْمُنَاطِرَاتِ (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِي الْمَفَاحِرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص 153).

(3) الشَّدِّيَاقِ، السَّاقِ عَلَى السَّاقِ، (ص 131).

(4) الْخَفَاجِيُّ، رِيْحَانَةُ الْأَلْبَابِ (مَقَامَةُ الْغُرْبَةِ)، (ص 383).

(5) الطَّبَّانِ، الْمُفَاحِرَاتِ وَالْمُنَاطِرَاتِ (مِنَاطِرَةُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ)، (ص 77).

(6) يُنْظَرُ، الْحَمَوِيُّ، خَزَانَةُ الْأَدَبِ، (ج 258/3).

إِنَّ الْقَارِيَّ يَقِفُ أَمَامَ لَوْحَةٍ اخْتَارَ فِيهَا الْأَدَبَاءُ مِنَ الْأَشْكَالِ أَرْوَاعَهَا، وَمِنَ الْأَلْوَانِ أَجْمَلَهَا
لرسم الجناسات، يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِي: "وَانْحَلَّتْ إِدَارَتُهُ، فَمَالَ عَلَى الْمَالِ الْمَوْجُودِ فِي خَزِينَةِ
النُّقُودِ فَبَسَطَ الرِّاحَ لِلانْبِسَاطِ وَالرَّاحَ"⁽¹⁾. فالرَّاحُ الْأُولَى بِمَعْنَى: (بطون الكُفُوف)، والرَّاحُ الثَّانِيَةُ
بِمَعْنَى: (الازْتِيَاح).

والجناسُ يكسبُ الْكَلَامَ مُوسِيقًا عَذْبَةً تَطْرُبُ لَهَا الْأَذَانُ، وَتَتَلَدَّدُ بِهَا النُّفُوسُ، فَيَذْهَبُ
بِالْمُتَلَقِّي بَعِيدًا عَنِ السَّامَةِ وَالْمَلَلِ، وَهَذَا مَا حَمَلَهُ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ فِكْرِي: "وَأَخَذَ الذَّخَائِرَ بِيْبِعُ
وَيَضِيعُ، وَيَصْرَفُ، وَيَتَلَفُ، وَيَلْحَقُ دَنِيَّهَا بِفَاخِرِهَا، حَتَّى أَتَى عَلَى آخِرِهَا، ثُمَّ انْتَهَى عَلَى الْعَقَارِ،
بِيبِعُهُ عَلَى الْعَقَارِ"⁽²⁾. الْعَقَارُ الْأُولَى (كُلُّ مُلْكٍ ثَابِتٍ لَهُ أَصْلٌ، كَالْأَرْضِ، وَالضِّيَاعِ، وَالنَّخْلِ)،
الْعَقَارُ الثَّانِيَةُ بِمَعْنَى: (المتاع)، وَمِنْهُ الْقَوْلُ: "فِي الدَّارِ عَقَارٌ: أَي مَتَاعٌ وَأَدَاةٌ"⁽³⁾.

ويشاركُ مُحَمَّدُ الْوُرْعِيُّ أُنْدَادَهُ فِي تَقْدِيمِ مَشَاهِدِ عَذْبَةِ الْجِنَاسِ، يَقُولُ: "فَغَيَّرُ بَدِيعِ أَنْ
تَسْبِقَ الْبَدِيعُ، وَلَا يَبْعِيدُ أَنْ تَكُونَ رَبُّ الطَّلَعِ السَّعِيدِ"⁽⁴⁾. فَلَفْظَةُ الْبَدِيعِ الْأُولَى بِمَعْنَى: (المُدْهَشِ)،
وَالْبَدِيعُ الثَّانِيَةُ بِمَعْنَى: (بَدِيعِ الزَّمَانِ الْهَمْدَانِيِّ).

أَمَّا فِرْسَانُ (الْمُنَاطَرَاتِ وَالْمُفَاخَرَاتِ) فَفَدَّ افْتَتَنُوا بِالْجِنَاسِ كغَيْرِهِمْ مِنْ كُتَابِ الْمَقَامَةِ، حَيْثُ
تَنَافَسَ هَوْلَاءٌ فِي هَذَا الْمِضْمَارِ، فَأَبْدَعُوا وَأَمْتَعُوا، وَخَطُّوا ففَاقُوا، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ بَهَاءِ الدِّينِ
الْبَيْطَارِ: "فَلَمَّا مَرَحْتُ فِي مَغَانِيهَا، وَانْتَشَرْتُ بِمَعَانِيهَا، جَلْتُ بِأَعْلَى مَجَالِي، فِي وَجْهِ تِلْكَ
الْمَجَالِي، فَرَأَيْتُ فِي مَرَايَا الْعَجَائِبِ، وَمَزَايَا الْغَرَائِبِ"⁽⁵⁾. وَقَدْ ظَهَرَ الْجِنَاسُ النَّامُ فِي كَلِمَةِ
(مَجَالِي)، فَالْأُولَى بِمَعْنَى: (الشُّعُورِ)، وَالثَّانِيَةُ بِمَعْنَى: (الحيز، أو النُّطَاق، أو المِيدَانِ).

ثُمَّ يَنْتَقِلُ بَهَاءُ الدِّينِ الْبَيْطَارُ إِلَى مَشَاهِدِ الطَّبِيعَةِ لِتَشْكِيلِ لَوْحَةٍ مِنْ لَوْحَاتِ الْجِنَاسِ،
يَقُولُ: "أَيُّهَا اللَّافِحَةُ بِنَارِ الْهَاجِرَةِ، لِأَنْتِ التَّارِكَةُ لِلانْبِصَافِ وَالْهَاجِرَةِ، وَتَزْدِرِينِي بِسُوءِ الْكَافِ،
أَوْ مَا دَرَيْتُ أَنَّهُ مِنْ دَوَاعِي الْحُبِّ وَالْكَافِ"⁽⁶⁾. فَالْجِنَاسُ فِي قَوْلِ الْأَدِيبِ وَقَعَ فِي كَلِمَةِ (الْهَاجِرَةِ)،
الْأُولَى بِمَعْنَى: (الجير، وَشِدَّةُ الْحَرِّ)، وَالثَّانِيَةُ بِمَعْنَى: (الكلمة فيها الفحش)، أَمَّا الْكَافُ فَلَهَا
مَعْنِيَانِ، الْأُولَى بِمَعْنَى: (نَمَشٌ يعلو الوجه كَالسَّمْسِمِ)، وَالثَّانِي بِمَعْنَى: (الولوع بالشَّيْءِ).

(1) فكري، الآثار الفكرية (المقامة الفكرية)، (ص292).

(2) فكري، الآثار الفكرية (مقامة في حسن الوفاء)، (ص303).

(3) الجوهري، الصحاح، (ج2/754)، مادة (عقر).

(4) الورغي، مقامات الورغي ورسائله (المقامة الختانية)، (ص51).

(5) الطيَّان، المُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (المُفَاخَرَةُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ)، (ص55).

(6) المرجع السابق، ص64.

أما مُحَمَّدُ الْمُبَارَكِ فَدَهَبَ يَعْرِفُ أَعْدَبَ الْأَلْحَانَ عَلَى أوتارِ الْجِنَاسِ الْمُمَاتِلِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُهُ: "وقدمني في الذِّكْرِ، في مُحْكَمِ الذِّكْرِ"⁽¹⁾. والجِنَاسُ التَّامُّ تَمَثُّلٌ فِي كَلِمَةِ (الذِّكْرِ)، أَمَّا الْأُولَى فِيهِ بِمَعْنَى: الإِعْلَانِ عَنِ الْاسْمِ (الْأَسْمَاءِ)، وَالثَّانِيَةَ بِمَعْنَى: (الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ).

وَيُبَدِّعُ مُحَمَّدُ الْمُبَارَكِ فِي التَّلَاعُبِ بِالْأَلْفَافِ، وَالرَّسْمِ بِالْكَلِمَاتِ لِتَقْدِيمِ الْجِنَاسِ فِي مَشَاهِدِ مُتَنَوِّعَةٍ تَحْمَلُ فِي تَنَائِيهَا مَقْدَرَةً فَائِقَةً، وَامْتِلَاقًا دَقِيقًا لَزِمَامِ اللَّعَةِ، يَقُولُ: "تَهَبُ فِي الْأَدْوَاكِ مِنْهُ الْأَرْوَاحُ، فَتَحْيِي الْأَشْبَاحَ، وَتَتَعَشُّ الْأَرْوَاحُ"⁽²⁾. وَالْجِنَاسُ التَّامُّ وَقَعَ فِي (الْأَرْوَاحِ)، الْأُولَى بِمَعْنَى: (الرَّوَاكِحِ)، وَالثَّانِيَةَ: (جَمْعِ رُوحٍ، كَالْإِنْسَانِ، وَالْحَيَوَانِ).

يُوَاصِلُ مُحَمَّدُ الْمُبَارَكِ إِبْدَاعَاتِهِ الْبَاهِرَةَ فِي حُقُولِ الْجِنَاسِ، فَيَقُولُ: "وَإِنَّمَا أَنَا ذَاتُ وَلَدٍ وَبَنِينَ، لَمْ أزلْ أَعَانِي بِهِمْ كُلِّ وَوَلِهِ وَحْنِينَ. فَإِنْ عَامَلْتِهِمْ بِالْجَمِيلِ، قَابِلَتِكَ بِالْبِشَاشَةِ وَالْوَجْهِ الْجَمِيلِ"⁽³⁾. فَكَلِمَةُ الْجَمِيلِ الْأُولَى بِمَعْنَى: (المَعْرُوفِ، أَوْ الْإِحْسَانِ)، أَمَّا الثَّانِيَةَ فِيهِ بِمَعْنَى: (الْجَمَالِ، أَوْ الْحُسْنِ).

وَيَتَنَقَّلُ مُحَمَّدُ الْمُبَارَكِ بَيْنَ حَدَائِقِ الْجِنَاسِ، وَيَقْطِفُ مِنْ أَزْهَارِهِ، فَيُشَكِّلُ بَاقَةَ مُتَنَوِّعَةٍ، يَقُولُ: "فَفَتَحَ بَابَ الْمُنَاقَشَةِ فِي هَذَا الْفَصْلِ، وَعَقَدَ أَسْبَابَ الْمُنَاقَشَةِ بِقَوْلِهِ الْفَصْلُ"⁽⁴⁾. فَكَلِمَةُ الْفَصْلِ الْأُولَى بِمَعْنَى: (أَحَدُ أَجْزَاءِ الْكِتَابِ مِمَّا يَنْدَرُجُ تَحْتَ الْبَابِ)، وَالْفَصْلُ الثَّانِيَةَ بِمَعْنَى: (الْقَاطِعِ)، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ [الطَّارِقُ: 13].

وَيَقُولُ أَيْضًا: "فَمَاتِرِي مَأْتُورَةٌ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ، وَمَقَاخِرِي مَنْشُورَةٌ فِي الْكِتَابِ وَالْحَدِيثِ"⁽⁵⁾. الْحَدِيثُ الْأُولَى: (عَكْسُ الْقَدِيمِ)، وَالثَّانِيَةَ: (السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ).

وَيَتَلَمَّسُ مُحَمَّدُ الْمُبَارَكِ نَسَائِمَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي رَسْمِ لُوحَاتِ الْجِنَاسِ، يَقُولُ: "وَأَمَّا حَبْرُ الْإِسْرَاءِ فَعَنِّي رُوْنَةُ الْأُمَّةِ، ثُمَّ بَلَغَهُ الشَّاهِدُ لِلْغَائِبِ بَعْدَ أُمَّةٍ"⁽⁶⁾. الْأُمَّةُ الْأُولَى بِمَعْنَى: (الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ)، وَالثَّانِيَةَ بِمَعْنَى: (الْحِينُ مِنَ الدَّهْرِ)، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ أَخْرْنَا عَنْهُمْ الْعَدَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ [هُود: 8].

(1) الطَّيَّانِ، الْمُفَاخِرَاتِ وَالْمُنَاطِرَاتِ (غَرِيبُ الْأَنْبَاءِ فِي مُنَاطِرَةِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ)، (ص 88).

(2) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 101.

(3) الْمَرْجِعُ نَفْسِهِ، ص 107.

(4) الطَّيَّانِ، مُحَمَّدٌ، الْمُفَاخِرَاتِ وَالْمُنَاطِرَاتِ (نُضْرَةُ الْبَهَارِ فِي مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)، (ص 125).

(5) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 129.

(6) الْمَرْجِعُ نَفْسِهِ، ص 129.

ولا تتوقف إبداعات مُحَمَّدَ الْمُبَارَكِ عِنْدَ حَدٍّ، بَلْ يواصلُ إِتحافَ مُعجِبِيهِ بِمزيدٍ مِنَ الْجِناساتِ، يَقُولُ: "وتتجلى بنات الأفكار، وتجتلي البنات الأبخار، وتمتد من أصناف الإحسان موائد، وتميد من أطاف الحسان موائد"⁽¹⁾. فكلمة الموائد الأولى هي (موائد الطعام)، أما موائد الثانية (جمع مائدة، وهي اسم فاعل من ماد يميد)، وبين الكلمتين جناس تام لا يخفى. ومثل الأولى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [المائدة: 114].

وأحسن مُحَمَّدَ الْمُبَارَكِ الاختيارَ لَمَّا جَمَعَ بَيْنَ مَشْهَدَيْنِ متقابلين بارعين، أولهما في الأرض، وثانيهما في السماء، مُستلهمًا صورةَ المَشْهَدِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، يَقُولُ: "أين سوادك من بياضي، وما زهر نجومك إن تلاً زهر رياضي؟! وكَمْ أطلعتُ بدوراً في مواكب السَّيَّارَةِ، فأضحتُ تزهو بجمالها على الكواكب السَّيَّارَةِ"⁽²⁾. السَّيَّارَةُ الْأَوَّلَى بِمَعْنَى: (القافلة)، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَى هَذَا عُلْمٌ ﴾ [يوسف: 19]، أَمَّا الثَّانِيَةُ فَهِيَ بِمَعْنَى: (كواكب سابعة في مدارها).

ولا يغادر مُحَمَّدَ الْمُبَارَكِ صفحاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ النقيّة، ولا يفارقُ آياته المباركة، بَلْ واصلَ التعلُّقَ بِمعانيه في تشكيل لوحاتِ الجِناسِ، يَقُولُ: "قدغ عنك القيل والقال، وارض بالحق غير كاره ولا قال"⁽³⁾. القال الأولى بِمَعْنَى: (القول)، والثانية بِمَعْنَى: (المبغض)، من قلى يقلى إذا أبغض، قال تعالى: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ [الضحى: 3].

ويجمع مُحَمَّدَ الْمُبَارَكِ بَيْنَ جناسين مُماثلين في قوله: "فأنا الموصوفُ بالسُّتْرِ الْجَمِيلِ، والمعروفُ بشكرِ المعروفِ، والجَمِيلِ"⁽⁴⁾. فكلمة الجَمِيلِ الْأَوَّلَى بِمَعْنَى: (الحسن)، والثانية بِمَعْنَى: (المعروف). وهناك جناس تام آخر في كلمة (المعروف)، أَمَّا الْأَوَّلَى فَهِيَ بِمَعْنَى: (المشهور)، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَهِيَ بِمَعْنَى: (الجَمِيلِ).

ويُقلِّبُ مُحَمَّدَ الدَّيْسِيَّ صفحاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ لينقل أخبار الساعة عن طريقِ الجِناسِ التامِّ المُماثلِ، يَقُولُ: "وأنا نزلتُ إلى الأرضِ في هذه الساعة، وعلى أبنائي تقوم الساعة"⁽⁵⁾.

(1) الطَّيَّان، المُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (نُضْرَةُ الْبَهَارِ فِي مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)، (ص 135).

(2) المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 139.

(3) الطَّيَّان، المُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِي الْمُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص 158).

(4) الطَّيَّان، المُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (نُضْرَةُ الْبَهَارِ فِي مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)، (ص 142).

(5) الطَّيَّان، المُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (مناظرة بين العلم والجهل)، (ص 204).

فَكَلِمَةُ السَّاعَةِ الْأُولَى بِمَعْنَى: (جزءٌ من أربعةٍ وعشرين جزءاً من اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)، وَالسَّاعَةُ الثَّانِيَةُ بِمَعْنَى: (يوم القيامة، أو الوقت الذي تقوم فيه). قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الرُّوم: ٥٥].

وَيَتَنَقَّلُ بِهِاءُ الدَّيْنِ الْبَيْطَارِ بَيْنَ الْبُودِي وَالْحَوَاضِرِ، فَيَرَسِمُ جِنَاساً مُمَاطِلاً زَادَ مِنْ جَمَالِهِ قِيَامُ الْجُمْلَةِ عَلَى الْمُتَنَاقِضَاتِ الَّتِي تَزِيدُ الْمَعْنَى جَلَاءً وَوَضُوحاً، يَقُولُ: "فَلَذَا جَمَالِي بَادٍ، لِكُلِّ حَاضِرٍ وَبَادٍ"^(١). كَلِمَةُ بَادٍ الْأُولَى بِمَعْنَى: (الظَّاهِرُ، أَوِ الْوَاضِحُ)، وَالثَّانِيَةُ بِمَعْنَى: (المقيم في البادية). فَمَجِيئُ الْجِنَاسِ صُحْبَةَ الطَّبَاقِ زَادَ الْمَشْهَدَ رُوعَةً وَبَهَاءً.

الْجِنَاسُ التَّامُّ الْمُسْتَوْفِي

لَمْ يَكْتَفِ الْأُدْبَاءُ الْعُثْمَانِيُّونَ بِالْجِنَاسِ التَّامِّ الْمُمَاطِلِ فَقَطْ، بَلِ انْطَلَقُوا بِقَدْمُونَ مَشَاهِدَ أُخْرَى مِنَ الْجِنَاسِ الْمُسْتَوْفِي دُونَ تَكْلُفٍ أَوْ تَصْنُوعٍ، حَيْثُ وَظَّفَ هَؤُلَاءِ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْجِنَاسِ فِي إِضْفَاءِ الْمُنْعَةِ عَلَى نُصُوصِهِمِ الْمَقَامِيَّةِ. وَيَكُونُ الْجِنَاسُ مُسْتَوْفِياً إِذَا وَقَعَ بَيْنَ نَوْعَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ كَاسِمٍ، وَفَعْلٍ"^(٢)، وَيَسْمِيهِ ابْنُ أَبِي الْأَصْبَعِ الْمِصْرِيَّ، جِنَاسَ التَّغَايُرِ، وَهُوَ "أَنْ تَكُونَ إِحْدَى الْكَلِمَتَيْنِ اسْمًا، وَالْأُخْرَى فِعْلاً"^(٣) وَمِنْ شَوَاهِدِهِ: "وَانْحَلَّتْ إِدَارَتُهُ فَمَالَ عَلَى الْمَالِ الْمَوْجُودِ فِي خَزِينَةِ النُّقُودِ، فَبَسَطَ الرَّاحَ لِلانْبِسَاطِ وَالرَّاحَ"^(٤). فَكَلِمَةُ (مَالٍ) الْأُولَى هِيَ فِعْلٌ مَاضٍ بِمَعْنَى: (الميل)، وَالثَّانِيَةُ اسْمٌ بِمَعْنَى: (النُّقُودِ). قَالَ سُبْحَانَهِ وَتَعَالَى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

ويزاوجُ مُحَمَّدَ الْمُبَارَكِ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ فِي تَشْكِيلِ الْجِنَاسِ الْمُسْتَوْفِي مُتَنَقِّلاً بَيْنَهُمَا بِرَشَاقَةٍ أُنَيْقَةٍ، يَقُولُ: "أَمَا عَرَفْتِ أَنَّ الْوَطْنَ دَارٌ، بِهَا فَلَكَ السُّعُودِ قَدْ دَارَ"^(٥). فَكَلِمَةُ (دَارٌ) الْأُولَى اسْمٌ بِمَعْنَى: (المحلّ أو المنزل)، وَكَلِمَةُ (دَارَ) الثَّانِيَةُ فِعْلٌ مَاضٍ بِمَعْنَى: (طاف حول الشيء). يَقُولُ الْأَحْوَصُ:

أَدُورُ وَلَوْلَا أَنْ أَرَى أُمَّ جَعْفَرٍ
بِأَبْيَاتِكُمْ مَا دُرْتُ حَيْثُ أَدُورُ^(٦)

(١) البيطار، المُفَاخِرَاتِ وَالْمُنَاطِرَاتِ (مناظرة بين الشمس والقمر)، (ص 61).

(٢) الْقُرُونِيُّ، الْإِيضَاحُ، (ص 536).

(٣) الْمِصْرِيُّ، تَحْرِيرُ التَّحْبِيرِ، (ص 104).

(٤) فَكْرِي، الْآثَارُ الْفِكْرِيَّةُ (لِمَقَامَةِ الْفِكْرِيَّةِ)، (ص 292).

(٥) الطَّبَّانُ، الْمَفَاخِرَاتِ وَالْمُنَاطِرَاتِ (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِي الْمَفَاخِرَةِ بَيْنَ الْعُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص 171).

(٦) الْأَحْوَصُ، شَعْرُ الْأَحْوَصِ الْأَنْصَارِيِّ، (ص 160).

وَلَمْ يَبْتَعِدْ نَاصِيفَ الْيَازِجِيِّ عَنِ أَقْرَانِهِ، فَقَدْ تَرَيْنَتْ مَقَامَاتُهُ بِالْجِنَاسِ بِأَنْوَاعِهِ كَافَّةً، يَقُولُ:
 "ثُمَّ أَخَذَ فِي الْأَجِيحِ وَالضَّحِيحِ، وَجَعَلَ يَرَاوِحُ بَيْنَ النَّحِيبِ وَالنَّشِيحِ، حَتَّى أَبْكَى مَنْ حَضَرَ، مِنْ
 الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ"⁽¹⁾. فَكَلِمَةُ (حَضَرَ) الْأُولَى فَعْلٌ مَاضٍ بِمَعْنَى: (قَدِمَ)، وَالثَّانِيَةُ اسْمٌ وَهِيَ (عَكْسُ
 الْبَدْوِ، أَوْ سَكَانِ الْحَضَرِ).

وَدَخَلَ ابْنُ مَيْمُونِ الْجَزَائِرِيِّ هَذَا الْمِيدَانَ، يَقُولُ فِي (التُّحْفَةِ الْمَرْضِيَّةِ): "الَّذِي حَازَ
 الْخِصَالَ فِي حَلْبَةِ السَّبْقِ، وَتَجَارَى مَعَهُ قِضَاةً فَسَلَّمُوا لَهُ أَنَّهُ سَبَقَ"⁽²⁾. فَكَلِمَةُ (سَبَقَ) الْأُولَى اسْمٌ
 بِمَعْنَى (النَّقْدَمِ، وَالْفَوْزِ)، وَالثَّانِيَةُ فَعْلٌ بِمَعْنَى: (تَقَدَّمَ، وَتَفَوَّقَ). مَعَ مَا حَمَلَهُ هَذَا الْجِنَاسُ مِنْ
 جَمَالِ الْمَوْسِيقَا، وَحَسَنِ الْإِنْتِقَاءِ.

وَالْجِنَاسُ التَّامُّ "مِمَّا لَا يَتَّفِقُ لِلْبَلِيغِ إِلَّا عَلَى نُدُورٍ، وَقَلَّةٍ، فَهُوَ لَا يَقَعُ فِي مَوْقِعِهِ مِنْ
 الْحَسَنِ حَتَّى يَكُونَ الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي اسْتَدْعَاهُ وَسَاقَهُ، وَحَتَّى تَكُونَ كَلِمَتُهُ مِمَّا لَا يَبْتَغِي الْأَدِيبُ
 مِنْهَا بَدَلًا، وَلَا يَجِدُ عَنْهَا جَوْلًا"⁽³⁾.

2- الْجِنَاسُ غَيْرُ التَّامِّ

اِقْتَحَمَ أَدْبَاءُ الْمَقَامَةِ عَوَالِمَ الْجَمَالِ عَبْرَ بَوَابَةِ الْجِنَاسِ النَّاقِصِ الَّذِي تَعَدَّدَتْ أَضْرِبُهُ بِشَكْلِ
 وَاسِعٍ، حَيْثُ تَوَشَّحَتْ نُصُوصُهُمُ الْمَقَامِيَّةَ بِنَمَاذِجٍ رَائِعَةٍ مِنْهُ، فَقَدْ وَظَّفَ هَؤُلَاءِ الْجِنَاسَ النَّاقِصَ
 فِي إِكْسَابِ أَعْمَالِهِمْ مَزِيدًا مِنَ الْقَبُولِ عَنِ طَرِيقِ الْمَوْسِيقَا الَّتِي يَحْدِثُهَا، وَالْإِيقَاعِ الَّذِي يَعْرِفُهُ،
 فَيَبْتَعِدُ السَّامِعَ عَنِ الضَّجْرِ، وَيَتَجَنَّبُ السَّامَةَ، وَالْمَلَّلَ صُحْبَةَ التَّشْكِيلَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ.

وَالْجِنَاسُ النَّاقِصُ فِي عُرْفِ الْعُلَمَاءِ هُوَ "مَا اخْتَلَفَ فِيهِ اللَّفْظَانِ فِي أَعْدَادِ الْحُرُوفِ
 فَقَطْ"⁽⁴⁾. وَنَحْوَ ذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالنَّفْتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٣٩﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾
 [القيامة: ٢٩، ٣٠]. فَالْجِنَاسُ فِي الشَّاهِدِ السَّابِقِ جَرَى فِي اسْمَيْنِ اخْتَلَفَا فِي عَدَدِ الْحُرُوفِ، وَهُمَا:
 (السَّاقُ، وَالْمَسَاقُ).

وَتَتَوَعَّضُ أَضْرِبُ الْجِنَاسِ النَّاقِصِ فِي النُّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ الَّتِي عَدَّتْ وَكَانَتْهَا عُقُودُ الدُّرِّ
 الْمَنْظُومِ، وَمِنْ أَضْرِبِهِ:

(1) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْفُؤْسيَّةُ)، (ص 421، ص 422).

(2) الْجَزَائِرِيُّ، التُّحْفَةُ الْمَرْضِيَّةُ، (ص 148).

(3) الْهَاشِمِيُّ، جَوَاهِرُ الْبَلَاغَةِ، (ص 289).

(4) الْقُرُونِيُّ، الْإِيضَاحُ، (ص 538).

1- الجِنَاسُ اللَّاحِقُ، والمَفْصُودُ بِالْجِنَاسِ اللَّاحِقِ فِي اصْطِلَاحِ الْبَلَاغِيِّينَ: "أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ اخْتَلَفَا فِي حَرْفَيْنِ غَيْرِ مُتْقَابِلَيْنِ"⁽¹⁾، وَنَحْوَ ذَلِكَ "هُمَزَةٌ وَ لَمَزَةٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الْهُمَزَةُ: 1].

ويظهرُ الجِنَاسُ اللَّاحِقُ فِي مَوَاضِعَ لَيْسَتْ بِالْقَلِيلَةِ فِي النُّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ قَوْلُ نَاصِيْفِ الْيَازِجِيِّ: "ثُمَّ أَخَذَ فِي الْأَجِيحِ وَالضَّجِيحِ، وَجَعَلَ يَرُوحَ بَيْنَ النَّحِيبِ وَالنَّشِيحِ، حَتَّى أَبْكَى مَنْ حَضَرَ، مِنْ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ، فَأَخَذَ الْقَوْمُ فِي تَسْكِينِ ارْتِعَاشِهِ، وَتَمَكِينِ ارْتِعَاشِهِ، حَتَّى خَمَدَتْ لَوْعَتُهُ، وَهَمَدَتْ رَوْعَتُهُ... قَالَ إِنِّي قَدْ تَجَرَّدْتُ عَنْ عَرَضِ الدُّنْيَا، إِلَى الْغَايَةِ الْقُصْبِيَّةِ"⁽²⁾. حَيْثُ جَمَعَ الْيَازِجِيُّ بِطَرِيقَةٍ أَخَاذَةً بَيْنَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ اخْتَلَفَتْ كُلُّ كَلِمَةٍ عَنْ أُخْتِهَا بِحَرْفٍ وَاحِدٍ فَقَطْ، وَهِيَ: (الْأَجِيحُ، الضَّجِيحُ)، (تَسْكِينُ، تَمَكِينُ)، (ارْتِعَاشُهُ، ارْتِعَاشُهُ)، (خَمَدَتْ، هَمَدَتْ)، وَ(لَوْعَتُهُ، رَوْعَتُهُ). وَكَأَنِّي بِالْيَازِجِيِّ يَعْرِضُ مَقْطُوعَاتٍ مُنْتَوَعَةً تَلْفُهَا مُوسِيقًا عَذْبَةً مِنْ نَوْعٍ خَاصٍّ لَا يَدْرِكُ كُنْهَهَا إِلَّا الْمَتَدَوِّقُونَ.

وَمِنْهُ أَيْضًا قَوْلُ نَاصِيْفِ الْيَازِجِيِّ فِي (الْمَقَامَةِ الْفُؤُوسِيَّةِ): "وَاجْتَرَحْتَ الْمَغَارِمَ، وَاسْتَبَحْتَ الْمَحَارِمَ"⁽³⁾. فَقَدْ اخْتَلَفَتْ (الْمَغَارِمُ، الْمَحَارِمُ) فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ فَقَطْ.

وَيُؤَاصِلُ نَاصِيْفُ الْيَازِجِيِّ رَسْمَ صُورٍ مُنْتَوَعَةٍ لِلْجِنَاسِ اللَّاحِقِ فِي نُصُوصِهِ الْمَقَامِيَّةِ، يَقُولُ فِي (الْمَقَامَةِ الْهَزْلِيَّةِ): "فَقَضِينَاهُ يَوْمًا صَفَا زُلَّالُهُ، وَعَابَ عُدَّالُهُ، إِلَى أَنْ آذَنْتِ الشَّمْسُ بِالْأَفُولِ، وَهَمَّ النَّجْمُ بِالْفُؤُولِ"⁽⁴⁾. فَكَلِمَتَا (الْأَفُولُ، وَالْفُؤُولُ) اخْتَلَفَتَا فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ فَقَطْ.

وَلَمْ يَبْتَعُدْ أَحْمَدُ فَارِسُ الشَّدِّيَاقِ عَنْ نَاصِيْفِ الْيَازِجِيِّ فِي هَذَا الْبَابِ، فَقَدْ رَسَمَ مَشْهَدًا مِنْ مَشَاهِدِ الْجِنَاسِ اللَّاحِقِ فِي كَلِمَتِي (العبر، الكبر) فِي قَوْلِهِ: "ثُمَّ انْتَفَتَ إِلَيَّ مُسْتَعْبِرًا، وَقَالَ: وَأَنْتَ فَمَا تَرَى، قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكَبْرِ، وَمَعْضَلَةٌ تَفِيضُ لَهَا الْعَبْرُ"⁽⁵⁾. حَيْثُ افْتَرَقَتِ الْكَلِمَتَانِ فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ فَقَطْ.

(1) الْقُرُونِيُّ، الْإِيضَاحُ، (ص 540). الْعُلُوِّي، الطَّرَازُ، (ص 377).

(2) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْفُؤُوسِيَّةِ)، (ص 422، ص 423).

(3) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 421. اجْتَرَحْتَ: ارْتَكَبْتَ، الْمَغَارِمُ: الْجَنَائِبَاتُ.

(4) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْفُؤُوسِيَّةِ)، (ص 422).

(5) الشَّدِّيَاقُ، السَّاقُ عَلَى السَّاقِ، (ص 132).

2- الْجِنَاسُ الْمُصَحَّفُ، وهو "ما يكونُ فيه النُّقْطُ فارقاً بَيْنَ الْكَلِمَتَيْنِ"⁽¹⁾، وَمَعْنَى ذَلِكَ مَا اِتَّفَقَ رِكَانُهُ فِي عَدَدِ الْحُرُوفِ وَتَرْتِيبِهَا، وَخْتَلَفَا فِي النُّقْطِ فَقَطَّ، بِحَيْثُ لَوْ زَالَ إِعْجَامُ أَحَدِهِمَا لَمْ يَتَمَيَّزْ عَنِ الْآخَرِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ (يَحْسُبُونَ، وَيَحْسَنُونَ) فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 104].

وَمِنْ شَوَاهِدِهِ فِي النَّظْمِ (أَعْتَرَفَ، وَأَعْتَرَفَ)، الَّذِي تَدَاوَلَتْهُ مُعْظَمُ كُتُبِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عِنْدَ الْحَدِيثِ عَنِ الْجِنَاسِ النَّاقِصِ فِي قَوْلِ أَبِي فِرَاسِ الْحَمْدَانِيِّ:

مِنْ بَحْرِ شِعْرِكَ أَعْتَرَفَ وَبِفَضْلِ عِلْمِكَ أَعْتَرَفَ⁽²⁾

فَاقَ نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ كَعَادَتِهِ الْأَدَبَاءَ فِي تَقْدِيمِ مَشَاهِدِ الْجِنَاسِ بِأَنْوَاعِهِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ هَذَا الضَّرْبِ فِي النُّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ مَا طَرَحَهُ فِي (الْمَقَامَةِ الْحَمَوِيَّةِ) مُتِمِّمًا بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ: "أَلْيَعْلَمُونَ الْيَتِيمَ الْبِكَاءِ، وَالنَّدِيمَ الْغِنَاءِ، أَمْ تَحْسَبُونَ أَنَّكُمْ تُحْسِنُونَ صُنْعًا"⁽³⁾. فَقَدْ اِخْتَلَفَتْ كَلِمَتَا (تَحْسَبُونَ، وَتَحْسَنُونَ) فِي النُّقْطِ فَقَطَّ. وَمِنْ شَوَاهِدِهِ أَيْضًا فِي نُّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ، قَوْلُهُ: "وَإِذَا حَانَ الْفَضَاءُ ضَاقَ الْفَضَاءُ"⁽⁴⁾. فَقَدْ اِخْتَلَفَتْ كَلِمَتَا (الْفَضَاءُ وَالْفَضَاءُ) فِي النُّقْطِ فَقَطَّ. وَمِنْ شَوَاهِدِهِ أَيْضًا قَوْلُهُ فِي (الْمَقَامَةِ الْأَنْبَارِيَّةِ): "ثُمَّ انْطَلَقْتُ بِي إِلَى الْخَانَ، وَأَنَا كَثَارِبِ ابْنَةِ الْخَانَ"⁽⁵⁾. فَكَلِمَتَا (الْحَانَ) وَ(الْخَانَ) اِخْتَلَفَتَا فِي النُّقْطِ فَقَطَّ.

وَلَمْ يَقِفْ نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ عِنْدَ حَدِّ فِي إِبْدَاعَاتِهِ، فَقَدْ زَيَّنَ نُّصُوصَهُ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي (الْمَقَامَةِ الْحَلِيَّةِ): "فَنظَرَ إِلَيْهِمْ نَظْرَةَ الْبَازِيِّ، وَصَالَ عَلَيْهِمْ صَوْلَةَ الْغَازِيِّ، وَقَالَ أَمَا إِنْ كَانَ قَدْ عَرَّكُمُ الْهَزَالَ، حَتَّى دَعَوْتُمْ نَزَالَ، فَلَأُرِيَنَّكُمْ لِمَحَاً بَاصِرًا، وَفَتْحًا نَاصِرًا"⁽⁶⁾. حَيْثُ اِخْتَلَفَتْ الْكَلِمَتَانِ (بَاصِرًا)، وَ(نَاصِرًا) فِي النُّقْطِ فَقَطَّ.

وَلَمْ يَبْنَعِدْ شِهَابُ الدِّينِ الْخَفَاجِيُّ عَنِ أَنْدَادِهِ كَثِيرًا، فَقَدْ سَلَكَ ذَاتَ الدَّرْبِ فِي نُّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ (الرُّبَى، وَالرُّبَى) فِي قَوْلِهِ فِي (الْمَقَامَةِ السَّاسَانِيَّةِ): "وَفُضَاةٌ بَلَّغَ سَيْلُ

(1) الْمَصْرِيُّ، تَحْرِيرُ التَّحْبِيرِ، (ص 105).

(2) الْحَمْدَانِيُّ، دِيْوَانُ أَبِي فِرَاسِ الْحَمْدَانِيِّ، (ص 216). أَعْتَرَفَ: أَخَذَ بِيَدِي.

(3) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةِ الْحَمَوِيَّةِ)، (ص 359).

(4) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةِ الْأَنْبَارِيَّةِ)، (ص 289).

(5) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةِ الْعَاصِمِيَّةِ)، (ص 114).

(6) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةِ الْحَلِيَّةِ)، (ص 321).

الظلم بهم الزُّبى، وشرقت أفواه التَّلَاعِ والرُّبى⁽¹⁾. وَ (الفضاء، والقضاء) فِي قَوْلِهِ فِي (المَقَامَةِ
المغربية): "وَلَا أْبْرُحُ فِي مَلَاعِبِ الْفُضَاءِ، كُرَّةً لَصُولِجَانِ الْقَدْرِ، وَالْقَضَاءِ"⁽²⁾.

وَأُدْبَاءِ (المُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ) حَظٌّ وَافِرٌ فِي هَذَا الْجِنَاسِ فِي رَوَائِعِهِمْ، وَلَعَلَّ طَبِيعَةَ
الغَرَضِ، وَمَا يَحْمِلُهُ مِنْ تَفَاخُرٍ، وَمِنَافَسَةٍ دَفَعَ هَؤُلَاءِ إِلَى تَوْظِيفِ الْجِنَاسِ بِكَثْرَةٍ فِي نُصُوصِهِمْ
المَقَامِيَّةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ أَحْمَدَ الْبَرْبِيرِ: "يُحِبُّ الْمُحَاسِنَةَ، وَيَكْرَهُ الْمُحَاشِنَةَ، وَيُحَاشِي
مَجْلِسَهُ مِنَ الْمُحَاشِنَةِ"⁽³⁾. حَيْثُ اخْتَلَفَتِ (المُحَاشِنَةُ)، وَ (المُحَاشِنَةُ) فِي النِّقْطِ فَقَطُّ.

وَمِنْ شَوَاهِدِهِ قَوْلُ مُحَمَّدِ الْمُبَارَكِ: "وَقَالَ لَهُ: وَيَلَاكَ لَقَدْ تَعَالَيْتَ وَتَغَالَيْتَ فِي دَعْوَاكَ، أَمَا
تَخْشَى فِي ذَلِكَ مِنْ عَالِمِ سِرِّكَ وَنَجْوَاكَ"⁽⁴⁾. فَقَدْ افْتَرَقَتْ (تَعَالَيْتَ، وَتَغَالَيْتَ) فِي النِّقْطِ فَقَطُّ،
وَصَاحِبَ هَذَا الْاِخْتِلَافِ جَرَسٌ مُوسِيقِيٌّ أَخَذَ.

يُؤَيِّظُ بِهَاءِ الدِّينِ الْبَيْطَارِ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ عَن طَرِيقِ الدَّالِّينِ (نَاضِرَةَ)، (نَاضِرَةَ) فِي
تَشْكِيلِ الْجِنَاسِ الْمُصَحَّفِ، يَقُولُ: "ثُمَّ قَالَتْ بَعْدَ أَنْ تَجَلَّتْ بِبُرُودِ السَّنَاءِ، وَتَحَلَّتْ بِعُقُودِ الْحَمْدِ
وَالثَّنَاءِ: أَنَا الْعُرُوسُ النَّاضِرَةُ، وَالْعَيْنُ النَّاضِرَةُ"⁽⁵⁾. قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا
نَاطِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القيامة: 22، 23]. كَمَا جَمَعَ كَذَلِكَ بَيْنَ (تَجَلَّتْ، وَتَحَلَّتْ) لِيَكْمَلَ مَشْهَدَ الْجَمَالِ.
وَمِنْهُ (مَعَانِيهَا، وَمَغَانِيهَا) فِي قَوْلِهِ: "قَلَمَّا أَمَعْنَ الْقَمَرُ فِي مَعَانِيهَا، وَجَالَ طَرْفُ فِكْرِهِ فِي
مَعَانِيهَا"⁽⁶⁾. وَقَدْ حَمَلَتِ الْجِنَاسَاتُ رُوعَةً أَظْهَرَتْ إِمكَانَاتِ الْأُدْبَاءِ الْهَائِلَةَ

وَيَجْمَعُ بِهَاءِ الدِّينِ الْبَيْطَارِ بَيْنَ أَكْثَرِ مَنْ جِنَاسٍ مُصَحَّفٍ فِي آنٍ وَاحِدٍ، يَقُولُ: "قَلَمَّا
مَرَحْتُ فِي مَغَانِيهَا، وَأَنْشَرْتُ بِمَعَانِيهَا، جُلْتُ بِأَعْلَى مَجَالِي، فِي وَجْهِ تِلْكَ الْمَجَالِي، فَرَأَيْتُ فِي
مَرَايَا الْعَجَائِبِ، وَمَرَايَا الْغَرَائِبِ"⁽⁷⁾. حَيْثُ جَمَعَ بَيْنَ (مَعَانِيهَا، مَغَانِيهَا)، وَ (مَرَايَا، مَرَايَا) مَعَ مَا
حَمَلَهُ هَذَا الْجَمْعُ مِنْ مُوسِيقَا عَدْبَةٍ تَطْرَبُ لِعَذُوبَتِهَا الْأَسْمَاعُ.

(1) الْخَفَاجِي، رِيحَانَةُ الْأَلْبَا وَزَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، (ص 393).

(2) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 393.

(3) الطَّيَّان، الْمُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (مَقَامَةٌ فِي الْمُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ)، (ص 39). الْمُحَاشِنَةُ: الْحَقْدُ.

(4) الطَّيَّان، الْمُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِي الْمُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص 158).

(5) الطَّيَّان، بِهَاءِ الدِّينِ، الْمُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (الْمُفَاخَرَةُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ)، (ص 57، 58).

(6) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 64.

(7) الْمَرْجِعُ نَفْسَهُ، ص 55.

وَيُبْدِعُ الْبَيْطَارُ فِي هَذَا الْبَابِ كَذَلِكَ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ (البراعة، البراعة) فِي قَوْلِهِ: "فارتقت عرش البراعة والجمال، وانتقت فرش البراعة والكمال"⁽¹⁾.

ويدورُ مُحَمَّدُ الدَّيْسِيُّ فِي فَلَكِ أَدْبَاءِ (المفاخرات والمناظرات)، وَيُقَدِّمُ أَرْوَاعَ الْجِنَاسَاتِ عَنْ طَرِيقِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْفَعْلَيْنِ (زاغ)، و(راغ) فِي دَقَّةٍ مُتْنَاهِيَةٍ، يَقُولُ: "فَكَمْ مِنْ عَالِمٍ زَاغَ فِي الْعَمَلِ وَالْعَقْدِ، وَرَاغَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ عَنْ سَبِيلِ الْقَصْدِ"⁽²⁾. ثُمَّ تَابَعَ بِالْجَمْعِ بَيْنَ اسْمَيْنِ هُمَا (الشعر، والسعر) فِي قَوْلِهِ: "وَنَظَّمُ الشَّعْرَ، كَاسَدُ السَّعْرِ"⁽³⁾. وَيُؤَاصِلُ الدَّيْسِيُّ تَقْدِيمَ فَوَاصِلِ الْإِبْدَاعِ الَّتِي رَسَمَهَا أَدْبَاءُ (المفاخرات والمناظرات)، يَقُولُ: "وَإِنَّهُ يُنَالُ بِالْهَمَمِ لَا بِالرَّمَمِ، وَلَا يُحَارُزُ بِنَشْبٍ، وَلَا يورثُ بِنَسَبٍ"⁽⁴⁾.

ويقتفي مُحَمَّدُ الوُرْغِيُّ آثَارَ سَابِقِيهِ، وَيَبْرَزُ بِرَوَائِعَ مُتَنَوِّعَةٍ مِنَ الْجِنَاسِ الْمُصَحَّفِ بِالْجَمْعِ بَيْنَ كَلِمَتَيْ (الأخبار، والأخبار)، يَقُولُ: "وَفِيمَا بَلَّغْنَا مِنَ الْأَخْبَارِ عَنِ الْأَحْبَارِ، أَنَّ ثَوْنَسَ اسْمٌ لَدَاتِ أَسْوَارٍ، لَا سِوَارٍ"⁽⁵⁾.

وَلِأَحْمَدَ فَارِسِ الشَّدْيَاقِ نَصِيبٌ مِنْ هَذَا الْجِنَاسِ، حَيْثُ جَمَعَ بَيْنَ الْفَعْلَيْنِ (نفدت، نقدت) فِي قَوْلِهِ: "ثُمَّ تَأَوَّهَ وَقَالَ: سَلَعَةٌ نَفَدْتُ، وَدَنَانِيرُ نَقَدْتُ"⁽⁶⁾.

أَمَّا شِهَابُ الدِّينِ الْخَفَاجِيُّ فَقَدْ وَظَّفَ الْجِنَاسَ الْمُصَحَّفَ (البعرة)، و(اللغزة) فِي هِجَائِهِ، يَقُولُ: "وَالْعَامَةُ يَرْمُونَ التَّاجِرَ بِالْبَعْرَةِ، وَيَشِيعُونَهُ بِاللَّغْرَةِ"⁽⁷⁾.

3- الْجِنَاسُ الْمُحَرَّفُ

طَرَقَ أَدْبَاءُ الْمَقَامَةِ كَذَلِكَ أَبْوَابَ الْجِنَاسِ الْمُحَرَّفِ، فَقَدَّمُوا فِي نُصُوصِهِمُ الْمَقَامِيَّةَ مَشَاهِدَ مُبَهَّرَةً رَوَتْ ظَمًّا الْمُتَعَطِّشِينَ لِلْجَمَالِ، الْبَاحِثِينَ عَنِ الْكَمَالِ، وَالْمُقْصُودُ بِالْجِنَاسِ الْمُحَرَّفِ، ذَلِكَ اللَّوْنُ الَّذِي يَكُونُ الضَّبْطُ فِيهِ فَارِقًا بَيْنَ الْكَلِمَتَيْنِ، أَوْ بَعْضِهِمَا"⁽⁸⁾، أَوْ "مَا اخْتَلَفَا فِي هَيْئَاتِ

(1) الطَّيَّانُ، الْمَفَاخِرَاتِ وَالْمُنَاطِرَاتِ (الْمَفَاخِرَةُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ)، (ص 57).

(2) الطَّيَّانُ، الْمَفَاخِرَاتِ وَالْمُنَاطِرَاتِ (مِنَاطِرَةُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ)، (ص 200). رَاغ: مَالٍ وَحَادٍ.

(3) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 202.

(4) الْمَرْجِعُ نَفْسِهِ، ص 192. النَّشْبُ: الْمَالُ وَالْعَقَارُ

(5) الْوُرْغِيُّ، مَقَامَاتُ الْوُرْغِيِّ وَرَسَائِلُهُ (الْمَقَامَةُ الْخَمْرِيَّةُ)، (ص 22).

(6) الشَّدْيَاقُ، السَّاقُ عَلَى السَّاقِ (مَقَامَةُ مُقَدَّةُ)، (ص 131). الْأَزْلُ: ضَيْقُ الْعَيْشِ، الْأَزْلُ: السَّرِيعُ.

(7) الْخَفَاجِيُّ، رِيحَانَةُ الْأَلْبَاءِ، (الْمَقَامَةُ السَّاسَانِيَّةُ)، (ص 396).

(8) الْمَصْرِيُّ، بَدِيعُ الْقُرْآنِ، (ص 29).

الْحُرُوفِ فَقَطُّ⁽¹⁾، وَمَعْنَى ذَلِكَ اخْتِلَافُ اللَّفْظَيْنِ فِي هَيْئَةِ الْحُرُوفِ الْحَاصِلَةِ مِنَ الْحَرَكَاتِ، وَالسَّكَنَاتِ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ ﴿٧٣﴾ [الصفات: 72 ، 73]. فالجناس وقع بين اسم الفاعل (مُنذِرِينَ)، واسم المفعول (الْمُنذِرِينَ).

وَمِنْهُ فِي النَّظْمِ قَوْلُ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجَزَائِرِيِّ:

وَالْحُسْنُ يَظْهَرُ فِي بَيْتَيْنِ رَوْنَقُهُ بَيْتٌ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ بَيْتٌ مِنَ الشَّعْرِ⁽²⁾

فالشعرُ الأوَّلُ هو النَّظْمُ، والثَّانِي هو بَيْتُ الشَّعْرِ. وَمِنْهُ (قَدَمٌ، وَقَدَمٌ) فِي قَوْلِ الْحَمْدَانِيِّ:

ثُمَّ ادَّعَاهَا بَنُو الْعَبَّاسِ إِزْثَهُمْ وَمَا لَهُمْ قَدَمٌ، فِيهَا، وَلَا قَدَمٌ⁽³⁾

وَلَمْ يَكُنْ أَدْبَاءُ الْمَقَامَةِ أَقْلَ شَأْنًا مِنْ سَابِقِيهِمْ فِي هَذَا الْبَابِ، فَقَدْ قَدَّمُوا لَوْحَاتٍ أَحَادَةً مِنْ الْجِنَاسِ الْمُحَرَّفِ، وَمِنْ رَوَائِعِهِ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ مَا ضَمَّنَهُ عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِي نُصُوصَهُ الْمَقَامِيَّةَ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ (خَبْرًا وَخُبْرًا) فِي قَوْلِهِ: "وَسَأَعْرَفَكَ هَذِهِ الْأَحْوَالَ خَبْرًا وَخُبْرًا، وَسَأُنْبِتُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا"⁽⁴⁾. وَمِنْهُ (مَرَّهَا، مَرَّهَا) فِي قَوْلِهِ: "وَقَدْ هَدَّبْتَهُ اللَّيَالِي بِمَرَّهَا، وَجَرَعْتُهُ كُؤُوسَ حُلُوهَا وَمَرَّهَا"⁽⁵⁾.

وَيَرْتَحِلُ نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ إِلَى أَرْضِ الْكِنَانَةِ لِيَشْكَلَ جِنَاسًا مُحَرَّفًا، يَقُولُ فِي (الْمَقَامَةِ

الْمِصْرِيَّةِ): "أَزْمَعَتِ الشُّخُوصُ إِلَى الْكِنَانَةِ، فِي رَكْبٍ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ"⁽⁶⁾.

فَقَدْ وَرَدَ الْجِنَاسُ الْمُحَرَّفُ فِي كَلِمَةِ (الْكِنَانَةِ)، الْأُوْلَى بِمَعْنَى (مِصْر)، أَمَّا الثَّانِيَّةُ فَهِيَ بِمَعْنَى: (قَبِيلَةٌ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ). وَفِي الْقَوْلِ الْمُتَدَاوِلِ: "مِصْرُ كِنَانَةَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، وَمَا طَلَبَهَا عَدُوٌّ إِلَّا أَهْلَكَهُ اللَّهُ". أَمَّا قَبِيلَةُ (بَنِي كِنَانَةَ) بِكَسْرِ الْكَافِ، وَفَتْحِ الثُّونِينِ، وَوَأَحَدُهُمْ (الْكِنَانِيُّ)، قَبِيلَةٌ مُصْرِيَّةٌ عِدْنَانِيَّةٌ يَنْتَمِي إِلَيْهَا النَّبِيُّ، مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَتَوَاجَدُ مَعْظَمُهَا الْيَوْمَ فِي السُّعُودِيَّةِ،

(1) الْقَزْوِينِيُّ، الْإِبْنُصَاحُ، (ص 537).

(2) الْجَزَائِرِيُّ، دِيَّوَانُ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجَزَائِرِيِّ، (ص 302).

(3) الْحَمْدَانِيُّ، دِيَّوَانُ أَبِي فِرَاسِ الْحَمْدَانِيِّ، (ص 302).

(4) فِكْرِي، الْآثَارُ الْفِكْرِيَّةُ (الْمَقَامَةُ الْفِكْرِيَّةُ)، (ص 281).

(5) فِكْرِي، الْآثَارُ الْفِكْرِيَّةُ (مَقَامَةُ فِي حَسَنِ الْوَفَاءِ)، (ص 300).

(6) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْمِصْرِيَّةُ)، (ص 319).

والأردن، والعراق، ومصر، والسودان، والأحواز، وسوريا، وبشكلٍ أقلّ في دولٍ عربيّةٍ أُخرى،
كفلسطين، وتونس، والمغرب، واليمن، وتحديدًا في تُهامَة، ووادي مور.

وَكَعَادَتِهِمْ فِي مِيَادِينِ الْجِنَاسِ بَرَعَ أَدْبَاءُ (المُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ) فِي تَوْشِيحِ مَقَامَاتِهِمْ
بِالْجِنَاسِ الْمُحَرَّفِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ (الْيَمَنُ، وَالْيَمَنُ) فِي قَوْلِ أَحْمَدَ الْبَرِّيْبِرِ: "وَكُلَّمَا تَقُلْتُ خَفْتُ
عَلَى مَنْ رَشَفَ مِنْهَا وَدَاقَ، السَّمْرَاءُ الْمَعْشُوقَةُ، الْمُقْبُولَةُ، مَشْرُوبَةٌ، وَمَرْيِيَّةٌ، وَمَنْشُوقَةٌ، بَنِي الْيَمَنِ
وَالْيَمَنِ، ذَاتِ الْجَمَالِ وَالْحُسْنِ"⁽¹⁾.

وَيُتَابِعُهُ مُحَمَّدُ الْمُبَارَكُ بِتَقْدِيمِ كَلِمَتِي (جَنَّةٌ، جَنَّةٌ) فِي قَوْلِهِ: "أَمْ كَيْفَ تَرَعُمُ أَنْتَ الْآنَ مَنْ
النَّعِيمِ فِي جَنَّةٍ، وَمَنْ شَرِرِ شُرُورِ الدُّنْيَا فِي وَقَايَةٍ، وَجَنَّةٌ"⁽²⁾. وَمِنْهُ (زَهْرًا، زَهْرًا) فِي قَوْلِ الْيَازِجِيِّ
فِي (الْمَقَامَةِ الْفُؤَسِيَّةِ): "وَلِبِثْتَ عِنْدَهُ شَهْرًا، أُجْتَبِي مِنْ رَوْضِهِ زَهْرًا، وَأُجْتَلِي مِنْ أَفْقِهِ زَهْرًا"⁽³⁾.

وَيُؤَاصِلُ مُحَمَّدُ الدِّيْسِيُّ فَوَاصِلَ الْإِبْدَاعِ الَّتِي رَسَمَهَا أَدْبَاءُ (المُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ)،
يَقُولُ: "بَنُوكُ بِهَائِمُ، وَإِنْ لَبَسُوا الْعِمَائِمَ، وَأَنْعَامُ وَإِنْ غَدُوا بِالْإِنْعَامِ، وَمَعَشَرٌ طِعَامٌ، وَإِنْ تَمَتَّعُوا
بِفَاخِرِ النَّيَابِ، وَالْوَانَ الطَّعَامِ"⁽⁴⁾. حَيْثُ جَمَعَ بَيْنَ كَلِمَتِي (أَنْعَامُ، إِنْعَامُ) فَقَدْ اخْتَلَفَتِ الْكَلِمَتَانِ فِي
الصُّبُطِ فَقَطْ.

وَمِنْهُ (الْأَزْلُ، وَالْأَزْلُ) فِي قَوْلِ أَحْمَدَ فَارِسِ الشَّدْيَاقِ: "فَقَالَ إِنْ شِئْتَ أَنْ تَصْعَدَ إِلَيَّ هُنَا
إِلَى أَنْ يَنْفِضَ زِحَامُ الْإِبْلِ، وَتَنْسَاعُ غُصَّةُ هَذَا الْأَزْلِ الْأَزْلِ"⁽⁵⁾.

4- جِنَاسُ الْاِشْتِقَاقِ، وَاصِلَ فِرْسَانُ الْمَقَامَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ اقْتِحَامَ بَوَابَاتِ الْجِنَاسِ، وَهَذِهِ الْمَرَّةُ
قَصَدُوا بَوَابَةَ جِنَاسِ الْاِشْتِقَاقِ، وَالْمَقْصُودُ بِهِ: "أَنْ يَجْمَعَ اللَّفْظَيْنِ الْاِشْتِقَاقِ، أَوْ أَنْ يَجْمَعَهُمَا
الْمِشَابَهَةَ"⁽⁶⁾. وَمِنْ شَوَاهِدِهِ (أَقَمَ، وَالْقِيَمِ) فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقِيَمِ مِنْ
قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ، مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ فِي النَّظْمِ (جَدٌّ،
وَجْدَهُم) فِي قَوْلِ أَبِي فِرَاسِ الْحَمْدَانِيِّ فِي رَائِعَتِهِ (أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ):

(1) الطَّيَّانُ، الْمُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (مَقَامَةٌ فِي الْمُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ)، (ص 43).

(2) الطَّيَّانُ، الْمُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِي الْمُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْعُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص 158).

(3) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْحَلِيَّةُ)، (ص 324). الزُّهْرُ: النُّجُومُ. الْجَوْهَرِيُّ، الصَّحَاحُ، (ج 2/674).

(4) الطَّيَّانُ، الْمُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (مِنَاطَرَةٌ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ)، (ص 190). الطَّعَامُ: أَرَادَ النَّاسَ وَأَوْغَادَهُمْ.

(5) الشَّدْيَاقُ، السَّاقُ عَلَى السَّاقِ (مَقَامَةٌ مَقْعَدَةٌ)، (ص 133). الْأَزْلُ: الضِّيْقُ.

(6) الْقُرُونِيُّ، الْإِيضَاحُ، (ص 542).

سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جَدُّهُمْ وَفِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ (1)

أَمَّا فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ فَقَدْ كَانَ لِهَذَا الضَّرْبِ حَظٌّ قَلِيلٌ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ (حسوت، حسوة) فِي قَوْلِ أَحْمَدَ فَارِسِ الشَّدِّيَاقِ: "فَقَمْتُ إِلَى الشَّرَابِ، فَحَسَوْتُ مِنْهُ حَسَوَةً" (2). وَمِنْهُ (مهاوي هواه) فِي قَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ فِكْرِيِّ: "وَمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ عَقْلِ غَرِيْبَةٍ، وَبصيرةٍ تقوده إِلَى هُدَاهِ، وَتَرُدُّهُ عَنْ مَهَاوِي هَوَاهُ" (3). وَتَفَوَّقَ فِكْرِيُّ فِي بَابِ جِنَاسِ الاِشْتِقَاقِ، حَيْثُ قَدَّمَ نَمَازَجَ مُنْتَوَعَةً تَلَامُ كُلَّ الأَدْوَاقِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ (خطب خطبة)، و(أطناب الإطناب)، و(صوب الصواب) فِي قَوْلِهِ: "وَخَطَبَ خُطْبَةً مَدَّ فِيهَا أَطْنَابَ الإِطْنَابِ، وَأَشَارَ عَلَى الْمَلِكِ بِمَا رَعَمَ أَنَّهُ الْمَوَافِقُ لَصُوبِ الصَّوَابِ" (4). وَلَعَلَّ البَرَاعَةَ هُنَا تَبْدُو فِي جَمْعِهِ ثَلَاثَةَ جِنَاسَاتِ اِشْتِقَاقٍ فِي مَسَاحَةِ لَيْسَتْ بِالْوَاسِعَةِ، وَمِنْهُ (وثب وثبة) فِي قَوْلِهِ: "وَيَدْعُو لِمَوَافِقَةِ حُبِّ الْجَاهِ، عَلَى الرَّأْيِ الَّذِي كَانَ أَبْدَتْهُ إِلَى أَنْ تَحْرَكَ الحَسْدُ، وَوَثَبَ وَثْبَةً الأَسَدِ" (5). و(أوردتني الموارد) فِي قَوْلِهِ: "فَأوردتني شَرَّ المَوَارِدِ، وَعَامَلتني بِذَلِكَ الوَضْعِ البَارِدِ" (6). و(شرر الشرور) فِي قَوْلِهِ: "أَمْ كَيْفَ تَزْعُمُ أَنَّكَ الآنَ مِنَ النِّعِيمِ فِي جَنَّةٍ، وَمِنْ شَرِّ شُرُورِ الدُّنْيَا فِي وَقَايَةِ وَجَنَّةٍ" (7).

وَأَدْرَكَ مُحَمَّدَ الوُرْغِيَّ جِنَاسَ الاِشْتِقَاقِ فِي نُصُوصِهِ المَقَامِيَّةِ، وَيَبْدُو ذَلِكَ فِي (استشرفها استشراف)، و(تأملها تأمل) فِي قَوْلِهِ: "فَاسْتَشْرَفَهَا اسْتَشْرَافَ المَطْلِّ، وَتَأَمَّلَهَا تَأَمَّلَ المُشْمَعِلِّ" (8).

وَكَعَادَتِهِ يَتَفَوَّقُ مُحَمَّدَ المُبَارَكِ فِي هَذَا اللَّوْنِ، وَيَبْدُو تَفَوُّقُهُ فِي (أعلام إعلامه) فِي قَوْلِهِ: "وَوَقَّفَ عَلَى أَقْدَامِ إِقْدَامِهِ، نَاشِرًا فِي حَوْمَةِ مِيدَانِهِ أَعْلَامَ إِعْلَامِهِ" (9).

وَيُقَدِّمُ مُحَمَّدَ المُبَارَكِ بَاقَةَ مُنْتَوَعَةً فِي مَجْمُوعَةٍ مُتَابِعَةٍ مِنْ جِنَاسِ الاِشْتِقَاقِ هِيَ (فضاء فضائلي)، و(دلاء دلائلي)، و(أطناب الإطناب) فِي قَوْلِهِ: "وَلَوْ رَمَتْ مَدَّ أَطْنَابِ الإِطْنَابِ فِي

(1) الحمداني، ديوان أبي فراس الحمداني، (ص 165).

(2) الشَّدِّيَاقِ، السَّاقُ عَلَى السَّاقِ، (ص 50).

(3) فِكْرِي، الأَثَارُ الفِكْرِيَّةُ (المَقَامَةُ الفِكْرِيَّةُ)، (ص 292).

(4) المَرْجِعُ السَّابِقِ، ص 288.

(5) المَرْجِعُ نَفْسِهِ، ص 289.

(6) فِكْرِي، الأَثَارُ الفِكْرِيَّةُ (مَقَامَةُ فِي حَسَنِ الوَفَاءِ)، (ص 390).

(7) الطَّيَّانِ، المُفَاخَرَاتِ وَالمُنَاطَرَاتِ (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِي المُفَاخَرَةِ بَيْنَ العُرْبَةِ وَالإِقَامَةِ)، (ص 158).

(8) الوُرْغِيَّ، مَقَامَاتُ الوُرْغِيَّ وَرَسَائِلُهُ (المَقَامَةُ الحَتَانِيَّةُ)، (ص 57)، المُشْمَعِلِّ: وَصَفَ مَنْ اشْمَعَلَ بِمَعْنَى ارْتَفَعَ وَأَشْرَفَ.

(9) الطَّيَّانِ، المُفَاخَرَاتِ وَالمُنَاطَرَاتِ (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِي المُفَاخَرَةِ بَيْنَ العُرْبَةِ وَالإِقَامَةِ)، (ص 165).

فضاء فضائلي، لأوردت لك في ذلك ما يشفي الغليل من دلاء دلائلي⁽¹⁾. حيث استغرق جناس الاشتقاق أكثر من نصف مساحة الفقرة.

ويأبى ابن الألويسي إلا أن يضع بصمة متفردة عنوائها (فبدت بادرة)، يقول: "وخرج أمرها من يده، فبدت منه يوماً بادرة باردة، ونقيصته يعدها الكاملون في بابها زائدة"⁽²⁾.

5- الجناس المضارع

هو أحد أنواع الجناس الناقص، والمقصود به: "أن تختلف الكلمتان بحرف مقارب في المخرج، سواء كان في الأول، أو الوسط، أو الآخر"⁽³⁾.

وتتنوع شواهد الجناس المضارع تبعاً لموقع الحروف التي وقع فيها الاختلاف، ومن شواهد ما وقع الاختلاف فيه في الحرف الأول قول ناصيف اليازجي: "وهي بكر رفيقة القوام، كأنها وزد الكمام، لها نكهة الخزام، وصفاء ماء الغمام، وبهجة بدر التمام، تقنن العقول والألباب، وتستعبد السادة والأرباب"⁽⁴⁾. فقد طالعنا بثلاث كلمات اختلفت في الحرف الأول فقط، هي (الكمام، الغمام، والتمام).

ويجمع شهاب الدين الخفاجي أكثر من جناس من هذا الضرب محققاً في سماء الإبداع، يقول: "فلما حان وقت المساء، وانسدل سجع الظلماء، حلى عن التاجر، وزد الحمار إلى المكاري ساغبا لاغباً جائعاً يكاد يسلمه الطوى إلى التوى، ويسوقه الصدا إلى الردا"⁽⁵⁾. ويظهر الجناس المضارع في (ساغبا لاغباً)، (الطوى، التوى)، و(الصدا، الردا).

ومنه (النسخ، والمسح) في قول أحمد فارس الشدياق: "فجئت الفاريق وهو مكب على النسخ، وفي طلعه مبادئ المسح"⁽⁶⁾.

ويعتلي محمد المبارك قمماً شماء في عوالم الجناس المضارع، ومن شواهد ذلك (لوائح، وروائح) في قوله: "قبي تفوح روائح الأزهار، وتلوح لوائح الأنوار، وتفتبس الفوائد، وتلتمس

(1) الطيان، المفازات والمناظرات (أبهي مقامة في المفازة بين الغزبية والإقامة)، (ص 177).

(2) ابن الألويسي، مقامات ابن الألويسي، (قطف الزهر من روض الصبر)، (ص 46).

(3) ينظر، القزويني، الإيضاح، (ص 540)، والسيوطي، الإتيان في علوم القرآن، (ج 3/272).

(4) اليازجي، ناصيف، مجمع البحرين (المقامة المضربية)، (ص 308).

(5) الخفاجي، ريحانة الألبا (المقامة التي عارض بها الوطواط)، (ص 390).

(6) الشدياق، الساق على الساق، (ص 52).

الْفَرَائِدُ"⁽¹⁾. و (وخيم، فخيم) فِي قَوْلِهِ: "كَيْفَ جَنَحْتَ لِلظُّلْمِ مَعَ أَنْ مَرَّتَهُ وَخِيمٌ، وَأَثْبَتَتْ فِي كَلَامِكَ نَقْصِي عِنْدَ اللَّهِ فَخِيمٌ؟"⁽²⁾.

وَمِنْ أَجْمَلِ صُورِ الْجِنَاسِ تَنْغِيماً مَا كَانَ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ مُتَعَابِقَتَيْنِ كَمَا فِي قَوْلِ مُحَمَّدٍ الْمُبَارَكِ: "فَالِإِمَّ تَتَّخِذُنِي مَرْمَى هَمَزِكَ وَلَمَزِكَ فِيمَا فِيهِ نُفَيْضٌ، مَعَ أَنِّي مِنَ الْعُلَا فِي الْأَوْجِ، وَأَنْتَ فِي الْحَضِيضِ"⁽³⁾. قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الْهُمَزَةُ: ١].

وَقَدْ يَقَعُ الْاِخْتِلَافُ فِي حُرُوفٍ فِي وَسَطِ الْكَلِمَةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ فِكْرِي: "فَلَمَّا سَمِعَ مَا سَمِعَ، كَادَ فُوَادُهُ يَنْخَلَعُ، حَتَّى تَخَيَّلَ أَنَّ الْأَرْضَ ابْتَلَعَتْهُ، أَوْ الرِّيحَ اقْتَلَعَتْهُ"⁽⁴⁾. فَقَدْ وَقَعَ الْاِخْتِلَافُ فِي الْوَسَطِ فِي كَلِمَتِي (ابْتَلَعَتْهُ، واقْتَلَعَتْهُ).

وَيُؤَاوِلُ عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِي الْعَزْفَ عَلَى أَوْتَارِ هَذَا الضَّرْبِ صُحْبَةً (الْأَنْفِيَاءَ، وَالْأَشْفِيَاءَ) فِي قَوْلِهِ: "وَالْمَعَاشِرَ لِلْعُلَمَاءِ وَالْأَنْفِيَاءِ، وَالْمَلَازِمَ لِلْجُهَلَاءِ وَالْأَشْفِيَاءِ"⁽⁵⁾. ثُمَّ يَتَابِعُ بِ (مَأْوَانَا، وَمَثْوَانَا) فِي قَوْلِهِ: "فَقَالَتْ يَا بُنَيَّ، إِذَا بَعْتَ مَأْوَانَا، فَأَيْنَ يَكُونُ مَثْوَانَا؟"⁽⁶⁾. لِيَزِدَانَ الْمَشْهَدَ بِجَرَسِ مُوسِيقِيٍّ مِنْ طِرَازِ فَرِيدٍ، وَزَادَ الْمَشْهَدَ زِينَةً أَسْلُوبَا الشَّرْطِ وَالِاسْتِفْهَامِ.

وَفِي مَقَامَاتِ (الْمُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ) يَتَفَوَّقُ مُحَمَّدُ الْمُبَارَكِ عَلَى نَفْسِهِ كَعَادَتِهِ فِي بَابِ الْجِنَاسِ، فَيَجْمَعُ عَدَدًا كَبِيرًا فِي مَقَامَاتِهِ، وَهِيَ هُوَ يَتَرْتَمُ بِرَوَائِعِ الْجِنَاسِ عَنْ طَرِيقِ الْاِسْتِفْهَامِ الْمَوْشَى بِالذَّرِّ، وَالتَّبْرِ صُحْبَةً (المحبوك)، و (المسبوك) فِي قَوْلِهِ: "فَمَا الذَّرُّ الْمَحْبُوكُ، وَمَا التَّبْرُ الْمَسْبُوكُ؟"⁽⁷⁾. ثُمَّ يَتَابِعُ بِجِنَاسِ مُرْدَوْجٍ (دعَاك، دَهَاك)، و (الْمُقَاضَلَةُ، وَالْمُنَاضَلَةُ) فِي قَوْلِهِ: "فَمَا دَعَاكَ إِلَى حَلْبَةِ الْمُقَاضَلَةِ، وَمَا دَهَاكَ حَتَّى عَرَّضْتَ بِنَفْسِكَ لِلْمُنَاضَلَةِ"⁽⁸⁾.

وَقَدْ يَقَعُ الْاِخْتِلَافُ فِي الْجِنَاسِ الْمُضَارِعِ فِي الْحَرْفِ الْأَخِيرِ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ (الْمِنْحُ، وَالْمِنُّ) فِي قَوْلِ مُحَمَّدِ الْمُبَارَكِ: "وَإِنْ حَبَسَتْ عَنْهُمْ سَحَابِيبَ الْمِنْحِ وَالْمِنِّ، فَتَحَكَّمَتْ فِيهِمْ صُنُوفُ

(1) الطَّيَّانُ، الْمُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (نُضْرَةُ الْبِهَارِ فِي مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)، (ص 139).

(2) الطَّيَّانُ، الْمُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِي الْمُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْعُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص 171).

(3) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 158.

(4) فِكْرِي، الْآثَارُ الْفِكْرِيَّةُ (الْمَقَامَةُ الْفِكْرِيَّةُ)، (ص 306).

(5) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 276.

(6) فِكْرِي، الْآثَارُ الْفِكْرِيَّةُ (مَقَامَةُ فِي حَسَنِ الْوَفَاءِ) (ص 305).

(7) الطَّيَّانُ، الْمُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (غَرِيبُ الْأَنْبَاءِ فِي الْمُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ)، (ص 101).

(8) الطَّيَّانُ، الْمُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (نُضْرَةُ الْبِهَارِ فِي مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)، (ص 127).

الصُرُوفِ، وَالْمَحَنِ⁽¹⁾.

6- جناس القلب، و"هُوَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ اللَّفْظَانِ فِي تَرْتِيبِ الْحُرُوفِ"⁽²⁾، وَهَذَا النَّوعُ يَتَشَابَهُ رُكْنَاهُ فِي عَدَدِ الْحُرُوفِ دُونَ زِيَادَةٍ أَوْ نَقْصٍ، وَيُخَالَفُ أَحَدَهُمَا الْآخَرَ فِي التَّرْتِيبِ، وَيَأْتِي عَلَى أَنْوَاعٍ مِنْهَا:

1- قَلْبُ الْكُلِّ: وَهُوَ مَا جَاءَ فِيهِ أَحَدُ رُكْنَيْهِ مُخَالَفًا لِلآخَرِ فِي حُرُوفِهِ كُلِّهَا، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ:

حُسَامُكَ فِيهِ لِلْأَحْبَابِ فَتُحَّحُ وَرُمُحُكَ فِيهِ لِلْأَعْدَاءِ حَتْفُ⁽³⁾

وَقَوْلُ الشَّاعِرِ:

فَتُحَّحُ وَحَتْفٌ وَالسَّرَايَا دَرَبُنَا قَسَامٌ أَقْصَى وَالْجِهَادُ نَفِيرُ⁽⁴⁾

2- قَلْبُ الْبَعْضِ: وَهُوَ مَا جَاءَ فِيهِ أَحَدُ رُكْنَيْهِ مُخَالَفًا لِلآخَرِ فِي بَعْضِ الْحُرُوفِ، أَوْ "أَنْ تَكُونَ إِحْدَى كَلِمَتَيْهِ عَكْسَ الْأُخْرَى بِتَقْدِيمِ بَعْضِ الْحُرُوفِ عَلَى بَعْضٍ"⁽⁵⁾، وَمِنْهُ (بَيْنَ، وَبَيْنِي) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: 94]، وَمِنْهُ فِي النَّظْمِ (سِبْطُهُ)، وَ (بِسْطُهُ) فِي قَوْلِ أَبِي فِرَاسِ الْحَمْدَانِيِّ:

وَرَاحَةٌ تَغْمُرُ كَفِّي سِبْطُهُ زَادَ عَلَى قَدْرِ الْبِرَاةِ بَسْطُهُ⁽⁶⁾

يُوعَدُ هَذَا النَّوعُ مِنْ أَكْثَرِ أَنْوَاعِ الْجِنَاسِ وَفَرْدَةً فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وَلَعَلَّ هَذَا يَرْجِعُ إِلَى افْتِتَانِ الْأَدْبَاءِ بِالْقَلْبِ وَالْعَكْسِ لِمَنَافَسَةِ نَظَائِهِمْ، وَأُنْدَادِهِمْ، وَقَدْ تَفَوَّقَ نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ أَيَّمَا تَفَوَّقٍ فِيهِ مُتَلَاعِبًا بِالْحُرُوفِ، فَشَكَّلَ أَرْوَاعَ اللَّوْحَاتِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ (المرتبة، والمتربة) فِي قَوْلِهِ: "قَدْ وَلَّتِ الْمَرْتَبَةُ، وَحَلَّتِ الْمَرْتَبَةُ"⁽⁷⁾. وَ(الثَّلَاةُ، اللَّتْنَةُ) فِي قَوْلِهِ: "فَمَنْى لَمْ نَقْضِ الثَّلَاةُ،

(1) الطِّيَّانِ، الْمُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (غَرِيبُ الْأَنْبَاءِ فِي الْمُفَاخَرَةِ بَيْنِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ)، (ص101).

(2) الْقَرْوِينِيُّ، الْإِنْضَاحُ، (ص541).

(3) ابْنُ الْأَحْنَفِ، دِيْوَانُ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ، (ص184).

(4) بَيْتٌ مِنْ قَصِيدَةٍ لِلْبَاحِثِ بِعَنْوَانِ: الْقُدْسُ مَتَى وَأَيْنَ؟.

(5) الْمَصْرِيُّ، بَدِيعُ الْقُرْآنِ، (ص30).

(6) الْحَمْدَانِيُّ، دِيْوَانُ أَبِي فِرَاسِ الْحَمْدَانِيِّ، (ص157).

(7) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْأَدْبِيَّةُ)، (ص286). الْمَتْرَبَةُ: الْفَاقَةُ، الْجَوْهَرِيُّ، الصَّحَاحُ، (ج1/133).

أَخَذْنَا اللَّئِنَةَ" (1). وَ (تَفْنَاتِهِ، وَنَفَاتِهِ) فِي قَوْلِهِ: "فَهِيَهَاتَ أَنْ تَبْرَحَ حَتَّى تَسْرَحَ، فَحَوْلَقَ وَاسْتَتَبَّ عَلَى تَفْنَاتِهِ، وَأَفَاضَ فِي سَرَحِ نَفَاتِهِ" (2). وَحَتَمَ الْيَازِجِي بِ (الْأَكْوَارِ، وَالْأَوْكَارِ) فِي قَوْلِهِ: "وَحَرَجْنَا نَطْوِي الْوَهَادِ وَالرُّبَى، بَيْنَ الْخَيْرَلَى وَالْهَيْدَبَى، حَتَّى حَلَلْنَا تِلْكَ الدِّيَارِ، فَزَرَلْنَا عَنِ الْأَكْوَارِ، إِلَى الْأَوْكَارِ" (3).

وَلَا يَقُلُّ أَحْمَدُ فَارِسُ الشُّدْيَاقِ تَقْوُفًا عَنْ نَاصِيفِ الْيَازِجِيِّ فِي هَذَا الْبَابِ، فَقَدْ قَدَّمَ نَمَاجَ رَائِعَةً فِي (السَّاقِ عَلَى السَّاقِ)، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ (شُعْرَاءَ، وَعُشْرَاءَ) فِي قَوْلِهِ: "فَقُلْتُ لَا جَرَمَ لِأَقْصَدَنَّ مُنْتَابَ الشُّعْرَاءِ، وَلَا تَخَذَنْهُمْ لِي عُشْرَاءَ" (4). وَ (فَنَعَ، وَنَفَعَ) فِي قَوْلِهِ: "فَكُلُّ ضُرٍّ مَعَهَا يَسْتَحِيلُ إِلَى فَنَعٍ وَنَفَعٍ، وَكُلُّ شَظْفٍ بِقَرَبِهَا فَهُوَ قِصُوفٌ وَرَنَعٌ" (5). مَعَ مَا تَحْمِلُهُ مَشَاهِدُ الْجِنَاسِ مِنْ قَدْرَةِ فَائِقَةٍ عَلَى التَّلَاعُبِ بِالْأَلْفَافِ، وَإِمْكَانَاتِ عَظِيمَةٍ عَلَى التَّرْوِيضِ لِلْحُرُوفِ.

وَيُظْهِرُ مُحَمَّدُ الدَّبِيسِيُّ لِيَقْدَمَ جِنَاسَ قَلْبٍ وَهُوَ (الرُّتْبِ، وَالتُّرْبِ) فِي قَوْلِهِ: "لَا يَطْمَعُونَ فِي نَيْلِ الرُّتْبِ، وَسَكُنَى غَالِبَهُمُ الرُّوَايَا وَالتُّرْبُ" (6).

وَيُحَلِّقُ مُحَمَّدُ الْمُبَارَكُ مَنفَرِدًا فِي سَمَاءِ الْإِبْدَاعِ، حَيْثُ شَكَّلَ لَوْحَاتِ بَارِعَةً، وَشَحَّهَا بِهِذَا الضَّرْبِ مِنَ الْجِنَاسِ، وَكَأَنِّي بِهِ يَرَسِمُ أَرْوَعَ الصُّورِ بِشَتَّى الْأَلْوَانِ، وَأَوَّلُ رَوَاعِيهِ هُنَا: (الْحَمَاسَةِ، وَالسَّمَاحَةِ) فِي قَوْلِهِ: "وَقَدْ تَفَرَّدْتُ لَا مَحَالَةَ فِي الْبُهَاءِ وَالْمَلَاخَةِ، وَانْفَرَدْتُ بِجَمْعِي بَيْنَ الْحَمَاسَةِ وَالسَّمَاحَةِ" (7). وَثَانِيهَا: (الْمِنْحُ، وَالْمِحْنُ) فِي قَوْلِهِ: "وَتَعْيِرْنِي بِمَا يَتَعَرَّفُ بِهِ إِلَيَّ مَوْلَايَ مِنْ غُرْرِ الْمِنْحِ فِي صُورِ الْمِحْنِ وَالْمَصَائِبِ، فَأَقْبَلَ مِنْهَا بَدْرَ النَّجْدِ، وَتُرْسَ التَّصْبِرِ كُلُّ سَهْمٍ صَائِبٍ" (8). وَثَالِثُهَا: (أَوْقَاتِكَ، وَأَقْوَاتِكَ) فِي قَوْلِهِ: "وَهَلْ صَفْتُ أَوْقَاتِكَ إِلَّا بِوَجُودِي، أَوْ طَابَتْ أَوْقَاتِكَ إِلَّا بِوَابِلِ كَرَمِي وَجُودِي؟! " (9).

(1) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْعَدْنِيَّةُ)، (ص 273). التُّنَّةُ: الْحَاجَةُ، اللَّئِنَةُ: الْقَنْفَذَةُ.

(2) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ اللَّغْزِيَّةُ)، (ص 206). حَوْلَقَ: قَالَ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، تَفْنَاتِهِ: كَلِمَاتِهِ.

(3) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْمَصْرِيَّةُ)، (ص 319).

(4) الشُّدْيَاقُ، السَّاقُ عَلَى السَّاقِ (مَقَامَةُ مُقِيمَةٍ)، (ص 281).

(5) الشُّدْيَاقُ، السَّاقُ عَلَى السَّاقِ (مَقَامَةُ مَشْيِيَّةٍ)، (ص 359). الْفَنَعُ: الْجُودُ. (الْجَوْهَرِيُّ، الصَّحَاحُ، 1260/3).

(6) الطَّيَّانُ، الْمُفَاخَرَاتُ وَالْمُنَاطَرَاتُ (مِنَاطَرَةُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ)، (ص 198).

(7) الطَّيَّانُ، الْمُفَاخَرَاتُ وَالْمُنَاطَرَاتُ (غَرِيبُ الْأَنْبَاءِ فِي الْمَفَاخَرَةِ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ)، (ص 104).

(8) الطَّيَّانُ، الْمُفَاخَرَاتُ وَالْمُنَاطَرَاتُ (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِي الْمَفَاخَرَةِ بَيْنَ الْغُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص 158).

(9) الطَّيَّانُ، الْمُفَاخَرَاتُ وَالْمُنَاطَرَاتُ (غَرِيبُ الْأَنْبَاءِ فِي الْمَفَاخَرَةِ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ)، (ص 107).

وَلَمْ يَتَوَقَّفْ مُحَمَّدَ الْمُبَارَكِ عَنْ مَوَاصِلَةِ مَسِيرِهِ فِي ذُرُوبِ جِنَاسِ الْقَلْبِ، فَقَدْ عَاوَدَ يَرَسُمُ بَأَنَامِلِهِ مِنْ جَدِيدٍ بَاقَةً مُتَنَوِّعَةً مِنْ رَوَائِعِ جِنَاسِ الْقَلْبِ أَوْلَهَا: (رغبة، وغربة) فِي قَوْلِهِ: "وَكَيْفَ تَكُونُ لِلْعَاقِلِ رَغْبَةً فِي الْعُرْبَةِ، وَهِيَ مَسْكُنُ الْمَسْكَنَةِ، وَالْكَرْبَةِ"⁽¹⁾. وثانيها: (قريب، ورفيب) فِي قَوْلِهِ: "وَلَا يَقِيدُهُ وَطَنٌ، وَلَا قَرِيبٌ، وَلَا يَلْتَقِي بِهِ وَاشٍ، وَلَا رَقِيبٌ"⁽²⁾.

ويختتمُ مُحَمَّدَ الْمُبَارَكِ رَوَائِعَهُ بِقَوْلِهِ: (جداله، جلاده) فِي قَوْلِهِ: "فَسَدَّ مَا بَيْنَ الْخَافِقِينَ بِسَوَادِهِ، وَطَفِقَ يَرْمِي بِسَهَامِ جِدَالِهِ فِي جِلَادِهِ"⁽³⁾. و(المنح، والمحن) فِي قَوْلِهِ: "وَإِنْ حَبَسَتْ عَنْهُمْ سَحَابُ الْمُنْحِ وَالْمِحْنِ، فَتَحَكَّمَتْ فِيهِمْ صُنُوفُ الصُّرُوفِ وَالْمِحْنِ"⁽⁴⁾.

7- جِنَاسُ التَّرْكِيبِ، وَهُوَ أَحَدُ أَنْوَاعِ الْجِنَاسِ التَّامِ، وَالْمَقْصُودُ بِهِ "مَا كَانَ أَحَدُ رُكْنَيْهِ كَلِمَةً وَاحِدَةً، وَالْأُخْرَى مُرَكَّبَةً مِنْ كَلِمَتَيْنِ"⁽⁵⁾.

وَتَتَعَدَّدُ أَنْوَاعُ جِنَاسِ التَّرْكِيبِ، فَمِنْهُ الْمُتَشَابِهُ، وَ"هُوَ مَا تَشَابَهَ رُكْنَاهُ، الْكَلِمَةُ الْمَفْرَدَةُ، وَالْكَلِمَةُ الْمُرَكَّبَةُ لَفْظًا وَخَطًّا"⁽⁶⁾، وَمِنْهُ فِي النَّظْمِ (صَدَّ عَنِي، صَدَّعَنِي) فِي قَوْلِ أَبِي فِرَاسِ الْحَمْدَانِيِّ:

وَجَدْتُ فِيهِ اتِّفَاقَ سُوءٍ صَدَّ عَنِّي مِثْلَ صَدَّعَنِي⁽⁷⁾

فَقَوْلُهُ: (صَدَّ عَنِي) الْأَوْلَى: بَالِغٌ فِي شَقِيٍّ، وَ(صَدَّعَنِي) الثَّانِيَةُ: أَصَابَنِي بِالصُّدَاعِ. وَفِي الْبَيْتِ جِنَاسٌ تَامٌّ، وَهُوَ جِنَاسٌ تَرْكِيبِيٌّ مِنَ الْمُتَشَابِهِ. وَالْجِنَاسُ فِي الْبَيْتِ مُتَكَلِّفٌ تَظْهَرُ فِيهِ الصَّنْعَةُ بِصُورَةٍ جَلِيَّةٍ.

ويبدو أَنَّ هَذَا النَّوعَ أَقَلُّ أَنْوَاعِ الْجِنَاسِ وَرُودًا فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ، لِحَاجَتِهِ إِلَى إِمْكَانَاتٍ لُغَوِيَّةٍ هَائِلَةٍ رُبَّمَا لَا تَحْتَاجُهَا أَضْرَبُ الْجِنَاسِ الْأُخْرَى، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ (طَيْلَسَانَ، وَطِي لِسَانَ) فِي قَوْلِ نَاصِبِ الْيَازْجِيِّ: "ثُمَّ خَرَجَ يَمِيسُ فِي طَيْلَسَانِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

(1) الطَّيَّانُ، الْمُفَاحِرَاتُ وَالْمُنَاطِرَاتُ (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِي الْمَفَاحِرَةِ بَيْنَ الْعُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص 156).

(2) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 168.

(3) الطَّيَّانُ، الْمُفَاحِرَاتُ وَالْمُنَاطِرَاتُ (نُضْرَةُ الْبَهَارِ فِي مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)، (ص 130).

(4) الطَّيَّانُ، الْمُفَاحِرَاتُ وَالْمُنَاطِرَاتُ (غَرِيبُ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْمَفَاحِرَةِ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ)، (ص 101).

(5) الْقُرُونِيُّ، الْإِبْضَاحُ، (ص 537).

(6) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 537.

(7) الْحَمْدَانِيُّ، دِيْوَانُ أَبِي فِرَاسِ الْحَمْدَانِيِّ، (ص 331). صَدَّعَنِي الْأَوْلَى: بَالِغٌ فِي شَقِيٍّ، وَصَدَّعَنِي الثَّانِيَةُ: أَصَابَنِي بِالصُّدَاعِ.

مَارَبٌ لَا حَفَاوَةَ مِنْ حَرِيصٍ رَأَمٌ بِالطَّيْنَسَانِ طَيِّ لِسَانٍ⁽¹⁾

وَمِنْهُ كَذَلِكَ (بَلْ عَمَّ، وَبَلَعَم) فِي قَوْلِ مُحَمَّدٍ الدَّيْسِيِّ: "فَإِنَّهُ كَانَ عَالِمًا غَيْرَ مُوقِفٍ. وَالَّذِي مَا خَصَّ، بَلْ عَمَّ، قُضِيَّةَ ابْنِ عَوْرَاءَ بَلَعَم"⁽²⁾.

أَمَّا مُحَمَّدُ الْمُبَارَكِ فَظَهَرَ جِنَاسُ التَّرْكِيبِ فِي قَوْلِهِ: "وَلَمَّ جَدَّتْ ظَهْرَ شَمْسٍ كَمَالِي، وَهَلْ لَكَ مِنَ الْفَوَاضِلِ كَمَا لِي؟"⁽³⁾. فَفِي الْكَلَامِ جِنَاسُ تَرْكِيبٍ، فَكَلِمَةُ (كَمَالِي) الْأَوَّلَى: (بِمَعْنَى تَمَامِي)، وَكَمَا لِي الثَّانِيَةُ بِمَعْنَى: (كَالَّذِي لِي).

8- الْجِنَاسُ الْمُذَيَّلُ

وَهُوَ أَحَدُ أَنْوَاعِ الْجِنَاسِ النَّاقِصِ كَذَلِكَ، وَفِيهِ تَفْتَرِقُ الْكَلِمَتَانِ بِالزِّيَادَةِ فِي عَدَدِ الْحُرُوفِ، فِي آخِرِ الْكَلِمَةِ، وَالْجِنَاسُ الْمُذَيَّلُ "أَنْ يَخْتَلِفَا بِزِيَادَةِ أَكْثَرِ مِنْ حَرْفٍ وَاحِدٍ"⁽⁴⁾، وَفِيهِ يَكُونُ الْاِخْتِلَافُ بِأَكْثَرِ مِنْ حَرْفَيْنِ فِي آخِرِهِ. وَهَذَا النَّوعُ مِنَ الْجِنَاسِ لَا يَخْلُو مِنْ مَفَاجَأَةِ الْإِدْهَاشِ، وَالْإِنْعَاشِ، إِنْ لَمْ يَزِدْ نَصِيْبُهُ مِنْهَا. وَمِنْ شَوَاهِدِهِ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

يَمْدُونُ مِنْ أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبٍ⁽⁵⁾

وَقَوْلُ أَبِي فِرَاسِ الْحَمْدَانِيِّ:

وَهَبْتَ سُلُوبِي، ثُمَّ جُنْتُ أَرْوَمَهُ وَمِنْ دُونَ مَا رُمْتُ الْقَنَا وَالْقَنَابِلَ⁽⁶⁾

أَمَّا الْمَقَامَاتُ الْعُنْمَانِيَّةُ فَإِنَّ مُعْظَمَهَا يَتَوَشَّحُ بِالْجِنَاسِ الْمُذَيَّلِ، وَلَعَلَّ أBRَزَ الْأَدْبَاءِ الَّذِينَ تَفَوَّقُوا فِي هَذَا الْمِضْمَارِ، مُحَمَّدُ الْمُبَارَكِ الَّذِي قَدَّمَ تَشْكِيلَاتٍ مُتَنَوِّعَةً فِي نُصُوصِهِ الْمَقَامِيَّةِ فِي هَذَا الْبَابِ، وَأَوَّلُ تَشْكِيلٍ ظَهَرَ فِي (العنا، والعناد) فِي قَوْلِهِ: "فَقَالَا: وَمَنْ الَّذِي يُلْقِي إِلَيْهِ الْقِيَادَ،

(1) الْيَارِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ السُّودَانِيَّةُ)، (ص 384).

(2) الطَّيَّانُ، الْمَفَاخِرَاتُ وَالْمُنَاطِرَاتُ (مُنَاطِرَةٌ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ)، (ص 200). (بَلَعَمُ بْنُ عَوْرَاءَ) عَالِمٌ مِنْ عُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي زَمَنِ نَبِيِّ اللَّهِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ. فِيهِ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَنُكَلِّمُهُهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثَ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 176]. www.ahlalhdeth.com.

(3) الطَّيَّانُ، الْمَفَاخِرَاتُ وَالْمُنَاطِرَاتُ (غَرِيبُ الْأَنْبَاءِ فِي مُنَاطِرَةِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ)، (ص 91).

(4) الْقَزْوِينِيُّ، الْإِبْضَاحُ، (ص 539).

(5) أَبُو تَمَّامٍ، دِيْوَانُ أَبِي تَمَّامٍ، (ج 1/112).

(6) الْحَمْدَانِيُّ، دِيْوَانُ أَبِي فِرَاسِ الْحَمْدَانِيِّ، (ص 247).

فِي كَشْفِ هُنَا الْعَنَا وَالْعِنَادِ⁽¹⁾. وثانيها: (السَّنَا، والسَّنَاء) فِي لُوحَاتٍ مُتَّوَعَةٍ فِي قَوْلِهِ: "فَأَسْفَرْتُ عَنْ بَدْرِ طَلَعَتِهَا السَّمَاءُ، وَهِيَ تَزْهُو فِي بَرْدِ السَّنَا، وَالسَّنَاءِ"⁽²⁾. وَقَوْلِهِ: "ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى عَرْشِ السَّنَا، وَالسَّنَاءِ، وَأَطْلَعَ شُمُوسَ طَلَعَتِهِ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ"⁽³⁾. وَقَوْلِهِ: "فَلِلَّهِ سَوَادُ ذَلِكَ الشَّعْرِ، أَوْ مِنْطِقَةُ كَالْجُوزَاءِ، أَوْ قُزْطُ كَالثُّرَيَّا ذَاتِ السَّنَا، وَالسَّنَاءِ"⁽⁴⁾. وَتَالِثُهَا: (النَّوَى، وَالنَّوَابِ) صُحْبَةَ التَّشْكِيلِ الْإِسْتِعَارِيِّ، وَتَجْسِيمِ الْمَعْنَوِيَّاتِ فِي قَوْلِهِ: "كَمَا أَنَّ فُرَاقَهُ مِنْ أَجْلِ الرَّزَايَا، وَأَكْبَرَ الْمِحَنِ وَالْبَلَايَا، يَوْعِقُ الْمَرْءَ فِي مَصَائِدِ الْمَصَائِبِ، وَيَلْقِيهِ بَيْنَ أَنْيَابِ النَّوَى، وَالنَّوَابِ"⁽⁵⁾. وَبِهَذَا يَكْتَمَلُ مَشْهُدُ الْجَمَالِ الَّذِي رَسَمَهُ مُحَمَّدٌ الْمُبَارَكُ.

وَيَبْدُو أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ فِكْرِيَّ حَظَّهُ قَلِيلٌ فِي هَذَا الْجِنَاسِ، وَمِنْ جِنَاسَاتِهِ الْمَتَابَعَةِ الَّتِي تَنَّمُ عَنْ بَرَاعَةٍ فَائِقَةٍ، (الْخَلِيلُ، الْخَلِيَّ)، وَ(الْجَلِيلُ، الْجَلِيَّ) فِي قَوْلِهِ: "اعْلَمْ أَيُّهَا الْخَلِيلُ الْخَلِيَّ، ذَا الْفَضْلِ الْجَلِيلِ الْجَلِيَّ، أَنَّهُ قَدْ اتَّفَقَ لِي فِي أَمْرِ الْعَشَقِ أَغْرَبَ قِصَّةً، وَلِعَمْرِي لَقَدْ حَلَّتْ وَإِنْ مَرَّتْ وَأَبْقَتْ أَعْظَمَ غُصَّةً"⁽⁶⁾. وَلَعَلَّ ظَهْوَرَ الْجِنَاسِ فِي مَشْهُدٍ مُتَابَعٍ مَنَحَهُ هُنَا جَمَالًا مِنْ نَوْعٍ خَاصٍّ.

9- الْجِنَاسُ الْمَطْرَفُ

الْجِنَاسُ الْمَطْرَفُ أَحَدُ أَنْوَاعِ الْجِنَاسِ النَّاقِصِ، وَفِيهِ "يَكُونُ الْاِخْتِلَافُ بِزِيَادَةِ حَرْفٍ وَاحِدٍ فِي الْأَوَّلِ"⁽⁷⁾. وَمِنْ شَوَاهِدِهِ قَوْلُ أَبِي فِرَاسٍ الْحَمْدَانِيِّ:

وَلَا أَنَا، مِنْ كُلِّ الْمَطَاعِمِ، طَاعِمٌ وَلَا أَنَا، مِنْ كُلِّ الْمَشَارِبِ، شَارِبٌ⁽⁸⁾

وَفِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ يَتَفَوَّقُ مُحَمَّدُ الْمُبَارَكُ عَلَى أَقْرَانِهِ فِي هَذَا الْبَابِ، فَقَدْ اِزْدَانَتْ مَقَامَاتُهُ بِهِ، حَيْثُ رَسَمَ بَرِيشتِهِ أَرْوَاعَ النَّمَازِجِ، وَخَطَّ أَجْمَلَ الْأَشْكَالِ، وَمِنْ رَوَائِعِ ذَلِكَ (الْمَكَارِهِ، وَكَارِهِ) فِي قَوْلِهِ: "فَكَمْ أَلْقَتِ الْمَرْءَ فِي الْمَكَارِهِ، فَعَدَا يَتَمَنَّى الْمَوْتَ، وَهُوَ لِلْحَيَاةِ كَارِهِ"⁽⁹⁾. وَ(الْمَصَائِبِ، وَصَائِبِ) فِي قَوْلِهِ: "وَتَعْيِرْنِي بِمَا يَتَعَرَّفُ بِهِ إِلَيَّ مُوَلَايَ مِنْ غُرْرِ الْمَنَحِ فِي صُورِ

(1) الطَّيَّانُ، الْمَفَاخِرَاتِ وَالْمُنَاطِرَاتِ (الْمُفَاخِرَةُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ)، (ص 86). الْعَنَا: الْمَعَانَاةُ.

(2) الطَّيَّانُ، الْمَفَاخِرَاتِ وَالْمُنَاطِرَاتِ (غَرِيبِ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْمُفَاخِرَةِ بَيْنِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ)، (ص 102).

(3) الطَّيَّانُ، الْمَفَاخِرَاتِ وَالْمُنَاطِرَاتِ (نُضْرَةُ الْبَهَارِ فِي مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)، (ص 125).

(4) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 138.

(5) الْمَفَاخِرَاتِ وَالْمُنَاطِرَاتِ (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِي الْمُفَاخِرَةِ بَيْنَ الْعُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص 155).

(6) فِكْرِي، الْأَثَارُ الْفِكْرِيَّةُ (رَجْرُ الْمَعْرُورِ عَنْ رَجْرِ الْعُرُورِ)، (ص 57).

(7) الْقَرْوِينِيُّ، الْإِبْضَاحُ، (ص 538، 539).

(8) الْحَمْدَانِيُّ، دِيْوَانُ أَبِي فِرَاسِ الْحَمْدَانِيِّ، (ص 41).

(9) الطَّيَّانُ، الْمَفَاخِرَاتِ وَالْمُنَاطِرَاتِ (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِي الْمُفَاخِرَةِ بَيْنَ الْعُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص 156).

المحن، والمصائب، فأقبل منها بدرج التجلّد، وثرس التّصبرِ كُلُّ سَهْمٍ صائبٍ⁽¹⁾. و(الآمال، ومال) فِي قَوْلِهِ: "ولطالت منك الهمم، وقصرت الآمال، وما سَكَنَ إِلَيَّ قَلْبِكَ لا وطنٌ ولا مالٌ"⁽²⁾. و(صال، والوصال) فِي قَوْلِهِ: قَدْ سَطَا الدَّهْرُ عَلَيْهِ وَصَالَ، وَجَرَعَهُ مَرَارَةَ النَّوَى بَعْدَ أَنْ ذَاقَ حَلَاوَةَ الْوَصَالِ⁽³⁾. و(وارد، وموارد) فِي قَوْلِهِ: "فتراه في دهره بين صادرٍ، وواردٍ، قد ورد بسامي هَمَّتْهُ أَعْدَبُ الْمَوَارِدِ"⁽⁴⁾. و(مالهم، وكمالهم) فِي قَوْلِهِ: "فيها يعرف مقدارهم، ويرفع في العلا منارهم، وينمو مالهم، ويسمو كمالهم"⁽⁵⁾. ثُمَّ يَزُوجُ بَيْنَ جِنَاسِيْنِ آخِرِيْنِ هُمَا: (السَّاكِنِ، والمسَاكِنِ)، و(النَّازِلِ، والنَّازِلِ) فِي قَوْلِهِ: "أَيَقْنَتَمَا أَنَّ السَّرَّ فِي السَّاكِنِ وَالنَّازِلِ، لَا فِي الْمَسَاكِنِ وَالْمَنَازِلِ"⁽⁶⁾. وَلَعَلَّ صَوْرَ الْجِنَاسِ الْمُطْرَفِ الْمُتتَابِعَةِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي مَسَاحَةِ صَغِيرَةٍ تَتَمُّ عَمَّا كَانَ يَحْمِلُهُ مُحَمَّدُ الْمُبَارَكُ مِنْ بَلَاغَةٍ، وَبَيَانٍ.

أَمَّا نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ فورد ماء السُّلْسَبِيلِ ليرسم الجِنَاسَ الْمُطْرَفَ فِي قَوْلِهِ: "فنزلنا حَيْثُ تَنْزَلُ أَبْنَاءُ السَّبِيلِ، وَبَاتَ الشَّيْخُ يَطْرَفُنَا بِحَدِيثِ أَشْهَى مِنَ السُّلْسَبِيلِ"⁽⁷⁾. حَيْثُ جَمَعَ بَيْنَ لَفْظَتِي (السَّبِيلِ)، و(السُّلْسَبِيلِ) بِطَرِيقَةٍ جَذَابَةٍ لَمَا بَيْنَ الْكَلِمَتَيْنِ مِنْ لِقَاءِ فِي مَعْظَمِ الْحُرُوفِ صَدَرَ عَنْهَا مُوسِيقًا عَذْبَةً.

وَلَمْ يَبْتَعِدْ مُحَمَّدُ الدَّيْسِيُّ كَثِيرًا فِي حَظِّ تَشْكِيلَاتِ بَارِعَةٍ مِنَ الْجِنَاسِ الْمُطْرَفِ، فَشَرَعَ يَرِيسُمُ بِالْكَلِمَاتِ أَرْوَعَ الْجِنَاسَاتِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ (سوق، وفسوق) فِي قَوْلِهِ: "وإن نَفَقَ لَكَ سَوقٌ، فَذَآكَ لَعَمْرِي سَوقُ الْفَسُوقِ"⁽⁸⁾. و(اللباس، وباس) فِي قَوْلِهِ: "هَذَا وَأَبْنَائِي الْمَتْرَفُونَ وَالْمَنْعَمُونَ، وَالْقَوْمُ الَّذِينَ هُمْ فِي الْعِيُونِ مَعْظَمُونَ، يَتَمَتَّعُونَ بِفَاخِرِ الْأَكْلِ وَاللِّبَاسِ، وَسَوَاءٌ عِنْدَهُمْ مِنْ لَا بَاسَ بِهِ، وَلَا بَاسٌ"⁽⁹⁾. و(الأحياء، والحياء) فِي قَوْلِهِ: "يا جَهْلُ، مَا أَنْتَ لَخَطَابِي بِأَهْلٍ، وَلَا جِدَالِي عَلَيْكَ بِسَهْلٍ، يَا مَيِّتَ الْأَحْيَاءِ، وَيَا قَلِيلَ الْحَيَاءِ"⁽¹⁰⁾. مَوْظَفًا أَسْلُوبَ التَّهْكُمِ بِالنِّدَاءِ فِي هَذَا الْبَابِ.

(1) الطَّيَّانُ، الْمُفَاخِرَاتِ وَالْمُنَاطِرَاتِ (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِي الْمُفَاخِرَةِ بَيْنَ الْغُرَبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص 158).

(2) الْمَرْجِعِ السَّابِقِ، ص 159.

(3) الْمَرْجِعِ نَفْسِهِ، ص 164.

(4) الْمَرْجِعِ نَفْسِهِ، ص 167.

(5) الْمَرْجِعِ نَفْسِهِ، ص 172.

(6) الْمَرْجِعِ نَفْسِهِ، ص 179.

(7) الْيَازِجِيِّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْعَاصِمِيَّةُ)، (ص 239).

(8) الطَّيَّانُ، الْمُفَاخِرَاتِ وَالْمُنَاطِرَاتِ (مُنَاطَرَةٌ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ)، (ص 192).

(9) الْمَرْجِعِ السَّابِقِ، ص 199.

(10) الْمَرْجِعِ نَفْسِهِ، ص 190.

وشارك بهاء الدين البيطار كلاً من مُحَمَّد المَبَارَك، ومُحَمَّد الدَّيْسِي هَذَا الإِبْدَاعَ، ونلمحُ ذَلِكَ لَمَّا جَمَعَ بَيْنَ الجِنَاسِ والطَّبَاقِ فِي آنٍ وَاحِدٍ بَيْنَ كَلِمَتَيْ (المملوك، والملوك) فِي قَوْلِهِ: "ثُمَّ رَنَتِ القَمَرُ بَعِينٍ مُحَمَّرَةٍ، وَوَجْمَةٍ مُصْفَرَّةٍ. وَقَالَتْ: عَجِبْتُ لِلْمَمْلُوكِ، يَجَارِي فِي مَسْرَاهِ المَمْلُوكِ"⁽¹⁾. وكأني به أرادَ أَنْ يَمْزِجَ بَيْنَ المُحَسَّنَاتِ المُعْنَوِيَّةِ، وَالمُحَسَّنَاتِ اللَّفْظِيَّةِ فِي بَوْتَقَةٍ وَاحِدَةٍ؛ لِجَزَاجِ بَيْنَ إِبْرَازِ المُعْنَى وَتَوْضِيحِهِ، وَالجَرَسِ المُوسِيقِيِّ. ثُمَّ يَجْمَعُ بِطَرِيقَةٍ أُخَادَةِ بَيْنَ (الجَمَالِ، وَالمَالِ) فِي قَوْلِهِ: "قَاتَا الشَّقِيقُ لِأَهْلِ الحَسَنِ وَالجَمَالِ، وَالشَّقِيقُ عَلَى مَنْ صَبَا عَشَقًا وَمَالًا"⁽²⁾.

ويظهرُ أَحْمَدُ البَرَبِيرُ فِي مِيدَانِ الجِنَاسِ المُطَرَّفِ بِتَوْضِيحِهِ كَلِمَتَيْ (الجود، الموجود) فِي قَوْلِهِ: "وَأَخْلَفَ الوَعْدَ، خُلِقَ الوَعْدُ، وَدَمَ الجودِ بِالموجودِ، مِنْ سِوَةِ الظَّنِّ بِالمعبودِ"⁽³⁾.

خِتَامًا، وَيَعَدُّ هَذِهِ الرِّحْلَةَ الشَّيْقَةَ فِي رِيَاضِ الجِنَاسِ، يُمَكِّنُ القَوْلُ إِنَّ الجِنَاسَ كَالآلَاتِ المُوسِيقِيَّةِ الَّتِي تُطْرَبُ الأذُنَ، وَتَحْرِكُهَا بِشَرطِ البَعْدِ عَنِ التَّكَلُّفِ وَالإِرتِبَاطِ بِطَبِيعَةِ مَعَانِي الأَدِيبِ. وَعَلَى هَذَا كَلَّمَآ ظَهَرَ الجِنَاسُ فِي الكَلَامِ بِدَعْوَةٍ مِنَ المُعْنَى لَا تَكْلُفًا، أَوْ تَطْفُلًا، أَوْ تَمَحُّلاً كَانَ أَنجَحَ فِي تَحْسِينِ المُعْنَى، وَطِلَاوَتِهِ، وَرَوْنِقِ اللَّفْظِ، وَتَرَابُطِهِ، وَتِلَاحْمِهِ، وَهُوَ قَصْدٌ مِنَ المُقَاصِدِ البَلَاغِيَّةِ، وَرُكْنٌ رَكِيْنٌ مِنَ مُحَسَّنَاتِهَا البَدِيعِيَّةِ.

2- السَّجْعُ

السَّجْعُ لُغَةً وَاصْطِلَاحًا

السَّجْعُ لُغَةً، مَاخُودٌ مِنَ الفِعْلِ الثَّلَاثِيِّ (سَجَعَ)، نَقُولُ: سَجَعَ الرَّجُلُ سَجْعًا، وَسَجَّعَ تَسْجِيعًا، وَسَجَّعَتِ الحِمَامَةُ، أَيْ هَدَرَتْ، أَوْ رَدَّدَتْ صَوْتَهَا عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ، وَسَجَّعَتِ النَّاقَةُ مَدَّتْ حَنِينَهَا عَلَى جِهَةٍ وَاحِدَةٍ، وَسَجَّعَ الخَطِيبُ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ مَقْفِيٍّ غَيْرِ مُوزونٍ، وَالسَّجْعُ هُوَ الكَلَامُ غَيْرُ المُوزونِ المُقْفِيِّ، وَالجَمْعُ أُسْجَاعٌ، وَأَسَاجِيعٌ، وَالسَّاجِعُ: القَاصِدُ⁽⁴⁾.

السَّجْعُ اصْطِلَاحًا، تَعَدَّدَتْ تَعْرِيفَاتُ السَّجْعِ، وَرَغِمَ هَذَا التَّعَدُّدِ إِلاَّ أَنَّ مُعْظَمَهَا يَدورُ فِي قَلْبِ وَاحِدٍ، وَمِنْ هَذِهِ التَّعْرِيفَاتِ قَوْلُ صَاحِبِ (الإيضاح)، الخَطِيبِ القَرَوِينِي: إِنَّ السَّجْعَ هُوَ "تَوَاطُؤُ المُقَاصِلَتَيْنِ مِنَ النَّثْرِ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ"⁽⁵⁾.

(1) الطَّيَّانُ، المُفَاخَرَاتِ وَالمُنَاطَرَاتِ (المُفَاخَرَةُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ)، (ص 58، ص 59).

(2) المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 58، ص 59.

(3) الطَّيَّانُ، المُفَاخَرَاتِ وَالمُنَاطَرَاتِ (مَقَامَةٌ فِي المُفَاخَرَةِ بَيْنَ المَاءِ وَالهَوَاءِ)، (ص 39).

(4) يُنظَرُ: الجَوْهَرِيُّ، الصَّحَاحُ، (ج 3/1228). مَادَةٌ (سَجَعَ).

(5) القَرَوِينِي، الإيضاحُ، (ص 547).

وَمِنْهَا "اتِّفَاقُ الْفَوَاصِلِ فِي الْكَلَامِ الْمُنْثَوْرِ فِي الْحَرْفِ، أَوْ فِي الْوِزْنِ، أَوْ فِي مَجْمُوعِهِمَا"⁽¹⁾.

وَأَفْضَلُ السَّجْعِ مَا كَانَتْ فِقْرَاتُهُ مَتَسَاوِيَاتٍ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ قَوْلُ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي دَعَائِهِ الْمَتَضَمِّنِ الْحَثَّ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي وَجْهِ الْخَيْرِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنَ الْإِمْسَاكِ: "اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَأَعْطِ مُمْسِكًا تَلْفًا"⁽²⁾، وَقَوْلُ أَعْرَابِيٍّ ذَهَبَ السَّيْلُ بَابِنَه: "اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ قَدْ أْبَلَيْتَ، فَإِنَّكَ طَالَمَا قَدْ عَافَيْتَ"، وَقَوْلُهُمْ: "الْحُرُّ إِذَا وَعَدَ وَقَى، وَإِذَا أَعَانَ كَفَى، وَإِذَا قَدَرَ عَفَا".

وَالسَّجْعُ مُحَسَّنٌ بَدِيعِيٌّ بَارِزٌ تُبْنَى عَلَيْهِ الْمَقَامَةُ، وَهُوَ أَكْثَرُ الْفُنُونِ الْبَدِيعِيَّةِ حُضُورًا فِي نُصُوصِهَا، فَهِيَ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ فَنٌ مَسْجُوعٌ، "أَمَّا مَا كَانَ مِنَ الْبُلْغَاءِ فِي ذَلِكَ، فَلَهُمْ كَلَامٌ وَاسِعٌ بَلِيغٌ مِنَ التَّسْجِيعِ كَالَّذِي يَكُونُ فِي الْمَقَامَاتِ"⁽³⁾.

وَأَرْوَعُ السَّجْعِ مَا كَانَتْ فِقْرَاتُهُ مَتَسَاوِيَاتٍ تَحْمَلُ فِي ثَنَائِهَا بَرَاعَةَ الْأَدِيبِ، وَقَدْرَتَهُ عَلَى تَشْكِيلِ لُوحَاتٍ بَارِعَةٍ يَزِينُهَا فَنُّ السَّجْعِ.

وَتَتَوَشَّحُ النُّصُوصُ الْمَقَامِيَّةُ بِالْوَانِ السَّجْعِ كَافَّةً، فَلَمْ يَتْرِكِ الْأَدْبَاءُ لَوْنًا إِلَّا طَرَفُوا أَبْوَابَهُ، وَسَبَرُوا أَعْوَارَهُ، وَعَاصُوا فِي أَعْمَاقِهِ، فَهُوَ تَاجُ الْمَقَامَاتِ، وَمُفْتَاحُ كُنُوزِهَا. وَمِنْ رَوَائِعِ السَّجْعِ قَوْلُ نَاصِبِ الْيَازِجِيِّ فِي (الْمَقَامَةِ الْمَكِّيَّةِ): "هَبْ لَنَا قُلُوبًا طَاهِرَةً، وَعِيُونًا سَاهِرَةً، وَأَنْفُسًا عَافِيَةً، وَالسُّنَا حَصِيْفَةً، وَأَخْلَاقًا سَلِيمَةً، وَنِيَّاتٍ مُسْتَقِيمَةً، وَبِسْرٍ لَنَا تَوْبَةً صَادِقَةً، وَنَدَامَةً حَادِقَةً، وَسِيرَةً هَادِيَةً، وَعَيْشَةً رَاضِيَةً، وَعَاقِبَةً حَمِيدَةً، وَخَاتِمَةً سَعِيدَةً، وَأَفْضَ عَلَيْنَا نِعْمَتَكَ وَرَحْمَتَكَ، وَلُطْفَكَ وَعَطْفَكَ، وَهَذَاكَ وَنَدَاكَ"⁽⁴⁾. فَلَكَ أَنْ تَتَنَقَّلَ بَيْنَ مُفْرَدَاتِ هَذِهِ السُّطُورِ لِثُطْرِبِ أَدْنِيكَ بِنُوعِ فَرِيدٍ مِنْ مُوسِيقَا مُبْهَرَةٍ، وَأَنْعَامِ أَخَاذَةٍ، يَعْرِفُهَا الْيَازِجِيُّ عَلَى أَوْتَارِ السَّجْعِ.

أَضْرِبُ السَّجْعِ

إِنَّ الْمَتَنَقَّلَ بَيْنَ الْمَقَامَاتِ، الْمَتَحَرِّكَ بَيْنَ سَطُورِهَا، الْمَتَوَعَّلَ فِي أَلْوَانِهَا الْبَدِيعِيَّةِ خَاصَّةً السَّجْعِ، يُطَالَعُ أَضْرِبًا عَدِيدَةً مِنْهُ، تَتَنَازَرُ هَذِهِ الْأَضْرِبُ فِي النُّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ بِصُورَةٍ وَاضِحَةٍ، وَهَذِهِ الْأَضْرِبُ يُمَكِّنُ تَتَبُعَهَا عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

(1) [الْبُخَارِيُّ، صَاحِبُ الْبُخَارِيِّ، كِتَابُ (الرُّكَاةِ)، بَابُ قَوْلِهِ تَعَالَى "أَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى" (27)، ج 115/2: رَقْمُ الْحَدِيثِ 1442].

(2) الْعَلَوِيُّ، الطَّرَازُ، (ص 412).

(3) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 412.

(4) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْمَكِّيَّةِ)، (ص 419).

أ- السَّجْعُ الْمُطْرَفُ، وَهُوَ "ما اختلفت فاصلتاه فِي الْوِزْنِ، واتفقتا فِي النَّقْفِيَّةِ"⁽¹⁾، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ (وقارًا، وأطوارًا) فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾⁽¹³⁾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا⁽¹⁴⁾ [نوح: 13، 14].

وَيَتَّضِحُ مِنَ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ مَعْنَى ذَلِكَ، وَهُوَ: أَنْ يَأْتِيَ الْمُتَكَلِّمُ فِي أَجْزَاءِ كَلَامِهِ، أَوْ فِي بَعْضِهَا بِأَسْجَاعٍ غَيْرِ مُتَّزِنَةٍ بِزَنَةِ عَرُوضِيَّةٍ، وَلَا مَحْصُورَةٍ فِي عَدَدٍ مُعَيَّنٍ، بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ رُويُّ الْأَسْجَاعِ رُويُّ الْقَافِيَةِ.

وَعَوْدَةٌ إِلَى النَّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَأَلُ أُدِيبٌ مِنْ أُدْبَائِهَا جَهْدًا فِي عَزْفِ أَجْمَلِ الْمُقْطُوعَاتِ عَلَى أَنْعَامِ السَّجْعِ الْمُطْرَفِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ ابْنِ الْأَوْسِيِّ: "مَا الَّذِي أَصَابَكَ، وَأَعْظَمَ أَصَابَكَ، هَلْ فَقَدْتَ - لَا فَقَدْتَ - أَحَدًا مِنْ أَحْبَابِكَ، فَاضْطَرَمْتُ مِنْ فَقْدِهِ نِيرَانُ كَرِيكَ وَاكْتِنَابِكَ، فَبَادَرَهُمُ الدَّمْعُ بِالْجَوَابِ، وَكَدْتُ أَقْضِي نَحْبِي لَوْلَا الْإِنْتِحَابُ"⁽²⁾. حَيْثُ وَرَدَ السَّجْعُ فِي الْفَاصِلَتَيْنِ (الجواب)، و(الانتحاب)، وَقَدْ اختلفتَا فِي الْوِزْنِ، وَاتَّفَقَتَا فِي النَّقْفِيَّةِ.

أما ناصيف اليازجي فقد زين مقاماته بالسَّجْعِ الْمُطْرَفِ، حَيْثُ أَوْلَعَ بِهِدَا النَّوْعِ، يَقُولُ فِي (المقامة السروجية): "ولبتنا هُنَاكَ بضعاً مِنَ اللَّيَالِي، نَتَقَدُّ الْبِرْجَ وَالْمَشْهَدَ، وَالطَّلَّ الْبَالِي، حَتَّى كَانَ يَوْمُ الْمَهْرَجَانِ، وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ يَجْتَمِعُ فِيهِ الْإِنْسُ وَالْجَانُ"⁽³⁾. حَيْثُ طَالَعْنَا بِالسَّجْعِ فِي الْفَاصِلَتَيْنِ (اللَّيَالِي)، و(البالي) فِي الْجُمْلَةِ الْأُولَى، و(المهرجان)، و(الجان)، وَقَدْ اختلفتِ الْفَاصِلَتَانِ فِي الْوِزْنِ، وَاتَّفَقَتَا فِي النَّقْفِيَّةِ.

وَبِتَرْتُمٍ نَاصِيفُ الْيَازْجِيِّ فِي (المقامة البدوية) قَائِلًا: "فَبَادَرْتُ أَعْدُو إِلَيْهَا حَتَّى اسْتَأْنَسْتُ مِنَ النَّفَارِ، وَرَجَعْتُ إِلَيْهَا أَنْتَوْرُ تِلْكَ النَّارِ، وَإِذَا الشَّيْخُ قَدْ أَخَذَ كُلَّ مَا هُنَاكَ وَسَارَ"⁽⁴⁾. حَيْثُ وَرَدَ السَّجْعُ فِي الْفَوَاصِلِ (النَّفَارِ)، و(النَّارِ)، و(سَارَ) وَقَدْ اختلفتِ الْفَوَاصِلُ فِي الْوِزْنِ، وَاتَّفَقَتِ جَمِيعًا فِي النَّقْفِيَّةِ، وَهِيَ (الرَّاء).

وَنَهَجَ عَبْدُ اللَّهِ فَكْرِي نَهَجَ أَقْرَانِهِ مِنَ الْأَدْبَاءِ الْعُثْمَانِيِّينَ فِي اسْتِعْمَالِ السَّجْعِ الْمُطْرَفِ، وَتَوْشِيحِ مَقَامَاتِهِ بِهِدَا النَّوْعِ، يَقُولُ: "وَمِنْ انْحَرَفَ عَنْ صِرَاطِ الْإِعْتِدَالِ، ذَاتَ الْيَمِينِ أَوْ ذَاتَ الشَّمَالِ، وَقَعَ فِي الدُّنْيَا فِي نِيرَانِ مَسَاوِي الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ، وَانْحَرَفَ كَذَلِكَ عَنْ صِرَاطِ الْآخِرَةِ

(1) الْقُرُونِيُّ، الْإِيضَاحُ، (ص 547)، الْعُلُويُّ، الطَّرَازُ، (ص 407).

(2) ابْنُ الْأَوْسِيِّ، مَقَامَاتُ ابْنِ الْأَوْسِيِّ (زَجْرُ الْمُغْرُورِ عَنْ رَجَزِ الْغُرُورِ)، (ص 101).

(3) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (المقامة السروجية)، (ص 174).

(4) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (المقامة البدوية)، (ص 8).

فَوَقَعَ فِي نَارِ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ⁽¹⁾. حَيْثُ وَرَدَ السَّجْعُ فِي الْفَوَاصِلِ (الاعتدال)، (الشَّمَال)، (الأعمال)، و(النَّكَال)، وَقَدْ اخْتَلَفَتْ بَعْضُ الْفَوَاصِلِ فِي الْوِزْنِ، وَاتَّفَقَتْ فِي النَّقْفِيَّةِ.

ب- السَّجْعُ الْمُرْصَعُ، وَهُوَ "اتَّفَاقُ أَلْفَاظِ الْفُقَرَتَيْنِ، أَوْ أَكْثَرِهَا فِي الْوِزْنِ وَالنَّقْفِيَّةِ"⁽²⁾، وَمِنْ شَوَاهِدِ هَذَا الضَّرْبِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: 13، 14].

أَمَّا الْأُدْبَاءُ فَلَمْ يَبْرَحُوا هَذَا النَّوْعَ، بَلْ رَاحُوا يَعْرِفُونَ عَلَى أَوْتَارِهِ أَعْدَبَ الْكَلِمَاتِ، وَمِنْ مَشَاهِدِ السَّجْعِ الْمُرْصَعِ فِي النَّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، قَوْلُ نَاصِيْفِ الْيَازْجِيِّ فِي (الْمَقَامَةِ الْهَزْلِيَّةِ): "حَكَى سُهَيْلُ بْنُ عِبَادٍ قَالَ: كَانَ لِي زَوْجَةٌ صُنَّاعُ الْيَدَيْنِ، كَرِيمَةٌ النَّبْعَتَيْنِ، فَحَسَدْتَنِي عَلَيْهَا الْمَنُونُ، وَخَانَنِي فِيهَا الدَّهْرُ الْخَوُونُ، فَلَبِثْتُ بَعْدَهَا طَوِيلًا، أَرَدْتُ زَفْرَةً وَعَوِيلًا، وَأَنُوحَ بَكْرَةً وَأَصِيلًا، حَتَّى حَالَ عَلَيْهَا الْحَوْلُ، وَأَلَّتِ الْفَرِيضَةُ إِلَى الْعَوْلِ، فَجَاجَتَنِي الْحَوْبَاءُ، أَنْ أُسْتَبْدَلَ مَا طَابَ لِي مِنَ النِّسَاءِ"⁽³⁾.

إِنَّمَا إِذَا تَتَبَعْنَا قَوْلَ نَاصِيْفِ الْيَازْجِيِّ نَجَدُ السَّجْعَ الْمُرْصَعَ فِي الْجُمْلَتَيْنِ (فَحَسَدْتَنِي عَلَيْهَا الْمَنُونُ، وَخَانَنِي فِيهَا الدَّهْرُ الْخَوُونُ)، فَقَدْ وَرَدَ اتَّفَاقُ كَلِمَتَيْنِ هُمَا (المنون، الخوون) فِي الْوِزْنِ وَالنَّقْفِيَّةِ، ثُمَّ يَطَالَعْنَا فِي ثَلَاثِ جُمَلٍ مِنَ الْفَقْرَةِ فِي قَوْلِهِ: (فَلَبِثْتُ بَعْدَهَا طَوِيلًا، أَرَدْتُ زَفْرَةً وَعَوِيلًا، وَأَنُوحَ بَكْرَةً وَأَصِيلًا)، حَيْثُ وَرَدَ اتَّفَاقُ ثَلَاثِ كَلِمَاتٍ هِيَ (طَوِيلًا، عَوِيلًا، أَصِيلًا) فِي الْوِزْنِ وَالنَّقْفِيَّةِ، ثُمَّ يَعَاوِدُ الْيَازْجِيُّ الْكِرَّةَ بِجُمْلَتَيْنِ هُمَا: (حَتَّى حَالَ عَلَيْهَا الْحَوْلُ، وَأَلَّتِ الْفَرِيضَةُ إِلَى الْعَوْلِ) فَقَدْ تَمَاثَلَتْ (الحول، العول) فِي الْوِزْنِ وَالنَّقْفِيَّةِ. حَيْثُ صَمَّمَ الْيَازْجِيُّ بِنَاءً هِنْدَسِيًّا بَدِيعًا مُسْتَهْلًا الْبِنَاءَ بِالنَّسَقِ الرَّوْجِيِّ، ثُمَّ الثَّلَاثِيَّ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى الرَّوْجِيِّ ثَانِيَةً. فَيَبْدُو الْبِنَاءُ الْهِنْدَسِيُّ وَكَأَنَّهُ هَرْمَانٌ مَقْلُوبَانِ هَكَذَا:

الْمَنُونُ، الْخَوُونُ

طَوِيلًا، عَوِيلًا، أَصِيلًا

الْحَوْلُ، الْعَوْلُ

(1) فكري، الآثار الفكرية، (المقامة الفكرية)، (ص 295).

(2) القزويني، الإيضاح، (ص 547).

(3) اليازجي، مجمع البحرين، (ص 80)، النبعين: الأب والأم، الحوباء: النفس.

ويتفرّد فارس (المقامة الفكرية)، عبد الله فكريّ بأسلوب أكثر من رائع في تناول السجع المرصع في جملٍ متتابعةٍ تتداعى طويلاً وقصراً بين مقطعين، وثلاثة، وتجاوز ذلك إلى أربعة مقاطع، يقول: "نظرتُ فإذا في الطرفِ الآخرِ شابةٌ ذاتُ جمالٍ فاخرٍ، ودلالٍ ظاهرٍ، وحسنٍ زاهرٍ، ومنظرٍ باهرٍ، وهي تسحرُ العُقُولَ بألفاظها، وتسخرُ القُلُوبَ بأحاطتها، وعلى رأسها تاجٌ من الزهرِ كالكوكبِ لدى البدرِ، ورأيتها تتكلمُ بفصاحةٍ لسانٍ، وتتفننُ في أساليبِ البيانِ، فلما وقَعَ بصريَ عليها لم أتمالكُ أن صبوتُ إليها، وكدتُ أصيرُ أسيرَ جمالها، ورهينَ حبالها، وصريعَ نبالها، فسألتُ دليلي عنها، وقد تفرّس ما أصابني منها، فقال هذه تُعرفُ في المملكةِ الإنسانيةِ بالشهوةِ الحيوانيةِ، وهي مع ما لها من الجمالِ، عاريةٌ عن خلالِ الكمالِ"⁽¹⁾. فقد نوعَ عبد الله فكريّ خلالَ مقطوعتهِ بينَ الفقراتِ المرصعةِ قصراً وطويلاً، والتي أكسبتِ المشهدَ زينةً، وزخرفةً من ناحيةٍ، وجرساً موسيقياً من ناحيةٍ أخرى، حيثُ طالعَ القراءَ مُبتدئاً بسجعٍ مرصعٍ في أربعِ جملٍ تتوشحُ بجرسٍ موسيقيٍّ عذبٍ في قوله: (شابة ذات جمالٍ فاخرٍ، ودلالٍ ظاهرٍ، وحسنٍ زاهرٍ، ومنظرٍ باهرٍ) حيثُ وردتُ أربعُ كلماتٍ هي: (فاخرٍ، ظاهرٍ، زاهرٍ، وباهرٍ) تماثلتُ في الوزنِ والنقفيّةِ، ثمّ تثنى بجُمْلَتَيْنِ هي: (تسحرُ العُقُولَ بألفاظها، وتسخرُ القُلُوبَ بأحاطتها)، فقد رصعَ فكريّ بقوله: (ألفاظها، وأحاطتها)، ثمّ تابعَ التّرصيعَ بثلاثِ جُمْلٍ هي: (أسيرَ جمالها، ورهينَ حبالها، وصريعَ نبالها) من خلالِ: (جمالها، حبالها، نبالها)، ولم يكتفِ فكريّ هنا بالوزنِ والنقفيّةِ فقط، بل جمَعَ في الكلماتِ الثلاثةِ أربعةَ أحرفٍ متشابهةٍ، هي الألف، واللام، والهاء، والألف، فأكسبَ الفقرةَ إيقاعاً موسيقياً مبهراً لما جمَعَ بينَ التّرصيعِ، ولزومِ ما لا يلزمُ بما فيه من امتدادٍ للصوتِ أكثرَ منه في السجعِ، ثمّ أسدلَ ستائرَ إبداعه بجُمْلَتَيْنِ هما: (وهي مع ما لها من الجمالِ، عاريةٌ عن خلالِ الكمالِ) مع ما في الكلمتينِ (الجمالِ، الكمالِ) من النقاءِ في الوزنِ والنقفيّةِ، وعدَدِ الحُرُوفِ المتشابهةِ (الميم، والألف، واللام)، وهذا يُضفي على الكلامِ جمالاً فوقَ جمالٍ، وإبداعاً إلى شيءٍ من الكمالِ. ومن قبلِ هذا جرسٌ موسيقيٍّ أخذ يأخذُ بالقلوبِ والألبابِ.

لم يقفِ الأدباءُ العُثمانيونَ عندَ حدٍّ في تقديمِ السجعِ المرصعِ، بل تابعوا الإبداعَ في تجاوزِ الأعدادِ حتّى وصلوا إلى خمسةِ مقاطعٍ، ومن شواهدِ ذلك قولُ ناصيفِ اليازجيّ في (المقامة المضريّة): "إنّ لي سبيّةً من ربّاتِ الحجالِ، قد سبّاهَا بعضُ زعانفِ الرّجالِ، وهي بكرٌ رقيقةُ القوامِ، كأنّها وردُ الكمامِ، لها نكهةُ الخزامِ، وصفاءُ ماءِ الغمامِ، وبهجةُ بدرِ التّمامِ، تفتنُ العُقُولَ، والألبابَ، وتستعبدُ السّادةَ، والأريابَ، وهي عذبةُ المرافشِ، لدنةُ المعاطفِ، باردةُ الرّضابِ، مقصورةٌ وراءَ الحجابِ. تسفرُ عن مثلِ السّحرِ، وتفتنُ عن مثلِ الدّررِ، وتسرُّ القلبَ

(1) فكري، الآثار الفكرية، (المقامة الفكرية)، (ص284).

وَالنَّظْرَ" (1). فَقَدْ قَدَّمَ نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ فِي رَائِعَتِهِ خَمْسَةَ مَقَاطِعَ تَتَوَشَّحُ بِالسَّجْعِ الْمُرْصَعِ فِي قَوْلِهِ: (وهي بكَرٍ رَقِيقَةٌ الْقَوَامِ، كَأَنَّهَا وَرْدُ الْكَمَامِ، لَهَا نَكْهَةٌ الْخَزَامِ، وَصَفَاءُ مَاءِ الْغَمَامِ، وَبِهَجَّةُ بَدْرِ التَّمَامِ) حَيْثُ طَالَعَ الْمُتَلَفِّي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ هِيَ (القوام، الكمام، الخزام، الغمام، والتَّمَام) تَمَاتَلَتْ فِي الْوُزْنِ وَالتَّفْقِيَةِ، مَنْفُوقًا عَلَى نَفْسِهِ فِي هَذَا الْبَابِ.

وَفِي بَابِ السَّجْعِ الْمُرْصَعِ كَانَ لِأَحْمَدَ فَارِسِ الشُّدِّيَاقِ مَحَطَّاتٌ رَائِعَةٌ فِي نَحْفَتِهِ (السَّاقِ عَلَى السَّاقِ)، يَقُولُ: "فَبِينَا أَنَا فِي الطَّرِيقِ فَقَدْ مَرَّ سِرْبٌ مِنْهُنَّ يَخْطُرُ بِالنُّوبِ الصَّفِيقِ، وَالْحَلِيِّ ذِي الْبَرِيقِ، وَقَدْ أُرْجِئُ الْأَرْجَاءَ بِطَيْبِهِنَّ، فَرَأَيْتُ مِنْ بَيْنِهِنَّ الْهَيْفَاءَ وَالْبِدِينَ، وَالْغَرَءَ الرَّهْرَاءَ ضَرَّةَ حُورِ الْعَيْنِ، وَمَهْدَةَ الْعَيْنَيْنِ، فَتَاقَتْ نَفْسِي إِلَى وَصَالِهِنَّ، وَتَبَلَّبَ بِالِي بِجَمَالِهِنَّ، وَنَسِيتُ مَا لَقِيتُ مِنْ لِكَاعِي فِي الْبَيْتِ... فَابْتَدَرْتُ إِلَيَّ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ لَهَا عُنُقٌ كَالْغَزَالِ، وَحَاجِبٌ كَالْهَلَالِ... ثُمَّ التَّفْتَتُ إِلَيَّ أُخْرَى وَجَبِينَهَا يَلْمَعُ كَالصَّبَاحِ، وَلِحْظُهَا يَدْمِي كَالصَّفَاحِ... ثُمَّ تَقَدَّمَتْ إِلَيَّ أُخْرَى وَحَبَبُ عَرْقِهَا كَاللَّالِي، وَحَالِكُ فَرْعِهَا كَاللِّيَالِي، ثُمَّ دَنَتْ مِنْي أُخْرَى وَهِيَ تَهْتَرُ عَجْبًا وَدَلَالًا، وَتَبَسُّمٌ عَنْ شَنْبٍ مَا رَأَى النَّاطِرُ لَهُ مَثَالًا" (2). فَقَدْ اسْتَهَلَّ الشُّدِّيَاقُ حَدِيثَهُ بِجُمْلَةٍ ثَلَاثِيَّةٍ التَّرْصِيعِ (فَبِينَا أَنَا فِي الطَّرِيقِ، فَقَدْ مَرَّ سِرْبٌ مِنْهُنَّ يَخْطُرُ بِالنُّوبِ الصَّفِيقِ، وَالْحَلِيِّ ذِي الْبَرِيقِ)، ثُمَّ تَابَعَ بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الْجُمَلِ الثَّنَائِيَّةِ هِيَ عَلَى التَّوَالِي: (فَتَاقَتْ نَفْسِي إِلَى وَصَالِهِنَّ، وَتَبَلَّبَ بِالِي بِجَمَالِهِنَّ)، ثُمَّ تَنَّى بِقَوْلِهِ: (لَهَا عُنُقٌ كَالْغَزَالِ، وَحَاجِبٌ كَالْهَلَالِ)، وَتَابَعَ بِقَوْلِهِ: (جَبِينَهَا يَلْمَعُ كَالصَّبَاحِ، وَلِحْظُهَا يَدْمِي كَالصَّفَاحِ)، وَخَتَمَ بِثَنَائِيَّةٍ رَابِعَةٍ: (وهي تَهْتَرُ عَجْبًا وَدَلَالًا، وَتَبَسُّمٌ عَنْ شَنْبٍ مَا رَأَى النَّاطِرُ لَهُ مَثَالًا). وَكَأَنَّهُ يَعْرِفُ عَلَى آلَةِ مُوسِيقِيَّةٍ عَدَّتْ طَوْعَ أَنَاْمِلِهِ فَاسْتَوْعِبَتْ أَرْوَعَ الْمَعَانِي، أَحَاطَتْ بِأَجْمَلِ الْأَلْحَانِ الَّتِي حَمَلَتْ فِي ثَنَائِيهَا إِمْكَانَاتِ الْأَدِيبِ الرَّائِعَةِ عَلَى الرَّسْمِ بِالْكَلِمَاتِ، وَقِدْرَاتِهِ الْفَائِقَةَ فِي التَّلَاعِبِ بِالْأَلْفَاظِ.

وَيَعَاوِدُ نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ الْكِرَّةَ لِيَشْكَلَ لَوْحَةً بَارِعَةً مِنْ لَوْحَاتِ السَّجْعِ الْمُرْصَعِ، وَهَذِهِ الْمِرَّةُ فِي جَمَلٍ مُتَابِعَاتٍ، وَفَقَرَاتٍ مُتَسَاوِيَاتٍ تَحْمَلُ فِي ثَنَائِيهَا بَرَاعَةً فَائِقَةً، يَعْرِفُ الْحَانِثَا فِي (الْمَقَامَةِ الْمَكِّيَّةِ)، يَقُولُ: "هَبْ لَنَا قُلُوبًا طَاهِرَةً، وَعَيُونًا سَاهِرَةً، وَأَنْفُسًا عَيْفَةً، وَأَلْسِنًا حَصِيفَةً، وَأَخْلَاقًا سَلِيمَةً، وَنِيَّاتٍ مُسْتَقِيمَةً، وَيَسِّرْ لَنَا تَوْبَةَ صَادِقَةً، وَنَدَامَةً حَازِقَةً، وَسِيرَةَ هَادِيَةً، وَعَيْشَةَ رَاضِيَةً، وَعَاقِبَةً حَمِيدَةً، وَخَائِمَةً سَعِيدَةً، وَأَفِضْ عَلَيْنَا نِعْمَتَكَ وَرَحْمَتَكَ، وَأَطْفَأْ وَعَطْفَكَ، وَهَذَاكَ

(1) الْيَازِجِيِّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ، (الْمَقَامَةُ الْمَضْرِيَّةِ)، (ص 241). زَعَانِفُ الرَّجَالِ: أُوْبَاشُ الرَّجَالِ، الْكَمَامُ: غِلَافُ الزَّهْرَةِ، الْمَرَاشِفُ: الشَّفَاهُ، لَدْنَةُ: لَيْنَةُ، الْمَعَاطِفُ: الْجَوَانِبُ، الرِّضَابُ: الرِّيقُ، نَقْتَرُ: تَبَسُّمٌ.
(2) يُنْظَرُ: الشُّدِّيَاقِ، السَّاقِ عَلَى السَّاقِ، (ص 279، ص 280). شَنْبٌ: حِدَّةٌ فِي الْأَسْنَانِ، وَيُقَالُ: بَرِدٌ وَعَذُوبَةٌ. الْجَوْهَرِيُّ، الصَّحَاحُ، (ج 1/158) مَادَةٌ (شَنْبٌ).

وَنَدَاكَ⁽¹⁾. فَقَدْ جَمَعَ الْيَازِجِي هُنَا فَأَحْسَنَ فِي تَقْدِيمِ فِقْرَاتٍ مَتَسَاوِيَاتٍ فِي قَوْلِهِ: (قَلْبًا طَاهِرَةً، وَعَيْونًا سَاهِرَةً)، و (أَنْفَسًا عَفِيفَةً، وَأَلْسِنًا حَصِيفَةً)، و (تَوْبَةً صَادِقَةً، وَنَدَامَةً حَازِقَةً)، و (سِيرَةً هَادِيَةً، وَعَيْشَةً رَاضِيَةً)، و (عَاقِبَةً حَمِيدَةً، وَخَاتِمَةً سَعِيدَةً). وَقَدْ جَمَعَتْ هَذِهِ الْفِقْرَاتُ مَا يَقْنَعُ النَّاطِرَ، وَيُبَيِّنُ الْحَازِرَ، وَيُنَشِّطُ الْفَاتِرَ بِمَا جَمَعْتَهُ فِي ثَنَائِهَا مِنْ رُوْعَةِ الْكَلَامِ، وَحَسَنِ التَّفْسِيمِ، وَجَمَالِ لَزُومِ مَا لَا يَلْزَمُ، وَعَذْبِ الْمَوْسِيقَا.

هَكَذَا عَزَفَ الْأَدْبَاءُ بِالسَّجْعِ مُوسِيقًا صَافِيَةً، انصهرت مَعَ الْكَلِمَاتِ وَالْمَعَانِي، فَلَا وَجُودَ مُسْتَقِلٌّ لَهَا عَنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَمِنْ ثَمَّ "لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لَهَا تَأْتِيرٌ مُنْفَصِلٌ عَنْهَا، إِنَّهَا تَفْتَحُ مَغَالِيقَ النَّفْسِ أَمَامَ مَعَانِي الْعِبَارَاتِ الَّتِي تَصَاحِبُهَا، وَتَخْلَعُ عَلَيْهَا حُلَّ الْقَبُولِ، وَتَقْوِيهَا بِمَا تُشْعُهُ حَوْلَهَا مِنْ إِحْيَاءَاتٍ"⁽²⁾.

وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّ الْمَوْسِيقَا تَتَّخِذُ فِي الْإِبْدَاعَاتِ الْأَدْبِيَّةِ صُورًا مُخْتَلِفَةً، وَإِنْ كَانَ فِي الْوُزْنِ وَالْقَافِيَةِ اللَّذَيْنِ ظَلًّا يَجْرِيَانِ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ قَرُونًا طَوَالًا، وَقَدْ "يَطُنُّ قَوْمٌ أَنْ هَذِهِ الصُّورَةُ لَا وَجُودَ لَهَا الْبِنَّةُ فِي الْإِبْدَاعَاتِ النَّثْرِيَّةِ، إِلَّا أَنْ هُنَاكَ لَوْنًا مِنَ السَّجْعِ يُسَمَّى بِالسَّجْعِ الْمُرْصَعِ، وَهُوَ "لَيْسَ إِلَّا ضَرْبًا وَاحِدًا مِنْ ضُرُوبِ السَّجْعِ، فَضَلًّا عَنْ أَنَّهُ قَلِيلُ الْإِنْتِشَارِ فِي إِبْدَاعَاتِ الْأَدَبِ بِالْقِيَاسِ إِلَى الصُّورِ السَّجْعِيَّةِ الْأُخْرَى الْأَقْلَّ صِرَامَةً، وَبِخَاصَّةٍ فِي النَّثْرِ الَّذِي يَنْفِرُ بِطَبِيعَتِهِ مِنَ الْقِيُودِ عَلَى عَكْسِ الشَّعْرِ، اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا تَكَفَّفَ النَّاتِرُ ذَلِكَ"⁽³⁾.

ج- السَّجْعُ الْمُتَوَازِي، وَالْمَقْصُودُ بِهَذَا الضَّرْبِ مِنَ السَّجْعِ، "اتِّفَاقُ الْأَعْجَازِ فِي الْفَوَاصِلِ مَعَ اتِّفَاقِ الْوُزْنِ"⁽⁴⁾، وَيَعْرِفُهُ الْقُرُونِيُّ بِقَوْلِهِ: "مَا اتَّفَقَتْ فِيهِ الْفِقْرَتَانِ فِي الْوُزْنِ وَالرُّوْيِ"⁽⁵⁾، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ فِي النَّثْرِ الْحَكِيمِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِيهَا سُرٌّ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَمَنَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [الغاشية: 13-15]. وَمِنْهُ دُعَاءُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ"⁽⁶⁾. فَقَدْ اتَّفَقَتْ الْفِقْرَاتُ فِي الْوُزْنِ وَالرُّوْيِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَفِي دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(1) الْيَازِجِي، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْمَكِّيَّةُ)، (ص 419).

(2) عَوْضُ، الْمَرَائِبُ الْمَشْهُوَّةُ، (ص 144).

(3) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 144.

(4) الْعُلُويُّ، الطَّرَازُ، (ص 407).

(5) يُنْظَرُ، الْقُرُونِيُّ، الْإِيضَاحُ (ص 547).

(6) [أَبُو دَاوُدَ، سَنَنُ أَبِي دَاوُدَ، كِتَابُ الصَّلَاةِ، تَفْرِيعُ أَبْوَابِ الْوَتْرِ، مَا يَقُولُ الرَّجُلُ إِذَا خَافَ، بَابُ (8)،

(ج 89/2): رَقْمُ الْحَدِيثِ 1537].

وَلَمْ يَهْمِلِ الْأُدْبَاءُ هَذَا السَّجْعَ فِي نُصُوصِهِمِ الْمَقَامِيَّةِ، بَلْ سَافَرُوا بَعِيداً فِي عَرْفِ أَرْوَاعِ الْأَلْحَانِ عَلَى أَوْتَارِهِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ فِكْرِيِّ: "الْمُعَاشِرُ لِلْعُلَمَاءِ وَالْأَتَقِيَاءِ، وَالْمَلَاذِمُ لِلْجُهَلَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ"⁽¹⁾. حَيْثُ اتَّفَقَتِ الْفَاصِلَتَانِ (الْأَتَقِيَاءُ)، وَ(الْأَشْقِيَاءُ) فِي الْوِزْنِ وَالرَّوِيِّ، إِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ فَقَدْ حَمَلَ مَدُّ حَرْفِ الْبَاءِ وَالْأَلْفِ فِي الْفَاصِلَتَيْنِ إِيقَاعاً مُوسِيقِيّاً مَتَفَرِّداً.

وَمِنْهُ قَوْلُ نَاصِيْفِ الْيَازْجِيِّ: "وَلَكُمُ الْمَشَارِفُ الْمَعْهُودَةُ، وَالْمَحَاجِرُ الْمَشْهُودَةُ، وَالْمَخَالِيفُ الْمَذْكُورَةُ، وَالْمَحَارِبُ الْمَشْهُورَةُ"⁽²⁾. حَيْثُ اتَّفَقَتِ لَفْظَتَا (الْمَعْهُودَةُ)، وَ(الْمَشْهُودَةُ) فِي الْوِزْنِ وَالرَّوِيِّ، وَكَذَلِكَ اتَّفَقَتِ (الْمَذْكُورَةُ، وَالْمَشْهُورَةُ) فِي الْوِزْنِ وَالرَّوِيِّ. مَعَ مَا يَحْمَلُهُ السَّجْعُ مِنْ رُوعَةِ الرَّصْفِ، وَعَدْبِ الْمُوسِيقَا.

د- السَّجْعُ الْمُتَوَازِنُ، وَهُوَ مَا اتَّفَقَتْ فَاصِلَتَاهُ فِي الْوِزْنِ دُونَ الْحَرْفِ الْأَخِيرِ (التَّقْفِيَّة)⁽³⁾، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَنَارُكَ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَائِي مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [الغاشية: 15، 16]، وَقَوْلُهُ: ﴿ وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لِبَاسًا ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا أَلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١٨﴾ ﴾ [النبا: 10، 11]. فَالْكَلِمَتَانِ (مَصْفُوفَةٌ، وَمَبْثُوثَةٌ) فِي الْآيَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ، اتَّفَقَتَا فِي الْوِزْنِ دُونَ التَّقْفِيَّةِ، وَكَذَلِكَ (لِبَاسًا وَمَعَاشًا) فِي الْآيَتَيْنِ التَّالِيَتَيْنِ.

وَفِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ كَانَ لِلْسَّجْعِ الْمَتَوَازِنِ حَظٌّ وَافِرٌ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ قَوْلُ نَاصِيْفِ الْيَازْجِيِّ: "قَرَأَيْتُ بِهَا مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ خِيَامٍ مَبْثُوثَةٍ، وَنِيرَانٍ مَشْبُوبَةٍ، وَجَفَانٍ مَصْفُوفَةٍ، وَخِيَلٍ مَشْدُودَةٍ، وَرِمَاحٍ مَرْكُوزَةٍ"⁽⁴⁾. فَإِنَّ الْفَوَاصِلَ: (مَبْثُوثَةٌ، مَشْبُوبَةٌ، مَصْفُوفَةٌ، مَشْدُودَةٌ، وَمَرْكُوزَةٌ) مَنَّقَةٌ فِي الْوِزْنِ دُونَ التَّقْفِيَّةِ.

هـ- السَّجْعُ الْمُتَمَاتِلُ، وَالْمَقْصُودُ بِهِ: أَنْ تَتَسَاوَى الْفَاصِلَتَانِ فِي الْوِزْنِ دُونَ التَّقْفِيَّةِ، وَتَكُونُ أَفْرَادُ الْأُوَلَى مُقَابِلَةً لِمَا فِي الثَّانِيَّةِ، فَهُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُرْصَعِ كَالْمَتَوَازِنِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُتَوَازِي، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ فِي التَّنْزِيلِ الْحَكِيمِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَايَاتُهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدْيَهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الصافات: 117، 118]. فِ (الْكِتَابِ، وَالصِّرَاطِ) يَتَوَازِنَانِ، وَكَذَا (الْمُسْتَبِينَ وَالْمُسْتَقِيمَ)، لَكِنْ اخْتَلَفَا فِي الْحَرْفِ الْأَخِيرِ.

(1) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْمَضْرِبِيَّةُ)، (ص 308).

(2) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْعَدْنِيَّةُ)، (ص 270، ص 271).

(3) يُنْظَرُ: الْعُلُويُّ، الطَّرَازُ، (ص 407).

(4) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الطَّائِيَّةُ)، (ص 261).

تَقَلَّبَتِ الْكَلِمَاتُ بَيْنَ أُنَامِلِ الْأُدْبَاءِ الَّتِي خَطَّتْ طَائِفَةً رَائِعَةً مِنَ السَّجْعِ الْمَتَمَثِّلِ فِي النُّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ، وَتَنَوَّعَتِ الْأَلْفَاظُ حَتَّى غَدَتْ أَشْبَهَ بِيَاقَةِ مَخْتَلِفَةِ الْأَزْهَارِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ السَّجْعِ الْمَتَمَثِّلِ قَوْلُ مُحَمَّدِ الْوُرْغِيِّ: "لَمْ يَطْلُعْ بَدْرُ الشَّعْرِ إِلَّا فِي سَمَائِهِ، وَلَمْ يُثْمِرْ شَجَرُ النَّثْرِ إِلَّا فِي جَنَانِهِ"⁽¹⁾. فَقَوْلُهُ: (لَمْ يَطْلُعْ بَدْرُ الشَّعْرِ إِلَّا فِي سَمَائِهِ، وَلَمْ يُثْمِرْ شَجَرُ النَّثْرِ إِلَّا فِي جَنَانِهِ) يَتَوَازَنُ، وَكَذَا (سَمَائِهِ، وَجَنَانِهِ)، لَكِنْ اِخْتَلَفَا فِي الْحَرْفِ الْأَخِيرِ. وَقَوْلُهُ: "فَهَلْ تَفْسَحُونَ لَهَا ذِرْعًا، وَتَفْتَحُونَ لَهَا قَلْبًا"⁽²⁾. ف (تَفْسَحُونَ، وَتَفْتَحُونَ) يَتَوَازَنُ، وَكَذَا (ذِرْعًا، وَقَلْبًا)، لَكِنْ اِخْتَلَفَا فِي الْحَرْفِ الْأَخِيرِ. وَمِنْهُ كَذَلِكَ قَوْلُ شِهَابِ الدِّينِ الْخَفَاجِيِّ: "مُجْرِي الْعَوَالِي، وَمُجْرِي السَّوَابِقِ"⁽³⁾. فَقَوْلُهُ: (مُجْرِي، وَمُجْرِي) يَتَوَازَنُ، وَكَذَا (الْعَوَالِي وَالسَّوَابِقِ)، لَكِنْ اِخْتَلَفَا فِي الْحَرْفِ الْأَخِيرِ.

أما ناصيف اليازجي فقد قدم صورة بارعة لهذا السجع مُعْتَمِدًا عَلَى الْأَفْعَالِ الْمُضَارِعَةِ فِي قَوْلِهِ: "وطفقا يتساقطان الحديث، ويتساقطان الشتيت"⁽⁴⁾. فَقَوْلُهُ: (يتساقطان، ويتساقطان) يَتَوَازَنُ، وَكَذَا (الحديث، والشتيت)، لَكِنْ اِخْتَلَفَا فِي الْحَرْفِ الْأَخِيرِ.

وَمِنْ هَذَا النَّسْجِ قَوْلُ الْيَازِجِيِّ: "فَهُوَ أَظْرَفُ جَلِيسٍ، وَأَرْفُقُ قَرِينٍ"⁽⁵⁾. فَقَوْلُهُ: (أظرف، وأرفق) يَتَوَازَنُ، وَكَذَا (جليس، وقرين)، لَكِنْ اِخْتَلَفَا فِي الْحَرْفِ الْأَخِيرِ.

لَقَدْ كَانَ الْإِيْقَاعُ الْمَوْسِيقِيُّ خِصِيصَةً تَتَوَفَّرُ بِدَرَجَةٍ عَالِيَةٍ فِي الشَّعْرِ، كَمَا تَتَوَفَّرُ بِشَكْلِ أَوْ بآخَرَ فِي النَّثْرِ، فَتَجِدُ فِي الْمَقَامَاتِ الْأَلْوَانِ الْبِدِيعِيَّةِ خَاصَّةً السَّجْعَ الَّذِي اِهْتَمَّ لَهُ الْبَلَاغِيُّونَ عَلَى الْمَسْتَوَى الصَّوْتِيِّ، وَأَدْوَا فِيهِ أَلْوَانًا مِنَ الْأَدَاءِ يَتَمَثَّلُ فِيهَا عِنَصْرُ الْمَوْسِيقَا كَالسَّجْعِ الْمُطْرَفِ، وَيَرْتَقِي الْمَسْتَوَى الصَّوْتِيِّ فِي التَّرْصِيعِ، وَيَكْتَمِلُ الْمَشْهُدُ الْمَوْسِيقِيُّ فِي كُلِّ مِنَ السَّجْعِ الْمُتَوَازِي وَالْمُتَوَازِنِ، كُلُّ يَقْدُمُ لَوْحَةً مَوْسِيقِيَّةً عَذْبَةً تَطْرُبُ لِحْرَسَهَا الْأَذَانُ، وَتَطْمئنُ لِإِيْقَاعِهَا الْقُلُوبُ، وَالْأَبْدَانُ.

3- الْعَكْسُ

لَمْ يَتَوَقَّفْ أَدْبَاءُ الْمَقَامَةِ عَنِ الْإِبْدَاعِ، بَلْ تَابَعُوا السَّفَرَ، وَوَاصلُوا الْمَسِيرَ؛ لِيَبْحِرُوا فِي أَعْمَاقِ الْجَمَالِ، وَهَذِهِ الْمَرَّةُ عَنِ طَرِيقِ لَوْنٍ جَدِيدٍ مِنَ الْأَوَانِ الْبِدِيعِ، وَهُوَ (الْعَكْسُ).

(1) الْوُرْغِيِّ، مَقَامَاتُ الْوُرْغِيِّ وَرَسَائِلُهُ (الْمَقَامَةُ الْخَمْرِيَّةُ)، (ص 23).

(2) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 42.

(3) الْيَازِجِيِّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الطَائِيَّةُ)، (ص 261).

(4) الْيَازِجِيِّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْفَرَانِيَّةُ)، (ص 326).

(5) الْيَازِجِيِّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الطَائِيَّةُ)، (ص 261).

وَالْعَكْسُ أَحَدُ الْفُنُونِ الْبَدِيعِيَّةِ الَّتِي تُظْهِرُ بَرَاعَةَ مُسْتَحْدِمِهِ، وَالْمَقْصُودُ بِهِ: أَنْ تُقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ جِزَاءً ثُمَّ تَعَكْسُ، بِأَنْ تُقَدَّمَ مَا أَخْرَتَ، وَتُؤَخَّرَ مَا قَدَّمْتَ. وَيَعْرِفُهُ صَاحِبُ (بَدِيعِ الْقُرْآنِ) ابْنُ أَبِي الْأَصْبَعِ الْمِصْرِيُّ بِقَوْلِهِ: "أَنْ يُؤْتَى بِكَلَامٍ آخِرُهُ عَكْسُ أَوَّلِهِ، كَأَنَّهُ بَدَلٌ فِيهِ الْأَوَّلَ بِالْآخِرِ، وَالْآخِرَ بِالْأَوَّلِ"⁽¹⁾. وَمِنْ شَوَاهِدِ الْعَكْسِ فِي النَّظْمِ قَوْلُ الْمُتَنَبِّي:

إِذَا مَطَرَتْ مِنْهُمْ وَمِنْكَ سَحَابٌ فَوَابِلُهُمْ طَلَّ وَطَلُّكَ وَابِلٌ⁽²⁾.

لَقَدْ اسْتَعْلَى الْأَدْبَاءُ "أَكْبَرَ قَدْرٍ مِنْ إِمْكَانِيَّةِ اللَّغَةِ فِي كِرَاهِيَّتِهَا لِتَوَالِي الْأَمْثَالِ فِي رِصْدِ الْوَانِ مِنَ الْأَدَاءِ، تَعْتَمِدُ عَلَى قِيَمِ الْمَخَالَفَةِ، وَالْمُوَافَقَةِ فِي رَسْمِ الْحُرُوفِ وَنَطْقِهَا، بِحَيْثُ تُرَكَّبُ الْأَلْفَاظُ مِنْ مَجْمُوعَةِ أَحْرَفٍ، ثُمَّ تُعَكْسُ فِي نِظَامِهَا، وَتَرْتِيبِهَا"⁽³⁾.

وَلَعَلَّ هَذَا النَّوعَ هُوَ الَّذِي تَمَثَّلَ بِكَثْرَةٍ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ، حَيْثُ أَظْهَرَ الْأَدْبَاءُ بَرَاعَةً فَائِقَةً فِي تَقْدِيمِهِ، وَتَوْظِيْفِهِ فِي نُصُوصِهِمُ الْمَقَامِيَّةِ بِطَرِيقَةٍ أَسْهَمَتْ مَسَاهِمَةً وَاضِحَةً فِي تَشْكِيلِ الْوَانِ بَدِيعِيَّةٍ رَاقِيَةٍ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَازْجِيِّ: "قَالَ الشَّيْخُ جَزَّكَ اللَّهُ خَيْرَ الْجَزَاءِ، وَجَزَاءَ الْخَيْرِ"⁽⁴⁾، وَقَوْلُهُ: "أَمَا بَعْدُ، يَا عَشَائِرَ الْبَشَائِرِ، وَبَشَائِرَ الْعَشَائِرِ"⁽⁵⁾، وَقَوْلُ مُحَمَّدِ الْمُبَارَكِ: "وَبِالْجَمَلَةِ فَلَيْسَ لِي فِي الْحُسْنِ مِجَارِيَّةٌ، فَكَمْ جَمَعْتَ بَيْنَ جَارِيَةٍ سَاقِيَةٍ، وَسَاقِيَةٍ جَارِيَةٍ"⁽⁶⁾.

وَقَدْ تَفَوَّقَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْمُبَارَكُ فِي هَذَا الْمِيدَانِ تَفَوْقًا ظَاهِرًا، وَكَانَ لَهُ السَّبْقُ فِي رَسْمِ تَشْكِيلَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ مِنَ الْبَدِيعِ قَائِمَةً عَلَى الْعَكْسِ، وَكَأَنَّهُ اجْتَنَى مِنْ كُلِّ بَسْتَانٍ زَهْرَةً، ثُمَّ زَيَّنَ بِهَا مَقَامَاتِهِ، وَمِنْ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ قَوْلُهُ فِي مَقَامَةٍ (نُضْرَةَ الْبِهَارِ فِي مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ): "فَهِيَ مَقَامَةٌ لَطِيفَةٌ تُغْنِي عَنْ مَقَامَاتِ الْبَدِيعِ، وَمَقَالَةٌ ظَرِيفَةٌ تَحْتَوِي عَلَى بَدِيعِ الْمَحَاسِنِ، وَمَحَاسِنِ الْبَدِيعِ"⁽⁷⁾.

(1) المِصْرِيُّ، بَدِيعِ الْقُرْآنِ، (ص 111).

(2) الْمُتَنَبِّيُّ، دِيْوَانِ الْمُتَنَبِّيِّ، (ص 376). الْوَابِلُ: الْمَطَرُ الْغَزِيرُ، الطَّلُّ: الْمَطَرُ الْخَفِيفُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ اتِّبَاعًا مَرْضَاتٍ لِلَّهِ وَتَنبِيئًا مِمَّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 265].

(3) عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، الْبَلَاغَةُ وَالْأُسْلُوبِيَّةُ، (ص 293).

(4) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْعَقِيقِيَّةُ)، (ص 17).

(5) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْمِصْرِيَّةُ)، (ص 307).

(6) الطَّيَّانُ، الْمُفَاخَرَاتُ وَالْمُنَاطَرَاتُ (غَرِيبُ الْأَنْبَاءِ فِي الْمُفَاخَرَةِ بَيْنِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ)، (ص 94).

(7) الطَّيَّانُ، الْمُفَاخَرَاتُ وَالْمُنَاطَرَاتُ (نُضْرَةُ الْبِهَارِ فِي مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)، (ص 124).

حَيْثُ أَظْهَرَ إِمْكَانَاتِ هَائِلَةً، وَقِدْرَاتِ فَائِقَةً فِي الْجَمْعِ بَيْنَ (بَدِيعِ الْمَحَاسِنِ)، وَ(مَحَاسِنِ الْبَدِيعِ) فِي أَسْلُوبِ رَائِقٍ، وَطِرَازٍ فَائِقٍ.

وَفِي مَقَامَةٍ (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِي الْمُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْعُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ) قَدَّمَ مُحَمَّدَ الْمُبَارَكِ مَشْهُدًا بَدِيعِيًّا مَتَفَرِّدًا، يَقُولُ: "فَطَفَّرُوا بِبَدِيعِ الْفُنُونِ، وَفُنُونِ الْبَدِيعِ، وَسَمَّا قَدْرَهُمْ إِلَى سِمَاتِ الْمَجْدِ الرَّفِيعِ"⁽¹⁾. وَكَأَنِّي بِهِ يُحَاوِلُ دَوْمًا أَنْ يَرْكُزَ جَهْدَهُ فِي مَدِيحِ مَنْ تَتَأَوَّلِ الْبَدِيعِ.

وَلَمْ يَهْمَلْ مُحَمَّدَ الْمُبَارَكِ الْجَمْعَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ وَالْأَدْبَاءِ فِي مَشْهُدِ بَدِيعِيٍّ جَدِيدٍ يَقُومُ عَلَى الْعَكْسِ فِي قَوْلِهِ: "وَتَرَجَمْتُ أَسْنَةَ السُّنَّةِ عَن ذَٰلِكَ مَنُوهُةً بِفَضْلِ الْعُرْبَةِ سِرًّا وَجَهْرًا، مَعَ مَا وَرَدَ فِيهَا مِنْ عُلَمَاءِ الْأَدْبَاءِ، وَأَدْبَاءِ الْعُلَمَاءِ نَظْمًا، وَنَثْرًا"⁽²⁾.

لَقَدْ افْتَتَنَ الْمُبَارَكُ بِالْعَكْسِ، وَأَبْدَعَ فِي تَوْضِيحِهِ فِي أَوْقَاتِ السَّمْرِ، وَلِيَالِي الْأَنْسِ، يَقُولُ: "وَبِالْجَمْلَةِ فَلَا يَجْنُحُ إِلَى الْأَوْطَانِ إِلَّا مَنْ سَكَنَ إِلَى رَاحَةِ نَفْسِهِ، وَاعْتَرَّ بِأَنْسِ أَوْقَاتِهِ، وَأَوْقَاتِ أَنْسِهِ"⁽³⁾.

وَلَمْ يَبْرَحْ مُحَمَّدَ الْمُبَارَكِ هَذَا الْفَنَّ فِي الْعُلُومِ وَأَسْرَارِهَا كَذَٰلِكَ، حَيْثُ قَدَّمَ جُزْءًا فِي الْكَلَامِ ثُمَّ عَكَسَ، يَقُولُ: "إِنِّ مَنْ سَلَكَ هَذَا الْمَسْلَكَ مِنَ السَّادَةِ الْأَبْرَارِ، انْكَشَفَ لَهُمْ أَسْرَارَ الْعُلُومِ، وَعُلُومَ الْأَسْرَارِ"⁽⁴⁾. مَعَ مِلَاحَظَةِ التَّوَافُقِ بَيْنَ طَرَفَيْ الْعَكْسِ

هَكَذَا اعْتَلَى مُحَمَّدُ الْمُبَارَكُ قِمَمًا شَمَاءَ، وَعَلَا حَتَّى أَصَابَ عَنَانَ السَّمَاءِ، كَتَبَ فَأَجَادَ الْكِتَابَةَ، وَرَسَمَ فَأَحْسَنَ الرَّسْمَ، وَانْتَقَى مِنْ فُنُونِ الْبَدِيعِ، وَبَدِيعِ الْفُنُونِ فَبَرَعَ فِي الْإِنْتِقَاءِ، وَمِنْ هُنَا امْتَلَكَ هَذَا الرَّجُلُ قُلُوبَ مَعْجَبِيهِ، وَأَلْهَبَ مَشَاعِرَ مُحِبِّيهِ، وَمَلَأَ عَيْنُونَ مَتَابِعِيهِ رُوعَةً، وَجَمَالَ، وَأَطْرَبَ آذَانَهُمْ حُسْنًا، وَجَلَالًا.

4- لُرُومٌ مَا لَا يَلْزَمُ

وَهَذَا اللَّوْنُ مِنْ رَوَائِعِ الْمُحَسَّنَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ اللَّفْظِيَّةِ، وَحَاصِلُهُ "أَنْ يَلْتَرَمَ النَّائِرُ حَرْفًا مَخْصُوصًا، مَعَ انْتِفَاقِ الْكَلِمَتَيْنِ فِي الْأَعْجَازِ"⁽⁵⁾، وَمَعْنَى ذَلِكَ: أَنْ يَجِيءَ قَبْلَ حَرْفِ الرَّوِيِّ، أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ مِنَ الْفَاصِلَةِ، بِمَا لَيْسَ بِلَازِمٍ فِي التَّفْصِيحِ، وَيَلْتَرَمُ فِي بَيْتَيْنِ، أَوْ أَكْثَرَ مِنَ النَّظْمِ، أَوْ فِي

(1) الطَّيَّانُ، مُحَمَّدٌ، الْمُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِي الْمُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْعُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص 151).

(2) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 153.

(3) الْمَرْجِعُ نَفْسُهُ، ص 166.

(4) الْمَرْجِعُ نَفْسُهُ، ص 168.

(5) الْعُلُوبِيُّ، الطَّرَازُ، (563).

فاصلتين، أو أكثر من النثر. ومن شواهدِه في القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿ وَالطُّورِ ١ ﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ﴿ ٢ ﴾ [الطور: 1، 2]. فَالْتَرَمَ وَجُودَ حَرْفَيْنِ اثْنَيْنِ، وهما (الواو، والطاء)، مَعَ التَّرَامِ (الراء) فِي آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (الطور، مسطور).

وتتزيّن النُّصُوصُ المَقَامِيَّةُ بِهَذَا اللَّوْنِ البِدِيعِيّ، خَاصَّةً أَنَّهُ يَقْتَرِبُ كَثِيرًا مِنَ التَّسْجِيعِ، الَّذِي تَرْدَانُ بِهِ النُّصُوصُ المَقَامِيَّةُ، وَقَدْ يَقُومُ هَذَا اللَّوْنُ عَلَى الِاتِّزَامِ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ قَبْلَ حَرْفِ الرَّوِيِّ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ قَوْلُ نَاصِيفِ اليَازِجِيِّ: "وَلَكُمْ حِفْظُ العُهُودِ، وَإِنجَازُ الوُعُودِ"⁽¹⁾. فَالْتَرَمَ وَجُودَ حَرْفٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ (الواو) مَعَ التَّرَامِ (الدَّال) فِي آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (العُهُودِ، الوُعُودِ). وَقَوْلُهُ: "وَقُضِيْنَا غَابِرَ لَيْلَتِنَا فِي تِلْكَ البَطَاحِ، إِلَى أَنْ تَبْلُجَ وَجْهُ الصَّبَاحِ"⁽²⁾. فَالْتَرَمَ وَجُودَ حَرْفٍ وَاحِدٍ، هُوَ (الألف) مَعَ التَّرَامِ (الحاء) فِي آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (البطاح، الصَّبَاحِ). وَزَادَ المَشْهَدَ جَمَالًا التَّشْكِيلَ الِاسْتِعَارِيّ فِي قَوْلِهِ: (تَبْلُجَ وَجْهُ الصَّبَاحِ)، وَمَا فِيهِ مِنْ تَشْخِيسٍ لِلسَّبَاحِ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ مَشْرُقِ الوَجْهِ، بِهَيِّ الطَّلَعَةِ.

ويشاركُ أَحْمَدَ فَارِسَ الشَّدِيَاقِ نَاصِيفَ اليَازِجِيِّ إِبدَاعَاتِهِ؛ لِيَقْدَمَ أُنْمُودَجًا مِنْ هَذَا الضَّرْبِ، يَقُولُ: "وَالوَيْلُ لَكَ إِنْ نَاهَزْتَ الخَمْسِينَ، وَعَجَزْتَ عَنِ التَّمْوِينِ، أَوْ بَدَا الشَّيْبُ فِي عَارِضِيكَ عِنْدَ الأَرْبَعِينَ، أَوْ أَصَابَكَ مَرَضٌ فِي بَعْضِ السَّنِينَ"⁽³⁾. حَيْثُ التَّرَمَ الشَّدِيَاقُ وَجُودَ حَرْفٍ وَاحِدٍ، هُوَ (الياء)، مَعَ التَّرَامِ (النون) فِي آخِرِ الأَسْجَاعِ (الخَمْسِينَ، التَّمْوِينِ، الأَرْبَعِينَ، والسَّنِينَ) فِي تَوْزِيعٍ مُوسِيقِيّ رَائِعٍ.

اقتحمَ شَهَابُ الدِّينِ الخَفَاجِيُّ حِصُونَ هَذَا اللَّوْنِ، وَقَصَدَ أَبْوَابَهُ المُؤَصَّدَةَ، فزَيَّنَ نُصُوصَهُ المَقَامِيَّةَ بِأَعْدَادٍ لَا حَصَرَ لَهَا مِنْهُ، يَقُولُ: "إِذَا سَلَّمَ عَلَى أَهْلِ نَادٍ رَفِيعٍ، فَتَحِيَّتُهُ ضَرْبٌ وَجِيعٌ"⁽⁴⁾. فَقَدِ التَّرَمَ وَجُودَ حَرْفٍ وَاحِدٍ، هُوَ (الياء) مَعَ التَّرَامِ (العَيْن) فِي آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (رَفِيعٍ، وَجِيعٍ). تَارِكًا البَابَ مَفْتُوحًا لِلْمَتَلَقِّي لِيَطْرِبَ سَمْعَهُ بِعَذْبِ المُوسِيقَا، وَرَوَعَةَ الإِنْبِقَاعِ.

أَمَّا أُدْبَاءُ (المُفَاخَرَاتِ وَالمُنَاطَرَاتِ)، فَقَدْ كَانَ لَهُمْ حِظٌّ وَافِرٌ مِنْ هَذَا اللَّوْنِ، حَيْثُ عَرَفُوا جَمِيعًا عَلَى أوتَارِهِ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ قَوْلُ أَحْمَدَ البَرَبِيرِ: "وَأَدَارَتْ عَلَيْنَا سُلَافَ طَلْهَا كُوُوسُ الرُّهُورِ،

(1) اليَازِجِيُّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ الخَطِيبِيَّةُ)، (ص148).

(2) اليَازِجِيُّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ السَّرُوجِيَّةُ)، (ص173).

(3) الشَّدِيَاقُ، السَّاقُ عَلَى السَّاقِ (مَقَامَةُ مَقِيمَةً)، (ص282).

(4) الخَفَاجِيُّ، رِيحَانَةُ الأَلْبَا وَزَهْرَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا (المَقَامَةُ الرُّومِيَّةُ)، (ص370).

قَبْلَ أَنْ تَرشِفَهُ شَمْسُ الْبُكُورِ" (1). فَقَدَ التَّرَمَ الْأَدِيبُ وَجُودَ حَرْفٍ وَاحِدٍ، هُوَ (الواو) مَعَ التَّرَامِ (الرَّاءِ) فِي آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (الرُّهْمِ، الْبُكُورِ).

وَقَدْ يَلْتَزِمُ هَذَا اللَّوْنُ مِنَ الْبَدِيعِ وَجُودَ حَرْفَيْنِ قَبْلَ حَرْفِ الرَّوِيِّ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ فِي التَّنْزِيلِ

الْحَكِيمِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِي سِدْرٍ مَحْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلِيحٍ مَنُضُودٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الْوَاقِعَةُ: 28، 29].

لَمْ يُهْمَلِ الْأَدْبَاءُ الْعُثْمَانِيُّونَ هَذَا اللَّوْنَ فِي نُصُوصِهِمِ الْمَقَامِيَّةِ، مِنْ شَوَاهِدِهِ قَوْلُ نَاصِيْفِ الْيَازِجِيِّ: "قَلَمًا سَكَنْتِ الضَّوْضَاءُ، أَعْرَضَ بِوَجْهِهِ إِلَى الْفَضَاءِ" (2). فَالْتَّرَمَ وَجُودَ حَرْفَيْنِ اثْنَيْنِ، وَهُمَا (الضَّادُ، وَالْأَلْفُ) مَعَ التَّرَامِ (الْهَمْزَةُ) فِي آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (الضَّوْضَاءُ، وَالْفَضَاءُ) مَعَ مَا يَتْرِكُهُ هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ جَرَسٍ مُوسِيقِيٍّ عَذْبٍ.

أَمَّا أَحْمَدُ فَارِسُ الشَّدِيْقِ، فَقَدْ قَدَّمَ أُنْمُوذَجًا بَارِعًا مِنْ هَذَا الضَّرْبِ، يَقُولُ: "قَلْتُ لَا جَرَمَ، لِأَقْصَدَنَّ مَنَابِ الشُّعْرَاءِ، وَلَا تَخَذَنَّهُمْ لِي عُشْرَاءِ" (3). فَالْتَّرَمَ وَجُودَ حَرْفَيْنِ اثْنَيْنِ، هُمَا (الرَّاءُ، وَالْأَلْفُ) مَعَ التَّرَامِ (الْهَمْزَةُ) فِي آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (الشُّعْرَاءُ، وَعُشْرَاءُ). فَازْدَادَ الْمَشْهَدُ جَمَالًا صُحْبَةً الْجَرَسِ الْمُوسِيقِيَّ الرَّائِعِ.

وَيَلْتَزِمُ شِهَابُ الدِّينِ الْخَفَاجِيُّ وَجُودَ حَرْفَيْنِ قَبْلَ الرَّوِيِّ، فَيُبْهَرُ أَسْمَاعَنَا بِعَذْبِ اللَّزُومِ، يَقُولُ: "وَمَا حَالُ وَرْدَةٍ فَارَقَتْ نَسَمَاتِ الْقُبُولِ، فَحَدَاها السَّمُومُ، وَقَادَهَا الدُّبُولُ" (4). فَقَدْ طَالَعْنَا الْأَدِيبُ بِحَرْفَيْنِ اثْنَيْنِ هُمَا (الْبَاءُ، وَالْوَائِ) قَبْلَ حَرْفِ الرَّوِيِّ (الَّلَامِ) فِي آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (الْقُبُولِ، وَالْدُّبُولِ).

وَيَأْبَى ابْنُ الْأَلُوسِيِّ إِلَّا أَنْ يَدْلِيَ بَدْلُوهِ فِي هَذَا الْبَابِ، حَيْثُ التَّرَمَ وَجُودَ حَرْفَيْنِ قَبْلَ الرَّوِيِّ فِي قَوْلِهِ: "يَا مَوْلَايَ، النَّوْبَةُ النَّوْبَةُ، فَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ الْخَمْرَ مَصْبَاحُ السُّرُورِ، لَكِنِّي قَدْ حَقَّقْتُ أَنَّهَا مِفْتَاحُ السُّرُورِ" (5). فَقَدْ طَالَعْنَا بِحَرْفَيْنِ هُمَا (الرَّاءُ، وَالْوَائِ)، مَعَ التَّرَامِ (الرَّاءِ) فِي آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (السُّرُورِ، وَالسُّرُورِ). وَزَادَ الْمَشْهَدَ رُوعَةً التَّشْكِيلِ التَّشْبِيهِيَّ الْبَلِيغِ.

وَقَدْ يَتَفَوَّقُ الْأَدْبَاءُ فَيَلْتَزِمُوا وَجُودَ أَكْثَرَ مِنْ حَرْفَيْنِ قَبْلَ حَرْفِ الرَّوِيِّ، لَكِنَّ هَذَا الضَّرْبَ يَحْتَاجُ قُدْرَةً عَالِيَةً، وَإِمْكَانَاتٍ هَائِلَةً، وَمِنْ مَشَاهِدِهِ قَوْلُ نَاصِيْفِ الْيَازِجِيِّ: "فَنزَلْنَا حَيْثُ تَنْزَلُ أَبْنَاءُ

(1) الطَّيَّانُ، الْمُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (مَقَامَةٌ فِي الْمُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ)، (ص 24).

(2) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ السَّرُوجِيَّةُ)، (ص 174).

(3) الشَّدِيْقِ، السَّاقُ عَلَى السَّاقِ (مَقَامَةٌ مَقِيْمَةٌ)، (ص 281).

(4) الْخَفَاجِيُّ، رِيْحَانَةُ الْأَلْبَا وَزَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (الْمَقَامَةُ الرَّوْمِيَّةُ)، (ص 370).

(5) ابْنُ الْأَلُوسِيِّ، مَقَامَاتُ ابْنِ الْأَلُوسِيِّ، (رَجَزُ الْمَعْرُورِ عَنِ رَجَزِ الْعُرُورِ)، (ص 110).

السَّبِيلِ، وَبَاتَ الشَّيْخُ يُطْرِفُنَا بِحَدِيثِ أَشْهَى مِنَ السَّلْسَبِيلِ"⁽¹⁾. حَيْثُ التَّرَمُّ وَجُودَ ثَلَاثَةِ حُرُوفٍ، هِيَ (السَّيْنُ، الْبَاءُ، وَالْيَاءُ)، مَعَ التَّرَامِ (الَّلَامِ) فِي آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (السَّبِيلِ، وَالسَّلْسَبِيلِ).

وَيُبَدِّعُ أَحْمَدُ فَارِسَ الشَّدْيَاقِ فِي تَشْكِيلِ لَوْحَةٍ بَارِعَةٍ مِنْ لُزُومٍ مَا يَلْزَمُ، مُقَدِّمًا أُنْمُودَجًا أَخَذًا مَلْتَزِمًا فِيهِ بِثَلَاثَةِ حُرُوفٍ قَبْلَ الرَّوِيِّ، يَقُولُ: "إِذْ لَسْتُ بِصَاحِبِ أَسْفَارٍ، بَلْ حَلِيفٌ تَطَوَّفَ وَأَسْفَارٍ"⁽²⁾. حَيْثُ اسْتَعْمَلَ الشَّدْيَاقُ الْجِنَاسَ التَّامَّ الْمُمَاتِلَ هُنَا، وَالتَّرَمُّ وَجُودَ ثَلَاثَةِ حُرُوفٍ، هِيَ (السَّيْنُ، وَالْفَاءُ، وَالْأَلْفُ)، مَعَ التَّرَامِ (الرَّاءِ) فِي آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (أَسْفَارٍ، وَأَسْفَارِ).

وَكِعَادَتِهِ لَا يَبْرُحُ عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِي لُونًا مِنْ أَلْوَانِ الْبَدِيعِ إِلَّا وَضَمَّنَهُ نِصْوَصَهُ الْمَقَامِيَّةَ، وَهُنَا يَشْكَلُ لَوْحَةً مِنْ لَوْحَاتِ هَذَا اللَّوْنِ الْبَدِيعِيِّ، يَقُولُ: "الْمُعَاشِرُ لِلْعُلَمَاءِ وَالْأَتْقِيَاءِ، وَالْمَلَازِمُ لِلْجُهَلَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ"⁽³⁾. فَقَدْ اِمْتَلَكَ الْأَدِيبُ قُدْرَةً، وَأَيُّ قُدْرَةٍ عَلَى التَّرَامِ ثَلَاثَةَ حُرُوفٍ، هِيَ (الْقَافُ، الْيَاءُ، وَالْأَلْفُ)، مَعَ التَّرَامِ (الْهَمْزَةُ) فِي آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (الْأَتْقِيَاءِ، وَالْأَشْقِيَاءِ). صُحْبَةَ عَذْبِ الْمُوسِيقَاءِ، وَالْمُوسِيقَاءِ الْعَذْبَةِ.

وَلَمْ يَفَارِقْ أَدْبَاءُ (الْمُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ) هَذَا اللَّوْنَ، فَقَدْ تَوَشَّحَتْ بِهِ نُصُوصُهُمُ الْمَقَامِيَّةَ لَمَّا قَصَدُوا تَصْوِيرَ بَرَاعَتِهِمُ الْأَدَبِيَّةَ، وَإِظْهَارَ قُدْرَاتِهِمُ الْبَلَاغِيَّةَ، وَتَأْكِيدَ مَهَارَاتِهِمُ الْلُغَوِيَّةَ، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ: "طَالَمَا عَبَثْتُ أَيْدِي الْحَدَثَانِ بِلَطَائِفِكَ الرَّاهِرَةِ، وَنَفَثْتُ أَرَاقِمَ اللَّيَالِي بِسُمُومِ سَمُومِهَا فِي مَحَاسِنِكَ الْبَاهِرَةِ"⁽⁴⁾. حَيْثُ أَسْعَدَ قَلُوبَنَا بِرِسُومِ بَاهِرَةٍ تُوْحِي بِامْتِلَاكِهِ قُدْرَةَ فَائِقَةَ عَلَى الْاِئْتِقَاءِ، فَقَدْ التَّرَمُّ ثَلَاثَةَ حُرُوفٍ، هِيَ (الْأَلْفُ، الْهَاءُ، وَالرَّاءُ)، مَعَ التَّرَامِ التَّاءِ الْمَرْبُوطَةِ فِي آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (الْبَاهِرَةِ، وَالرَّاهِرَةِ).

أَمَّا ابْنُ الْأَلُوسِيِّ فَيَعْلُو صَوْتَهُ مَغْرَدًا فِي مَقَامَاتِهِ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ، يَقُولُ: "وَأَعْلَمُ أَنَّهُ بَابُ الْفُتُوحِ، وَفَرِحَ يَجُولُ فِي مِيَادِينِ الرُّوحِ، بِهِ تَتَجَلَّى نَوَاطِرُ الْعُقُولِ، وَتَتَجَلَّى أَسْرَارُ الْمَنْقُولِ وَالْمَعْقُولِ"⁽⁵⁾. حَيْثُ طَالَعْنَا بِهَذَا اللَّوْنِ فِي أُسْلُوبِ بَدِيعٍ لَمَّا التَّرَمُّ ثَلَاثَةَ حُرُوفٍ، مُرَاجِعًا بَيْنَ الْجِنَاسِ الْمُذِيلِ، وَلِزُومِ مَا لَا يَلْزَمُ، وَالْحُرُوفِ هِيَ (الْعَيْنُ، الْقَافُ، وَالْوَاوُ)، مَعَ التَّرَامِ (الَّلَامِ) فِي آخِرِ السَّجْعَتَيْنِ (الْعُقُولِ، وَالْمَعْقُولِ).

(1) الْبَيَّازِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْعَاصِمِيَّةُ)، (ص 239).

(2) الشَّدْيَاقُ، السَّاقُ عَلَى السَّاقِ (مَقَامَةُ مَقْعَدَةٍ)، (ص 131).

(3) فِكْرِي، الْآثَارُ الْفِكْرِيَّةُ (الْمَقَامَةُ الْفِكْرِيَّةُ)، (ص 276).

(4) الطَّيَّانُ، الْمَفَاخَرَاتُ وَالْمُنَاطَرَاتُ (عَرِيبُ الْأَنْبَاءِ فِي مُنَاطَرَةِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ)، (ص 104).

(5) ابْنُ الْأَلُوسِيِّ، مَقَامَاتُ ابْنِ الْأَلُوسِيِّ، (رَجَزُ الْمَغْرُورِ عَنْ رَجَزِ الْعُرُورِ)، (ص 72).

هَكَذَا سَحَرَ الْأَدْبَاءُ أَعْيُنَ الْقُرَاءِ بِلِمَسَاتٍ بَارِعَةٍ، وَأَطْرَبُوا أَسْمَاعَهُمْ بِنِعْمَاتٍ عَذْبَةٍ، وَحَرَكُوا أَحَاسِيَهُمْ بِنِسْمَاتٍ رَقِيقَةٍ، وَأَحَاطُوا مَشَاعِرَهُمْ بِمِهْمَاتٍ دَافِنَةٍ، لَمَّا أَبْحَرُوا فِي عَوَالِمِ هَذَا اللَّوْنِ، وَكَأَنِّي بِهِؤْلَاءِ شَرَعُوا يَخْطُونَ بَرِيشتِهِمْ فِيبِهْرُونَ، وَيُشْكَلُونَ بِأَنَامِلِهِمْ فَيَسْعُدُونَ، وَيَرْسُمُونَ بِأَلْوَانِهِمْ فَيَمْتَعُونَ، وَقَدْ نَصَبُوا أَنْفُسَهُمْ مَقَالِيدَ الْبَهَاءِ وَالْجَمَالِ، وَأَلْبَسُوهَا تِيْجَانَ الْحُسْنِ وَالْجَلَالِ، فَأَثْبَتُوا لِلدَّانِي، وَالْقَاصِي أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِالرِّيَادَةِ، وَأَوْلَى بِالسِّيَادَةِ.

5- الْاِكْتِفَاءُ

الْاِكْتِفَاءُ لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ الْبَدِيعِ، وَيُقْصَدُ بِهِ "أَنْ يَحْذِفَ الشَّاعِرُ مِنَ الْبَيْتِ شَيْئاً يَسْتَعْنِي عَنْ ذِكْرِهِ بِدَلَالَةِ الْعَقْلِ"⁽¹⁾. وَقَدْ وَرَدَ فِي مَوَاضِعَ قَلِيلَةٍ فِي النُّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ قَوْلُ نَاصِيْفِ الْيَازْجِي فِي (الْمَقَامَةِ النَّجْدِيَّةِ):

مِنْ لَقَبِ الْأَشْهْرِ وَالصَّوَّانِ	مُؤْتَمَرٍ وَنَاجِرٍ خَوَّانِ
وَبَعْدَ ذَلِكَ بَاطِلٌ وَعَادِلٌ	زِيَاءٍ بَائِدٌ أَصَمٌّ وَاعِلٌ
وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ وَالسَّلَامُ ⁽²⁾	وَرِنَّةٌ وَتِيْرِكُ الْخَتَامِ

وَقَوْلُهُ: وَالسَّلَامُ، أَي: وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ، وَهَذَا مِنْ بَابِ الْاِكْتِفَاءِ الْبَدِيعِيِّ.

6- التَّشْطِيرُ

مِنْ رَوَائِعِ الْمُحَسَّنَاتِ اللَّفْظِيَّةِ، التَّشْطِيرُ، وَالْمَقْصُودُ بِهِذَا اللَّوْنُ "أَنْ يَتَوَازَنَ الْمِصْرَاعَانِ وَالْجِزْأَنِ، وَتَتَعَادَلَ أَقْسَامُهُمَا مَعَ قِيَامِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِنَفْسِهِ، وَاسْتِغْنَائِهِ عَنْ صَاحِبِهِ"⁽³⁾. وَمِنْ

(1) الهاشمي، جواهر البلاغة، (ص 297).

(2) اليازجي، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ النَّجْدِيَّةِ)، (ص 406). الْبَيْتَانِ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي، وَالشَّطْرُ الْأَوَّلُ مِنَ الْبَيْتِ الثَّلَاثِ أَسْمَاءُ الْأَشْهْرِ عِنْدَ الْجَاهِلِيَّةِ. فَالْمُؤْتَمَرُ شَهْرٌ مُحْرَمٌ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ السَّنَةِ فَكُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَقْصِيَّتِهَا يَأْتُرُ بِهِ، وَصَفَرُ النَّاجِرِ مِنَ النَّجْرِ، أَي شِدَّةُ الْحَرِّ، وَالزِّيْبُ الْأَوَّلُ الْخَوَّانُ مِنَ الْخِيَانَةِ، وَالرَّبِيعُ الثَّانِي الصَّوَّانُ مِنَ الصِّيَانَةِ، وَجَمَادِي الْأَوَّلَى الزِّيَاءُ، وَهِيَ الدَّاهِيَةُ الْكَبِيرَةُ، وَالْأُخْرَى الْبَائِدُ، لِكَثْرَةِ الْقِتَالِ وَالْقَتْلِ فِيهَا، وَرَجَبُ الْأَصْمِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُونَ فِيهِ عَنِ الْقِتَالِ فَلَا تُسْمَعُ فِيهِ أَصْوَاتُ السَّلَاحِ، وَشُعْبَانُ الْوَاعِلِ، وَهُوَ الدَّاخِلُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَدْعُوهُ لِهَجُومِهِ عَلَى رَمْضَانَ، وَرَمْضَانَ الْبَاطِلِ، وَهُوَ كَوْزُ يَكَالُ بِهِ الْخَمْرُ، وَشَوْالُ الْعَادِلِ، لِأَنَّهُ مِنْ أَشْهُرِ الْحَجِّ فَكَانَ يَشْتَبَهُمْ عَنْ غَيْرِ مَهْمَاتِهِ، وَذُو الْقَعْدَةِ رِنَّةٌ لِأَنَّ الْأَنْعَامَ كَانَتْ تَرْنُ فِيهِ لِقَرَبِ النَّحْرِ، وَذُو الْحِجَّةِ تِيْرِكُ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتْرَكُونَ الْإِبِلَ فِيهِ. www.saaaid.net/mktarat/mohram/55.htm

(3) العسكري، الصناعاتين، (ص 463).

شَوَاهِدِ التَّشْطِيرِ فِي النَّثْرِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: "مَنْ عَتَبَ عَلَى الرَّمَانِ طَالَتْ مَعْتَبَتُهُ، وَمَنْ رَضِيَ عَنِ الرَّمَانِ طَابَتْ مَعِيشَتُهُ"، فَالْجُزْأَنِ فِي الشَّاهِدِ مُتَوَازِنَا الْأَلْفَاظِ وَالْأَبْنِيَةِ.

أَمَّا فُرْسَانُ الْمَقَامَةِ فَقَدْ أُوْلِعُوا فِي نُصُوصِهِمْ بِهَذَا النَّوعِ مِنَ الْمُحَسِّنَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ، وَوَضَّفُوهُ فِي دَعْمِ أَفْكَارِهِمْ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَإِمْتَاعِ الْمُتَلَقِّي مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى بِمَا يَحْوِيهِ مِنْ مُوسِيقَا تَطْرَبُ لَهَا الْأَذَانُ، وَتَهْتَرُ لَهَا الْمَشَاعِرُ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ فِي نُصُوصِهِ الْمَقَامِيَّةِ، قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ فِكْرِي: "إِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ، فَإِنَّهَا تُكْنَى أَمَّ النَّدَامَةِ؛ لِأَنَّ صَاحِبَهَا يَقُولُ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ، وَيُجِيبُ قَبْلَ أَنْ يَفْهَمَ، وَيَعْزِمُ قَبْلَ أَنْ يُفَكِّرَ، وَيَقْطَعُ قَبْلَ أَنْ يُقَدِّرَ، وَيَحْمَدُ قَبْلَ أَنْ يُجَرِّبَ"⁽¹⁾. حَيْثُ وَرَدَ جُزْأَنِ مُتَوَازِنَا الْأَلْفَاظِ وَالْأَبْنِيَةِ، وَهُمَا:

يُقُولُ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ

وَيُجِيبُ قَبْلَ أَنْ يَفْهَمَ

ثُمَّ تَبِعَهَا ثَلَاثَةُ أَجْزَاءٍ مُتَوَازِنَةٍ الْأَلْفَاظِ وَالْأَبْنِيَةِ، وَهِيَ:

يَعْزِمُ قَبْلَ أَنْ يُفَكِّرَ

يَقْطَعُ قَبْلَ أَنْ يُقَدِّرَ

يَحْمَدُ قَبْلَ أَنْ يُجَرِّبَ

وَمِنْ شَوَاهِدِهِ كَذَلِكَ قَوْلُ شِهَابِ الدِّينِ الْخَفَاجِيِّ: "فَعَيَّضَ مِنْ عِبْرَاتِهِ، وَخَفَّضَ مِنْ زَفَرَاتِهِ"⁽²⁾. حَيْثُ أوردَ جُزْأَيْنِ مُتَوَازِنَيْنِ فِي الْأَلْفَاظِ وَالْأَبْنِيَةِ، وَهُمَا:

فَعَيَّضَ مِنْ عِبْرَاتِهِ

وَخَفَّضَ مِنْ زَفَرَاتِهِ

وَمِنْ التَّشْطِيرِ قَوْلُ بَهَاءِ الدِّينِ الْبَيْطَارِ: "فَارْتَقَتْ عَرَشَ الْبِرَاعَةِ وَالْجَمَالِ، وَانْتَقَتْ فَرْشَ الْبِرَاعَةِ وَالْكَمَالِ"⁽³⁾. حَيْثُ وَرَدَ جُزْأَنِ مُتَوَازِنَا الْأَلْفَاظِ وَالْأَبْنِيَةِ، أَحْسَنَ الْأَدِيبُ إِيرَادَهُمَا بِأَسْلُوبِ أَدَبِي رَفِيعٍ، وَهُمَا:

(1) فِكْرِي، الْآثَارُ الْفِكْرِيَّةُ (الْمَقَامَةُ الْفِكْرِيَّةُ)، (ص 294).

(2) فِكْرِي، الْآثَارُ الْفِكْرِيَّةُ (مَقَامَةُ فِي حَسَنِ الْوَفَاءِ)، (ص 307).

(3) الطِّيَّانُ، الْمَفَاخِرَاتُ وَالْمُنَاطَرَاتُ (مِنَاطِرَةُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ)، (ص 57).

فَارْتَقَتْ عَرْشَ الْبِرَاعَةِ وَالْجَمَالِ

وَأَنْتَقَتْ فَرْشَ الْبِرَاعَةِ وَالْكَمَالِ

وَعَرَفَ نَاصِيفُ الْيَارِجِيِّ فِي نُصُوصِهِ الْمَقَامِيَّةِ عَلَى أوتَارِ النَّشْطِيرِ أَعْدَبَ الْكَلِمَاتِ، وَتَغْنَى بِأَجْمَلِ النَّعْمَاتِ، يَقُولُ: "فَبِتْنَا نَتَلَاعَبُ بِالْفَاطِ الْكَلَامِ الْمُشَقِّقِ، وَنَتَجَادَبُ أَعْطَافَ الْحَدِيثِ الْمُرَقَّقِ"⁽¹⁾. فَقَدْ أوردَ الْيَارِجِيُّ شَطْرَيْنِ مُتَوَازَيْنِ فِي الْأَلْفَاظِ وَالْأَبْنِيَةِ، وَيُمْكِنُ تَوْضِيحُ ذَلِكَ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

نَتَلَاعَبُ بِالْفَاطِ الْكَلَامِ الْمُشَقِّقِ

نَتَجَادَبُ أَعْطَافَ الْحَدِيثِ الْمُرَقَّقِ

وَيَتَأَلَّقُ أَحْمَدُ فَارِسُ الشَّدِيَاقِ فِي عَوَالِمِ النَّشْطِيرِ أَيَّمَا تَأَلَّقٍ، حَيْثُ جَمَعَ بَيْنَ دَفْنِي نُصُوصِهِ الْمَقَامِيَّةِ عَدَدًا كَبِيرًا مِنْ الْمَقَاطِعِ بِطَرِيقَةٍ بَارِعَةٍ، وَصَلَتْ أحيانًا إِلَى أَرْبَعَةِ عَشَرَ مَقْطَعًا، رَاجِحَ بَيْنَ كُلِّ جُمْلَتَيْنِ حَتَّى أَضْحَتْ عِبَارَتُهُ كَعُقْدِ الدَّرِّ النَّضِيدِ، يَقُولُ: "وَقَدْ قِيلَ فِي الْأَمْثَالِ السَّائِرَةِ سَيْرَ الْعَجَاجِ، فِي كُلِّ فَجَاجٍ. مَنْ لَمْ يَكُنْ ذَا رَوْجَةٍ، كَانَ ذَا أَرْوَجٍ، قِيلَ فَمَنْ؟ ثُمَّ كَانَتْ خُطُواتِ الْعَرَبِ أَوْسَعَ، وَحَرَكَتُهُ أَسْرَعَ، وَكَلَامُهُ أَنْجَعَ، وَإِنَاؤُهُ أَتْرَعَ، وَنِعْمَتُهُ أَرْحَمَ، وَنَهْمَتُهُ أَضْرَمَ، وَنَهْرَتُهُ أَقْوَى، وَمَرْزَتُهُ أَرْوَى، وَسِنَانُهُ أَذْلَقَ، وَسَهْمُهُ أَحْسَقَ، وَنَشْرُهُ أَعْبَقَ، وَحُبُّهُ أَعْلَقَ، وَطَعْمَتُهُ أَطْيَبَ، وَأَوْقَرَ، وَمَادَتُهُ أَسْكَبَ، وَأَغَزَرَ"⁽²⁾.

وَلَمْ يَكْتَفِ أَحْمَدُ فَارِسُ الشَّدِيَاقِ فِي نَصِّهِ الْمَقَامِيِّ بِالنَّشْطِيرِ، بَلْ أَضْفَى إِلَى عِبَارَتِهِ جَمَالًا إِلَى جَمَالٍ لَمَّا وَشَحَّهَا بِالسَّجْعِ الْمُرْصَعِ، حَيْثُ تَتَّفَقُ أَلْفَاظُ الْفِقْرَتَيْنِ، أَوْ أَكْثَرُهَا فِي الْوَزْنِ وَالنَّقْفِيَّةِ، وَرَبَّيْنَهَا بِالسَّجْعِ الْمُتَوَازِي حَيْثُ تَتَّفَقُ الْفِقْرَتَانِ فِي الْوَزْنِ وَالرَّوْيِ، مُعْتَمِدًا عَلَى الدَّالِ (أَفْعَل) النَّقْضِيلِ، وَيُمْكِنُ بَيَانُ الْمَشَاهِدِ الْهَنْدَسِيَّةِ الَّتِي قَدَّمَهَا الشَّدِيَاقُ وَقَدْ اسْتَحَالَتْ بَيْنَ أَنْامِلِهِ أَشْبَهُ بِعُقُودِ الدَّرِّ النَّضِيدِ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي، حَيْثُ اسْتَهْلَّ حَدِيثُهُ بِقِسْمَةِ رُبَاعِيَّةٍ بَارِعَةٍ مُسْتَعِينًا بِالسَّجْعِ الْمُتَوَازِي:

(1) الْيَارِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الرَّصَافِيَّةُ)، (ص339). الْمَشَقَّقُ: الْمَخْرَجُ أَحْسَنُ مَخْرَجٍ، الْمُرَقَّقُ: مَنْ تَرْفِيقِ الْكَلَامِ، وَهُوَ تَحْسِينُهُ.

(2) الشَّدِيَاقُ، السَّاقُ عَلَى السَّاقِ، (مَقَامَةٌ مَمْشِيَّةٌ)، (ص359). أَحْسَقُ: شَدِيدُ الْإِصَابَةِ، الْجَوْهَرِيُّ، الصَّحَاحُ (ج4/1469)، مَادَةٌ (خَسَقُ). أَذْلَقُ: طَلَقَ اللِّسَانَ، الْجَوْهَرِيُّ، الصَّحَاحُ (ج4/1479)، مَادَةٌ (ذَلَقُ)، أَتْرَعَ: أَتْرَعَ الْإِنَاءَ، مَلَأَهُ، الْجَوْهَرِيُّ، الصَّحَاحُ (ج3/1191)، مَادَةٌ (تَرَعَ).

خُطَوَاتُهُ أَوْسَعُ

حَرَكَتُهُ أَسْرَعُ

كَلَامُهُ أَنْجَعُ

إِنِّاؤُهُ أَتْرَعُ

ثُمَّ تَلَّى بِمِرَاوَجَةٍ مُسْتَعِينًا بِالسَّجْعِ الْمُرْصَعِ، فِي قَوْلِهِ:

نَعْمَتُهُ أَرْخَمُ

نَهْمَتُهُ أَضْرَمُ

وَقَوْلِهِ:

نَهْرَتُهُ أَقْوَى

مِرَّتُهُ أَرْوَى

ثُمَّ تَلَّتْ بِتَشْطِيرٍ رُبَاعِيٍّ مُعْتَمِدًا عَلَى قَافِيَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ قَافِيَةُ (القَافِ) صُحْبَةَ السَّجْعِ الْمُرْصَعِ فِي قَوْلِهِ:

سِينَانُهُ أَذْلَقَ

سَاهِمُهُ أَخْسَقَ

نَشْرُهُ أَغْبَقَ

حُبُّهُ أَغْلَقَ

وَحَتَمَ حَدِيثَهُ بِالْعُودَةِ إِلَى التَّشْطِيرِ بَيْنَ جُمْلَتَيْنِ مُتَسَاوِيَتَيْنِ جَمَعَهُمَا التَّرْصِيعُ فِي قَوْلِهِ:

طَعْمَتُهُ أَطْيَبَ، وَأَوْقَرَ

مَادَّتُهُ أَسْكَبَ، وَأَغْزَرَ

هَكَذَا صَمَّمَ الْأُدْبَاءُ أَشْكَالًا هَنْدَسِيَّةً بَدِيعَةً، زَيَّنَهَا التَّوَارُنُ، وَجَمَلَهَا رَوْعَةُ التَّلَاعِبِ بِالْأَلْفَاظِ، وَكَسَّنَهَا زِينَةً دِقَّةَ الرَّسْمِ بِالْكَلِمَاتِ، وَزَادَ بَهَاءَهَا الْجَرَسُ الْمُوسِيقِيُّ الْعَدْبُ الَّذِي تَطْرَبُ لِحَمَالِهِ الْأَدَانُ، وَتَسْتَقِرُّ لِحُسْنِهِ الْأَبْدَانُ.

وَعَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ، فَقَدْ تَأَلَّقَ أَدْبَاءُ الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ أَيَّمَا تَأَلَّقَ لَمَّا وَقَفُوا عَلَى مَسْرَحِ الْبَدِيعِ، وَتَفَوَّقُوا لَمَّا مَتَلَّوْا أَحْدَاثَ فُصُولِهِ، حَيْثُ غَدَا هَوْلَاءِ أَشْبَهَ بِفَنَانِ بَارِعٍ يُطْلِقُ الْعَنَانَ لِرَيْشَتِهِ فَيَرْسُمُ أَجْمَلَ اللَّوْحَاتِ، أَوْ نَحَاتِ مُبْدِعٍ يُشْكَلُ بِأَنَامِلِهِ الدَّهْيِيَّةِ أَرْوَاعَ التَّشْكِيلَاتِ، أَوْ قُلِّ إِنْ شِئْتَ صَائِعَ مَاهَرٍ يَنْظِمُ عُقُودَ الْجَوَاهِرِ، وَوَالِيَّ الدَّرِّ، فَقَدْ اْمْتَلَكَ هَوْلَاءِ زِمَامَ الْبَدِيعِ، وَعَنَانَ الْوَانِهِ، وَأَحْكَمُوا شِكَايِمَ خُطُوطِهِ، فَشَرَعُوا يُضَمِّتُونَ نُصُوصَهُمُ الْمَقَامِيَّةِ نَمَازِجَ مِنَ الْمَحْسَنَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ، وَأُخْرَى مِنَ الْمَحْسَنَاتِ اللَّفْظِيَّةِ دُونَ مَبَالِغَةِ أَوْ إِسْرَافِ، فَارْتَدَّتْ كُلُّ أَنْمُودِجِ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ الْجَمَالِ، وَلَمْ يَقِفِ الْأَمْرُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، بَلْ تَفَوَّقَ هَوْلَاءِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَمَّا قَصَدُوا أَلْوَانَ الْبَدِيعِ، فَتَهَلَّوْا مِنْ مَوَارِدِ الطَّبَاقِ وَالْمُقَابَلَةِ، وَقَطَفُوا مِنْ حَدَائِقِ الثَّرْوِيَّةِ وَالْمُشَاكَلَةِ، وَلَمْ يَبْرَحِ الْأَدْبَاءُ أَمَاكِنَهُمْ فَصَعَدُوا الْقِمَمَ السَّمَاءِ، وَالرُّبَى الْعُلْيَاءِ، وَأَلْقَوْا حِبَالَ نُصُوصِهِمْ، فَسَحَرُوا أَعْيُنَ الْفُرَّاءِ بِعَذَبِ التَّجْنِيسِ، وَرَوَائِعِ التَّسْبِيعِ، وَأَطْرَبُوا آذَانَهُمْ بِجَمِيلِ الْعَكْسِ، وَبَدَائِعِ التَّشْطِيرِ، وَكَأَنِّي بِهِمْ قَدْ صَهَرُوا رَوَائِعَ الْبَدِيعِ، وَبَدِيعِ الرُّوَائِعِ فِي بَوْتَقَةِ الْحُسْنِ فَفَاقُوا بِهَا سَابِقِيهِمْ، وَفَتَحُوا الْأَبْوَابَ الْمُؤَصَّدَةَ لِتَابِعِيهِمْ لِافْتِحَامِ حَلْبَةِ الْمُنَافَسَةِ، وَدُخُولِ مَيْدَانِ الصَّرَاحِ؛ لَعَلَّ النُّقَادَ بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ الدَّلَائِلِ يُنْصِفُونَ عَصْرًا ذَهَبِيًّا تَعَرَّضَ دَوْمًا لِلِافْتِرَاءِ، وَأَدْبَابًا بَارِعًا عَانَى مُطْلَقًا التَّهْمِيشِ وَالْإِزْدِرَاءِ، وَأَدْبَاءَ جَادِيْنَ حَكَمَتْ أَفْلَامُ الْحَاقِدِينَ عَلَيْهِمُ بِالشَّقَاءِ.

الفصلُ الرَّابِعُ
جَمَالِيَّاتُ التَّشْكِيلِ اللَّوْنِيِّ،
وَالْحَرَكَِيِّ، وَالصَّوْتِيِّ، وَالْأُسْلُوبِيِّ
فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ

الفصل الرابع: التشكيل اللوني، والحركي، والصوتي، والأسلوبي

المبحث الأول: التشكيل اللوني

إذا رُمتَ جمالاً، وقصدتَ حسناً، وأردتَ بهاءً فبادرْ إلى الألوانِ متّع بها ناظرُك، وقلّبها أُنّى شئتَ، وكيفما أردتَ.

وإن أردتَ أعلى مراتبِ الحُسنِ في الألوانِ، وأتمّ مجامعِ البهاءِ فيها فلَكَ أنْ تنتقلَ بينَ دلالاتِها فحتماً ستجد الحُسنَ، والبهاءَ، ومؤكداً سترى الجلالَ، والصفاءَ. فمن هُدوءِ تبيّضُ، وبييضِ، وبييضتِ، وبيضاءَ، إلى كدرِ تَسوّدُ، وسوّدِ، واسودّتِ، وسوداءَ، ومن نسماتِ خُضرٍ إلى صفاءِ صفراءَ، ومن دَمويّةِ اللونِ الأحمرِ، إلى هُدوءِ أزرقِ، وسكينةِ زرقاءَ.

إنّ مشاهدَ الجمالِ التي يرسمها التشكيلُ، ويزيئها استخدامُ الألوانِ تُعدُّ منَ المشاهدِ المرئيةِ الأخاذةِ، والنماذجِ المشاهدةِ المُبهرةِ التي يقفُ أمامها أصحابُ الحسِّ المرهفِ، وأربابُ الأناملِ الذهبيةِ مبهورينَ، قد لا يقوى أحدٌ منهم على محاكاةِ تلكَ المشاهدِ من قريبٍ أو بعيدٍ، أو تقليدِ تلكَ المساحاتِ الواسعةِ من الجمالِ البديعِ؛ إذ إنّ البونَ واسعٌ، والمسافةُ شاسعةٌ بينَ هذا وتلكَ.

أما فلسفةُ الجمالِ في استخدامِ الألوانِ في التشكيلِ فإنّها لا تُضاهيها فلسفةُ، وإنّ منطقَ الحُسنِ في عَنصرِها لا يضارعه منطقُ، وإنّ مستوى البهاءِ لا يحاكيه مُستوى؛ فنحنُ - حتماً - أمامَ تشكيلِ لونيٍّ مُبهرٍ لا يدركه إلا أصحابُ الحسِّ المرهفِ، ولا يعي كُنْهَهُ إلا أصحابُ العقولِ الرشيّدةِ، وأربابُ الآراءِ السديّدةِ.

إنّ اللونَ في المقاماتِ العُثمانيّةِ حملَ لنا دلالةً رُبّما ترسّمُ لنا دُرُوبَ الكرامةِ التي تنقلنا إلى عَصْرِ الأمانِ. كما حملَ لنا أيضاً دلالةَ العِزّةِ، والقُوّةِ التي أُرْهِبَتِ الأعداءَ، ورَسَمَتِ لَهُم دُرُوبَ الخُوفِ، وخُوفَ الدُرُوبِ، وألْقَتِ بِهِم في جَحِيمِ النيرانِ، ونيرانِ الجَحِيمِ. كما أنّها ضَمَّتْ بينَ جنباتها باقاتٍ مُنتوّعةً من لُوحاتِ الطّبيّعةِ التي تبهرُ الألبابَ بما يجري فيها من جداولٍ وأنهارٍ، وتسعدُ القلوبَ بما يحوي ثراها من نخيلٍ وأشجارٍ، ويُنْعِشُ المشاعرَ ما يتراقصُ في جنباتها من ورودٍ، وأزهارٍ.

تلكَ اللُوحاتُ التي فاقَ بها كُتّابُ المقاماتِ أعظمَ الأدباءِ، وسابقوا فيها أفصحَ الشعراءِ، حتّى لكانَ القارئُ حينَ يَغوصُ في أعماقِ هذه المقاماتِ، ويسنُرُ أغوارَ تلكَ النُصوصِ، يعودُ

إلى روائع الحريري، وبديع الزمان الهمداني، وبدائع السرقسطي، أو ينتسم عقب التاريخ عند لسان الدين بن الخطيب، وأبي حفص الشهيد، وابن شرف القيرواني.

ومن الملفت للنظر تلك الوشائج بين التشكيل واللون، فاستخدام مادة التشكيل تحمل مزيداً من الدلالات اللونية، وكان هناك علائق متقاربة بين التشكيل واللون، ويبدو ذلك جلياً في معاجم اللغة، فالأشكال مثلاً ما فيه بياض وسواد، والشكلة الحمرة تختلط بالبياض، ودم أشكل فيه بياض وحمرة، والأشكال من الإبل والغنم: الذي تخلط سواده حمرة، وغبرة، أو غيرهما، وقيل في صفة العين أشكل العين: أي في بياضها شيء من حمرة، وقيل الشكلة في العين الصفرة التي تخلط بياض العين الذي حول الحدقة على صفة عين الصقر⁽¹⁾.

ويؤكد صاحب معجم الصحاح، ابن حماد الجوهري تلك الوشائج في تناوله مادة (شكل)، فقد سافر بين حروف الشكل منتقلاً من لون إلى لون، فالأشكال من الشاء: الأبيض الشاكلة؛ والأنثى شكلاء بينة الشكل، والشكلة كهينة الحمرة تكون في بياض العين، كالسهلة في سوادها، ومنها عين شكلاء، ورجل أشكل العين، ودم أشكل إذا كان فيه بياض وحمرة، ويقال أيضاً بالفرس شكال، وهو أن تكون ثلاث قوائم محجلة، وواحدة مطلقة، ومنه تشكل العنب: أينع بعضه، وأشكل النخل، أي طاب رطبُه وأدرك⁽²⁾.

اللُّونُ لُغَةً وَاصْطِلَاحًا

إن الحديث عن الألوان يطول، فهي لا حدود لها، ولا متسع لجمعها، ومن هنا فإن اللون صفة طبيعية من صفات الأشياء، والأحياء التي خلقها الله سبحانه وتعالى، كما أنه من عناصر التشكيل الأساسية في العمل الفني⁽³⁾.

ودلالة اللون في اللغة، وفي الاصطلاح تكاد تكون واحدة؛ لأنه من المدركات الحسية التي لا تخطئها الأبصار، منذ أن أوجد الله البشرية على الأرض، ولهذا فإن أدم من ذكر اللون في المعجمات العربية، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ولم يعطه تعريفاً واضحاً، لكون دلالاته معروفة عند الناس كافة، قال: "اللون معروف، وجمعه ألوان، والفعل التلون، والتلون"⁽⁴⁾.

(1) ابن منظور، لسان العرب، (ج11/365، 357). مادة (شكل).

(2) الجوهري، الصحاح، (ج5/1736، 1737).

(3) يونس، التصوير الجمالي في القرآن الكريم، (ص96).

(4) الفراهيدي، معجم العين، (ج4/111).

وَتَابَعَ أَصْحَابُ الْمَعَاجِمِ الْخَلِيلَ فِي هَذَا التَّعْرِيفِ، "وَاللُّونُ كَهَيْئَةِ السَّوَادِ وَالْحُمْرَةِ، وَلَوْنُهُ فَتَلَوْنَ، وَلَوْنُ كُلِّ شَيْءٍ: مَا فَصَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ، وَالْجَمْعُ أَلْوَانٌ، وَقَدْ تَلَوْنَ، وَلَوْنٌ، وَلَوْنٌ، وَفُلَانٌ مُتَلَوْنٌ، إِذَا كَانَ لَا يَثْبِتُ عَلَى خَلْقٍ وَاحِدٍ، وَلَوْنُ الْبَسْرِ تَلَوِينًا إِذَا بَدَأَ فِيهِ أَثَرُ التُّضْجِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْ هَا فَاقِمْهَا عَلَى صُورِهَا فَإِنَّ اللَّهَ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحشر: 5]. ومعلوم لمن رأى أنواع النخل، وألوان البسر أن فيه الأخضر إلى الأصفر المتدرج مع الأخضر، إلى الأصفر الفاتح، ثم المشوب بالحمرة، أو السواد حسب نوعه⁽¹⁾.

إن استخدام الألوان في الرسم التشكيلي يبدو يسيراً بخلاف استخدامها في التعبير اللغوي الذي لا يمنحها هذه الحرية، أو أن الألوان نفسها لا تستطيع أن تعبر بحرية كما نجدُها في حُقول الرسم.

ورغم أن الألوان تبقى بمنأى عن الوصف، مستعصية على كل تعريف، وعلى كل تحليل، فإنها من أكثر الأشياء جمالاً وخصوبة في حياة البشر، فبها أثرى الإنسان حياته، ومظاهر معيشته وأضفى عليها من بديع الجمال، وبهائه ما لا يحده واصله، أو يحيط به خيال. فالألوان ليست خطأً أو مسحات شكلية خالية من دلالات جمالية، وتعبيرية، ورمزية، وظيفية، وفي بعض الأحيان تزيينية، بل هي صور تعبر عن موضوعات الحياة، وانفعالات الفنان بها⁽²⁾.

والتأثير اللوني في النفس الإنسانية لا تحده حدود، ولا تكبح جماعه شكائهم، أو تمنعه سدود، فاللون موضوع معقد، وهو جزء من خبرات الإنسان الإدراكية، والطبيعية للعالم المرئي، واللون لا يؤثر في قدرة الإنسان على التمييز فقط، بل إنه يغير المزاج والأحاسيس، ويؤثر في الخبرات الجمالية، وفي الأحكام التفصيلية بشكل يكاد يفوق أي بعد آخر يعتمد على حاسة البصر، أو أية حاسة أخرى⁽³⁾.

والألوان تترك تأثيراً كبيراً في نفس الناظر إليها مثلما تؤثر الأنعام، وإيقاع الموسيقى في نفوس سامعيها، وهي تبعث في النفس السرور والارتياح، أو النفور والتفزز، فنعمة العود أو الكمان قد تبعث في النفس السرور، كما تبعث السرور إلى البصر بعض الألوان، كاللون الأخضر، فهو اللون الوحيد الذي اتفق على دلالاته المريحة للنفس الإنسانية، فقد أثبتت

(1) ابن منظور، لسان العرب، (ج3/393). مادة (لون). الجوهري، الصحاح، (ج6/2197). مادة (لون).

(2) الدوري، دلالة اللون في الفن العربي، (ص13).

(3) المرجع السابق، ص133.

الأبحاث أن اللون الأصفر، والأخضر يهدئان ضربات القلب، ويساعدان على تحسن الدورة الدموية⁽¹⁾.

التشكيل اللوني اصطلاحاً

التشكيل اللوني هو طريقة الأديب في التعبير عن تجربته، حيث يتوسل بالألوان، فيعيد تشكيل اللغة؛ لتعبر الألوان، وتروي ما عجزت عنه الكلمات، فيحمل اللون على تكثيف الطاقة الدلالية، والإيحائية للنص الشعري، حينها يتقبل المتلقي اللون عن طريق الخيال؛ لأن اللغة استوعبت كل خصائص الألوان، وحوّلتها إلى تشكيلات تحمل مزيداً من الدلالات، والإيحاءات. والتشكيل اللوني كذلك مجموعة العلاقات الشكلية التي تتناول اللون تركيباً، ودلالة، وإيحاء، أو التنظيم الفني لمعطيات الصورة اللونية في إطار ذي دلالة.

وقد يحمل التشكيل اللوني أحياناً ما لم تحمله الكلمات، وقد تقوم الألوان مقام التعبير اللفظي خير قيام لما يحسن الأديب استعمالها، وتوظيفها في لوحاته الأدبية سواء أكانت مباشرة أم غير مباشرة، مع مراعاة إن التشكيل في الأدب لا يقصد به "مجرد الاستعارة الطريفة حين نقل الدلالة الشكلية من ميدانها الأصلي في الفنون التشكيلية إلى ميدان آخر اصطلاحاً على تسميته بالفنون التعبيرية، فعملية التشكيل قائمة في هذه الفنون، وتلك على السواء. وكل ما يمكن استدراكه من اختلاف هو أن التشكيل في الفنون الشكلية حسي (senseous)، في حين أنه في الفنون التعبيرية وراء الحسي (supra - senseous)"⁽²⁾.

إن الشاعر والفنان، وإن اختلف المسمى وجهان لعملية واحدة، كل يتلاعب بالمعاني بطريقته الخاصة، مع وجود ورائع قويّة بين ما ينتجان، وإن اختلفت الطريقة، فهما يقدمان لوحةً فنيّةً، وإن اختلفت الأداة، فالشاعر والرّسام يعتمدان على تشخيص الجمادات، واستنطاق الماديات، أو أُنسنة كل ما هو ساكن من ناحية، وتجنيم المعنويات، أو الأشياء، أو الصفات، ومن هنا فإن الشاعر والرّسام عندما يقومان بفعل المحاكاة - سواء كانت لمعنوي مجرد، أو لمادي محسوس - فإنهما يخاطبان الاحساسات والمخيّلة، ويجسمان الأشياء، أو الأفكار في أشكال محسوسة يمكن رؤيتها، إما عن طريق العين الباصرة - كما في حالة الرّسام -، وإما عن طريق عين العقل أو المخيّلة، - كما في حالة الشاعر -⁽³⁾.

(1) فرج الله، التشكيل اللوني للطباعة، (ص36).

(2) إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، (ص57).

(3) عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، (ص285).

والتشكيل اللوني لا يتفرد به الرسام دون الأديب، فكما ترنو العين إلى اللون، وتتأثر به، فإن الأذن تعشق اللون عن طريق السماع، وإن لم تكن وجهاً لوجه مع الألوان، والله درّ القائل:

يَا قَوْمِ أَدْنِي لِبَعْضِ الْحَيِّ عَاشِقَةٌ والأذنُ تَعشِقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أَحْيَانًا⁽¹⁾.

وَمِنْ هُنَا "يبتعث اللون من خلال الرمز الصغير الذي يدلُّ به عليه، وهو كلمة ذات عددٍ محدودٍ من المقاطع الصوتية، لا تحمل أية خصيصة من خصائص اللون المذكور، وإن كانت قادرة على استحضاره. هذا اللون تتلقاه الأذن في هذه الحالة كلمة ذات مقاطع معينة، أو تتلقاه العين شكلاً منقوشاً في حروف بذاتها، لكنها لا تتفعل به إلا عندما تعود به من صورته المجردة هذه إلى صورته الحسية المباشرة"⁽²⁾.

لقد احتفظ أدباء المقامة في جعبتهم بموسوعة متنوعة من الألوان ضمّتها نصوصهم المقامية، فانطلقوا يبحرون في عوالم الجمال يرسمون بريشتهم أجمل اللوحات، و يسطرون بكلماتهم أزوع المشاهدات التي تجذب العين فنقر بها، وتخلب الأبواب فتتفاعل معها، وتبهر الأفتدة فتكتسب مزيداً من السكينة، والنبات.

وَلَكَّ أَنْ تُبَجَرَ مَعَ رَوَائِعِ أَدْبَاءِ الْمَقَامَةِ، ثُمَّ تَرَسُو عَلَى شَوَاطِيِ كَلِمَاتِهِمُ الَّتِي تُزِينُ أَعْمَالَهُمْ لِتُبَصِّرَ رُوحَةَ الرَّسْمِ، وَتَشَاهِدَ اللُّوحَاتِ النَّابِضَةَ بِالْحَيَاةِ بِمَا انْتَضَمَ فِيهَا مِنْ أَلْوَانٍ يُوجِبُ النَّظْرَ إِلَيْهَا رَاحَةَ النَّفْسِ، وَلَذَّةَ الْقَلْبِ، وَسُرُورَ الْعَقْلِ، وَنَشَاطَ الذَّهْنِ، وَتَوْفَرَ الْقُوَى، وَانْبِسَاطَ الرُّوحِ.

وَتَخْتَلِفُ دَلَالَةُ اللَّوْنِ بِاخْتِلَافِ مَوْقِعِهِ، فَقَدْ يَكُونُ سَلْبِيًّا أَحْيَانًا، أَوْ إِيْجَابِيًّا أَحْيَانًا أُخْرَى، فَاللون الأبيض عرف عبر العصور بدلالاته الإيجابية؛ دلالات الحسن والجمال عند المرأة، والسيادة، وعلوية القوم عند الرجل، ومن الدلالات المحببة لهذا اللون إذا كان في الأسنان، يقول طرفة بن العبد:

بَادِنٌ، تَجَلُّو، إِذَا مَا ابْتَسَمَتْ عَنْ شَتِيَّتِ، كَأَقَاحِ الرَّمْلِ، غَرَّ⁽³⁾.

ويقترب البخري كثيراً من هذا المعنى في قوله:

(1) ابن برد، ديوان بشار بن برد، (ج4/191).

(2) إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، (ص57).

(3) ابن العبد، ديوان طرفة بن العبد، (ص41). البادن: الممتلئة الجسد، الشتيت: الأسنان المتباعدة، الغر: جمع

الأغر، بمعنى الأبيض.

كَأَنَّمَا يَبْسِمُ عَنِ لَوْلُوٍ مُنْظَمٍ أَوْ بَرِدٍ أَوْ أَقَاخٍ (1)

وَقَدْ مَنَحَ التَّشْكِيلَ اللَّوْنِيَّ الْبِيَاضَ دَلَالَةً زَمْنِيَّةً فِي تَحْدِيدِ وَقْتِ الْإِمْسَاكِ فِي رَمَضَانَ فَجَرًّا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْآيِلِ ﴾ [سورة البقرة: 187].

أَمَّا الْأَسْوَدُ فَهوَ لَوْنٌ مُحِبَّبٌ لِلنَّفْسِ حِينًا، وَبَغِيضٌ أَحْيَانًا أُخْرَى؛ وَذَلِكَ حَسَبَ مَوْضِعِهِ، وَسِيَاقِهِ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ؛ فَهوَ مُحِبَّبٌ فِي الشَّعْرِ، وَالْعَيْنِ، وَاللِّتَّةِ، وَالشَّفَاةِ، وَالْحَالِ، وَمِنْ رَوَائِعِ مَا قِيلَ فِي وَصْفِ الْعَيْنِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ (٢٢) كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوِ الْمَكُونِ (٢٣) ﴿ [الْوَاقِعَةُ: 22-23]. وَمِنْ النَّظْمِ قَوْلُ جَرِيرٍ:

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي ظَرْفِهَا حَوْرٌ، قَتَلْنَا، ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا (2).

وَمِنْ رَوَائِعِ اسْتِخْدَامِ الْأَدْبَاءِ اللَّوْنَ الْأَسْوَدَ، التَّنْقُلُ بَيْنَ مَدْلُولَاتِهِ مِنْ مَعْنَى إِلَى آخَرَ، وَالْبَرَاعَةُ فِي اسْتِخْدَامِ مُفْرَدَاتِهِ مِنْ أَسْلُوبٍ إِلَى آخَرَ، فَتَارَةً يَطْلُقُ الْأَسْوَدَ، وَأُخْرَى يَسْتَعْمَلُ الدُّجَى، وَثَالِثَةً يَرِسُّ الْمَاتَمَ وَالْحِدَادَ، وَلَا أَكُونُ مُبَالِغًا إِنْ قُلْتُ إِنَّ اللَّوْنَ الْأَسْوَدَ بَدْرَجَاتِهِ، وَمُفْرَدَاتِهِ غَزَا الْأَعْمَالِ الْأَدْبِيَّةِ شِعْرًا وَنَثْرًا، وَامْتَدَّ حَتَّى سَيَطَّرَ عَلَى الْأَغْرَاضِ الشَّعْرِيَّةِ، وَالْفُنُونِ النَّثْرِيَّةِ. وَالْمَقَامَةُ هِيَ جُزْءٌ مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الَّتِي اكْتَسَتْ أَحْيَانًا بِالْأُرْدِيَّةِ السُّودَاءِ، أَوْ ثِيَابِ الْحِدَادِ الَّتِي تُبْرِزُ الْجَمَالَ الْأَخَاذَ، قَالَ الشَّاعِرُ:

وَالْبَدْرُ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ كَعَادَةٍ بَيْضَاءَ لَاحَتْ فِي ثِيَابِ حِدَادٍ (3)

بَرَعَ أَدْبَاءُ الْمَقَامَةِ فِي تَوْظِيْفِ اللَّوْنِ الْأَسْوَدِ خَيْرَ تَوْظِيْفٍ لَمَّا وَصَفُوا اللَّيْلَ، وَجَلَسَاتِ السَّمْرِ، فَأَكْسَبُوا أَعْمَالَهُمْ مَزِيدًا مِنَ السَّكِينَةِ، وَالهُدُوءِ أَحْيَانًا، كَمَا رَسَمُوا فِيهَا مَشَاهِدَ الْخَوْفِ، وَالرُّعْبِ أَحْيَانًا أُخْرَى، وَزَادَ الْأَمْرَ جَمَالًا لَمَّا عَقَدُوا مُقَارَنَةً بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ عَلَى سَبِيلِ الْمُحَاوَرَةِ بَيْنَهُمَا، فَهَذَا مُحَمَّدُ الْمُبَارَكُ يُقَدِّمُ فَوَاصِلَ عَدْبَةٍ مِنَ الْجَمَالِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ، يَقُولُ: 'فَابْتَدَرَ إِلَيْهِ اللَّيْلُ، وَأَجْلَبَ عَلَيْهِ بِالرَّجْلِ، وَالْحَيْلِ، وَامْتَنَطَى جَوَادَهُ الْأَدْهَمَ، وَاعْتَمَّ بَعْمَامَةَ سُودَاءَ، وَتَلْتَمَّ، ثُمَّ نَشَرَ فِي الْأَفْقِ عَمَائِمَهُ السُّودَ، فَأَسَرَ بِسَطْوَتِهِ الْأَسْوَدَ. فَاسْوَدَّ وَجْهَ اللَّيْلِ، وَانْقَلَبَ بِحَشْفٍ، وَسُوءِ كَيْلٍ،

(1) البحتري، ديوان البحتري، (ج3/176)

(2) جرير، ديوان جرير، (ص492).

(3) لم أعر على قائل البيت.

وَنَدِمَ عَلَىٰ مَنَاضِلَةِ النَّهَارِ، نَدَامَةً الْفَرَزْدَقِ حِينَ فَارَقَ النَّوَّارَ، وَلَمَّا سَقَطَ فِي يَدِهِ، وَرَزَىٰ فِي عَدَدِهِ، وَعُدَّدِهِ؛ تَرَدَّىٰ بِالسَّوَادِ، وَلَيْسَ ثِيَابَ الْحِدَادِ، ثُمَّ لَاحَ هَلَالُهُ لِلْعَيْنِ، كَمَنْجَلٍ صَبِيغٍ مِنْ لُجَيْنٍ⁽¹⁾.

وَلَعَلَّ الْبِرَاعَةَ تَظْهَرُ هُنَا فِي تَصْوِيرِ الْأَدِيبِ شِدَّةَ الظُّلْمَةِ الَّتِي ارْتَدَّتْ أَثْوَابَ السَّوَادِ، فَالْدَجَىٰ يَحْمَلُ فِي ثَنَائِيهِ الظَّلَامَ الدَّامِسَ، وَقَدْ زَادَتْ شِدَّةُ الظُّلْمَةِ بِتَأْثِيرِ اللَّيْلِ، وَالسَّوَادِ، وَكَأَنَّهُ أَضَافَ جَمَالًا إِلَىٰ جَمَالٍ؛ لِيُؤَكِّدَ لَنَا دِلَالَةَ الظُّلْمِ مِنْ خِلَالِ الْإِيحَاءَاتِ الَّتِي رَسَمَتْهَا تِلْكَ الْكَلِمَاتُ، كَذَلِكَ صَوَّرَ الْأَدِيبُ سَيْطَرَةَ السَّوَادِ، وَعَمُومَ الظَّلَامِ بِأَكْثَرِ مِنْ أَدَاةٍ، وَبِمَخْتَلَفِ الْأَشْكَالِ انْطِلَاقًا مِنْ دَالِ (اللَّيْلِ) وَمَا تَحْمَلُهُ الْكَلِمَةُ، ثُمَّ انْتَقَىٰ لَوْنًا آخَرَ، وَهُوَ (الْأَدْهَمُ)؛ لِيَكْمَلَ مَشْهَدَ السَّوَادِ، وَلَمْ يَكْتَفِ بِذَلِكَ، بَلْ بَدَأَ يَجْمَعُ مَشَاهِدَ مُتَنَوِّعَةٍ تَزَخَّرَ بِالرُّوعَةِ فِي (عَمَائِمِ السُّودِ) مِنْ نَاحِيَةٍ، وَسَعَةَ الْإِنْتِشَارِ فِي (نَشْرِ فِي الْأَفْقِ) مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ، وَلَمْ يَتَوَقَّفِ الْأَمْرُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَكَأَنَّهُ نَشَأَتْ بَيْنَ الْأَدِيبِ وَالْمُفْرَدَاتِ قِصَّةٌ عِشْقِيَّةٌ يَلْفُهَا السَّوَادُ، وَيَكْسُوهَا الظَّلَامُ صُحْبَةً (تَرَدَّىٰ بِالسَّوَادِ، وَلَيْسَ ثِيَابَ الْحِدَادِ) مَعَ مَا فِي الْمُفْرَدَاتِ مِنْ سَيْطَرَةِ السَّوَادِ، وَتِلَاحُ أَجْوَاءِ الْحَزَنِ مَعَ ثِيَابِ الْحِدَادِ.

وَيُسَافِرُ مُحَمَّدَ الْمُبَارَكِ بَعِيدًا صُحْبَةً بَاقَةً مُتَنَوِّعَةٍ مِنَ الْأَلْوَانِ الَّتِي تَعَشَّفُهَا الْعُيُونُ، وَالَّتِي رَسَمَتْهَا كَلِمَةُ (الْخَيْلِ)، حَيْثُ عَدَّدَ بَعْضُ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ أَلْوَانَهَا، وَأَوْصَلَهَا إِلَىٰ اثْنَيْ عَشَرَ لَوْنًا، إِضَافَةً إِلَىٰ أَلْوَانِ أُخْرَىٰ تَنْشَأُ مِنْ تَمَازُجِ الْأَلْوَانِ، وَتَدَاخُلُهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ أَنَّهَا تَزِيدُ عَلَىٰ ثَلَاثِينَ لَوْنًا مِنْهَا الْأَدْهَمُ، وَالْأَخْضَرُ، وَالْأَحْوَىٰ، وَالْكَمَيْتُ، وَالْأَشْقَرُ، وَالْأَصْفَرُ، وَالْوَرْدُ، وَالْأَشْهَبُ، وَالْأَبْرَشُ، وَالْمُلْمَعُ، وَالْمَوْلَعُ، وَالْأَشِيمُ وَغَيْرُهَا، ثُمَّ تَحَدَّثَ أَبُو عُبَيْدَةَ عَنْ كُلِّ لَوْنٍ مِنْهَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَدَىٰ اللَّوْنِيُّ بِتَوْجِيهِ الدَّقِيقَةِ⁽²⁾.

وَيَقْتَحِمُ مُحَمَّدَ الْمُبَارَكِ ثَانِيَةً بَوَابَاتِ الْجَمَالِ الْمُؤَصَّدَةِ، وَيَفْتَحُ أَبْوَابَ الْحُسْنِ الْمُعْلَقَةِ عَبْرَ بَوَابَةِ الْإِبْدَاعِ فِي رَائِعَتِهِ (عَرِيبِ الْأَنْبَاءِ فِي مُنَاطَرَةِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ)؛ لِيَقْدِمَ لَنَا أَرْوَاعَ اللَّوْحَاتِ، وَأَجْمَلَ النَّشْكِيَلَاتِ صُحْبَةً مَزِيجٍ مِنَ الْأَلْوَانِ هَيَمَنَ جَمَالُهَا عَلَىٰ السَّامِعِينَ، وَخَلَبَ حُسْنُهَا أَلْبَابَ الْقَارِئِينَ، وَسَدَّ بِهَاؤُهَا رَمَقَ الْمُتَعَطِّشِينَ، فَهِيَ هُوَ يَنْتَرِّمُ قَائِلًا: "وَحَيْثُ إِنَّ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ يُذَكَّرُ،

(1) الطَّيَّانُ، الْمُفَاخِرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (نُصْرَةُ الْبِهَارِ فِي مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)، (ص136- ص138).

(2) يُنْظَرُ: ابْنُ الْمَثْنِيِّ، كِتَابُ الْخَيْلِ، (ص103-108). يُنْظَرُ: خَلِيفَةُ، عَبْدِ الْكَرِيمِ، الْأَلْوَانُ فِي مَعْجَمِ الْعَرَبِيَّةِ، مَجْمَعُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْأُرْدُنِيَّةِ، الْأُرْدُنِ، الْعَدَدُ 33، 1 دَيْسَمْبَرِ 1987م. الْأَبْرَشُ: نُكْتُ صِغَارٌ فِي شَعْرِ الْفَرَسِ تُخَالِفُ سَائِرَ لَوْنِهِ، الْمُلْمَعُ: فِي جَسَدِهِ بَقْعٌ تُخَالِفُ سَائِرَ لَوْنِهِ، الْكَمَيْتُ: مَا كَانَ لَوْنُهُ بَيْنَ الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ، وَهُوَ تَصْغِيرُ أَكْمَتِ تَرْخِيمًا، الْأَحْوَى: مَا شَابَ حَمْرَتَهُ أَوْ خَضْرَتَهُ سَوَادًا، الْأَدْهَمُ: الْأَسْوَدُ. وَتَغْلِبُ الصِّفَةُ عَلَىٰ الْخَيْلِ الدَّهْمِ، الْأَشِيمِ: الَّذِي بِهِ خَالَ أَسْوَدًا، الْأَشْهَبُ مَزِيجٌ مِنَ اللَّوْنَيْنِ الْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ بِدَرَجَاتٍ مُتَنَاسِبَةٍ، الْمَوْلَعُ: وَهُوَ مَا ظَهَرَ عَلَىٰ لَوْنِهِ الْأَشْهَبُ بَقْعَ مُسْتَطِيلَةٍ ذَاتِ لَوْنٍ مُغَايِرٍ لَلْوْنِ الْأَشْهَبِ، الْوَرْدُ: الْحَمْرَةُ الْخَالِصَةُ فِي الْخَيْلِ.

والاستطراد لأدنى مناسبة لا يُنكر، فدُونَكَ نُبْدَةٌ فِي فَضْلِ فَصْلِ الرَّبِيعِ، منمنمة البرود بحسن وشي الربيع، إذ لا يَخْفَى أَنَّهُ شَامَةٌ بَيْنَ الْفُصُولِ، وَقَدْ عُدَّتْ لِنَشْرِ مَزَايَاهُ أَبَدُ الْفُصُولِ. وَجَهُّهُ وَسِيمٌ، وَأَنْفَاسُهُ نَسِيمٌ، رَائِقُ الدِّيَابِجَةِ، رَفِيقُ الزُّجَاجَةِ، غَصْنُ شَبَابِهِ رَطِيبٌ، وَيَرْدُ صَبَاهِ قَشِيبٌ، مَعْتَدِلُ الْمَزَاجِ، مَتَسِّعُ الْفَجَاجِ، عَاطِرُ الْأَرْجَاءِ فِي كُلِّ حِينٍ، بِفَنونِ الْأَزْهَارِ وَالرِّيَّاحِينَ، أَوْقَاتُهُ شَبِيهَةٌ بِأَوْقَاتِ الْجَنَانِ، تَبْتَهَجُ بِهَا النَّفْسُ، وَيَنْشُرُ الْجَنَانُ، يَتَلو لِسَانُ حَالِهِ بِصَوْتِ رَخِيمٍ: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٌ﴾ [الواقعة: ٨٩]. فَهُوَ ذُو الْيَدِ الْبَيْضَاءِ، وَالْعَيْشَةِ الْخَضْرَاءِ، وَالْمَوَارِدِ الصَّافِيَةِ، وَالْمَطَارِفِ الصَّافِيَةِ... فَكَأَنَّهُ وَالْغَصْنَ يِرَاعُ وَرَقٌ، وَيَزْرِي زَهْرَهُ بِالزُّهْرِ، وَيُعْرِي بِالْبَيْضِ وَالصُّفْرِ، فَمَا الذُّرُّ الْمَحْبُوكُ، وَمَا النَّبْرُ الْمَسْبُوكُ؟...الْوُرُودُ تَدْعُو إِلَيَّ حَسَنِ الْوُرُودِ، وَقَدْ بَدَتْ كَوَاكِبُهَا الدَّرِيَّةُ فِي مَطَالِعِ السُّعُودِ⁽¹⁾.

لَكَ أَنْ تَتَحَرَّكَ بَيْنَ مُفْرَدَاتِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْمُبَارَكِ لِتَصْدَرَ حُكْمًا دَقِيقًا عَلَى بَرَاعَتِهِ فِي تَشْكِيلِ اللَّوْنِ، لَا لِمَجْرَدِ الْإِسْتِخْدَامِ، لَكِنْ لِإِبْدَاعِ فِي رَسْمِ صَوْرٍ تَزْدَانُ بِالرَّوْعَةِ وَالْبَهَاءِ حَيْثُ اسْتَخْدَمَ الذَّهَبَ، وَمَا فِيهِ مِنْ لَمَعَانٍ مَعَ رَوْعَةِ اسْتِعْمَالِ الْمُفْرَدَاتِ (الرَّبِيعِ، الدِّيَابِجَةِ، الْأَزْهَارِ، وَالرِّيَّاحِينَ) الَّذِي يُوحي بِثَبَاتِ الْجَمَالِ عَلَى حَالِهِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَامْتِدَادِهِ لِيَشْمَلَ عُمُومَ الْمَكَانِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، وَزَيْنَ هَذِهِ اللَّوْحَةِ قَوْلُهُ: (فَكَأَنَّهُ وَالْغَصْنَ يِرَاعُ وَرَقٌ، وَيَزْرِي زَهْرَهُ بِالزُّهْرِ، وَيُعْرِي بِالْبَيْضِ، وَالصُّفْرِ)، وَمَا فِي الْعِبَارَةِ مِنْ سَيْطَرَةِ الْجَمَالِ، وَالْأَلْوَانِ الرَّاهِيَةِ عَلَى الْمَشَاهِدِ بِدَلَالَةِ الْفُعْلَيْنِ الْمُضَارِعَيْنِ (يَبْتَهَجُ، يَنْشُرُ)، مَعَ مَا فِي تَثَايَا الْفُعْلَيْنِ مِنْ تَجَدُّدٍ، وَاسْتِمْرَارٍ، وَاسْتِحْضَارٍ لِلصُّورَةِ الْمَضِيئَةِ الَّتِي ذَلَّلَهَا بِعَلَاقَةٍ حَمِيمَةٍ تَرْبِطُهُ مَعَ عَنَاصِرِ الطَّبِيعَةِ أَجْبَرْتَهُ عَلَى نَسْيَانِ حَزْنِهِ، وَحَذْفِهِ الْبُؤْسَ مِنْ قَامُوسِ عَيْشِهِ.

يبدأ ابن الألويسي، والبداية تلقى على المشهد بظلال الإبداع اللوني، فينطلق بكلماته الهادئة التي ما فتئت تصفع التوتّر، وتلطم السرعة، ومن وسط ركام السكون المخيم الذي يفرضه ظلام الليل، وهده الكواكب، ينتقل الأديب من وسط كل هذا الهدوء، إلى الحركة الدائبة على وقع عبارات تمنح هذه الحركة مزيداً من الجمال، ومفردات تحمل ألوان الظلام، وما فيه من سكون، فيرسم أمامنا صورة قاتمة، تسيطر على ألوانها خطوط السواد بدرجات متفاوتة، يقول: "قبتُ بليلة بليلة الأردن، من فيضٍ وابلٍ الأجفان، قد فلقَ وسادي، وتدثر بدثارٍ همّ مهادي، أنتظر أن يثير بازي الصبح غراب الليل، لعلّي أقضي ما فات فتطير عنقاء مغربٍ بنسرٍ ما أنا فيه من الويل، ودجنة الليل إلا ظلاماً، وأنفُ الفجر لا ينشق، وإن انشق بطنه إلا"

(1) الطيّان، المُفَاخِرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (عَرِيبُ الْأَنْبَاءِ فِي مُنَاطَرَةِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ). (ص 100، ص 101).

رغاماً، دليل يُقُولُ النَّاسُ فِي ظِلْمَاتِهِ، حَتَّى إِذَا جَعَلَتْ تَصْدُحُ عَلَى أَفْئَانِ أَشْعَةِ الْفَجْرِ الرَّحِيمِ
بِلَابِلِ الْأَسْحَارِ، وَرَعِبَتْ سَوِيدِ إِحْجَاجِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ مِنْ غَزَالَةِ النَّهَارِ" (1).

إِنَّ الْإِبْدَاعَ فَنُونَ وَالْوَانَ، تَسْمُو وَتَسْمُو فَتَشْقُ طَرِيقَهَا نَحْوَ الْقَمَّةِ بَرِيشَةَ فَنَانٍ بَارِعٍ، أَوْ قَلَمٍ
شَاعِرٍ مَبْدِعٍ، صُحْبَةَ أَرْوَعِ الْكَلِمَاتِ، وَأَجْمَلَ الْعِبَارَاتِ، وَتَتَرَاءَى اللَّوْحَاتُ أَمَامَ الْقَارِيِّ الْمُنْتَشِقِ
لِلْجَمَالِ، الْمُتَلَهِّفِ لِلْجَلَالِ، فَمِنْ لَوْحَةٍ (فَبْتُ بَلِيلَةَ بَلِيلَةَ الْأُرْدَانِ) إِلَى لَوْحَةٍ (أَنْتَظِرُ أَنْ يَبْثِرَ بَازِي
الصُّبْحِ غَرَابَ اللَّيْلِ)، تَلِيهَا لَوْحَةٌ (مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْوَيْلِ، وَدَجْنَةُ اللَّيْلِ إِلَّا ظُلَاماً)، وَفِي كُلِّ لَوْحَةٍ
أَحْدَاثٌ قِصَّةٍ رَعِبٍ لَا تَنْتَهِي أَحْدَاثُهَا، فَفِي أَوْلَاهُمَا انصَهَرَ اللَّيْلُ فِي بَوْتَقَةِ الْفِعْلِ الْمَاضِي (فَبْتُ)
مَعَ مَا فِيهِ مِنْ تَحْقِيقٍ، وَسُطُوعٍ لِلْأَرْقِ، وَالسَّهْرِ، وَفِي ثَانِيَتَهُمَا صِرَاعٌ مَرِيئٌ بَيْنَ الصُّبْحِ وَاللَّيْلِ،
الْغَلْبَةُ فِيهِ لِلظَّلَامِ الَّذِي قَهَرَ ضِيَاءَ الصَّبَاحِ، وَفِي ثَالِثَتَهُمَا عَشِقُ اللَّيْلِ وَدُجَاهُ، وَالظَّلَامِ وَسَجَاهُ؛
لِتَكْتَمَلَ مَشَاهِدَ اللَّوْحَةِ الْقَائِمَةِ، وَاللِّيَالِيِ الدَّاكِنَةِ الْأَلْوَانِ حُرُوفٌ تَتْرَى؛ لِيَكْتَمَلَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
مَشْهُدُ السَّوَادِ فِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ، وَتَمَطَّرُ السَّمَاءُ الظُّلَامِ، وَتَتَدَفَّعُ اللَّيَالِيِ صُحْبَةَ السَّوَادِ، وَتَرْسِمُ
اللَّوْحَاتُ مَشْهُدَ النَّهَائِيَةِ الْبَائِسِ الْحَزِينِ.

وَإِذَا عُدْنَا إِلَى اللَّوْحَةِ السَّابِقَةِ، فَإِنَّا نَجِدُ أَنَّ التَّمَازِجَ اللَّوْنِيَّ زَادَهَا تَأْتِيئاً، وَبُعْدًا جَمَالِيًّا،
وَدَلَالِيًّا، فَقَدْ تَقَارَبَتْ تَوَزِيعَاتُ الْأَلْوَانِ فِي النَّصِّ، فَاللَّيْلُ وَالظَّلَامُ مُتَلَازِمَانِ تَلَاوُمِ الْخَلِيلَيْنِ، وَالدُّجَى
وَالسَّوَادُ مُجْتَمِعَانِ اجْتِمَاعِ الشَّرِيكَيْنِ، وَتَرَدُّدُ اللَّوْنِ الْأَسْوَدِ فِي هَيْئَةٍ أُخْرَى بَدَأَ أَكْثَرَ وَضُوحًا عِنْدَمَا
اقْتَرَنَ بِضِيَاءِ الصَّبَاحِ، وَصَبَاحِ الضِّيَاءِ.

وَيُعَدُّ اللَّوْنُ الْأَحْمَرُ مِنْ أَوَائِلِ الْأَلْوَانِ الَّتِي عَرَفَهَا الْإِنْسَانُ فِي الطَّبِيعَةِ، وَقَدْ تَدَاوَلَ كَثِيرٌ
مِنَ الْكُتَابِ دَلَالَتِهِ، فَهُوَ مِنْ وُجْهَةِ نَظَرِهِمْ "مِنَ الْأَلْوَانِ السَّاخِنَةِ الْمُسْتَمَدَّةِ مِنْ وَهْجِ الشَّمْسِ،
وَاشْتِعَالِ النَّارِ، وَالْحَرَارَةِ الشَّدِيدَةِ، وَهُوَ مِنْ أَطْوَلِ الْمَوْجَاتِ الصَّوْتِيَّةِ، وَأَكْثَرَهَا تَضَارِيًّا، فَهُوَ لَوْنُ
الْبَهْجَةِ، وَالْحَزَنِ، وَهُوَ لَوْنُ الْعَنْفِ، وَلَوْنُ الْمَرْحِ" (2).

أَمَّا أَكْثَرُ سِمَاتِ هَذَا اللَّوْنِ فَهُوَ ارْتِبَاطُهُ بِالدَّمِ، وَكَثْرَةُ الْقَتْلِ، وَالْجِرَاحَاتِ الدَّامِيَةِ. وَقَدْ
تَخْرُجُ دَلَالَتُهُ عَنِ هَذَا الْإِطَارِ الدَّمَوِيِّ، وَمِنْ هُنَا أُطْلِقَ عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِي الْعَنَانَ لِرَبِيشَتِهِ لِلتَّلَاعُبِ
بِاللَّوْنِ الْأَحْمَرِ؛ لِتَرْسَمَ صُورَةَ التَّعَبِ، وَالْكَدِّ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَصُورَةَ التَّمَيُّزِ وَالْغَيْظِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى،
يَقُولُ: "تَمَّ رَأَيْتُ فِي طَرْفِ آخَرَ شَخْصًا نَحِيلَ الْبَدَنِ، طَوِيلَ الْحَزَنِ، أَصْفَرَ اللَّوْنِ، أَحْمَرَ الْعَيْنِ،

(1) ابن الألويسي، مقامات ابن الألويسي، (ص64، ص65).

(2) عمر، اللغة واللون، (ص111).

أضناه الهَمُّ، وأفناه السَّقْمُ والْعَمُّ، بإِحدى يَدَيْهِ قَدَحٌ فِيهِ سُمٌّ نَاقِعٌ، وَفِي الْيَدِ الْأُخْرَى مِنْهُ سَيْفٌ قَاطِعٌ، وَهُوَ لَا يَنْفَكُ يَسْكُبُ السُّمَّ عَلَى بَدَنِهِ، وَرَأْسِهِ، وَيَجْرَحُ بِذَلِكَ السَّيْفِ الْبَاتِرِ أَعْضَاءَ نَفْسِهِ⁽¹⁾.

لَقَدْ بَرَعَ عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِي فِي رَسْمِ الْمَشَاهِدِ الَّتِي اِكْتَسَتْ بِاللُّونِ الْأَحْمَرَ بِذِكْرِهِ مَبَاشِرَةً فِي (أَحْمَرِ الْعَيْنِ) مَعَ مَا يَحْمِلُهُ الْمَشْهُدُ مِنَ الْهَمِّ، وَالسَّقْمِ، وَالْعَمِّ حَمَلْتُهُ الْجَمْلُ (أضناه الهَمُّ، وأفناه السَّقْمُ والْعَمُّ)، أَوْ تَقْدِيمِهِ بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ مَبَاشِرَةٍ، لَكِنَّهَا تَحْمِلُ دَلَالَةً أَقْوَى مِنَ النَّصْرِيحِ، وَيَبْدُو هَذَا فِي (سَيْفِ قَاطِعِ)، وَ(السَّيْفِ الْبَاتِرِ)، وَكَأَنِّي بِفِكْرِي قَدْ قَدَّمْتُ لَوْحَةً جَمَالٍ لَا مَتْنَاهِيَةَ، فَلَاكَ أَنْ تَتَصَوَّرَ الْأَحْمَرَ مَرَّةً تَلُو الْمَرَّةَ، أَوْ لَاهَا مَعَ (سَيْفِ)، وَثَانِيهَا مَعَ (قَاطِعِ)، وَثَالِثُهَا مَعَ (الْبَاتِرِ)، فَيُخَيَّلُ لِلْقَارِئِ شَلَالَاتٍ مِنَ الدَّمَاءِ تَنْحَدِرُ أَمَامَهُ، يَزِيدُ مِنْ انْحِدَارِهَا بَرَاعَتُهُ فِي اسْتِخْدَامِ الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ (يَجْرَحُ) مَعَ مَا فِيهِ مِنْ تَجَدُّدٍ لِلنَّزْفِ، وَاسْتِمْرَارٍ لِلأَلَمِ، وَالْأَوْجَاعِ. الَّتِي يَضَاعَفُهَا قَوْلُهُ: (نَحِيلُ الْبَدَنِ، طَوِيلُ الْحَزَنِ، أَصْفَرُ اللَّوْنِ)، وَيَزِيدُ مِنْ قَسْوَتِهَا وَاسْتِمْرَارِهَا قَوْلُهُ: (وَهُوَ لَا يَنْفَكُ يَسْكُبُ السُّمَّ عَلَى بَدَنِهِ، وَرَأْسِهِ، وَيَجْرَحُ بِذَلِكَ السَّيْفِ الْبَاتِرِ أَعْضَاءَ نَفْسِهِ).

وَلِللَّوَانِ نَصِيبٌ مِنْ رَوَائِعِ ابْنِ الْأَوْسِيِّ، فَقَدْ حَطَّ بِهَا مَشَاهِدَ الطَّبِيعَةِ الْجَمِيلَةِ، وَعَنَّاصِرَهَا الْمُتَنَوِّعَةَ، يَقُولُ: "ثُمَّ صَرْنَا إِلَى الدَّارِ، وَالشَّيْخِ أَمَامَنَا يَتَبَخَّرُ بِطَيْلَسَانَ الْوَقَارِ، حَتَّى إِذَا حَلَلْنَا بَعْضَ غُرْفِهَا، قَدَّمَتْ لَهُمْ نَزْلًا مِنْ الْأَطْفِ الْفَوَاكِهَ وَأَطْرَفِهَا، عَنِيبًا كَمَخَازِنِ الْبُلُورِ، وَظُرُوفِ النُّورِ، وَأَوْعِيَةِ السُّرُورِ، وَرَطْبًا كَأَنَّهُ شَهَادَةٌ بِالْعَقِيقِ مُفْتَعَّةٌ، وَبِالْعَقِيَانِ مُفْتَعَّةٌ، وَرُؤْمَانًا كَأَنَّهُ صُرُرٌ مَأْوَاهُ يَاقُوتٌ أَحْمَرٌ، وَسَفَرَجَلًا يَجْمَعُ طَيِّبًا، وَمَنْظَرًا حَسَنًا عَجِيبًا، لَهُ زَغَبٌ كَأَنَّهُ زَبِيرُ الْخَزْرِ الْأَغْبَرِ عَلَى الدِّيَابِجِ الْأَصْفَرِ، وَتَفَاحًا يَجْمَعُ وَصْفَ الْعَاشِقِ الْوَجِلِ، وَالْمَعشُوقِ الْخَجَلِ، لَهُ نَسِيمُ الْعَنْبَرِ، وَطَعْمُ السُّكَّرِ، ثُمَّ قُدِّمَتْ مَائِدَةٌ كِدْرَارَةُ الْبَدْرِ اللَّطِيفَةِ، مَحْفُوفَةٌ بِكُلِّ ظَرِيفَةٍ، عَلَيْهَا أَرْغَفَةٌ تَصْفَعُ قَفَا الْجُوعِ، وَتَشِيرُ بِأَكْفِهَا لِلْجَالِسِينَ بِالشَّرُوعِ"⁽²⁾.

لَقَدْ رَسَمَ ابْنُ الْأَوْسِيِّ فِي الْأَسْطُرِ السَّابِقَةِ بِكَلِمَاتِهِ لَوْحَةً بَارِعَةً تَبْدُو فِيهَا خُطُوطُ الْأَنْسِ، وَحُرُوفُ الْفَرَحِ الَّتِي حَرَّكَتِ الْجَمَادَاتُ بِمَا تَحْوِيهِ مِنْ مَوْثِرَاتٍ شَدِيدَةٍ، فَمِنْ مَشْهَدٍ إِلَى مَشْهَدٍ تَتَطَايَرُ فَرِاشَاتُ الْأَمَلِ، وَمِنْ لَوْنٍ إِلَى لَوْنٍ تَنْتَهَادِي خُطُوطُ السَّعَادَةِ، صُحْبَةً بَاقِيَةً مُتَنَوِّعَةً مِنَ الْأَلْوَانِ ضَمِنَ إِطَارِ جَمَالِيٍّ لَامْتِنَاهِي تَرْيِنَهُ الْفَوَاكِهَ، وَلَذِيذَ الْعَنْبِ وَالرُّؤْمَانَ، وَيَحْلُو السَّمْرَ مَعَ الرُّطْبِ وَالتَّقَّاحِ، ثُمَّ أَضَافَ جَمَالًا لِلْمَوَائِدِ الَّتِي تَبْدُو كِدْرَارَةَ الْبَدْرِ اللَّطِيفَةِ؛ لِيَصُورَ كَمَالَ مَشَاهِدِ

(1) فِكْرِي، الْأَثَارُ الْفِكْرِيَّةُ (الْمَقَامَةُ الْفِكْرِيَّةُ)، (ص 285).

(2) ابْنُ الْأَوْسِيِّ، مَقَامَاتُ ابْنِ الْأَوْسِيِّ (زَجْرُ الْمَغْرُورِ عَنْ رَجَزِ الْغُرُورِ)، (ص 117، ص 118). الْعَقِيَانِ: ذَهَبٌ مَتَكَثِفٌ فِي مَنَاجِمِهِ، خَالِصٌ مِمَّا يَخْتَلِطُ بِهِ مِنَ الرَّمَالِ وَالْحِجَارَةِ، الْعَقِيقُ: حَجْرٌ كَرِيمٌ أَحْمَرٌ تُعْمَلُ مِنْهُ الْفِصُوصُ، يُوجَدُ بِالْيَمَنِ وَسُوَالِحِ الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ، الْخَزْرُ: مَا يُنْسَجُ مِنْ صُوفٍ وَإِبْرَيْسَمٍ.

الحسن المتواصل، وَيَرَسِمُ مَلَامِحَ السَّعَادَةِ وَالْأَمَلِ الْمُتَجَدِّدِ، ثُمَّ يَتَّبِعُهَا، وَيَفْتَحُ بَابَ الْأَمَلِ وَالنَّفَاقُلِ
بِنَسَائِمِ الْعَنْبَرِ الذَّكِيَّةِ، وَأَصْوَاتِ الطُّيُورِ الشَّدِيدَةِ. وَلَعَلَّ جَمْعَ كَلِمَةٍ (فواكه) يَنْقَلِنَا إِلَى الْكَثْرَةِ، وَهَذَا
وَصْفٌ مَظْهَرِ النَّعِيمِ اللَّامِتْنَاهِي، وَإِثَارَةُ الْمُتَعَةِ الْجَمَالِيَّةِ فِي هَذِهِ الْكَثْرَةِ الَّتِي تَجْعَلُ الذَّهْنَ سَارِحاً
فِي كَثْرَةِ الْأَلْوَانِ، وَالطُّعُومِ، وَالْأَشْكَالِ. وَفَوْقَ هَذَا وَذَلِكَ يَنْقُلُ الْمُتَلَقِّي لِيَعِيشَ اللَّحْظَةَ، وَكَأَنَّ
الْمَشْهَدَ مَائِلٌ أَمَامَهُ بِتَفَاصِيلِهِ كَافَّةً.

إِنَّ اللَّوْحَةَ الَّتِي سَكَّلَهَا ابْنُ الْأَوْسِيِّ فِي نَصِّهِ الْمَقَامِيِّ تَقَدَّمَ دَلِيلًا حَيًّا عَلَى قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى؛ لِأَنَّ الشُّكَيْلَ اللَّوْنِيَّ لِنَعْدُدِ أَلْوَانِ النَّمَارِ اللَّامِتْنَاهِي يَرَسِمُ صُورَةً زَاهِيَةً بَدِيعَةً لِلْأَرْضِ الَّتِي
أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِلَيْهَا الْمَاءَ الْوَاحِدَ، وَرَبَّمَا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَبَيِّنَةً وَاحِدَةٍ، وَلَكِنَّ الْأَرْضَ تَنْبُتُ
أَشْجَارًا ذَاتَ ثِمَارٍ مُخْتَلِفَةٍ الْأَلْوَانِ وَالطُّعُومِ؛ وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ هَذِهِ الصُّورَةَ تَقَدَّمَ الشُّكَيْلَ لَوْنِيًّا يُوفِّرُ
أَمَامَ الْبَشَرِيَّةِ نِعْمًا كَبِيرَةً، تَتَنَاعَمُ بِالتَّمَتُّعِ بِهَا أَكْثَرَ مِنْ حَاسَةِ، فَالِنَّظَرَ يُنْعِمُ الشُّكَيْلَ اللَّوْنِيَّ
اللَّامِحْدُودِ، وَيُنِيرُ الْمَشْهَدَ مُتَعَةً جَمَالِيَّةً تُشَارِكُ حَاسَةَ الدُّوقِ فِيهَا، حِينَ يَتَخَيَّلُ طَعُومَ هَذِهِ
الْتَّمَرَاتِ»⁽¹⁾.

لَقَدْ مَثَلَتِ الْمُقْطُوعَةُ السَّابِقَةُ أُنْمُودَجًا حَيًّا لِامْتِدَادِ اللَّوْنِيِّ فِي كَلِمَةِ (نور)، فَلكَ أَنْ تَتَخَيَّلَ
الضُّوءَ الْمُنْتَشِرَ الَّذِي يَعِينُ عَلَى الْإِبْصَارِ، أَوِ الْأَجْسَامَ النَّيِّرَةَ كَالْقَمَرَيْنِ وَالنُّجُومِ، أَوِ النُّورَ الْإِلَهِيَّ،
وَقَدْ ذُكِرَ النُّورُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً، فِي ثَلَاثِ وَثَلَاثِينَ آيَةً فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَبِهِ سُمِّيَتْ سُورَةٌ مِنْ
سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ (النُّور). أَضْفِ إِلَى ذَلِكَ مَا يَحْمِلُهُ النُّورُ مِنْ تَنْوَعٍ فِي الصُّورِ، وَامْتِدَادٍ فِي
الْأَلْوَانِ.

لَا يَقْتَصِرُ الشُّكَيْلُ اللَّوْنِيُّ عَلَى الْأَلْوَانِ الْمُبَاشِرَةِ أَوْ غَيْرِ الْمُبَاشِرَةِ، فَقَدْ يَنْتَقِلُ الْأَدِيبُ بَيْنَ
أَلْفَافٍ تَتَأَى عَنْ هَذَا التَّخْصِيصِ، فَهُنَاكَ أَلْفَافٌ تَحْمِلُ دَلَالَاتُهَا إِضَاءَاتٍ مُتَعَدِّدَةً الْأَلْوَانِ، تَسْهَمُ فِي
الشُّكَيْلِ اللَّوْنِيِّ فِي الْأَدَبِ، وَفِي رَسْمِ اللَّوْحَاتِ الْجَمَالِيَّةِ الْبَدِيعَةِ الَّتِي تَلْفَتُ الْإِنْتِبَاهَ، وَالْأَحَاسِيْسَ،
وَتَنْقُلُ الذَّهْنَ إِلَى صُورٍ مِنَ الْجَمَالِ الْبَاهِرِ، وَالْبَهَاءِ اللَّامِتْنَاهِي، فَلَا يَمْلِكُ الْمُتَلَقِّي إِلَّا الْإِقْرَارَ
بِهَذَا الْجَمَالِ، وَهَذِهِ الْأَلْفَافُ تَحْمِلُ شُحُنَاتٍ جَمَالِيَّةً يَسْرَحُ فِيهَا الْخَيَالُ قَدْرَ مَا تَسْتَطِيعُ الذَّاكِرَةُ
تَخْيُلُهُ مِنْ أُخْيَلَةٍ وَرَسُومٍ، دُونَ أَنْ تَتَحَدَّدَ بِمَشْهَدٍ مُعَيَّنٍ مِنْ مَشَاهِدِ الْخَلْقِ، وَقَدْ تَحْمَلُ هَذِهِ الْأَلْفَافُ
مَعَانِي تَتَدَاعَى فِي الذَّهْنِ حِينَ تَصَوَّرُ مَشْهَدًا يثيرُ الرِّغْبَةَ فِي الثَّوَابِ، أَوْ يثيرُ الْخَوْفَ،
وَالرُّعْبَ»⁽²⁾.

(1) الصَّفَّارُ، جَمَالِيَّةُ الشُّكَيْلِ اللَّوْنِيِّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، (ص 216).

(2) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 79.

وَمِنْ هُنَا يَرِسُّمُ فَارِسُ (المَقَامَةُ الفِكْرِيَّةُ)، عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِيٌّ مَجْمُوعَةٌ مِنَ المَشَاهِدِ الحَيَّةِ وَالتَّشْكِيْلَاتِ النَّوْعِيَّةِ دُونَ العُودَةِ إِلَى الأَلْوَانِ الصَّرِيحَةِ، بَيِّدُ أَنَّ مُفْرَدَاتِهِ تَسَافِرُ بَعِيداً لَتَلْتَقِطَ كُلُّ الأَلْوَانِ، يَقُولُ: "قَالَ فَبَقِيْتُ مَتَحِيرًا مِنْ عِبَارَتِهِ، ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى مَوْضِعِ إِسَارَتِهِ، فَإِذَا سَاحِرَةٌ شَرِيْرَةٌ، خَبِيْثَةٌ قَصِيْرَةٌ، عَلَى وَجْهِهَا نِقَابُ المَكْرِ، وَفِي يَدَيْهَا عَصَا السَّحْرِ، نَقَذَهَا إِلَى جَوِّ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَنَلَّفَهَا مِنَ الهَوَاءِ، وَهِيَ تَتَلَوَّنُ تَلَوَّنَ الحِرْبَاءِ، وَتَتَلَاعَبُ بِجَمِيْعِ الأَشْيَاءِ، وَعَلَيْهَا ثِيَابٌ غَرِيْبَةٌ الأَشْكَالِ، فِيهَا مِنْ كُلِّ شَكْلِ، وَلَوْنٍ مِثَالٍ، وَرَأَيْتُهَا تَنْبَاهِي بَزِيْنَتِهَا، وَوَشِيْهَا، وَعَلَيْهَا جَلَجَلٌ كَثِيْرَةٌ تَصْطَحِبُ عِنْدَ مَشِيْهَا"⁽¹⁾.

إِنَّ المُفْرَدَاتِ الَّتِي وَظَّفَهَا عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِيٌّ فِي مَقَامَتِهِ لَمْ تَحْمِلْ صِرَاحَةً الأَلْوَانِ، بَيِّدُ أَنَّهَا عَبَّرَتْ بِطَرِيْقَةٍ تَجَاوَزَتْ حُدُودَ مَا اشْتَهَرَ مِنْ تِلْكَ الأَلْوَانِ، فَرُبَّ لَفْظَةٍ تَنْسَعُ حُرُوفُهَا لِتَسْتَوْعِبَ كَمَا هَائِلًا مِنَ الأَلْوَانِ، وَأُخْرَى تَفْتَحُ البَابَ وَاسِعًا لِلْمُتَلَقِّي؛ لِتَخِيْلَ مَا شَاءَ مِنْهَا، فإِطْلَاقُ المَفْرَدَةِ الوَاحِدَةِ قَدْ تَقَوْمُ مَقَامَ لَوْحَةٍ كَامِلَةٍ مُتَبَايِنَةِ الأَشْكَالِ، مُتَّوَعَةً الأَلْوَانِ، وَهَذَا مَا يَرِسُّمُهُ قَوْلُ فِكْرِيٍّ: (تَتَلَوَّنُ تَلَوَّنَ الحِرْبَاءِ)، وَقَوْلُهُ: (وَعَلَيْهَا ثِيَابٌ غَرِيْبَةٌ الأَشْكَالِ، فِيهَا مِنْ كُلِّ شَكْلِ، وَلَوْنٍ مِثَالٍ)، ثُمَّ يَكْمُلُ مَشْهَدَ الأَلْوَانِ المُتَبَايِنَةِ فِي قَوْلِهِ: (تَنْبَاهِي بَزِيْنَتِهَا، وَوَشِيْهَا) مَعَ مَا تَحْمِلُهُ المُفْرَدَاتُ الَّتِي صَاحَبَتْ تَقْلِبُهَا الأَفْعَالُ المُضَارِعَةُ (تَتَلَوَّنُ، تَتَلَاعَبُ، تَنْبَاهِي) الَّتِي فَتَحَتْ أَمَامَ المُتَلَقِّي أُبُوبًا وَاسِعَةً؛ كَيْ يَسْتَحْضِرَ دَوْمًا مَا شَاءَ مِنْ صُورٍ بَارِعَةٍ الأَلْوَانِ. فلفظةُ (زِينَتِهَا) تَحْمِلُ فِي ثَنَائِهَا عَدَدًا لَا يُحْصَى مِنَ الأَلْوَانِ، فَهُوَ يَرِسُّمُ فِي الذَّهْنِ صُورَةَ تَشْكِيْلِيَّةً مُتَعَدِّدَةَ المَظَاهِرِ، وَالأَلْوَانِ، وَقَدْ وَرَدَ لَفْظُ الزَّيْنَةِ وَمَشْتَقَاتُهُ أَرْبَعًا وَأَرْبَعِينَ مَرَّةً فِي أَرْبَعِينَ آيَةً بِدَلَالَتِهِ المَادِيَّةِ أَوْ المَعْنَوِيَّةِ، جُلُّهَا حَمَلٌ مَعَانِي الحُسْنِ وَالجَمَالِ، أَوْ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ⁽²⁾.

وَأَحْيَانًا يَغْدُو اللَّوْنُ كَلِمَاتٍ مُمْتَعَةٍ، وَمَعَانِي مُؤَثَّرَةٍ، وَمُوسِيْقًا عَدْبَةً، وَأَلْحَانًا يَتْرُكُ صَدَاهَا أَثْرًا وَاضِحًا، وَحَيِّيًا آخَرَ يَحْمِلُ اللَّوْنُ أَلْفَاظًا مُنْتَقَاةً، وَصُورًا بَلِيْغَةً، وَمَحَاسِنَ بَدِيعَةً تُحْيِلُ الأَرْضَ الَّتِيَابَ إِلَى جَنَاتٍ خَضْرَاءَ، وَحَدَائِقَ غَنَاءَ، فَتَرْدُ القَحْطَ خُصُوبَةً، وَالمَرَّ عُدُوبَةً، وَنَكْسُو الأَرْضَ الجُرْدَاءَ أَثُوبًا قَشِيْبَةً، فَتَفْتَحُ لِلْمَتَعِطْشِيْنَ أُبُوبَ المُتَمَتِّعَةِ أَيْ ذَهَبُوا، وَمَتَى شَاءَوا. وَمِنْ هُنَا يُنْطَلِقُ عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِيٌّ فِي رَائِعَتِهِ (المَقَامَةُ الفِكْرِيَّةُ) يَتَلَاعَبُ بِدَلَالَاتِ الأَلْوَانِ، وَبِعَزْفِ أَلْحَانًا مُنْتَقَاةً، فَيَجْبِرُ الأَبْصَارَ لِتَدْفُقَ النَّظَرَ، وَيُرْغِمُ القُلُوبَ لِتُعْلِي صَوْتَهَا بِالسَّعَادَةِ، وَالفَرَحِ، يَقُولُ: "وَسَرْنَا نَطْوِي المَنَازِلَ، وَنَقْطَعُ المَرَاجِلَ، مِنْ طَرِيْقٍ إِلَى طَرِيْقٍ، حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى مَضِيْقٍ، خَرَجْنَا مِنْهُ إِلَى

(1) فِكْرِيٌّ، الأَثَارُ الفِكْرِيَّةُ (المَقَامَةُ الفِكْرِيَّةُ)، (ص300).

(2) عبد الباقي، المُعْجَمُ المَفْهَرَسُ لِأَلْفَاظِ القُرْآنِ الكَرِيْمِ، (ص580، ص581). يُنْظَرُ: الصَّفَّارُ، جَمَالِيَّةُ التَّشْكِيْلِ اللُّوْنِيِّ فِي القُرْآنِ الكَرِيْمِ، (ص90).

قُبَّةٌ بَدِيعَةٌ، عَلَى رُبُوعَةٍ رَفِيعَةٍ، يَتَّصِلُ بِهَا كُلُّ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الْمَمْلَكَةُ فِي جَمِيعِ أُنْحَائِهَا، فِي مَوَارِدِهَا، وَطَرَفَاتِهَا، وَمَسَالِكِهَا، وَجَدَاوِلِ مَائِهَا، وَفِي هَذِهِ الْقُبَّةِ مِنَ الْأَنْوَارِ اللَّامِعَةِ، وَالْأَشْعَّةِ السَّاطِعَةِ مَا يُغْشِي الْأَبْصَارَ، وَيَدْهَسُ النُّظَارَ... وَمَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مَرَاةً كَثِيرَةً الْأَضْلَاعِ، لِمَاعَةً الشُّعَاعِ، يَنْعَكُسُ فِيهَا مَا فِي الْقُبَّةِ مِنَ الْأَضْوَاءِ، فَيُظْهِرُ كَثِيرًا مِنَ الصُّورِ وَالْأَشْكَالِ، وَالْأَلْوَانِ الْبَدِيعَةِ الْمِثَالِ، فَكَانَ بَصْرِي يَضَعُ عَنْ مُقَاوِمَةِ هَذِهِ الْأَنْوَارِ، وَقَلْبِي يَتَعَجَّبُ مَا رَأَيْتُ فِي الدَّارِ، حَتَّى أَنِّي لَفَرَطٍ مَا هَالَنِي مِنْ غَرَابَةِ الْأَمْرِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ لِي بِهِ عَادَةٌ فِي سَالِفِ الْعَمْرِ⁽¹⁾.

إِنَّ مَشَاهِدَ الرَّوْعَةِ، وَرُوعَةَ الْمَشَاهِدِ فِي اللَّوْحَةِ السَّابِقَةِ يَبْدُو جَمَالَهَا فِي الْمُرَاوَجَةِ بَيْنَ التَّشْكِيلِ اللَّوْنِيِّ وَالْحَرَكَاتِ، فَقَدْ تَنَقَّلَ الْأَدِيبُ تَارَةً بَيْنَ الْأَلْوَانِ، وَأُخْرَى بَيْنَ الْحَرَكَاتِ، وَالسُّكُونِ، وَلَعَلَّ هَذَا الْجَمْعَ أَكْمَلَ مَشَاهِدَ الرَّوْعَةِ، فَغَدَا الْمُتَلَقِّي حَائِزًا أَيْ مَشَاهِدِ اللَّوْنِ يَرَى؟، وَأَيَّةَ حَرَكَاتٍ يَنْتَلِسُ؟، وَأَيَّ أَصْوَاتٍ يَسْمَعُ؟، ثُمَّ يَبْدُو حَائِزًا مَا بَيْنَ لَوْنٍ، وَلَوْنٍ، وَمَا بَيْنَ حَرَكَةٍ، وَسُكُونٍ، أَوْ تَوْتُرٍ، وَهَدْوٍ، هَلْ يَمْتَعُ نَاطِرِيهِ بِالْأَنْوَارِ اللَّامِعَةِ، أَمْ بِالْأَشْعَّةِ السَّاطِعَةِ؟، وَهَلْ يَكْفِي بِالصُّورِ، وَالْأَشْكَالِ، وَالْأَلْوَانِ الْبَدِيعَةِ الْمِثَالِ؟، وَهَلْ يُغْنِي أَحَاسِيْسَهُ بِالسِّيَرِ، وَالْوُصُولِ، أَمْ بِتَهَادِي الْجَدَاوِلِ، وَالْمِيَاهِ؟ فَفِي الْأَلْوَانِ آلاءٌ، وَفِي الْحَرَكَاتِ عِبْرَةٌ، وَفِي السُّكُنَاتِ آيَاتٌ.

وَيَسْتَنْفِرُ مُحَمَّدَ الْوُرْغِي فِي نُصُوصِهِ الْمَقَامِيَّةِ حَوَاسَهُ، كُلَّ حَوَاسِهِ عَلَى أَنْعَامِ مَشَاهِدِ الْجَمَالِ حِينَ يَنْهَضُ عَلَى رُوعَةِ الْمَشَاهِدِ، وَيَسْتَفِيقُ عَلَى وَقْعِ أَلْحَانِ الْجَمَالِ، فَيَمْرُجُ جَمَالَ الْمَشَاهِدِ بِمَشَاهِدِ الْجَمَالِ، لِيَقْدِمَ لَوْحَةً جَدِيدَةً مِنْ لُوحَاتِ الْبَهَاءِ وَالْجَمَالِ، يَقُولُ: "تَشَأْ مُذْ شَبَّ بَيْنَ أَزْهَارِ، وَرِيَاضِ الْأَدَبِ، يَسْتَنْشِقُ مِنْهَا نَفْحَ الطَّيِّبِ، وَيَهْصِرُ مِنْ أَغْصَانِهَا الرُّطِيبِ، وَيَسْمَعُ مِنْ أَطْيَارِهَا الْأَغَانِي، وَيَتَعَرَّفُ مِنْ أَغْصَانِهَا الْبَيَانَ، وَالْمَعَانِي"⁽²⁾.

تَأَثَّرَ الْأَدِيبُ بِاللَّوْحَةِ، وَالْمَشْهَدِ، وَعَلَى وَقْعِهَا شَرَعَ يَرْسُمُ مَشَاهِدَ مُنْتَوَعَةً مِنْ خِلَالَ إِشَارَاتٍ وَاضِحَةٍ تَهْزُ الْمَشَاعِرَ، وَتُحَرِّكُ الْأَحَاسِيْسَ مِنْ خِلَالَ بَوَاعِثِ هَذَا الْحَرَكَاتِ، فَغَدَتْ هَذِهِ الْبَوَاعِثُ رَوَائِعَ تُغْنِي نَفُوسَ السَّامِعِينَ، وَاسْتَحَالَتْ شُمُوسًا مُشْرِقَةً تَجُودُ عَلَيْهِمُ بِالْذَّفَاءِ وَالضِّيَاءِ. وَارْتَدَتْ رِيَاضًا مَلَأَى بِالْأَلْوَانِ، مَا بَيْنَ الْأَبْيَضِ وَالْأَخْضَرِ، وَالْأَزْرَقِ وَالْأَحْمَرِ، وَالنَّيْلِيِّ وَالْأَصْفَرِ، وَمَزْدَانَةً بِالْوَرُودِ وَالْأَزْهَارِ، تُثْرِيهَا أَنْعَامُ الْأَطْيَارِ، فَوْقَ الدَّوْحِ وَالْأَشْجَارِ.

وَالِي رِحْلَةٍ قَصِيرَةٍ مَعَ حُرُوفِ اللَّوْنِ الْأَخْضَرِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَحَبُّ إِلَيَّ الْعَرَبِ مِنْهُ خَاصَّةً فِي الصَّحْرَاءِ الْمُجْدِبَةِ، وَبَقِيَ هَذَا اللَّوْنُ أَحَبَّ الْأَلْوَانِ إِلَيْهِمْ حَتَّى بَعْدَ تَغْيِيرِ بِيئَاتِهِمْ، وَانْتِشَارِهِمْ فِي

(1) فكري، الآثار الفكرية (المقامة الفكرية)، (ص 11).

(2) الورغي، مقامات الورغي ورسائله (المقامة الباهية)، (ص 43).

بيئاتٍ جَدِيدَةٍ. إِنَّهُ رَبَطَ بَيْنَ الْأَخْضَرِ، وَبَيْنَ نُزُولِ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ، وَاكْتِسَاءِ الْأَرْضِ بِالْخَضِرَةِ وَالنَّبْتِ؛ الَّذِي فِيهِ رِزْقٌ لِلنَّاسِ وَمَوَاشِيهِ. وَمِنْ ثَمَّ انْبَعَثَ الْخَيْرُ مِنْ هَذِهِ الْخَضِرَةِ، وَخَيْرَاتِ الْأَرْضِ، وَقَدْ وُلِعَ الْعَرَبُ بِاللُّونِ الْأَخْضَرِ، وَافْتَنَتُوا بِجَمَالِهِ، وَاسْتَخْدَمُوهُ فِي رِيَاشِهِمْ، قَالَ النَّابِغَةُ الدُّبْيَانِيُّ:

يَصُونُونَ أَجْسَامًا قَدِيمًا نَعِيمًا بِخَاصِرَةِ الْأَرْدَانِ خُضِرِ الْمَنَابِغِ (1)

وَمِنَ النَّاحِيَةِ النَّفْسِيَّةِ وَقَرَّ فِي الدَّهْنِ، وَالدَّرَاسَاتِ النَّفْسِيَّةِ أَنَّ لِلُّونَ الْأَخْضَرَ أَثْرًا طَيِّبًا فِي النَّفُوسِ، وَأَنَّ النَّظَرَ إِلَى الْخَضِرَةِ يَبْعَثُ فِي النَّفْسِ الْمَسْرَةَ، وَالسَّعَادَةَ، وَالرَّاحَةَ، لِهَذَا قِيلَ ثَلَاثُ يُجْلِبِنَ الْبَصَرَ: الْخُضْرَةَ، وَالْمَاءَ، وَالْوَجْهَ الْحَسَنَ. وَمِنْهُ الْحَدِيثُ الشَّرِيفُ: "ثَلَاثُ يُجْلِبِنَ الْبَصَرَ: النَّظْرُ إِلَى الْخُضْرَةِ، وَإِلَى الْمَاءِ الْجَارِي، وَإِلَى الْوَجْهِ الْحَسَنِ" (2). وَذَكَرَ "أَنَّ الشُّهَدَاءَ يُكْرَمُونَ فِي الْجَنَّةِ فِي رَوْضَةِ خَضْرَاءَ، عَلَى نَهْرٍ بَارِقٍ، فِي قُبَّةِ خَضْرَاءَ" (3).

وَلَمْ يَغِبِ اللَّونُ الْأَخْضَرُ عَن سَمَاءِ الْمَقَامَاتِ، وَلَمْ تَأْفَلْ نُجُومُهُ عَن لَيْلِهَا، فَقَدْ أَشْرَقَتْ شَمْسُهُ كَثِيرًا فِيهَا، وَتَلَأَلَّتْ نُجُومُهُ فِي لَيْالِهَا، وَبَرَعَتْ أَقْمَارُهُ وَسَطَ ظُلُمَاتِهَا، وَمِنْ هَذِهِ النُّجُومِ، أَوْ تِلْكَ الْأَقْمَارِ، (غَرِيبُ الْأَنْبَاءِ فِي مُنَاطَرَةِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ) الَّتِي بَسَطَ فِيهَا الْأَدِيبُ جَنَاحَ إِبْدَاعِهِ؛ كَمَا يَرُوي بِهِ قِصَصَ الْجَمَالِ، وَرَوَايَاتِ الْجَلَالِ، مُسْتَلْهِمًا إِبْدَاعَاتِ الْأَدْبَاءِ السَّابِقِينَ، يَقُولُ مُحَمَّدُ الْمُبَارَكُ: "فَهُوَ ذُو الْيَدِ الْبَيْضَاءِ، وَالْعَيْشَةِ الْخَضْرَاءِ، وَالْمَوَارِدِ الصَّافِيَةِ، وَالْمَطَارِفِ الصَّافِيَةِ... وَلَا غَرَوْ أَنْ يُوسَمَ بِمَدِيدِ الْفَضْلِ، وَالنَّدَى، وَبِهِ تَرْتَشِفُ الشَّمْسُ مِنْ تُغُورِ الْأَقَاحِ قَطَرَ النَّدَى، يَحْكِي الْوَرَقَ مِنْهُ الْوَرِقَ، فَكَأَنَّهُ وَالْغُصْنَ يِرَاعُ وَرِقَ، وَيُزْرِي زَهْرَهُ بِالزُّهْرِ، وَيُعْرِي بِالْبَيْضِ وَالصُّفْرِ... غُصُونُهُ تَرْفُصُ، فَتَمِيسُ وَتَمِيلُ، وَطَيْبُورُهُ تُعْنِي فَتَطْرِبُ بِحُسْنِ الْهَدِيلِ. الْوُرُودُ تَدْعُو إِلَى حُسْنِ الْوُرُودِ، وَقَدْ بَدَتْ كَوَاكِبُهَا الدَّرِيَّةُ فِي مَطَالِعِ السُّعُودِ" (4).

بَرَاعَ مُحَمَّدُ الْمُبَارَكُ فِي بَيَانِ دَلَالَةِ اللَّونِ الْأَخْضَرِ مِنْ خِلَالِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْمَفْرَدَاتِ، فَلَمْ يَكْتَفِ بِالنَّصْرِيحِ بِهِ فِي قَوْلِهِ: (الْعَيْشَةُ الْخَضْرَاءُ)، بَلْ سَافَرَ بَيْنَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ حَمَلَتْ فِي ثَنَائِهَا اللَّونَ الْأَخْضَرَ فِي (الْوَرِقِ، الْغُصْنِ، الْغُصُونِ، طَيْبُورِهِ، الْوُرُودِ) فَكُلُّ كَلِمَةٍ أَظْهَرَتْ جَمَالِيَّاتِ تَشْكِيلِ اللَّونِ الْأَخْضَرِ، وَتَرَكَّتِ الْبَابَ مَفْتُوحًا لِلْمُنْتَلَقِي لِتَخِيلَ دَرَجَاتِهِ الْمُخْتَلِفَةَ، وَيُطْلَقُ

(1) الدُّبْيَانِيُّ، دِيْوَانُ النَّابِغَةِ الدُّبْيَانِيِّ، (ص 12).

(2) الْأَبْلَانِيُّ، سَلْسَلَةُ الْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ وَالْمَوْضُوعَةِ وَأَثَرُهَا السَّيِّئِ فِي الْأُمَّةِ، (ج 7/443).

(3) الطَّبْرِيُّ، جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، (ج 2/42).

(4) الطَّيَّانُ، الْمَفَاخِرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (غَرِيبُ الْأَنْبَاءِ فِي مُنَاطَرَةِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ)، (ص 101).

العنانَ لِفَرِهِ لِيَتَأَمَلَ تَشْكِلاتِهِ الْمُتَنَوِّعَةَ، وَلَعَلَّ السَّرَّ الْآخَرَ أَنَّ الْأَدْيَبَ جَمَعَ (الورق)، و(الغصون)، و(الطيور)، و(الورود) لِلتَّنَوُّعِ؛ فَالطُّيُورُ، وَالرُّوْدُ تَحْمِلُ دَلَالَاتٍ لَوْنِيَّةً مُتَعَدِّدَةً، فَفِي ثَنَائِهَا بَاقَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ مِنَ الْأَلْوَانِ الَّتِي تَتَنَقَّلُ بَيْنَ الْأَخْضَرِ، وَالْأَبْيَضِ، وَالْأَحْمَرِ، وَالْأَصْفَرِ، وَكَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِيهِ شُمُولِيَّةُ الْأَلْوَانِ، وَمَنْ بَيْنَ ثَنَائِهَا الْأَلْوَانِ يَرْتَسِمُ الْجَمَالَ.

إِنَّ رُودَ اللَّوْنِ الْأَخْضَرِ فِي النُّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ أَدَّى دَوْرَهُ فِي التَّشْكِيلِ اللَّوْنِيِّ، فَقَدْ رَسَمَ الْأَدْبَاءُ صُورًا تَكْنِيفِيَّةً لِهَذَا اللَّوْنِ، وَجَمَالِيَّاتِهِ، وَحَيَوِيَّتِهِ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ "الْأَخْضَرَ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لَوْنًا يَمْتَلُّ سِمَةً مِنْ سِمَاتِ النَّعِيمِ فِي الْجَنَّةِ، فِي السِّبْتَةِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي يُهَيِّئُهَا اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُكْرَمِينَ فَوُصِفَتْ الثِّيَابُ الْخَضْرُ بِأَنَّهَا مِنَ السُّنْدُسِ وَالْحَرِيرِ، وَأَنَّهَا خَضْرَاءُ اللَّوْنِ، وَأَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُزَيَّنُونَ بِضُرُوبٍ مِنَ الزَّيْنَةِ مِنَ الذَّهَبِ، وَالْفِضَّةِ"⁽¹⁾، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجَلِّونَ فِيهَا مِنْ أَسْوَدٍ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خَضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَقًى ﴿٣٢﴾﴾ [الكهف: 30، 31].

التَّشْكِيلُ اللَّوْنِيُّ فِي لُوحَاتِ الطَّبِيعَةِ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ

يَبْرُزُ التَّشْكِيلُ اللَّوْنِيُّ فِي مَشَاهِدِ الْكَوْنِ، السَّمَاءِ وَالنُّجُومِ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالْأَرْضِ بِمَا عَلَيْهَا مِنْ مِيَاهٍ مُتَعَدِّدَةِ الْمَصَادِرِ وَالْمَشَاهِدِ، وَمَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَوَاهِدِ الطَّبِيعَةِ سُهُولًا، وَجِبَالًا، وَرَوَابِي، وَوَهَادًا، وَسُيُولًا، وَأَنْهَارًا، كُلُّ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ جَعَلَتْ مِنْ عَنَاصِرِ الطَّبِيعَةِ عَالَمًا حَافِلًا بِالْأَلْوَانِ، عَامِرًا بِالْحَرَكَةِ، وَتَقْلِبُهَا الْفَتَانِ، وَتَبْرُزُ جَمَالِيَّةُ التَّشْكِيلِ اللَّوْنِيِّ فِي لُوحَاتِ جَمِيلَةٍ رَائِعَةٍ، وَمَشَاهِدِ رَائِقَةٍ، أَدْعَاهَا خَالِقُ الْكَوْنِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مُصَوِّرُ الْمَخْلُوقَاتِ جَمِيعًا فِي أَدْعِ الصُّورِ وَأَنْبَاهَا، مُوَجِّدُ الْكَوْنِ، مُبْدِعُ الْأَلْوَانِ، وَمُوجِدُهَا فِي هَذَا الْكَوْنِ، وَوَاهِبُ الْإِنْسَانِ الْقُدْرَةَ عَلَى النَّظَرِ وَالتَّأَمُّلِ، وَالتَّفَكُّرِ، وَالتَّدْبِيرِ؛ لِيَسْحَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ لِخَيْرِ الْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ. فَيَنْعَمُ بِجَمَالِهَا الدَّانِي وَالْقَاصِي، وَيَتَنَعَّمُ بِرَوْعَتِهَا الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ.

إِنَّ الْفَصْلَ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْأَلْوَانِ يَكَادُ يَكُونُ مُسْتَحِيلًا، فَالْأَلْوَانُ تَرْتَبِطُ بِحَيَاةِ الْإِنْسَانِ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا، فَهِيَ تُحِيطُ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَتَكْتَفُهُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، فَإِذَا قَلَبَ الْإِنْسَانُ بَصَرَهُ فَإِنَّهُ يَرَى الْأَلْوَانِ فِي أَرْجَاءِ هَذَا الْكَوْنِ، وَمَا يَحْوِيهِ مِنْ كَانِتَاتٍ، وَمَخْلُوقَاتٍ عَلَى الْأَرْضِ، وَمَا فِي جَوْفِهَا، وَفِي السَّمَاءِ وَمَا تَحْتِهَا، وَفِي الْبِحَارِ وَمَا فِي أَعْمَاقِهَا، وَإِذَا فَكَّرَ وَتَحَرَّكَ فَإِنَّهُ يَرَاهُ فِي

(1) الصَّفَّارُ، جَمَالِيَّةُ التَّشْكِيلِ اللَّوْنِيِّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، (ص 320).

الزَّهْرِ وَالشَّوْكِ وَالشَّجَرِ، وَفِي النَّبَاتِ، وَالْحَبِّ، وَالتَّمْرِ، وَفِي الشَّمْسِ، وَالنَّجْمِ، وَالْقَمَرِ، كَمَا يِرَاهُ فِي الْحَجْرِ وَالرَّمَالِ، وَفِي الصَّخْرِ، وَالْجِبَالِ، وَيِرَاهُ فِي الصَّحَارِيِّ وَالنَّجَادِ، وَفِي الرَّوَابِيِّ وَالْوُهَادِ، يِرَاهُ فِي عُيُونِ الْحَسَنَاتِ، وَفِي وُجُوهِ الْجَمِيلَاتِ، فَلَا يَبْرُحُ مَكَاناً إِلَّا وَيَبْسُمُ فِي وَجْهِهِ لَوْنٌ، وَتَضْحَكُ الْوَانُ وَالْوَانُ.

وَيَتَصَدَّرُ التَّشْكِيلُ اللَّوْنِيُّ لِلوَحَاتِ الطَّبِيعَةِ النَّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ، وَهَذِهِ اللُّوَحَاتُ تَتَدَاعَى فِيهَا الْأَلْوَانُ بِشَكْلِ مُتَنَاسِقٍ مُتَوَاقِفٍ مَعَ الْأَشْيَاءِ الْمَوْصُوفَةِ؛ لِأَنَّ لِلْأَلْفَافِ هُنَا فُرْتَهَا الْفَائِقَةَ فِي رَسْمِ التَّشْكِيلِ اللَّوْنِيِّ مِنْ خِلَالِ دَلَالَاتِهَا وَسِيَاقَاتِهَا الْمَصَوِّرَةِ لِلوَحَاتِ مَجْمُوعَةً، وَتَنْظُلُ الْأَلْوَانُ دَوْمًا سِحْرًا يَبْهَرُ الْعُيُونَ، وَالْأَبْصَارَ.

وَمِنْ مَشَاهِدِ تِلْكَ اللُّوَحَاتِ مَا رَسَمَهُ مُحَمَّدُ الْمُبَارَكُ فِي مَقَامَتِهِ (نُضْرَةَ الْبِهَارِ فِي مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) الَّتِي يَقْدِمُهَا كَأَجْمَلِ مَا يَكُونُ التَّقْدِيمُ، يَقُولُ: "وَعَلَامَ جَعَلَ السَّوَادَ عَلَى النَّقْصِ عِلَامَةً، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ السُّوْدِ عَلَى كُلِّ عِلَامَةٍ؟ أَمَا دَرَى أَنِّي حَزْتُ مِنَ الْكَمَالِ الْحِظَّ الْأَوْفَرَ، حَتَّى تَحَلَّى بِبَدِيعِ وَصْفِي الْعَنْبَرِ، وَهَلْ يُزِرِّي بِالْخَالِ سَوَادُهُ الْبَارِعُ، أَوْ يُعْرِى بِالْبَرَصِ بِيَاضَهُ النَّاصِعُ؟ وَفِي بِيَاضِ الْمَشِيبِ عِبْرَةٌ، وَأَيُّ عِبْرَةٍ، فَكَمْ أَجْرَى مِنَ الْإِمَاقِ أَعْظَمَ عِبْرَةٍ، وَمَنْ عَابَ نَعْتَ الشَّبَابِ وَفَضْلَ وَصْفِ الشَّيْبِ، فَقَدْ غَابَ عَنِ شُهُودِ الْعَيْبِ، وَعَالِمِ الْعَيْبِ. (فَمَا كُلُّ بِيضَاءَ شَحْمَةً، وَلَا كُلُّ حَمْرَاءَ لَحْمَةً). هَذَا وَإِنَّ السَّوَادَ حِلْيَةٌ أَهْلِ الزُّهْدِ، وَالصَّلَاحِ، وَهَلْ يَسْتَرْقُ الْأُسُودَ إِلَّا سُودُ أَحْدَاقِ الْمِلَاحِ؟!"(1).

إِنَّ اللُّوَحَةَ اللَّوْنِيَّةَ فِي الْمَقْطُوعَةِ السَّابِقَةِ تَمَثَّلَتْ فِي كَلِمَاتٍ مُنْتَقَاةٍ بَدِيقَةٍ، وَمُنْتَزِطَةٍ أَشَدَّ مَا يَكُونُ التَّرَايُطُ، فَالْحِكَايَةُ بَدَأَتْ بِالِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ لِمَنْ يَرَى أَنَّ السَّوَادَ مِنْ عِلَامَاتِ النَّقْصِ، ثُمَّ يُبَرِّرُ بِنَفْيِ ذَلِكَ كَوْنُهُ عِلَامَةً مِنْ عِلَامَاتِ السُّوْدِ، وَعِلَامَةً مِنْ عِلَامَاتِ الْجَمَالِ، وَقَدْ قَدَّمَ دَلَالَتِ جَمَالِهِ بَعْدَ مِنْ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي حَمَلَتْ مَعْنَى النَّفْيِ فِي: (وَهَلْ يُزِرِّي بِالْخَالِ سَوَادُهُ الْبَارِعُ؟)، وَالتَّفْهِيمِ فِي: (وَهَلْ يَسْتَرْقُ الْأُسُودَ إِلَّا سُودُ أَحْدَاقِ الْمِلَاحِ؟!).

وَيَسْمُو الْأَدِيبُ شَيْئًا فَشَيْئًا حِينَ يُؤَكِّدُ أَنَّ سَوَادَ الْخَالِ عِلَامَةٌ مِنْ عِلَامَاتِ الْجَمَالِ، وَأَنَّ ثِيَابَ الْحَدَادِ حِلْيَةٌ أَهْلِ الزُّهْدِ وَالصَّلَاحِ. وَكَأَنَّ الْأَدِيبَ وَاعَمَ بَيْنَ رَوْعَةِ الْجَمَالِ، وَهُدُوءِ الزُّهْدِ وَالصَّلَاحِ، فَأَضَافَ هُدُوءًا إِلَى هُدُوءٍ، وَسَكِينَةً إِلَى خُشُوعٍ تَقَرَّرَ بِهَا الْعُيُونَ، وَتَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا النُّفُوسُ، وَتَثَبَّتْ بِهِنَّ الْأَفْئِدَةُ وَالْقُلُوبُ.

(1) الطَّيَّانُ، الْمُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (نُضْرَةَ الْبِهَارِ فِي مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)، (ص 136، ص 137).

وَكَاَجَمِلَ مَا يَكُونُ الرَّسْمُ تَحْسِيدُ الْمَقَامَاتِ صُورًا تَتَدَاخَلُ فِيهَا مُفْرَدَاتُ الطَّبِيعَةِ بِحَقُولِهَا الْمُخْتَلَفَةِ، وَأَلْوَانِهَا الْمُتَنَوِّعَةِ؛ لِتَصْنَعَ لُوحَاتٍ مِنَ الْجَمَالِ مُتَكَامِلَةً، وَتَنْحِتُ تَشَكِيلَاتٍ مِنَ الْإِبْدَاعِ مُبْهِرَةً شَامِلَةً، يَقُولُ مُحَمَّدُ الْمُوَيْلِحِيُّ: "هُنَالِكَ تَسْتَبِيكُ أَلْوَانُ الْأَزَاهِرِ، بِمَا يُزْرِي بَلَمَعَانَ الْجَوَاهِرِ، فَمَا الْيَاقُوتُ عِنْدَهَا، وَالزَّرْبُجْدُ، وَمَا الْفَيْرُوزُ، وَالزُّمْرُدُ، وَمَا الْعَقِيْقُ وَالْجُمَانُ، وَمَا الدَّرُّ وَالْمَرْجَانُ! وَكَيْفَ يِقَاسُ الْحَجْرُ بِالشَّجَرِ، وَتَسْتَوِي الْحَصْبَاءُ الْيَاسِبَةُ بِأَكْمَامِ الْأَعْصَانِ الْمَائِسَةِ، وَكَيْفَ يَفْدُمُ الْجَامِدُ النَّابِتُ عَلَى النَّامِي النَّابِتِ، وَأَيُّنَ الْحَرَكَةُ مِنَ السُّكُونِ، وَالْمَنْشُورُ مِنَ الْمُدْفُونِ، وَأَيُّنَ الْمُنْثُورُ عَلَى ظَهْرِ الرَّوْضَةِ الرَّهْرَاءِ مِنَ الْمَلْحُودِ فِي بَطْنِ الْغَبْرَاءِ! وَلَيْنَ انْتَضَمَتِ الْقَلَائِدُ، بِجَوَاهِرِ تِلْكَ الْفَرَائِدِ، فِي لَبَاتِ الْخَرَائِدِ، وَكَانَ مَكَائِهَا مِنَ الْحُورِ فِي الْمَعَاصِمِ وَالنُّحُورِ، لَكَانَتْ هَذِهِ الرَّهْوَرُ، بَيْتَ الرَّبَاتِ وَالصُّدُورِ، وَكَمْ أَنْعَشَتْ خَامِدَ النُّفُوسِ وَالْأَرْوَاحِ بِطِيبِ الْأَنْفَاسِ، وَشَدَى الْأَرْوَاحِ، فَوْقَنَا نَسْتَشِقُّ الْأَرِيحَ وَالنَّشْرَ، مِنْ أَصْنَافِ ذَلِكَ الطَّيِّبِ، وَالْعَطْرِ، لَوْ كَانَ مَعْنَا ضَرِيْرُ الْمَعْرِةِ رَهِيْنُ الْمَحْبِسِيْنَ لِانْقَلَبَ مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ قَرِيْرَ الْعَيْنِ، وَلَأَنَسَ مِنْ وَحْشَتِهِ، وَذَهَلَ عَن فَاقَتِهِ، وَخَلَّتِهِ" (1).

إِنَّ مُحَمَّدَ الْمُوَيْلِحِيَّ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَرْسِمَ لُوحَاتٍ رَازِعَةً مَنْفَرْدَةً الْجَمَالِ، اِحْتَاَجَ أَنْ يَدْمِجَ مَعَ حَقْلِ الْأَلْوَانِ كَلِمَاتٍ مِنْ حُقُولِ أُخْرَى كَحُقُولِ الصَّوْتِ، وَالْحَرَكَةِ، فَاسْتَعْمَلَ مُفْرَدَاتٍ أَضْفَتْ إِلَى التَّشَكِيلِ اللَّوْنِيَّ مَزِيدًا مِنَ الْجَمَالِ، فَإِذَا بِالْمُتَلَقِّي يَمْتَعُ نَاطِرِيْهِ بِأَجْمَلِ الْأَلْوَانِ، وَيُطْرِبُ أذْنِيْهِ بِأَعْدَبِ الْأَلْحَانِ، وَيُنْعِشُ أَنْفَاسَهُ بِأَطْيَابِ الْعَطْرِ، وَالرِّيْحَانِ، يَنْطَلِقُ هَذَا الْمُتَلَقِّي فِي دُرُوبِ طَوِيلَةٍ، بَيِّدَ أَنَّهُ بَيْنَ الْفَيْئَةِ وَالْأُخْرَى تَعْتَرِضُهُ لَمَسَةٌ مِنْ لَمَسَاتِ الْحُسْنِ فَيَنْهَلُ مِنْهَا، وَأَيَّةً مِنْ آيَاتِ الْجَمَالِ قَيْرِدُ مَسَالِكِهَا، فَطَوْرًا يَسْعُدُ بِالْوَانِ الْأَزَاهِرِ، وَلَمَعَانَ الْجَوَاهِرِ، وَطَوْرًا يَسْتَشِقُّ الْأَرِيحَ وَالنَّشْرَ مِنْ أَصْنَافِ الطَّيِّبِ وَالْعَطْرِ، ثُمَّ يَأْنَسُ بِرِيَاضِ رَهْرَاءِ، وَحَدَائِقِ فَيْحَاءِ، فَيَخَالُ أَنَّهُ فِي جَنَاتِ خَضْرَاءِ، فِي ظِلَالِ، وَعَيْوُنِ، وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَسْتَهِي، وَيَسْتَهْوَنَ.

لَقَدْ اِكْتَضَتْ الْمَقْطُوعَةُ بِالْأَلْوَانِ الْمُبْهِرَةِ، وَيَكْفِيْنَهَا (الْيَاقُوتُ، وَالْمَرْجَانُ) لِئُكْتَبَ لَهَا الْخُلُودُ بَيْنَ الْأَثَارِ الْأَدْبِيَّةِ، فَقَدْ وَصِفَتْ نِسَاءُ الْجَنَّةِ بِالْجَمَالِ الْبَاهِرِ الْمُلْفَتِ لِلانْتِيَاهِ، وَشُبِّهْنَ بِاللُّوْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَانَتْهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ٥٨]، قِيلَ: "هُنَّ فِي صَفَاءِ الْيَاقُوتِ، وَبِيَاضِ الْمَرْجَانِ" (2). وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ جَمَالَ الْمَرْجَانِ لَا يَرْجِعُ إِلَى تَنَوُّعِ الْأَشْكَالِ فَحَسْبَ، وَإِنَّمَا لِتَعَدُّ أَلْوَانِهِ، فَمِنْهُ الْأَصْفَرُ، وَالْأَحْمَرُ، وَالْكَرِيْمِيُّ، وَالْأَخْضَرُ، وَالْبُرْتَقَالِيُّ، كَمَا أَنَّ الْيَاقُوتَ لَا

(1) الْمُوَيْلِحِيُّ، حَدِيثُ عِيْسَى بْنِ هِشَامٍ، (ص 292).

(2) الرَّمَّخَسَرِيُّ، الْكَشَافُ، (ج 4/453).

يَحْمِلُ لَوْنًا وَاحِدًا، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْأَبْيَضِ أَوْ الْأَصْفَرِ أَوْ الْأَحْمَرِ، وَبِهَذَا قَدَّمَ الْمُؤَلِّفُ مَا يُقَارِبُ عَشْرَةَ أَلْوَانٍ فِي كَلِمَتِي الْيَاقُوتِ، وَالْمَرْجَانِ، فَكَيْفَ بِنَا لَوْ بَحَثْنَا فِي الْأَزْهَرِ، وَالْجَوَاهِرِ، وَالزَّرْجَدِ، وَالْفَيْرُوزِ، وَالزَّمْرُدِ، وَالْعَقِيقِ، وَالْجَمَانِ، وَالذَّرِّ، وَالشَّجَرِ، فَإِنَّا سَنَعْتُرُ فِي ثَنَائِهَا عَلَى طَائِفَةٍ مِنَ الْأَلْوَانِ لَا حَصَرَ لَهَا، وَلَا حُدُودَ.

لَقَدْ حَظَّ مُحَمَّدُ الْمُؤَلِّفِيُّ (1858-1930م) وَثِيقَةً إِبداعِهِ، وَكَتَبَ شَهَادَةً تَفُوقُهُ بِحُرُوفٍ مِنْ ذَهَبٍ فِي رِئِيقَتِهِ (حَدِيثُ عِيسَى بْنِ هِشَامٍ)، صَوَّرَ فَأَحْسَنَ النَّصُوبِ، وَرَسَمَ فَأَتَقَنَ الرَّسْمَ، فَقَدَّمَتْ أَنَامِلُهُ الذَّهَبِيَّةُ لَوَحَاتٍ فَنِيَّةً بَارِعَةً، حَمَلَتْ فِي ثَنَائِهَا أَشْكَالًا مِنْ شَتَى الْأَلْوَانِ، يَقُولُ: "وَلَمَّا تَجَاوَزْنَا الْبَابَ انْتَهَيْنَا إِلَى سَهْلِ رَحِيْبٍ، وَوَادٍ عَشِيْبٍ، نَبَتَتْ أَرْضُهُ بِالْقُصُورِ الْمَنِيْفَةِ، كَمَا يَنْبِئُ الرُّوضُ بِالْأَغْصَانِ الْوَرِيْقَةِ، تَضِلُّ بِهِ الْحُدَاةَ، وَتَحَارُ الْهُدَاةُ، وَلَا يَدْعُ، فَالْمَدِينَةُ فِي اتِّسَاعِهَا قَطْرٌ مِنَ الْأَقْطَارِ، وَهَذَا الْمَعْرُضُ فِي سَرْتِهَا مِصْرٌ مِنَ الْأَمْصَارِ، وَمَا زَلْنَا سَائِرِينَ عَلَى أَرْضٍ تَزْهُو فِيهَا أَغْرَاسُ الْجِنَانِ، وَالْبَسَاتِينِ، وَأَزْهَارُ الْأَغْصَانِ وَالرِّيَّاحِينَ، وَلَمَّا امْتَلَأَتِ الْعَيْنُ مِنْ هَذِهِ الْمَحَاسِنِ الشَّائِعَةِ، وَجَنَّ اللَّبُّ مِنْ هَاتِيكَ الْمَنَاطِرِ الرَّائِعَةِ، النَّقْتُ إِلَى أَصْحَابِي أَتَلَمَّسُ مَا يَجْرِي فِي خَوَاطِرِهِمْ، وَأَتَحَسَّسُ مَا يَدُورُ فِي ضَمَائِرِهِمْ"⁽¹⁾.

إِنَّ اللَّوْحَةَ الْفَنِيَّةَ الَّتِي قَدَّمَهَا مُحَمَّدُ الْمُؤَلِّفِيُّ تَنْطَوِي عَلَى التَّشْكِيلِ اللَّوْنِيِّ الَّذِي يُبَيِّنُ الْمُتَعَنَّةَ، وَالْإِحْسَاسَ بِالْجَمَالِ الَّذِي امْتَدَّ مَعَ الْمَسَاحَاتِ الشَّاسِعَةِ، وَالْمَسَافَاتِ الْوَاسِعَةِ فِي (سَهْلِ رَحِيْبٍ، وَوَادٍ عَشِيْبٍ)، ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى الْمُفْرَدَاتِ الَّتِي تَسْتَوْعِبُ فِي ثَنَائِهَا أَلْوَانًا شَتَى فِي (الرُّوضِ وَالْبَسَاتِينِ، وَأَزْهَارِ الْأَغْصَانِ، وَالرِّيَّاحِينَ) الَّتِي اطْمَأْنَنْتَ لَهَا الْعُيُونُ، وَفُتِنَتْ بِمَنَاطِرِهَا الرَّائِعَةِ الْأَلْبَابُ، وَأَسْرَتِ الْقُلُوبُ.

إِنَّا إِذَا تَنَقَّلْنَا أَبْصَارُنَا بَيْنَ مُفْرَدَاتِ هَذِهِ اللَّوْحَةِ الْمَرْئِيَّةِ، نُدْرِكُ أَنَّ عَنَاصِرَهَا مُتَعَدِّدَةٌ الْأَلْوَانِ، أَوْ بِالْأَحْرَى تَرَسِّمُ لَنَا أَلْوَانًا غَيْرَ مُتَنَاهِيَةِ الْعَدَدِ، وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ التَّشْكِيلَ اللَّوْنِيَّ فِيهَا تَخْطَى حُدُودَ الْجَمَالِ، وَتَجَاوَزُ أَسْوَارَ الْجَلَالِ، فَالْأَدِيبُ يُصَوِّرُ بَرِيشتِهِ أَرْوَاعَ الْمَشَاهِدِ، وَكَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُرْسِلَ لِلْقُرَّاءِ رِسَالَةً عَنْوَاتُهَا: آيَاتُ الْجَمَالِ فِي الْمَقَامَةِ لَا يُحْصِيهَا عَدٌّ، وَلَا يَحْدُهَا حَدٌّ.

اسْتَخْدَمَ الْأُدْبَاءُ فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ كُلَّ مُفْرَدَاتِ لُغَةِ الشَّكْلِ - مِنْ لَوْنٍ، وَصَوْتٍ، وَحَرَكَةٍ - كَمَا لَمْ يَتَوَانَ أَحَدُهُمْ عَنِ الْاسْتِعَانَةِ بِكُلِّ مَا فِي الطَّبِيعَةِ مِنَ أَلْوَانٍ، لِتَصْوِيرِ لَوَحَاتِهِ الشَّعْرِيَّةِ فِي كُلِّ الْأَعْرَاضِ وَصَفَاءُ كَانَ، أَمْ مَدْحًا، أَمْ هِجَاءً، وَسَوَاءٌ فِي وَصْفِ الطَّبِيعَةِ، أَمْ وَصْفِ مَحَاسِنِ مَحْبُوبَتِهِ، وَمِنْ هُنَا "يَخْرُجُ اللَّوْنُ مِنْ مَدْلُولِهِ الْحِسِّيِّ الْوَصْفِيِّ الْمُبَاشِرِ إِلَى إِطْلَاقِهِ

(1) المولىحي، حديث عيسى بن هشام، (ص276، ص277).

عَلَى الْأُمُورِ الْمَعْنَوِيَّةِ، وَالْأَفْكَارِ الْمُجَرَّدَةِ⁽¹⁾. وَمِنْ هُنَا يَتْلَعَبُ ابْنُ الْأَلْوَسِيِّ فِي مَقَامَتِهِ (رَجَزُ الْمَعْرُورِ عَنِ رَجَزِ الْغُرُورِ) بِدَلَالَاتِ الْأَلْوَانِ، وَيَرْسِمُ فِي ثَنَائِهَا بِالْكَلِمَاتِ أَرْوَاعَ اللَّوْحَاتِ، فَقَدْ جَمَعَ فِيهَا الْأَبْيَضَ وَالْأَصْفَرَ، وَالْأَسْوَدَ، وَالْأَخْضَرَ، وَأَبْدَعَ فِي تَوْظِيْفِهَا فِي مَشْهَدٍ لُونِيٍّ مُتَقَرِّدٍ، حَتَّى غَدَتْ هَذِهِ الْمَقْطُوعَةُ مِنْ أَجْمَلِ الْمَقْطُوعَاتِ ذَاتِ اللَّوْحَاتِ اللَّوْنِيَّةِ الْمِتَدَاخِلَةِ الْمُتَقَاطِعَةِ، يَقُولُ: "فَكُلُّ مَا أَرَاهُ الْيَوْمَ مِنَ الْأَحْدَاثِ أَصْفَرَ الْوَجْهِ، كَأَنَّهَا جَاءَ بِرِسَالَتِهِ مِنْ أَهْلِ الْأَجْدَاثِ، وَقَدْ اسْتَحَالَ خَدُّهُ دُجَاءً، وَعَادَ زَمْرُدُ خَطِّهِ لِسُوءِ حَظِّهِ سَجَاءً، وَأُخْمِدَتْ نَارُ حُسْنِهِ بَعْدَ الْإِيقَادِ، وَلَبَسَ عَارِضُهُ الرَّاهِي ثُوبَ الْحِدَادِ، بَلْ أَمَسَتْ شَعُورُ وَجْهِهِ لُبُودًا، وَأَسْنَانُهُ اللَّوْلِيَّةُ خَضْرًا أَوْ سَوْدًا، وَكَانَ قَدْ فَارَقْنَا هَلَالًا وَغَزَالًا، فَعَادَ - لَا عَادَ - وَبِالْأَلْوَانِ وَنَكَالًا"⁽²⁾.

إِنَّ التَّنَاسُقَ بَيْنَ الْأَلْوَانِ فِي الْأَسْطُرِ السَّابِقَةِ يُقَدِّمُ لَنَا لَوْحَةً بَارِعَةً تَحْمِلُ مَزِيدًا مِنَ الْعَنَاوِينِ أَوْلَهَا: عُنْوَانُ رَبِيبِ سَطْرٍ بِمِدَادِ الذَّهَبِ، صَاغَهُ أَبُو الْبَقَاءِ الرُّنْدِيُّ فِي تَخْفِيْتِهِ (الْفَرْدَوْسُ الْمَفْقُودُ):

وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تُبْقِي عَلَى أَحَدٍ
وَلَا يَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شَانُ⁽³⁾.

وَتَأْنِيهَا: كُتِبَ بِخُطُوطِ التَّشَاوُمِ وَالْكَاتِبَةِ فِي (أَصْفَرَ الْوَجْهِ، الْأَجْدَاثِ، وَثُوبَ الْحِدَادِ)، وَتَأْنِيهَا: خُطٌّ بِرُمُوزِ النَّهَائِيَّةِ، وَنُضُوبٍ مِنْهُلِ الْعَطَاءِ (رِسَالَتِهِ مِنْ أَهْلِ الْأَجْدَاثِ)، وَرَابِعُهَا: رُسِمَ بِامْتِدَادِ رُفْعَةِ الْحُزْنِ، وَاتِّسَاعِ مَسَاحَةِ الْكَاتِبَةِ وَالْيَاسِ (وَقَدْ اسْتَحَالَ خَدُّهُ دُجَاءً، وَعَادَ زَمْرُدُ خَطِّهِ لِسُوءِ حَظِّهِ سَجَاءً)، وَخَامِسُهَا: صُورَ تَبَدُّلِ الْفَرْحِ، وَالسُّرُورِ، وَالْهِنَاءِ، بِالْحُزْنِ، وَالْبُؤْسِ، وَالشَّقَاءِ فِي (بَلْ أَمَسَتْ شَعُورُ وَجْهِهِ لُبُودًا، وَأَسْنَانُهُ اللَّوْلِيَّةُ خَضْرًا أَوْ سَوْدًا، وَكَانَ قَدْ فَارَقْنَا هَلَالًا وَغَزَالًا، فَعَادَ - لَا عَادَ - وَبِالْأَلْوَانِ وَنَكَالًا)، وَخَتَمَ ابْنُ الْأَلْوَسِيِّ الْقِصَّةَ بِلَحْنٍ جَمَعَ كُلَّ الْأَحْزَانِ، وَوُشِّحَ بِمُخْتَلَفِ الْأَلْوَانِ، مُنْشِدًا أَرْوَاعَ الْأَلْحَانِ (وَأُخْمِدَتْ نَارُ حُسْنِهِ بَعْدَ الْإِيقَادِ، وَلَبَسَ عَارِضُهُ الرَّاهِي ثُوبَ الْحِدَادِ)؛ لِيُكْمَلَ رَسْمُ لَوْحَتِهِ، وَيُنْهِيَ مَلَامِحَ تَشْكِيلِهَا، وَيَكْتُبَ مَشْهَدَ النَّهَائِيَّةِ الْمُؤَلِّمِ، مُسْتَلْهِمًا قَوْلَ الرُّنْدِيِّ:

هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتُهَا دُولٌ
مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاعَتُهُ أَرْمَانٌ
وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تُبْقِي عَلَى أَحَدٍ
وَلَا يَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شَانُ⁽⁴⁾.

(1) يونس، التَّصْوِيرُ الْجَمَالِيُّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، (ص 102).

(2) ابنُ الْأَلْوَسِيِّ، مَقَامَاتُ ابْنِ الْأَلْوَسِيِّ، (رَجَزُ الْمَعْرُورِ عَنِ رَجَزِ الْغُرُورِ)، (ص 94). لبود: غير منظم.

(3) الرُّنْدِيُّ، أَبُو الْبَقَاءِ، دِيْوَانُ أَبِي الْبَقَاءِ الرُّنْدِيِّ، (ص 5).

(4) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 5.

وَيُسَعِدُ مُحَمَّدَ الْمُؤَلِّحِي الْعَيْوَنَ، وَيُبْهِرُ الْأَلْبَابَ وَالْقُلُوبَ بِلَوْحَةٍ هِيَ السَّحْرُ، أَوْ عُقُودُ الدَّرِّ، يَقُولُ عَلَى لِسَانِ عَيْسَى بْنِ هِشَامٍ: "وَدَخَلْنَا مَعْرَضَ الْأَشْجَارِ، وَبُسْتَانَ الْأَزْهَارِ، فِي قَصْرِ لَمْ يَبْنِ بِنَاءَ الْقُصُورِ وَالْدِيَارِ، وَلَمْ تُشَدَّ أَرْكَانُهُ بِالشَّيْدِ فَوْقَ الْأَحْجَارِ، وَلَمْ تَرْتَفِعْ بِالْأَجْرِ حَجْرُهُ وَغَرْفُهُ، وَلَمْ تَتَّخِذْ مِنَ الْخَشَبِ أَبْوَابَهُ وَسُقْفُهُ، بَلْ عَقَدْتَ لَهُ الْقِيَابُ وَالْأَبْرَاجُ، مِنْ صَقِيلِ النَّبُورِ، وَسَبِيكِ الزُّجَاجِ، فَهُوَ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرِ، كَأَنَّهُ لُجَّةٌ يَمٌّ، أَوْ صَفْحَةٌ غَدِيرٍ، لَوْ دَخَلْتَهُ بَلْقَيْسُ صَاحِبَةُ الْعَرْشِ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ، لَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا مَرَّةً ثَانِيَةً، جَمَعُوا فِيهِ أَشْتَاتِ النَّبَاتِ الْعُضِّ، مِنْ كُلِّ بَقْعَةٍ وَنَاحِيَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، مِمَّا يَنْبُتُ بَيْنَ ثَنِيَاتِ الْجَلِيدِ، وَتَشْتَقُّ عَنْهُ صُمُّ الْجَلَامِيدِ، وَمَا اخْضَرَ فِي رُبَا الصَّحْرَاءِ، وَأُورِقَ فِي وَهَادِ الْبَيْدَاءِ، وَأَزْهَرَ فِي الْجَمَدِ، وَأَبْنَعَ فِي الْوَمَدِ، وَمِنْ حَيْثُ تَجْرِي الْأَنْهَارُ وَالْجَدَاوِلُ، إِلَى حَيْثُ تَعْتَصِمُ الْأَرَاوِي وَالْأَجَادِلُ، وَمِنْ حَيْثُ تَشْدُو الْحَمَامَةُ الْوَرَقَاءَ، تَحْتَ الظَّلَالِ وَالْأَفْنََاءِ، إِلَى حَيْثُ تَدُورُ الْحِرَابُ، فِي كَيْدِ السَّمَاءِ، وَمِنْ أَدْنَى الشَّرْقِ إِلَى أَفْصَى الْغَرْبِ، وَمِنْ طَرْفِ الْقُطْبِ إِلَى طَرْفِ الْقُطْبِ، فَمَا أَرَدْتَ هُنَاكَ مِنْ جَمِيعِ الْأَنْوَاعِ، فِي مُتَقَرِّقِ الْبِقَاعِ، مَا بَيْنَ مُلْتَفٍّ، وَمُنْتَشِبٍ، وَمُنْسَلِقٍ مِنْهُ وَمُنْتَسِعٍ، يَقْتَرُّ بِكُلِّ مُحَمَّرٍ، وَمُبيِّضٍ، وَمُدَهَّبٍ، وَمُقَضِّضٍ، وَمُشْرِقٍ، وَمُومِضٍ"⁽¹⁾.

لَا أُدْرِي أَيُّ دُرُوبِ الْجَمَالِ الْأَدِيبُ قَصَدَ، وَلَا أَعْلَمُ أَيَّ مَوَارِدِ الْحُسْنِ نَهَلَ، هَلْ كَلِمَاتُهُ وَابِلٌ بِهَاءٍ، أَمْ سَحَابِيْبٌ حُسْنٍ؟، وَهَلْ مَعَانِيهِ لَحْنٌ غِنَاءٍ، أَمْ غِنَاءٌ لَحْنٍ؟ لَقَدْ رَسَمَ مُحَمَّدُ الْمُؤَلِّحِي فَأَبْدَعَ، وَتَرْتَمَ فَأَمْتَعَ، وَنَظَّمَ فَأَلْهَبَ الْأَحَاسِيْسَ، وَأَثَارَ الْمَشَاعِرَ مَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ، مَعَ الْوَانِ الْأَشْجَارِ، وَالْأَزْهَارِ، وَزُخْرُفَةِ الْقُصُورِ، وَالْدِيَارِ، وَمَعَ رِقَّةِ النَّبَاتِ الْعُضِّ، فِي كُلِّ أَرْضٍ، ثُمَّ يَنْطَلِقُ لِيَسْمُوَ بِالْمُتَلَقِّي مَعَ هُدُوءِ بَيَاضِ الْجَلِيدِ، وَعُدُوبَةِ مَا اخْضَرَ فِي رُبَا الصَّحْرَاءِ، وَأُورِقَ فِي وَهَادِ الْبَيْدَاءِ. وَيُوَاصِلُ الْأَدِيبُ إِثْبَاتَ امْتِلَاكِهِ مَفَاتِيحَ أَبْوَابِ الْجَمَالِ لَمَّا أَضْفَى عَلَى لَوْحَتِهِ مَزِيْجًا مِنَ الْأَصْوَاتِ الْعَذْبَةِ حَيْثُ تَشْدُو الْحَمَامَةُ الْوَرَقَاءَ تَحْتَ الظَّلَالِ وَالْأَفْنََاءِ، بَيْنَ الْأَحْمَرِ وَالْأَبْيَضِ، عَلَى أَفْنَانِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، صُحْبَةَ نَسَائِمِ الْإِشْرَاقِ الْعُضَّةِ.

وَلَمْ يَكْتَفِ الْمُؤَلِّحِي بِذَلِكَ، بَلْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَجْمَعَ الْوَانًا شَتَّى فِي كَلِمَةٍ (النَّبَاتِ)، الَّذِي تَحْمَلُ بِدَلَالَتِهَا الْعَامَّةِ تَنَوُّعًا لُونِيًّا، فَلَمَّا افْتَرَنْتِ الْكَلِمَةَ بِقَوْلِهِ: (فِي كُلِّ أَرْضٍ) زَادَتْ دَلَالَتُهُ سَعَةً قُوَّةً وَإِيحَاءً لِتَشْكِيلِ مُتَنَوُّعٍ، مُتَعَدِّدِ الْأَلْوَانِ، فَقُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى "إِنْزَالِ الْمَاءِ الْوَاحِدِ يَكُونُ سَبَبًا فِي

(1) المؤلِّحِي، حديث عيسى بن هشام، (ص 291، ص 292). ممرّد: أملس مصقول، الجمد: الثلج، الومد: الحر، الأراوي: جمع أروى وهو الوعل، الأجادل: جمع أجدل وهو الصقر، منتشِب: ملتف.

إِحْيَاءِ الْأَرْضِ وَإِنْبَاتِهَا بِنَبَاتٍ مُتَعَدِّدِ الْأَشْكَالِ وَالْأَصْنَافِ، وَمَا يَتَّبِعُ ذَلِكَ الْأَمْرُ مِنْ تَنَوُّعِ الْأَلْوَانِ، وَالطُّعُومِ، وَالرَّوَائِحِ، وَالْمَنَافِعِ"⁽¹⁾.

وَقَدْ وَقَفَ سَيِّدُ قُطْبٍ عَلَى ذَاتِ الْمَشْهَدِ وَقَفَةً فَنَانَ مُتَدَوِّقٍ لِلْجَمَالِ، مُتَحَسِّسٍ لِلْأَلْوَانِ، وَإِبْدَاعٍ تَنْظِيمِهَا، يَقُولُ: "وَإِنْبَاتُ النَّبَاتِ بَعْدَ نَزُولِ الْمَاءِ عَجِيبَةٌ أُخْرَى لَا يَنْقُضِي مِنْهَا الْعَجَبُ، عَجِيبَةُ الْحَيَاةِ، وَ عَجِيبَةُ التَّنَوُّعِ، وَعَجِيبَةُ الْوَرَاثَةِ. إِنَّ دِرَاسَةَ تَوْزِيْعِ الْأَلْوَانِ فِي زَهْرَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ نَبْتَةٍ وَاحِدَةٍ؛ لَتَفُودُ الْقَلْبَ الْمَفْتُوحَ إِلَى أَعْمَاقِ الْحَيَاةِ، وَأَعْمَاقِ الْإِيمَانِ بِاللهِ مُبْدِعِ الْحَيَاةِ"⁽²⁾.

وَإِذَا كَانَتْ الْعَيْنُ تَعْمَلُ بِالْفِطْرَةِ، وَإِذَا كَانَ اللَّوْنُ هُوَ الْخَصِيصَةَ الْأُولَى لِلْأَشْيَاءِ، فَإِنَّ الْاسْتِجَابَةَ الْجَمَالِيَّةَ لِلْأَشْيَاءِ تَبْدَأُ بِالْاسْتِجَابَةِ لِأَلْوَانِهَا؛ وَذَلِكَ انْطِلَاقًا مِنْ أَنَّ الْخَصَائِصَ الْجَمَالِيَّةَ لِلتَّكْوِينَاتِ الْبَصْرِيَّةِ هِيَ مَا تَبَحُّثُ عَنْهُ الْعَيْنُ أَوَّلًا، ثُمَّ تَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ مَرْحَلَةُ الْإِحَاطَةِ بِمَوْضُوعِ الشَّيْءِ الْمُدْرِكِ، وَمَضْمُونِهِ. حَيْثُ إِنَّ "الْهَدَفَ الْجَمَالِيَّ فِي الْإِدْرَاكِ الْبَصْرِيِّ يَسْبِقُ الْهَدَفَ الْمَعْرِفِيَّ"⁽³⁾، وَانْطِلَاقًا مِنْ هَذَا الْمَفْهُومِ يَنْطَلِقُ مُحَمَّدٌ الْمُؤَلِّحِيُّ فَيَوْظِفُ الْأَلْوَانَ الْمُبَاشِرَةَ، وَغَيْرَ الْمُبَاشِرَةَ، يَصْهَرُ الْأَبْيَضُ، وَالْأَزْرَقُ، وَالْأَسْوَدُ فِي بَوْتَقَةِ إِبْدَاعِهِ، وَيَمْرَجُ الْوَانُ اللَّيْلِي، وَالنَّهَارِي، وَالْمَشْيَبِي، وَالْحَدَادِي فِي رَائِعَتِهِ، فَيَقْدِمُ لَوْحَةً أَخَاذَةً لِلَّيْلَةِ مُورَقَةً كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَتْ سُدُولَهَا عَلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ، وَتَفَتَّ عَنْهُ النَّوْمُ، وَالرَّقَادُ، وَأَوْرَثَتْهُ الْأَرْقُ، وَالسُّهَادَ، يَقُولُ: "وَطَلَبَ مِنِّي أَنْ نُحْيِيَ اللَّيْلَةَ بِالسَّمْرِ، وَأَنْ أَقْتُلَهَا مَعَهُ بِالسَّهْرِ، فَجَلَسْنَا نَتَجَادَبُ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ، مِنْ قَدِيمِ فِي الرَّمَنِ، وَحَدِيثِ، إِلَى أَنْ صَارَتِ اللَّيْلَةُ فِي أُخْرِيَاتِ الشَّبَابِ، فَاسْتَهَانَتْ بِالْإِزَارِ وَالنَّقَابِ، ثُمَّ دَبَّ الْمَشْيَبُ فِي فُودِهَا، وَبَانَ أَثَرُ الْوَضْحِ فِي جِلْدِهَا... ثُمَّ إِنَّهَا مَرَّقَتْ جِلْبَابَهَا، وَهَنَكَتْ حِجَابَهَا، وَبَرَزَتْ لِلنَّاطِرِينَ عَجُوزًا شَمَطَاءً، تَزْتَعِدُ مُتَوَكِّئَةً عَلَى عَصَا الْجُوزَاءِ، وَتَرْدُدُ آخِرَ أَنْفَاسِ الْبِقَاءِ، فَسَتَرَهَا الْفَجْرُ بِمَلَاعَتِهِ الزَّرْقَاءِ، وَدَرَجَهَا الصُّبْحُ فِي أُرْدِيَّتِهِ الْبَيْضَاءِ، ثُمَّ قَبَرَهَا فِي جَوْفِ الْفَضَاءِ، وَقَامَتْ عَلَيْهَا بَنَاتُ هَدِيلٍ، نَائِحَةٌ بِالسَّجِيعِ وَالتَّرْتِيلِ، ثُمَّ انْقَلَبَ الْمَأْتَمُّ فِي الْحَالِ عُرْسَ اجْتِلَاءِ، وَتَغَيَّرَ النَّحِيبُ بِالْغِنَاءِ، لِإِشْرَاقِ عُرُوسِ النَّهَارِ، وَاسْفَارِ مَلِيكَةِ الْبُدُورِ وَالْأَقْمَارِ"⁽⁴⁾.

يُبْدِعُ مُحَمَّدٌ الْمُؤَلِّحِيُّ أَيَّمَا إِبْدَاعٍ فِي رَسْمِ لَوْحَةٍ بَارِعَةٍ عَنْوَانُهَا لِقَاءُ الْمُتَنَاقِضَاتِ، وَخُطُوطُهَا جَمْعُ الْمُنْبَاعِدَاتِ، فَيَجْلُو الْغُمُوضَ، وَيُرِيْلُ الْإِبْهَامَ، وَيُضْفِي عَلَى لَوْحَتِهِ جَمَالًا إِلَى

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسق الآيات والسور، (ج7/209)

(2) قطب، في ظلال القرآن، (ج6/22).

(3) يونس، التصوير الجمالي في القرآن الكريم، (97).

(4) المؤلِّحِي، حديث عيسى بن هشام، (ص259). الفود: معظم شعر الرأس مما يلي الأذن، بنات هديل:

الحمام.

جَمَالٍ لَمَّا اعْتَمَدَ عَلَى التَّشْكِيلَاتِ الْبَيَانِيَّةِ الْمُتتَابِعَةِ الَّتِي يَزِينُهَا تَشْخِصُ الْجَمَادَاتِ، وَتَجْسِيمُ الْمَعْنَوِيَّاتِ، فَاللَّيْلَةُ الْحَالِكَةُ يَقْتُلُهَا سَيْفُ السَّهْرِ، مِنْ بَعْدِ مَا دَبَّ الْمَشِيبُ إِلَى شَعْرَهَا فَارْتَدَّتْ عَجُوزًا شَمَطَاءً، تَزْتَجِفُ مُتَوَكِّنَةً عَلَى عَصَا الْجُوزَاءِ، وَتُرَدِّدُ آخِرَ أَنْفَاسِ الْبَقَاءِ، فَيَرْتَدِّي مَنْ خَلْفَهَا أَتْوَابَ الْجِدَادِ السَّوْدَاءِ، وَيَكْتَوِي بِنِيرَانِ النَّعَاسَةِ، وَالشَّقَاءِ، وَيَصْطَلِي بِلَهَيْبِ الْحُزْنِ، وَشَرِّ اللَّأْوَاءِ.

تَلَاعَبَ الْأَدِيبُ هُنَا بِالْأَلْوَانِ الْمُبَاشِرَةِ، وَغَيْرِ الْمُبَاشِرَةِ، فَتَارَةً اسْتَحْدَمَ (الْبَيْضَاءَ)، وَأُخْرَى (الْمَشِيبَ)، وَثَالِثَةً يُوظَّفُ (شَمَطَاءً)، ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى الْجَانِبِ الْمُقَابِلِ، أَوْ النَّقِيضِ فَيُعْشِي الْمَشْهَدَ بِسَوَادِ حَالِكٍ عَبْرَ الْكَلِمَاتِ (اللَّيْلَةَ، الْمَأْتَمَ، وَالنَّحِيبَ)، لَكِنَّهُ لَمْ يَهْدَأْ حَتَّى بَدَلَ اللَّيْلِ بِالنَّهَارِ، وَالسَّوَادِ بِالْبَيْضِ، وَالْمَأْتَمَ بِالْعُرْسِ، وَالنَّحِيبَ بِالْغِنَاءِ، ثُمَّ أَضَاءَ الْعُرْسَ بِإِسْرَاقِ النَّهَارِ، وَإِسْفَارَ الْبُدُورِ وَالْأَقْمَارِ. كَمَا أَنَّ مَشْهَدَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَعَاقُبِهِمَا يَحْشِدُ صُورًا مُتَعَدِّدَةً، وَأَلْوَانًا مُتَوَعِّدَةً تَمْتَدُّ أَمَامَ نَاطِرِي الْإِنْسَانِ، فَتَكُونُ لَهُ عِبْرَةً، وَغَيْرِهِ آيَةً، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وَعُودَةً إِلَى عَوَالِمِ التَّشْكِيلِ اللَّوْنِيِّ عِنْدَ حَافِظِ إِبْرَاهِيمَ فِي رَائِعَتِهِ (لِيَالِي سَطِيحٍ)؛ لِنُبْحَرِ قَلِيلًا فِي وَسَائِلِ تَعْبِيرِهِ، وَنَعُوصَ فِي دَلَالَاتِ أَلْوَانِهِ، حِينَهَا نُدْرِكُ أَنَّ رَوَائِعَهُ مَا تَرَالُ رُسُومًا تَرْيِبِيَّةً تَلْتَصِقُ عَلَى سَاحَاتِ هَذَا الْوَطَنِ، وَتُزَيِّنُ جُدْرَانَهُ، وَلَوْحَاتِ تَعْبِيرِيَّةً عُرِسَتْ فِي أَعْمَاقِ هَذَا الشَّعْبِ تَحْفَظُ كِيَانَهُ، وَنُقِشَتْ فِي قُلُوبِ أَسْبَابِهِ، وَمَا تَرَالُ مُفْرَدَاتُهُ مُتَوَهِّجَةً كَشَمْسِ الصَّبَاحِ، بَارِعَةً كَبَدْرِ التَّمَامِ، مُتَأَلِّقَةً كَنُجُومِ تَمَلُّ سَمَاءِ الْفِيَاثِيِّ، وَالْأَكْمَامِ، وَسَتَظَلُّ أَلْوَانُهُ نُورًا يَرِسُّ حُطَى الْمُتَعَطِّشِينَ، وَضِيَاءً يُبِيرُ دُرُوبَ الْعَاشِقِينَ، وَمَاءً سَلْسَبِيلًا يَرُوي ظَمَأَ الرَّاعِبِينَ، وَسَتَبْقَى كَلِمَاتُهُ، كُلُّ كَلِمَاتِهِ - دَوْمًا - ضِيَاءً يُبِيرُ لَيْلَ السَّاهِرِينَ، وَصُبْحًا يُضِيئُ ظُلُمَاتِ السَّنِينِ، كَيْفَ لَأ؟ وَهُوَ شَاعِرُ الشَّعْبِ، وَشَاعِرُ النَّيْلِ، يَقُولُ: "وَصَلْنَا إِلَى قَصْرِ الْحِيْزَةِ، وَتُحَفِّ الأَثَارِ، وَمُتَقَى السِّيَارَةِ مِنْ سَائِرِ الأَقْطَارِ، فَدَخَلْنَا رَوْضَةً تَجْرِي الأَنْهَارُ مِنْ بَيْنِهَا، كَأَنَّهَا الحِنَّةُ بِعَيْنِهَا، وَلَمَّا رَأَى النَّبَاشَا مَسَالِكَ الرُّوضِ مُنْضَدَّةً، وَطَرَفَهُ مَرْصَعَةً مُرْرَدَّةً، حَسِبَهَا أَرْضًا مَفْرُوشَةً، بِبَسِطِ مَنْفُوشَةٍ، وَأَشْكَلِ الأَمْرِ عَلَيْهِ، فَهَمَّ بِخَلْعِ نَعْلَيْهِ... هُنَا كَانَتْ تَنْفَرُطُ فَرَائِدُ القَلَانِدِ، مِنْ أَجْيَادِ الخَرَانِدِ، فَتَخْتَلِطُ بِمَنْشُورِهِ أَرْهَارِهِ، تُرْصَعُ لُجَيْنِ أَنْهَارِهِ، هُنَا كَانَتْ تَتَنَاطَرُ الحُلِيِّ مِنْ قُدُودِ الحِسانِ، فَتَشْتَبِهُ بِأَنْمَارِ الأَعْصَانِ"⁽¹⁾.

إِنَّ التَّنْقُلَ بَيْنَ أَسْطُرِ الْمُقْطُوعَةِ السَّابِقَةِ، وَمُفْرَدَاتِهَا يُتَحَفُّ الْمُتَلَقِّي فَيَخَالُ نَفْسَهُ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ، فَطُوفُهَا دَانِيَّةً، وَأَلْوَانُهَا زَاهِيَّةً، أَوْ رَوْضَةً تَجْرِي الأَنْهَارُ مِنْ بَيْنِهَا، وَكَأَنَّ حَافِظَ إِبْرَاهِيمَ كَانَ

(1) إِبْرَاهِيمَ، لِيَالِي سَطِيحٍ، (ص30، ص31).

يُلقِي الكَلِمَةَ فَنَتَنَّاثِرُ مِنْهَا شَتَى الأَلْوَانِ، وَقَدْ يُصَاحِبُ هَذِهِ الكَلِمَةَ أَجْمَلَ الأَلْحَانِ، فَالكَلِمَاتُ (رَوْضَةٌ، جَنَّةٌ، مَرْصَعَةٌ، مَزْرَدَةٌ، قَلَانِدٌ، أَزْهَارٌ، الحَلِيّ، أثمارٌ، الأَكْمَامُ)، تَحْمِلُ أَلْوَانًا، وَقَلَّ إِن شِئْتَ تَحْمِلُ لَوَحَاتٍ بَارِعَةً تَزْحَرُ بِالأَلْوَانِ، فَالرَّوْضَةُ تَجْمَعُ بَيْنَ الأَبْيَضِ والأَخْضَرِ، وَتُوَلِّفُ بَيْنَ الأَسْوَدِ والأَصْفَرِ، وَتُلايِمُ بَيْنَ الأَزْرَقِ والأَحْمَرِ. وَالجَنَّةُ تَتَجَاوَزُ الرَّوْضَةَ فِي سِعَةِ الأَلْوَانِ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ حَافِظُ إِبْرَاهِيمَ مِنْ سِعَةِ الأَلْوَانِ فِي الرَّوْضَةِ وَالجَنَّةِ، إِلَى ضَيْقِ المَسَاحَةِ اللُّوْنِيَّةِ فِي قَوْلِهِ (قَلَانِدٌ، أَزْهَارٌ، الحَلِيّ، وَأثمارٌ)، وَتَضْيِيقُ المَسَافَةِ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ فِي (مَرْصَعَةٌ، وَمَزْرَدَةٌ). بَيِّدَ أَنَّ التَّفَاوُتَ هُنَا فِي مُسْتَوَى اسْتِعْمَالِ الأَلْوَانِ أَعْطَى المَشْهَدَ جَمَالًا مِنْ نَوْعٍ خَاصٍّ، تَتَلَفَّفُهُ النَّفْسُ بِلَهْفَةٍ لِلْمُسْتَوَى المُتَفَرِّدِ الَّذِي قُدِّمَ بِهِ.

المبحث الثاني: التشكيل الحركي

تَسْتَمِدُّ الْحَرَكَةُ أَوْ الْحَرَكِيَّةُ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ مَقَوِّمَاتَهَا مِنَ الذُّوقِ الشَّعْبِيِّ الْعَامِّ، وَتَأْتِي فِي انْسِجَامٍ مَعَ التُّرَاثِ، وَالتَّارِيخِ الْعَرَبِيِّينَ، وَدَائِمًا يَسْتَعِدُّ الشَّاعِرُ الْعَرَبِيُّ التَّعَابِيرَ الْمَجَازِيَّةَ، وَالصُّوَرَ الْإِسْرَةَ الَّتِي تَتْرُكُ فِي النَّفْسِ أَثْرًا مُوحِيًا جَمِيلًا، فَتَجْعَلُ الْمُتَلَقِّيَّ يَنْتَشِي مَرْهُومًا مَعَ الْحَرَكَةِ الْمُوَارَاةِ، وَالصُّورَةَ الشَّعْرِيَّةَ الرَّهِيْفَةَ. فَهِيَ "مُظَهَّرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْوُجُودِ الْحَيِّ، فَبَدَأَ مِنَ الذَّرَّةِ حَتَّى الْمَجْرَّاتِ نَجِدُ أَنَّ الْحَرَكَةَ سِمَةً الْمَخْلُوقَاتِ، وَكَذَلِكَ هِيَ سِمَةُ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ، فَالْحَرَكَةُ حَيَاةٌ، وَالسُّكُونُ مَوْتٌ، كَمَا تُؤَكِّدُ حَرَكَةُ الْوُجُودِ بَثَّ الرُّوحِ فِيهِ، وَطَوَاعِيَّتَهُ لِلْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهِيَ لَيْسَتْ حَرَكَةً عَمِيَاءَ، بَلْ فُدِّرَ لَهَا كُلُّ شَيْءٍ"⁽¹⁾.

وللمنظرين آراء في جمال الحركة في الفن، وهم يُطلقون صفة الجمال عليها بقدر ما تُعَبَّرُ بِصَدَقِ تَصْوِيرِهَا عَنِ الْحَيَاةِ، فَالْحَرَكَةُ مُوجُودَةٌ فِي حَيَاتِنَا كَمَا أَنَّهَا مُوجُودَةٌ فِي الْفُنُونِ عَلَى تَنَوُّعِهَا سِوَاءَ أَكَانَتْ مَحْسُوسَةً، أَمْ غَيْرَ ذَلِكَ. فَالشَّاعِرُ الْعَرَبِيُّ حِينَمَا يَصِفُ مَشَاهِدَ لِفَصْلِ رِبْعِيٍّ يَرْهُو بِعَبْقِ الْوَرُودِ وَالرِّيَّاحِينَ، يَبَادِرُ إِلَى تَرْكِيْزِ حَشْدٍ مِنْ مُسْتَلْزَمَاتِ اللَّوْحَةِ الرَّبِيعِيَّةِ الْجَمِيلَةِ، كَالْأَطْيَارِ الْمَغْرَدَةِ، وَالتَّلْجِ الْقَابِعِ عَلَى الْغُصُونِ، وَمِيلَانِ الْأَشْجَارِ، وَنَسَمَاتِ الصَّبَا الرَّبِيعِيِّ الْمُنْعَشِ... مِمَّا يَحِيلُ اللَّوْحَةَ الطَّبِيعِيَّةَ إِلَى مَا يُشْبِهُ حَفْلَةَ عُرْسٍ مُوَارَاةً بِالْحَرَكَةِ، وَالرَّقْصِ. وَحِينَمَا يَصِفُ الْحَرْبَ فَهُوَ يَصِفُ الْجَبُوشَ الْجَرَّارَةَ بِبَحْرِ مُتَلَاطِمِ الْأَمْوَاجِ، أَوْ كَأَنَّهُ قَطَعَ لَيْلٍ عَاتِمٍ تَتَوَالَى فِيهِ النُّجُومُ، وَتَمُورُ تَحْتَ النَّفْعِ بِالْحَرَكَةِ وَاللَّمْعَانِ، وَيَصِفُ مَنْظَرَ الدَّمَائِ تَعْلُو أَجْسَادَ الْفُرْسَانَ، وَفِرَارَهُمْ مِنْ سَاحَاتِ الْوَعْيِ أَمَامَ مَمْدُوحِهِ، بَيْنَمَا هُوَ رَابِطُ الْجَاشِ، ثَابِتِ الْجَنَانِ، لَا يَرِفُّ لَهُ جَفْنٌ، وَلَا يَخْفِقُ لَهُ قَلْبٌ وَجَلٌّ!. وَأَحْيَانًا يَصِفُ وَقْفَتَهُ بِوَقْفَةِ الْأَسَدِ الرَّابِضِ فِي عَرِينِهِ، وَالَّذِي لَا تَرْحُزُهُ الْوَحُوشُ وَالضُّوَارِي مِنْ مَكَانِهِ. كَمَا وَصَفَ الشَّاعِرُ الْعَرَبِيُّ فِي الْقَدِيمِ، فَرَسَهُ، وَحِصَانَهُ، وَنَاقَتَهُ، وَالسَّهْلَ، وَالْجَبَلَ، وَالْمَحْبُوبَةَ، وَالْمَرْأَةَ الْجَمِيلَةَ. مُسْتَعِينًا فِي ذَلِكَ بِالِاسْتِعَارَةِ، وَالْمَجَازِ، وَالرَّمْزِ، وَيَتْرِكُ لَوَازِمَهَا بِحَيْثُ تَصَبَّحَ كُلُّ اسْتِعَارَةٍ صُورَةً مُشَخَّصَةً لِجَانِبٍ مِنَ اللَّوْحَةِ الَّتِي يَرِسِمُهَا.

وانسجاماً مع هُدوءِ حركةِ المادةِ، وتوتُّرِهَا دَاخَلَ النَّصِّ الْمَقَامِيَّ، حَقَّقَتْ الْمَقَامَاتِ هَاتَيْنِ الظَّاهِرَتَيْنِ بِطَرِيقَةٍ عَالِيَةٍ فِي الْأَدَاءِ، وَلَعَلَّ مَا يُمَيِّزُ النَّصُوصِ الْإِبْدَاعِيَّةَ عَنِ مُجْمَلِ الْأَدَبِ، هِيَ تِلْكَ الْحَرَكَةُ الْمُسْتَمْرَّةُ فِيهَا، حَيْثُ الْجَمَالِيَّاتُ فِي مُسْتَوَاهَا الْمَادِيَّ، أَوْ الْمَعْنَوِيَّ فِي حَرَكَتِي مَدٍّ وَجَزْرِ مُسْتَمْرَّتَيْنِ، مِمَّا يَرْفُدُ النَّصَّ، وَالْقَارِئُ بِشَهْوَةٍ قَرَائِنِيَّةٍ مُسْتَمْرَّةٍ، لِذَلِكَ ظَلَّتْ بَعْضُ الْمَقَامَاتِ حَاضِرَةً فِي الْخَيَالِ الْقَرَائِنِيِّ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ نُسَمِّيَهُ بِ (الذَّاكِرَةِ النَّقَائِيَّةِ)، عَلَى النَّحْوِ الَّذِي أَفْضَى

(1) ياسوف، جماليَّة المفردة القرآنيَّة، (ص149).

بهذه النصوص تميزها عن بقية المثنون الأدبية؛ لذا فإن المقامات ما تزال الذاكرة الثقافية تحتفظ بها وبقرائنها؛ لأن الذاكرة لا تحتفظ إلا بما هو مُبدعٌ وخلاقٌ، على خلاف الذاكرة الجمعية الثقافية التي قد تخلط بين الجيد، والرديء، والحسن، والقيح.

وعودة إلى النصوص المقامية، والتشكيل الحركي في سطورها، فإننا نلمح للوهلة الأولى أن الحركة هي بمثابة عنصر الحياة، وبدونها تفقد الحياة بعض مقوماتها، ولا أبلغ إن قلت كثيراً من مقوماتها، فاندماج الحركة موتٌ محققٌ، ونهاية تُعطي البرهان على توقف الحياة عند نقطة اللاحياة.

إن الحركة في المقامات العثمانية ليست تلك الحركة المجردة من اتجاه إلى آخر، إنها حركة الحياة بكل تناقضاتها، وحركة الوجود بكل حثيئته، فالمقامة تعتمد على "التشكيل الحيوي المرتكز على التوتر الحركي للنص، مستمداً من توترات الحياة، وجدلية تضادها، حيث تتعدد الأصوات، وتتداخل الأزمنة، وتتقارب المسافة بين الدوال، ومدلولاتها"⁽¹⁾.

ومن يوفق النظر يجد أن أسلوب المقامة يتأرجح بين السرعة والبطء، انسجاماً مع النص المقامي الذي يتطلب السرعة في حركة الصورة تارة، وخلاف ذلك تارة أخرى؛ فالصورة عند كثير من كتاب المقامة هي حركة متتابعة متواصلة، مما يجعلها في استحضار دائم في الذاكرة، وهذه الصورة تتنوع في معطيات حركتها بين البطء، والسرعة حيناً، والهدوء، والتوتر أحياناً أخرى، بحسب الموقف المقامي. وثمة نتيجة أخيرة لأيدٍ من الحديث عنها، هي تعاقب المحورين تعاقباً بنائياً، فمتى ما كانت الصورة سريعة، كانت متوترة، ومتى ما كانت بطيئة، كانت هادئة.

وبدأية الحديث ينطلق من روعة التشكيل الحركي في (المقامة الرومية) التي تحل في ثناياها كل مقومات الحيوية، والاضطراب، والحركة المتوترة التي يحتفي خلفها ثورة عارمة تتدفق من العروق، يشدو شهاب الدين الخفاجي مغرداً: "فحللنا عفة الحزم بأضراس الندم عن الجياد، وامتنينا غارب العزم وما لنا غير المني ماءً، وزاد، ما بين ثملٍ من حمر السرى، وراكح، وساجدٍ في تهجد الكرى، حتى حطت رجال الترحال بقسطنطينية الروم... والبحر مدد لعناقها ساعديه، والأمواج تقبل الأرض بين يديه، فأسمت في رياضها سوامي النظر، وأجلت في حلية الدهن قدام الفكر، فإذا هي جنة ملئت بالحور والولدان، وحفت بالشهوات إذ حفت المكاره بالجنان، من

(1) العف، التشكيل الجمالي في الشعر الفلسطيني المعاصر، (ص184).

كُلُّ شَايِنٍ سَرَقَ التَّفَاتَةَ الْغَزَالِ، وَتَسَلَّلَتْ لِتَرَى لُطْفَهُ الصَّبَا، وَالشَّمَالَ، جَرَى فِيهِ مَاءُ النَّعِيمِ
وَالهَيْفِ، وَحَارَ فِيهِ الرَّأْيُ، فَلَوْ رَأَى سَيْلٌ تَلْعَةً لَوَقَفَ" (1).

تَسَجِمُ الْأَفْعَالُ، وَتَتَلَحَّمُ مَعَ الْأَسْمَاءِ، وَقُلْ إِنْ شِئْتَ تَنْصَهْرُ مَعَهَا فِي بَوْتَقَةٍ وَاحِدَةٍ؛
لِيَرْسَمَ صُورًا بَارِعَةً تَبْدُو مُشَاهِدَةً لِلْقَارِي مَعَ الْفِعْلَيْنِ الْمَاضِيَيْنِ (حللنا، وامتنطينا)، وَالْأَسْمَاءُ
(التَّرْحَالُ، الْبَحْرُ، الْأَمْوَجُ، الْغَزَالُ، الصَّبَا، وَسَيْلٌ) وَالَّتِي تَنْدَقُّ حَرَكََةً بِكُلِّ مُسْتَوِيَاتِهَا هَادِنَةً
كَانَتْ، أَمْ مُتَوَثِّرَةً، كَمَا نُصَوِّرُ مَحَاوِرَ السَّرْعَةِ وَالتَّوَثُّرِ مِنْ نَاحِيَةِ، وَالْهُدُوءِ وَالبُطْءِ مِنْ نَاحِيَةِ
أُخْرَى، فَيَرْسِمُ كُلُّ مِنْهُمَا صُورَةَ الْجَمَالِ لِالْآخَرِ.

إِنَّ الْمُتَنَقَّلَ بَيْنَ كَلِمَاتٍ هَذِهِ الْمَقَامَةَ تَتَلَفَّفُهُ حَرَكََةً دَائِبَةً تَبْدَأُ مِنَ الْفِعْلِ الْمَاضِي (امتنطينا)
الَّذِي يَنْقُلُنَا إِلَى حَرَكَاتِ الْخَيْلِ الْمُسَارِعَةِ، وَدُرُوبِ الرَّحْلَةِ الْمُتَوَاصِلَةِ، يَتَلَوُّهَا حَرَكََةً مُتَابِعَةً
صُحْبَةَ الْبَحْرِ، وَالْأَمْوَجِ، ثُمَّ حَرَكََةً سَرِيعَةً مَعَ الْغَزَالِ، يَتَلَوُّهَا هُدُوءً، وَسَكِينَةً فِي (حطت،
والصَّبَا)، وَمَعَ هَذَا التَّلَوِينِ الْحَرْكِيِّ بَيْنَ الْهُدُوءِ، وَالسَّرْعَةِ، وَبَيْنَ الْبُطْءِ، وَالتَّوَثُّرِ تَتَحَرَّكُ مَشَاعِرُ
الْمُتَلَفِّفِي حَيْثُ تَتَوَثَّرُ مَعَ السَّرْعَةِ، وَيَنْطَفِئُ لَهَيْبِهَا، وَتُحْمَدُ جِدْوَتُهَا مَعَ الْهُدُوءِ، وَالسَّكِينَةِ.

وَمَعَ فَاعِلِيَّةِ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ، وَتَجَدُّدِهِ فِي الْحُدُوثِ مِنْ نَاحِيَةِ، وَاسْتِمْرَارِهِ، وَاسْتِحْضَارِ
الصُّورَةِ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى يَرْسِمُ نَاصِيفُ الْيَارِجِيِّ لَوْحَةً تَزْحَرُ بِالْحَرَكََةِ وَالْحَيَوِيَّةِ، ثُمَّ تَتَحَدَّرُ شَيْئًا
فَشَيْئًا إِلَى السَّكِينَةِ وَالْهُدُوءِ، حَيْثُ بَرَعَ فِي تَوْظِيفِ الْأَفْعَالِ الْمُضَارِعَةِ الَّتِي يَحْمِلُ كُلُّ مِنْهَا كَمَا
هَائِلًا مِنْ مُعْطِيَاتِ الْحَرَكََةِ، وَالْحَيَوِيَّةِ صُعُودًا، وَهُبُوطًا، فَيَغْدُو كُلُّ شَيْءٍ مَرْنِيًّا، وَمَحْسُوسًا، فِي
قَوْلِهِ: "وَيْلَكَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، مَا كَفَاكَ أَنْ تَكُونَ فَاسِقًا حَتَّى صِرْتَ سَارِقًا، فَلَأُقِيمَنَّ عَلَيْكَ الْحَدَّ
وَالْقَطْعَ، وَلَأَجْعَلَنَّكَ عِبْرَةً إِلَى يَوْمِ الْجَمْعِ، فَطَارَتْ نَفْسُ الْفَتَى شُعَاعًا، وَاسْتَطَارَ فُؤَادُهُ ارْتِيَاعًا،
وَجَعَلَ يَنْهَطِرُ لَدَيْهِ بِالسُّؤَالِ، وَيُدْمِثُ لَهُ الْمَقَالَ، وَالشَّيْخُ يَشْمَخُ بِأَنْفِهِ، وَيَهْزُ مِنْ عِطْفِهِ، وَيَرْمَحُ
بِرَجْلِهِ، وَيُسْبِرُ بِكَفِّهِ، فَكَادَ الْفَتَى يَذُوبُ مِنَ الْحَيَاءِ، وَظَنَّ أَنَّ صَاعِقَةً هَبَطَتْ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ،
فَذُهِلَ الْفَتَى عَنْ مَعْرِفَتِهِ بِالتَّلْمِيحِ، وَمَا صَدَّقَ أَنْ أَطْلَقَ سَاقِيَهُ لِلرَّيْحِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ إِلَى الْوَقَارِ،
وَقَفَ بِعَرَصَةِ الدَّارِ" (2).

(1) الْخَفَاجِيُّ، رِيحَانَةُ الْأَلْبَا وَزَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (الْمَقَامَةُ الرُّومِيَّةِ)، (ص 369). التَّلْعَةُ: مَسِيلُ الْمَاءِ إِلَى الْوَادِي،
مِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: فَمَنْهَنْ أَنْ لَا تَجْمَعَ الدَّهْرُ تَلْعَةً بِيَوْتًا لَنَا يَا تَلْعُ سَيْلِكَ غَامِضٌ. الْعَسْكَرِيُّ، جَمَهْرَةُ
الْأَمْثَالِ، (ج 2/200).

(2) الْيَارِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْحَلِيَّةِ)، (ص 59). يَنْهَطِرُ: مِنْ الْهَطْرَةِ، وَهِيَ تَذَلُّ الْفَقِيرِ لِلْغَنِيِّ إِذَا سَأَلَهُ،
يَرْمَحُ: يَرْفِسُ، يَوْمَ الْجَمْعِ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

إِنَّ مَوْسُوْعَةَ الْحَرْكَةِ فِي الْمَقْطُوْعَةِ السَّابِقَةِ تَبْدُو مُتَكَامِلَةً الْعَنَاصِرَ، زَادَ مِنْ إِثْمَامِ مَشَاهِدِهَا، الشَّوَجِرُ بَيْنَ الْأَسْمَاءِ وَالْأَفْعَالِ، وَمَدَى الْعَلَاَقَةِ بَيْنَهَا، فَمِنْ الْحَرْكَةِ الْمُتَوَثَّبَةِ فِي الْأَفْعَالِ (طَارَتْ، اسْتَطَارَ، وَهَبَتْ)، إِلَى الْحَيَوِيَّةِ الْمُتَجَدِّدَةِ فِي الْمَضَارِعِ (يَهْزُ مِنْ عَطْفِهِ، يَرْمَحُ بِرِجْلِهِ، وَيَشِيرُ بِكَفِّهِ) حَيْثُ عَدَا الْمُتَلَقِّي أَمَامَ مَشْهَدٍ مَرْتَبِيٍّ يَمْتَعُ نَاطِرِيَهُ بِالْحَرَكَاتِ الَّتِي حَمَلَتْهَا الْأَفْعَالُ (يَهْزُ، يَرْمَحُ، يَشِيرُ)، وَأَكْمَلَ مَشَاهِدَ الْجَمَالِ تَوْظِيْفُ الْفِعْلَيْنِ الْمَاضِيَيْنِ (صَدَّقَ، وَأَطْلَقَ)، اللَّذَيْنِ اسْتَوْعَبَا مَسَاحَةً شَاسِعَةً مِنَ الْحَرْكَةِ الْمُتَوَثَّبَةِ فِي الْخَانَمَةِ (وَمَا صَدَّقَ أَنْ أَطْلَقَ سَاقِيَهُ لِلرِّيْحِ).

وَلَمْ يَكْتَفِ نَاصِيفَ الْيَازِجِيِّ بِاسْتِخْدَامِ الْأَفْعَالِ، بَلِ انْتَقَى مَا شَاءَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي أَكْمَلْتُ مَشَاهِدَ الْحَرْكَةِ فِي قَوْلِهِ: (يَوْمَ الْجَمْعِ، صَاعِقَةٌ، وَالرِّيْحِ)، وَمَا حَمَلَتْهُ الثَّلَاثِيَّةُ مِنْ حَرْكَةٍ دَائِمَةٍ لَا تُضَاهِيهَا حَرْكَةٌ، فَيَوْمَ الْجَمْعِ، وَالصَّاعِقَةُ، وَالرِّيْحُ تَحْمِلُ فِي ثَنَائِيهَا أَبْعَادًا حَرْكِيَّةً مُتَوَثَّرَةً أَشَدَّ مَا يَكُونُ التَّوَثُّرُ، ثُمَّ يَنْتَهِي مَشْهَدُ الْحَرْكَةِ بِهَدْوٍ غَرِيبٍ، وَسُكُونٍ عَجِيبٍ حَمَلَ السَّكِينَةَ، كُلَّ السَّكِينَةَ تَضَمَّنَهُ قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَازِجِيِّ: (ثَابَ إِلَى الْوَقَارِ).

وَمِنْ رَوَائِعِ النُّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ الَّتِي تَفَوَّقَتْ فِي رَسْمِ التَّشْكِيلِ الْحَرْكِيِّ، رَائِعَةُ عَبْدِ اللَّهِ فِكْرِيِّ، (المَقَامَةُ الْفِكْرِيَّةُ) الَّتِي تَتَدَاخَلُ بَيْنَ سَطُورِهَا شَوَاجِرُ الْحَرْكَةِ، صُعُودًا وَهُبُوطًا، سُرْعَةً وَهُدُوءًا، يَقُولُ: "وَسِرْنَا نَطْوِي الْمَنَازِلَ، وَنَقْطَعُ الْمَرَاجِلَ مِنْ طَرِيقٍ إِلَى طَرِيقٍ، حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى مَضِيْقٍ، خَرَجْنَا مِنْهُ إِلَى قُبَّةٍ بَدِيعَةٍ، عَلَى رَبْوَةٍ رَفِيعَةٍ، يَنْصِلُ بِهَا كُلُّ مَا اسْتَمَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَمْلَكَةُ فِي جَمِيعِ أَنْحَائِهَا مِنْ مَوَارِدِهَا وَطُرُقَاتِهَا، وَمَسَالِكِهَا وَجَدَاوِلَ مَائِهَا، وَفِي هَذِهِ الْقُبَّةِ مِنَ الْأَنْوَارِ اللَّامِعَةِ، وَالْأَشْعَةِ السَّاطِعَةِ مَا يُعْشِي الْأَبْصَارَ، وَيُدْهَشُ النَّظَرَ"⁽¹⁾.

تَسْتَمِرُّ الْمَقَامَةُ الْفِكْرِيَّةُ الْأَفْعَالُ (سِرْنَا، نَطْوِي، نَقْطَعُ، خَرَجْنَا) مِنْ أَجْلِ مَنْحِ الصُّورَةِ فِي النَّصِّ الْمَقَامِيِّ طَاقَةً حَرْكِيَّةً أَكْبَرَ، تَدُلُّ هَذِهِ الطَّاقَةُ عَلَى التَّوَثُّرِ الَّذِي يَنْسَحِبُ عَلَى السَّيْرِ، وَقَطْعِ الْمَسَافَاتِ، وَلَكِنَّ فِكْرِيَّ اسْتَطَاعَ بِذَكَائِهِ، وَطَاقَتِهِ الْإِبْدَاعِيَّةِ الْخَلَّاقَةِ نَقْلَ فِعْلِ التَّوَثُّرِ الَّذِي يَبْدُو غَيْرٍ وَاضِحٍ مِنْ حَيْثُ الْمَعَالِمُ مِنْ ذَاتِهِ إِلَى أُمُورٍ مَعْنَوِيَّةٍ؛ لِذَلِكَ انْتَقَلَتْ صُورَةُ الْأَفْعَالِ الْمُتَوَثَّرَةِ (سِرْنَا، نَطْوِي، نَقْطَعُ، خَرَجْنَا)؛ لِتَرْسَمَ صُورَةَ الْحَرْكَةِ الدَّائِمَةِ الَّتِي تَكْتَفُفُ الْمَشْهَدَ، تِلْكَ الصُّورَةُ زَيَّنَتْهَا بَرَاعَةُ الْأَدِيبِ فِي تَوْظِيْفِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي تَدْوُرُ خِلَالَهَا الْحَرْكَةُ فِي (جَمِيعِ أَنْحَائِهَا مِنْ مَوَارِدِهَا وَطُرُقَاتِهَا، وَمَسَالِكِهَا وَجَدَاوِلَ مَائِهَا) وَالَّتِي تُوجِي بِاسْتِخْدَامِ رُفْعَةِ الْحَرْكَةِ. وَلَمْ يَغْفَلْ تَصْوِيرَ حَجْمِ الْحَرْكَةِ فِي ثَنَائِي الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ (نَطْوِي) الَّذِي يَسْتَوْعَبُ بَيْنَ حُرُوفِهِ كُلَّ دَلَالَاتِ التَّوَثُّرِ، وَالْحَيَوِيَّةِ.

(1) فِكْرِي، الْأَثَارُ الْفِكْرِيَّةُ (المَقَامَةُ الْفِكْرِيَّةُ)، (ص 283، ص 284).

يَسِيرُ نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ بِمُفْرَدَاتِهِ وَاتَّقَ الْخُطَى هَادِئاً تَارَةً، وَيَنْطَلِقُ سَرِيعاً تَارَةً أُخْرَى مُوظِّفاً الصُّورَ التَّقَابِلِيَّةَ، فَمَعَ خُطُواتِ الرَّحِيلِ الدَّائِيَّةِ، وَحَرَكَاتِ الْإِبِلِ الْهَادِئَةِ يُقَدِّمُ فَاصِلاً مِنْ جَمَالِيَّاتِ الْحَرَكَةِ فِي (المَقَامَةِ التَّغْلِيْبِيَّةِ)، يَقُولُ: "شَخَصْتُ فِي نَفْرِ مِنْ أَهْلِ الْعَالِيَّةِ، إِلَى أَطْرَافِ تِلْكَ الْبَادِيَّةِ، فَسِرْنَا لَا نَأْلُو جَهْداً، وَلَا نَعْلُو مَهْداً، حَتَّى تَبَطَّنَا مَفَازَةً قَدْ ضَرَبْتَ أَسَاهِجَهَا الرِّيحُ، كَأَنَّهَا أَهَاجِجُ شَقٍّ أَوْ سَطِيحٍ، فَأَرْسَلْنَا إِبِلَنَا الْعِرَاكَ، وَأَخَذْنَا فِي الرَّسِيمِ وَالذَّرَاكِ، وَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذَا فَرَسَانٌ قَدْ أَشْرَعُوا الْعَوَامِلَ...حَتَّى أَحَاطُوا بِنَا إِحَاطَةَ الْإِسْوَرَةِ بِالْمَعَاصِمِ، وَقَالُوا لَا مَانِعَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَلَا عَاصِمٍ، فَسِرْنَا بَيْنَهُمْ كَالنَّعَاجِ بَيْنَ الذَّنَابِ، حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى حِلَّةٍ كَثِيرَةٍ الْخِيَامِ وَالْقِيَابِ، مُكْتَظَّةٍ بِالْخَيْلِ وَالرَّكَابِ" (1).

يُسَيِّطُ الْأَنَا عَلَى مَحَاوِرِ التَّشْكِيلِ الْحَرَكَِيِّ فِي (المَقَامَةِ التَّغْلِيْبِيَّةِ)، حَيْثُ غَلَبَ ضَمِيرُ الْمُتَكَلِّمِ الْمُصَاحِبِ لِلْحَرَكَةِ فِي الْأَفْعَالِ الْمَاضِيَّةِ (سِرْنَا، تَبَطَّنَا، أَرْسَلْنَا، وَانْتَهَيْنَا)، وَفِي الْأَفْعَالِ الْمُضَارِعَةِ (نَأْلُو، نَعْلُو)، وَيَكْتَمِلُ مَشْهُدُ الْحَرَكَةِ فِي بَرَاةِ انْتِقَاءِ الْأَسْمَاءِ (الرِّيحِ، الذَّرَاكِ، الْعِرَاكِ، فَرَسَانِ، وَالْخَيْلِ)، حَيْثُ تَتَفَاعَلُ الْأَفْعَالُ الْمَاضِيَّةُ وَالْمُضَارِعَةُ مَعَ الْأَسْمَاءِ، وَتَنْصَهَرُ فِي بَوْتَقَةِ وَاحِدَةٍ؛ لِتَشْكَلَ مَشْهُدًا حَرَكِيًّا حَيًّا تَسِيْطُرُ عَلَيْهِ أَجْوَاءُ التَّوْتُرِ وَالسَّرْعَةِ، مَعَ مَا يَكْتَنِفُ الْمَشْهُدَ مِنْ تَحْقِيقٍ، وَتَأْكِيدٍ مِنْ نَاحِيَّةٍ، وَتَجَدُّدٍ وَاسْتِمْرَارٍ مَعَ اسْتِحْضَارِ لِلصُّورَةِ مِنْ نَاحِيَّةٍ أُخْرَى. وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ التَّوْتُرَ هُنَا "يَتَأْتِي مِنْ أَحَادِيَّةِ الرَّحِيلِ، أَوْ لِنَقْلِ إِنْهُ رَحِيلٌ فِي اتِّجَاهٍ وَاحِدٍ، لَا يَعْرِفُ التَّوَقُّفَ...الرَّحِيلُ إِلَى الْمَجْهُولِ الَّذِي يَعُوضُ فِي مَنَاطِقِ الْأَغْتِرَابِ، وَالضِّيَاعِ" (2).

وَعُودَةٌ إِلَى نَاصِيفِ الْيَازِجِيِّ الَّذِي يَبْدُو تَوَقُّفُهُ فِي تَشْكِيلِ الصُّورَةِ جَلِيًّا، فَهُوَ يَفْجُرُ مِنْ الْأَفْعَالِ "مَشْهُدًا دِينَامِيًّا يَنْفَاعِلُ فِيهِ الْجَامِدُ مَعَ الْمُتَحَرِّكِ، وَالْحَيُّ مَعَ الْمَيِّتِ، وَالْآخِرُ مَعَ الْأَنَا، وَالضِّيْقُ مَعَ الشَّاسِعِ، وَالْحَاضِرُ مَعَ الْمُحْتَمَلِ" (3).

وَمِنْ النَّمَاذِجِ الَّتِي تَسْتَحْضِرُ الصُّورَ الْمُتَوْتِرَةَ، وَالْحَرَكَةَ الْمُتَوْتِبَةَ الْمُتَقَلِّبَةَ بَيْنَ السَّرْعَةِ وَالْهُدُوءِ مَا رَسَمْتَهُ (المَقَامَةِ الْفُرَانِيَّةِ)، يَقُولُ فَارِسُهَا، نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ: "حَدَّثَ سُهَيْلُ بْنُ عَبَّادٍ قَالَ: نَزَلْنَا شَاطِئَ الْفُرَاتِ، فِي إِحْدَى السَّفَرَاتِ، فَرَأَفْنَا مَا هُنَاكَ مِنَ الْمِيَاهِ الْخَصِرَةِ، وَالْحَمَائِلِ النَّصْرَةِ، وَلَبِئْنَا أَيَّامًا نَنْتَقِلُ فِي تِلْكَ الْمُرُوجِ، كَمَا تَنْتَقِلُ الْكَوَاكِبُ فِي الْبُرُوجِ، وَنَجْتَلِي مُفَاكِهَةَ السَّمْرِ، كَمَا نَجْتَلِي فَاكِهَةَ الثَّمْرِ، وَنَتَوَسَّدُ كُلَّ قِصَّةٍ، أَنْفَى مِنَ الْفِصَّةِ، وَنَرِدُ كُلَّ سَبِيلٍ، أَعْدَبَ مِنَ السَّلْسَبِيلِ،

(1) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (المَقَامَةِ التَّغْلِيْبِيَّةِ)، (ص83، ص84). أَسَاهِجَهَا: خُطُوطُ الرَّمْلِ، الرَّسِيمِ: السَّيْرِ

السَّرْعِ، الذَّرَاكِ: السَّيْرِ الْمَتَابِعِ، الْعَوَامِلِ: الرَّمَاحِ.

(2) عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، هَكَذَا تَكَلَّمَ النَّصُّ، (ص17).

(3) يَحْيَاوِي، الشُّعْرُ الْعَرَبِيُّ الْحَدِيثُ، دَرَاةٌ فِي الْمَنْجَزِ النَّصِيِّ، (ص36).

حَتَّى إِذَا أَرَفَ الثَّرْحَالُ، وَشُدَّتِ الرَّحَالُ، قِيلَ قَدْ فَاحَ نَشْرُ الْخُرَامِ، عَلَى الْأَنَامِ، فَتَنظَرْتُ وَإِذَا شَيْخُنَا الْمَيْمُونُ، وَالنَّاسُ إِلَيْهِ يَهِيمُونَ، وَعَلَيْهِ يَحُومُونَ، فَفَقَرْتُ إِلَيْهِ نَفْرَةَ الرَّيْمِ، فِي ثَنَائِي الصَّرِيمِ، فَفَقَضْنَا غَزْلَنَا أَنْكَائًا، وَعُدْنَا فَأَقَمْنَا ثَلَاثًا⁽¹⁾.

تَتَجَلَّى فِي النَّصِّ دَلَالَاتٌ مُتَنَوِّعَةٌ شَكَّلَهَا سَيْطَرَةُ الْأَنَا عَلَيْهِ، فِي أَرْزَمَةٍ مُتَقَاطِعَةٍ بَدَأَتْ فِي الْمَاضِي (نزلنا، راقنا، لبثنا، نقضنا، عدنا، أقمنا)، تَابِعَهَا الْفِعْلُ الْمُضَارِعُ صُحْبَةَ الْأَنَا كَذَلِكَ، (نجتلي، نجنتي، نتوسد، ونرد)، ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ ارْتَدَّ إِلَى الْمَاضِي مَرَّةً أُخْرَى (أزف، شدت، قيل، فاح، نشر، ونظرت)، وَلَمْ يَتَوَقَّفِ الْأَمْرُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَقَدْ أَعَادَ الْكِرَّةَ مَرَّةً أُخْرَى مُتَعَلِّقًا بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ (يهيمون، يحومون)، وَكَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُرَاجِعَ بَيْنَ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ فِي الْحَرَكَاتِ الْهَادِيَةِ، وَالْمُتَوَثِّبَةِ دَفْعًا لِلرَّتَابَةِ وَالسَّامَةِ، فَقَدْ مَنَحَ تَنَوُّعَ أَرْزَمَةِ الْأَفْعَالِ الصُّورَةَ حَيَوِيَّةً، وَحَرَكَةً، وَسُكُونًا وَهُدُوءًا يُوَارِي كَمَّ الْأَنْفِعَالَاتِ الَّتِي تُسَيِّطِرُ عَلَى النَّصِّ، وَلَعَلَّ مَشَاهِدَ الْعُدُولِ هُنَا فِي التَّنْقِيلِ بَيْنَ الْأَرْزَمَةِ فِيهَا "تَطْرِيْقُ الْكَلَامِ، وَصِيَانَةُ السَّمْعِ عَنِ الضَّجْرِ، وَالْمَلَالِ، لِمَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ النُّفُوسُ مِنْ حُبِّ التَّنْقِيْلَاتِ، وَالسَّامَةِ مِنَ الْاسْتِمْرَارِ عَلَى مَنُوَالٍ وَاحِدٍ"⁽²⁾.

كَمَا أَنَّ هَذَا الْعُدُولَ فِي التَّنْقِيلِ بَيْنَ الْأَفْعَالِ يَمْنَحُهَا الْحَرَكَةَ وَالْمُفَاجَأَةَ؛ فَهُوَ "فَنُّ بَدِيْعٍ مِنْ فُنُونِ الْقَوْلِ يَشْبِهُهُ تَحْرِيكُ آتَاتِ التَّصْوِيرِ السِّيْمَايِيِّ بِنَقْلِهَا مِنْ مَشْهَدٍ إِلَى مَشْهَدٍ آخَرَ فِي الْمُخْتَلَفَاتِ وَالْمُتَبَاعِدَاتِ الَّتِي يُرَادُ عَرْضُ صُورٍ مِنْهَا، وَمُفَاجَأَةُ الْمَشَاهِدِ بِلَقَطَاتٍ مِنْهَا مُتَبَاعِدَاتٍ، لَكِنَّهَا تَدْخُلُ فِي الْإِطَارِ الْكُلِّيِّ الَّذِي يُرَادُ عَرْضُ طَائِفَةٍ مِنْ مَشَاهِدِهِ تَدُلُّ عَلَى مَا يُفْصَدُ الْإِعْلَامُ بِهِ"⁽³⁾. وَفَوْقَ هَذَا وَذَلِكَ مِنْ مَشَاهِدِ الرَّوْعَةِ، يُحِيْطُ نَاصِيْفُ الْيَازِجِيِّ حَدِيثُهُ بِأَجْوَاءِ الْقَدَاسَةِ لِمَا قَفَلَ عَائِدًا إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَتَلَمَّسُ آيَاتِهِ، فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَّصَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا ﴾ [النحل: 92].

وَالِي عَوَالِمِ النَّقَاوِلِ حَيْثُ حَمَلَتْ (المَقَامَةُ الْحَمَوِيَّة) بِعُنْوَانِهَا مَشَاهِدَ حَرَكِيَّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ تَبَعْتُ إِلَيْهِ بِمَا احْتَوَتْهُ مِنْ مُفْرَدَاتٍ، يَقُولُ نَاصِيْفُ الْيَازِجِيِّ عَلَى لِسَانِ سَهِيلِ بْنِ عَبَّادٍ: "لَقِيْتُ الْخُرَامِيَّ فِي حِمَاةَ، فَاَنْضَوِيْتُ إِلَى حِمَاهُ، وَلَبِثْتُ أَنْتَسِمُ رِيَاهُ، وَأَتَرَشَفُ حُمِيَاهُ، وَهُوَ يَطُوفُ بِي عَلَى الرِّيَاضِ وَالْغِيَاضِ، وَيَرُدُّ الْمَعِينِ وَالْحِيَاضِ، وَيَتَفَقَّدُ الْأَجَارِعَ النَّضِرَةَ، وَالْحَمَائِلَ الْغَضِرَةَ، حَتَّى

(1) الْيَازِجِيِّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ الْفَرَانِيَّة)، (ص 325). الْخَصْرَةُ: الشَّدِيدَةُ الْبَرْدِ، الْقَضِيَّةُ: الْحَصَى الصَّغِيرَةُ، الصَّرِيمُ: الرَّمْلُ الْمَنْقَطِعُ.

(2) السِّيَوطِيُّ، الْإِتْقَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ، (ج 3/253).

(3) الْمَيْدَانِيُّ، الْبَلَاغَةُ الْعَرَبِيَّةُ أُسُسُهَا وَعُلُومُهَا وَفُنُونُهَا، (ج 1/480).

دَخَلْنَا إِلَى حَدِيقَةٍ بَهِيجَةٍ أُنِيفَةٍ، وَالذَّوَالِبُ حَوْلَهَا تَحْنُ حَنِينَ النَّاقَةِ الرَّؤُومِ، وَتَنْتُنُ أَنْيْنَ الْمُدْنَفِ السَّوُومِ، فَجَعَلْنَا نَتَخَيَّرُ الْأَفْيَاءَ، حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى ظِلَالٍ لَمِيَاءَ، فَجَلَسْنَا وَقَدْ أَطَاعَنَا الْعَاصِي، وَتَسَخَّرَتْ لَنَا مِيَاهُهُ مِنَ الْأَقَاصِي، وَأَخَذْنَا نَجْتِي الثَّمَارَ الذَّوَابِلَ، مِنَ الْأَفْنَانِ السَّوَابِلِ، وَقَدْ رَقَصَ الْبُلْبُلُ عَلَى نَعَمَاتِ الْبَلَابِلِ⁽¹⁾. لَقَدْ حَلَّتِ (الْمَقَامَةَ الْحَمَوِيَّةَ) فِي أَعْمَالِ نَاصِيفِ الْيَازْجِيِّ، فَكَانَتْ طَرَازًا فَرِيدًا شَكَّلَ مِحْوَرًا مِنْ مَحَاوِرِ الْإِبْدَاعِ فِي نُصُوصِهِ الْمَقَامِيَّةِ، فَالْقَارِيُ أَمَامَ مَشَاهِدِ مُتَابِعَةٍ مَفْعَمَةٍ بِحَرَكَةٍ دَائِبَةٍ، وَمَمْتَلئَةٌ بِحَيَوِيَّةٍ تَبْدُو مَلَامِحَهَا فِي مُفْرَدَاتٍ تَصَوِّرُ الْحَيَوِيَّةَ بِكُلِّ مَعَانِيهَا مَعَ قَوْلِهِ: (وَهُوَ يَطُوفُ بِي عَلَى الرِّيَاضِ وَالْعِيَاضِ)، وَمَعَ بَاقَةِ مِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي يَفُوحُ شَذَى النَّقَاوُلِ مِنْهَا: فَهِنَا الْمَعِينُ وَالْحِيَاضُ، الْأَجَارُغُ النَّضْرَةُ، وَالخَمَائِلُ الْغَضْرَةُ، وَهُنَاكَ الثَّمَارُ الذَّوَابِلُ، وَالْأَفْنَانُ السَّوَابِلُ، رَقَصَ الْبُلْبُلُ عَلَى نَعَمَاتِ الْبَلَابِلِ، وَيُكْمِلُ الْيَازْجِيُّ الْمَشْهَدَ بِهَدْوٍ مِنْ نَوْعِ خَاصٍّ، وَسُكُونٍ يَنْبَعُثُ مَعَ عَذْبِ الْأَصْوَاتِ، مَعَ حَنِينِ النَّاقَةِ الرَّؤُومِ، وَمِنْ أَنْيَنِ الْمُدْنَفِ السَّوُومِ. وَبِذَلِكَ جَمَعَ الْيَازْجِيُّ بَيْنَ التَّشْكِيلِ اللَّوْنِيِّ فِي قَوْلِهِ: (الثَّمَارُ، الرِّيَاضُ، الخَمَائِلُ)، وَالتَّشْكِيلِ الْحَرَكِيِّ فِي قَوْلِهِ: (يطوف، والذواليب)، كَمَا زَيْنَ الْمَشْهَدُ بِرَوَائِعِ التَّشْكِيلِ الصَّوْتِيِّ فِي قَوْلِهِ: (نغمات، حنين، وأنين)، فَقَدَّمَ صُورَةً كَلِيَّةً مُتَكَامِلَةً مُوشِئَةً بِخُطُوطِ اللَّوْنِ، وَالصَّوْتِ، وَالْحَرَكَةِ.

وَتَتَوَالَى فُصُولُ الْإِبْدَاعِ حَيْثُ رَسَمَ مُحَمَّدُ الْمُؤَيْلِحِيُّ فِي رَائِعَتِهِ (حديث عيسى بن هشام) لَوْحَةً فَائِقَةً الْجَمَالِ قَدْ يَظُنُّهَا الْقَارِيُ لَوْحَةً صَمَاءَ بِلَا رُوحِ، أَوْ صُورَةً مُفْعَدَةً يُجْبِرُهَا ظَرْفُهَا، فَيَنْزِعُ عَنْهَا صِفَاتِ الْحَرَكَةِ، وَيَخْلَعُ عَلَيْهَا نُعُوتِ الْجَمَادَاتِ، بَيِّدَ أَنَّهُ فَجَاءَ يُنْحِفْنَا بِحَرَكَةٍ مُتَوَثِّبَةٍ لَا يَمْنَعُهَا مَانِعٌ، وَلَا يُوقِفُهَا سَاتِرٌ، فَالْحَرَكَةُ تَمَلُّ الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ مَعَ تَدْفُقِ السُّيُولِ، وَالْأَمْطَارِ، تَسَانِدُهَا حَرَكَةٌ أَقْوَى تُشْعِرُنَا بِهَا الْكَلِمَاتُ، يَقُولُ: "وتدقق السُّيُولُ وَالْأَمْطَارُ، طُولَ كُلِّ لَيْلَةٍ، وَكُلِّ نَهَارٍ، حَتَّى أُغْرِقَتِ الْعُذْرَانُ وَالْأَنْهَارُ، وَطَعَى الْمَاءُ بِمِثْلِ الطُّوفَانِ، وَسَالَ فِي الْأُودِيَّةِ وَالْبِلْدَانِ، وَامْتَدَّ نَهْرُ الْمَدِينَةِ فَوَصَلَ إِلَى أَرْضِ الْمَنَازِلِ، وَالْمَسَاكِينِ، وَقَدْ يَعْلُو إِلَى الْأَدْوَارِ، وَالْأَمَاكِينِ، فَانزَوَيْنَا فِي الْعُرْفِ وَالْحُجْرَاتِ، نَقْضِي بِهَا جَمِيعَ الْأَوْقَاتِ، وَكَأَنَّمَا نَحْنُ فِي الْعَدَابِ نُعَذَّبُ مَرَّةً بِنَارِ الْاسْتِدْفَاءِ، وَتَارَةً بِزَمْهَرِيرِ الشِّتَاءِ، وَأَقْمَنَا عَاكِفِينَ عَلَى الْحَدِيثِ وَالسَّمْرِ، بِمَا وَعَيْنَاهُ عَنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ مِنْ كُلِّ خَبَرٍ وَأَثَرٍ، وَكَانَ الصَّدِيقُ بَيْنَنَا كَعَهْدِهِ يُرْسِلُ عَلَيْنَا الْقَوْلَ إِرسَالًا، وَيَذْهَبُ فِي حِدَّةٍ انْتِقَادِهِ يَمِينًا وَشِمَالًا"⁽²⁾.

(1) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْحَمَوِيَّةُ)، (ص355، ص356). رِيَّاهُ: رَائِحَتُهُ الطَّيْبَةُ، الْغَضْرَةُ: الْمَخْصَبَةُ،

الذَّوَالِبُ: ذَوَالِبُ السَّوَابِلِ: الْمَتَدَلِّيَّةُ، الْبَلَابِلُ: جَمْعُ بُلْبُلَةٍ، وَهِيَ الْإِنَابِيْبُ الَّتِي يَنْصَبُ مِنْهَا الْمَاءُ.

(2) الْمُؤَيْلِحِيُّ، حَدِيثُ عَيْسَى بْنِ هِشَامٍ، (ص322).

إِنَّ الْحَرَكَةَ الَّتِي أَثَارَهَا مُحَمَّدُ الْمُؤَلِّحِي اسْتَوْعَبَتْ كُلَّ الْمَعَانِي وَرَاءَ اللَّفْظِ، حَيْثُ حَمَلَ الْمُتَلَفِّي فِي قَارِبِ وَسَطِ أَمْوَاجِ مُتَلَاظِمَةٍ، فِي جَوْ مَاطِرٍ أَضَافَ إِلَى الْحَرَكَةِ قُوَّةً فَوْقَ قُوَّةٍ، كَمَا أَضْفَى إِلَى الْمَشْهَدِ جَمَالًا إِلَى جَمَالٍ، وَتَبَدُّو هَذِهِ الْمَشَاهِدِ فِي قَوْلِهِ: (وَتَدَقَّقَتِ السُّيُولُ، وَالْأَمْطَارُ)، الَّتِي تَحْمِلُ الْقُوَّةَ النَّاشِئَةَ مِنْ تَلَاحُمِ الْفِعْلِ (تَدَقَّقَتِ) مَعَ الْأَسْمِينِ (السُّيُولُ وَالْأَمْطَارُ) حَيْثُ لَا تَغِيْبُ الْحَرَكَةُ عَنْ مَرَأَى الْمُتَلَفِّيْنَ، وَيُوَاصِلُ الْمُؤَلِّحِي رِحْلَتَهُ فِي عَوَالِمِ الْحَرَكَةِ بِاسْتِخْدَامِ كَلِمَاتٍ تَسْتَوْعِبُ فِي ثَنَائِيهَا كُلَّ مَعَانِي الْحَرَكَةِ الَّتِي لَا يَعْغُلُ عَنْهَا إِنْسَانٌ، يَبْدَأُ بِمَشْهَدِ حَرَكَِيٍّ مُرْوَعٍ فِي: (وَطَعَى الْمَاءُ بِمِثْلِ الطُّوفَانِ)، وَيُنْتَبِي بِمَشْهَدٍ آخَرَ مُرْعَبٍ فِي: (وَسَالَ فِي الْأَوْدِيَةِ وَالْبِلْدَانِ)، وَيُوَاصِلُ بِمَشْهَدِ حَرَكَِيٍّ ثَالِثٍ مُخِيفٍ فِي: (وَامْتَدَّ نَهْرُ الْمَدِينَةِ فَوَصَلَ إِلَى أَرْضِ الْمَنَازِلِ، وَالْمَسَاكِينِ، وَقَدْ يَغْلُو إِلَى الْأَدْوَارِ، وَالْأَمَاكِينِ). فَالْحَرَكَةُ دَائِبَةٌ، وَالْمَشْهَدُ يَلْفُهُ الْخَوْفُ، وَالرُّعْبُ، وَكَأَنِّي بِالْأَدْيِبِ يَنْتَقِلُ بِحَدِيثِهِ إِلَى قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْحَرَكَةُ الْمُتَوَثِّرَةُ فِي أَحْدَاثِهَا، وَالَّتِي صَوَّرَهَا سَيِّدُ فُطْبٍ مَشْهَدًا حَيًّا مِنْ سُورَةِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُوضِّحُ بَرَاعَةَ التَّصْوِيرِ الْفَنِيِّ، "وَهَذَا الْمَشْهَدُ مِنْ قِصَّةِ الطُّوفَانِ: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ [هود:42] وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ الرَّهْبِيَّةِ، تَتَبَّهَ فِي نُوحٍ عَاطِفَةُ الْأَبْوَةِ، فَإِنَّ هُنَاكَ ابْنًا لَهُ لَمْ يُؤْمِنْ، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّهُ مُغْرَقٌ مَعَ الْمُغْرَقِينَ. وَلَكِنْ هَا هُوَ ذَا الْمَوْجِ يَطْعَى... وَفِي لَحْظَةٍ تَتَغَيَّرُ صَفْحَةُ الْمَوْقِفِ، فَهِيَ هِيَ ذِي الْمَوْجَةِ الْعَاتِيَّةِ تَبْتَلِعُ كُلَّ شَيْءٍ ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود:43]"⁽¹⁾.

ثُمَّ يُكْمِلُ الْمَشْهَدَ فِي قَوْلِهِ: (وَقَدْ يَغْلُو إِلَى الْأَدْوَارِ، وَالْأَمَاكِينِ)، وَكَأَنَّهُ يَعُودُ إِلَى مَا رَسَمَهُ سَيِّدُ فُطْبٍ فِي قَوْلِهِ: "إِنَّ السَّامِعَ لِيَمْسِكُ أَنْفَاسَهُ فِي هَذِهِ اللَّحْظَاتِ الْقِصَارِ؛ ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ [هود:42]... وَالْمَوْجَةُ الْقَوِيَّةُ الْعَاتِيَّةُ تَحْسِمُ الْمَوْقِفَ فِي لَحْظَةٍ سَرِيعَةٍ خَاطِفَةٍ. وَإِنَّ الْهَوْلَ هُنَا لِيُقَاسَ بِمَدَاهُ فِي النَّفْسِ الْحَيَّةِ - بَيْنَ الْوَالِدِ وَالْمَوْلُودِ - كَمَا يُقَاسُ بِمَدَاهُ فِي الطَّبِيعَةِ حَيْثُ يَطْعَى الْمَوْجُ عَلَى الذَّرَى وَالْوَدْيَانِ، وَإِنَّهُمَا لَمَتَكَافئَانِ فِي الطَّبِيعَةِ الصَّامِتَةِ، وَفِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ"⁽²⁾.

لَمْ يُهْمَلْ نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ (عَزَّةَ) فِي أَعْمَالِهِ، فَقَدْ كَانَ لَهَا نَصِيبٌ فِي مَقَامَةٍ مُسْتَقَلَّةٍ، هِيَ (الْمَقَامَةُ الْعَزِيَّةُ)، وَمِنْ رَوَائِعِ حَرَكَيةِ الْمَشَاهِدِ مَا رَسَمَهُ الْيَازِجِيُّ فِيهَا، وَالَّتِي يَفْدُمُهَا كَأَجْمَلِ اللَّوْحَاتِ، يَقُولُ: "حَرَجْنَا مِنَ الْعَوَاصِمِ، نَرِيدُ عَزَّةَ هَاشِمٍ، فَأَعْمَلْنَا السَّنَابَكَ وَالْفَرَّاسِينَ، وَوَرَدْنَا الْأَجْنَ وَالْأَسِينَ، حَتَّى دَخَلْنَاهَا بَعْدَ الْأَيْنِ، بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ، وَقَدْ عَلَتْ أَوْجُهَنَا وَمِحَّةٌ مِنَ السَّفَرِ، وَلَمِحَّةٌ مِنَ

(1) قطب، التَّصْوِيرُ الْفَنِيُّ فِي الْقُرْآنِ، (ص58).

(2) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص58.

الكَدْرِ، وَاعْتَمَّ كُلُّ مَنَّا دِعَةَ الْهَاجِعِ، فَلَمَّا انْسَلَخَ النَّهَارُ مِنَ اللَّيْلِ، وَجَرَّتِ الْغَزَالَةُ فَضَلَ الدَّلِيلَ،
خَرَجْنَا نَتَقَدُّ الْخَضْرَاءَ، وَالْبَيْضَاءَ، حَتَّى إِذَا مَرَرْنَا بِدَارِ الْقَضَاءِ، سَمِعْنَا لَعَطًا، وَضَوْضَاءً⁽¹⁾.

يَنْظُمُ نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ الْكَلِمَاتِ، وَتَتَفَاعَلُ مَعَ الْكَلِمَاتِ الْحَرَكَاتُ، وَتَخْطُو حِينَهَا
الْخُطُوتُ، تَتَسَجَّمُ فِيهَا السَّرْعَةُ مَعَ السُّكُونِ، وَيَتَعَانَقُ التَّوْتَرُ مَعَ الْهُدُوءِ، فَتَنْزُكُ لُوحَاتِ كَعْفُودِ
الدَّرِّ، تَنْطَلِقُ الْحَرَكَةُ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي الْمَتَاعِمِ مَعَ الْأَنَا فِي (خَرَجْنَا)، وَبَيْنَ الْعَوَاصِمِ خُطَى
سَرِيعَةً تَتَحَرَّكُ، وَمَسَافَاتٍ طَوِيلَةً تُقَطَّعُ، وَمَشَقَّةً تَرَكَّنَهَا آثَارُ الشَّمْسِ الْمَلْتَهَبَةِ عَلَى الْوُجُوهِ، وَتَعَبٌ
مِنْ وَعَثَاءِ السَّفَرِ بَدَا عَلَى الْأَجْسَامِ، لَكِنَّ الْأَدِيبَ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْفِضَهُ عَنِ الْوُجُوهِ بِذِكَاةٍ شَدِيدٍ فِي
لَمَحِ الْبَصْرِ، حَيْثُ اخْتَصَرَ فِيهَا كُلَّ آثَارِ التَّعَبِ عَبْرَ قَوْلِهِ: (دِعَةَ الْهَاجِعِ) لَمَّا أَضَافَ الْهَجَرَ
بِسُكُونِهِ إِلَى الدَّعَةِ بِهَدْوِيَّتِهَا، فَشَكَّلَا مَعًا قَضَاءً وَاسِعًا مِنْ قَضَاءَاتِ السَّكِينَةِ وَالْإِطْمِنَانِ.

وَالَى عَوَالِمِ الْإِبْدَاعِ فِي التَّشْكِيلِ الْحَرَكَاتِيَّ، وَدَوَالِ التَّوْتَرِ وَالسُّكُونِ، وَالسَّرْعَةِ وَالْهُدُوءِ، حَيْثُ
يَقْدُمُ أَحْمَدُ الْبَرْبِيرُ فَاصِلًا مِنَ الْجَمَالِ الْأَخَازِ فِي مَقَامَتِهِ (الْمُفَاخَرَةَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ) الَّتِي تَنْقَلِنَا
سَطُورَهَا إِلَى الْحَرَكَةِ الدَّائِبَةِ، وَالتَّطَوُّفِ الدَّائِمِ، يَقُولُ: "فَنَلْقَتْنَا عَوْدِيَّاتٍ طَيُورَهَا بِالصَّدْحِ، وَمَجَامِرَ
كَمَائِمِ وَرُودِهَا بِالنَّفْحِ، وَزَهْرَهَا بِتَغْرِ بِاسْمِ، وَنَهْرَهَا بِقَلْبِ صَافٍ، وَأَدْوَاخُهَا بِبَسِطِ الْبَسِطِ مِنْ ظَلِّهَا
الضَّافِي. وَقَامَتْ لَنَا الْأَشْجَارُ عَلَى سُوقِهَا، وَسَفَرَتْ لَنَا عِرَائِسُ الْوَرُودِ عَنْ لَثَامِ غُبُوقِهَا. وَأَدَارَتْ
عَلَيْنَا سُلَافُ طَلِّهَا كُؤُوسَ الرُّهُورِ، قَبْلَ أَنْ تَرشِفَهُ شَمْسُ الْبُكُورِ، وَحَيْثُنَا رَاحَةُ الرِّاحَةِ وَالسُّرُورِ،
بِأَصَابِعِ الْمُنْتَوِرِ، وَغَنَّتْ لَنَا مُطَوَّقَاتُ شَوَادِبِهَا عَلَى الْعِيدَانِ، وَأَعْرَبَتْ وَهِيَ عَجْمَاءُ بَفَنُونَ تَمَايَلَتْ
لَهَا قُدُودُ الْأَفْنَانِ، وَرَقِصَتْ بَيْنَ أَيْدِينَا جَوَارِي الْمَاءِ، وَظَهَرَتْ مَعَ وُجُودِ شَمُوسِنَا، وَبَدُورِنَا نَجُومُ
النَّبَاتِ حَتَّى ظَنَّاهَا نَجُومَ السَّمَاءِ، وَطَافَ النَّسِيمُ بِكَعْبَةٍ صَفَانَا طَوَافَ الْقُدُومِ، فَمَا كَانَ أَلْطَفَ
ذَلِكَ الطَّائِفِ"⁽²⁾.

لَقَدْ سَمَا أَحْمَدُ الْبَرْبِيرُ بِمَقْطُوعَتِهِ لَمَّا مَرَجَ بَيْنَ أَلْوَانِ الْجَمَالِ، وَجَمَالِ الْأَلْوَانِ، وَرَازَجَ بَيْنَ
إِبْدَاعِ الْحَرَكَةِ، وَحَرَكَةِ الْإِبْدَاعِ فِي أُسْلُوبِ مَتَفَرِّدٍ رُبَّمَا عَجَزَ عَنْهُ آخَرُونَ، وَلَكَّ أَنْ تَلْمَحَ هَذَا
الْجَمَالَ الْأَخَازِ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي قَدَّمَتْ تَشْكِيلًا حَرَكَيًا بَارِعًا، فَمِنْ رِقَّةِ نَسَائِمِ الْوَرُودِ
إِلَى حَلَاوَةِ تَمَايَلِ الرُّهُورِ دَقِيقَةِ الْقُدُودِ، وَمِنْ تَرَاقِصِ الْأَفْنَانِ، إِلَى رَقْصِ الطُّيُورِ عَلَى الْعِيدَانِ،
وَمِنْ حَرَكَةِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ، إِلَى رِقَّةِ الْجَدَاوِلِ، وَصَفَاءِ الْمَاءِ، ثُمَّ يَرْسِمُ مَشْهَدَ النَّهَايَةِ بِحَرَكَةٍ

(1) الْيَازِجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْغَزِيَّةُ)، (ص374، ص375). الْأَيْنُ: التَّعَبُ وَالْإِعْيَاءُ، وَمِحَّةُ: أَثَرُ
الشَّمْسِ. الْأَجْنُ وَالْأَسْنُ: الْمَاءُ تَغْيِيرُ طَعْمِهِ وَلَوْنُهُ وَرَائِحَتُهُ.

(2) الطَّيَّانُ، الْمُفَاخَرَاتُ وَالْمُنَاطَرَاتُ (مَقَامَةُ فِي الْمَفَاخَرَةِ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ)، (ص23، ص24).

دائبةً صُحْبَةً طَوَافِ النَّسِيمِ بِكَعْبَةِ الصَّفَاءِ، تَعْلُو الْحَرَكََةَ جَمَالِيَّاتِ الْأَلْوَانِ الَّتِي تَبْدُو فِي الْوُرُودِ
وَالزُّهُورِ، وَالشَّمْسِ، وَالطُّيُورِ، وَالنَّبَاتِ، وَالْبُدُورِ.

تَتَعَانَقُ السَّرْعَةُ وَالْبُطْءُ فِي مَقَامَةِ (المُفَاخَرَةِ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ) تَعَانَقًا بِنَائِيًّا، فَمَتَى مَا
كَانَتْ الصُّورَةُ سَرِيعَةً كَانَتْ مَتَوَثَّرَةً، وَمَتَى مَا كَانَتْ بَطِيئَةً كَانَتْ هَادِنَةً. وَلَعَلَّ هَذَا التَّعَانُقَ يَرْسِمُ
رَابِطَةَ الدَّمِ بَيْنَ السَّرْعَةِ وَالْهُدُوءِ فَكُلُّ يَكْمَلُ الْآخَرَ؛ إِذْ لَا فَكَاكَ بَيْنَهُمَا، يَقُولُ أَحْمَدُ الْبَرِّيْرُ: "أَنَا
الْهَوَاءُ الَّذِي أُؤَلِّفُ بَيْنَ السَّحَابِ، وَأَنْفُلُ رِيحَ الْأَحْبَابِ، وَأُهْبُ تَارَةً بِالرَّحْمَةِ، وَأُخْرَى بِالْعَذَابِ، نَصَرَ
اللَّهُ بِي مُحَمَّدًا، وَصَحْبَهُ الْأَمْجَادَ، وَأَهْلَكَ اللَّهُ بِي قَوْمَ عَادٍ، وَأَنَا الَّذِي تَمَّ بِي مَلِكُ سُلَيْمَانَ، وَأَجْرَى
الْمَاءَ فِي خِدْمَتِي لِكُلِّ مَكَانٍ، وَسَيَّرَ بِي الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ كَمَا تَسِيرُ الْعَيْسُ فِي الْبِطَاحِ، وَأَطَارَ بِي
فِي الْجَوِّ كُلَّ جَنَاحٍ، وَأَنَا الَّذِي أَلْعَبُ بِالطَّرْرِ فَوْقَ الْغُرْرِ، كَمَا أَلْعَبُ بِلِحَى الْجَابِرَةِ مِنَ الْبَشْرِ،
وَأَنَا الَّذِي أُمِيلُ قَامَاتِ الْأَغْصَانِ، وَأُدْنِي عَارِضَ الْغَيْثِ وَعِدَارَ الْآسِ مِنْ خَدِّ الشَّقِيقِ، وَشَارِبِ
الرَّيْحَانِ"⁽¹⁾.

يَنْسَجِمُ النَّوْثُ وَالْهُدُوءُ انْسِجَامَ الْأَصْدِقَاءِ، وَتَلْقَى السَّرْعَةُ مَعَ السُّكُونِ لِقَاءَ الْأَخْلَاءِ بَعْدَ
طَوِيلِ غِيَابٍ، فَيُعَادِرُ الْكَدْرَ وَالْأَتْرَاحَ، وَيَجِلُّ السُّرُورَ وَالْأَفْرَاحَ، وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ فِي هُدُوءِ الصُّورَةِ
السَّاكِنَةِ الَّتِي يَنْبَثِقُ مِنْ خِلَالِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَفْعَالِ، فَتَرَى أَنَّ الْفِعْلَ (أَنْفُلُ رِيحَ الْأَحْبَابِ) فِي هَذِهِ
الْأُسْطُرِ، يَأْخُذُ مَعَ ذَاتِ الشَّاعِرِ دَلَالَةَ حَرَكَةٍ هَادِنَةٍ تَلْتَحِمُ مَعَ قَوْلِهِ: (وَأُهْبُ تَارَةً بِالرَّحْمَةِ)، وَقَوْلِهِ:
(نَصَرَ اللَّهُ بِي مُحَمَّدًا، وَصَحْبَهُ الْأَمْجَادَ)؛ إِذْ إِنَّ قُدْسِيَّةَ هَذَا الْجَوِّ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَمَّ بِصُورَةٍ مَتَوَثَّرَةٍ،
إِنَّ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ هُدُوءٌ يَتَنَاسَبُ مَعَ أَجْوَاءِ النُّصُوصِ؛ لِذَلِكَ عَبَّرَ أَحْمَدُ الْبَرِّيْرُ بِقَوْلِهِ: (أَلْعَبُ
بِالطَّرْرِ فَوْقَ الْغُرْرِ).

كَمَا تَدَّاعَى سُرْعَةُ الصُّورَةِ الْمُتَحَرِّكَةِ، فَيَنْطَلِقُ مِنْ أَرْزَمَةِ الْأَفْعَالِ الْمُتَنَوِّعَةِ بَيْنَ الْمُضَارِعِ
(أَهْلَكَ، أَجْرَى)، وَالْمَاضِي (سَيَّرَ، وَأَطَارَ)، وَمَا فِيهَا مِنْ حَيَوِيَّةٍ، وَحَرَكَةٍ تُؤَازِرُ حَيَوِيَّةَ الْإِنْفِعَالَاتِ،
وَحَرَكَتَيْهَا، وَتَجْرِبَةِ الْمُنَاطَرَةِ وَمَا تَقْتَضِيهِ الْمَفَاخَرَةُ مِنْ سُمُومِ الْمَعَانِي، وَمَعَانِي السُّمُومِ، وَمَا تَحْوِيهِ
مِنَ الرَّوْعَةِ فِي انْتِقَاءِ الْكَلِمَاتِ، وَالْبَرَاغَةِ فِي تَوْظِيْفِ الْأَفْعَالِ، حَيْثُ إِنَّ تَنَافُرَ الْهُدُوءِ وَالْحَيَوِيَّةِ
تَنَافُرًا حَادًا أَسْهَمَ فِي إِضْفَاءِ نَوْعٍ مِنَ الرَّوْعَةِ عَلَى النَّصِّ، فَالرَّحْمَةُ تَتَنَافَرُ مَعَ (أُهْبُ)، وَ(الطَّرُّ
وَالْغُرُّ) تَتَنَافَرَانِ مَعَ (الْجَابِرَةِ مِنَ الْبَشْرِ)، وَهَذَا "يَجْعَلُ النَّصَّ فِي حَالَةٍ تَوَثَّرٍ دَلَالِيٍّ لَا يُمْكِنُ
تَفَادِيهَا إِلَّا بِالتَّحَرُّكِ فِي الْمُسْتَوَى الْعَمِيقِ لِلْكَشْفِ عَنِ الْعَلَاقَاتِ الْمُتَالِفَةِ"⁽²⁾.

(1) الطَّيَّانِ، الْمَفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ (مَقَامَةِ فِي الْمَفَاخَرَةِ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ)، (ص 29).

(2) عِنْدَ الْمُطَلِّبِ، هَكَذَا تَكَلَّمَ النَّصِّ، (ص 100).

وَمَعَ حَرَكَةِ مَوْجَاتِ الْبَحْرِ الْهَادِرِ، وَسُرْعَةِ الرِّيحِ الْمَتَوَيْبَةِ، وَمَعَ هُدُوءِ شَاطِئِ الْبَحْرِ، وَسُكُونِ صُخُورِهِ، وَمَعَ حَرَكَةِ الْفُلْكِ يَتَوَشَّحُ النَّصُّ، وَيَفِيضُ حَيَوِيَّةً وَحَرَكََةً فِي كُلِّ مَفْرَدَةٍ مِنْ مَفْرَدَاتِهِ، بَلْ فِي كُلِّ حَرْفٍ مِنْ حُرُوفِ كَلِمَاتِهِ، فَالْبَحْرُ بِأَمْوَاجِهِ يَتَفَاعَلُ مَعَ حَيَوِيَّةِ الرِّيحِ وَالْأَمْوَاجِ. وَعَوْدَةٌ تَجَاهَ الْبَحْرِ، وَتَفْجُرُ الدَّوَالِ، "فَالْمَعْنَى يَنْفَجِّرُ - فِي الدَّقِيقَةِ - مِنْ دَالِ (الْبَحْرِ) الَّذِي يَقْدَمُ دَلَالَةً مَزْدُوجَةً تَجْمَعُ بَيْنَ (الِاتِّصَالِ، وَالِانْفِصَالِ). فَكَمَا يَصِلُ الْبَحْرُ بَيْنَ الْمَتَبَاعِدَاتِ، وَيُعْطِي لِلْغَائِبِ قُدْرَةَ الْحُضُورِ، فَإِنَّهُ يُشْكَلُ عَالَمَ الضِّيَاعِ الْمَخِيفِ الَّذِي لَا تَحُدُّهُ حُدُودٌ"⁽¹⁾.

لَقَدْ حَقَّقَ الْفِعْلُ عَلَى صَعِيدِ حَرَكَتِهِ الصُّورَةَ نَجَاحًا كَبِيرًا بِوصفه مهيمناً تشكيليّاً يمنح النَّصَّ فَاعِلِيَّتَهُ، وَطَاقَتَهُ الْحَرَكَتِيَّةَ، "فَالْفِعْلُ يَسُمُّ الصُّورَةَ بِحُضُورِ صِيَاعَتِهِ، بَلْ يَمَارِسُ حُضُورَهُ هُنَاكَ فِي أَعْمَقِ أَعْمَاقِهَا، يَسْحَبُ عَلَيْهَا تَأْثِيرَهُ، وَيَجْعَلُهَا تَتَجَاوَزُ جَمِيعَ أَشْكَالِ التَّنْمِيْطِ، فَتَتَجَلَّى فِي قَالِبِ حَشْدٍ مِنَ الصُّورِ تَسْتَمِدُّ حَرَكَتَيْهَا مِنَ الْفِعْلِ ذَاتِهِ، وَمِنْ ثَمَّ تَنْتَوِعُ بِتَنْوَعِهِ، وَتَقْدَمُ نَفْسَهَا فِي أَشْكَالٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَتَكْفُ عَنْ كَوْنِهَا صُورَةً بِالْمَعْنَى الْمَتَعَارِفِ لِتَصْبِحَ لَوْحَةً أَوْ مَشْهَدًا"⁽²⁾. وَهَذَا مَا نَجَدُهُ فِي قَوْلِ نَاصِيفِ الْيَازْجِيِّ: "بَيْنَمَا كُنْتُ فِي رَشِيدٍ، جَالِسًا فِي صَرْحِ مَشِيدٍ، إِذْ لَمَحْتُ الْخَرَامِيَّ فِي بَعْضِ الْأَسْوَاقِ، فَكِدْتُ أَطِيرُ إِلَيْهِ بِأَجْنَحَةِ الْأَشْوَاقِ، وَمَا لَبِثْتُ أَنْ بَادَرْتُ إِلَى التَّمَاسِكِ، لِأَنْقَعَ ظَمَأِي بِزُلَالِ كَاسِهِ، فَمَا وَجِدْتُ لَهُ مِنْ أَنْثَرٍ، وَلَا وَجِدْتُ عَلَيْهِ مِنْ عَثْرٍ، وَمَا زِلْتُ أَجْرِي كَأَنِّي رُمِيْتُ عَنْ قَسِيِّ الْبِنَادِقِ، حَتَّى أَفْضَيْتُ إِلَى بَعْضِ الْفِنَادِقِ"⁽³⁾. وَهَذَا يَكْمَلُ الْيَازْجِيُّ رَوَايَتَهُ، وَيَتَابِعُ الْإِبْدَاعَ فِي فُصُولِهَا، فَيَرْسِمُ مَشَاهِدَ الْحَرَكَةِ الْعَنِيفَةِ، وَالْهَادِئَةِ فِي (الْمَقَامَةِ الرَّشِيدِيَّةِ)، وَيَسْتَمِدُّ النَّصَّ حَرَكَتَهُ مِنَ الْأَفْعَالِ الدَّالَّةِ عَلَى الْحَرَكَةِ، وَالْمُنْتَشِرَةِ عَلَى مَسَاحَةِ النَّصِّ (أَطِيرُ، بَادَرْتُ، أَنْقَعُ، أَجْرِي، رُمِيْتُ، أَفْضَيْتُ) فَالْنَّصُّ يَنْفَتِحُ عَلَى أَجْوَاءِ الْحَرَكَةِ مِنْ خِلَالِ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ (أَطِيرُ) الَّذِي يَشِيرُ إِلَى اسْتِمْرَارِيَّةِ الْحَرَكَةِ، وَتَجَدُّدِهَا، يَتَّبِعُ الْحَرَكَةَ حَرَكَةً أَشَدَّ قُوَّةً مِنْ خِلَالِ الْفِعْلِ (أَجْرِي)، يَتَّبِعُهُمَا سُكُونٌ مُؤَقَّتٌ يَحْمِلُهُ الْفِعْلُ (أَفْضَيْتُ) مِنْ خِلَالِ قَوْلِهِ: (وَمَا زِلْتُ أَجْرِي كَأَنِّي رُمِيْتُ عَنْ قَسِيِّ الْبِنَادِقِ، حَتَّى أَفْضَيْتُ إِلَى بَعْضِ الْفِنَادِقِ) الَّذِي يَحْمِلُ رُوعَةَ الْإِنْتِقَالِ مِنَ الْحَرَكَةِ الدَّائِبَةِ إِلَى السُّكُونِ وَالنَّبَاتِ. وَلَعَلَّ مَعَانِي السُّكُونِ تَتَجَلَّى لَمَّا تَرْتَبِطُ بِالْحَرَكَةِ. أَمَّا السُّكُونُ فَإِنَّهُ يَنْقَلِنَا إِلَى "الْحَرَكَةِ الَّتِي تُوهِمُنَا بِأَنَّهَا خَالِيَةٌ مِنْ كُلِّ جَهْدٍ عَضَلِيٍّ، فَتَرَى الْأَعْضَاءَ تَتَحَرَّكُ حُرَّةً طَلِيقَةً كَأَنَّمَا يَحْرُكُهَا النَّسِيمُ"⁽⁴⁾.

(1) عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، هَكَذَا تَكَلَّمَ النَّصُّ، (ص 228).

(2) الْيُوسُفِيُّ، فِي بَنِيَةِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ الْمُعَاوِرِ، (ص 123).

(3) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الرَّشِيدِيَّةِ)، (ص 242، ص 243).

(4) جُويو، مَسَائِلُ فِلْسَفَةِ الْفَنِّ الْمُعَاوِرَةِ، (ص 43).

وَتَتَّسَمَى حَرَكِيَّةُ الصُّورِ، وَتَتَنَامَى؛ لِتَصِلَ إِلَى قَمَّتِهَا فِي التَّشْكِيلِ الِاسْتِعَارِيِّ فِي (أَطِيرُ إِلَيْهِ بِأَجْنَحَةِ الْأَشْوَاقِ) لَمَّا صَوَّرَ الْيَارِجِي الْأَشْوَاقَ بِالطَّائِرِ، مَعَ مَا تَضْفِيهِ الْأَجْنَحَةُ مِنْ حَرَكَةٍ دَائِبَةٍ تَتَجَلَّى حُرُوفُهَا، وَتَتَعَالَى أَصْوَاتُهَا، وَتَتَدَاعَى حَرَكَاتُهَا فِي نِظَامِ إِلَهِيٍّ بَدِيعٍ، فِي ثَنَائِيَّةٍ عُنْوَانِيَّةٍ: (صَافَاتٍ، وَيَقْبِضَنَّ) نَلْفُهَا رَوْعُهُ تَجْسِيمَ الْمَعْنَوِيَّاتِ.

لَقَدْ مَثَلَتْ رَائِعَةً نَاصِيْفِ الْيَارِجِيِّ (الْمَقَامَةَ الْفُؤْسيَّةَ) مَعِينًا لَا يَنْضَبُ لِمَنْ أَرَادَ سَبْرَ أَعْوَارِهَا، وَمِنْهَلًا لَا يَجْفُ لِمَنْ قَصَدَ وَرُودَ مَاءِهَا، فَقَدْ حَمَلَتْ الرُّؤْيَ وَالْجَمَالِيَّاتِ الْأَخَادَةَ الَّتِي لَا تَسْتَوْعِبُهَا إِلَّا قَرِيحَةً وَقَادَةً، وَلَا يَدْرِكُهَا إِلَّا عَقْلٌ مُتَفَنِّحٌ، يَقُولُ: "فَأَخَذَ الْقَوْمَ فِي تَسْكِينِ ارْتِعَاشِهِ، وَتَمَكِينِ ارْتِعَاشِهِ، حَتَّى خَمَدَتْ لَوْعَتُهُ، وَهَمَدَتْ رَوْعَتُهُ... ثُمَّ نَهَضَ بِي مُكَبِّرًا، وَبَاتَ مُدْبِرًا، وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

فَمُ فِي الدُّجَى يَا أَيُّهَا الْمُتَعَبِّدُ حَتَّى مَتَى فَوْقَ الْأَسْرَةِ تَرْقُدُ
فَمُ وَادِعُ مَوْلَاكَ الَّذِي خَلَقَ الدُّجَى وَالصُّبْحَ، وَامْضُ فَقَدْ دَعَاكَ الْمَسْجِدُ⁽¹⁾

إِنَّمَا حِينَ نَرُدُّ مُفْرَدَاتِ الْيَارِجِيِّ فِي النَّصِّ نَصْطَدُّ بِالْمَتَمَرِّدَةِ حِينًا، وَبِالسَّائِكَةِ أحيانًا أُخْرَى، وَمِنْ هَذَا التَّمَرُّدِ، وَمِنْ ذَلِكَ السُّكُونِ تَتَوَلَّدُ التَّشْكِيلَاتُ الْحَرَكِيَّةُ الَّتِي تَنْدَفِعُ أَمَامَنَا مُسْرِعَةً حِينًا فَنَنْطَلِقُ مَنْدَفِعِينَ صُحْبَتِهَا، وَنَتَوَقَّفُ تِجَاهَهَا سَائِكَةً أحيانًا أُخْرَى، فَنَتَمَهَّلُ مُشَارِكِيهَا سُكُونِهَا. نَنْدَفِعُ مَعَ (رَوْعَتِهِ، فَمُ، امْضِ)، وَنَهْدًا مَعَ (خَمَدَتْ لَوْعَتُهُ، وَهَمَدَتْ رَوْعَتُهُ)، وَيَبْلُغُ الْهُدُوءَ مَدَاهُ مَعَ (فَوْقَ الْأَسْرَةِ تَرْقُدُ) مَعَ مَا فِي النَّوْمِ مِنْ سُبَاتٍ عَمِيقٍ.

وَمِنْ مَشَاهِدِ الْحَرَكَةِ الْمُتَنَوِّعَةِ بَيْنَ التَّوَتُّرِ وَالْهُدُوءِ بَاقَاتٍ مَنَوَّعَةً نَتَنَسَّمُ عَطْرَهَا، وَنَسَائِمُ مَعَطَّرَةً نَتَلَمَّسُ رَوْعَتَهَا فِي (الْمَقَامَةَ الطَّائِيَّةَ)، يَقُولُ نَاصِيْفِ الْيَارِجِيِّ: "حَلَلْتُ بِلَادَ الْيَمَنِ فِي سَالِفِ الزَّمَنِ، وَأَنَا غَضِيضُ الصَّبَا، غَرِيضُ الْفَنَنِ، فَجَعَلْتُ أَتْرَدُّ فِي بَوَادِيهَا، بَيْنَ شَعْبِهَا وَوَادِيهَا، وَمَا زِلْتُ أَطُوفُ الْحَيَّ بَعْدَ الْحَيِّ، حَتَّى دُفِعْتُ إِلَى أَحْيَاءِ بَنِي طِيٍّ، فَرَأَيْتُ بِهَا مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ خِيَامٍ مَبْنُوثَةٍ، وَنِيرَانٍ مَشْبُوثَةٍ، وَجِفَانٍ مَصْفُوفَةٍ، وَخَيْلٍ مَشْدُودَةٍ، وَرِمَاحٍ مَرْكُوزَةٍ، وَجِمَالٍ كَالرُّبِيِّ، وَسِخَالٍ كَالدُّبِيِّ، وَجَوَارٍ كَالطَّبَّاءِ، وَغِلْمَانَ كَالطَّبَّيِّ"⁽²⁾.

لَقَدْ قَدَّمْتُ هَذِهِ الْمَقَامَةَ إِبداعًا مُتَفَرِّدًا أَلْفِي بِظلالِهِ عَلَى دَوَاتِ الْقُرَاءِ بِمَا يُنْبِخُ لَهَا مِنْ رُؤْيَةٍ مُرْدُوجَةٍ تَتَرَاوَحُ بَيْنَ الْهُدُوءِ، وَالتَّوَتُّرِ، هُدُوءِ صُحْبَةِ الْأَسْمَاءِ، وَالْأَفْعَالِ، وَتَوَتُّرِ يُزَاحِمُ هَذَا

(1) الْيَارِجِيِّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةَ الْفُؤْسيَّةَ)، (ص 421).

(2) الْيَارِجِيِّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةَ الطَّائِيَّةَ)، (ص 261). الدُّبِيُّ: الْجَرَادُ الصَّغِيرُ، غَرِيضُ: لَيْنٌ.

الهُدُوءَ فِي ذَاتِ الْحُقُولِ فِي نَسَقِ أُسْلُوبِيٍّ يَعْتَمِدُ عَلَى تَوَالِي الدَّفَقَاتِ الْهَادِيَةِ وَالْمُتَوَثِّرَةِ، فِي تَمَاسِكِ بِنَائِيٍّ بَدِيعٍ يَبْدَأُ مِنَ الْأَفْعَالِ (حَلَلْتُ، أَطُوفُ، أتردُّ) الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ دَلَالَاتِ الْهُدُوءِ وَالنُّوْثِرِ، فَقَدْ اتَّكَأَتِ الْحَرَكَةُ الْهَادِيَةُ عَلَى (حَلَلْتُ، نَتَلَمَسُ، أتردُّ)، ثُمَّ يَتَجَاوَزُ النُّوْثِرُ حَوَاجِزَ السُّكُونِ عَلَى مَسْتَوِيَاتِهَا كَافَّةً؛ لِيَخْتَرِقَ حَوَاجِزَ الصَّمْتِ، وَيُحَطِّمَ أَسْتَارَ السُّكُونِ، وَيَدْخُلَ عَوَالِمَ الْحَيَوِيَّةِ مِنْ أَوْسَعِ الْأَبْوَابِ صُحْبَةً (دُفِعْتُ، نِيرَانِ مَشْبُوبَةٍ، ظَبَاءِ، خَيْلٍ)؛ لِتَتِمَّاهِيَ الْحَرَكَةُ فِي أَرْوَعِ مَشَاهِدِهَا، وَأَبْهَى صُورِهَا.

وَلَمْ يَبْرَحْ نَاصِيفُ الْيَارِجِيِّ الْبَيْئَةَ الْبَدَوِيَّةَ، فَقَدْ كَانَ لَهَا نَصِيبٌ كَبِيرٌ مِنْ رَوَائِعِ التَّشْكِيلِ الْحَرَكَِيِّ فِي نُصُوصِهِ الْمَقَامِيَّةِ، فَاسْتَلْهَمَ الْخَيْمَةَ وَالْبَعِيرَ، وَالنَّاقَةَ وَالْهَجِيرَ، وَالْجَرِيَّ وَالنَّفِيرَ فِي (المَقَامَةِ الْبَدَوِيَّةِ)، يَقُولُ: "فَنَزَلْنَا وَارْتَبَطْنَا الْأَنْعَامَ، وَأَضْرَمْنَا النَّارَ لِلطَّعَامِ، وَقَامَ الشَّيْخُ حَتَّى دَنَا مِنْ نَاقَتِي فَحَلَّ الْعِقَالَ، وَأَخَذَ يَتَخَطَّى، وَيَتَمَطَّى ذَاتَ الْيَمِينِ، وَذَاتَ الشَّمَالِ، فَنفَرَتِ النَّاقَةُ فِي مَجَاهِلِ تِلْكَ الْأَرْضِ، وَجَعَلَ يَسْتَوْفِقُهَا زَجْرًا فَتَشْتَدُّ فِي الرَّكْضِ، فَبَادَرْتُ أَعْدُو إِلَيْهَا حَتَّى اسْتَأْنَسْتُ مِنَ النَّفَارِ، وَرَجَعْتُ بِهَا أَتَنُورُ تِلْكَ النَّارَ"⁽¹⁾.

يَنْطَلِقُ نَاصِيفُ الْيَارِجِيِّ مِنْ قَلْبِ الْبَادِيَةِ انْطِلَاقَةً تَبْدُو مُتَفَرِّدَةً فِي حَدَائِقِ التَّشْكِيلِ الْحَرَكَِيِّ، وَبِأُسْلُوبٍ ذَكِيٍّ يُحَرِّكُ قَلَمَهُ صَوْبَ التَّفُوقِ وَالْتِمِيزِ، وَكَأَنَّ كَلِمَاتِهِ عَرُوسٌ حَسَنَاءٌ تُجْرُ أَدْيَالَ الْحُسْنِ، وَالْبَرَاعَةِ، يَسْتَهْلُ التَّشْكِيلَ اسْتِهْلَالًا بَارِعًا فَيَرَسِمُ هُدُوءَ جَلْسَةٍ، وَسُكُونَ خَيْمَةٍ، حَوْلَ دِفْءِ النَّيْرَانِ، ثُمَّ يَنْدَفِعُ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَيَحُلُّ عِقَالَ النَّاقَةِ، فَيَبْدَأُ مَشْهُدُ النُّوْثِرِ صُحْبَةً نُفُورِهَا، وَيَزْدَادُ النُّوْثِرُ مَا بَيْنَ النُّفُورِ وَالرَّكْضِ، وَتَتَعَالَى السَّرْعَةُ مَا بَيْنَ الْجَرِيِّ وَالْعَدْوِ، وَالْعَدْوِ وَالْجَرِيِّ، ثُمَّ يُدْرِكُ مَشْهُدَ النِّهَايَةِ وَقَدْ سَيَّطَرَ الْهُدُوءُ، وَخَيَّمَ السُّكُونُ فِي (اسْتَأْنَسْتُ مِنَ النَّفَارِ، وَرَجَعْتُ بِهَا أَتَنُورُ تِلْكَ النَّارِ).

(1) الْيَارِجِيِّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (المَقَامَةِ الْبَدَوِيَّةِ)، (ص 7، ص 8).

المبحث الثالث: التشكيل الصوتي

تَمَتَّعُ الْكَلِمَةُ فِي الْمِضْمَارِ الْأَدَبِيِّ بِثَنَائِيَّةِ الشَّكْلِ وَالْمِضْمُونِ، وَفِي الْأَدَبِ الرَّاقِي يَنْضَحُ أَنَّ الشَّكْلَ لَيْسَ زُحْرَفَةً بَالِيَةً، بَلْ يُسَانِدُ الْمِضْمُونَ الْفِكْرِيَّ. وَمُؤَيَّدَاتُ هَذَا التَّلَاحُمِ، وَهَذَا التَّلَاوُمِ الْمُنْسَجِمِ بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ يَنْبُعُ مِنَ النَّصِّ نَفْسِهِ، وَتَنْطَلِقُ الْأَحْكَامُ مِنْ خِلَالِ جَوِّ الْمُفْرَدَةِ فِي خِضَمِّ الْمُفْرَدَاتِ، وَالْمُفْرَدَةُ تُصَافِحُ حَاسَةً السَّمْعَ قَبْلَ أَنْ تَطْرُقَ بَابَ الْمَشَاعِرِ، أَيْ تَرْجَمَتَهَا فِي سِجْلِ الْوَعْيِ، ذَلِكَ لِأَنَّهَا صَوْتٌ أَوَّلًا، وَمَعْنَى فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ⁽¹⁾.

لَقَدْ جَنَحَ الشَّعْرُ أحيانًا إِلَى الْمَوْسِيقَا الدَّاخِلِيَّةِ الْمُتَوَخَّاةِ فِي طَيَّاتِ الْكَلِمَاتِ؛ إِذْ اسْتَعَاَصَ بِهَا عَنِ الْوِزْنِ وَالْقَافِيَةِ، "فَالْأَدِيبُ الْبَارِعُ مَنْ يُوظِّفُ الْقِيَمَةَ الصَّوْنِيَّةَ فِي رَسْمِ الْمَعَانِي، وَيُشَخِّصُهَا لِلْمُتَلَقِّي؛ لِأَنَّ الْإِنْقَاعَ يَجِبُ أَنْ يُمَثِّلَ الْحَالَةَ الشَّعُورِيَّةَ"⁽²⁾.

إِنَّ الْأَهْتِمَامَ بِالصَّوْتِ وَتَشْكِيلِهِ عِنْدَ الْعَرَبِ قَدِيمٌ قَدِيمٌ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ، فَقَدْ عَشِقَ الدَّارِسُونَ الْأَلْفَاظَ لِمَجْرَدِ حَلَاوَةِ نَعْمِهَا، وَتَنَاسُقِ حُرُوفِهَا، وَدَقَّةِ تَرَابُطِهَا. وَالْعَلَاقَةُ بَيْنَ الصَّوْتِ اللَّغَوِيِّ، وَالسِّيَاقِ الدَّلَالِيِّ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَنْقَطِعَ، أَوْ أَنْ يَنْعَزَلَ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ؛ لِأَنَّ "الْخَصَائِصَ الْمَوْسِيقِيَّةَ لِلصَّوْتِ اللَّغَوِيِّ لَيْسَ لَهَا قِيَمَةٌ بِمَعْرَلٍ عَنِ السِّيَاقِ الدَّلَالِيِّ لِلنَّصِّ الشَّعْرِيِّ، وَالشَّاعِرُ عِنْدَمَا يُشَكِّلُ الْأَصْوَاتِ فِي إِطَارِ عِلَاقَاتِهَا التَّرْكِيبِيَّةِ نَحْوًا، وَصَرَفًا، وَدَلَالَةً يَتَجَاوَزُ بِهَا النَّسَقَ التَّعْبِيرِيَّ الْمُبَاشِرَ إِلَى جَمَالِيَّاتِ التَّشْكِيلَاتِ الْإِنْقَاعِيَّةِ الْإِشَارِيَّةِ الْمُوْجِيَةِ الَّتِي تَشْغُلُ حَيْرًا زَمَانِيًّا مُنْسَجِمًا مُتَنَاسِقًا، فَيَكْتَسِي الصَّوْتُ بِأَرْدِيَّةِ الدَّلَالَةِ، وَيَتَحَلَّى بِمُنْعَةِ الْمَوْسِيقَا"⁽³⁾.

لَقَدْ حَرَصَ أَدْبَاءُ الْمَقَامَةِ فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ عَلَى شَحْنِ نُصُوصِهِمِ الْمَقَامِيَّةِ بِأَقَاتٍ مُتَوَعَّاةً مِنَ النَّعْمِ الصَّوْتِيِّ، وَلَعَلَّ الَّذِي زَادَ ذَلِكَ جَمَالًا قِيَامُ الْمَقَامَةِ عَلَى السَّجْعِ، وَالتَّجْنِيسِ، فَحَنُّ نَجْدُ ذَلِكَ فِي قَوْلِ نَاصِيْفِ الْيَازْجِي: "وَاجْتَرَّتْ الْكِرَامُ عَلَى السَّمَاحَةِ، وَهُمْ ضُرَابُ السُّيُوفِ، وَشُرَابُ الْحُنُوفِ، وَقُرَاةُ الضُّيُوفِ، وَحِبَاةُ الْأُوفِ، وَحَمَاةُ السُّجُوفِ"⁽⁴⁾. فَلَكَ أَنْ تَسْتَمَعَ بِإِنْقَاعِ صَوْتِي مُوسِيقِيٍّ طَوِيلِ الْمَدَى صُحْبَةَ حَمْسِ جُمَلٍ مُتَوَازِنَةٍ، جَمَعَهَا الْإِتْقَاقُ فِي الْوِزْنِ وَالتَّقْفِيَةِ فِي (السُّيُوفِ، الْحُنُوفِ، الضُّيُوفِ، الْأُوفِ، وَالسُّجُوفِ). وَالْمَدُّ الصَّوْتِيُّ فِي حَرْفِ الْوَاوِ الَّذِي أَصَافَ إِلَى الْمَشْهَدِ مُوسِيقِيًّا عَدْبَةً.

(1) ياسوف، جمالية المفردة القرآنية، (ص31).

(2) المرجع السابق، ص31.

(3) العف، التشكيل الجمالي في الشعر الفلسطيني المعاصر، (ص245).

(4) اليازجي، مجمع البحرين (المقامة التغلبيية)، (ص87، ص88).

لَقَدْ ضَمَّنَ الْكُتَّابُ نُصُوصَهُمُ الْمَقَامِيَّةَ أَصْدَافَ الْإِيْقَاعِ، وَدُرَرَ الْمَوْسِيقَا، وَوَشَّحُوْهَا بِرَوَائِعِ الْأَنْعَامِ، وَأَنْعَامِ الرَّوَائِعِ، يَقُولُ مُحَمَّدُ الْمُبَارَكُ: "فَعَدَوْتُ أَجْتَبِي مِنْ رِيَاضِ مَعَارِفِهِمُ الْعَاطِرَةَ، أَنْوَاراً زَاهِرَةً، وَأَجْتَلِي مِنْ حِيَاضِ لَطَائِفِهِمُ النَّاضِرَةَ، أَسْرَاراً بَاهِرَةً، وَأَشْنُفُ سَمْعِي بِلَطِيفِ أَحَادِيثِهِمُ الَّتِي هِيَ أَشْهَى مِنَ الْعَافِيَةِ إِلَى الْعَلِيلِ، وَأَحْلَى مِنْ زُلَالِ الْوِصَالِ لَدَى صَبِّ تَأَجَّجَتْ فِي أَحْسَائِهِ نَارُ الْغَلِيلِ"⁽¹⁾.

إِنَّ الْإِيْقَاعَ الصَّوْتِيَّ جَاءَ مُنْسَجِماً مُتَلَحِّمَ الدَّلَالَةِ، تَنْتَابُوبُ أَنْعَامُ أَصْوَاتِهِ عَلَى وَقْعِ (عاطرة، زاهرة، ناضرة)، و (العليل، والغليل)، ثُمَّ يَنْتَوَسِعُ الْأَدِيبُ فِي الشَّكْلِ الصَّوْتِيَّ، فَيَزَاجُ بَيْنَ جُمَّلَتَيْنِ مُتَوَازِنَتَيْنِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فِي الْوِزْنِ، وَالتَّقْفِيَةِ، وَفِي التَّرْتِيبِ بَيْنَ السَّطْرَيْنِ، وَدَلِكِ يَمْنَحُ النَّصَّ مَوْسِيقَا مِنْ طِرَازٍ فَرِيدٍ لَا يَقْوَى عَلَى عَزْفِهَا إِلَّا الْمُبْدِعُونَ:

أَجْتَبِي مِنْ رِيَاضِ مَعَارِفِهِمُ الْعَاطِرَةَ، أَنْوَاراً زَاهِرَةً
أَجْتَلِي مِنْ حِيَاضِ لَطَائِفِهِمُ النَّاضِرَةَ، أَسْرَاراً بَاهِرَةً

وَالشَّكْلُ الصَّوْتِيُّ، وَالْإِيْقَاعُ وَجْهَانِ لِعُمَلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَالْإِيْقَاعُ يَحْدُثُ بِالْإِفَادَةِ مِنْ جِرسِ الْأَلْفَافِظِ، وَتَنَاقُصِ الْعِبَارَاتِ لِإِحْدَاثِ التَّوَافُقِ الصَّوْتِيَّ بَيْنَ الْحَرَكَاتِ، وَالسَّكِّنَاتِ لِتَأْدِيَةِ وَظِيْفَةِ سَمْعِيَّةٍ، وَالتَّأْتِيرِ فِي الْمَسْتَمْعِ، وَيَأْتِي الْإِيْقَاعُ مِنْ اخْتِيَارِ الْكَلِمَاتِ مِنْ حَيْثُ كَوْنِهَا تُعْبِرُ عَنْ قِيَمَةِ التَّأْتِيرِ الَّذِي تَحْدُثُهُ وَظِيْفَةُ الْكَلِمَةِ فِي مَدْلُولِهَا الْإِيْقَاعِيَّ، فَهُوَ إِحْدَاثِ اسْتِجَابَةٍ ذَوْقِيَّةٍ تُمْتَعُ الْحَوَاسِ، وَتَنْثِيرِ الْإِنْفِعَالَاتِ"⁽²⁾.

التَّشْكِيلُ بِالْمَحْسَنَاتِ الصَّوْتِيَّةِ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ

اهْتَمَّ الْبَلَاغِيُونَ فِي بَحْوثِهِمُ الْجَمَالِيَّةِ لِتَصْرُفَاتِ الْمَبَاحِثِ الْبَلَاغِيَّةِ بِصُورٍ مُخْتَلَفَةٍ مِنْ الْأَلْوَانِ الْبَدِيعِيَّةِ الصَّوْتِيَّةِ الَّتِي لَهَا مَزِيَةٌ حُسْنِ الْوَقْعِ السَّمْعِيِّ، وَالَّتِي صُنِّفَتْ تَحْتَ مُسَمًّى الْمَحْسَنَاتِ الْلَفْظِيَّةِ، وَهَذَا الْاهْتِمَامُ بِالْأَثْرِ الصَّوْتِيَّ لِهَذِهِ الْمَحْسَنَاتِ يَصْدُرُ عَنْ نَزْعَةٍ جَمَالِيَّةٍ، أَصِفُ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ الْمَحْسَنَاتِ تُنْتِجُ مَزِيَجاً صَوْتِيّاً عَذْباً يَتَأَلَّفُ مَعَ الْمُفَوِّمَاتِ الْأُخْرَى لِلْعَمَلِ الْفَنِّيِّ، كَالصُّورِ، وَالْأَخْبِلَةِ، وَالْمَعَانِي.

(1) الطَّيَّانِ، الْمُفَاحِرَاتِ وَالْمُنَاطِرَاتِ (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِي الْمَفَاخِرَةِ بَيْنَ الْغَرِبَةِ وَالْمَقَامَةِ)، (ص 151).

(2) جَابِ اللهُ، جَمَالِيَّاتِ التَّلْوِينِ الصَّوْتِيَّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، (ص 35).

وعند الحديث عن هذا الجانب في الشعر، نجد في الشعر الجيد إيقاعاً موسيقياً غير متولد عن معانقة الوزن فقط، بل هو ناتج عن علاقات نسقية بين الألفاظ من الناحية الصوتية، وما يتخلل ذلك من الاتكاء على معطيات النبر والتنغيم عند الأداء الصوتي لهذا الشعر.

وهذا الإيقاع الموسيقي الناتج عن مثل هذه العلاقات النسقية، لا نستطيع أن نصله عن ألوان الإيقاعات الأخرى داخل السياق الأدائي؛ لأنها جميعاً تتداخل معاً لتنتج لنا مزيجاً صوتياً عذباً، يتألف مع المقومات الأخرى للعمل الفني، كالصور، والأخيلة، والمعاني، والانفعالات، على أنه يجب الحذر من الإسراف في تنمية مثل هذه العلاقات الصوتية؛ لأن ذلك سيؤدي إلى نشاز جمالي داخل السياق الكلي للعمل الفني. فهذه العلاقات يجب أن يكون مقدارها موازياً لمقدار الإيقاع، ومنضبطة معه⁽¹⁾.

وإذا عدنا إلى عوالم النثر الذي ترتبط به المقامات، نجد أن الإيقاع الموسيقي فيه يفترق عن الشعر؛ لأن النثر إيقاعه، وبمعنى آخر أنه يقوم على إيقاع الفقرة أو السطر؛ لأنه يستند بقوة إلى الفصل والوصل، فقد كانت مبادئ في الشعر الخليلي تقوم على طول التفعيلات وحدودها، وعلى الشطر ثم على السطر، والشطر والسطر محددان بالقافية، ونهاية البيت، أما إيقاع النثر فيقوم على فصل ووصل من نمط مختلف ينشئه البعد الدلالي المتعلق بامتداد النفس، والضغط النابع من تموجات التجربة والقراءة، والحركة الداخلية للجهة الشعرية⁽²⁾.

ويفترق النثر عن الشعر من ناحية التشكيل الموسيقي، فهو في الشعر يقوم على موسيقياً الوزن والقافية، لكنه في النثر إلى جانب السجع فإنه "ناتج عما سمي في القديم بالطرق البيانية، كالتجنيس، والترديد، والازدواج، والتكرار، وما يدور في فلكها من الوسائل البيانية التي تعتمد على إعادة اللفظ، أو مجانسته إبرازاً لدوره في التركيب النعيمي"⁽³⁾.

ويعتمد التشكيل الصوتي في المقامات على معطيات المحسنات اللفظية، وما تحدثه من أثر جمالي نابع من فنية استخدامها على نسق تعبيرى معين، وما تتركه هذه المحسنات من أثر في نفس القارئ، خاصة أن المقامة تستند في المقام الأول على المحسنات اللفظية، فإذا ذكر فن المقامة ذكرت معه الصنعة اللفظية، فهذه الصنعة "أخذت شكلاً خاصاً توارثه كتابها في مختلف العصور والبيئات، من ذلك السجع، والمحسنات البديعية التي لازمتها منذ نشأتها في

(1) يُنظر: جاب الله، جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم، (ص395).

(2) أبو ديب، في البنية الإيقاعية للشعر العربي، (ص221).

(3) المقالح، الشعر بين الروية والتشكيل، (ص115).

القرن الرابع الهجري⁽¹⁾. وقد كانت المحسنات البديعية طابعاً مميزاً تفرّدت به المقامة عن الفنون النثرية الأخرى. حيثُ أحدثت تلك المحسنات تشكيلاً صوتياً، ذا إيقاعٍ موسيقيٍّ في المقامة ربّما قارب إيقاع البحور في الشعر، وإن اختلفت الفنون الأدبية.

إن كثيراً من المحسنات البديعية تبدو فيها الموسيقاً ظاهرة، خاصةً في السجع والجناس، فالجناس "تكرارٌ موسيقيّ، ولونٌ بديعيّ عرفه أهل العربية من قديم، واستعملوه في شعرهم ونثرهم، إلا أن استعمالهم له في النثر كان أكثر، نظراً لما في الشعر من ألوانٍ موسيقيةٍ تغنيه عن الجناس"⁽²⁾. فهو ظاهرةٌ موسيقيةٌ تعتمد على تكرارٍ لفظٍ ما تكراراً تاماً، أو تكراراً غير تامٍ لبعض الحروف فقط، وذلك عند اختلافٍ لفظي الجناس، فهو وسيلةٌ فنيةٌ لتحقيق مزايا الجرس الصوتي الموسيقي الذي ينبه الأذن والعقل، فتطرب له الأذن، وينجذب إليه العقل شرط أن يُوظف الجناس بحرفيةٍ شديدة، ودقةٍ متناهية، فإذا ما كثر في الكلام دخل في إطار التكلف فكان عاليةً على النص، وفساداً للكلام. وهذا ما سبق إليه الإمام عبد القاهر الجرجاني بقوله: "أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظين إلا إذا كان موقع معنيهما من العقل موقعاً حميداً، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً"⁽³⁾.

ومن روائع التشكيل الصوتي، والإيقاع الموسيقي الذي تتزيّن به المقامات قولُ ناصيف اليازجي: "حللت بلاد اليمن، في سالف الزمن، وأنا غضيفُ الصبأ غريض الفن، فجعلت أترددُ في بواديهما، بين شعبها، وواديها، وما زلت أطوف الحيّ بعد الحيّ، حتى دُفعت إلى بني طي، فرأيت بها ما شاء الله من خيامٍ مبنوثة، ونيرانٍ مشبوبة، وجفانٍ مصفوفة، وخيلٍ مشدودة، ورياحٍ مركوزة، وجمالٍ كالرّبي، وسخالٍ كالذبي، وجوارٍ كالظباء، وغلّمان كالظبي"⁽⁴⁾.

إن ما قدّمته اللوحة السابقة أشبه بمعزوفةٍ موسيقيةٍ متنوّعة الألحان، تنقل فيها الأديب من حرفٍ إلى آخر، ومع كلّ نقلةٍ مثل دفقةٍ شعوريةٍ تفترق عن سابقتها بدءاً بهدوء النون وسكونها، ثم امتداد الهاء، وانتهاءً بدفقةٍ توظيف التاء المربوطة في جملٍ متوازنة.

(1) أبو علي، نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي 656 هـ، (ص327).

(2) جاب الله، جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم، (ص395).

(3) الجرجاني، أسرار البلاغة، (ص7).

(4) اليازجي، مجمع البحرين (المقامة الطائفة)، (ص261). الذبي: الجراد الصغير، الفن: الغصن.

يُعدُّ الجِنَاسُ، والسَّجْعُ من أهمِّ المُحَسَّنَاتِ الَّتِي اهْتَمَّ النَّصُّ المَقَامِيُّ بِهَا، فَالجِنَاسُ أسلوبُ العَصْرِ في التَّعبِيرِ عَنِ الجَانِبِ الأَثِيرِ البَاقِي مِنَ اللُّغَةِ، فَالمَقَامَاتُ قَرِينَةُ الجِنَاسِ، والسَّجْعِ، وَالتَّلْوِينِ اللطيفِ، فَهَمَا يُضْفِيَانِ عَلَى الكَلَامِ مَزِيداً مِنَ التَّشْكِيلَاتِ الصَّوْتِيَّةِ.

تَعَوَّلُ المَقَامَةُ كَثِيراً عَلَى "خَصَائِصِ أسْلوبيَّةِ جَمَّةٍ، كَانْتِقَاءَ الأَلْفَاظِ الجِسَانِ، وَالجِرْسِ الموسيقيِّ الفَنِيِّ، وَالمَتَغْنَى، وَالتَّرَامِ السَّجْعِ الَّذِي يَشْكَلُ عَنصَراً مَهْماً فِي الأَدَاءِ الشَّعْرِيِّ"⁽¹⁾، مَعَ الإِعْتِمَادِ عَلَى الجَمَلِ القَصِيرَةِ الَّتِي تَنْتَهِي غَالِباً بِالسَّجْعِ. وَقد سَمَّاهُ العُلَمَاءُ المَوَازِنَةَ السَّجْعِيَّةَ.

كَمَا تَعْتَمِدُ المَقَامَةُ عَلَى التَّفْقِيَةِ الوَاحِدَةِ بَيْنَ كُلِّ جَمَلَتَيْنِ مُتتَالِيَتَيْنِ، فَالأَلْفَاظُ تَتَأَلَّفُ مِنْهَا الجَمَلِ، وَتَتَقَارِبُ فِي عَدَدِهَا، وَتَتَمَاتِلُ فِي أَدَاءِ المَعْنَى المَرَادِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ فِكْرِيِّ: "هُوَ أَفْضَلُ عِتَادٍ، وَأَكْرَمُ مُسْتَفَادٍ، وَأَظْرَفُ جَلِيسٍ، وَأَلْطَفُ أَنَيْسٍ، وَأَرْفُقُ قَرِينٍ، وَأَوْفُقُ خَدِينٍ، وَأَوْفَى عِيَاذٍ، وَأَقْوَى مَلَاذٍ، تِجَارَتُهُ رَابِحَةٌ، وَعِبَارَتُهُ بِبِشَائِرِ السُّرُورِ صَادِحَةٌ"⁽²⁾.

إِنَّمَا إِذَا تَتَبَّعْنَا الأَسْطَرَ السَّابِقَةَ نَجِدُ التَّفْقِيَةَ الوَاحِدَةَ بَيْنَ الجَمَلِ المُتتَابِعَةِ فِي (أَظْرَفُ جَلِيسٍ، وَأَلْطَفُ أَنَيْسٍ)، وَ(أَوْفَى عِيَاذٍ، وَأَقْوَى مَلَاذٍ)، وَ(تِجَارَتُهُ رَابِحَةٌ، وَعِبَارَتُهُ صَادِحَةٌ). وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَحْدُثُ إِيقَاعاً مُوسِيقِيّاً تَطْرُبُ لَهُ الأَذُنُ. أَضْفِ إِلى ذَلِكَ أَنَّهُ مَعَ التَّدَاعِي الصَّوْتِيَّةِ يَتَدَخَلُ التَّدَاعِي النَّفْسِيُّ؛ لِلرِّبْطِ بَيْنَ الجَمَلِ الَّذِي يُشْعِرُ بِالأَمَانِ.

إِنَّ الجِنَاسَ الَّذِي يَمْتَلُّ وَاحِداً مِنَ المُحَسَّنَاتِ اللَّفْظِيَّةِ تَتَشَكَّلُ مِنْ خِلَالِهِ تَشْكِيلَاتٌ صَوْتِيَّةٌ مُتَنَوِّعَةٌ، فَأَهْلُ الأَسْلُوبِ يَرُونَ فِي التَّعَامِلِ مَعَ بَنِيَةِ الجِنَاسِ "نَوْعاً مِنَ الإِتْكَاءِ عَلَى المُعْطَى الصَّوْتِيِّ المُتَوَفَّرِ فِيهَا تَحْقِيقاً لِإِيقَاعِ النَّعْمِيِّ مِنْ نَاحِيَّةٍ، وَإِثَارَةً لِأَفْقِ التَّوَقُّعَاتِ مِنْ نَاحِيَّةٍ أُخْرَى"⁽³⁾.

وَمِنْ رَوَائِعِ التَّشْكِيلِ الصَّوْتِيِّ فِي الجِنَاسِ النَّاقِصِ مَا يَعْتَمِدُ عَلَى زِيَادَةِ حَرْفٍ حَسَبَ مَوْقِعِ هَذَا الحَرْفِ، وَيَبْدُو ذَلِكَ فِي النَّصِّ المَقَامِيِّ عَلَى النُّحُوِّ الآتِي:

1- إِذَا كَانَ الحَرْفُ المُزَادُ فِي أَوَّلِ الكَلِمَةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ قَوْلُ مُحَمَّدِ المُبَارَكِ: "فَكَمْ أَلَقْتَ المَرَّةَ فِي المَكَارِهِ، فَغدا يَتَمَتَّى المَوْتُ، وَهُوَ لِلحَيَاةِ كَارُهُ"⁽⁴⁾. فَقد جَانَسَ بَيْنَ كَلِمَتَيْ (المَكَارِهِ)، وَ(كَارِهِ)، بِزِيَادَةِ حَرْفٍ، وَهُوَ (المِيمُ) فِي بَدَايَةِ الكَلِمَةِ الأُولَى، وَهَذَا يُسَمَّى بِالمُطَرَّفِ.

(1) مرتاض، فنُّ المَقَامَاتِ فِي الأَدَبِ العَرَبِيِّ، (ص 379)

(2) ابن الأَوسِيِّ، مَقَامَاتُ ابْنِ الأَوسِيِّ، (زَجْرُ المُعْرُورِ عَن رَجْرِ العُرُورِ)، (ص 63).

(3) جَابِ اللهُ، جَمَالِيَّاتُ التَّلْوِينِ الصَّوْتِيِّ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، (ص 101).

(4) الطَّيَّانُ، المُفَاخَرَاتُ وَالمُنَاطَرَاتُ (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِي المُفَاخَرَةِ بَيْنَ العُرْبَةِ وَالإِقَامَةِ)، (ص 156).

2- أمّا إِذَا كَانَ الحَرْفُ المَزَادُ واقِعاً فِي وَسْطِ أَحْدَى الكَلِمَتَيْنِ كقولِ ناصِيفِ اليَازِجِيِّ: "حتى اضْطَرَرْتُ أَنْ أَعْفَرَ خَدِّي، ليجدَّ جَهْدِي"⁽¹⁾. بزيادةِ الهاءِ فِي وَسْطِ الكَلِمَةِ الثَّانِيَةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ كذَلِكَ: "أَمْ كَيْفَ تَزْعَمُ أَنَّكَ الْآنَ مِنَ النَّعِيمِ فِي جَنَّةٍ، وَمِنْ شَرِّ شُرُورِ الدُّنْيَا فِي وَقَايَةٍ، وَجَنَّةٍ"⁽²⁾. فقد جَانَسَ بَيْنَ (شَرِّ)، و(شُرُورِ) بزيادةِ الواوِ فِي وَسْطِ الكَلِمَةِ الثَّانِيَةِ، وَهَذَا جِنَاسٌ مَكْتَنَفٌ.

3- فَإِذَا كَانَ الحَرْفُ المَزَادُ واقِعاً فِي نِهَائِيَةِ إِحْدَى الكَلِمَتَيْنِ، فَهُوَ الجِنَاسُ المُذَيَّلُ، وَهُوَ مَا اخْتَلَفَتْ فِيهِ إِحْدَى الكَلِمَتَيْنِ بِزيادةِ أَكْثَرِ مِنْ حَرْفٍ عَنِ الأُخْرَى، وَمِثْلُهُ: "قلله سواد ذلك الشعر، أو منطقة كالجوزاء، أو قرط كالثريا ذات السنن والسنا"⁽³⁾. فَقَدْ جَانَسَ الأَدِيبُ بَيْنَ (السَّنَا)، و(السَّناء) بزيادةِ الهَمْزَةِ فِي الكَلِمَةِ الثَّانِيَةِ، وَهَذَا مِنَ المُذَيَّلِ

وقد تكون إحدى الكلمتين مزيدةً بأكثر من حرفٍ في آخرها عن الكلمة الأخرى، ومن شواهده في المقامة العثمانية: كما أن فراقه من أجل الرزايا، وأكبر المحن والبلايا، يوقع المرء في مصائد المصائب، ويلقيه بين أنياب النوى والنوائب"⁽⁴⁾. فَقَدْ جَانَسَ بَيْنَ (النَّوَى)، و(النَّوائب)، والثَّانِيَةِ مُزِيدَةً بِحَرْفَيْنِ فِي آخِرِهَا، وَهُمَا (الهَمْزَةُ، والبَاءُ). وَهَذَا النَّوعُ عِنْدَ أَهْلِ البَلَاغَةِ هُوَ مَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهِ (المذيل)؛ لِأَنَّ التَّذْيِيلَ زيادةٌ تَلْحُقُ أواخرَ الكَلِمَاتِ.

وَقَدْ تَنَسَّكَلُ التَّلَوِينَاتُ الصَّوْتِيَّةُ عَنِ طَرِيقِ المَغَايِرَةِ، وَتَكُونُ المَغَايِرَةُ عَنِ طَرِيقِ الإخْتِلَافِ فِي الحَرْكَةِ، أَوِ النَّقْطِ، وَالخَطِّ، أَوْ فِي تَرْتِيبِ الحُرُوفِ، وَيُمْكِنُ رَسْمُ هَذِهِ التَّشْكِيلَاتِ عَلَى النَّحْوِ الآتِي:

1- إِذَا تَمَاثَلَتِ الكَلِمَتَانِ فِي الحُرُوفِ مِمَّا تَلَّةً تَامَةً، وَتَغَايِرَتَا فِي الحَرَكَاتِ سَوَاءً أَكَانَا اسْمَيْنِ أَمْ فَعْلَيْنِ، أَوْ اسْمٍ وَفَعْلٍ، فَعِنْدَئِذٍ يَسْمَى بِالمُحَرَّفِ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ قولُ مُحَمَّدِ المُبَارَكِ: "أَمْ كَيْفَ تَزْعَمُ أَنَّكَ الْآنَ مِنَ النَّعِيمِ فِي جَنَّةٍ، وَمِنْ شَرِّ شُرُورِ الدُّنْيَا فِي وَقَايَةٍ وَجَنَّةٍ"⁽⁵⁾. فَقَدْ جَانَسَ بَيْنَ كَلِمَتَيْ (جَنَّةٍ) بِفَتْحِ الجِيمِ، وَهِيَ الجَنَّةُ المَعْلُومَةُ، و(جَنَّةٍ) بِضَمِّ الجِيمِ، وَهِيَ بِمَعْنَى وَقَايَةٍ.

2- أمّا إِذَا اخْتَلَفَ اللَّفْظَانِ المَتَجَانِسَانِ فِي النَّقْطِ، وَذَلِكَ بَيْنَ الحُرُوفِ الأَخْوَاتِ (البَاءُ، التَّاءُ، الثَّاءُ، والنُّونُ)، و(الجِيمِ، الحَاءُ، والخَاءُ)، و(الدَّالُ، وَذَالُ)، و(الرَّاءُ، وَالرَّايُ)، و(السَّيْنُ،

(1) اليَازِجِيُّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ الطَائِيَّةُ)، (ص 264).

(2) الطَّيَّانُ، المَفَاخِرَاتُ وَالمُنَاطِرَاتُ (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِي المَفَاخِرَةِ بَيْنَ العُرْبَةِ وَالإِقَامَةِ)، (ص 158).

(3) الطَّيَّانُ، المَفَاخِرَاتُ وَالمُنَاطِرَاتُ (نُضْرَةُ البِهَارِ فِي مُحَاوَرَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)، (ص 138).

(4) الطَّيَّانُ، المَفَاخِرَاتُ وَالمُنَاطِرَاتُ (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِي المَفَاخِرَةِ بَيْنَ العُرْبَةِ وَالإِقَامَةِ)، (ص 155).

(5) المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 158.

والشَّيْنِ)، و(الصَّاد، والضَّاد)، و(الطَّاء، والظَّاء)، و(العَيْن، والغَيْن)، و(الفاء، والقاف) فعِنْدَئِذٍ يسمي هَذَا اللَّوْنُ (جناس التَّصْحِيفِ)، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ: "رَأَيْتَ الْكَبِيرَ ثَانِي عَطْفِهِ شَامِخًا بَيْنَ أَقْرَانِهِ بِأَنْفِهِ، يَأْنِفُ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ، وَيَنْفِرُ مِنْ أَسْبَابِ أَنْسِهِ، وَيَجْرُ رِدَاءَ التَّعَالِي، وَيَخْطُرُ فِي رِوَاءِ التَّعَالِي"⁽¹⁾. فَقَدْ جَانَسَ بَيْنَ (التَّعَالِي)، و(التَّعَالِي) فَنَاظَرَ الْعَيْنَ بِالْغَيْنِ، وَهَذَا مَقْصُورٌ عَلَى النَّقْطِ فَقَطٌ. وَمِنْهُ كَذَلِكَ: "وَفِيْمَا بَلَّغْنَا مِنَ الْأَخْبَارِ عَنِ الْأَحْبَارِ، أَنَّ تَوْنَسَ اسْمٌ لِدَاتِ أُسْوَارٍ لَا سُورٍ"⁽²⁾. فَقَدْ جَانَسَ بَيْنَ (الأخبار) و(الأحبار)، فَنَاظَرَ الْخَاءَ بِالْحَاءِ فِي نَسْقِ صَوْتِيَّ بَدِيعٍ.

3- وَإِذَا اتَّفَقَ اللَّفْظَانِ فِي الْحُرُوفِ، وَاخْتَلَفَا فِي تَرْتِيبِهَا دَاخَلَ بِنِيَةِ الْكَلِمَةِ سَوَاءً أَكَانَ هَذَا التَّرْتِيبُ كَلِمًا أَمْ جَزِيئًا، عِنْدَئِذٍ يسمي هَذَا النَّوعَ (جناس القلب)، وَمِنْ شَوَاهِدِ الْأَخْتِلَافِ الْجَزِيئِيِّ فِي الْمَقَامَةِ الْعُمَانِيَّةِ: "قَكْمٌ وَكَمٌ حَصَلَ فِي الْغَرِيَّةِ، مِنْ انْجِلَاءِ الْهَمِّ وَالْكَرْبَةِ، وَطَابَتِ الْأَوْقَاتُ، وَسَاغَتْ الْأَوْقَاتُ"⁽³⁾. حَيْثُ جَانَسَ بِالْقَلْبِ الْجَزِيئِيِّ بَيْنَ كَلِمَتَيْ (الأوقات)، و(الأقوات)، وَهُمَا مُتَمَاثِلَتَانِ فِي الْحُرُوفِ ذَاتَاهَا، بِنَيْدِ أَنْهُمَا اخْتَلَفَتَا فِي التَّرْتِيبِ.

4- أَمَا إِذَا اخْتَلَفَ اللَّفْظَانِ فِي نَوْعِ الْحَرْفِ (الَّذِي يَشْتَرِطُ كَوْنَهُ وَاحِدًا لَا أَكْثَرَ)، فَالْجِنَاسُ هُنَا عَلَى ضَرْبَيْنِ:

الضَّرْبُ الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ الْحَرْفَانِ الْمُتَغَايِرَانِ مُتَقَارِبَيْنِ صَوْتِيًّا، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُمَانِيَّةِ، قَوْلُ شِهَابِ الدِّينِ الْخَفَاجِيِّ: "قَلَمًا حَانَ وَقْتُ الْمَسَاءِ، وَانْسَدَلَ سَجْفُ الظُّلْمَاءِ، خَلَى عَنِ النَّاجِرِ، وَرَدَّ الْحِمَارُ إِلَى الْمَكَارِي سَاغِبًا لِأَغْبَا جَائِعًا يَكَادُ يَسْلِمُهُ الطَّوَى إِلَى النَّوَى، وَيَسُوقُهُ الصَّدَا إِلَى الرَّدَا"⁽⁴⁾. فَقَدْ جَانَسَ الْأَدِيبُ بَيْنَ (الطَّوَى)، و(النَّوَى)، وَالْإِخْتِلَافُ بَيْنَهُمَا فَقَطٌ فِي حَرْفِي (الطَّاء)، و(التَّاء) كُلُّهُ فِي مَوْقِعِهِ، وَالْحَرْفَانِ مِنْ مَخْرَجِ صَوْتِيٍّ وَاحِدٍ، وَهُوَ رَأْسٌ، أَوْ طَرَفٌ اللِّسَانِ مَعَ أَصُولِ النَّتَايَا الْعَلِيَا⁽⁵⁾، وَيَسْمَى هَذَا النَّوعَ (الْجِنَاسُ الْمُضَارِعِ).

الضَّرْبُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْحَرْفَانِ الْمُتَغَايِرَانِ مُتَبَاعِدَيْنِ صَوْتِيًّا، وَمِثْلُهُ: -"فَالِإِلَامُ تَتَّخِذُنِي مَرْمَى هَمْرِكَ وَلَمْرِكَ فِيمَا فِيهِ تُفِيضُ، مَعَ أَنِّي مِنَ الْعَلَا فِي الْأَوْجِ، وَأَنْتَ فِي الْحَضِيضِ"⁽⁶⁾. فَقَدْ جَانَسَ

(1) فكري، الآثار الفكرية (المقامة الفكرية) (ص 290).

(2) الوردية، مقامات الوردية ورسائله (المقامة الخمرية)، (ص 22).

(3) الطيآن، المفاحرات والمناظرات (أبهي مقامة في المفاحرة بين الغربة والإقامة)، (ص 165).

(4) الخفاجي، ربحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، (المقامة التي عارض بها الوطواط)، (ص 390). الطوى: الجوع، النوى: الهلاك.

(5) يُنظَر، أنيس، الأصوات اللغوية، (ص 62).

(6) الطيآن، المفاحرات والمناظرات (أبهي مقامة في المفاحرة بين الغربة والإقامة)، (ص 158).

مُحَمَّدَ الْمُبَارَكِ بَيْنَ (هَمْزِكَ)، وَ (لَمْزِكَ)، وَالْاِخْتِلَافَ بَيْنَهُمَا فَقَطُّ فِي حَرْفِي (الْهَاءِ)، وَ (الْلامِ) كُلُّ فِي مَوْقِعِهِ، وَالْحَرْفَانِ مُتَبَاعِدَانِ فِي الْمَخْرَجِ الصَّوْتِيِّ، فَالْهَاءُ مِنْ أَقْصَى الْحَلْقِ، وَالْلامُ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ. وَهَذَا النَّوعُ يُسَمَّى (الْجِنَاسَ الْلاحِقَ).

وَأخِيرًا يُمَكِّنُ الْقَوْلُ إِنَّهُ: "فِي إِطَارِ التَّمَاثِلِ الْحَرْفِيِّ، تَتَدَخَّلُ بِنِيَّةٍ بَدِيعِيَّةٌ لَهَا حُدُودُهَا الصَّوْتِيَّةُ الْعَالِيَةُ، وَهِيَ بِنِيَّةُ (التَّجَانُّسِ) الَّتِي تَعْمَلُ سَطْحِيًّا عَلَى مَسْتَوَى السَّمْعِ، وَمَسْتَوَى الْبَصَرِ، وَتَعْمَلُ فِي الْعَمَقِ عَلَى مَسْتَوَى التَّوَقُّعِ الْخَائِبِ، أَوْ غَيْرِ الْمُنْتَظَرِ. وَأَهْمِيَّةُ الْبِنِيَّةِ - عَلَى الْمَسْتَوَى الصَّرْفِيِّ - أَنَّ التَّمَاثِلَ فِيهَا يَغْلِبُ النَّخَالَفَ، مِنْ حَيْثُ الْجَمْعُ بَيْنَ دَالِيْنِ تَكُونُ عِلَاقَتُهُمَا الصَّوْتِيَّةُ هِيَ الْمَطْلُوبُ الْأَوَّلُ"⁽¹⁾، وَقَدْ وَظَّفَ كِتَابُ الْمَقَامَةِ بِنِيَّةَ الْجِنَاسِ بِأَعْدَادٍ لَا حَصَرَ لَهَا تَمَثُّلُ دَفَقَاتِ شَعُورِيَّةٍ تَزْدَحْمُ بِظَوَاهِرِ إِيقَاعِيَّةٍ تَكْتَفُ تَشْكِيلَاتِهَا الصَّوْتِيَّةَ.

إِنَّ الْإِيقَاعَ الْمَوْسِيقِيَّ يُبْنَى عَلَى مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْمَعْطِيَّاتِ، وَلَا يَتَوَقَّفُ عَلَى أَمْرٍ مُنْفَرِدٍ، وَلَكِنْ "الظَّاهِرَةُ الْمَوْسِيقِيَّةُ كُلُّهَا مُتَكَامِلَةٌ فِي وَحْدَةٍ وَظَيْفِيَّةٍ فِي النَّصِّ الشَّعْرِيِّ، وَهِيَ تَشْكِيلٌ مِنَ الْوِزْنِ وَالْقَافِيَةِ، وَالصِّيغِ الصَّرْفِيَّةِ وَالْأَصْوَاتِ، وَالتَّكْرَارِ وَالْجِنَاسِ، وَسِوَى ذَلِكَ. وَجَمِيعُ هَذِهِ الْعَوَامِلِ تَسْهَمُ فِي التَّشْكِيلِ الْمَوْسِيقِيِّ لِلنَّصِّ"⁽²⁾.

هَذِهِ رِحْلَةٌ قَصِيرَةٌ فِي حَقُولِ الْجِنَاسِ الْمُتَنَوِّعَةِ، وَتَشْكِيلَاتِهِ الصَّوْتِيَّةِ الْمُتَعَدِّدَةِ، مِنْ هُنَا يُمَكِّنُ الْقَوْلُ إِنَّ تَعَدُّدَ أَلْوَانِ الْجِنَاسِ الصَّوْتِيِّ، إِنَّمَا مَقْصَدُهُ الْإِلْمَامَ بِمَعْطِيَّاتِ هَذَا اللَّوْنِ صَوْتِيًّا، وَمَا يَتَرْتَبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ دَلَالَاتٍ سِيَاقِيَّةٍ تَحْمَلُ تَشْكِيلَاتٍ صَوْتِيَّةً مُتَنَوِّعَةً، وَهِيَ تِلْكَ الَّتِي بَرَعَ الْأُدْبَاءُ فِي تَقْدِيمِهَا فِي لُوحَاتٍ فَنِيَّةٍ بَارِعَةٍ، فَاقَتْ مَثِيلَاتِهَا فِي فَنُونِ النَّثْرِ الْأُخْرَى، حَيْثُ امْتَلَكَ الْأُدْبَاءُ زِمَامَ الْبَدِيعِ خَاصَّةً فِي أَلْوَانِ الْجِنَاسِ.

وَلَا يَتَوَقَّفُ التَّشْكِيلُ الصَّوْتِيُّ الْمَوْسِيقِيُّ عَلَى الْجِنَاسِ فَقَطُّ، فَهُوَ يَظْهَرُ كَذَلِكَ فِي النَّسْجِيعِ خَاصَّةً إِذَا امْتَلَكَ الْأَدِيبُ زِمَامَ اللَّعْجَةِ، وَاسْتَوْعَبَ فِكْرَةَ التَّعَامُلِ مَعَ النَّسْجِيعِ فِي الْمَكَانِ الْمُنَاسِبِ بَعِيدًا عَنِ النَّصْنَعِ، أَوْ الْفَلَسْفَةِ الَّتِي تَحْوُلُ الْكَلَامَ إِلَى مَجْرَدِ أَلْغَازٍ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ يَسْتَوْعَبَ الْقَارِئُ دَلَالَتَهَا، أَوْ يَدْرِكَ السَّامِعُ كُنْهَهَا، وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ الْإِمَامَ عَبْدَ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيَّ أَظْهَرَ الْوَشَائِحَ الْقَوِيَّةَ بَيْنَ التَّجْنِيسِ وَالسَّجْعِ، وَمَوَاقِعَ اسْتِحْسَانَهُمَا، يَقُولُ: "فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ تَجْنِيسًا مَقْبُولًا، وَلَا سَجْعًا حَسَنًا، حَتَّى يَكُونَ الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي طَلِبَهُ، وَاسْتَدْعَاهُ، وَسَاقَ نَحْوَهُ، وَحَتَّى لَا تَجِدَهُ لَا تَبْتَعِي بِهِ بَدَلًا، وَلَا تَجِدُ عَنْهُ حَوْلًا، وَمِنْ هُنَا كَانَ أَحْلَى تَجْنِيسٍ تَسْمَعُهُ، وَأَعْلَاهُ، وَأَحْقَهُ بِالْحَسَنِ

(1) عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، هَكَذَا تَكَلَّمَ النَّصُّ، (ص172).

(2) السَّدُّ، الْأُسْلُوبِيَّةُ وَتَحْلِيلُ الْخَطَابِ، (ج1/103).

وأولاه، مَا وَقَعَ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ مِنَ الْمُتَكَلِّمِ إِلَى اجْتِلَابِهِ، وَتَأَهَّبَ لطلبه، أو ما هو - لحسن ملاءمته، وإن كان مطلوباً- بهذه المنزلة، وفي هذه الصورة⁽¹⁾.

لَقَدْ جَرَى السَّجْعُ فِي النُّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ مَجْرَى الْمَاءِ السَّلْسَبِيلِ، وَنَسَائِمِ الْهَوَاءِ الْعَلِيلِ، وَجَمَعَ الْأُدْبَاءُ فِي أَعْمَالِهِمْ مَا تَقَعُ عَلَيْهِ الْعَيُونُ فَتَقَرُّ، وَيَصِيبُ الْقُلُوبَ فَتَطْمئنُّ، يَدْرِكُهُ السَّامِعُ فِي كُلِّ سَطْرِ مِنْ أَسْطَرِ الْمَقَامَةِ، وَفِي كُلِّ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهَا، فَهِيَ كَنْزٌ ثَمِينٌ يَمْتَلئُ بِجَوَاهِرِ السَّجْعِ، وَيَتَزَيَّنُ بِبَلَائِئِ التَّجْنِيسِ، وَكَأَنِّي بِالْأُدْبَاءِ أَمَامَ مُورِدِ عَذْبٍ يَنْهَلُونَ مِنْهُ، وَحَدَائِقَ غَنَاءٍ يَجْمَعُونَ مِنْهَا أَجْمَلَ الْأَزْهَارِ، وَيَقْطِفُونَ أَطْيَبَ النَّمَارِ، وَأَنْشُودَةَ عَذْبَةٍ تُعْرَفُ صُحْبَةَ أَجْمَلِ الْأَلْحَانِ.

إِنَّ الْمُتَتَبِعَ لِلْمَقَامَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، الْمُتَنَقَّلَ بَيْنَ نُصُوصِهَا، يَجِدُ أَنَّ السَّجْعَ يَزِينُ مَعْظَمَ صَفَحَاتِهَا، وَقُلُّ إِنَّ شِئْتَ مَعْظَمَ سَطُورِهَا، حَيْثُ كَانَ دِيدِنُ الْأُدْبَاءِ الْإِكْثَارُ مِنَ التَّسْجِيعِ، وَكَأَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْهَجُوا مِنْهُجَ أَسْلَافِهِمْ مِنَ الْأُدْبَاءِ، وَيَقْتَفُوا أَثْرَهُمْ فِي تَزْيِينِ مَقَامَاتِهِمْ بِالْأَسْجَاعِ بِشَتَّى صُنُوفِهَا، وَمِنْ بَيْنِ تَنَائِيَا السَّجْعِ تَتَوَلَّدُ تَرْدِيدَاتٌ مُوسِيقِيَّةٌ، وَتَشْكِيْلَاتٌ صَوْتِيَّةٌ تَتَقَرَّدُ بِالْجَمَالِ الْأَخَازِ، وَيُمْكِنُ تَتَبُّعُ أَضْرِبِ السَّجْعِ الَّتِي حَمَلَتْهَا الْمَقَامَاتُ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:

1- إِذَا اتَّفَقَتِ الْفَاصِلَتَانِ فِي الْوِزْنِ، وَاخْتَلَفَتَا فِي التَّقْفِيَةِ، كَانَ السَّجْعُ مُتَوَازِنًا، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ قَوْلُ الْيَازْجِيِّ: "قَرَأْتُ بِهَا مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ خِيَامٍ مَبْنُوتَةٍ، وَنِيرَانٍ مَشْبُوبَةٍ، وَجِفَانٍ مَصْفُوفَةٍ، وَخِيَلٍ مَشْدُودَةٍ، وَرِمَاحٍ مَرْكُوزَةٍ، وَجَمَالٍ كَالرُّبِيِّ، وَسَخَالٍ كَالدَّبِيِّ، وَجَوَارٍ كَالظُّبَاءِ، وَغُلْمَانٍ كَالظُّبِيِّ"⁽²⁾. فَإِنَّ (مَبْنُوتَةٍ، مَشْبُوبَةٍ، مَصْفُوفَةٍ، مَشْدُودَةٍ، وَمَرْكُوزَةٍ) مُتَّفَقَةٌ فِي الْوِزْنِ دُونَ التَّقْفِيَةِ.

2- أَمَا إِذَا اتَّفَقَتْ فِيهِ أَلْفَاظُ إِحْدَى الْفِقْرَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرِهَا فِي الْوِزْنِ وَالتَّقْفِيَةِ كَانَ السَّجْعُ مُرْصَعًا، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ هَذَا النَّوعِ قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَازْجِيِّ: فَلَمَّا قَبِضَتِ الدِّيَةَ أَحْمَدْتُ زَفْرَاتِهَا، وَأَجْمَدْتُ عِبْرَاتِهَا، وَأَجْمَلْتُ النَّوَاءَ، وَأَجَزَلْتُ الْعَطَاءَ"⁽³⁾. فَقَدْ تَمَاثَلَتْ أَلْفَاظُ الْفِقْرَتَيْنِ (أَحْمَدْتُ زَفْرَاتِهَا)، (وَأَجْمَدْتُ عِبْرَاتِهَا) فِي الْوِزْنِ وَالتَّقْفِيَةِ، كَمَا تَمَاثَلَتْ كَذَلِكَ أَلْفَاظُ الْفِقْرَتَيْنِ (أَجْمَلْتُ النَّوَاءَ)، وَ(أَجَزَلْتُ الْعَطَاءَ). مَعَ مَا يَصَاحِبُهُمَا مِنْ إِيقَاعٍ مُوسِيقِيٍّ تَنْجَذِبُ إِلَيْهِ الْأَسْمَاعُ.

3- وَإِذَا اخْتَلَفَتِ الْفَاصِلَتَانِ فِي الْوِزْنِ، وَاتَّفَقَتَا فِي التَّقْفِيَةِ، كَانَ السَّجْعُ مُطْرَفًا، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ هَذَا النَّوعِ قَوْلُ ابْنِ الْأَوْسِيِّ: "مَا الَّذِي أَصَابَكَ، وَأَعْظَمَ أَوْصَابَكَ، هَلْ قَدَدْتَ - لَا قَدَدْتَ - أَحَدًا مِنْ

(1) الْجُرْجَانِي، أَسْرَارُ الْبَلَاغَةِ، (ص11).

(2) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الطَائِيَّةِ)، (ص261). الدُّبِيُّ: الْجِرَادُ الصَّغِيرُ.

(3) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْأَنْبَارِيَّةِ)، (ص289).

أحبابك، فاضطرت من فقهه نيران كريك، واكتئابك، فبادرهم الدمعُ بالجواب، وكدتُ أقضي نحبي لولا الانتحاب⁽¹⁾. حَيْثُ وَرَدَ السَّجْعُ فِي الْفَاصِلَتَيْنِ (الجواب)، و(الانتحاب)، وقد اختلفت هاتان الفاصلتان فِي الْوَزْنِ، وَاتَّفَقَتَا فِي التَّفْقِيَةِ.

4- وَإِذَا اتَّفَقَتِ الْفُقْرَتَانِ فِي الْوَزْنِ وَالرَّوْيِ كَانَ السَّجْعُ مُتَوَازِيًا، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ فِي الْمَقَامَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَازْجِيِّ: "وهي بَكَرٌ رَقِيقَةٌ الْقَوَامِ، كَأَنَّهَا وَرَدُ الْكَمَامِ، لَهَا نَكْهَةٌ الْخِرَامِ، وَصَفَاءُ مَاءِ الْغَمَامِ، تَقْتَنُ الْفُلُوبَ وَالْأَلْبَابَ، وَتَسْتَعْبِدُ السَّادَةَ، وَالْأَرْيَابَ"⁽²⁾. حَيْثُ اتَّفَقَتِ الْفَاصِلَتَانِ (الْأَلْبَابَ)، و(الْأَرْيَابَ) فِي الْوَزْنِ، وَالرَّوْيِ.

ويظهر التَّشْكِيلُ الصَّوْتِيُّ فِي ضَرْبِ ثَالِثٍ مِنَ الْمُحَسَّنَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ اللَّفْظِيَّةِ، وَبِتَجَاوُزِ هَذَا الضَّرْبِ فِي امْتِدَادِهِ الْمَوْسِيقِيِّ السَّجْعِ، وَهَذَا الْمُحَسَّنُ اللَّفْظِيُّ هُوَ الْإِلْتِزَامُ، أَوْ لَزُومٌ مَا يَلْزَمُ، وَقَدْ عَدَّهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ بْنِ مَحَاسِنِ الْكَلَامِ، وَالْمَقْصُودُ بِهِ: "أَنْ يَجِيءَ قَبْلَ حَرْفِ الرَّوْيِ، وَمَا فِي مَعْنَاهُ مِنَ الْفَاصِلَةِ مَا لَيْسَ بِإِلْتِزَامٍ فِي السَّجْعِ"⁽³⁾، وَعَنَى ذَلِكَ أَنْ يَلْتَزِمَ النَّاتِرُ فِي نَثْرِهِ، أَوْ النَّاطِمُ فِي نِظْمِهِ بِحَرْفٍ قَبْلَ حَرْفِ الرَّوْيِ، أَوْ بِأَكْثَرٍ مِنْ حَرْفٍ بِالنَّسْبَةِ إِلَى قُدْرَتِهِ مَعَ عَدَمِ التَّكْلُفِ. وَقَدْ وَرَدَ هَذَا النَّوْعُ أَكْثَرَ مَا وَرَدَ فِي الْمَقَامَاتِ، خَاصَّةً مَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ، وَالْهَمْدَانِيِّ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَازْجِيِّ: "وَأَخَذْنَا نَجْتِنِي النَّمَارَ الدَّوَابِلَ، مِنَ الْأَفْنَانِ السَّوَابِلِ، وَقَدْ رَقَصَ الْبَلْبُلُ عَلَى نِعْمَاتِ الْبَلَابِلِ، وَإِذَا قَوْمٌ مِنْ كِرَامِ الْوُجُودِ، سِيْمَاهُمْ فِي وَجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ، وَعَلَيْهِمْ لَوَائِحُ الْجُودَةِ، وَالْجُودِ"⁽⁴⁾. فَالْإِلْتِزَامُ فِي الْفَقْرَةِ السَّابِقَةِ وَقَعَ فِي كَلِمَتِي (الدَّوَابِلِ)، و(السَّوَابِلِ) فِي ثَلَاثَةِ حُرُوفٍ هِيَ: الْوَاوُ، وَالْأَلْفُ، وَالْبَاءُ، كَمَا وَقَعَ فِي (الْوُجُودِ)، و(السُّجُودِ)، و(الْجُودِ) حَيْثُ ظَهَرَ فِي حَرْفَيْنِ هُمَا: الْحِيمُ، وَالْوَاوُ. وَالْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الدَّوَابِلِ زَيْنَ الْمَشْهَدِ بِجَرَسِ مَوْسِيقِيٍّ مِنْ طِرَازِ فَرِيدٍ.

ولزومٌ ما يلزم يكون فيه امتدادُ الصَّوْتِ أَكْثَرَ مِنْهُ فِي السَّجْعِ الَّذِي قَدْ يَتَوَقَّفُ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ فَقَطْ، غَيْرَ أَنَّهُ فِي لَزُومٍ مَا يَلْزَمُ قَدْ يَتَجَاوَزُ ذَلِكَ، فَيَشْكَلُ امْتِدَادَاتٍ صَوْتِيَّةً أَطْوَلَ؛ لِذَا عَدَّهُ ابْنُ الْأَثِيرِ مِنْ أَشَقِّ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مَذْهَبًا، وَأَوْسَعَهَا مَسْلَكًا، فَإِنَّ الْإِلْتِزَامَ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ، وَمَا جَرَى مَجْرَاهُ إِذَا هُوَ السَّجْعُ الَّذِي هُوَ تَسَاوِيُ أَجْزَاءِ الْفَوَاصِلِ فِي الْكَلَامِ الْمُنْثَوِرِ فِي قَوَافِيهَا، وَهَذَا

(1) ابن الأَوسِيِّ، مقامات ابن الأَوسِيِّ (رَجَرَ الْمُعْرُورُ عَنِ رَجْرِ الْعُرُورِ)، (ص 101).

(2) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْمَضْرِبِيَّةُ)، (ص 308).

(3) الْقُرُونِيُّ، الْإِيضَاحُ فِي عِلْمِ الْبَلَاغَةِ، (ص 553).

(4) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْحَمِيَّةُ)، (ص 356). السَّوَابِلُ: الْمُتَدَلِّيَّةُ.

فيه زيادة على ذلك، وهو أن تكون الحُرُوفُ الَّتِي قَبْلَ الفاصِلَةِ حرفاً واحداً، وهو في الشَّعر أن تتساوى الحُرُوفُ الَّتِي قَبْلَ رَوِيِّ الأبياتِ الشَّعْرِيَّةِ⁽¹⁾.

إنَّ التَّشْكِيلَ الصَّوتِيَّ مورِدٌ عذبٌ للمُوسِيقَا الَّتِي لها تأثيرها الكبيرُ على النَّفسِ الإنسانيَّةِ، إنَّها تفتح أبوابَ العُقُولِ، والقُلُوبِ أَمَامَ إبداعاتِ فنِّ المَقَامَةِ، ذلك الفنُّ العجيبُ، وتستولي على حصونهما، وتسلم مفاتيحهما لهما، وتبسط سلطانه عليهما؛ لِأَنَّ "في المُوسِيقَا سرّاً عجيباً، كما أنَّ لإيحاءاتها أثراً هائلاً في تقوية المَعانِي، والمشاعر الَّتِي يُراد توصيلها إلى المُتلقِّي. إنَّها تهبُّ المَعانِي والمشاعرَ أجنحةً عملاقةً تطير بها إلى الدُّرَى"⁽²⁾.

هَكَذَا تنقَلُ الأَدبَاءُ فِي هَذَا البَابِ تنقَلُ الفراشاتِ بَيْنَ الرَّهَورِ، ونشروا أصنافاً من الرِّياحين والعتُورِ، وأداروا حلقةَ سمرٍ عزفوا فيها أجملَ الأَلحَانِ على وقع الأسجاعِ، والأوزانِ، فشكّلوا تلويناتٍ صوتيَّةً بارعةً، ومُوسِيقَا عذبةً رائعةً تجاوزت حدودَ الجَمالِ إلى أسوارِ المحالِ؛ لتكتب قصَّةَ خلودٍ للمقامةٍ ومبدعيها في كلِّ أفقٍ، ومجالٍ.

تِلْكَ هِيَ أَمُّ المَحْسَنَاتِ البِلاغيَّةِ الصَّوتِيَّةِ ينسَقُّها الأسلوبُ، وبما تحمله من تشكيلاتٍ جماليَّةٍ موظفةٍ في ثنايا النَّصِّ المقاميِّ كَقِيمِ نصيَّةٍ صوتيَّةٍ دلاليَّةٍ تترك أَمَامَ المُتلقِّي مساحاتٍ لا حدودَ لها كي يُمنَعَ سَمْعُهُ في كلِّ آنٍ، وحينٍ. وغدت حليَّةً زينتِ المَقَامَةَ، ووشحت نُصُوصَهَا بوشاحِ الجَمالِ الَّذِي يروي ظمأَ المُتَعَطِّشِينَ.

(1) ابن الأثير، المثل السائر، (ص106).

(2) عوض، المرايا المشوّهة، (ص144).

المبحث الرابع: التشكيل الأسلوبى

مفهوم التشكيل الأسلوبى اصطلاحاً:

التشكيل الأسلوبى هو الغاية، والوسيلة معاً عند النقاد الأسلوبيين "فالتشكيل من المصطلحات النقدية الحديثة، التي تداولها النقاد، عقدت لأجله ندوات فكرية عربية لما لهذا المصطلح من مفاهيم متعددة"⁽¹⁾، إلا أن الندوات تجمع على إن التشكيل هو: "الصيرورة التي تؤول إليها الأشياء والمكونات لتتحقق وحدة متماسكة، متعددة، مترابطة، ووجوداً جديداً تحقق فيه مبادئ المزج، والتوليف، والتنظيم، والتنوع، والتوازن، والتناغم، والإيقاع، والانسجام فعلها الفني، الذي يمثل نزوعاً جمالياً لتحقيق التشكيل، وتمثل هذه المبادئ قيم السلوك الفني، وتقاليده الهادفة لتكوين التشكيل، وتحقيق وجوده"⁽²⁾. ومن هنا يمكن القول إن مبدأ الصيرورة، والتحول للأفكار، وانتقالها، هي تقنية يسلكها المبدع حتى يجعلها مجسدة، ومناحة في متناول إدراك المتلقي سواء كانت تلك التشكيلات الأسلوبية خطية مكتوبة، أو شفاهية منطوقة وهي تتم عن قدرة المشكل (الأسلوبى) على حسن الاختيار من المادة اللفظية الأولية، وإخراجها إلى تشكيل معبر عن المعاني، والمفاهيم، والإحساسات التي يخاطب بها متلقيه. كما نجد (عبد العزيز المقالح)، قد تطرق إلى معنى التشكيل الأدبي في كتابه (الشعر بين الرؤيا والتشكيل)، حيث قال: "العمل الأدبي ليس قطعة من النسيج يمكن للدارس أن يمرقها إلى خيوط، لكي يتمكن من درس كل خيط على حدة. إن العمل الأدبي - رغم تعدد عناصره - وحدة متلاحمة، ومتداخلة إذا استدعيت منها جانباً حمل معه بقية الجوانب"⁽³⁾.

وفي هذا الصدد وضّح (عبد العزيز المقالح) أن التشكيل الأدبي بصفة عامة، ومنه التشكيل الأسلوبى بصفة خاصة، هو عمل منتظم متشابك يشكّل في كُله وحدة شكلية، ودلالية متسقة تركيبياً، ومنسجمة دلالياً. فالتشكيل الأسلوبى يقوم على "فرضية منهجية أساسها أن المدلول الواحد يمكن التعبير عنه بأساليب مختلفة، مما يؤدي إلى تعدد الأشكال التعبيرية على الرغم من وحدة الصورة الذهنية"⁽⁴⁾.

ومنه فالاختيار، والتركيب عنصران مكونان للأسلوب، حيث تنضج أهميتهما في التشكيل

(1) يُنظر، شيخة، التشكيل الأسلوبى في الشعر المهجري الحديث (ص 19، ص 20).

(2) قوقزة، نظرية التشكيل الاستعاري في البلاغة والنقد، (ص 27).

(3) المقالح، الشعر بين الرؤيا والتشكيل، (ص 230، ص 231).

(4) الكوّاز، علم الأسلوب مفاهيم وتطبيقات، (ص 18).

الأسلوب، ومثل ذلك عملية البناء الهندسي في فنّ العمارة، وعملية البناء اللغوي للأسلوب.

إنّ التشكيل الأسلوبي يتحقّق باختيار عددٍ من المتغيرات الأسلوبية التي تؤدي إلى تمايز الأساليب، فهو - أعني التشكيل الأسلوبي - "عملية مركّبة تتم في نسيج متشابك معقد على جميع المستويات الصوتية، والصرفية، والتركيبيّة، والمُعجميّة في آنٍ معاً، وأنّ تعقّد عملية التشكيل الأسلوبي يقابلها صعوبة مماثلة من جانب الباحث عند محاولته فكّ تداخلات النسيج، وتشخيص الخصائص المائزة، واستكناه دلالاتها"⁽¹⁾، وما يمكن قوله عن التعقيد فيما يخصّ المستويات يرجع إلى الانصهار القائم بين هذه المستويات، الذي يولد على إثره مثيرات أسلوبية تجعل الباحث يجد صعوبة في معرفة الخصائص الأسلوبية (الثعوت الأسلوبية، ومدى الكشف عن بعدها الدلاليّ). فالمستويات الموجودة في التشكيل الأسلوبي، نجدها تختلف فيما بينها، فالمتغيّر الدلاليّ له قيمة القابلية للتشكيل، ثم يأتي المتغيّر الصرفي، والتركيبي، أمّا فيما يخصّ المتغيّر الصوتي، فإنّ هذا المتغيّر "يخضع لنظام اللّغة، ومن هنا يظهر دورُ الشاعِر في التشكيل الأسلوبي، ومدى اختلاف قدرات الشعراء بعضهم عن بعض"⁽²⁾.

وهكذا يتبيّن لنا أنّ المتغيرات الأسلوبية لها دورٌ كبيرٌ في التشكيل الأسلوبي، بالإضافة إلى عوامل الاختيار، والشّيع، والتوزيع هي الأخرى لها دورٌ أكبر في عملية تشكيل الأسلوب.

وقد سبق أبو بكر الباقلائيّ (ت372هـ) في هذا الباب، حيث استخدَم كلمة الأسلوب للدلالة على "تناسق الشكّل الأدبيّ، واتّساقه في كلام البلاغيين العرب حول إعجاز القرآن الكريم، وأقدم من استخدَم هذه اللفظة، كان الباقلائيّ في كتابه الموسوم بإعجاز القرآن، فقد أوضح أنّ لكلّ شاعرٍ، أو كاتبٍ طريقة يُعرفُ بها، وتنسبُ إليه"⁽³⁾.

ولا يتوقّف الأسلوب على فنّ أدبيّ دون آخر، ولا غرضٍ شعريّ دون غرضٍ، وكذلك لا يفرّد به الشعْر دون النثر، ومن هنا فإنّ "الأسلوب يُعدّ تعبيراً عن نظامٍ متّحدٍ ذي شكّلٍ متماسكٍ متّصلٍ بقاعدة هذا النصّ، أو ذلك"⁽⁴⁾.

إنّ التشكيل الأسلوبي لا يتوقّف على أسلوبٍ معينٍ، بل ينشأ أساساً من الجمع بين عددٍ من الأساليب؛ لأنّ "العنصرَ الجوهريّ في القيم الأسلوبية يتخلّق أساساً من التّقابلات بين

(1) مصلوح، في النصّ الأدبيّ، دراسة أسلوبية إحصائية، (ص36).

(2) المرجع السابق، ص36.

(3) خليل، النّقد الأدبيّ الحديث من المحاكاة إلى التّفكيك، (ص149).

(4) فضل، نظرية البنائية في النّقد الأدبيّ، (ص315).

أَسَالِيبُ اللُّغَةِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَيَبْضُحُ صَدَقَ ذَلِكَ مِنْ أَنَّ كُلَّ أَنْوَاعِ التَّلْوِينِ فِي الْأُسْلُوبِ، وَمَا يَعْرِى لَهَا مِنْ قِيَمَةٍ يَخْتَفِي بِمَجْرَدِ أَنْ نَتَصَوَّرَ لُغَةً ذَاتَ أُسْلُوبٍ وَاحِدٍ، وَعَلَى هَذَا فَإِنَّ قِيَمَةَ الْأُسْلُوبِ تَتَحَدَّدُ بِالْعَلَاقَةِ الْمُتَبَادِلَةِ"⁽¹⁾.

والتَّشْكِيلُ الْأُسْلُوبِيُّ هُوَ مَزِيحٌ مِنْ أَسَالِيبَ مُتَوَعَّةٍ، أَوْ عَنَاصِرَ مُتَعَدِّدَةٍ، تَتَشَابِكُ تِلْكَ الْعَنَاصِرُ كَافَّةً فِي الْعَمَلِ الْأَدَبِيِّ، فَتَشْكَلُ لُوحَاتٍ أَدَبِيَّةً تَحْمَلُ مَسْتَوِيَاتٍ مِنَ الْأَنْمَاطِ الْأُسْلُوبِيَّةِ، أَوْ تَجْتَمِعُ تَقْنِيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ تَنْتَهِي بِرَسْمِ مَشَاهِدَ أُسْلُوبِيَّةٍ، تَنْصَهَرُ جَمِيعاً، فَلَا يَقِفُ أَحَدَاهَا مَحَايِداً عَنِ الْأَسَالِيبِ الْأُخْرَى، حَيْثُ تَجْتَمِعُ تَقْنِيَاتِ الْأَمْرِ، وَالنَّهْيِ، وَالِاسْتِنْفَاهِ، وَالنَّدَاءِ، وَالنَّمْيِ، ثُمَّ يَتَفَاعَلُ مَعَهَا تَقْنِيَاتٌ أُخْرَى، كَتَقْنِيَةِ الشَّرْطِ، وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، وَالتَّعْرِيفِ وَالتَّنْكِيرِ، وَالدُّكْرِ وَالحذفِ، إِضَافَةً إِلَى بَعْضِ التَّقْنِيَاتِ الَّتِي تَظْهَرُ مَكْمَلَةً لِسَابِقَاتِهَا؛ لِئِنْتَهِيَ الْأَمْرُ إِلَى تَشْكِيلِ أُسْلُوبِيٍّ يَمْنَحُ الْفُنُونَ الْأَدَبِيَّةَ مَزِيداً مِنَ التَّالِقِ، وَيَهَبُ أَصْحَابَهُ طَاقَاتٍ مِنَ التَّفُوقِ، وَالْإِبْدَاعِ.

أَدَوَاتُ التَّشْكِيلِ الْأُسْلُوبِيِّ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ

إِنَّ التَّشْكِيلَ الْأُسْلُوبِيَّ لِلْمَقَامَةِ يَعْمَلُ عَلَى تَحْقِيقِ آيَةِ التَّشْكِيلِ الْجَمَالِيِّ وَالْفَنِيِّ، حِينَ نَمَقَّتِ الْأُسْلُوبَ، وَأَفْعَمْتَهُ بِالْوَانِ الْمَعَانِي، وَمَضَارِبِ الْبَلَاغَةِ، وَالْفَصَاحَةِ، وَالَّتِي عُدَّتْ مَعَالِمَ أُسْلُوبِيَّةٍ ذَاتِ دَلَالَاتٍ تَأْثِيرِيَّةٍ فِي عَصْرِ أَوْلَعِ فِيهِ الْكُتَّابُ إِلَى جَانِبِ الْبَدِيعِ، وَالصَّنْعَةِ اللَّفْظِيَّةِ بِالتَّمْيِيقِ الْأُسْلُوبِيِّ، الَّتِي أَكْسَبَتْ النُّصُوصَ مَزِيداً مِنَ الرُّوعَةِ، وَالبَهَاءِ، وَالْإِبْدَاعِ، مِنْ هُنَا يَنْطَلِقُ مَنذَرُ عِيَاشِي قَائِلاً: "وَلِذَا نَتَكَلَّمُ عَنِ الْإِبْدَاعِ حِينَ نَتَكَلَّمُ عَنِ الْأُسْلُوبِ، كَمَا نَتَكَلَّمُ عَنِ الْخَارِقِ لِلْمَالُوفِ حَيْثُ يَكُونُ الْأُسْلُوبُ عَلَامَةً فَارِقَةً لِنَصِّ مِنَ النُّصُوصِ"⁽²⁾.

وَلَمْ يَغْفَلِ الْأُدَبَاءُ فِي نُصُوصِهِمُ الْمَقَامِيَّةِ الظَّوَاهِرِ الْأُسْلُوبِيَّةِ بِمَا فِيهَا الْأَسَالِيبُ الْخَبْرِيَّةُ، وَالْأَسَالِيبُ الْإِنْشَائِيَّةُ، مَعَ تَتَوُّعِ أَغْرَاضِهَا، وَإِنْ كَانُوا قَدْ صَبُّوا جُلَّ اِهْتِمَامِهِمُ بِالْبَدِيعِ، بَلْ انْطَلَقُوا إِلَى عَوَالِمِ الْأَسَالِيبِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالظَّوَاهِرِ الْمُتَوَعَّةِ الَّتِي أَكْسَبَتْ مَقَامَاتِهِمْ مَزِيداً مِنَ الرُّوعَةِ، وَالْأَنَاقَةِ. فَكَتَبَتْ لَهُمْ بِكُلِّ جِدَارَةٍ اسْتِحْقَاقٍ وَسَامِ الْإِبْدَاعِ، وَقِلَائِدِ الْعَبْقَرِيَّةِ.

وَتَتَوَعُّعُ أَدَوَاتِ التَّشْكِيلِ الْأُسْلُوبِيِّ فِي الْفُنُونِ الْأَدَبِيَّةِ بِوَجْهِ عَامٍّ، وَفِي النُّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ بِوَجْهِ خَاصٍّ، وَيَجْمَعُ الْأُدَبَاءُ بَيْنَ الْأَسَالِيبِ الَّتِي تَعْدُو نَظْماً تَعْبِيرِيَّةً تَتَعَايَشُ دَاخِلَ نُصُوصِهِمُ الْمَقَامِيَّةِ، وَتَعَكْسُ بَعْضاً مِنْ إِمْكَانَاتِهِمْ، وَطَاقَاتِهِمُ الْإِبْدَاعِيَّةِ الَّتِي تَبْدُو جَلِيَّةً فِي أَعْمَالِهِمُ الَّتِي جَمَعَتْ بَيْنَ سَنَى الْأَسَالِيبِ، فَلَمْ يَقْتَصِرِ الْأَمْرُ كَمَا يَظُنُّ بَعْضُ الدَّارِسِينَ أَنَّ الْمَقَامَةَ لَمَّا رَكَّزَتْ

(1) فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، (ص316).

(2) عياشي، مقالات في الأسلوبية، (ص41).

عَلَى السَّجْعِ وَالتَّجْنِيسِ، أَهْمَلَتِ الْجَانِبَ الْأُسْلُوبِيَّ، وَالْأَمْرُ لَيْسَ كَذَلِكَ فَقَدْ تَزَيَّنَتِ الْمَقَامَاتُ بِأَسَالِيْبِ الْإِنْشَاءِ الطَّلَبِيِّ، وَغَيْرِ الطَّلَبِيِّ بِضَرْبَيْهِمَا الْمُخْتَلَفَةِ، كَمَا اِزْدَانَتْ بِالشَّرْطِ، وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ، وَتَجَمَّلَتْ بِالذِّكْرِ وَالْحَدْفِ، وَتَوَشَّحَتْ بِالتَّكْرَارِ، وَالتَّعْرِيفِ وَالتَّكْوِينِ، فَلَمْ يَتْرِكِ الْأُدْبَاءُ بَاباً مِنْ أَبْوَابِ الْأُسْلُوبِ إِلَّا طَرَفُوهُ، وَلَمْ يَدْعُوا سَبِيلاً فِي هَذَا الْجَانِبِ إِلَّا سَلَكُوهُ، وَلَعَلَّ الدَّافِعَ الَّذِي أَضَاءَ لَهُمْ تِلْكَ السَّبِيلَ هُوَ تَلْمُسُهُمْ ذُرُوبَ سَابِقِيهِمْ مِنَ الْأُدْبَاءِ أَمْثَالِ، الْحَرِيرِيِّ، وَبَدِيعِ الزَّمَانِ الْهَمْدَانِيِّ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَرَغْبَتِهِمِ الْجَارِفَةِ فِي إِمْتَاعِ الْقُرَاءِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، وَقَدْ تَحَقَّقَ ذَلِكَ لَهُمْ فِعْلاً؛ لِأَنَّ مِنْ سَبَرِ أَغْوَارِ الْمَقَامَةِ كَفَى نَفْسَهُ مَوْئِنَةَ الْبَحْثِ عَنِ جَمَالِيَّاتِ أُخْرَى؛ وَذَلِكَ بِمَا حَمَلَتْهُ الْمَقَامَاتُ مِنْ مَسَاحَاتٍ شَاسِعَةٍ مِنَ الْحَسَنِ وَالْجَمَالِ، مَا تَضَمَّنَتْهُ أَسَالِيْبُهَا الْمُتَنَوِّعَةُ مِنَ السَّحْرِ، وَالدَّلَالِ.

وَمِنْ أَدْوَاتِ التَّشْكِيلِ الْأُسْلُوبِيِّ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ مَا يَأْتِي:

أَوَّلًا: الْأَمْرُ

بِالْعُودَةِ إِلَى أَدْوَاتِ التَّشْكِيلِ الْأُسْلُوبِيِّ فِي النُّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ، نَرَى بَاقَةَ الْأَسَالِيْبِ مُتَنَوِّعَةً، وَأَزْهَارَهَا مُتَعَدِّدَةً، وَعَلَى رَأْسِ هَذِهِ الْأَدْوَاتِ، الْأَمْرُ، وَالْأَمْرُ لُغَةً نَقِيضُ النَّهْيِ، وَقَدْ وَرَدَ هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ تَزَيَّنَ بِهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [التوبة: 71].

أَمَّا اصْطِلَاحًا فَهُوَ "قَوْلٌ يُنْبِئُ عَنِ اسْتِدْعَاءِ الْفِعْلِ مِنْ جِهَةِ الْغَيْرِ عَلَى جِهَةِ الْاسْتِعْلَاءِ"⁽¹⁾. وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ الْأَمْرَ هُوَ طَلْبُ حُصُولِ الْفِعْلِ عَلَى وَجْهِ الْاسْتِعْلَاءِ وَالْإِلْزَامِ، أَوْ "طَلْبُ تَحْقِيقِ شَيْءٍ مَادِيٍّ أَوْ مَعْنَوِيٍّ"⁽²⁾.

اسْتَعْمَلَ كُتَّابُ الْمَقَامَةِ تَقْنِيَةَ الْأَمْرِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، خَاصَّةً أَنَّ الْمَقَامَةَ كَانَتْ فِي حَاجَةٍ مَاسَّةً إِلَى تِلْكَ التَّقْنِيَةِ خَاصَّةً فِي مَوْضُوعَاتِ الْمَوَاعِظِ، وَالنَّصَائِحِ الَّتِي سَيَّطَرَتْ عَلَى مَوْضُوعَاتِ الْمَقَامَةِ، أَوْ فِي تَعْلِيمِ النَّاشِئَةِ الْأَدَابِ الْمُخْتَلَفَةِ، وَلَمْ يَقِفْ هَوْلَاءُ عِنْدَ هَذَا الْمَعْنَى فَقَطُّ، بَلْ تَجَاوَزُوا الْمَعْنَى الْحَقِيقِيَّ لِلْأَمْرِ إِلَى مَعَانٍ أُخْرَى فَرَضَهَا عَلَيْهِمْ سِيَاقُ الْكَلَامِ، وَفَحْوَى الْحَدِيثِ، فَتَقَلَّبُوا بَيْنَ النَّصْحِ، وَالتَّمْنِيِّ، وَبَيْنَ الْإِلْتِمَاسِ، وَالتَّهَكُّمِ، وَالدُّعَاءِ، وَبَيْنَ الْوَعْدِ وَالتَّهْدِيدِ، وَبَيْنَ التَّحْذِيرِ وَالتَّوَعِيدِ، مَنْوَعِينَ فِي تَشْكِيلَاتِهِمُ الْأُسْلُوبِيَّةِ كُلَّمَا دَعَتْ الْحَاجَةُ إِلَى ذَلِكَ.

(1) العلوي، الطراز، (ص530).

(2) الميداني، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، (ج1/228).

وَمِنْ شَوَاهِدِ النَّصْحِ، وَالْإِرْشَادِ بِالْأَمْرِ الَّتِي اسْتَوْعَبَتْ مَسَاحَةً شَاسِعَةً فِي النَّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ تِلْكَ الَّتِي ضَمَّنَهَا ابْنُ الْأَوْسِيِّ مَقَامَتَهُ (أَنْبَاءُ الْأَنْبَاءِ لِأَطْيَبِ الْأَنْبَاءِ)، وَهِيَ وَصِيَّةٌ لِأَبْنَائِهِ تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ دَسْتُورًا ثَابِتًا فِي مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، فَقَدْ تَتَابَعَتْ فِي ثَنَائِهَا أَسَالِيبَ الْأَمْرِ، وَالنَّهْيِ، وَالنِّدَاءِ بِطَرِيقَةٍ وَاضِحَةٍ، وَكَثِيرَةٍ، وَعَلَّ الْمَبْرَّرَ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْمَقَامَةَ فِي مَجْمَعِهَا كَانَتْ أَشْبَهَ بِمَوْسُوعَةٍ مِنَ النَّصَائِحِ، وَالْمَوَاعِظِ لِلأَبْنَاءِ فِي جَوَانِبِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَالَّذِي يَمِيزُ هَذِهِ الْمَقَامَةَ تَقَارِبَ هَذِهِ الْأَسَالِيبِ الثَّلَاثَةِ، وَوَرُودِهَا مَجْتَمِعَةً فِي أَنْ وَاحِدٍ، فِي كُلِّ صَفْحَةٍ مِنْ صَفْحَاتِ الْمَقَامَةِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَالتَّعْلِيلِ لِلأَمْرِ، وَالنَّوَاهِي مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، يَقُولُ: "يَا بَنِيَّ، جُودُوا بِالْمَالِ فِي مَوْضِعِ الْحَقِّ، وَابْخُلُوا بِالْأَسْرَارِ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ؛ فَإِنَّ أَحْمَدَ جُودِ الْمَرْءِ الْإِنْفَاقُ فِي وَجْهِ الْبِرِّ، وَأَكْرَمَ بُخْلِ الْمَرْءِ الضَّنُّ بِمَكْتُومِ السِّرِّ"⁽¹⁾.

لَقَدْ اسْتَجْمَعَ ابْنُ الْأَوْسِيِّ كُلَّ خَبْرَاتِهِ فِي التَّشْكِيلِ، فَاسْتَخْدَمَ تَقْنِيَةَ الْأَمْرِ فِي (جُودُوا بِالْمَالِ فِي مَوْضِعِ الْحَقِّ)، وَعَلَّ لِلأَمْرِ مَبَاشِرَةً فِي قَوْلِهِ: (فَإِنَّ أَحْمَدَ جُودِ الْمَرْءِ، الْإِنْفَاقُ فِي وَجْهِ الْبِرِّ)، ثُمَّ تَابَعَ بِالْأَمْرِ (ابْخُلُوا بِالْأَسْرَارِ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ) مَعْلَلًا لِلأَمْرِ بِقَوْلِهِ: (أَكْرَمَ بُخْلِ الْمَرْءِ الضَّنُّ بِمَكْتُومِ السِّرِّ). مَعَ مَا حَمَلَهُ فِعْلًا الْأَمْرَ (جُودُوا، ابْخُلُوا) مِنْ نَصْحٍ، وَإِرْشَادٍ وَشَحَا بِإِبْرَازِ اللَّمَعْنَى عَنِ طَرِيقِ التَّضَادِ مِنْ نَاحِيَةٍ. وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى اسْتَبْلَهَامَ ثُرَاثِ الْأَدَبِ الْجَاهِلِيِّ مُسْتَعِينًا بِقَوْلِ قَيْسِ بْنِ الْخَطِيمِ:

أَجُودُ بِمَكْنُونِ التَّلَادِ وَإِنِّي بِسِرِّكَ عَمَّنْ يَسْأَلُنْ لَضَنِينُ
إِذَا جَاوَزَ الْاِثْنَيْنِ سِرًّا فَإِنَّهُ يُبْتُ وَتَكْثِيرُ الْحَدِيثِ فَمِينُ⁽²⁾

وَنَوَّعَ ابْنُ الْأَوْسِيِّ فِي اسْتِخْدَامِ تَقْنِيَةِ الْأَمْرِ، فَلَمْ يَكْتَفِ بِصِيغَةِ فِعْلِ الْأَمْرِ، بَلْ اسْتَخْدَمَ اسْمَ فِعْلِ الْأَمْرِ، وَالْمَصْدَرَ النَّائِبَ عَنْهُ، يَقُولُ: "عَلَيْكُمْ بِالْقَنَاعَةِ، وَلَا يَكْتَسِفَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ لِلنِّيمِ قَنَاعَةً... الْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنَ الْوَقِيعَةِ فِي الْأَمْرَاءِ، وَالتَّشْنِيعِ عَلَيْهِمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشَّنِيعَةِ الشَّنِيعَاءِ"⁽³⁾.

لَمَّا تَوَسَّعَ ابْنُ الْأَوْسِيِّ فِي اسْتِخْدَامِ تَقْنِيَةِ الْأَمْرِ فَتَحَّ الْمَجَالَ أَمَامَهُ لِاسْتِخْدَامِ صِيغَةِ الْمُخْتَلَفَةِ، فَاسْتَفْتَحَ بِالْأَمْرِ (جُودُوا)، وَتَتَّى بِاسْمِ فِعْلِ الْأَمْرِ (عَلَيْكُمْ) بِمَعْنَى: (الزُّمُوعَا)، وَخَتَمَ

(1) ابْنُ الْأَوْسِيِّ، مَقَامَاتُ ابْنِ الْأَوْسِيِّ، (أَنْبَاءُ الْأَنْبَاءِ لِأَطْيَبِ الْأَنْبَاءِ)، (ص 3).

(2) ابْنُ الْخَطِيمِ، دِيُونُ قَيْسِ بْنِ الْخَطِيمِ، (ص 3).

(3) ابْنُ الْأَوْسِيِّ، مَقَامَاتُ ابْنِ الْأَوْسِيِّ، (أَنْبَاءُ الْأَنْبَاءِ لِأَطْيَبِ الْأَنْبَاءِ)، (ص 10).

بالمصدر النَّائِبِ عن فعلِ الأمرِ: (الْحَذَرُ) مَعَ مَا تَحْمَلُهُ الصِّيغَةُ الثَّلَاثَةُ من مَعَانِي النَّصْحِ والإِرشَادِ، وما تَضَمَّنَهُ التَّكْرَارُ (الْحَذَرُ الْحَذَرُ) مِنْ تَأَكُّدٍ لِبَاقَةِ النَّصَائِحِ.

وَلَمْ يُفَارِقِ ابْنُ الْأَلُوسِيِّ مَقَامَتَهُ حَتَّى جَمَعَ صِيغَةَ الْأَمْرِ كَافَّةً فِي وَثِيقَةٍ أُخْرَى، يَقُولُ مُوجِّهاً الْوَصَايَا لِأَبْنَائِهِ: "يَا بَنِيَّ، عَلَى اسْتِيفَاءِ الْوَصَايَا لَا أَقْوَى، وَجَمَاعُ ذَلِكَ فِيمَا أَرَى التَّقْوَى، فَالتَّقْوَى التَّقْوَى، وَلِيَأْتِ أَحَدُكُمْ مِنْهَا بِمَا يَقْوَى، وَتَقُوا بِاللَّهِ تَعَالَى أَنْتُمْ وَثِقُوا، وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَعْتَمِدُوا فِي أَمْرٍ عَلَى مَخْلُوقٍ"⁽¹⁾.

لَقَدْ شَكَّلَ ابْنُ الْأَلُوسِيِّ لَوْحَةً مِنْ لَوْحَاتِ التَّشْكِيلِ الْأَسْلُوبِيِّ الْبَارِعَةِ الَّتِي حَمَلَتْ عَنَاوِينَ الْأَمْرِ كَافَّةً، فَاسْتَفْتَحَ بِالمصدرِ النَّائِبِ عن فعلِ الأمرِ (التَّقْوَى، التَّقْوَى) بِدَلَالَةٍ: اتَّقُوا التَّقْوَى، ثُمَّ تَابَعَ بِالْمُضَارِعِ الْمُقْتَرِنِ بِلامِ الْأَمْرِ: (وَلِيَأْتِ)، وَوَصَلَ مَسِيرَتَهُ مَعَ تَقْنِيَةِ الْأَمْرِ بِفِعْلِ الْأَمْرِ الْمَبَاشِرِ: (تَقُوا)، وَخَتَمَ بِاسْمِ فِعْلِ الْأَمْرِ: (إِيَّاكُمْ) بِمَعْنَى: احذروا، فَاكْتَمَلَتِ اللَّوْحَةُ الرَّبَاعِيَّةُ الْأَبْعَادِ مُحَاطَةً بِمَسَاحَاتٍ شَاسِعَةٍ مِنَ الْحَثِّ وَالنُّصْحِ.

وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْمَقَامَةُ أَنْمُودَجًا مَتَفَرِّدًا لِلتَّشْكِيلِ الْأَسْلُوبِيِّ، وَذَلِكَ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ عِلَاقَاتٍ مُتَبَادِلَةٍ بَيْنَ الْأَسَالِيبِ، أَوْ وَشَائِحٍ مُتْرَابِطَةٍ، وَتَحَوُّلَاتٍ خِطَابِيَّةٍ تَتَمُّ عَنْ نِكَائٍ حَادٍ، وَقَرِيبَةٍ وَقَادَةٍ امْتَلَكَهَا ابْنُ الْأَلُوسِيِّ. كَمَا تَصَلِّحُ أَنْ تَكُونَ دَسْتُورًا فِي مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، يَرِدُ مِنْهَا لُهُ الْمُتَعَطِّشُونَ إِلَى الْفُضِيلَةِ وَالْأَدَبِ، الْبَاحِثُونَ عَنْ عَظِيمِ الْخُلُقِ.

وَيَقْتَفِي نَاصِيفَ الْيَازِجِيِّ آثَارَ ابْنِ الْأَلُوسِيِّ بِرِسْمِ مَجْمُوعَةٍ مِنْ دَوَالِ (الْأَمْرِ) الْمُتَوَاصِلَةِ الَّتِي تَحْمَلُ فِي ثَنَائِيهَا النَّصْحَ وَالْإِرشَادَ، يَقُولُ: "يَا غُلَامَ، عَامِلِ النَّاسَ مَا اسْتَطَعْتَ بِالْإِحْسَانِ، وَكُنْ بَيْنَهُمْ عَفِيفَ الطَّرْفِ، وَالْيَدِ، وَاللِّسَانِ، وَقَابِلِ النِّعْمَةِ بِالشُّكْرِ، وَأَحْيِ الْجَمِيلَ بِالذِّكْرِ، وَحَافِظُ عَلَى الصِّدْقِ، وَلَوْ فِي الْحَرِيقِ، وَإِيَّاكَ وَالْغَيْبَةِ، فَهِيَ بِسَسِ الرَّبِيبَةِ، وَانظُرْ إِلَى مَعَايِكَ قَبْلَ مَعَايِبِ صَاحِبِكَ، وَاجْتَنِبِ الْمُرَاحَ؛ فَإِنَّهُ يَخْفِضُ الْجَنَاحَ"⁽²⁾.

لَقَدْ صَوَّرَ نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ مَشْهَدًا حَيًّا مِنْ مَشَاهِدِ الْأَخْلَاقِ عَنْ طَرِيقِ تَقْنِيَةِ الْأَمْرِ، وَلَمْ يَقِفْ عِنْدَ دَالِ الْأَمْرِ، بَلْ عَلَّلَ لِكُلِّ أَمْرٍ بِتَعْلِيلٍ مُنَاسِبَةٍ، مَعَ مَا حَمَلَتْهُ الْمَشَاهِدُ مِنْ أَخْلَاقِ الْبَيْئَةِ الْمُسْلِمَةِ الَّتِي اقْتَبَسَ مُفْرَدَاتِهَا مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَالْحَدِيثِ الشَّرِيفِ فِي كُلِّ تَقْنِيَةٍ مِنْ تَقْنِيَاتِ الْأَمْرِ فِي أُسْطَرِ النَّصِّ.

(1) ابن الألويسي، مقامات ابن الألويسي، (أنباء الأبناء لأطيب الأبناء)، (ص 24).

(2) اليازجي، مجمع البحرين، (المقامة الأدبية)، (ص 250، ص 251).

وَمِنْ شَوَاهِدِ تَقْنِيَةِ الْأَمْرِ بِاسْتِخْدَامِ الْمَصْدَرِ النَّائِبِ عَنْهُ، قَوْلُ نَاصِيفِ الْيَارْجِيِّ فِي (المَقَامَةِ الْبَغْدَادِيَّةِ): "فَعَادَ إِلَى الْمَقَامِ، وَقَالَ صَبْرًا عَلَى مَجَامِرِ الْكِرَامِ"⁽¹⁾. وَالتَّقْدِيرُ فِي النَّصِّ: اصْبِرْ صَبْرًا عَلَى مَجَامِرِ الْكِرَامِ، وَالْأَمْرُ هُنَا بِمَعْنَى النَّصْحِ وَالْإِرْشَادِ.

ثُمَّ يَجْمَعُ الْيَارْجِيُّ بَيْنَ صِيغَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ مِنْ صِيغِ الْأَمْرِ، هُمَا اسْمُ فِعْلِ الْأَمْرِ: (دُونَكَ) بِمَعْنَى: خُذْ، وَفِعْلُ الْأَمْرِ: (انزِل) فِي قَوْلِهِ: "وَقَالُوا لِلْفَتَى دُونَكَ الْجَمَالَ... قَالَ انزِلْ بِنَا هُنَا"⁽²⁾. وَسِيَاقُ الْكَلَامِ فِي الْأَمْرِ الْمَوْجِبِ إِلَى الْفَتَى يَحْمِلُ مَعْنَى النَّصْحِ وَالْإِرْشَادِ.

وَفِي رِحَابِ الْجَمَالِ يَبْدَعُ نَاصِيفُ الْيَارْجِيُّ فِي الْمَزَاجَةِ بَيْنَ تَقْنِيَتِي الْأَمْرِ وَالتَّهْيِ فِي أَنْ وَاحِدٍ، حَيْثُ اسْتَهْلَ بِالْأَمْرِ، وَتَنَّى بِالتَّهْيِ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ، فَأَكْسَبَ مَعَانِيَهُ وَضُوحًا إِلَى وَضُوحٍ، وَبَيَانًا إِلَى بَيَانٍ، يَقُولُ: "تَابَرُوا أَيُّهَا الْوَلَدَانُ الْمُخَلَّدُونَ، وَلَا تَرْضُوا مِنَ الصَّنَاعَةِ بِالذُّونِ، وَإِذَا قَرَأْتُمْ فَافْتَحُوا الطَّرْفَ، وَأَظْهَرُوا الْحَرْفَ، وَالزَمُوا الدَّرْسَ، وَلَا تَكْثُرُوا الْهَمْسَ"⁽³⁾. فَقَدْ بَدَأَ بِالْأَمْرِ (تَابَرُوا)، وَتَابَعَهُ بِالتَّهْيِ (لَا تَرْضُوا)، ثُمَّ عَادَ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الْأَمْرِ (افْتَحُوا)، ثُمَّ التَّهْيِ (لَا تَكْثُرُوا) حَيْثُ حَمَلَتْ أَسَالِيبُ الْأَمْرِ، وَالتَّهْيِ كَافَّةً مَعَانِي النَّصْحِ وَالْإِرْشَادِ.

لَجَأَ الْأَدْبَاءُ أحيانًا إِلَى تَقْنِيَةِ الْأَمْرِ مُسْتَلْهِمِينَ الْأَمَاكِنَ الْمُقَدَّسَةَ لِلْحَثِّ وَالتَّوْبِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ شِهَابِ الدِّينِ الْخَفَاجِيِّ: "تَمَسَّكَ بِأَذْيَالِ الْهَمِّ تَمَسُّكَ الزُّوَارِ بِأَسْتَارِ الْبَيْتِ"⁽⁴⁾. وَكَأَنِّي بِالْخَفَاجِيِّ يَرْبِطُ عُلُوَّ الْهَمِّ بِالطُّوْفِ حَوْلَ الْبَيْتِ، وَالتَّلَقُّ بِأَسْتَارِهِ.

وَقَدْ تَحْمَلُ تَقْنِيَةُ الْأَمْرِ مَعْنَى الْإِلْتِمَاسِ إِذَا صَدَرَتْ عَنِ الْأَنْدَادِ أَوْ النُّظَرَاءِ الْمُتَسَاوِينَ قَدْرًا وَمَنْزَلَةً، وَهَذَا مَا حَمَلَهُ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ فِكْرِيِّ فِي مَقَامَتِهِ (فِي حَسَنِ الْوَفَاءِ): "وَأَنَا مَكَاشِفُكَ بِخَبِيئَةٍ فِي الضَّمِيرِ، وَمَخْبِرُكَ بِأَمْرِ خَطِيرٍ... فَافْتَحْ لِمَا أَقُولُ أَقْفَالَ لَبِّكَ، وَاحْفَظْهُ كَسَوَادِ عَيْنِكَ، وَسُوَيْدَاءِ قَلْبِكَ"⁽⁵⁾. فَقَدْ حَمَلَ فِعْلًا الْأَمْرِ (افْتَحْ، احْفَظْ) الْإِلْتِمَاسَ؛ لِأَنَّهُمَا صَدَرَا مِنْ صَدِيقٍ لِصَدِيقِهِ.

وَأحيانًا تَحْمَلُ تَقْنِيَةُ الْأَمْرِ، الْإِهَانَةَ وَالتَّحْقِيرَ، وَيُسَمَّى التَّهْكُمَ، وَالتَّسْخِيرَةَ، وَالْإِزْدِرَاءَ، وَهُوَ "طَلَبٌ يَحْمِلُ بَيْنَ ثَنَائِيهِ التَّحْقِيرَ، وَالْإِهَانَةَ، وَالْإِذْلَالَ"⁽⁶⁾. وَيَكُونُ الْأَمْرُ لِلْإِهَانَةِ، وَذَلِكَ بِتَوْجِيهِ

(1) الْيَارْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ، (المَقَامَةِ الْبَغْدَادِيَّةِ)، (ص 49، ص 50).

(2) الْيَارْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ، (المَقَامَةِ الْبِيَامِيَّةِ)، (ص 366).

(3) الْيَارْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ، (المَقَامَةِ اللَّادِقِيَّةِ)، (ص 346).

(4) الْخَفَاجِيُّ، رِيحَانَةُ الْأَلْبَابِ وَزَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، (المَقَامَةِ الرُّومِيَّةِ)، (ص 374).

(5) فِكْرِي، الْآثَارُ الْفِكْرِيَّةُ (مَقَامَةُ فِي حَسَنِ الْوَفَاءِ)، (ص 303).

(6) أَمِين، الْبَلَاغَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي ثَوْبِهَا الْجَدِيدِ - علم المعاني، (ص 107).

الأمر إلى المخاطب بقصد استصغاره، والإقلال من شأنه، والازدراء به، وتبكيته⁽¹⁾. ومن شواهد قول عبد الله فكري: "انظروا لهذا الجاهل الغمر، والأحمق الغر"⁽²⁾. حيث حمل الأمر معنى التهكم، وسياق التعبير، وما حمل من كلمات (الجاهل، الغمر، الأحمق، والغر) ينقل السامع إلى مشاهد التحقير، والسخرية، والازدراء.

ولا تبتعد تقنية الأمر عن معنى التمني، وذلك إذا كان الأمر صادراً من الأدنى رتبة إلى الأعلى رتبة، ومن شواهد ذلك قول ناصيف اليازجي: "يا مولاي، اشكر نعمه الله لئلا يغيرها عنك، وكن خائفاً منه كما تخاف الناس منك، وكن في اللين والشدة بين بين؛ فإن الناس لا يؤخذون بالمحض بين الطرفين"⁽³⁾. فالخطاب موجّه للسيد ممن هو أدنى منه رتبة، والقرينة (يا مولاي)؛ لذا حملت أفعال الأمر (اشكر، وكن) معنى التمني.

ثانياً: النهي

ومن أدوات التشكيل الأسلوبية في عوالم الإنشاء الطلبية، النهي الذي يقع بعد الأمر في الطلب، ويتفق معه من جهة الاستعلاء، وارتباطه بالمخاطب، والنهي لغة نقيض الأمر، ومن شواهد ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:90].

أما اصطلاحاً فهو "عبارة عن قول يُنبئ عن المنع من الفعل على جهة الاستعلاء"⁽⁴⁾. وعنى ذلك: طلب الكف عن الفعل، أو الامتناع عنه على وجه الاستعلاء والإلزام. ويضيف بعض البلاغيين إلى التعريف السابق شرطاً، "ولا يتحقق ذلك إلا إذا كان النهي صادراً من الأعلى إلى الأدنى"⁽⁵⁾.

وتتنوع تقنية النهي في النصوص المقامية معربة عن حاجة الأديب إلى مساهمة المتلقي الذي يتحول من مجرد متلقي إلى طرف مشارك في عملية الإبداع في تلك النصوص، التي تتزين بمشاهد من أساليب النهي التي تسهم في التشكيل الأسلوبية، وهذا يؤدي بدوره إلى اكتمال

(1) عتيق، علم المعاني، (ص88).

(2) فكري، الآثار الفكرية (المقامة الفكرية)، (ص283). الغمر: الرجل الذي لم يجرب الأمور، الجوهري، الصحاح، (ج773/2)، الغر: الرجل الغر، غير المجرب، الجوهري، الصحاح، (ج768/2).

(3) اليازجي، مجمع البحرين (المقامة العاصمية)، (ص239).

(4) العلوي، الطراز، (ص531).

(5) طبل، علم المعاني في الموروث البلاغي تأصيل وتقييم، (ص70).

النَّسِيجِ الْجَمَالِيِّ فِي الْمَقَامَاتِ؛ وَمِنْ هُنَا فَقَدْ كَتَّفَ الْأَدْبَاءُ مِنْ اخْتِيَارِ أَسْلُوبِ النَّهْيِ فِي نُصُوصِهِمُ الْمَقَامِيَّةِ، وَكَانَ ذَلِكَ مَعْيَارًا فَارِقًا فِي التَّشْكِيلِ، حَيْثُ أَضْحَتْ سِمَةً أُسْلُوبِيَّةً بَارِزَةً فِي تِلْكَ النُّصُوصِ.

وَيَحْمِلُ الْبَعْدُ الدَّلَالِيَّ لِهَذَا التَّشْكِيلِ الْأُسْلُوبِيِّ مَعَانِيَّ مُتَّوَعَةً ضَمَّنَهَا الْأَدْبَاءُ فِي مَقَامَاتِهِمْ، فَتَقَلَّ هَوْلًا بَيْنَ النَّصْحِ وَالْإِرْشَادِ، وَالْإِلْتِمَاسِ وَالتَّمْنِي، وَأَنْطَلَقُوا تَجَاهَ التَّوْبِيخِ وَالتَّحْقِيرِ، وَانْدَفَعُوا صَوْبَ الْوَعْدِ وَالتَّهْدِيدِ، مَرُورًا بِالتَّعْجَبِ، وَالْوَعِيدِ، فَشَكَّلُوا لُوحَاتٍ أُسْلُوبِيَّةً تَلَوَّنَتْ بِمَعَانٍ عَدِيدَةٍ، أَكْسَبَتْ الْمَقَامَاتِ نَوْعًا مِنَ الْأَنْفَاقِ، وَالْجَمَالِ صُحْبَةً الْأَسَالِيبِ الْأُخْرَى.

استثمر الأديباءُ تقنيةَ النهي بعيداً عن المعنى الحقيقي، فخرج عن كونه تقنيةً تعبيريةً عن معناه الحقيقي إلى معنى النصح والإرشاد، ومن شواهد ذلك قول ابن الألويسي: "لَا تَرْفَعُوا بِالرَّدِّ قَدَرَ السَّفِيهِ إِذَا شَافَهُمْ بَعْيًا بِمَا فِيهِ، فَذَلِكَ كَلْبٌ فَالْقَمُوهِ حَجَرَ السُّكُوتِ، وَدَعُوهُ يَنْبِخُ حَتَّى يَمُوتَ"⁽¹⁾. حَيْثُ امْتَلَكَ ابْنُ الْأَلُوسِيِّ هُنَا زِمَامَ الْإِبْدَاعِ بِمَا حَمَلَهُ النَّهْيُ مِنْ قِيَمٍ خُلُقِيَّةٍ اسْتَلْهَمَهَا مِنَ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ، وَقِيَمِهِ الْخَالِدَةِ، مُفْتَسِّسًا الْفَاطَةَ مِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهِ فَلَا تُجِبْهُ فَاخَيْرُ مِنْ إِبْجَابِيهِ السُّكُوتُ
فَإِنْ كَلَّمْتَهُ فَرَجَّتْ عَنْهُ وَإِنْ خَلَيْتَهُ كَمَدًا يَمُوتُ⁽²⁾

وَيَبْدُو تَبْرِيرُ ابْنِ الْأَلُوسِيِّ مَنْطِقِيًّا، فَلَوْ أَطْلَقَ الْإِنْسَانُ الْعَنَانَ لِنَفْسِهِ؛ لِيَلْقَمَ مِنْ تَجَاوَزَ حُدُودَهُ حَجْرًا لِيُحَقِّقَ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

لَوْ كَلَّ كَلْبٌ عَوَى أَلْقَمْتَهُ حَجْرًا لِأَصْبَحَ الصَّخْرُ مِثْقَالًا بِدِينَارٍ⁽³⁾

وَلَمْ يَنْضُبْ مَعِينُ إِبْدَاعَاتِ ابْنِ الْأَلُوسِيِّ، وَلَمْ يَجِفَّ نَهْرُ رَوَائِعِهِ فِي اسْتِخْدَامِ تَقْنِيَةِ النَّهْيِ، فَقَدْ وَاصَلَ نَثْرَ دُرَرِ إِبْدَاعِهِ فِي لَأَلِيٍّ مَقَامَةٍ (أَنْبَاءُ الْأَنْبَاءِ لِأَطْيَبِ الْأَنْبَاءِ)، حَيْثُ رَسَمَ لُوحَةً جَدِيدَةً، بِقَوْلٍ: "يَا بَنِيَّ، لَكِنَّ الْوَقَارَ حَبِيبُكُمْ، فَلَا تُجِيبُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ، وَلَا تَسْأَلُوا مَنْ لَا

(1) ابن الألويسي، مقامات ابن الألويسي، (أَنْبَاءُ الْأَنْبَاءِ لِأَطْيَبِ الْأَنْبَاءِ)، (ص5، ص6).

(2) الشافعي، ديوان الإمام الشافعي، (ص41).

(3) الصفاقسي، ديوان علي الغراب الصفاقسي، (ص65)، وقال السخاوي: إِنَّ الْبَيْتَ لِلْفَارِسْكَوْرِيِّ (يُوسُفُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ) فِي الضُّوءِ اللَّامِعِ لِأَهْلِ الْقُرْنِ التَّاسِعِ، (ج10/325). فِي آيَاتٍ، مِنْهَا:

كَمْ مِنْ لَيْمٍ مَشَى بِالزُّورِ يَنْقُلُهُ لَا يَتَّقِي اللَّهَ وَلَا يَخْشَى مِنَ الْعَارِ
يُودُّ لَوْ أَنَّهُ لِلْمَرْءِ يَهْلِكُهُ وَلَمْ يَنْلِهِ سِوَى إِثْمٍ وَإِزَارِ

يُحِبُّ أَنْ يَجِيبَكُمْ⁽¹⁾. فَقَدْ حَمَلَ أَسْلُوبَا النَّهْيِ (فَلَا تَجِيبُوا، وَلَا تَسْأَلُوا) فِي طَيَّابَتِهِمَا مَعَانِي النَّصْحِ وَالْإِرْشَادِ، وَالْقَرِينَةُ هُنَا قَوْلُهُ: (بَا بِنِيَّ).

وَلَمْ يَبْتَعِدْ عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِيَّ عَنِ أَدْبَاءِ عَصْرِهِ، بَلْ رَاحَ يَوْضَفُ تَقْنِيَةَ النَّهْيِ فِي إِرْسَاءِ قَوَاعِدِ الْأَخْلَاقِ، مُعْتَمِدًا عَلَى مَعْنَى النَّصْحِ، وَالْإِرْشَادِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُهُ: "فَلَا تَجْزَعُ مِنْ تَقْلُبِ الدُّهُورِ، وَعَجَائِبِ الْأُمُورِ"⁽²⁾. مُسْتَلْهِمًا قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 53].

وَلَمْ يَتَوَقَّفِ النَّهْيُ عِنْدَ ذَلِكَ، بَلْ كَرَسَ الْأَدْبَاءُ هَذِهِ التَّقْنِيَةَ فِي الدُّعَاءِ، فَقَدْ كَانَ دِينَهُمُ التَّضَرُّعُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي مَوَاقِفَ كَثِيرَةٍ؛ بِهَدَفٍ مَنَحَ نِصْوَصَهُمْ مَزِيدًا مِنَ الْقُدَّاسَةِ، فَرَفَعُوا أَكْفَ الضَّرَاعَةِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ مَشَاهِدِ اسْتِخْدَامِ تَقْنِيَةِ الدُّعَاءِ بِالنَّهْيِ قَوْلُ الْيَازْجِيِّ: "فَضَاقَ الرَّجُلُ ذَرْعًا فِي الْجَوَابِ، وَقَالَ اللَّهُمَّ اهْدِنَا صِرَاطَ الْحَقِّ، وَلَا تَنْتِنِنَا عَنْ سَبِيلِ الصَّوَابِ"⁽³⁾.

ثَالِثًا: الاسْتِفْهَامُ

يُعَدُّ أَسْلُوبُ الاسْتِفْهَامِ مِنْ مَقَوِّمَاتِ التَّرْكِيبِ اللُّغَوِيِّ، وَأُسُسِ بِنْيَانِهِ شَأْنُهُ شَأْنُ الْأَسَالِيبِ الْأُخْرَى مِنْ أَمْرِ، وَنَهْيٍ، وَتَمَنِ، وَنِدَاءٍ، حَيْثُ انْصَهَرَتِ الْأَسَالِيبُ جَمِيعًا فِي بَوْتَقَةٍ وَاحِدَةٍ فَشَكَلَتْ بُعْدًا جَمَالِيًّا بَدِيعًا، وَمَظْهَرًا فَنِيًّا رَائِعًا.

وَالاسْتِفْهَامُ مَطْلَبٌ أَسَاسٌ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ، وَذَلِكَ لِطَلْبِ حُصُولِ صُورَةِ الشَّيْءِ فِي الدَّهْنِ، وَيَلْتَقِي الْعُلَمَاءُ فِي تَعْرِيفِهِ؛ فَهُوَ عِنْدَهُمْ: "طَلَبُ الْمَرَادِ مِنَ الْغَيْرِ عَلَى جِهَةِ الاسْتِعْلَامِ"⁽⁴⁾. وَمِنْ هُنَا يَكُونُ الاسْتِفْهَامُ بِمَعْنَى طَلْبِ الْعِلْمِ بِشَيْءٍ لَمْ يَكُنْ مَعْلُومًا مِنْ قَبْلِ بَادَاةٍ مَخْصُوصَةٍ.

وَاسْتَعْمَلَ الْأَدْبَاءُ الاسْتِفْهَامَ فِي نُصُوصِهِمُ الْمَقَامِيَّةِ بُوْفَرَةٍ؛ لِشِغْلِهِمْ بِذَلِكَ سِمَةً أَسْلُوبِيَّةً أَرَادُوا مِنْ خِلَالِهَا رَسْمَ مَا يَدُورُ فِي أَعْمَاقِهِمْ، وَمَا يَخْتَلِجُ فِي نَفْسِهِمْ مِنْ مَعَانٍ. خَاصَّةً أَنَّ تِلْكَ التَّقْنِيَةَ "تُحَوِّلُ الْخَطَابَ مِنَ الْهُدُوءِ إِلَى التَّوَهُجِّ، وَبِالتَّالِيِ تَعْطِيهِ دَلَالَاتٍ جَدِيدَةً مِمَّا يَجْعَلُهَا كَعَامِلٍ مُنْشِطٍ لِلشَّاعِرِ، وَالْمُنْتَلَقِيِّ"⁽⁵⁾.

(1) ابن الألويسي، مقامات ابن الألويسي، (أنباء الأبناء لأطيب الأبناء)، (ص12).

(2) فكري، الآثار الفكرية، (مقامة في حسن الوفاء)، (ص308).

(3) اليازجي، مجمع البحرين (المقامة الخزرجية)، (ص38).

(4) العلوي، الطراز، (ص532).

(5) يُنظَر: عباس، حروف المعاني بين الأصالة والتجديد، (ص90).

ولم يكن الهدف الأول للاستفهام هو طلب الجواب، فقد حمل الاستفهام معاني عديدة سافرت بعيداً عن انتظار الجواب، حيث ترددت المعاني بين التقرير والنفي، وبين الأمر والنهي، وبين التحقير والتهمك، ثم انطلقوا من بين ثنانيا الأسئلة إلى التسوية والتمني، وإلى الإنكار والتعجب، ومن هنا حول الأدباء مسار تقنية الاستفهام إلى مسارات متنوعة أضحت المقامات على إثرها قطعة فنية رائعة البهاء، فائقة الجمال حيث اختفى شكل السؤال التقليدي فحمل أسلوباً جديداً متفرداً، وشكل ظاهرة أسلوبية جديدة، كالتمني، والمقصود بالتمني "توقع أمر محبوب في المستقبل، والكلمة الموضوعية له حقيقة هي (ليت) وحدها، وقد يقع التمني ب (هل) و(لو)، وليس من شرط التمني أن يكون ممكناً، بل يكون في الممكن، وغير الممكن"⁽¹⁾، ومن شواهد التمني بالاستفهام في النصوص المقامية قول عبد الله فكري: "يا أمّاه، قد بلغت الفاقة غايتها، وتجاوزت الشدة نهايتها، ولم يبق عندنا ما يمسك الرّمق، ويطفي وهدة الحرق، فهل ترين أن نبيع هذه الدار كباقي البيوت، ونصرف من ثمنها على القوت؟"⁽²⁾. وقد خرج الاستفهام في المقطوعة السابقة عن معناه الحقيقي إلى معنى التمني لما وجه من الابن لأمه، أو من الأدنى إلى الأعلى، والقرينة قول فكري: (يا أمّاه).

ومن المعاني التي تخرج إليها تقنية الاستفهام، الإنكار، ومن شواهد قول عبد الله فكري: "يا بُني، إذا بعّت مأوانا، فأين يكون مثنوانا؟"⁽³⁾. وقول شهاب الدين الخفاجي: "فحتى متى أنا من سكرة الحيرة لا أستفيق، كأنني مصحف في بيت زنديق"⁽⁴⁾. وكان الخفاجي ينكر على نفسه أن يصل إلى ما وصل إليه، فهو يعاني سكرات الحيرة من ناحية، والإهمال والتهميش من ناحية أخرى. وقد يحمل هذا الشاهد - أيضاً - غرض الاستبطاء.

وتنوّلى المهام الوظيفية لأدوات الاستفهام في التشكيل الأسلوبية، حيث ترسو السفينة في ميناء النهي، ويوظف ابن الألويسي هذه التقنية في قوله: "أتخاف العدا وهن ضباع، وليوث الوعى عدوا أنصارك؟"⁽⁵⁾. والمعنى: لا تخف العدا لأنهم لا يتجاوزون جنب الضباع، وأنت تمتلك الأسود. مُعتمداً على النهي بالاستفهام في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [هود: 73].

(1) العلوي، الطراز، (ص534، ص535).

(2) فكري، الآثار الفكرية، (مقامة في حسن الوفاء)، (ص305).

(3) المرجع السابق، ص305.

(4) الخفاجي، ربحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، (المقامة الرومية)، (ص373).

(5) ابن الألويسي، مقامات ابن الألويسي (الأعوال من الأحوال)، (ص31).

خرجت أداة الاستفهام كثيراً عن دلالتها الحقيقية لتحمل معنى لا الناهية في النصوص المقامية، ومن شواهد ذلك قول ناصيف اليازجي: "وقالوا أحسبها حمقاء، وهي باخس؟، فلا بدّ بيننا من حربٍ داحسٍ⁽¹⁾". والمعنى هنا: لا تحسبها حمقاء، وهو مثلٌ يُضرب لشدة الدهاء.

ومن المعاني التي يخرج إليها الاستفهام شأنه شأن أساليب الإنشاء الأخرى، التّهكّم والسخرية. والمقصود بالتهكّم: إظهار عدم المبالاة بالمستهزأ، أو المتهكّم به، ولو كان عظيماً. ويكون التّهكّم "إمّا لشدة الغضب قد أوعد بلفظ البشارة، أو لشدة الكبر، وتهاونه بالمخاطب، قد فعل ذلك، أو ذكر بفعله عند العقوبة على سبب المعيرة له"⁽²⁾. وهذا الأسلوب يستند إلى الفعاليات النفسية العالية عند المتكلم مفيداً ممّا لدى المخاطب من أوضاع مزرية.

ومن التّهكّم بالاستفهام في النصوص المقامية، قول ناصيف اليازجي: "أما تذكر عيبك، وريبك، وشؤمك، ولؤمك، وفاقتك المدقعة، وأسمالك المرقعة؟"⁽³⁾. وسياق الكلام يحمل في ثناياه كلّ معاني التّهكّم، والتحقير، والسخرية، والازدراء، فكل كلمة بدءاً ب (عيبك)، ومروراً ب (ريبك، شؤمك، ولؤمك)، وانتهاءً ب (فاقتك المدقعة، وأسمالك المرقعة) تنقل المتلقي إلى أجواء التّهكّم والتحقير، ومشاهد السخرية والاستهزاء، وكأنّ المشهد ماثلاً أمامه.

ويقدم أحمد البربر في رائعته (مقامة في المفارقة بين الماء والهواء)، لوحة متكاملة يسيطر عليها التّهكّم والتحقير، عن طريق جملة من أساليب الاستفهام مستخدماً الدال (أي)؛ ليرسم صورة هوان المخاطب، ويقلل من شأنه، ويحط من قدره، يقول: "أي فخر لمن يعزّ مفقوداً، ويهون موجوداً؟!، ومن إذا أطال مكثه، ظهر خبثه، وإذا سكن منته؛ تحرك ننته، ومن نبع من الصخور، ومر مذاقه في البحور، وشرق به شاره، وغرق فيه مجاوره ومصاحبه، وعلت فوقه الجيف، وانحطت عنده اللالي في الصدف"⁽⁴⁾. ثم يتداول مجموعة من التعبيرات التي تضي على المعنى مزيداً من التحقير مستخدماً أسلوب الشرط المزدوج صُحبة الدال (إذا)، ويُلح ذلك في قوله: (إذا أطال مكثه، ظهر خبثه، وإذا سكن منته؛ تحرك ننته). ويواصل أحمد البربر الدوران حول معنى التّهكّم، وكأنّي به يأبى مغادرة حقوله، فقد برع في رسم صورة مشوهة عبر تقنية الاستفهام، حيثُ جمع كمّاً كبيراً من الصور القبيحة حتى يبرّر علّة التّهكّم والسخرية، فاختر الجانب المظلم للماء مستهلاً ذلك بالمقابلة: (يعزّ مفقوداً، ويهون موجوداً)، ثمّ تابع

(1) اليازجي، مجمع البحرين، (المقامة الحليّة)، (ص321).

(2) المصري، تحرير التّحبير، (ص568).

(3) اليازجي، مجمع البحرين، (المقامة الدمياطية)، (ص388).

(4) الطيّان، المفارقات والمناظرات، (مقامة في المفارقة بين الماء والهواء)، (ص30).

بأسلوبٍ شرطٍ حَمَلَ جوابهما مَشْهَدًا تَعَاْفُهُ النَّفُوسُ: (إِذَا أَطَالَ مَكْتَهُ، ظَهَرَ خَبْثُهُ)، و(إِذَا سَكَنَ مَتْنَهُ؛ تَحَرَّكَ نَتْنُهُ)، ثُمَّ طَالَعَ الْمُتَلَقِّي بِحَشْدٍ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي تَسِيْطِرُ عَلَيْهَا مَظَاهِرُ الْأَشْمُوزِازِ عَلَى التَّوَالِي (مَرَّ مَذَاقُهُ فِي الْبَحُورِ)، (شَرِقَ بِهِ شَارِبُهُ)، (غَرِقَ فِيهِ مَجَاوِرُهُ وَمَصَاحِبُهُ)، (عَلَتْ فَوْقَهُ الْجَيْفُ)، و(انْحَطَّتْ عِنْدَهُ اللَّالِي فِي الصَّدْفِ). وَكَأَنِّي بِالْأَدِيْبِ أَبِي أَنْ يَغَادِرَ الْمُقْطُوعَةَ إِلَّا وَقَدْ أَفْسَدَ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْإِنْسَانِ، لَمَّا انْتَقَى مَشَاهِدَ تَسْتَقْبَحِهَا الْعِيُونُ، وَتَمَجُّهَا الْأَذَانُ، وَتَعَاْفَهَا النَّفُوسُ.

وَلَمْ يَبْتَعِدْ بِهَاءِ الدِّينِ الْبِيْطَارِ عَنِ النَّهْكِمِ بِالِاسْتِفْهَامِ، وَكَأَنَّ هَذَا الْمَعْنَى كَانَ لَازِمَةً مِنْ لَوَازِمِ (الْمُفَاخَرَاتِ، وَالْمُنَاطَرَاتِ)؛ وَذَلِكَ لِإِظْهَارِ عِيُوبِ الْآخِرِينَ، وَكَشْفِ مَسَاوِيْهِمْ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ مُعْتَمِدًا عَلَى الدَّالِ (هَلْ) قَوْلُهُ: "وَهَلْ أَنْتَ مِنْنِي فِي الْقَدْرِ، إِلَّا كَقَلَامَةِ الظُّفْرِ"⁽¹⁾. وَالْمَقَارِنَةُ الَّتِي شَمَلَهَا الْقَوْلُ تَحْمَلُ فِي ثَنَائِهَا التَّقْلِيلَ مِنَ الشَّانِ، وَالْحَطُّ مِنَ الْقَدْرِ، وَذَلِكَ لَمَّا جَعَلَهُ مِنْهُ كَقَلَامَةِ الظُّفْرِ، وَمَا فِي التَّعْبِيرِ مِنَ التَّصْغِيرِ، وَالتَّحْقِيرِ مُسْتَلْهِمًا قَوْلَ جَمِيلِ بَثِينَةَ:

لَوْ أَنَّ فِي قَلْبِي، كَقَدْرِ قَلَامَةٍ، فَضْلًا، وَصَلْتِكِ، أَوْ أَتَيْتِكِ رِسَالِي⁽²⁾

وَتَتَوَالَى تَقْنِيَةُ الْاسْتِفْهَامِ بِأَدْوَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ فِي (الْمَقَامَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ)، وَمَعَ تَنَوُّعِ الْأَدْوَاتِ تَنَوُّعُ الْمَعَانِي الَّتِي يَحْمَلُهَا الْاسْتِفْهَامُ، يَقُولُ شَهَابُ الدِّينِ الْخَفَاجِي: "قَلَمًا سَلَّمَ عَلِيَّ وَحَيًّا، وَجَاوَرَتْ مِنْهُ كَرِيمَ الْمَحْيَا، قَالَ أَلَسْتُ ابْنَ نَصْرٍ، شَاعِرَ الْعَصْرِ؟ يَا مَعْشَرَ الْأُدْبَاءِ، الْفُضَلَاءِ الْأَلْبَاءِ، مَتَى أَهْمَلْتُمْ بَيْنَكُمْ الْحَقُوقَ؟ وَحَدِثْ فِيكُمْ هَذَا الْعَقُوقُ، أَنْهَبُ وَتَغْضُؤُونَ؟ وَيُعَارِ عَلِيَّ وَتَرْضُونَ، أَلَسْتُ أَوْلَ مِنْ شَرَعٍ لَكُمْ الْبَدِيْعُ؟ وَأَنْبَعُ لَكُمْ عِيُونَ النَّفْسِيمِ، وَالتَّصْرِيْعِ، وَالتَّرْصِيْعِ"⁽³⁾.

وَاللَّافِتُ فِي الْمَقْطُوعَةِ السَّابِقَةِ أَنَّ الْخَفَاجِي هُنَا جَمَعَ فِي الْفَقْرَةِ السَّابِقَةِ طَائِفَةً مِنْ تَقْنِيَاتِ الْاسْتِفْهَامِ الَّتِي خَرَجَتْ عَنِ الْمَعْنَى الْحَقِيقِيِّ إِلَى مَعَانٍ أُخْرَى أَظْهَرَتْهَا الْقِرَائِنُ مُعْتَمِدًا عَلَى دَالِيْنِ هُمَا: (الْهَمْزَةُ، وَمَتَى)، فَبَدَأَ بِالنَّقْرِيرِ بِالِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ: (أَلَسْتُ ابْنَ نَصْرٍ؟)، وَالْجَوَابُ: بَلَى! ثُمَّ تَنَّى بِالْإِنْكَارِ بِالِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ: (أَنْهَبُ، وَتَغْضُؤُونَ؟)، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى النَّقْرِيرِ وَيَخْتَمُّ بِهِ فِي قَوْلِهِ: (أَلَسْتُ أَوْلَ مِنْ شَرَعٍ لَكُمْ الْبَدِيْعُ؟)، وَالْجَوَابُ كَذَلِكَ: بَلَى!. وَالْمَلَاْحِظُ هُنَا "أَنْ كُلُّ أَدَاةٍ لَهَا وَظِيْفَتُهَا الْإِنْتَاجِيَّةُ، الَّتِي تَخَالَفُ غَيْرَهَا فِي كَثِيْرٍ، أَوْ قَلِيْلٍ"⁽⁴⁾.

(1) الطِّيَّانُ، الْمُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ، (الْمُقَاخَرَةُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ)، (ص 62).

(2) ابْنُ مَعْمَرٍ، دِيْوَانُ جَمِيْلِ بَثِينَةَ، (ص 54).

(3) الْخَفَاجِي، رِيْحَانَةُ الْأَلْبَا وَرَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، (الْمَقَامَةُ الْمَغْرِبِيَّةِ)، (ص 407).

(4) عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، الْبَلَاغَةُ الْعَرَبِيَّةُ قِرَاءَةُ أُخْرَى، (ص 290).

يتحرّك الأدباء في نُصُوصِهِمِ المَقَامِيَّةِ بين مَعَانِي الاستِفْهَامِ المُتَنَوِّعَةِ، ودلالاته المُتَعَدِّدَةِ، فيتوقَّفُ بعضهم عِنْدَ مَعْنَى الإنكارِ والتعجُّبِ مُعْتَمِدًا عَلَى دَوَالٍ مُخْتَلِفَةٍ، أولها الدَّال (كَيْفَ)، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ قَوْلُ شِهَابِ الدِّينِ الخَفَاجِيِّ: "فَأَمَّا لَكَ لَا نَظْمًا بِهَذَا المَقَامِ، وَكَيْفَ يَظْمًا مَنْ كَانَ جَارَ الغَمَامِ؟"⁽¹⁾. فعجَّبَ كُلَّ العَجَبِ أَنْ يَظْمًا مَنْ كَانَ يَسْكُنُ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ. ويعودُ الخَفَاجِيُّ هُنَا إِلَى قَوْلِ أَبِي العَلَاءِ المَعْرِيِّ:

كَالعِيسِ فِي البِيدَاءِ يَقْتُلُهَا الظَّمَا وَالْمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولٌ⁽²⁾

وَمِنْهُ قَوْلُهُ كَذَلِكَ: "مَا حَالُ وَرْدَةٍ فَارَقَتْ نَسَمَاتِ القَبُولِ، فَحَدَاهَا السُّمُومُ، وَقَادَهَا القَبُولُ"⁽³⁾.

ويُلْجَأُ الأُدْبَاءُ أحيانًا إِلَى تَوْظِيْفِ مَعَانِي الاستِفْهَامِ مُعْتَمِدِينَ عَلَى المُحَسَّنَاتِ البِدِيعِيَّةِ مِنْ طَبَاقٍ، وَمُقَابِلِهِ، وَغَيْرِهِمَا؛ لِإِبْضَاحِ فِكْرَتِهِمْ، وَإِبْرَازِ مَعَانِيهِمْ، فَلَا يَبْتَعِدُ المَعْنَى حِينَهَا عَنِ التَّعْجُّبِ، حَيْثُ إِنَّ سِيَاقَ الكَلَامِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْرُجَ عَنِ هَذَا المَعْنَى، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ، قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ فِكْرِيِّ: "كَيْفَ يَتْرُكُ الإنسانُ مَا يَنْفَعُ بِمَا يَضُرُّ، وَيَسْتَرِي بِاخْتِيَارِهِ مَا يُحْزِنُ بِمَا يَسُرُّ؟"⁽⁴⁾. حَيْثُ اعْتَمَدَ هُنَا عَلَى الدَّالِ (كَيْفَ)، وَالطَّبَاقِ (يَنْفَعُ، وَيَضُرُّ)، وَ(يُحْزِنُ، وَيَسُرُّ).

ويُقَدِّمُ عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِيُّ كَذَلِكَ صُورَةً مِنْ صُورِ الإنكارِ بِالاستِفْهَامِ مُعْتَمِدًا عَلَى الدَّالِ (كَيْفَ) مَبْرزًا عَلَةً هَذَا الإنكارِ عَنِ طَرِيقِ الدَّلَائِلِ، يَقُولُ: "فَكَيْفَ يَغْفُلُونَ عَنِ مَآثِرِهِ حَتَّى يُعْرَضُوا عَنِ أَوَامِرِهِ، أَوْ يَتَعَرَّضُوا لِمَعَارِضَتِهِ، وَيَجْسُرُوا عَلَى مَنَاقِضَتِهِ"⁽⁵⁾. وَلَمْ يَكْتَفِ فِكْرِيُّ بِذَلِكَ بَلْ شَرَعَ بِقَدَمِ الدَّلَائِلِ الَّتِي تَصَوِّرُ مِثَالِبَ المَلِكِ، وَالَّتِي تَقِفُ سَدًّا مُنِيعًا فِي وَجْهِ مَنْ قَصَدَ إِنْكَارَ مَآثِرِهِ، وَمَدَحَ فَضَائِلِهِ، يَقُولُ: "كَلَّا بَلْ مِثْلُ هَذَا المَلِكِ العَاقِلِ، وَالحَاكِمِ الحَكِيمِ العَادِلِ، تَقَابِلُ أَوَامِرِهِ بِالقَبُولِ وَالإِقْبَالِ، وَنَوَاهِيهِ بِالطَّاعَةِ وَالامْتِثَالِ"⁽⁶⁾.

وَيَعَاوِدُ مُحَمَّدُ المُبَارَكُ بِالاستِفْهَامِ مُعْتَمِدًا عَلَى المُتَنَاقِضَاتِ صُحْبَةَ الدَّالِ (كَيْفَ)، يَقُولُ: "كَيْفَ جَنَحْتَ لِلظُّلْمِ مَعَ أَنْ مَرْتَعَهُ وَخِيمٌ، وَأَثْبَتَّ فِي كَلَامِكَ نَفْصِي، وَقَدْرِي عِنْدَ"

(1) الخَفَاجِيُّ، رِيحَانَةُ الأَلْبَابِ وَزَهْرَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، (مَقَامَةُ الغَرِيبَةِ)، (ص 387).

(2) المَعْرِيُّ، دِيْوَانُ المَعْرِيِّ، (ص 222). وَالشُّطْرُ الأَوَّلُ فِي رِوَايَةِ أُخْرَى: وَالعِيسُ أَقْتُلُ مَا يَكُونُ لَهَا الصَّدَى.

(3) الخَفَاجِيُّ، رِيحَانَةُ الأَلْبَابِ وَزَهْرَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، (المَقَامَةُ السَّاسَانِيَّةُ)، (ص 390).

(4) فِكْرِيُّ، عَبْدِ اللَّهِ، الأَثَارُ الفِكْرِيَّةُ (المَقَامَةُ الفِكْرِيَّةُ)، (ص 278).

(5) المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 282.

(6) المَرْجِعُ نَفْسَهُ، ص 272.

الله فخيماً؟⁽¹⁾. فهو ينكر إنكاراً تاماً أن يجنح الإنسان للظلم مع أن عاقبته وخيمته، ثم ينكر اتّهامه بالنقص رغم علو قدره عند الله سبحانه وتعالى.

وفي بحار الإنكار التوبيخي غاص عبد الله فكري، حيث قدّم طائفة من تقنيات الاستفهام مُعتمداً على دالين هما (أين، والهمزة)، مستلهماً شواهد من القرآن الكريم، يقول: "أين عزيت أحلامكم، وغربت أفهامكم؟، أما أن أن توافقوا هذا الرأي السديد، والتدبير المفيد؟، أليس فيكم رجلٌ رشيدٌ؟، أما فيكم من يهّمه حفظ ناموسنا، أما فيكم من تحرّكه الحميّة، والعصبية؟"⁽²⁾. وكأني بالأديب يسيطر عليه القلق والغيرة، ويكتنفه الخوف والحيرة؛ علّ النفي يأخذ مجراه في هذا المكان، وهذه الأساليب من الاستفهام الإنكاري التوبيخي بمعنى: النفي، ونفي النفي إثبات والمراد: لا يوجد فيكم رجلٌ عاقلٌ يدعوكم إلى الخير، يهّمه حفظ ناموسنا، أما فيكم رجلٌ رشيدٌ من تحرّكه الحميّة، والعصبية. وقد لفت الأساليب قداسة القرآن الكريم التي تمثلت في قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ [هود: 78]. وما قيل حول هذه الآية يمكن أن يقال هنا، وهو: "أليس منكم رجلٌ يهتدي إلى سبيل الحق، وفعل الجميل، والكف عن السوء، وفي ذلك توبيخٌ عظيمٌ لهم حيث لم يكن منهم رشيدٌ البتة"⁽³⁾. وقيل: استفهام إنكاري توبيخي بمعنى: النفي، ونفي النفي إثبات، والمراد: لا يوجد فيكم رجلٌ عاقلٌ يدعوكم إلى الخير⁽⁴⁾. وإلى جانب التوبيخ يحمل هذا الاستفهام معنى التعجب.

ويدور الأدباء في دائرة التوبيخ، وبلجاً ناصيف اليازجي إلى الدال (الهمزة) لتقديم هذا المعنى، يقول: "فتلقاه الأمير بالوجه العبوس، وقال أف لك يا أشأم من البسوس، أتتهجو العرب الذين منهم أخذ الشعر والخطاب، وعلى كلامهم بني النصريف، والإعراب؟"⁽⁵⁾. فالاستفهام في قول اليازجي: (أتتهجو؟) للتوبيخ؛ لأنهم كانوا قد اتهموه بهجوه العرب، وجرأته عليهم رغم أنهم كما برّر اليازجي: "ضرابُ السيوف، وشرابُ الحثوف، وقرأة الضيوف، وحبابة الألو، وحمأة السجوف"⁽⁶⁾.

(1) الطيّان، المفاحرات والمناظرات (أبهى مقامة في المفاحرة بين الغزبة والإقامة)، (ص171).

(2) فكري، الآثار الفكرية (المقامة الفكرية)، (ص289).

(3) الأندلسي، البحر المحيط، (ج5/247)، البقاعي، نظم الدرر، (ج3/559)، ابن الجوزي، زاد المسير، (ج4/139).

(4) يُنظر، الصابوني، صفوة التفاسير، (ج2/26).

(5) اليازجي، مجمع البحرين (المقامة التعليلية)، (ص88).

(6) المرجع السابق، ص88.

ويخرج الاستفهام كذلك إلى معنى النفي، ويحمل هذا المعنى عندما "تجئ لفظة الاستفهام للنفي، لا لطلب العلم بشيء كان مجهولاً"⁽¹⁾، وتكون الإجابة عن السؤال بالنفي، ومن شواهد هذا النوع قول محمد المبارك مُعْتَمِداً عَلَى الدالين (هل، والهمزة): "وَهَلْ يَحَقُّ لِلْكَثِيفِ أَنْ يَتَعَالَى عَلَى اللَّطِيفِ، أَمْ يَنْبَغِي لِلْوَضِيعِ، أَنْ يَتَعَالَى عَلَى الرَّفِيعِ؟!"⁽²⁾. والإجابة عن السؤالين السابقين بالنفي، وهذا هو المنطق، وشرعة الحياة، وقد وظف المبارك الطباق كذلك أكثر من مرة لإبراز فكرته في (الكثيف، واللطيف)، و(الوضيع، والرفيع)، وقد عاد وأكد ذلك المعنى سريعاً في قوله: "كلاً! إنَّ ذَلِكَ لَمِنْ قَلْبِ الْحَقَائِقِ، فَأَيَّنَ أَنْتَ مِنْ فَهْمِ الْأَسْرَارِ وَالِدَقَائِقِ؟!"⁽³⁾.

ومن شواهد تقنية الاستفهام التي لا تحمل إلا معنى النفي قول محمد المبارك: "وَهَلْ يُزْرِي بِالْخَالِ سَوَادُهُ الْبَارِعُ، أَوْ يُغْرِي بِالْبُرْصِ بِيَاضُهُ النَّاصِعُ؟"⁽⁴⁾. والجواب حتماً (لا)؛ فسواد الخال آية من آيات الجمال التي تترفع بصاحبها عن القبح، وفي المقابل لا يمكن أن يُغري البرص الناظرين ببياضه الناصع.

ومن هذا المعنى قول فكري مُعْتَمِداً عَلَى دال الاستفهام (من): "مَنْ لِي بِهِذَا الْمَرْمَى الْبَعِيدِ؟"⁽⁵⁾. والإجابة لا أحد إلا الله سبحانه وتعالى، وأيد ذلك قوله: "وَيُكَنَّ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَرِيدُ"⁽⁶⁾.

لقد نوع أدباء المقامة في استخدام أدوات الاستفهام، ولعل التتويج يرجع إلى الحالة الشعورية من ناحية، وطبيعة الموقف من ناحية أخرى، فقد يستحيل الاستفهام؛ ليحمل معنى النفي، ومن شواهد ذلك: "أَيُّ نَفْعٍ لَصَدِيقٍ لَا يَصَدُقُ فِيهِ رَجَائِي، وَصَاحِبٍ لَا يَصْحَبُنِي فِي شِدَّتِي، وَرَخَائِي"⁽⁷⁾. والمراد: لا نفع لصديق...، ولا لصاحب.

وبرفقة الدال (هل) يرسم عبد الله فكري النفي بالاستفهام، ثم يُبْرِرُ هَذَا النَّفْيَ فِي قَوْلِهِ: "وَهَلْ يَجِدُ فِي إِدَارَةِ حُكُومَتِهِ مَانِعاً، أَوْ يَرَى مِنْ رَعِيَّتِهِ مُمَانِعاً"⁽⁸⁾. فكيف يصطدم بذلك، وقد علمت الرعية مزيد فضله، وعلو قدره، حسن تدبيره، ويمن مساعيه.

(1) عتيق، علم المعاني، (ص104).

(2) الطيآن، المفاحرات والمناظرات، (غريب الأنبياء في مناظرة الأرض والسماء)، (ص91).

(3) المرجع السابق، ص91.

(4) الطيآن، المفاحرات والمناظرات، (نضرة البهار في محاورة الليل والنهار)، (ص137).

(5) فكري، الآثار الفكرية (المقامة الفكرية)، (ص279).

(6) المرجع السابق، ص279.

(7) فكري، الآثار الفكرية، (مقامة في حسن الوفاء)، (ص306).

(8) فكري، الآثار الفكرية، (المقامة الفكرية)، (ص282).

وعلى نفس الدال (هل) يخطُ ناصيف اليازجِي أسلوب استنفهامٍ جديدٍ يحملُ معنى النفي في قوله: "فبكى الشيخ حتى اخضل عارضاه، وقال: هل من يبيع روحه برضاه؟"⁽¹⁾. والجواب حتمًا لا؛ إذ يستحيل أن يلقي الإنسان روحه في مهاوي الردى عن طيب خاطر.

ومن المعاني التي يحملها الاستنفهام، الاستبعاد، ومن شواهد قول محمد المبارك مستخدمًا دالين هما (أنى، ومتى): "وأنى يجزع ذو قلبٍ ثابتٍ، وفي الله عوضٌ من كلِّ فائتٍ؟... متى قيس الثرب بالعسجد، أو شبة الحصى بالزبرجد؟"⁽²⁾. وسياق الحديث يوجي باستبعاد الحصول، فالجزع من قضاء الله وقدره، أمرٌ مستبعدٌ لمن يمتلك قلبًا ثابتًا، وإيمانًا راسخًا، كما يتضمن فحوى الكلام استبعاد مقارنة الثرب بالعسجد، والحصى بالزبرجد؛ فشتان شتان بينهما، فلا مقارنة بين الثرى والثريا.

ويُرسِمُ محمد المبارك صورةً قبيحةً تشمئزُّ منها النفس لما قصد الاستبعاد بالاستنفهام، مُعتمِدًا على الدال (أنى)، يقول: "فأنى تفوزين بأشرف الأقدار، وأنتِ موضع الفضلات والأقدار"⁽³⁾. فقد أحسن تصوير مشهد الفبح الذي يهوي بصاحبه إلى دركات النهك، والتحقير مستبعدًا تبدل الحال من القبح إلى الجمال.

رابعًا: النداء

إنَّ الجملة البلاغية في أساليب النداء عند العرب أداةٌ وهدفٌ، وهي في دلالاتها، وجمالياتها البلاغية رسالةٌ كلاميةٌ، وعملٌ فنيٌّ في آنٍ واحدٍ.

والنداء لغةً: مأخوذٌ من الفعل الثلاثي (ندأ) وهو بمعنى دَعَا، والنداء: الصوت، وقد يُضَمُّ مثل الدعاء والرغاء، وناداه مناداةً أو نداءً، أي: صاح به، والنداء مصدَّرٌ للفعل الرباعي (نادى)، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: 3]⁽⁴⁾.

والنداء ضربٌ من ضروب الإنشاء الطلبي، والمقصود به في الاصطلاح: "التصويتُ بالنادى لإقباله عليك"⁽⁵⁾. ويمكن أن يكون بمعنى: "طلب الإقبال بحرفٍ نائبٍ مَنَابٍ أَدْعُو

(1) اليازجِي، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (المقامة المصرية)، (ص 222).

(2) الطيَّان، الْمُفَاخِرَاتِ وَالْمُنَاطِرَاتِ، (غريب الأنباء في مُنَاطِرَةِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ)، (ص 94).

(3) المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 91.

(4) يُنظَرُ: الْجَوْهَرِيُّ، الصَّحَاحُ، (ج 6/2505، 2506)، مادة (ندا).

(5) العلوي، الطراز، (ص 535).

لفظاً⁽¹⁾، وَمَعْنَى ذَلِكَ طَلَبِ الْمُتَكَلِّمِ إِقْبَالَ الْمُخَاطَبِ عَلَيْهِ بِحَرْفِ نَابٍ مُنَابٍ (أُنَادِي) الْمُنْقُولِ مِنَ الْخَبْرِ إِلَى الْإِنْشَاءِ.

وَالنَّدَاءُ تَقْنِيَةٌ أَسْلُوبِيَّةٌ مَرْنَةٌ تَتَصَرَّفُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَعَانِي، لِأَسِيْمَا فِي اللُّغَةِ الْفَنِيَّةِ، حَيْثُ "لَا يَتَوَجَّهُ النَّدَاءُ إِلَى الْمُخَاطَبِ أَصْلًا، فَقَدْ يُنَادَى الْجَمَادُ، أَوْ تُتَاجَى النَّفْسُ، أَوْ يُؤَنَّبُ الضَّمِيرُ"⁽²⁾.

وَيُنْحَرَفُ النَّدَاءُ عَنِ مَعْنَاهِ الْحَقِيقِيِّ إِلَى مَعَانٍ تَفْهَمُ مِنْ فَحْوَى الْحَدِيثِ، وَسِيَاقِ الْكَلَامِ، كَالِإِعْرَاءِ، وَالنَّحْدِيرِ، وَالْتَمَنِّي، وَالنَّعْجَبِ، وَالتَّهْكُمِ، وَالتَّوْبِيخِ.

وَقَدْ وَظَّفَ أَدْبَاءُ الْمَقَامَةِ تَقْنِيَةَ النَّدَاءِ فِي مَقَامَاتِهِمْ بِصُورَةٍ كَبِيرَةٍ، وَمِنْ النِّشْكِيَاةِ الْجَمَالِيَّةِ لِهَذِهِ التَّقْنِيَةِ، قَوْلُ بَهَاءِ الدِّينِ الْبَيْطَارِ عَلَى لِسَانِ الْقَمَرِ مُخَاطَبًا الشَّمْسَ: "أَيُّهَا اللَّافِحَةُ بِنَارِ الْهَاجِرَةِ، لَأَنْتِ التَّارِكَةُ لِلْإِنْصَافِ وَالْهَاجِرَةُ"⁽³⁾. وَالنَّدَاءُ يَحْمَلُ هُنَا مَعْنَى التَّهْكُمِ، وَالتَّحْقِيرِ.

وَحَمَلَ النَّدَاءُ مَعْنَى التَّهْكُمِ كَذَلِكَ فِي قَوْلِ نَاصِيفِ الْيَازْجِيِّ: "فَقَالَ الْأَمِيرُ لِلْغُلَامِ: أَفَ لَكَ يَا عَفْقُ، يَا بِنَّ شَارِبِ الْفَلَقِ"⁽⁴⁾. فِسِيَاقُ الْكَلَامِ، وَفَحْوَى الْحَدِيثِ يَنْقُلُنَا إِلَى التَّهْكُمِ، فَالْعَفْقُ مَنْ لَا يَفِي أَبَاهُ حَقَّ التَّرْبِيَةِ، وَالْفَلَقُ، فَضْلُهُ اللَّبْنِ، وَالْعَرَبُ يَعِيرُونَ بِهَا فَيَقُولُونَ لِمَنْ يَشْتَمُونَهُ: يَا ابْنَ شَارِبِ الْفَلَقِ. وَمِنْهُ كَذَلِكَ قَوْلُهُ: "وَإِذَا امْرَأَةٌ تَنَادِي، يَا شَارِبَ اللَّبْنِ، الرَّخِيسِ النَّمْنِ"⁽⁵⁾.

وَقَدْ حَمَلَتْ مَقَامَاتُ (الْمُفَاخَرَاتِ وَالْمُنَاطَرَاتِ) فِي تَنَائِيهَا التَّهْكُمَ وَالتَّحْقِيرَ، وَذَلِكَ لِمَا تَتَطَلَّبُهُ الْمَفَاخِرَةُ، وَمِنْ التَّهْكُمِ بِالنَّدَاءِ قَوْلُ مُحَمَّدِ الْمُبَارَكِ: "أَمَا عَلِمْتَ أَيُّهَا الْمَخَادِعُ الْمُحْتَالُ، أَنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْفَخُورَ الْمُخْتَالَ؟"⁽⁶⁾. حَيْثُ بَرَعَ الْمُبَارَكُ أَيَّمَا بَرَاعَةٍ فِي رَسْمِ صُورَةٍ رَائِعَةٍ لَمْ يَكْتَفِ فِيهَا بِالتَّهْكُمِ بِالنَّدَاءِ فِي قَوْلِهِ: (أَيُّهَا الْمَخَادِعُ الْمُحْتَالُ)، بَلِ انْتَقَى مِنَ الْأَسَالِيْبِ الْإِسْتِفْهَامَ (أَمَا عَلِمْتَ؟)، وَمَا يَحْمِلُهُ مِنَ التَّهْكُمِ أَيْضًا، ثُمَّ حَتَمَ بِتَنَاصُيْ دِينِي صَوَّرَ سَوَادَوِيَّةَ الْمَشْهَدِ مُعْتَمِدًا عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [القمان: 18]. فَأَيَّةُ نَهَايَةٍ يَنْتَظَرُهَا الْمَخَادِعُ الْمُحْتَالُ، وَأَيَّةُ عَاقِبَةٍ يَلْقَاهَا الْفَخُورُ الْمُخْتَالَ إِذَا خَسِرَ حُبَّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟!.

(1) طَبَل، عِلْمُ الْمَعَانِي تَأْصِيلٌ وَتَقْيِيمٌ: (ص 96).

(2) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 85.

(3) الطِّيَّانُ، الْمَفَاخَرَاتُ وَالْمُنَاطَرَاتُ، (الْمَفَاخَرَةُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ)، (ص 64).

(4) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ السَّاحِلِيَّةُ)، (ص 209).

(5) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْبَغْدَادِيَّةُ)، (ص 46).

(6) الطِّيَّانُ، الْآثَارُ الْفِكْرِيَّةُ (أَبْهَى مَقَامَةٍ فِي الْمَفَاخَرَةِ بَيْنَ الْعُرْبَةِ وَالْإِقَامَةِ)، (ص 173).

ويحمل النداء كذلك معنى الدعاء، والمقصود به: "الطلب من الأدنى إلى الأعلى على سبيل التضرع"⁽¹⁾، ومن شاهد استخدام تقنية الدعاء بالنداء قول ناصيف اليازجي: "فضاق الرجل ذرعاً في الجواب، وقال: اللهم اهدنا صراط الحق والصواب"⁽²⁾.

خامساً: التقديم والتأخير

لم يعد الأدباء متعلقين بالمعنى التقليدي لتكوين الجملة، وترتيبها النسقي المعتاد. والتقديم والتأخير هو أحد أساليب البلاغة، وأحد الدلائل على براعة الإنسان العربي، فقد أتى به العرب دلالة على تمكنهم في الفصاحة، وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع، وأعذب مذاق"⁽³⁾.

وقد برع كثير من العلماء في بيان مكانة التقديم والتأخير، وإظهار محاسنه، فهذا صاحب (دلائل الإعجاز)، الإمام عبد القاهر الجرجاني يورد كلاماً بديعاً في هذا الباب مبيناً مكانته قائلاً: "هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتن لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لذك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، إن فدم فيه شيء، وحول اللفظ من مكان إلى مكان"⁽⁴⁾.

وقد أحسن الأدباء في نصوصهم المقامية في التلاعب بالألفاظ، وأجادوا في تغيير مواقعها دفعا للرتابة التقليدية والسامة من ناحية، إضافة إلى أنه يحمل في طياته مزيداً من الخفايا، والأسرار من ناحية ثانية.

وتتم تقنية التقديم والتأخير للألفاظ داخل النصوص المقامية نتيجة عمليات ذهنية قد تسبق عملية الكلام، والنطق به، وذلك قبل أن يتشكل كلاماً منطوقاً، أو في نسق النص الأدبي مع ما تحمله هذه التقنية من لطائف بلاغية قد لا تلمس أثرها وفق الترتيب المعياري لتراكيب اللغة، وتبدو جمالية هذه التقنية في موضوعات تفرّد بها العصر العثماني مثل العكس، وما لا يستحيل بالانعكاس، وغيرها من الفنون التي برع الأدباء في نظمها، ومن مشاهد التقديم والتأخير في المقامات العثمانية قول ناصيف اليازجي: "وقال قد تجنى عليّ هذا الغمر، والله يعلم أن

(1) طبل، علم المعاني في الموروث البلاغي تأصيل وتقييم، (ص 63).

(2) اليازجي، مجمع البحرين (المقامة الخزرجية)، (ص 38).

(3) الرركشي، البرهان في علوم القرآن، (ج 3/273).

(4) الجرجاني، دلائل الإعجاز، (ص 106).

ليس لي ذنب إلا ذنب صخر⁽¹⁾. حيثُ قدَّمَ اليَازِجِيَّ التَّرْكِيبَ (لي) عَلَى اسمِ ليسَ (ذنب) لدلالةِ نَفْسِيَّةٍ أَرَادَ مِنْ خِلَالِهَا أَنْ يَنْفِي الذَّنْبَ عَن نَفْسِهِ، مُعْتَمِداً عَلَى النَّفْيِ وَالِاسْتِثْنَاءِ فِي (ليس، إلا)، واستلْهَامِ التُّرَاثِ مِنْ خِلَالِ تَوْظِيْفِ المِثْلِ المَشْهُورِ (لَيْسَ لِي ذَنْبٌ إِلَّا ذَنْبُ صَخْرٍ)؛ حَتَّى يَأْمَنَ العِقَابَ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ.

وَيُضْفِي التَّقْدِيمُ وَالتَّأخِيرُ عَلَى النُّصُوصِ المَقَامِيَّةِ حُسْنًا وَجَمَالًا، وَوَيْكْسِبُهَا مَتْعَةً وَجَلَالًا. فَهُوَ صَيْغَةٌ جَمَالِيَّةٌ تَحَقُّقُ أَغْرَاضًا دَلَالِيَّةً لِمَنْشِئِهِ، وَلَا تَتَحَقَّقُ بِالتَّرْتِيبِ المَنْطِقِيِّ لِلأَجْزَاءِ وَالتَّرْكِيبِ. وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ أَحْمَدَ فَارِسِ الشَّدِيَّاقِ فِي (السَّاقِ عَلَى السَّاقِ): "إِذْ لَيْسَ فِيهِ إِفْضَاءٌ إِلَى البَحْثِ فِي الأَدْيَانِ، وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ مَبَاحٌ لِكُلِّ إِنْسَانٍ"⁽²⁾. حَيْثُ قَدَّمَ خَبَرَ لَيْسَ (فِيهِ) عَلَى اسْمِهَا (إِفْضَاءً). وَكُلُّ هَذَا يَنْقَلِنَا إِلَى عَوَالِمِ إِثَارَةِ الذَّهْنِ، وَإِعْمَالِ الفِكْرِ.

وَقَدْ يَنْطَوِي التَّقْدِيمُ وَالتَّأخِيرُ عَلَى "مَفَارِقَاتِ دَلَالِيَّةٍ، وَأُخْرَى ثِقَافِيَّةٍ، أَوْ اجْتِمَاعِيَّةٍ، أَوْ نَفْسِيَّةٍ، تَتَّضِحُ سَلْبًا كَمَا تَتَّضِحُ إِجَابًا عَلَى هَذِهِ المَسْتَوِيَّاتِ"⁽³⁾، إِلَّا أَنَّ الجَانِبَ الفَنِّيَّ، أَوِ اللُّغَوِيَّ قَدْ يَكشِفُ فِيهِ عَن جَوَانِبِ أُسْلُوبِيَّةٍ بَارِزَةٍ.

وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ، تَقْدِيمُ الجَارِ وَالمَجْرُورِ (مِنْ عَرَفَاتِ) فِي قَوْلِ أَحْمَدَ فَارِسِ الشَّدِيَّاقِ: "وَأَفْضَا فِيهِ كَمَا تَفِيضُ مِنْ عَرَفَاتِ الحِجَابِ"⁽⁴⁾. فَقدَاسَةُ المَكَانِ، وَرَهْبَةُ الفِضَاءِ بِيَعْتَانِ فِي نَفْسِ المُنْتَلَقِي مَشَاعَرَ مِنْ نَوْعِ خَاصٍّ، فَالْنُّصُ يَطِيرُ بِنَا إِلَى مَشَاهِدَ كَثِيرَةٍ أَوْلَهَا سِيرَةُ النَّبِيِّ الكَرِيمِ، مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - العِطْرَةَ، وَحِجَّةَ الوُدَاعِ، وَفِي مَشْهَدٍ مَهِيْبٍ، يَنْقَلِنَا إِلَى مَشْهَدِ آخَرَ يَنْضَوِي عَلَى دَلَالَاتِ نَفْسِيَّةٍ تَحْمَلُ فِي ثَنَائِهَا بَوَاعِثَ الخَوْفِ وَالرَّعْبِ، وَهَذَا المَشْهَدُ هُوَ مَشْهَدُ القِيَامَةِ.

(1) اليَازِجِيَّ، مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ، (المَقَامَةُ الِيمَامِيَّةُ)، (ص 363). صَخْرٌ، بِنْتُ لَقْمَانَ بْنِ عَادٍ. عَوَقِبَتْ عَلَى الإِحْسَانِ، فَضْرِبَ بِهَا المِثْلَ، فَقِيلَ: (مَا لِي ذَنْبٌ إِلَّا ذَنْبُ صَخْرٍ)، وَابْنُهُ لُقَيْمٌ خَرَجَا فِي إِغَارَةٍ، فَأَصَابَا إِبِلًا، فَسَبَقَ لُقَيْمٌ، فَأَتَى مَنزِلَهُ، فَنَحَرَتْ أُخْتَهُ صَخْرٌ جُزُورًا مِنْ غَنِيمَتِهِ، وَصَنَعَتْ مِنْهَا طَعَامًا تَتَحَفُّ بِهِ أَبَاهَا إِذَا قَدِمَ، وَقَدْ كَانَ لَقْمَانٌ حَسَدَ لُقَيْمًا فِي تَبْرِيزِهِ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَدِمَ لَقْمَانٌ قَدِمَتْ لَهُ الطَّعَامُ، وَكَانَ يَحْسَدُ لُقَيْمًا، فَلَطَمَهَا وَلَمْ يَكُنْ لَهَا ذَنْبٌ، فَصَارَتْ عَقُوبَتُهَا مِثْلًا لِكُلِّ مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ وَيَعَاقِبُ فَقِيلَ: "مَا لِي ذَنْبٌ إِلَّا ذَنْبُ صَخْرٍ". العَسْكَرِيُّ، جَمْهَرَةُ الأَمْثَالِ، (ج 211/2، 212) الزَّبِيدِيُّ، تَاجُ العُرُوسِ مِنْ جَوَاهِرِ القَامُوسِ، (ج 290/12)، مَادَةٌ (صَخْرٌ).

(2) الشَّدِيَّاقِ، السَّاقِ عَلَى السَّاقِ، (مَقَامَةٌ مَقْعَدَةٌ)، (ص 131).

(3) السَّعْدَنِيُّ، البِنِيَّاتِ الأُسْلُوبِيَّةِ فِي لُغَةِ الشَّعْرِ العَرَبِيِّ الحَدِيثِ، (ص 207).

(4) الشَّدِيَّاقِ، السَّاقِ عَلَى السَّاقِ، (مَقَامَةٌ مَقْعَدَةٌ)، (ص 131).

وَمِنَ التَّقْدِيمِ، تَقْدِيمُ الْمَفْعُولِ بِهِ عَلَى الْفَاعِلِ فِي قَوْلِ أَحْمَدَ فَارِسَ الشَّدْيَاقِ: "فَعَلِمْتُ أَنَّهُ قَدْ صَدَعَهُ الصَّدْعُ"⁽¹⁾. فَقَدْ قَدَّمَ الْمَفْعُولَ بِهِ الضَّمِيرَ (الهَاءَ) فِي الْفِعْلِ (صَدَعَهُ) عَلَى الْفَاعِلِ (الصَّدْعِ) وَجُوبًا؛ لِبَيَانِ هَوْلِ مَا أَصَابَهُ، وَلِتَخْصِيصِ الصَّدْعِ بِهِ هُوَ دُونَ غَيْرِهِ.

لَقَدْ اسْتَخْدَمَ الْأَدْبَاءُ التَّقْدِيمَ وَالتَّأخِيرَ كظَاهِرَةً مِنْ ظَوَاهِرِ الْعُدُولِ، وَهُوَ وَسِيلَةٌ مِنَ الْوَسَائِلِ التَّرْكِيبِيَّةِ لِبِنَاءِ النُّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ، وَإِضْفَاءِ الْجَمَالِيَّةِ عَلَيْهَا؛ مِمَّا يَحْرِكُ عِنْدَ الْمُتَلَفِّي لَذَّةً أَدْبِيَّةً نَتِجَةً هَذَا الْانْحِرَافِ لِلتَّرْتِيبِ الْأَفْقِيِّ الْمَعْيَارِيِّ لِوَحْدَاتِ التَّرَاكِبِ الْغَوِيَّةِ. وَبِهَذَا تَسْمُو دَلَالَةُ أَنْسَاقِ النَّصِّ الْمَقَامِيِّ لَمَّا عَمَدَ الْكِتَابُ إِلَى التَّبْدِيلِ وَالتَّغْيِيرِ، أَوْ التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ. وَمِنْ هُنَا يَنْطَلِقُ مَحْمَدُ الْوُرْغِيُّ لِتَقْدِيمِ لَوْحَةٍ مِنْ لُوحَاتِ التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ، يَقُولُ: "خَيْرُ الْمُتَكَلِّمِينَ مَنْ حَدَّثَ بِمَا نَفَعَ، وَخَيْرُ السَّامِعِينَ مَنْ أَحْرَزَ مَا سَمِعَ، وَخَيْرُ مَا قِيلَ مِنَ الْكَلِمِ مَا قِيلَ لِقَائِلِهِ سَلِمَ، إِنَّ مِنَ الْعَجْزِ تَفْضِيلَ دَارٍ عَلَى دَارٍ، وَإِنَّ مِنَ الْأَسْرِ اتِّخَاذُ حَلِيلَةٍ وَجَارٍ"⁽²⁾. فَقَدْ طَالَعْنَا الْوُرْغِيَّ بِتَشْكِيلَاتٍ مُنَوَّعَةٍ مِنَ التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ، بِدَائِمَا بِتَقْدِيمِ الْخَبَرِ عَلَى الْمَبْتَدَأِ فِي ثَلَاثِ جُمَلٍ مُتَابِعَةٍ، وَذَلِكَ مِنْ بَابِ الْمَدْحِ وَإِعْلَاءِ الشَّانِ، وَإِبْرَازِ عُلُوِّ الْمَكَانَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ، ثُمَّ تَابَعَ بِتَقْدِيمِ خَبَرِيٍّ إِنَّ (مِنَ الْعَجْزِ، وَمِنَ الْأَسْرِ) عَلَى اسْمِيهَا (تَفْضِيلِ، وَاتِّخَاذِ) فِي جُمْلَتَيْنِ مُتَابِعَتَيْنِ، مَعَ تَوْشِيحِ تَشْكِيلَاتِهِ بِالتَّسْجِيعِ وَالتَّشْطِيرِ، فَأَضْفَى عَلَيْهَا مُوسِيقًا عَذْبَةً جَذِبَتْ أَسْمَاعَ الْمُتَلَفِّينَ، وَأَلْهَبَتْ أَحَاسِيْسَ الْمُتَذَوِّقِينَ الذِّينَ يَبْحَثُونَ عَنِ الْجَمَالِ.

وَمِنَ رَوَائِعِ التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ قَوْلُ أَحْمَدَ فَارِسَ الشَّدْيَاقِ: "كَيْفَ لَا؟ وَقَدْ أَوْشَكَتْ جَوَارِحِي أَنْ تَعُودَ مَجْرُوحَةً، وَضَاقَتْ بِأَحْمَالِ إِبْلِكُمْ الْأَرْضُ، وَهِيَ فَسِيحَةٌ"⁽³⁾. فَقَدْ خَالَفَ الشَّدْيَاقُ الْمَأْلُوفَ، وَقَدَّمَ (بِأَحْمَالِ إِبْلِكُمْ) عَلَى الْفَاعِلِ (الْأَرْضِ)؛ لِیُصَوِّرَ ثِقَلَ الْهَمُومِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، حَتَّى الْأَرْضُ ضَاقَتْ بِهَذِهِ الْهَمُومِ دَرْعًا رَغْمَ اتِّسَاعِهَا.

سَادِسًا: التَّكْرَارُ

يُعَدُّ التَّكْرَارُ مِنَ الظَّوَاهِرِ الْأُسْلُوبِيَّةِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ لِفَهْمِ النَّصِّ الْأَدْبِيِّ، وَقَدْ تَابَعَ الْبَلَاغِيُّونَ الْعَرَبُ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ، وَتَنَبَّهُوا إِلَيْهَا عِنْدَ دِرَاسَتِهِمْ لِكَثِيرٍ مِنَ الشَّوَاهِدِ الشَّعْرِيَّةِ، وَالنَّثْرِيَّةِ، وَبَيَّنُوا فَوَائِدَهَا وَوُضَائِفَهَا، وَهُوَ مِنَ الْأَسَالِيبِ الَّتِي لَهَا أَبْعَادُهَا الْأُسْلُوبِيَّةُ، وَالْجَمَالِيَّةُ، سِوَاءً أَكَانَ مَوْضِعُهُ فِي الْكَلِمَةِ، أَمْ فِي الْجُمْلَةِ.

(1) الشَّدْيَاقُ، السَّاقُ عَلَى السَّاقِ، (مَقَامَةٌ مَقْعَدَةٌ)، (ص 133).

(2) الْوُرْغِيُّ، مَقَامَاتُ الْوُرْغِيِّ وَرَسَائِلُهُ، (ص 16).

(3) الشَّدْيَاقُ، السَّاقُ عَلَى السَّاقِ (مَقَامَةٌ مَقْعَدَةٌ)، (ص 131).

إنَّ مصطلحَ التَّكْرَارِ مُصْطَلِحٌ عَرَبِيٌّ كَانَ لَهُ حُضُورُهُ عِنْدَ الْبَلَاغِيِّينَ الْعَرَبِ الْقَدَامَى؛ فَهُوَ فِي اللُّغَةِ مِنَ (الكَرِّ) بِمَعْنَى الرَّجُوعِ، وَيَأْتِي بِمَعْنَى الْإِعَادَةِ وَالْعَطْفِ، يُقَالُ: "كَرَّرْتُ الشَّيْءَ تَكَرُّراً وَتَكَرُّراً"⁽¹⁾. وَهُوَ فِي الْإِصْطِلَاحِ "تَكَرُّرُ الْكَلِمَةِ أَوْ اللَّفْظَةِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ لِنَكْتَةٍ، إِمَّا لِلتَّوَكِيدِ، أَوْ ل_zِيَادَةِ التَّنْبِيهِ، أَوْ التَّهْوِيلِ، أَوْ لِلتَّعْظِيمِ، أَوْ لِلتَّلَذُّذِ بِذِكْرِ الْمُكْرَّرِ"⁽²⁾. أَوْ "أَنْ يَكْرَرَ الْمُتَكَلِّمُ اللَّفْظَةَ الْوَاحِدَةَ لِتَأْكِيدِ الْوَصْفِ، أَوْ الْمَدْحِ، أَوْ الذَّمِّ، أَوْ التَّهْوِيلِ، أَوْ الْوَعِيدِ"⁽³⁾.

والتَّكْرَارُ هُوَ "الْحَاحُّ عَلَى جِهَةٍ هَامَّةٍ مِنَ الْعِبَارَةِ يَعْنِي بِهَا الشَّاعِرُ أَكْثَرَ مِنْ عَنَائِتِهِ بِسِوَاهَا، وَهُوَ بِذَلِكَ ذُو دَلَالَةٍ نَفْسِيَّةٍ قِيَمَةٍ تَفِيدُ النَّاقِدَ الْأَدَبِيَّ الَّذِي يَدْرُسُ النَّصَّ، وَيُحَلِّلُ نَفْسِيَّةَ كَاتِبِهِ، إِذْ يَضَعُ فِي أَيْدِينَا مِفْتَاحَ الْفِكْرَةِ الْمَتَسَلِّطَةِ عَلَى الشَّاعِرِ"⁽⁴⁾.

لَقَدْ تَزَيَّنَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، وَالْحَدِيثُ الشَّرِيفُ بِالتَّكْرَارِ، وَانْعَكَسَ ذَلِكَ عَلَى أَدْبَاءِ الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ، وَمِنْ هُنَا فَقَدْ أُولِعُوا بِهَذَا الْأُسْلُوبِ، فَانْطَلَقُوا يَسْتَلْهُمُونَهُ، وَيَزِينُونَ بِهِ نُصُوصَهُمْ.

والتَّكْرَارُ لَا يَقُومُ فَقَطْ عَلَى مَجْرَدِ تَكَرُّرِ اللَّفْظَةِ فِي السِّيَاقِ الشَّعْرِيِّ، أَوْ النَّثْرِيِّ، وَإِنَّمَا مَا تَتْرِكُهُ هَذِهِ اللَّفْظَةُ مِنْ أَثَرِ انْفِعَالِيٍّ فِي نَفْسِ الْمُتَلَقِّيِّ، وَبِذَلِكَ فَإِنَّهُ يَعْكُسُ جَانِباً مِنَ الْمَوْقِفِ النَّفْسِيِّ وَالانْفِعَالِيِّ، وَمِثْلُ هَذَا الْجَانِبِ لَا يُمْكِنُ فَهْمُهُ إِلَّا مِنْ خِلَالِ دَرَسَةِ التَّكْرَارِ دَاخِلَ النَّصِّ الْأَدَبِيِّ الَّذِي وَرَدَ فِيهِ، فَكُلُّ تَكَرُّرٍ يَحْمَلُ فِي ثَنَائِيَّاهُ دَلَالَاتٍ نَفْسِيَّةً، وَانْفِعَالِيَّةً مُخْتَلِفَةً تَفْرِضُهَا طَبِيعَةُ السِّيَاقِ الشَّعْرِيِّ، أَوْ النَّثْرِيِّ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ لَكَانَ تَكَرُّراً لَجْمَلَةٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا تُوَدِّي إِلَى مَعْنَى، أَوْ وَظِيفَةٍ فِي الْبِنَاءِ الشَّعْرِيِّ؛ لِأَنَّ التَّكْرَارَ "أَحَدَ الْأَدْوَاتِ الْجَمَالِيَّةِ الَّتِي تَسَاعِدُ الشَّاعِرَ عَلَى تَشْكِيلِ مَوْقِفِهِ وَتَصْوِيرِهِ، وَلَا يَبْدَأُ أَنْ يَعْتَمِدَ التَّكْرَارُ الْإِهْتِمَامَ بِمَا بَعْدَ الْكَلِمَةِ الْمَتَكَرِّرَةِ حَتَّى لَا يَصْبِحَ التَّكْرَارُ مَجْرَدَ حَشْوٍ، فَالشَّاعِرُ إِذَا كَرَّرَ عَكْسَ أَهْمِيَّةِ مَا يَكْرُرُهُ مَعَ الْإِهْتِمَامِ بِمَا يَعْدُهُ حَتَّى تَتَجَدَّدَ الْعَلَاقَاتُ، وَتَثْرَى الدَّلَالَاتُ، وَيَنْمُو الْبِنَاءُ الشَّعْرِيُّ"⁽⁵⁾.

والتَّكْرَارُ مَلْمَحٌ بَارِزٌ فِي الْمَقَامَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ، طَرَقَ الْأَدْبَاءُ أَبْوَابَهُ لَمَّا قَصَدُوا بَيَانَ أَفْكَارِهِمْ، وَإِظْهَارَ مَعَانِيهِمْ، وَتَأْكِيدَ مَا يَقْصِدُونَ بَيَانَهُ، وَمِنْ شَوَاهِدِ التَّكْرَارِ فِي النُّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ، قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ فِكْرِيٍّ: "فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ مَكْرِهَا، وَالْفِرَارَ الْفِرَارَ مِنْ شَرِّهَا وَنَكْرِهَا"⁽⁶⁾. حَيْثُ اعْتَمَدَ

(1) الْجَوْهَرِيُّ، الصَّحَاحُ، (ج3/805).

(2) ابْنُ مَعْصُومٍ، أَنْوَارُ الرَّبِيعِ فِي أَنْوَاعِ الْبَدِيعِ، (35/5).

(3) الْمَصْرِيُّ، تَحْرِيرُ التَّحْبِيرِ، (ص375).

(4) شَرِيحُ، ظَوَاهِرُ أُسْلُوبِيَّةٍ فِي شِعْرِ بَدْوِيِّ الْجَبَلِ، (ص9).

(5) الْجَبَّارُ، الصُّورَةُ الشَّعْرِيَّةُ عِنْدَ أَبِي الْقَاسِمِ الشَّابِّيِّ، (ص47).

(6) فِكْرِيٍّ، الْآثَارُ الْفِكْرِيَّةُ (الْمَقَامَةُ الْفِكْرِيَّةُ)، (ص285).

فكريّ عَلَى التَّكْرَارِ؛ لِيَحْدَرَ مِنَ الشَّهْوَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ، وَيَمَهِّدُ السَّبِيلَ لِلخَلَاصِ مِنْ شَرِّهَا، وَنَكْرِهَا.

وَقَصَدَ الْأَدْبَاءُ التَّكْرَارَ أَيْضاً لِلحَثِّ عَلَى صِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ ابْنِ الْأَلُوسِيِّ: "يَا بَنِيَّ، اللَّهُ فِي أَخْوَانِكُمْ، وَعُدُوهُنَّ فِي عَدَادِ بَنَاتِكُمْ، اللَّهُ فِي أُمَّكُمْ، فَلَعَمْرِي لَقَدْ كَانَتْ تَسْتَرُّ بِسُرُورِكُمْ، وَتَعْتَمُّ لِعَمَّكُمْ"⁽¹⁾. حَيْثُ أَكَّدَ ابْنُ الْأَلُوسِيِّ عَلَى الحِفَاطِ عَلَى العَلَاقَةِ بِالأَخْوَاتِ، فَهُنَّ فِي مَقَامِ البَنَاتِ، وَتَنَى بِالْوَصِيَّةِ بَبِرِّ الأُمِّ الَّتِي تَسْتَرُّ بِسُرُورِ أبنَائِهَا، وَتَعْتَمُّ لِعَمَّهُمْ، مَعَ مَلاحِظَةِ أَنَّ النِّدَاءَ (يَا بَنِيَّ) تَكَرَّرَ فِي مَقَامَةِ (أَبْنَاءِ الأَبْنَاءِ لِأَطْيَبِ الأَبْنَاءِ) سَبْعاً وَثَلَاثِينَ مَرَّةً. وَلَعَلَّ التَّكْرَارَ يُؤَكِّدُ عَلَى النُّصْحِ وَالإِرْشَادِ فِي تَقْنِيَاتِ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ الَّتِي تَلَّتْ كُلَّ تَقْنِيَةٍ مِنْ تَقْنِيَاتِ النِّدَاءِ، وَالَّتِي اسْتَوْعِبَتْ كُلَّ مَعَانِي التَّشْبِيهِ فِي المَقَامَةِ.

وَمِنَ التَّكْرَارِ قَوْلُ أَحْمَدَ فَارِسِ الشَّدِيَاقِ: "فَلَمَّا بَصُرْتُ بِهِ قُلْتُ لَهُ: نِزَالِ نِزَالِ، وَحَيَّ عَلَى هَذَا العَدَالِ"⁽²⁾. وَالتَّكْرَارُ وَرَدَ عَلَى دَالِ اسْمِ فِعْلِ الأَمْرِ (نِزَالِ) مَعَ مَا حَمَلَهُ التَّكْرَارُ مِنَ الحَثِّ عَلَى حَوْضِ حَلْبَاتِ النِّزَالِ فِي مِيَادِينِ الشَّرْفِ وَالفِضِيلَةِ.

وَمِنَ التَّكْرَارِ التَّنْقُلُ بَيْنَ مَفْرَدَةٍ وَاحِدَةٍ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ أَحْمَدَ البَرِّيْرِ: "وَنَهْرُهَا بِقَلْبِ صَافٍ، وَأَدْوَا حَهَا بِبِسطِ بِساطِ البِسطِ مِنْ ظَلْمَا الضَّافِي"⁽³⁾. حَيْثُ تَنَقَّلَ البَرِّيْرِ بَيْنَ (بِسطِ، بِساطِ، وَالبِسطِ)؛ فَرَسَمَ بِحَرَكَاتِهِ عَنِ طَرِيقِ التَّكْرَارِ لَوْحَةً بَارِعَةً مِنْ لَوْحَاتِ الطَّبِيعَةِ السَّاجِرَةِ.

أَمَّا بِهَاءُ الدِّينِ البَيْطَارِ فَارْتَحَلَ إِلَى ذُرُوبِ التَّكْرَارِ مُعْتَمِداً عَلَى الإِضَافَةِ بِمُفْرَدَاتٍ مَكْرَرَةٍ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُهُ: "وَأَدَارَتْ عَلَيْنَا سُلَافَ طَلْمَا كُؤُوسِ الزُّهُورِ، قَبْلَ أَنْ تَرشِفَهُ شَمْسُ البُكُورِ، وَحَيْثُنَا رَاحَةُ الرِّاحَةِ وَالسُّرُورِ"⁽⁴⁾. مَعَ مَا يَحْمَلُهُ التَّكْرَارُ مِنْ إِضْفَاءِ أَجْوَاءِ الرِّاحَةِ عَلَى الفِضَاءِ المَحِيطِ.

وَيَرِسُّ نَاصِيفُ البَيَّازِجِيِّ لَوْحَةً مِنْ لَوْحَاتِ التَّكْرَارِ مُعْتَمِداً عَلَى مَعَانِي الفُرْزَانِ الكَرِيمِ، يَقُولُ: "فَنَمَتُّوا بِشَهْوَاتِكُمْ مَلِيًّا، وَاتْرَكُوا مَا رَأَيْتُمْ نَسِيًّا نَسِيًّا، وَإِلَّا فَالْبِدَارَ البِدَارَ!. وَأَتَحْفَهُ كُلُّ مِنْهُمْ بِمَا يَشَاءُ، وَقَالُوا لَهُ الدُّعَاءُ الدُّعَاءُ"⁽⁵⁾. قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَاجَاءَهَا المَخَاضُ إِلَيَّ جِدْعَ النُّخْلَةِ

(1) ابن الألويسي، مقامات ابن الألويسي (أبناء الأبناء لأطيب الأبناء)، (ص14).

(2) الشدياق، الساق على الساق، (مقامة مقعدة)، (ص133).

(3) الطيان، (المفاحرات والمناظرات) (المفاحرة بين الماء والهواء)، (ص24).

(4) الطيان، (المفاحرات والمناظرات) (المفاحرة بين الشمس والقمر)، (ص65).

(5) البيازجي، مجمع البحرين (المقامة العقيية)، (ص15، ص16).

قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبَلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا ﴿[مریم: 23]. فَقَدْ جَمَعَ الْيَازِجِيُّ مِنَ الرُّوَاعِ فَأَحْسَنَ الْجَمْعَ، وَانْتَقَى فَأَجَادَ الْإِنْتِقَاءَ حَيْثُ اسْتَهْلَ لَوْحَتَهُ بِالْأَمْرِ (نَمَتَّعُوا)، ثُمَّ تَابَعَ بِالْجَمْعِ بَيْنَ الْأَمْرِ، وَالِاقْتِبَاسِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي قَوْلِهِ: (وَاتْرَكُوا مَا رَأَيْتُمْ نَسِيًّا مَنَسِيًّا)، وَوَاصَلَ بِتَكَرُّرِ مَشْهُدَيْنِ مُتَابِعَيْنِ هُمَا: (فَالْبِدَارَ الْبِدَارَ)، وَكَأَنِّي بِهِ يَعُودُ إِلَى الْأَمْرِ عَنْ طَرِيقِ اسْمِ فَعْلِهِ (بِدَارَ) بِمَعْنَى بَادِرٌ، وَ(الدُّعَاءُ الدُّعَاءُ). مَعَ مَا يَحْمَلُهُ التَّكَرُّرُ مِنْ تَأْكِيدٍ لِلْمَعْنَى، وَتَوْضِيحٍ لَهُ.

ويُجَا أَمَدُ فَارِسِ الشُّدِّيَاقِ إِلَى مُفْرَدَاتٍ مُتَشَابِهَةٍ فِي الْوِزْنِ وَالتَّعْقِيبَةِ لِتَقْدِيمِ مَشْهُدِ التَّكَرُّرِ، يَقُولُ: "فَأَمَسَكْتُ مِنْ فَرْحِي بِالزَّنْبِيلِ، وَقُلْتُ الدَّلِيلَ الدَّلِيلَ، قَالَ هُوَجُوعٌ، بُرْقُوعٌ، يُرْقُوعٌ، بَرْكُوعٌ"⁽¹⁾. حَيْثُ كَرَّرَ (الدَّلِيلَ) ثُمَّ عَمَدَ إِلَى رِصْدِ كَلِمَاتٍ مُتَابِعَةٍ، هِيَ: (هُوَجُوعٌ، بُرْقُوعٌ، يُرْقُوعٌ، بَرْكُوعٌ).

وَمِنْ رَوَائِعِ التَّكَرُّرِ قَوْلُ شِهَابِ الدِّينِ الْخَفَاجِيِّ: "أَهْوَى السِّيَاحَةَ، وَالنَّاسُ نَاسٌ، وَالذِّيَارُ دِيَارٌ، وَالذَّهْرُ غُرٌّ لَمْ يَفْطَنُ لِنَلْوَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ"⁽²⁾. حَيْثُ اعْتَمَدَ عَلَى تَكَرُّرِ ذَاتِ الْكَلِمَةِ عَنْ طَرِيقِ التَّلْوِينِ بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ، وَالنَّكْرَةِ فِي (النَّاسُ نَاسٌ)، وَ(الذِّيَارُ دِيَارٌ) مَعَ مَا حَمَلَهُ الْمَشْهُدُ مِنْ رُوعَةِ التَّأْكِيدِ، وَجَمَالِ التَّقْسِيمِ.

ويُشِيرُ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي هَذَا الْبَابِ إِلَى مَا يُسَمَّى بِالتَّكَرُّرِ النَّمَطِيِّ، وَيَتَوَسَّعُونَ فِي هَذَا الْبَابِ، وَمِنَ التَّكَرُّرِ النَّمَطِيِّ الَّذِي أَهْتَمَّ لَهُ الْبَلَاغِيُّونَ عَلَى الْمَسْتَوَى الصَّوْتِيِّ، مَبْحَثُ السَّجْعِ أَلْوَانًا مِنَ الْأَدَاءِ، يَتِمَّتُّ فِيهَا عِنَصُ التَّوَازُنِ اللَّفْظِيِّ، وَمِنْهُ أَنْ يَكُونَ الْجَزَانُ فِي السَّجْعِ مُتَعَادِلَيْنِ، لَا يَزِيدُ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ فِي الْوِزْنِ وَالتَّعْقِيبَةِ، وَإِنْ اخْتَلَفَتِ الْحُرُوفُ فِي سَائِرِ الْكَلِمَةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ قَوْلُ بَهَاءِ الدِّينِ الْبَيْطَارِ: "وَكَمْ مِنْ ذِي جَفْنٍ سَاهِرٍ، وَذَهْنٍ حَائِرٍ. وَطَرْفٍ جَائِلٍ، وَدَمْعٍ سَائِلٍ. وَقَلْبٍ ذَائِبٍ، وَكَرْبٍ ذَائِبٍ"⁽³⁾. فَالْبَرَاعَةُ هُنَا أَنَّهُ كَرَّرَ الصِّفَاتِ (سَاهِرٍ، حَائِرٍ، جَائِلٍ، سَائِلٍ، ذَائِبٍ، ذَائِبٍ) وَجَمِيعَهَا عَلَى وَزْنِ (فَاعِلٍ)، وَمِنْ قَبْلِ اسْمِ الْفَاعِلِ كَرَّرَ الْمَوْصُوفَ (جَفْنٍ، ذَهْنٍ، طَرْفٍ، دَمْعٍ، قَلْبٍ، وَكَرْبٍ) وَكُلُّهَا عَلَى ذَاتِ الْوِزْنِ، مَعَ مَا حَمَلَهُ هَذَا التَّكَرُّرُ النَّمَطِيُّ مِنْ إِفْقَاحِ مُوسِيقِيٍّ مُتَفَرِّدٍ مُسْتَمَدٍّ مِنْ تَشَابِهِ الْفَوَاصِلِ، إِضَافَةً إِلَى قُدْرَةِ فَنِيَّةٍ بَارِعَةٍ فِي التَّسْجِيعِ.

ويبدو التَّكَرُّرُ النَّمَطِيُّ أَكْثَرَ وَضُوحًا عَلَى الْمَسْتَوَى الصَّوْتِيِّ فِي التَّرْصِيعِ، وَذَلِكَ إِذَا

(1) الشُّدِّيَاقِ، السَّاقُ عَلَى السَّاقِ، (مَقَامَةٌ مَقِيمَةٌ)، (ص 285). بَرْقُوعٌ: لِبَاسُ نِسَاءِ الْأَعْرَابِ، الْجَوْهَرِيُّ، الصَّحَاحُ،

(ج 3/1184) مَادَةٌ (بَرْقُوعٌ). يَرْقُوعٌ: جُوعٌ يَرْقُوعُ، أَي: شَدِيدٌ، الْجَوْهَرِيُّ، الصَّحَاحُ، (ج 3/1222) مَادَةٌ (رَقْعٌ).

بَرْكُوعٌ: الْقِيَامُ عَلَى أَرْبَعٍ، الْجَوْهَرِيُّ، الصَّحَاحُ، (ج 3/1185) مَادَةٌ (بَرْكُوعٌ).

(2) الْخَفَاجِيُّ، رِيحَانَةُ الْأَلْبَا وَزَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، (الْمَقَامَةُ السَّاسَانِيَّةُ)، (ص 389).

(3) الطِّيَّانُ، الْمُفَاحِرَاتُ وَالْمُنَاطِرَاتُ (الْمُفَاحِرَةُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ)، (ص 61).

اتَّفَقَتِ الْفِقْرَتَانِ فِي الْوِزْنِ وَالتَّفْقِيَةِ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ قَوْلُ بَهَاءِ الدِّينِ الْبَيْطَارِ:

وَلَا حَلًّا ثَمَرًا، وَلَا نَمًا شَجَرًا وَلَا بَدَا قَمَرًا، وَلَا هَمَّتْ سَحْبًا⁽¹⁾

حَيْثُ اشْتَمَلَ الْبَيْتُ عَلَى أَرْبَعِ فِقْرَاتٍ مَتَّفَقَةٍ فِي الْوِزْنِ وَالتَّفْقِيَةِ، مَعَ مَا تَرَكَتَهُ مِنْ إِبْقَاعِ مُوسِيقِيٍّ مُتَفَرِّدٍ نَابِعٍ مِنَ التَّكْرَارِ، يُمْكِنُ تَوْضِيحُهُ مِنْ خِلَالِ الْمَشْهَدِ الْآتِي:

وَلَا حَلًّا ثَمَرًا

وَلَا نَمًا شَجَرًا

وَلَا بَدَا قَمَرًا

وَلَا هَمَّتْ سَحْبًا

وَكَأَنِّي بِالْفِقْرَاتِ هُنَا قَدْ وُزِنَتْ بِمِيزَانِ الذَّهَبِ الدَّقِيقِ، بِحَيْثُ لَمْ تَتَجَاوَزْ أَيْ كَلِمَةً حُدُودَ مِثْلَاتِهَا فِي الْمَشْهَدِ السَّابِقِ. وَهَذَا دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى مَوَاهِبَ مُتَنَوِّعَةٍ اِمْتَلَكَهَا الْأَدْبَاءُ فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ،

وَمِنَ التَّكْرَارِ النَّمَطِيِّ مَا يَأْخُذُ شَكْلَ النَّسَقِ الرَّيَاضِيِّ، أَوِ التَّرْتِيبِ الْهَنْدَسِيِّ، وَهُوَ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ (مَا لَا يَسْتَحِيلُ بِالْإِنْعَاكِاسِ)، وَهَذَا اللَّوْنُ يَقُومُ عَلَى نَمَطِ تَكَرَّرِيٍّ فِي الْحُرُوفِ وَالْكَلِمَاتِ، وَفِيهِ تُعَادُ الْكَلِمَاتُ مِنْ آخِرِ حَرْفٍ، فَنَجُذُ الْمَعْنَى بِتَمَامِهِ فِي الشَّكْلِ، وَالدَّلَالَةِ⁽²⁾. وَبِمَعْنَى آخَرَ تَتَكَرَّرُ ذَاتُ الْكَلِمَاتِ فِي الْمَشْهَدَيْنِ، وَإِنْ كَانَ التَّكْرَارُ فِي اتِّجَاهَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، وَمِنْ نَمَازِجِ ذَلِكَ قَوْلُ نَاصِيْفِ الْيَازْجِيِّ فِي (الْمَقَامَةِ الْبَصْرِيَّةِ):

قَرَّ فِي إِلْفٍ نَدَاهَا قَلْبُهُ بِلِقَاهَا دَنِيفٌ لَا يَفْرَقُ

قَطَنْتَ هَيْفَاءً فِيهِ آمِنًا إِنَّمَا هَيْفَاءٌ فِيهِ تَنْطِقُ

قِفْ أَلَا قَاضٍ فَإِنِّي ضَاقَ بِي رَيْبُ قَاضِيْنَا فِضَاقَ الْأَفْقِ⁽³⁾

إِنَّ نَاصِيْفَ الْيَازْجِيِّ جَمَعَ بَيْنَ جَمَالِ التَّكْرَارِ، وَتَكَرَّرِ الْجَمَالِ، وَرَوْعَةٍ مَا لَا يَسْتَحِيلُ بِالْإِنْعَاكِاسِ فِي أَسْلُوبِ مُتَفَرِّدٍ، وَكَأَنِّي بِهِ أَرَادَ أَنْ يَخَالِفَ الْآخِرِينَ فِي نَمَطِ التَّكْرَارِ مُعْتَمِدًا عَلَى قَلْبِ الْكَلِّ، مُظْهِرًا مَا يَمْتَلِكُهُ مِنْ قُدْرَةٍ فَائِقَةٍ عَجَزَ عَنِ اِمْتَلَاكِهَا الْآخَرُونَ، وَقُلْ إِنْ شِئْتَ مِنْ

(1) الطِّيَّانُ، الْمُفَاحِرَاتُ وَالْمُنَاطِرَاتُ (الْمُفَاحِرَةُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ)، (ص 60).

(2) عَبْدُ الْمُطَلِّبِ، الْبَلَاغَةُ وَالْأُسْلُوبِيَّةُ، (ص 298).

(3) الْيَازْجِيُّ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (الْمَقَامَةُ الْبَصْرِيَّةُ)، (ص 157، ص 158). نَدَاهَا: جُودَهَا، الدَّنْفُ: الْمَرِيضُ

الْمَجْهُودُ.

الصعب أن يمتلكها أحدٌ. فَكَّ أَنْ تَقْرَأَ الْأَبْيَاتِ مَقْلُوبَةً؛ لِتَجِدَ الْمَعْنَى بِتَمَامِهِ فِي الشَّكْلِ، وَالِدَّلَالَةَ.

سَابِعًا: الشَّرْطُ

الشَّرْطُ أَسْلُوبٌ لُغَوِيٌّ يَنْبَنِي عَلَى جَمَلَةٍ مَرْكَبَةٍ تَتَأَلَّفُ مِنْ أَدَاةٍ، وَمِنْ شَقِيْنِ، الْأَوَّلُ مُنْزَلٌ مِنْزَلَةُ السَّبَبِ، وَهُوَ الشَّرْطُ، وَالثَّانِي مُنْزَلٌ مِنْزَلَةُ الْمُسَبَّبِ، وَهُوَ الْجَزَاءُ. وَهُوَ تَرْكِيْبٌ نَحْوِيٌّ يَرْبُطُ الْمُتَكَلِّمُ فِيهِ بَيْنَ حَدِيثَيْنِ، أَحَدُهُمَا رَئِيسٌ، وَالْآخَرُ ثَانَوِيٌّ، وَتُسْتَعْمَدُ فِيهِ أَدَوَاتٌ مُعَيَّنَةٌ، تُعَيَّنُ عَلَى هَذَا الرِّبْطِ، وَتَضْفِي عَلَيْهِ مَعْنَى مُحَدَّدًا. أَوْ هُوَ "مَا دَخَلَ عَلَيْهِ الْحَرْفُ إِنْ، أَوْ يَقُومُ مَقَامَهُ مِنَ الظُّرُوفِ، وَالْأَسْمَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى سَبَبِيَّةِ الْأَوَّلِ، وَمَسَبَبِيَّةِ الثَّانِي" (1).

وَقَدْ عَمَدَ الْأَدَبَاءُ إِلَى اسْتِعْمَالِ أَدَوَاتِ الشَّرْطِ فِي نُصُوصِهِمُ الْمَقَامِيَّةِ، وَتَوْظِيْفِهَا فِي تَشْكِيْلِهِمُ الْأُسْلُوبِيَّ؛ إِذْ لَا مَنَاصَ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا أَكْثَرُوا مِنْ إِيْرَادِ الْأَدَوَاتِ (مَنْ، إِذَا، حَيْثُمَا، لَمَّا، لَوْ، إِنْ)، بَيِّدَ أَنْ أَكْثَرَ أَدَوَاتِ الشَّرْطِ وَرُودًا فِي النُّصُوصِ الْمَقَامِيَّةِ: مَنْ، وَإِذَا.

إِنَّمَا إِذَا تَتَبَعْنَا النُّصُوصَ الْمَقَامِيَّةَ، وَدَوَالَ (الشَّرْطِ) فِيهَا، نَجِدُ أَنَّ مَعْظَمَ الْأَدَبَاءِ قَدْ اسْتَعْمَلُوا أَدَاةَ الشَّرْطِ (إِذَا)، وَوَضَعُوهَا فِي نُصُوصِهِمْ بِطَرِيقَةٍ مُجْدِيَّةٍ، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ، قَوْلُ نَاصِيْفِ الْيَازْجِيَّ: "إِذَا تَلَاَحَتِ الْخُصُومُ، تَسَافَهَتِ الْحُلُومُ" (2). فَقَدْ أَتْبَعَ الْيَازْجِيَّ أَدَاةَ الشَّرْطِ (إِذَا) بِجَمَلَةٍ فَعْلِيَّةٍ؛ لِيقْرَبِ الدَّلَالَةَ مِنَ الْحَقِيقَةِ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ تَوْظِيْفِهِ الْفِعْلَ (تَلَاَحَتِ)، وَقَدْ اقْتَضَتْ أَدَاةَ الشَّرْطِ (إِذَا) جَوَابًا، وَزِيَادَةً عَلَى مَا يَحْمَلُهُ فِعْلُ الشَّرْطِ مِنْ مَعْنَى، فَإِذَا حَمَلَ فِعْلُ الشَّرْطِ مَعْنَى الشَّتْمِ، فَإِنَّ الْجَوَابَ تَجَاوَزَ حُدُودَ الشَّتْمِ إِلَى مَعْنَى أَعْظَمَ حَمَلْتُهُ الْجَمَلَةَ: (تَسَافَهَتِ). أَضْفُ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ الشَّرْطَ، وَالْجَزَاءَ فَعْلَانِ مَاضِيَانِ حَمَلًا تَحْقُوقَ حَصُولِ الْحُكْمِ لَا مَحَالَةَ.

وَيُبْدِعُ نَاصِيْفُ الْيَازْجِيَّ فِي تَقْدِيمِ تَقْنِيَاتِ شَرْطٍ مُتَابِعَةٍ مُعْتَمِدًا فِي جَمِيعِهَا عَلَى الدَّالِ (إِذَا)، مَنُوعًا فِي الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ، يَقُولُ: "إِذَا اسْتَعْنَيْتَ فَلَا تَبْطُرْ، وَإِذَا افْتَقَرْتَ فَلَا تَضْجُرْ، وَإِذَا بُلَيْتَ فَاصْطَبِرْ، وَإِذَا رَأَيْتَ الْعِبْرَةَ فَاعْتَبِرْ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُطَاعَ، فَسَلْ مَا يُسْتَطَاعَ، وَإِذَا حَدَّثْتَ فَعَلَيْكَ بِالْإِجَازِ، وَلَا تَلْبَسِ الْحَقِيقَةَ بِالْمَجَازِ" (3). حَيْثُ طَالَعْنَا الْيَازْجِيَّ بِسِتِ تَقْنِيَاتٍ شَرْطِيَّةٍ مُعْتَمِدًا فِي جَمِيعِهَا عَلَى فِعْلِ الشَّرْطِ الْمَوْجَّهِ إِلَى الْمُخَاطَبِ: (اسْتَعْنَيْتَ، افْتَقَرْتَ، بُلَيْتَ، رَأَيْتَ، أَرَدْتَ، وَحَدَّثْتَ)، بَيْنَمَا نَوْعَ فِي الْجَزَاءِ، فَتَارَةً اسْتَعْمَلَ النَّهْيَ: (فَلَا تَبْطُرْ، وَفَلَا تَضْجُرْ)، وَأُخْرَى الْأَمْرَ: (اصْطَبِرْ، اعْتَبِرْ، وَسَلْ)، وَثَالِثَةً اسْمَ فِعْلِ الْأَمْرِ: (فَعَلَيْكَ) مُتَرْفَعًا عَنِ السَّامَةِ الَّتِي قَدْ تَسِيْطُرُ

(1) الحنفي، الكليات، (ص 531).

(2) اليازجي، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ الْحَمُويَّةِ)، (ص 359). تَلَاَحَتِ: تَشَاتَمَتْ.

(3) اليازجي، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ (المَقَامَةُ الْحَكْمِيَّةِ)، (ص 135).

عَلَى الْمُتَقَيِّ بِالتَّكْرَارِ الْمُتَمَاتِلِ فِي نَسَقٍ وَاحِدٍ.

وَمِنْ مَشَاهِدِ تَوْظِيفِ تَقْنِيَةِ الشَّرْطِ فِي التَّصْوِصِ الْمَقَامِيَّةِ، قَوْلُ شِهَابِ الدِّينِ الْخَفَاجِيِّ: "وَأَجَلْتُ فِي حَلْبَةِ الذَّهْنِ قَدَاحَ الْفِكْرِ، فَإِذَا هِيَ جَنَّةٌ حُفَّتْ بِالْحَوْرِ وَالْوِلْدَانِ، وَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ إِذَا حَفَّتِ الْمَكَارُهُ بِالْجِنَانِ"⁽¹⁾. فَالْخَفَاجِيُّ يُقَدِّمُ مَشْهَدَ الْجَنَّةِ، وَنَعِيمَهَا، وَحَوْرَهَا، وَوِلْدَانَهَا، وَذَلِكَ بِاسْتِعْمَالِهِ لِأَسْلُوبِ الشَّرْطِ الْمُزَاحِ عَنِ أَصْلِهِ، عَنِ طَرِيقِ تَقْدِيمِ جُمْلَةِ جَوَابِ الشَّرْطِ عَلَى جُمْلَةِ الشَّرْطِ، حَيْثُ أُرْدَفَ (إِذَا) بِالْفِعْلِ الْمَاضِي (حُفَّتْ)؛ لِيَكُونَ الْأَمْرُ حَاصِلًا لَا مُحَالَةً، وَيَتَحَقَّقُ حَدُوثُ الْفِعْلِ.

وَقَدْ يَحْمِلُ الشَّرْطُ فِي طَيَّاتِهِ إِلَى جَانِبِ مَعْنَاهِ الرَّئِيسِ، مَعَانِي أُخْرَى كَالنَّهْجِ، وَالتَّحْقِيرِ بِاسْتِعْمَالِ الدَّالِ (إِذَا)، وَمِنْ مَشَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُ شِهَابِ الدِّينِ الْخَفَاجِيِّ: "إِذَا كَبَرَ وَتَكَسَّرَتْ قَوَارِيرُهُ، هَبَّتْ لِتَخْرِيبِ الْأَوْقَافِ دَبُورُهُ وَأَعَاصِيرُهُ، وَإِذَا صَامَ عَنِ الْخُبْزِ أَفْطَرَ بِأَكْلِ أَمْوَالِهَا"⁽²⁾. حَيْثُ رَسَمَ الْخَفَاجِيُّ صُورَةَ مُظْلَمَةً، وَلَا أَبَالُغُ إِنَّ قَلْتُ صُورَةَ مَشْوَهَةً تَحِيدُ عَنِ الْحَقِّ وَالْهُدَى، وَتَتَلَقَّى بِالضَّلَالِ، وَتَتَرَكُّ الْمَعْرُوفَ؛ لِتَبْحَثَ عَنِ الْمُنْكَرِ الَّذِي يَنْتَهِي دَوْمًا بِالْخَرَابِ وَالذَّمَارِ. وَقَدْ أَضَافَ الْخَفَاجِيُّ جَمَالَ إِلَى جَمَالٍ لَمَّا وَظَّفَ الْفِعْلَ الْمَاضِي (كَبَرَ، وَصَامَ) فِي الشَّرْطِ، وَ(هَبَّتْ، أَفْطَرَ) فِي الْجَزَاءِ، مَعَ مَا يَحْمِلُهُ الْفِعْلُ الْمَاضِي مِنْ تَحَقُّقِ الْحَدِيثِ.

وَيَرِسُّ أَحْمَدُ فَارِسُ الشَّدِّيَاقُ لَوْحَةً بَارِعَةً تَحْمِلُ فِي ثَنَائِهَا صِفَاتِ الرَّوْجَةِ مَسْتَعْمِدًا دَالَ الشَّرْطِ (إِذَا)، يَقُولُ: "إِنَّ الرَّوْجَةَ إِذَا عَلِمْتَ أَنَّهَا تَكُونُ عِنْدَ زَوْجِهَا كَالْمَتَاعِ الْمُنْتَقَلِ، وَكُتُوبِ الْمَبْتَدَلِ، مَوْقُوفَةً عَلَى بَادِرَةٍ تَقْرُطُ مِنْهَا، أَوْ هَفُوفَةٍ تَنْقَلُ عَنْهَا، لَمْ تَخْلُصْ لَهُ سَرِيرَتِهَا، وَلَنْ تَمَحُضَ لَهُ مَوَدَّتِهَا، وَإِذَا مَرَضَتْ مَرَضَ هُوَ مَعَهَا، وَإِذَا رَأَتْ رَأْيًا فَلَا يُدُّ مِنْ أَنْ يُوَاطِئَهَا عَلَيْهِ، وَيَجَامِعُهَا"⁽³⁾. حَيْثُ قَدَّمَ الشَّدِّيَاقُ أَمْرًا بَدَهِيًّا تَعْرِفُهُ الْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ، فَكُلُّ خِصْلَةٍ يَبْرُرُهَا رَدٌّ مُنَاسِبٌ، فَحَسُنُ الْمَعَامَلَةِ لِلرَّوْجَةِ لِتَبْعَهُ الْإِخْلَاصُ فِي السَّرِّ وَالسَّرِيرَةِ، فَإِذَا اعْتَلَّتْ كَانَ هُوَ الْعَلِيلَ، وَإِذَا بَرِئَتْ أَضْحَى هُوَ الصَّحِيحُ، وَالْإِهْمَالُ وَالتَّهْمِيشُ، وَاللَّامْبَالَاةُ بِهَا، وَبِشُؤْنِهَا يَتْبَعُهُ عَدَمُ الْإِخْلَاصِ، وَالْإِهْتِمَامِ. فَالْمَعْرُوفُ يَتْبَعُهُ الْمَعْرُوفُ، وَالْإِهْمَالُ يَلْحَقُهُ الْإِنْكَارُ.

وَيَلْجَأُ الْأَدِيبُ أحيانًا إِلَى اسْتِعْمَالِ الشَّرْطِ بِطَرِيقَةٍ مُنْقَرِدَةٍ مُعْتَمِدًا عَلَى الدَّالِ (إِذَا)، وَتَتَابِعِ الشَّرْطِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَالتَّرْتِيبِ الْمُنطِقِيِّ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى بِتَنَاسُقٍ عَجِيبٍ يَعُودُ بِنَا إِلَى تَرَاتٍ

(1) الْخَفَاجِيُّ، رِيحَانَةُ الْأَلْبَا وَزَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، (المَقَامَةُ الرُّومِيَّةُ)، (ص 369).

(2) الْخَفَاجِيُّ، رِيحَانَةُ الْأَلْبَا وَزَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، (المَقَامَةُ السَّاسَانِيَّةُ)، (ص 392).

(3) الشَّدِّيَاقُ، السَّاقُ عَلَى السَّاقِ، (مَقَامَةُ مَقْعَدَةٍ)، (ص 131).

الجاهليّة، وروائع (قس بن ساعدة الإيادي)، يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِي: "وسماعُ الغناءِ برسامٍ حادٍّ، يَدْخُلُ عَلَى الْإِنْسَانِ بِالْفَسَادِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا سَمِعَ شَرِبَ، وَإِذَا شَرِبَ طَرِبَ، وَإِذَا طَرِبَ وَهَبَ، وَإِذَا وَهَبَ عَطِبَ، وَإِذَا عَطِبَ اعْتَلَّ، وَإِذَا اعْتَلَّ جَسْمُهُ انْحَلَّ، وَإِذَا انْحَلَّ جَسْمُهُ، مَاتَ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَ"⁽¹⁾. فَقَدْ سَافَرَ فِكْرِي فِي رِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ مَحَطَّتْهَا الْأُولَى لَهَوِ الْحَدِيثِ، وَسَمَاعِ الْغِنَاءِ، وَمَحَطَّتْهَا الْأُخْرَى الْإِعْتِلَالُ، وَالْمَوْتُ، مَعَ مَا فِي الرَّحْلَةِ مِنْ مَحَطَّاتٍ، كُلُّ مَحَطَّةٍ تَقُومُ عَلَى فِعْلِ شَرْطٍ، وَجَزَاءٍ يَتَابِعُ الشَّرْطَ، وَعَمَادُ كُلِّ مَحَطَّةٍ فِعْلَانِ مَاضِيَانِ يَحْمَلَانِ فِي تَنَائِيهِمَا التَّحْقِيقَ، وَالتَّرْتِيبَ، فَسَمَاعُ الْغِنَاءِ يَعْقِبُهُ شَرْبُ الْخَمْرِ، ثُمَّ تَتَوَالَى الْأَفْعَالُ الْمَاضِيَةُ (سَمِعَ، شَرِبَ، طَرِبَ، وَهَبَ، عَطِبَ، اعْتَلَّ، انْحَلَّ، وَمَاتَ، وَفَاتَ) تَبَاعًا مَرْتَبَةً لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَسْبِقَ أَحَدُهَا الْآخَرَ، حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ الْمَطَافِ، وَهُوَ الْمَوْتُ، ثُمَّ الْقَوْتُ. مَسْتَلْهُمَا فِكْرِي تَرَاثَ الْجَاهِلِيِّينَ، مِمثْلًا فِي قَوْلِ قَسِّ بْنِ سَاعِدَةَ الْإِيَادِيِّ: "يَا مَعْشَرَ النَّاسِ، اجْتَمَعُوا فَكُلُّ مَنْ فَاتَ فَاتَ، وَكُلُّ شَيْءٍ آتٍ آتٍ، لَيْلٌ دَاجٍ، وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَبِحَرِّ عَجَاجٍ"⁽²⁾.

وَمِنْ التَّشْكِيْلَاتِ الشَّرْطِيَّةِ الَّتِي وَظَّفَهَا الْأَدْبَاءُ، اسْتَعْمَلَهُمْ دَالِ الشَّرْطِ (مَنْ)، حَيْثُ بَرَعَ عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِي فِي رَسْمِ أَكْثَرِ مِنْ مَشْهَدٍ مُعْتَمِدًا عَلَيْهَا، وَقَدْ حَمَلَ كُلُّ مَشْهَدٍ فِي طَيَّاتِهِ حِكْمَةً بَلِيغَةً، وَمِنْ شَوَاهِدِ ذَلِكَ قَوْلُهُ: "مَنْ غَرَسَ شَجَرَ الْحَلْمِ، اجْتَنَى ثَمَرَ السَّلْمِ"⁽³⁾. ففِكْرِي هُنَا قَدَّمَ حِكْمَةً رَائِعَةً مَوْظُفًّا أَسْلُوبَ الشَّرْطِ مُعْتَمِدًا عَلَى الْفِعْلَيْنِ الْمَاضِيَيْنِ (غَرَسَ، وَاجْتَنَى) فِي الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ. حَيْثُ نَجَدُ تَقْنِيَةَ الشَّرْطِ (مَنْ) رَسَمَتْ لَنَا الدَّلَالََةَ الَّتِي يَرِيدُ فِكْرِي إِبْصَالَهَا لِلْمَتَلَقِّي، وَالَّتِي تَكْمُنُ فِي الْإِغْرَاءِ؛ رَغْبَةً فِي الْبَحْثِ عَنِ دُرُوبِ الْحَلْمِ، لَضَمَانِ قَطْفِ ثَمَارِ السَّلْمِ.

وَفِي ذَاتِ السِّيَاقِ شَكَّلَ عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِي لَوْحَةً جَدِيدَةً مِنْ لَوْحَاتِ الشَّرْطِ مُعْتَمِدًا عَلَى الدَّالِ (مَنْ) مِنْ نَاحِيَةٍ، وَالْمُقَابَلَةِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، يَقُولُ: "مَنْ وَافَقَ صِرَاطَ الْإِعْتِدَالِ فِي دُنْيَاهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَافَقَ الْحَقَّ، وَفَازَ بِالْمَرَامِ، وَمَرَّ عَلَى صِرَاطِ الْآخِرَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَلِمَةَ الْبَرِّ الْخَاطِفِ إِلَى دَارِ السَّلَامِ، وَمَنْ انْحَرَفَ عَنِ صِرَاطِ الْإِعْتِدَالِ ذَاتِ الْيَمِينِ، وَذَاتِ الشَّمَالِ، وَقَعَ فِي الدُّنْيَا فِي نِيرَانِ مَسَاوِي الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ، وَانْحَرَفَ كَذَلِكَ عَنِ صِرَاطِ الْآخِرَةِ، فَوَقَعَ فِي نَارِ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ"⁽⁴⁾. فَقَدْ تَفَوَّقَ فِكْرِي عَلَى نَفْسِهِ فِي تَقْدِيمِ مَشْهَدَيْنِ مِنْ مَشَاهِدِ الشَّرْطِ، لَمَّا اعْتَمَدَ عَلَى الْمُقَابَلَةِ، الْأَوَّلِ: مَشْهَدِ السَّعَادَةِ الَّذِي يَنْتَهِي بِالْفَوْزِ بِالْمَرَامِ، وَالْمَرُورِ كَلِمَةَ الْبَرِّ الْخَاطِفِ

(1) فِكْرِي، الْأَثَارُ الْفِكْرِيَّةُ، (المَقَامَةُ الْفِكْرِيَّةُ)، (ص 293).

(2) ابْنُ كَثِيرٍ، الْبَدَايَةُ وَالنَّهَايَةُ، (ج 2/144).

(3) فِكْرِي، الْأَثَارُ الْفِكْرِيَّةُ، (المَقَامَةُ الْفِكْرِيَّةُ)، (291).

(4) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 295.

إلى دار السلام، والثاني: مشهد الشقاء الذي ينتهي بالانحراف عن صراط الآخرة، والوقوع في نار العذاب والنكال. وهذا الانتقاء البارغ لأداة الشرط (من)، واستعمال الفعل الماضي في الشرط والجزاء يؤكد على امتلاك فكري زمام اللغة، وتمكُّنه من نواصيها، وقدرته الفائقة على اختيار ما يناسب نوصه المقامية، وتوظيفها بأساليب متنوعة للدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، والحث على مكارم الأخلاق للوصول إلى الجنة ونعيمها، والبعد عن النار وجحيمها. وهذا ما أضفى على تعبيره طاقة تشكيلية هائلة.

أما بعد، فقد أبداع كتاب المقامة أيمًا إبداع في أعمالهم، وبرعوا في صناعة لوحات تترين بالتشكيل اللوني، وتتجمل بالتشكيل الحركي، وتتلون بالتشكيل الصوتي، والأسلوب. ففي عوالم التشكيل اللوني في المقامة رسم الأدياء كأبرع الفنانين، واختاروا الألوان كأحسن الرسامين، وقدموا لوحات فنية ترو إليها العيون فتقر بها، تتأثر بها القلوب فتانس صحبتها، تشعر بها الأحاسيس فتفاعل معها، وتتعلق بها الأفئدة فتعشقها. لوحات زيمًا حملت صورها قسامت الحزن في وجوه الكبار، ورسمت نسمات الفرح على محيا الأطفال الصغار، أو حملت في طياتها آلام التعب، وآهات الأحران، وما برحت المكان حتى رسمت بشائر الفرح، وبشريات السرور، وأعلت زغاريد الفرح، وأنشدت أغاني الجمال.

وصحبة السكون والحركة، أو رفقة الهدوء والثور، أبهنا كتاب المقامة بالتشكيلات الحركية التي رسمت صوراً ناطقة، ومشاهد حية، فعشنا مع روائعهم مشقة الرحيل، وعناء الترحال، وحبينا مع مقاماتهم سعادة الصعود، وشقاء الهبوط، وألم القهر، وقهر القنوط. ولكنهم لم يخلوا علينا برحلة أمل صوب البراعة، وسفر حلم تجاه الإبداع، كما لم يفتونا علينا بتسهم عبق الرياحين، وتلمس الجمال في شتى الميادين.

وعلى أنغام الموسيقى، وموسيقا الأنغام عزف الأدياء أجمل المقطوعات، وترنموا بأعذب الأغنيات، فحملت كل مقطوعة دقات شعورية تلهب المشاعر، وتثري الأحاسيس، ما بين نعمة وأخرى روعة وجمال، وفي كل كلمة حسن وجلال، تندفع صوبه الأبواب، وتطير تجاهه الأفئدة والقلوب، جمال لا تنتهي آثاره، وحسن لا تنضب مآهله. وجلال لا تنفذ خزائنه.

لقد طوّف الكتاب بمقاماتهم في مختلف الأصقاع، وحلقوا بها في مختلف الأجواء، وشئى الأنحاء التي تبرز جماليات التشكيل اللوني، والحركي، والتلويح الموسيقي، والصوتي، ومع التطواف لوحات فائقة، وحركة دائبة، وموسيقا عذبة، ومع التحليق ارتقاء نحو الجمال بكل دقائقه، وصعود تجاه الحسن بشئى معانيه.

وَفِي حَدَائِقِ الشَّكِيلِ الأُسْلُوبِيِّ تَنَقَّلَ الأُدْبَاءُ بَيْنَ مَحَطَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ، كُلَّمَا غَادَرُوا وَاحِدَةً حَطُّوا رِحَالَهُمْ فِي غَيْرِهَا فَأَبْدَعُوا وَفَاقُوا، فَقَدْ اسْتَهْلُوا الرِّحْلَةَ بِأُسْلُوبِ الأَمْرِ، وَتَابَعُوا بِالنَّهْيِ، وَالاسْتِفْهَامِ، وَالنَّدَاءِ، وَمَعَ كُلِّ أُسْلُوبٍ نَوَّعُوا فِي لُوحَاتِهِمْ، وَغَيَّرُوا فِي تَشْكِيلَاتِهِمْ.

وَلَمْ تَنْتَهِ الرِّحْلَةُ بَعْدُ فَتَحَرَّكُوا صَوْبَ التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ، وَوَاصلُوا المَسِيرَ تَجَاهَ التَّكْرَارِ وَالشَّرْطِ، فَنَقَلُوا المُنْتَقَى نَقْلَةً نَوْعِيَّةً نُحِيطُهَا أَجْوَاءٌ عَاطِفِيَّةٌ يَنْتَهِي بِهَا المَطَافُ بِشَوَاهِدِ أَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ، وَرَوَائِعِ أَرْقٍ مِنَ نَسِيمِ الصَّبَا، وَأَعْدَبَ مِنَ المَاءِ الزَّلَالِ.

سِمَاتِ المَقَامَاتِ فِي العَصْرِ العُثْمَانِيِّ

1- كَثْرَةُ الأَقْتِبَاسِ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ، فَقَدْ حَمَلَتِ المَقَامَاتُ العُثْمَانِيَّةُ الطَّابِعَ الدِّينِيَّ نَظراً لِطَبِيعَةِ المَجْتَمَعِ العُثْمَانِيِّ المُنْتَدِينَ، وَقَدْ ظَهَرَ الأَقْتِبَاسُ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ فِي مَقَامَاتِ هَذَا العَصْرِ وَاضِحاً، وَلَا أْبَالُغُ إِنْ قُلْتُ إِنَّ الأَقْتِبَاسَ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ لَمْ تَحُلْ مِنْهُ مَقَامَةٌ، وَقَدْ لَا أَنْحَرُفُ عَنِ الحَقِيقَةِ إِنْ قُلْتُ: إِنَّ بَعْضَ المَقَامَاتِ العُثْمَانِيَّةِ لَا يَكَادُ تَمُرُّ صَفْحَةً مِنْ صَفْحَاتِهَا إِلَّا وَتَحْمَلُ بَيْنَ سَطُورِهَا اِقْتِبَاساً مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ.

2- عَكَسَتِ المَقَامَاتُ فِي العَصْرِ العُثْمَانِيِّ الأَحْوَالَ السِّيَاسِيَّةَ، فَقَدْ حَمَلَتِ النُّصُوصُ المَقَامِيَّةُ الطَّابِعَ السِّيَاسِيَّ، فَلَمْ يَكُنْ هَذَا الفَنُّ بِمَنَآئِ عَنِ السِّيَاسَةِ، حَيْثُ اسْتَوْعَبَتِ المَقَامَاتُ مَسَاحَةً شَاسِعَةً مِنْ هَذَا المَوْضُوعِ، رُبَّمَا ارْتَبَطَ هَذَا الإِتْسَاعُ بِاتِّسَاعِ الدَّوْلَةِ العُثْمَانِيَّةِ الَّتِي امْتَدَّتْ إِلَى ثَلَاثِ قَارَاتٍ، هِيَ آسِيَا وَأُورُوبَا، وَأَفْرِيقِيَا.

3- عَكَسَتِ المَقَامَاتُ فِي العَصْرِ العُثْمَانِيِّ الأَحْوَالَ الاجْتِمَاعِيَّةَ، وَمِنْ هُنَا يُمَكِّنُ القَوْلُ إِنْ الظَّاهِرَةَ العَامَّةَ الَّتِي انْتَسَمَتْ بِهَا المَقَامَةُ عَامَةً هِيَ ظَاهِرَةُ النَّدَى وَالثَّوْرَةِ، وَكَشَفَ العِيُوبِ الإِنْسَانِيَّةَ، وَإِظْهَارِ المَشْكَلاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، مَعَ مُحاوَلَةِ وَضْعِ البَدِيلِ لَهَا فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ، وَإِجَادِ الحُلُولِ المُنَاسِبَةِ مِنْ جِلَالِ فَنِّ المَقَامَةِ.

4- عَكَسَتِ المَقَامَاتُ فِي العَصْرِ العُثْمَانِيِّ الأَحْوَالَ الدِّينِيَّةَ، فَقَدْ ظَهَرَتِ المَوْضُوعَاتُ الدِّينِيَّةُ فِيهَا مُنْذُ نَشْأَتِهَا، حَيْثُ أَكْثَرَ رِوَادُ هَذَا الفَنِّ مِنْ ذِكْرِ مِثْلِ هَذِهِ المَوْضُوعَاتِ كَمَا هُوَ الحَالُ فِي مَقَامَاتِ نَاصِيْفِ اليَازِجِيِّ، وَمَقَامَاتِ شِهَابِ الدِّينِ الحَقَاجِيِّ، وَالشَّدِيَاقِيِّ، وَمَعَاصِرِيهِمْ لِانْتِشَارِ النُّزْعَةِ الصُّوفِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَشِيْعُ فِي المَجْتَمَعِ آنَذَكَ. وَمِنْ البَدْهِيِّ أَنْ يَحْمَلَ العَصْرُ العُثْمَانِيُّ مَزِيداً مِنَ القِيمِ الدِّينِيَّةِ خَاصَّةً أَنَّ المَجْتَمَعِ العُثْمَانِيَّ صَبِغَتْ حَيَاتُهُ بِتِلْكَ الصَّبْغَةِ الدِّينِيَّةِ.

5- لَمْ تَبْرَحِ المَقَامَاتُ الوَطْنَ العَرَبِيَّ، وَلَمْ تَهْمَلْ جُغْرَافِيَّتَهُ، فَقَدْ حَمَلَتْ كَثِيرٌ مِنَ المَقَامَاتِ فِي العَصْرِ العُثْمَانِيِّ أَسْمَاءَ دُولٍ عَرَبِيَّةٍ، كَالْمِصْرِيَّةِ، وَاليَمِينِيَّةِ، وَالمَغْرِبِيَّةِ، وَالعِرَاقِيَّةِ، كَمَا حَمَلَتْ مِنْهَا

أسماء لعواصم، ومدنٍ عربيّة، كالقُدسيّة، والدّمشقيّة، والإسكندريّة، والمكّيّة، والحليّة، والحليّة، والحبليّة، كما اقترنَ بعضها بأسماء الشّخصيّات، كالمعريّة، كذلك حملَ بعضها أسماء أسواقٍ ارتبطَ اسمُها بالأدب، كالعكاظيّة، وهذا إن دلَّ على شيءٍ فإنّه يدلُّ على الاعتزازِ بالمرورِ العربيِّ والإسلاميِّ.

6- إنّ المقاماتِ في العَصْرِ العُثمانيِّ وضعتنا أمامَ صورةٍ لحالِ المجتمعاتِ العربيّةِ في العهدِ العُثمانيِّ الَّذي عاشَ فترةَ أمجادٍ وانتصاراتٍ، اعتراها أحياناً بعضُ الاضطراباتِ، والصّراعاتِ الداخليّةِ والخارجيّةِ، ورغمَ ذلكَ بقيَ هذا المجتمعُ يقدّسُ الدّينَ، ويحترمُ رجاله، أمّا من حيثِ الثّقافةِ السّائدة، فهي ثقافتُ إسلاميّةٍ سيطرتُ عليها الظّاهرةُ الدّينيّةُ، ممثلةً في الصّوفيّةِ الّتي تمكّنتُ من عقولِ المتّقين، والأدباءِ، والعلماءِ، وعمومِ أفرادِ المجتمعِ، وقد انعكستُ هذه الثّقافةُ على فنِّ المقاماتِ، لا أقولُ كلّها، بل معظمها، حيثُ سيطرتُ النزعةُ الدّينيّةُ عليها.

7- إنّ فنَّ المقامةِ في العَصْرِ العُثمانيِّ سائرَ الأدبِ العربيِّ في جميعِ عصوره منذُ ظهوره في القرنِ الرّابعِ الهجريِّ، فلم يبتعدِ الأدباءُ عن سابقهم، بل نهجوا نهجهم، واقتفوا أثرهم.

8- وكما كانتِ المقامةُ في العَصْرِ العُثمانيِّ موسوعةً شاملةً للفنونِ كافّةً من فلكٍ، وطبٍّ، وتاريخٍ، فإنّها كذلكَ لم تخلُ من الفكاهةِ، فقد حاولَ أدباءُ المقامةِ طرُقَ أبوابِ الهزلِ والفكاهةِ، وإن اختلفَ الأمرُ عن سابقهم، ومن هذه المقاماتِ، المقامةُ الهزليّةُ، وإن لم تصلِ إلى ما أصابته المقاماتُ السّابقةُ في هذا الموضوعِ، وأظنُّ أنّ في هذه المقامةِ ما نطلعُ منه على جملةِ الصّفاتِ والخصائصِ الّتي يميّزُ بها ناصيفُ اليازجيِّ، فاسمُها المقامةُ الهزليّةُ، ومعنى ذلكَ أنّه حاولَ أن يُجري فيها تياراً من الهزلِ والفكاهةِ، على نحوِ ما رأينا عندَ بديعِ الزّمانِ الهمدانيِّ، والحريريِّ، والقارئيِّ يلاحظُ معنا أنّ فكاهةَ اليازجيِّ جامدةٌ، وأن تيارها لا يتدفّقُ، فمن غيرِ شكِّ أنّ هذا التّيّارَ أقوى عندَ بديعِ الزّمانِ، والحريريِّ منه، وكأنّ طبيعةَ اليازجيِّ الجديّةِ حالتُ بينه وبينَ رُوحِ الدّعابةِ والفكاهةِ.

9- أمّا عن بلاغةِ المقامةِ فلكَ أن تتحدّثَ ولا حرجَ، فقد انسابتُ أقلامُ الأدباءِ تنقّي من صورِ البيانِ أعذبها، ومن روائعِ البديعِ أجملها، فرسموا لوحاتٍ حملتُ كلّ معاني الجمالِ، وقدموا تشكيلاتٍ احتوتُ جُلَّ صورِ الجلالِ، خطّوا فسحروا العيونَ، وترنّموا فأطربوا الأسماعَ، وتغنّوا فأثاروا المشاعرَ والأحاسيسَ، عشقوا المقامةَ واعتلوا صهواتِ خيولها الّتي ارتحلتُ بعيداً، وحلّقتُ عالياً صوّبَ عوالمِ البراعةِ والإبداعِ، وتجاهَ دُرُوبِ الحُسنِ والبهاءِ والإمتاعِ.

الخاتمة

أما بعدُ، فقد كانت المقامات قصةً توالى أحداثها فكانت، وما فتئت أجمل قصةً، وأضحت روايةً تتابعت فصولها فكانت، وستظل أحدى روايتي، واستحالت قصيدةً تعددت أبياتها فكانت أروع قصيدةٍ، لقد غدا كتابها أيقونةً في الأدب العربي، وبوصلةً تُحدد المسار لكثير من الأدباء، وزهرةً يفوح شذاها في كل زمانٍ، وفي أي مكانٍ.

المقامة الوطن والوطنية، وكتابتها المبدعون والباحثون عن الهوية، منهم القائد والصنديد، والفرس الحديد، ومنهم السيف القاطع، والكلمة المدوية، ومنهم الثقافة الواسعة، والتأريخ الناصع، وأعمالهم مثلت كل حق بيّن، وأي حلم جميل، وكلّ لحن عذب، فهم من لا يتسع مداً الكلمات لمدهم، ولا عداد الآهات لرتائهم، وقد لا يكفي نقيب الدهر لبكائهم.

لا أدري وسوف أخال أدري صراحةً كيف انطلق قلّمي لينساب بهدوء هذه المرة كي يسطر كل هذه الكلمات، وأظنها لا تفي، ولو أطلقت العنان لريشتي ما توقفت لحظة عن المدح، ولا كبح شكيמתها حاجز ليوقفها عن التعبير عن روائع هذا النموذج، وذلك الفنّ الأنموذج، لكنّها سنّة الحياة التي ترسم لكل أول خاتمة، ولكل بداية نهايةً.

في عوالم التشكيل في المقامة رسم الكتاب كأربع فنّان، واختاروا الألوان كأحسن رسام، وقدموا لوحاتٍ فنيةً ترنو إليها العيون فتقرّ بها، وتتأثر بها القلوب فتأنس صحتها، وتشعر بها الأحاسيس فتتفاعل معها، وتتعلق بها الأفئدة فتعشقها. لوحاتٌ زيّما حملت صورها قسما الحزن في وجوه التكالى والكبار، ونسما الفرح على مضيّ الأطفال الصغار، أو حملت في طبيعتها آلام القهر، وقهر الآلام، وما برحت المكان حتى رسمت بشائر العزة، وبشريات الانعتاق، وأعلت زغاريد الفرح، و أنشدت أغاني الانتصار.

وصحبة السكون والحركة، أو رفقة الهدوء والتوتر أبهرنا كتاب المقامة بالتشكيلات الحركية التي رسمت صوراً ناطقة ومشاهدة حيّة، فعشنا مع روائعهم مشقة الرحيل، وعناء الترحال، وحيينا مع مقاماتهم سعادة الصعود، وشقاء الهبوط، وتدوّقنا مع نصوصهم ألم القهر، وقهر القنوط. ولكنهم لم يخلوا علينا برحلة أملٍ صوب الجمال، وسفر حلم تجاة الكمال، كما لم يضيّنا علينا بتنسّم عبق الرياحين، وتلمس الجمال في شتى الميادين.

هكذا غنى الأدباء فأضحت كلماتهم فنوناً وأفناناً، وبديعاً من شتى الألوان، حاربوا فغدت روائعهم سيوفاً مشرعات، وبيض صفائح بانترات، وقنابل مدويات تصيب بلعناتها قلوباً وحنالات، وتصفع وجوهاً حالكات، وتمزق أستاراً زائفات. وترنّموا بكلماتٍ مختاراتٍ علت فوق الهامات،

وتبوّأت بينَ الفنونِ أمكنةً عالياتٍ، فعدّت كالرّياتِ الخافقاتِ، وأصابتِ المجدَ في الوهادِ والرّوباتِ، فأضحتُ كعقدِ الدُرِّ في جياذ الغيدِ والحسناواتِ، وكالتّيجانِ المرصّعةِ بالجواهرِ واللائي فوقَ رؤوسِ الحسانِ، والملكاتِ.

وداعاً لكلمةٍ لا تُنسى، وسيفٍ لم يُقلِّ، ولحنٍ عزّ لمّا ينته، وقبسٍ نورٍ لن يخبو، وعصرٍ لا تفارقُ قسماتهُ محياً كلَّ إنسانٍ فتانٍ، بلّ كلَّ فتانٍ إنسانٍ. لكنّنا الآنَ ننتظرُ عودةَ الفارسِ من جديدٍ، ورجوعَ الأملِ من جديدٍ، ورُبّما يحملُ قادمُ الأيامِ الأمانِي والآمالَ، التي تقهرُ مواطنَ الآلامِ، وآلامِ المَواطِنِ.

أخيراً وبعدَ هذه الرحلةِ الشاقّةِ في فنّ المقاماتِ، وعقبَ الإبحارِ في ثنايا نُصُوصها في العَصْرِ العُثمانيِّ، يجدرُ بالباحثِ أن يسجّلَ أهمّ ما وصلَ إليه من نتائجٍ، ويجمّعها في صعيدٍ واحدٍ، ومن ثمّ يُقدّمَ بعضَ التّوصياتِ.

أولاً: النتائجُ

- 1- إنَّ العَصْرَ العُثمانيِّ قد تعرّضَ للظلمِ الشديديّ ذوّنَ وازعٍ من ضميرٍ لدَى بعضِ النُقّادِ.
- 2- العَصْرُ العُثمانيُّ حملَ من الرّوائعِ في الأدبِ من ناحيّةٍ، وأنجبَ شخصياتٍ أدبيّةً بارزةً من ناحيّةٍ أُخرى رُبّما تعجزُ الأقلامُ أن تفيها حقّها.
- 3- إنَّ الإبداعَ الأدبيّ لا يرتبطُ بزمانٍ أو بمكانٍ، بل انطلقَ ذلكَ الإبداعُ يغرّدُ في كلّ الفِضاءاتِ، وبِحريّةٍ لا حدودَ لها في سنى أنحاءِ الدّولةِ العثمانيّةِ.
- 4- إنَّ فنّ المقاماتِ في العَصْرِ العُثمانيِّ كانَ فيه من الإبداعِ ما أسكتَ ألسنةَ المتطاولينَ على العَصْرِ العُثمانيِّ، وشفاً غليلَ المنصفينَ لهذا العَصْرِ.
- 5- حملتِ المقاماتُ عقبَ الثّراثِ، فلم تنفصلْ عنه تماماً، لكنّها جدّدتْ في كثيرٍ من الأمورِ بما يلائمُ العَصْرَ من ناحيّةٍ، وما يتطلّبُه الواقعُ من ناحيّةٍ أُخرى.
- 6- إنَّ المقاماتِ أخذتْ مكانتها بينَ الفنونِ النثريّةِ التي سبقتها، بل وناستها في كثيرٍ من الأزمنةِ.
- 7- المقاماتُ مفخرةٌ لأبناءِ العروبةِ في كلّ زمانٍ ومكانٍ بعيداً عن الحيّزِ الذي كتبتْ فيه هذه المقاماتُ، رَغْمَ تحلّي كثيرٍ من أدباءِ العربِ عن تاريخهم، وتعلّقهم بالغربِ بحثاً عن الشهرةِ، والعالميّةِ.

8- اسْتَطَاعَ فَنُّ الْمَقَامَةِ، وَقُوَّةٌ أَنْ يَنَافَسَ الْفُنُونَ الْأَدَبِيَّةَ الْأُخْرَى، بَلْ وَيَتَفَوَّقَ عَلَيْهَا فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ، وَالْعُصُورِ الْأَدَبِيَّةِ السَّابِقَةِ، وَهَذَا رَدٌّ عَلَى مَنْ أَصَرَ عَلَى وَسْمِ الْعَصْرِ بِالْجُمُودِ وَالتَّخَلُّفِ، وَوَصَفِ أَدَبِهِ بِالضَّعْفِ، وَالْأَنْحِطَاطِ.

9- انطلق أدباء المقامات في شتى الأرجاء، واندفعوا يرسمون أجمل اللوحات في الأرض والسما، فلم يتركوا يابساً ولا ماءً، ولا وادياً ولا صحراء، إلا وشقوا طرقها، وسلكوا دروبها، وقصدوا سبيلها، كما لم يتركوا امرأة ولا حسناء إلا ووصفوا حسنها، ورسوموا ملامح جمالها، وجابوا السهول، والصحاري، وقطعوا الوديان، والفيافي، فأطلقوا العنان لأقلامهم لتكتب أنى شئت الكتابة، وتركوا الحرية لريشتهم لترسم أيان رغبت الرسم ما أبدعت عقليتها من اللوحات البديعة، حتى غدت المقامات مرآة صافية لهذا العصر، ينظر الرائي إليها أنى شاء؛ ليجد من الروائع متى شاء ما يشاء.

10- حفلت النصوص المقامية في العصر العثماني بالخصائص الفنية في اللغة والأسلوب، وتزينت بالأساليب البيانية من تشبيهات، واستعارات، وكنيات، وتوشحت بالمحسنات البديعية المعنوية واللفظية، كما ازدانت بروائع التشكيل اللوني، والحركي، والصوتي، والأسلوبي، فعدت المقامات حداثق غناء يرتادها الدارسون ليقطفوا من جمال أزهارها، ومناهل عذبة يردها الباحثون ليشربوا من عذب مائها.

ثانياً: التّوصيات

- 1- الاهتمام بدراسة التّراث البلاغيّ الذي يُمثّل كنزاً من كنوز العربيّة، وإعادة صياغة مؤلفاته بما ييسر النّعامل معها، خاصّة في ظلّ التّطورات والتّغيرات التي نعيشها من ناحية، وبما يحقّق الفائدة من ناحية أخرى، وفي مقدّمة هذا التّراث، الأدب العثمانيّ.
- 2- توجّيه عناية الطّلاب والباحثين إلى دراسة الأدب العثمانيّ، والتخصّص فيه، خاصّة فنّ المقامات الذي يُمثّل كنزاً من كنوز الأدب، والبلاغة.
- 3- تكثيف الجهود لدحض الإشاعات المغرضة التي تهدف إلى النيل من العصر العثمانيّ، توطئة للنيل من تراثنا العربيّ والإسلاميّ، لأسبب القرآن الكريم، والسنة النبويّة الشريفة.
- 4- الاهتمام بالدراسات البلاغيّة الملتزمة، وذلك لما تضيفه هذه الدراسات للغة من سعة، وما تمنحه للبلاغة من حفظ وتمكّن.
- 5- إعطاء العصر العثمانيّ عناية أكبر، ومساحة أوسع في الدّراسات الأدبيّة، والبلاغيّة؛ لأنّه يُمثّل كنزاً دفيناً من الكنوز التي تحتاج إلى التّقيب والبحث لاكتشافها، وسير أغوارها.
- 6- توجيه الدّراسات نحو البلاغة العربيّة، فإنّها جامعة لكثير من الأساليب البلاغيّة، والألوان البيانيّة، والفنون البديعيّة التي يستحيل أن يحدّها حدّ، أو يحصيها أيّ عدّ.
- 7- الاهتمام بفنّ المقامات، ودراستها، وتوفير المصاير التي تناولتها، وتشجيع الدّارسين للبحث فيها.
- 8- الاهتمام بتوفير المصاير القديمة، والمراجع الحديثة، والوسائط التّقنيّة التي تساعد في جمع المعلومات حول العصر العثمانيّ، وتوفيرها للباحثين.

الْمَصَادِرُ

وَ

الْمَرَاجِعُ

المصادر والمراجع

- إبراهيم، زكريا. (1988م). *فلسفة الفن في الفكر المعاصر، دراسات جمالية*. ط1. القاهرة: دار مصر للطباعة.
- إبراهيم، محمد حافظ. (2012م). *ليالي سطيح*. (د. ط)، القاهرة: مؤسسة هنداوي للنشر والطباعة.
- إبراهيم، وفاء محمد. (1992م). *علم الجمال، قضايا تاريخية ومعاصرة*. ط1. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر.
- ابن الأثير، ضياء الدين. (1959م). *المثل السائر في أدب الأديب والشاعر*. تحقيق: محمد الحوفي، بدوي طبانة. ط2. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.
- أحمد، محمد الحسن علي أمين. (1405هـ، 1985م). *الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي*. (د. ط). (د. م): المكتبة الفيصلية.
- ابن الأحنف، العباس. (1373هـ - 1954م). *ديوان العباس بن الأحنف*، شرح وتحقيق: عاتكة الخزرجي. (د. ط). القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية.
- أدونيس، علي أحمد سعيد. (1984م). *الثابت والمتحول، بحث في الإتياع والإبداع عند العرب*، 3- "صدمة الحداثة". ط4. بيروت: دار العودة.
- أدونيس، (علي أحمد سعيد). (1983م). *زمن الشعر*. ط3. بيروت، لبنان: دار العودة.
- إسماعيل، عز الدين. (1974م). *الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنة*. ط3. القاهرة: دار الفكر العربي.
- إسماعيل، عز الدين. (1962م). *التفسير النفسي للأدب*. (د. ط). بيروت، لبنان: دار العودة ودار الثقافة، بيروت، لبنان.
- الأسمرى، عبد العزيز محمد علي. (1435هـ - 2014م). *القضية الفلسطينية في شعر عبد الرحمن بارود*. رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية: كلية اللغة العربية.
- الأصبهاني، الراغب. (1902م). *محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء*. تحقيق: إبراهيم زيدان. مصر: مكتبة دار الهلال.

الأصْفَهَانِي، الرَّاغِب. (د. ت). *المُفْرَدَاتُ غِي غَرِيبُ الْقُرْآنِ*. تحقيق: مركز الدَّرَاسَاتِ والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز. (د. ط). مكتبة نزار مصطفى الباز.

الأعشى، مَيْمُون بن قيس. (1950م). *ديوان الأعشى الكبير مَيْمُون بن قيس*. شرح وتعليق: مُحَمَّد حسين. (د. ط). القاهرة: المطبعة النَّمُوذجِيَّة.

الألباني، مُحَمَّد ناصر الدين. (1412هـ-1992م). *سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة*. ط1. الرياض، المملكة العربية السعودية: دار المَعَارِف.

الألباني، مُحَمَّد ناصر الدين. (1400هـ-1980م). *غاية المرام في تخريج احاديث الحلال والحرام*. ط1. بيروت، دمشق: المكتب الإسلامي.

ابن الألويسي، محمود شهاب الدين بن عبد الله الحسيني. *مقامات ابن الألويسي*، نسخة مخطوطة، دار الكُتُبِ المِصرِيَّة، أدب تيمور 768.

أمين، أَحْمَد. (1387هـ-1967م). *النَّقْدُ الأَدْبِي*. ط4. بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي.

أمين، بكرى شيخ. (1979م). *مطالعات في الشعر المملوكي والعُثماني*. ط2. بيروت: دار الآفاق الجديدة.

الأندلسي، أبو حيان مُحَمَّد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي. (1987م). *البحر المحيط*. ط2. بيروت، لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

الأَنْصَارِي، الأَحْوَص. (1411هـ-1990م). *شعر الأَحْوَصِ الأَنْصَارِي*، جمع: عادل سليمان جمال، تقديم: شوقي ضيف. ط2. القاهرة: مكتبة الخانجي.

الأَنْصَارِي، أبو عبد الله ابن هشام. (1966م). *أوضح المسالك عَلَى أَلْفِيَةِ ابن مالك*. ط5. بيروت، لبنان: دار إحياء التُّرَاثِ العربي.

الأَنْصَارِي، أبو عبد الله بن هشام. (د. ت). *مغني اللبيب عن كتب الأعراب*. تحقيق: مُحَمَّد محي الدين عبد الحميد. (د. ط). بيروت، لبنان: دار الشَّامِ للتُّرَاثِ.

أنيس، إِبْرَاهِيم. (1961م). *الأَصْوَاتُ اللُّغَوِيَّة*. (د. ط). مصر: مكتبة نهضة مصر ومطبعتها.

أنيس، إِبْرَاهِيم، وعبد الحليم منتصر. (1971م). *المُعْجَم الوسيط*. ط2. القاهرة: (د. ن).

أهل الحَدِيث. (2003م، 28 ديسمبر). *بلعم بن عوراء*. تاريخ الاطلاع: 23 مارس 2017م. الموقع: أهل الحَدِيث www.ahlalhdeth.com

- البحترى، أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى التتوخي الطائي. (1964). *ديوان البحترى*. تحقيق: حسن كامل الصيرفي. ط3. مصر: دار المعارف.
- البحراوي، سيد. (2003م). *المدخل الاجتماعي للأدب*. (د. ط). القاهرة: دار الثقافة العربية.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. (1417هـ - 1997م). *صحيح البخاري*. ط1. الرياض: دار السلام.
- بدوي، أحمد زكي. (1991م). *مُعْجَم مصطلحات الدراسات الإنسانية*. (د. ط)، بيروت: دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني.
- البرجاوي، عبد الرؤوف. (1981م). *فُصُول في علم الجَمال*. ط1. بيروت، لبنان: دار الآفاق العربية.
- ابن برد، بشار. (1386هـ - 1966م). *ديوان بشار بن برد*. تقديم وشرح: محمد الطاهر بن عاشور. (د. ط). القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- البيستاني، بطرس. (1977م). *محيط المحيط*. ط1. بيروت: مكتبة لبنان.
- البغدادى، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي. (د. ت). *زاد المسير في علم التفسير*. ط1. دمشق، بيروت: المكتب الإسلامي للطباعة والنشر.
- البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر. (1995م). *نظم الدرر في تناسب الآيات والسور*. ط1. بيروت. لبنان: دار الكتب العلمية.
- بهنسي، عفيفي. (د. ت). *فلسفة الفن عند أبي حيان التوحيدي*. (د. ط). دمشق، سوريا: دار الفكر.
- البيطار، عبد الرازق. (1993م). *حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر*. تحقيق: محمد بهجة البيطار. ط2. بيروت: دار صادر.
- تأبط شراً. (1999م). *ديوان تأبط شراً وأخباره، جمع وتحقيق وشرح: علي ذو الفقار شاكِر*. ط2. بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيباني. (1414هـ - 1994م). *شرح ديوان أبي تمام*. تحقيق: راجي الأسمر. ط2. بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي.

- تليمة، عبد المنعم. (2013م). *مدخل إلى علم الجمال الأدبي*. (د. ط). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- التّهانوي، مُحَمَّد علي. (1996م). *كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم*. تحقيق: رفيق العجم، وعلي دحروج. ط1. بيروت، لبنان: مكتبة لبنان.
- التَّوْحِيدِيّ، أبو حيان علي بن مُحَمَّد بن العباس. (1408هـ - 1988م). *البصائر والنخائر*، تحقيق: وداد القاضي. ط1. بيروت، لبنان: دار صادر.
- التَّوْحِيدِيّ، أبو حيان علي بن مُحَمَّد بن العباس. (د. ت). *الهوامل والشوامل*. تحقيق: سيد كسروني. (د. ط)، بيروت، لبنان: دار الكُتُب العلميّة.
- التُّونْجِي، مُحَمَّد. (1413هـ - 1993م). *المُعْجَم المفصل في الأدب*. ط1. بيروت، لبنان: دار الكُتُب العلميّة.
- جاء الله، أسامة عبد العزيز. (2009م). *جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم*. ط1. طنطا، مصر: دار ومكتبة الإسراء للطبع والنشر والتوزيع.
- الْجَاحِظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (1418هـ - 1998م). *البيان والتبيين*، تحقيق: عبد السلام هارون. ط7. بيروت - لبنان: دار الجيل.
- الْجَاحِظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (1384هـ - 1965م). *الحيوان*. تحقيق: عبد السلام هارون. ط2. القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.
- الجري، مُحَمَّد رمضان. (1997م). *البلاغة التطبيقية دراسة تحليلية لعلم البيان*. ط1. الخمس، الجماهيرية العظمى: منشورات جامعة ناصر.
- الْجُرْجَانِي، أبو بكر عَبْد الْقَاهِر بن عبد الرحمن بن مُحَمَّد. (1412هـ - 1991م). *أسرار البلاغة*. ط1. قراءة وتعليق: محمود مُحَمَّد شاكر، جدة، المملكة العربية السعودية: دار المدني.
- الْجُرْجَانِي، أبو بكر عَبْد الْقَاهِر بن عبد الرحمن بن مُحَمَّد. (1375هـ). *دلائل الإعجاز*. قراءة وتعليق: محمود مُحَمَّد شاكر. (د. ط). القاهرة: مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع.
- جرير، أبو حزة جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي. (د. ت). *ديوان جرير*. شرح: إيليا أبو ماضي، (د. ط)، لبنان: دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع.

- الجزائريّ، عبد القادر. (1989م). *ديوان عبد القادر الجزائريّ*، جمع وتحقيق: العربي دحو. ط2. الجزائر: منشورات تاله.
- الجزائريّ، مُحَمَّد بن مَيْمُون. (1981م). *التحفّة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية*. تحقيق: مُحَمَّد بن عبد الكريم. ط2. الجزائر: الدار الوطنية للنشر والتّوزيع.
- ابن جعفر، أبو الفرج قدامة. (د ط). *نقد الشعر*. ط1. بيروت: دار الفكر.
- جمعة، حسين. (2002م). *جماليّة الكلمة، دراسة جماليّة بلاغية نقدية*. ط1. دمشق، سوريا: منشورات اتّحاد كتاب العرب.
- ابن جندل، سلامة بن جندل بن عبد عمرو، أبو مالك. (1987م). *ديوان سلامة بن جندل*. تحقيق فخر الدين قباوة. ط2. بيروت: دار الكُتب العلميّة.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن. (د. ت). *زاد المسير في علم التفسير*. (ط1). دمشق، بيروت: المكتب الإسلامي للطباعة والنّشر.
- الجوهريّ، أبو نصر إسماعيل بن حماد. (1987م). *الصاحح - تاج اللّغة وصاحح العربيّة*. تحقيق: أَحْمَد عبد الرؤوف عطار. ط4. بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.
- جويو، جان ماري. (1948م). *مسائل فلسفة الفن المعاصرة، ترجمة سامي الدُرُوبي*. ط1. القاهرة: دار الفكر العربيّ.
- الجيار، مدحت سعيد. (1984م). *الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي*. (د. ط). الجماهيرية العظمى، تونس: الدار العربيّة للكتاب، والمؤسسة الوطنيّة للكتاب.
- الحريريّ، أبو القاسم مُحَمَّد بن علي. (1873م). *مقامات الحريري*. (د. ط). بيروت، لبنان: مطبعة المَعَارِف.
- الحريريّ، مُحَمَّد فتحي. (2011م، 5 يناير). *القطا في الحديث الشريف، وكلام العرب*. تاريخ الاطلاع: 2 يناير 2017م. الموقع: المعهد الإسلاميّ. www.islamicforumarab.com
- حسن، أَحْمَد عبد الرحيم. (1986). *في أصول التّاريخ العثمانيّ*. ط3. القاهرة: دار الشروق.
- حسن، مُحَمَّد رشدي. (1974م). *أثر المَقامة في نشأة القصّة المصريّة الحديث*. (د. ط). القاهرة: الهيئة المصريّة العامة.

- الحصريّ، إبراهيم بن علي بن تميم. (2005م). *زهر الآداب وثمر الألباب*. (د. ط.). تحقيق: صلاح الدين الهواري، دمشق: دار الفكر.
- الحطيئة، أبو مليكة جرول بن أوس بن مالك العبسي. (1413هـ - 1993م). *ديوان الحطيئة*. تحقيق: مفيد محمد قميحة. ط1. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- ابن حمادوش، عبد الرزاق. (1983م). *رحلة ابن حمادوش الجزائريّ*. تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعدالله. (د. ط.). الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر.
- الحمدانيّ، أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان. (1414هـ - 1994م). *ديوان أبي فراس الحمدانيّ*. ط2. شرح: خليل البويهي. بيروت، لبنان: دار الكتاب العربيّ.
- الحمصي، ديك الجن، أبو محمد عبد السلام بن رغبان. (2004م). *ديوان ديك الجن الحمصي*. تحقيق: أحمد مطلوب، وعبد الله الجبوري. ط1. بيروت، لبنان: دار الثقافة.
- الحمويّ، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله ابن حجة. (1987م). *خزانة الأدب وغاية الأرب*، تحقيق: عصام شعيتو. (ط1). بيروت، لبنان: دار ومكتبة الهلال.
- الحنفي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي. (1998م). *الكليات مُعجم في المُصطلحات والفروق اللغوية*. تحقيق: عدنان درويش، وحمد المصري. ط2. بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة.
- الخفاجيّ، أحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين. (1386هـ - 1967م). *ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا*. تحقيق: عبد الفتاح الحلو. ط1. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي.
- الخفاجيّ، أحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين. (د. ت.). *طرار المجالس*. (د. ط.). (د. م.): المطبعة الوهبية.
- الخفاجيّ، عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان. (1402هـ - 1982م). *سر الفصاحة*. ط1. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- خليفة، عبد الكريم. (1987م). *الألوان في مُعجم العربية*، مجمع اللغة العربية الأردني، الأردن، العدد 33، 1 ديسمبر 1987م. (مجلة).
- خليل، محمود إبراهيم. (2003م). *النقد الأدبيّ الحديث من المحاكاة إلى التفكيك*. ط1. عمان، الأردن: دار المسيرة للنشر والتوزيع.

- الخنساء، تماضر بنت عمرو. (1425هـ - 2004م). ديوان الخنساء. تحقيق: حمدو طماس. ط2. بيروت- لبنان: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي. (د. ت). سنن أبي داود، تحقيق: مُحَمَّد محي الدين عبد الحميد. (د. ط)، صيدا، لبنان: المكتبة العصرية.
- الدّاية، فايز (1990م). جماليّات الأسلوب والصورة الفنيّة في الأدب العربيّ. ط3. بيروت، دمشق: دار الفكر المعاصر.
- الدّوري، عياض عبد الرحمن. (د. ت). دلالة اللّون في الفن العربيّ. (د. ط)، بغداد: دائرة الشؤون الثقافيّة.
- أبو ديب، كمال. (1982م). في البنية الإيقاعية للشعر العربيّ. ط2. بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.
- الدّبّانيّ، زياد بن معاوية بن ضباب النابغة. (د. ت). ديوان النابغة الدّبّانيّ. تحقيق: شكري فاضل. (د. ط). دمشق: دار الفكر.
- ابن ربيعة، العجاج. (1969م). ديوان العجاج. تحقيق: عبد الحفيظ السّطليّ. ط1. دمشق: مكتبة أطلس.
- ابن أبي ربيعة، عمر بن عبد الله. (1934). ديوان عمر بن أبي ربيعة. (د. ط). بيروت، لبنان: دار القلم للطباعة والنّشر.
- ابن أبي ربيعة، عمر بن عبد الله. (1371هـ - 1952م). شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزوميّ. محي الدين عبد الحميد. ط1. مصر: المكتبة التجاريّة الكبرى.
- الرّكابي، جودت. (1970م). الألبّ العربيّ من الانحدار إلى الازدهار. ط1. دمشق، سوريا: دار الفكر.
- الرّندي، أبو البقاء، صالح بن يزيد بن صالح (د. ت)، ديوان أبو البقاء الرّندي. تحقيق: حياة قارة. ط1. الإسكندريّة: مركز البابطين لتحقيق المخطوطات الشعريّة.
- ابن الرّوميّ، علي بن العباس. (1423هـ - 2002م). ، ديوان ابن الرّوميّ، تحقيق: أحمد حسن بسج. ط3. بيروت، لبنان: دار الكُتب العلميّة.

الزبيدي، مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الرزاق المرتضى. (1393هـ - 1973م). تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مُحَمَّد حجازي. (د. ط). الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

الزركشي، بدر الدين مُحَمَّد بن عبد الله. (1988م). البرهان في علوم القرآن. تقديم وتعليق: مُحَمَّد عبد القادر عطا. ط1. بيروت، لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

الزركلي، خير الدين. (2002م). الأعلام. ط15. بيروت، لبنان: دار العلم للملايين. زكريا، إبراهيم. (2002م). أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء. ط1. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر.

الزمرخشي، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله. (1429 هـ - 2008م). ديوان جارالله الزمرخشي. شرح: فاطمة يوسف الخيمي. ط1. بيروت، لبنان: دار صادر.

ابن زهير، كعب. (1417هـ - 1997م)، ديوان كعب بن زهير. تحقيق وشرح وتقديم: علي فاعور. (د. ط). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

سالم، مُحَمَّد عزيز نظمي. (1996م). قراءات في علم الجمال حول الإستيقا النظرية والتطبيقية. ط1. (د. م): مؤسسة شباب الجامعة.

ستولنيتز، جيروم. (2007م). النقد الفني، دراسة جمالية وفلسفية، ترجمة فؤاد زكريا. ط1. الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.

السخاوي، شمس الدين مُحَمَّد بن عبد الرحمن. (1412هـ - 1992م). الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. (ط1). بيروت: دار الجيل.

السد، نور الدين. (1997). الأسلوبية وتحليل الخطاب. ط1. الجزائر: دار هومة.

سركيس، يوسف. (1346 هـ - 1928م). مُعجم المطبوعات العربية والمعربة. (د. ط). (د. م). سعد الله، أبو القاسم. (1978م). أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. (د. ط). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

سعد الله، أبو القاسم. (د. ت). تجارب في الأدب والرّحلة. (د. ط). الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

- السَّعْدَنِي، مصطفى. (1987م). *البنيات الأُسْلُوبِيَّة فِي لُغَةِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ الْحَدِيثِ*. ط1. الإسكندرية: منشأة دار المعارف.
- السَّكَاكِي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر. (1987م). *مفتاح العُلُوم، ضبط وتعليق: نعيم زرزور*. ط2. بيروت، لبنان: دار الكُتُب العلمية.
- سلام، مُحَمَّد زغلول. (د. ت). *الأدب في العَصْر المملوكي*. (د. ط). الإسكندرية: منشأة المعارف.
- ابن أبي سلمى، ربيعة بن رياح بن قرط بن الحارث بن مازن. (1988م). *ديوان زهير*. ط1. شرح: علي فاعور، بيروت: دار الكُتُب العلمية.
- سليم، محمود رزق. (1957م). *الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعُثمانيين والحَدِيث*. (د. ط). مصر: مطابع دار الكتاب العربي.
- سليم، محمود رزق. (1962م). *عصر سلاطين المماليك ونتاجه الأدبي*. (ط2). (د. م): مطبعة الجماميز.
- السَّهْرُورِدِي، أبو الفتوح يحيى بن حبش الحكيم. شَهَاب الدِّين. (2005م). *ديوان السَّهْرُورِدِي*. تحقيق: عبدالرحمن بدوي. ط1. (د. م): دار ومكتبة بيبليون.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قمبر. (1408 هـ - 1988م). *الكتاب*. ط3. تحقيق: عبد السلام هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- السِّيْرَافِي، يوسف بن أبي سعيد الحسن عبد الله بن المرزبان. (1394 هـ - 1974م). *شرح أبيات سيبويه*. تحقيق: مُحَمَّد علي هاشم الريح، جمع: طه عبد الرؤوف سعد. (د. ط). بيروت، لبنان: دار الفكر للطباعة والنَّشْر والتَّوْزيع.
- السِّيُوطِي، عبد الرحمن بن الكَمَال أبي بكر بن مُحَمَّد سابق الدين. (د. ت). *الإِتْقَان فِي عُلُوم الْقُرْآن*. تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم (د. ط). القاهرة: مكتبة دار التُّراث.
- السِّيُوطِي، عبد الرحمن بن الكَمَال أبي بكر بن مُحَمَّد سابق الدين. (1409 هـ - 1981م). *شرح مقامات السِّيُوطِي، تحقيق: سمير محمود الدُّرُوبِي*. ط1. بيروت، لبنان: مؤسسة الرِّسَالَة للطباعة والنَّشْر والتَّوْزيع.
- الشَّافِعِي، مُحَمَّد بن إدريس، *ديوان الإمام الشَّافِعِي* (1428 هـ - 2007م). تقديم وتعليق: إسماعيل العقبواوي. ط1. القاهرة: شركة القدس للطباعة والنَّشْر والتَّوْزيع.

- الشَّدِّيَّاق، ابن يوسف أَحْمَد فَارِس. (1993م). السَّاق عَلَى السَّاق فِيمَا هُوَ الْفَارِيَّاق. (د. ط.). الجزائر: المؤسسة الوطنيَّة للفنون المطبعية والنَّشر.
- شَرْتَح، عَصَام. (2005م). ظواهر أسلوبيَّة في شعر بدوي الجبل. ط1. دمشق، سوريا: منشورات اتحاد الكتَّاب العرب.
- الشَّرِيْشِي، أبو العباس أَحْمَد بن عبد المؤمن القيسي. (1413هـ-1992م). شرح مقامات الحريريِّ. تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهِيم. (د. ط.). صيدا، بيروت: المَكْتَبَةُ العَصْرِيَّة.
- شريف، مُحَمَّد أفندي. (1306هـ). المَقَامَةُ الشَّرِيفِيَّة فِي مَزَايَا اللُّغَةِ العَرَبِيَّة. ط1. مصر المحميَّة: المطبعة الخيريَّة.
- ابن أبي شيبة. (1409هـ). المصنف في الحديث والآثار، تحقيق: كمال الحوت. ط1. الرِّيَّاض: مكتبة الرِّشيد.
- شيخة، مُحَمَّد الأمين. (2008-2009م). التَّشْكِيلُ الأُسْلُوبِيُّ فِي الشَّعْرِ المَهْجَرِيِّ الحَدِيثِ. أطروحة دكتوراه في الأدب العربيِّ الحَدِيثِ، قسم الأدب العربي، جامعة مُحَمَّد خيضر، بسكرة. (أطروحة دكتوراه).
- شيخو، لويس. (1991م). تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر والرَّبع الأوَّل من القرن العشرين. ط3. بيروت، لبنان: منشورات دار المشرق.
- الصَّابُونِي، مُحَمَّد علي. (2004م). صفة التفسير. ط1. بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع.
- الصَّغِير، مُحَمَّد حسين علي الصغير. (1992م). الصورة الفنيَّة في المثل القرآني. ط1. بيروت، لبنان: دار الرِّشيد للطباعة والنَّشر والتوزيع.
- الصَّفَّار، ابتسام مرهون. (1431هـ-2010م). جمالية التَّشْكِيلِ اللُّوْنِيِّ فِي الْقُرْآنِ الكَرِيم: ط1، إرد، الأردن: عالم الكُتُب الحَدِيثِ.
- الصَّفَّاقْسِي، علي الغراب الطرابلسي، ديوان علي الغراب الصفاقسي، شعره ونثره. (1973م). تحقيق: مُحَمَّد الهادي الطَّاهِر المطوي. ط1. تونس: الدار التُّونسيَّة للنَّشر.
- الصَّفَّدي، صلاح الدين أبو الصَّفَاء خليل بن أيبك بن عبد الله. (1922م). لوعة الشاكي ودمعة الباكي. ضبط وشرح وتصحيح: مُحَمَّد أبو الفضل هارون. (د. ط.). مصر: المطبعة الرحمانِيَّة.

- صيني، محمود إسماعيل. (1992م). *مُعْجَمُ الْأَمْثَالِ الْعَرَبِيَّةِ*. ط1. لبنان: مكتبة لبنان.
- الضبي، المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم. (1371هـ - 1952م). *المفضليات*. تحقيق أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون. ط2. مصر: دار المعارف.
- ضيف، شوقي. (د.ت). *تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي*. ط11. القاهرة: دار المعارف.
- ضيف، شوقي. (1976م). *المقامة*. ط4. مصر: دار المعارف.
- الطاهر، علي جواد. (1979م). *مقدمة في النقد الأدبي*. ط1. بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب. (1420هـ - 2000م). *جامع البيان في تفسير القرآن*. ط1. بيروت: دار الجيل.
- الطرمّاح، ابن عدي بن حاتم. (1414هـ - 1994م). *ديوان الطرمّاح*. تحقيق: عزة حسن. ط3. لبنان، سوريا: دار الشروق العربي.
- الطويل، خالد. (2014م، 4 يونيو). *إيقاعات مسجوعة لدى أصحاب المزارع في المدينة*. تاريخ الاطلاع: 13 أبريل 2017م، الموقع: صحيفة مكة المكرمة. makkahnewspaper.com.
- الطيّان، محمد حسان. (1421هـ - 2000م). *المفاحرات والمناظرات*. ط1. بيروت، لبنان: دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع.
- ابن عاشور، محمد الطاهر. (1984م). *تفسير التحرير والتنوير*. ط1. تونس: الدار التونسية للنشر.
- العامري، ابن عقيل لبيد بن ربيعة. (د.ت). *ديوان لبيد*. تحقيق: إحسان عباس. (د.ط). الكويت: التراث العربي الكويتي.
- عباس، حسن. (2000م). *حروف المعاني بين الأصالة والتجديد*. (د.ط). دمشق، سوريا: اتحاد الكتاب العرب.
- عباس، فضل حسن. (1987م). *البلاغة فنونها وأفنانها - علم البيان والبدیع*. ط1. عمان، الأردن: دار الفرقان للنشر والتوزيع.
- ابن العبد، طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد أبو عمرو. (1423هـ - 2002م). *ديوان طرفة بن العبد*. شرح وتقديم: مهدي محمد ناصر الدين. ط3. بيروت، لبنان: دار المكتبة العلمية.

- عبد الباقي، مُحَمَّد فؤاد. (1423 - 2002م). *المُعْجَم المِفْهَرَس لألفاظ الْقُرْآن الْكَرِيم*. ط1. بيروت، لبنان: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع.
- عبد التّوَّاب، صلاح الدين. (1995م). *الصُّورَة الأدبِيَّة في الْقُرْآن الْكَرِيم*. ط1. القاهرة: الشركة المصريَّة العالميَّة للنَّشر - لونجمان.
- عبد الحميد، مُحَمَّد محي الدين. (1400هـ - 1980م). *شرح ابن عقيل*. ط20. القاهرة: مكتبة دار التُّراث.
- ابن عبد ربه، أَحْمَد بن مُحَمَّد. (1404هـ - 1983م). *العقد الفريد*. تحقيق: عبد المجيد التُّرْحِينِي. (ط1). بيروت، لبنان: دار الكُتُب العلميَّة.
- ابن عبد ربه، أَحْمَد بن مُحَمَّد. (د. ت). *العقد الفريد*. تحقيق: مفيد مُحَمَّد قميحة. (د. د. ط). بيروت، لبنان: دار الكُتُب العلميَّة.
- عبد الرحمن، إِبْرَاهِيم. (1995م). *الشَّعر الجاهليّ - قُضَايَاهُ الفنِّيَّة والمَوْضُوعِيَّة*. (د. د. ط). المنيرة، القاهرة: مكتبة الشُّباب.
- عبد الرحمن، إِبْرَاهِيم. (1995م). *النَّقد الأدبيّ، قُضَايَاهُ الفنِّيَّة والمَوْضُوعِيَّة*. (د. د. ط). المنيرة، القاهرة: مكتبة الشُّباب.
- عبد الكريم، بليل. (2014م، 1 إبريل). *مَعَانِي الأشهر الهجريَّة، تاريخ الاطلاع: 11 إبريل 2017م، الموقع: صيد الفوائد www.saaaid.net/mkktarat/mohram/55.htm*
- عبد الله، مُحَمَّد حسن. (1975م). *مقدمة في النِّقد الأدبيّ*. (د. د. ط). الكويت: دار البحوث العلميَّة.
- عبد المطلب، مُحَمَّد. (2009م). *النِّبْلَاغَة والأسْلُوبيَّة*. ط3. مصر: الشركة المصريَّة العالميَّة للنَّشر، لونجمان.
- عبد المطلب، مُحَمَّد. (2007م). *النِّبْلَاغَة العربيَّة قراءة أُخْرَى*. ط2. القاهرة: الشركة المصريَّة العالميَّة للنَّشر - لونجمان.
- عبد المطلب، مُحَمَّد. (1997م). *هَكَذَا تكلَّم النص - استنطاط الخطاب الشَّعري لرفعت سلام*. (د. د. ط). القاهرة: الهيئَة المصريَّة العامَّة للكتاب.

- أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم بن سويد كيسان العيني، أبو إسحاق. (1406هـ - 1986م).
ديوان أبي العتاهية. تحقيق: دار بيروت للطباعة والنشر. (د. ط). بيروت: دار بيروت
للطباعة والنشر.
- عتيق، عبد العزيز. (1970م). في البلاغة العربية علم البيان، عبد العزيز عتيق. (د. ط).
بيروت، لبنان: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد ابن يحيى بن مهران. (1408هـ -
1988م). جمهرة الأمثال، تحقيق: أحمد عبد السلام. ط1. بيروت، لبنان: دار الكتب
العلمية.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد ابن يحيى بن مهران. (1981م).
الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: مفيد قميحة. ط1. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- العشماوي، محمد زكي. (1998م). فلسفة الجمال في الفكر المعاصر. (د. ط). القاهرة: دار
النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع.
- عصفور، جابر أحمد. (1992م). الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب. ط3.
بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي.
- عصفور، جابر أحمد. (1977م). مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي. (د. ط). القاهرة:
دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- العظم، رفيق. (د. ت). موسوعة مصطلحات الإمام الغزالي. (د. ط). بيروت، لبنان: مكتبة
لبنان.
- العف، عبد الخالق. (2000م)، التشكيل الجمالي في الشعر الفلسطيني المعاصر. ط2.
فلسطين: مطبوعات وزارة الثقافة.
- علوان، محمد، ونعمان. (1998م). من بلاغة القرآن الكريم. ط1. القاهرة: الدار العربية للنشر
والتوزيع.
- العلوي، محمد بن أحمد بن طباطبا. (د. ت). عيار الشعر. تحقيق: محمد زغلول سلام. ط3.
الإسكندرية: منشأة المعارف.

العلويّ، يحيى بن حمزة. (1415هـ - 1995م). الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. ضبط وتدقيق: محمد عبد الستار شاهين. ط1. بيروت، لبنان: دار الكتب العلميّة.

أبو علي، نبيل خالد. (2008م). الأندب العربيّ بين عصرين المملوكيّ والعُثمانيّ. ط1. غزة الشّاطئيّ: دار المقداد للطباعة.

أبو علي، نبيل خالد. (د. ت). نقد النثر في تراث العرب النقديّ حتى نهاية العصر العباسيّ 656هـ. (د. ط). القاهرة: الهيئة المصريّة العامة للكتاب.

عمر، أحمد مختار. (1401هـ - 1990م). علم الدلالة. ط1. (د. م): مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع.

عمر، أحمد مختار. (1977م). اللّغة واللّون. ط2. القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع.

عوض، إبراهيم. (1426هـ - 2005م). المرابا المشوهة، دراسة حول الشعر العربيّ في ضوء الاتجاهات النقديّة الحديثة. ط1. الدوحة، قطر: مكتبة الثقافة.

عوض، لويس. (1969م). تاريخ الفكر المصريّ الحديث من الحملة الفرنسيّة إلى عهد إسماعيل. ط3. القاهرة: دار الهلال.

عوض، يوسف نور. (1979م). فن المقامات بين المشرق والمغرب. ط1. بيروت، لبنان: دار القلم.

عياشي، منذر. (1990م). مقالات في الأسلوبية، دراسة. ط1. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.

الغزاليّ، أبو حامد محمد بن محمد. (1426هـ - 2004م). إحياء علوم الدين. ط1. بيروت، لبنان: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع.

الغزويّ، نجم الدين محمد بن محمد. (1997م). الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة. ط1. بيروت، لبنان: دار الكتب العلميّة.

الفارابيّ، أبو نصر محمد بن محمد. (1959م). آراء أهل المدينة الفاضلة. تحقيق: ألبير نادر. (د. ط). بيروت، لبنان: المطبعة الكاثوليكيّة.

- ابن فارس، أبو الحسين بن زكريا. (1406هـ - 1986م). *مجلد اللّغة*. دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان. ط2. بيروت، لبنان: مؤسسة الرّسالة للطّباعة والنشر والتّوزيع.
- فارس، سليم. (1916م). *كنز الرغائب في منتخبات الجوائب*. ط1. الآستانة: مطبعة الجوائب.
- فتح الله، عبد اللطيف. (1404هـ - 1984م). *ديوان عبد اللطيف فتح الله*. تحقيق: زهير فتح الله. ط1. بيروت: دار فرانتس شتاينر للنّشر.
- الفراهيديّ، الخليل بن أحمد. (1424هـ - 2003م). *مُعجم العَيْن*. تحقيق: عبد الحميد هندراوي. ط1. بيروت، لبنان: دار الكُتب العلميّة.
- فرج الله، إدريس. (د.ت). *التشكيل اللّونيّ للطّباعة*. (د. ط). الإسكندريّة: المكتب الجامعيّ الحديث.
- الفرزّدق، همام بن غالب بن صعصعة الدّارميّ التّميميّ. (1407هـ، 1987م). *ديوان الفرزّدق*: تحقيق: علي فاعور. ط1. بيروت، لبنان: دار الكُتب العلميّة.
- فضل، صلاح. (2003م). *نظرية البنائية في النقد الأدبي*. ط2. القاهرة، مصر: مكتبة الأسرة.
- فكري، عبد الله. (1315هـ - 1897م). *الآثار الفكرية*. جمع وتحقيق: أمين فكري. ط1. القاهرة: المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق.
- قاسم، عدنان. (2000م). *التصوير الشعري، رؤية نقدية لبلاغتنا العربيّة*. ط1. مدينة نصر، مصر: الدار العربيّة للنّشر والتّوزيع.
- القرطاجنيّ، أبو الحسن حازم بن محمّد بن حازم. (2008م). *منهاج البُلغاء وسراج الأُدباء*. تحقيق: محمّد الحبيب بن الخوجة. (د. ط). تونس: الدّار العربيّة للكتاب.
- القزوينيّ، أبو عبد الله زكريا بن محمّد بن محمود الخطيب. (1395هـ - 1975م). *الإيضاح في علّوم البلاغة*. ط4. بيروت، لبنان: دار الكتاب اللبناني.
- القط، عبد القادر. (1987م). *الاتّجاه الوجدانيّ في الشّعر العربيّ المعاصر*. ط2. بيروت، لبنان: دار النّهضة.
- قطب، سيّد. (2002). *التصوير الفنيّ في القرآن*. ط16. القاهرة: دار الشّروق.
- قطب، سيّد. (1981م). *في ظلال القرآن*. ط10. القاهرة، بيروت: دار الشّروق.

- قطب، سيّد. (د. ت). *التّقد الأدبيّ - أصوله ومناهجه*. (د. ط). بيروت، لبنان: دار الشُّروق.
- ابن قلاقس. (1323هـ - 1905م). *ديوان ابن قلاقس*، مراجعة وضبط: خليل مطران. (د. ط). مصر: مطبعة الجوائب.
- الفلّقسنديّ، أبو العباس شهاب الدّين أحمد بن علي بن أحمد. (د. ت). *صَبْحُ الأَعْشى فِي صِنَاعَةِ الإِنشَاء*. تحقيق: مُحمّد شمس الدين. (د. ط). بيروت: دار الكُتُب العلميّة.
- قوقزة، نوّاف. (2000م). *نظريّة التّشكيل الاستعاريّ في البلاغة والنقد*. ط1. عمان، الأردن: وزارة الثّقافة الأردنيّة.
- القيروانيّ، أبو الحسن بن رشيق. (1972م). *العمدة في محاسن الشّعْر وآدابه ونقده*. ط4. بيروت، لبنان: دار الجيل للنّشر والتّوزيع والطّباعة.
- القيس، امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث الكندي. (1425هـ - 2004م). *ديوان امرئ القيس*. ضبط وتصحيح: مصطفى عبد الشّافي. ط5. بيروت، لبنان: دار الكُتُب العلميّة.
- ابن كَثِير، أبو الفداء الحافظ الدّمشقيّ. (1409هـ - 1989م). *البداية والنهاية*. ط6. بيروت: دار المَعَارِف.
- كَثِير عَزّة، كَثِير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر بن عويمر الخزاعي. (1393هـ، 1971م). *ديوان كَثِير عَزّة*: ، تحقيق: إحسان عباس. (د. ط). بيروت، لبنان: دار الثّقافة.
- كحالة، عمر رضا. (1414هـ - 1993م). *مُعجم المؤلفين*. (د. ط). بيروت: مؤسسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع.
- الكوّاز، مُحمّد كريم. (2005م). *علم الأُسُوب - مفاهيم وتطبيقات*. ط1. الزاوية، الجماهيريّة العظمى: منشورات جامعة السّابع من إبريل.
- كوهن، جان. (1986م). *بنية اللّغة الشعريّة*. ترجمة: مُحمّد الولي ومُحمّد العمري. (د. ط). الدّار البيضاء: دار توبقال للطّباعة والنّشر والتّوزيع.
- الماورديّ، علي بن مُحمّد بن حبيب. (د. ت). *أدب الدّنيا والدّين*. (د. ط). بيروت، لبنان: دار الفكر.
- مبارك، زكي. (1934م). *النّثر الفني في القرن الرّابع*. ط1. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصريّة.

- المُتَنَّبِي، أبو الطَّيِّب أَحْمَدُ بن حسين الجعفي. (1403هـ - 1983م). ديوان المُتَنَّبِي. (د. ط). بيروت، لبنان: دار بيروت للطباعة والنشر.
- ابن المثنى، أبو عبيدة معمر. (1358هـ). كتاب الخيل. ط1. حيدر آباد، الهند: دار المعارف الإسلامية.
- المحبي، مُحَمَّد أمين بن فضل الله بن محب الدين. (د. ت). خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. (د. ط). (د. م). (د. ن).
- المحبي، مُحَمَّد أمين بن فضل الله بن محب الدين. (1968م). نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة. تحقيق: عبد الفتاح الحلو. ط1. بيروت: دار إحياء الكتب العربية.
- المدني، أَحْمَدُ توفيق. (1974م). مذكرات أَحْمَدُ الحاج الشريف الزهار. (د. ط). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- المرادي، أبو الفضل مُحَمَّد خليل بن علي. (1988م). سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر. ط3. الكويت: دار البشائر الإسلامية.
- مرتاض، عبد الملك. (1408هـ - 1988م). فن المقامات في الأدب العربي. ط2. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- مرتاض، عبد الملك. (1998م). في نظرية الرواية - بحث في تقنيات السرد. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- المصري، عبد العَظِيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الأصبع العدواني، البغدادي. (د. ت). بديع القرآن. (د. ط). تحقيق: حفني شرف. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.
- المصري، عبد العَظِيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الأصبع العدواني، البغدادي. (د. ت). تحرير التَّحْبِير في صناعة الشَّعر والنَّثر وإِعجاز الْقُرْآن الْكَرِيم. تحقيق: حفني مُحَمَّد شرف. (د. ط). الجمهورية العربية المتحدة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
- المصري، مُحَمَّد بن أَحْمَد بن إياس الحنفي. (1960م). بدائع الزهور في وقائع الدهور. (د. ط). (د. م). مطابع الشعب.
- مصطفى، إبراهيم و الزيات، أَحْمَد حسن، وآخرون. (1392هـ - 1972م). المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية. ط2. إستانبول - تركيا: المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع.

- مصلوح، سعد. (1996م). *في النص الأدبي، دراسة أسلوبية إحصائية*. ط1. (د. م): عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
- مطر، أميرة حلمي. (1988م). *فلسفة الجمال، أعلامها ومذاهبها*. (د ط). القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.
- مطلوب، أحمد. (2000م). *مُعْجَم المصطلحات البلاغية وتطورها*. ط2. بيروت، لبنان: مكتبة لبنان، ناشرون.
- المطوي، محمد الهادي. (1989م). *أحمد فارس الشدياق، حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربية الحديثة*. ط1. بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- ابن معصوم، علي صدر الدين بن أحمد نظام الدين بن محمد. (1969م)، *أنوار الربيع في أنواع التبيين*، تحقيق: شاکر هادي شكر. ط1. النجف: مطبعة النعمان.
- ابن معمر، جميل بن عبد الله. (1402هـ-1982م). *ديوان جميل بثينة*. (د ط). بيروت، لبنان: دار بيروت للطباعة والنشر.
- المقالح، عبد العزيز. (1984م). *الشعر بين الرؤية والتشكيل*. ط1. بيروت، لبنان: دار العودة.
- ابن المقفع، أبو محمد عبدالله. (1409هـ - 1989م). *الأدب الكبير ضمن آثار ابن المقفع*. ط1. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- الملك، ابن سناء. (1388هـ - 1969م). *ديوان ابن سناء الملك*. تحقيق: محمد إبراهيم نصر، وحسين محمد نصار. ط2. بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. (2000م). *لسان العرب*. ط1. بيروت، لبنان: دار صادر للطباعة والنشر.
- أبو موسى، محمد. (1398هـ - 1978م). *التصوير البياني - دراسة تحليلية لمسائل البيان*. ط1. ليبيا: منشورات جامعة قار يونس.
- موسوعة المصطلح النقدي. (1983م). ترجمة عبد الواحد لؤلؤة. ط2. بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- المؤيلحي، محمد إبراهيم. (2012م). *حديث عيسى بن هشام*. ط4. القاهرة: مؤسسة هنداوي للعلوم والثقافة.

- الميداني، أحمد بن محمد أبو الفضل. (1376هـ - 1955م). مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. (د. ط). بيروت: دار المعرفة.
- الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة. (1996م). البلاغة العربية أسسها وعلموها وفنونها. ط1. دمشق: دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع.
- نجم، محمد يوسف. (1966م). القصّة في الأدب العربي الحديث (1870-1914م). ط3. بيروت، لبنان: دار الثقافة.
- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار. المجتبى من السنن. (1406هـ-1986م). تحقيق: عبد الفتاح غدة. (ط2). حلب، سوريا: مكتبة المطبوعات الإسلامية.
- ابن النقيب، عبد الرحمن بن محمد بن كمال الدين محمد. (1956م). ديوان ابن النقيب. تحقيق عبدالله الجبوري. (د. ط). دمشق: مجلة المجمع العلمي العربي.
- أبو نواس، الحسن بن هانئ. (1990م). ديوان أبي نواس. تحقيق: أحمد عبد المجيد الغزالي. ط1. بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي.
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج القشيري. (1412هـ - 1992م). صحيح مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. ط1. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- الهاشمي، السيد أحمد. (1999م). جواهر البلاغة في المعاني والبيان والتدبير. ط1. بيروت، لبنان: المكتبة العصرية.
- الهذلي، أبو ذؤيب، وأخرون. (1385هـ - 1965م). ديوان الهذليين: الشعراء الهذليين، تحقيق: أحمد الزين، ومحمود أبو الوفا. (د. ط). القاهرة: دار الكتب المصرية للطباعة والنشر.
- الوزعي، محمد بن أحمد. (د. ت). مقامات الوزعي ورسائله، تحقيق: عبد العزيز الفيزاني. (د. ط). تونس: الدار التونسية للنشر.
- ابن وهب الأديب، أبو الحسن اسحق بن إبراهيم بن سليمان. (1980م). البرهان في وجوه البيان. (د. ط). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- اليازجي، ناصيف. (1880م). مجمع البحرين. (د. ط). بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين.
- ياسوف، أحمد. (1419هـ - 1999م). جمالية المفردة القرآنية. ط2. دمشق، سورية: دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع.

- ياسين، وسن عبد المنعم. (1432هـ-2011م). *خصائص الأسلوب في شعر البحتري*. (د. ط). دمشق: منشورات المجمع العلمي.
- يحياوي، رشيد. (1998م). *الشعر العربي الحديث، دراسة في المنجز النصي*. ط1. بيروت، لبنان: أفريقيا الشرق.
- يقطين، سعد. (2006م). *الرواية والتراث السردي - من أجل وعي جديد بالتراث*. ط1. القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع.
- يموت، غازي يموت. (1990م). *الفن الأدبي أجناسه وأنواعه*. ط1. بيروت: دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع.
- اليوسف، يوسف. (1983م). *مقالات في الشعر الجاهلي*. ط1. (د. م): دار الحقائق.
- اليوسفي، محمد لطفي. (د. ت). *في بنية الشعر العربي المعاصر*. (د. ط). تونس: الدار التونسية للنشر.
- اليوسي، الحسن (1401هـ - 1981م)، *زهر الأكم في الأمثال والحكم*، تحقيق: محمد حجي، محمد الأخضر. ط1. المغرب: دار الثقافة.
- يونس، عيد سعد. (2006م)، *التصوير الجمالي في القرآن الكريم*. ط6. إربد، الأردن: عالم الكتب.

الفهارس العامة

أولاً: فهرس آيات القرآن الكريم

ثانياً: فهرس الأحاديث الشريفة

ثالثاً: فهرس القوافي

أولاً: فهرس آيات القرآن الكريم

الصفحة	رقم الآية	الآية	السورة
43	125	﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا ﴾	البقرة
130:184	265	﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾	البقرة
248	187	﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴾	البقرة
264	190	﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾	آل عمران
205	114	﴿ قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾	المائدة
110	13	﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾	الأنعام
175	26	﴿ يَبْنَئِي عَادِمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ تَكْمٍ وَرَيْشًا ﴾	الأعراف
292	71	﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ ﴾	التوبة
184	109	﴿ أَفَمَنَ اسْتَسْقَىٰ مِنْكُم مَّاءٌ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ ﴾	التوبة
205	8	﴿ وَلَئِن أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾	هود
272	42	﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾	هود
272	43	﴿ وَحَالٍ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَقِينَ ﴾	هود
299	73	﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾	هود
303	78	﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾	هود
31	18	﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾	يوسف
205	19	﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَةً قَالَ يَبْشَرِي هَذَا ﴾	يوسف

الصفحة	رقم الآية	الآية	السورة
182	30	﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَلْهَىٰ عَنْ نَفْسِهِ ﴾	يوسف
183	88	﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا ﴾	يوسف
31	6	﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾	النحل
270	92	﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبْنَا ﴾	النحل
296	90	﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾	النحل
182، 33	84	﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾	الإسراء
148	24	﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا ﴾	الإسراء
195	89	﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ ﴾	الإسراء
90	60	﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَتْلِهِ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ﴾	الكهف
206	46	﴿ الْمَالِ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾	الكهف
209	104	﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾	الكهف
257	30	﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ ﴾	الكهف
257	31	﴿ أَوْلَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ ﴾	الكهف
305	3	﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا ﴾	مريم
311	23	﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾	مريم
183	66	﴿ قَالَ بَلْ أَلْقَوُا فَإِذَا جَاهُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾	طه
217	94	﴿ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾	طه

الصفحة	رقم الآية	الآية	السورة
98	87	﴿ وَذَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَكَادَى ﴾	الأنبياء
168	4	﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾	الأنبياء
184	96	﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ ﴾	الأنبياء
202	45	﴿ فَكَايِنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾	الحج
94	60	﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ ﴾	النور
70	61	﴿ نَبَارِكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾	الفرقان
180,164	13	﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ ﴾	القصص
177	73	﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا ﴾	القصص
179	23	﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾	القصص
180	7	﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ ﴾	القصص
180	10	﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَدَرِيًّا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا ﴾	القصص
185	41	﴿ مَثَلِ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ ﴾	العنكبوت
206 ، 200	55	﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُشَاءُ غَيْرَ سَاعَتِي ﴾	الروم
213	43	﴿ فَأَقْرَعُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ ﴾	الروم
181	7	﴿ وَإِذَا نُتِلَّىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ ﴾	لقمان
307	18	﴿ وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ ﴾	لقمان
43	13	﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾	الأحزاب

الصفحة	رقم الآية	الآية	السورة
183	19	﴿ أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورٌ ﴾	الأحزاب
43	35	﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا ﴾	فاطر
212	72	﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ ﴾	الصافات
212	73	﴿ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾	الصافات
231	117	﴿ وَءَاتَيْنَهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴾	الصافات
231	118	﴿ وَهَدَيْنَهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾	الصافات
298	53	﴿ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ ﴾	الزمر
43	51	﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾	الدخان
181	24	﴿ وَأَتْرَكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴾	الدخان
181	5	﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ ﴾	ق
182	16	﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَتَعَلَّمُوا مَا نُوسِسُ بِهِ نَفْسَهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾	ق
234	1	﴿ وَالطُّورِ ﴾	الطور
234	2	﴿ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ﴾	الطور
182	2	﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾	النجم
182	3	﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾	النجم
259	58	﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾	الرحمن
235	28	﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾	الواقعة

الصفحة	رقم الآية	الآية	السورة
235	29	﴿ وَطَلَّحَ مَنْضُورٍ ﴾	الواقعة
250	22	﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾	الواقعة
250	23	﴿ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكْنُونِ ﴾	الواقعة
250	89	﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴾	الواقعة
183	16	﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ ﴾	الحديد
245	5	﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ﴾	الحشر
202	5	﴿ مَثَلِ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ ﴾	الجمعة
182	7	﴿ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ﴾	الطلاق
128	8	﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَائِنَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾	الملك
30	5	﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا حَسِيلًا ﴾	المعارج
31	5	﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا حَسِيلًا ﴾	المعارج
225	13	﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾	نوح
225	14	﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾	نوح
182	35	﴿ إِنَّهَا لِأَحَدَى الْأَكْبَرِ ﴾	المدثر
180	26	﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الرَّاقِيَ ﴾	القيامة
210 ، 182	22	﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴾	القيامة
207	29	﴿ وَالنَّفَّاتِ السَّافِقِ السَّافِقِ ﴾	القيامة

الصفحة	رقم الآية	الآية	السورة
207	30	﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾	القيامة
230	10	﴿وَجَعَلْنَا آتِيلًا لِّبَاسًا﴾	النبأ
230	11	﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾	النبأ
226	13	﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾	الانفطار
226	14	﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾	الانفطار
204	13	﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾	الطارق
181	2	﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾	الأعلى
181	3	﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾	الأعلى
230	13	﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾	الغاشية
230	14	﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾	الغاشية
230	15	﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾	الغاشية
230	16	﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾	الغاشية
177	6	﴿أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَخَافَىٰ﴾	الضحى
177	7	﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾	الضحى
177	8	﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾	الضحى
177	9	﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾	الضحى
177	10	﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾	الضحى

الصفحة	رقم الآية	الآية	السورة
177	11	﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾	الضحى
205	3	﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾	الضحى
216 ، 208	1	﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾	الهمزة

ثانياً: فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الرقم	الحديث	الصفحة
-1	إنَّ امتي يدعون يوم القيامة غرّاً محجلين من آثار الوضوء	186
-2	إنَّ الله جميل يحب الجمال	31
-3	إنَّ من البيان لسحراً	18
-4	إنما حبيب إلی من الدنيا: النساء والطيب وجعلت قرّة عيني في الصلاة	25
-5	إنّما مثلُ الجليس الصالح والجليسُ السوءِ كحاملِ المسك، ونافخِ الكبر	192، 121
-6	تتّكح المرأةُ لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك	26
-7	الجنةُ أقربُ إلی أحدكم من شراكِ نعلِهِ، والنّارُ مثلُ ذلكَ	185
-8	حُفَّتِ الجنةُ بالمكاره، وحُفَّتِ النارُ بالشّهواتِ	185
-9	خمسٌ تجب للمسلم على أخيه: ردُّ السلام، وتشميتُ العاطس، وإجابةُ الدّعوة، وعبادة المريض، واتّباعُ الجنائز	141
-10	اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً	224
-11	اللهم إني أدركُ بك في نحورهم، وأعوذُ بك من شرورهم	230
-12	من بنى مسجداً لله ولو كمفحص قطاة أو أصغر بنى الله له بيتاً في الجنة	103
-13	يا أيُّها النّاسُ! لا تَنَمَّنُوا لقاءَ العدوِّ واسألوا الله العافية. فَإِذَا لَقِيتُمُوهم فاصبروا. واعلموا إنّ أبوابَ الجنةِ تحتَ ظلالِ السيوفِ	186

ثالثاً: فهرس القوافي

الرقم	القافية	القال	البحر	الصفحة
-1	جملاء	ذو الرُمة	الرَّجَز	15
-2	الماء	شِهَابُ الدِّينِ الْخَفَاجِيِّ	البسيط	188، 134
-3	الماء	البحثري	الكامل	189
-4	باب	نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ	مجزوء الكامل	113
-5	تأويب	سلامة بن جندل	البسيط	43
-6	حبيب	العباس بن الأحنف	الطَّوِيل	201
-7	سحب	بَهَاءُ الدِّينِ الْبَيْطَارِ	البسيط	313
-8	شارب	أبو فراس الحمداني	الطَّوِيل	221
-9	قواضب	أبو تمام	الطَّوِيل	220
-10	قوت	الحريري	البسيط	157
-11	المخضَّب	من الشاعر؟	الطَّوِيل	123
-12	المناكب	النابغة الذبياني	الطَّوِيل	256
-13	يشرب	نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ	الرَّجَز	101
-14	يهاب	نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ	مجزوء الكامل	113
-15	السُّكُوت	الشافعي	الوافر	297
-16	السُّكُوت	نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ	الوافر	99
-17	ضلت	الطَّرْمَاحُ بْنُ حَكِيمٍ	الطَّوِيل	193
-18	يموت	الشافعي	الوافر	297
-19	يموت	نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ	الوافر	99
-20	تفرج	ابن النقيب	الطَّوِيل	65
-21	المتأرجح	ابن النقيب	الطَّوِيل	65

الرقم	القافية	القائل	البحر	الصفحة
-22	المديح	ابن النقيب	الطويل	65
-23	الأباطح	كثير عزة	الطويل	193
-24	أقاح	البحثري	السريع	247
-25	تستريح	أبو ذؤيب الهذلي	الوافر	15
-26	رائح	كثير عزة	الطويل	193
-27	الصباح	محمد المبارك	الخفيف	111
-28	الصباح	محمد المبارك	الخفيف	111
-29	فلاح	السهروردي	الكامل	193
-30	ماسح	كثير عزة	الطويل	193
-31	أشمخ	عبد القادر الجزائري	الطويل	76
-32	رسخا	عبد الله السويدي	البسيط	66
-33	فرسخ	عبد القادر الجزائري	الطويل	76
-34	نفخا	عبد الله السويدي	البسيط	66
-35	يتبوخ	عبد القادر الجزائري	الطويل	76
-36	ينسخ	عبد القادر الجزائري	الطويل	76
-37	أسندي	الحريري	السريع	190
-38	الأسد	ابن شرف	المنسرح	80
-39	أمردا	الخنساء	المتقارب	155
-40	البلد	ابن شرف	المنسرح	80
-41	ترقد	ناصر بن إلياس	الكامل	276
-42	حداد	لا قائل له	الكامل	248
-43	العقد	أبو تمام	الطويل	133
-44	العقد	ابن الرومي	الطويل	133

الرقم	القافية	القال	البحر	الصفحة
-45	محدود	عبد الباقي العمري	البسيط	73
-46	مرفد	نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ	مجزوء الكامل	113
-47	مرفود	عبد الباقي العمري	البسيط	73
-48	المسجد	نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ	الكامل	276
-49	مسند	نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ	مجزوء الكامل	113
-50	مغمود	عبد الباقي العمري	البسيط	73
-51	موجود	عبد الباقي العمري	البسيط	73
-52	مولود	عبد الباقي العمري	البسيط	73
-53	الأثر	نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ	مجزوء البسيط	100
-54	أدور	الأحوص	الطويل	207
-55	الأصغر	بشامة بن الغدير العذري	الكامل	43
-56	البدر	أبو فراس الحمداني	الطويل	214
-57	تسير	عبد اللطيف فتح الله	الكامل	68
-58	تمور	عبد اللطيف فتح الله	الكامل	68
-59	ثبير	عبد اللطيف فتح الله	الكامل	68
-60	الحقر	ابن الألويسي	البسيط	108
-61	دينار	علي الغراب الطرابلسي	البسيط	297
-62	زفير	عبد اللطيف فتح الله	الكامل	68
-63	الزهر	الْمُنْتَبِي	البسيط	110
-64	الزهر	أَحْمَدُ الْبَرْبِيرِ	البسيط	110
-65	سطور	عبد اللطيف فتح الله	الكامل	68
-66	سعير	عبد اللطيف فتح الله	الكامل	68
-67	سمر	ابن الألويسي	البسيط	108

الرقم	القافية	القال	البحر	الصفحة
-68	الشعر	عبد القادر الجزائري	البسيط	212
-69	عمر	عمر بن أبي ربيعة	الرمل	190
-70	غز	طرفة بن العبد	الرمل	247
-71	الفكر	أبو فراس الحمداني	الطويل	132
-72	قدر	ناصيف اليازجي	مجزوء البسيط	102
-73	القمر	عمر بن أبي ربيعة	الرمل	190
-74	المهر	أبو فراس الحمداني	الطويل	147
-75	نفير	مجدي أبو لحية	الكامل	217
-76	نهار	الفرزدق	الكامل	189
-77	نوار	الفرزدق	الوافر	192
-78	قفص	أحمد البربر	الرجز	110
-79	تنفع	أبو ذؤيب الهذلي	الكامل	139
-80	السجع	ابن الألويسي	الطويل	72
-81	سمع	ابن الألويسي	الطويل	72
-82	الملسوع	كثير عزة	الكامل	187
-83	أعترف	أبو فراس الحمداني	مجزوء الكامل	209
-84	حتف	العباس بن الأحنف	الكامل	217
-85	منيف	ميسون بنت بحدل	الوافر	202
-86	الأفق	ناصيف اليازجي	الرمل	313
-87	بالإحراق	ابن الرومي	الكامل	110
-88	تحرق	ناصيف اليازجي	الرمل	112
-89	تضيق	عمرو بن سنان		18
-90	تنطق	ناصيف اليازجي	الرمل	313

الرقم	القافية	القال	البحر	الصفحة
-91	الحدق	نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ	الرَّمَل	112
-92	خفاق	تَأْبَطُ شَرًّا	البسيط	161
-93	طرق	نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ	الرَّمَل	112
-94	فمرق	شِهَابُ الدِّينِ الْخَفَاجِيِّ	الرَّمَل	144
-95	المذلق	ابن المذلق	الطَّوِيل	196
-96	يرمق	نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ	الرَّمَل	112
-97	يسبق	نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ	الرَّمَل	112
-98	يفرق	نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ	الرَّمَل	313
-99	أوراکا	شِهَابُ الدِّينِ الْخَفَاجِيِّ	الخفيف	82
-100	هُنَاكَ	شِهَابُ الدِّينِ الْخَفَاجِيِّ	الخفيف	82
-101	أجمل	عبيد الله بن عتبة	الطَّوِيل	15
-102	أذيالها	أبو العتاهية	المتقارب	143
-103	أشكل	رؤية بن العجاج	الرَّجَز	34
-104	تعنتل	نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ	الرَّجَز	100
-105	الجَمَال	عبد مناف بن ريع الهذلي	الرَّمَل	15
-106	الحلل	القاضي عياض	البسيط	176
-107	الحمل	القاضي عياض	البسيط	176
-108	خجل	شِهَابُ الدِّينِ الْخَفَاجِيِّ	البسيط	82
-109	سنبل	نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ	الرَّجَز	100
-110	طول	كعب بن زهير	البسيط	84
-111	الطَّوِيل	ابن سناء الملك	السريع	190
-112	عادل	نَاصِيفُ الْيَازِجِيِّ	الرَّجَز	237
-113	العالي	أبو تمام	الكامل	193، 135

الرقم	القافية	القال	البحر	الصفحة
-114	الفعل	زهير بن أبي سلمى	الطويل	43
-115	القنابل	أبو فراس الحمداني	الطويل	220
-116	كلكل	امرؤ القيس	الطويل	192
-117	مبتلى	الملبد بن حرمة	الرجز	16
-118	محمول	أبو العلاء المعري	الكامل	302
-119	النحل	الْمُنْتَبِي	الطويل	187
-120	وابل	الْمُنْتَبِي	الطويل	232
-121	الوحد	الأعشى ميمون بن قيس	البسيط	84
-122	حذام	ابن قلاقس	الوافر	191
-123	رجوم	ابن الرومي	الكامل	122
-124	سقامها	شهاب الدين الخفاجي	الطويل	123
-125	السلام	ناصريف اليازجي	الرجز	237
-126	طعام	أبو نواس	الوافر	189
-127	الطغام	الْمُنْتَبِي	الوافر	187
-128	قدم	أبو فراس الحمداني	البسيط	212
-129	قيام	أبيد بن ربيعة	الكامل	43
-130	المدام	الْمُنْتَبِي	الوافر	158
-131	نجوم	ابن الرومي	الكامل	122
-132	أحيانا	بشار بن برد	البسيط	247
-133	أزمان	أبو البقاء الرندي	البسيط	261
-134	أمان	ابن إياس المصري	الزمل	51
-135	الزمان	ابن إياس المصري	الزمل	51
-136	السفن	الْمُنْتَبِي	البسيط	194

الرقم	القافية	القال	البحر	الصفحة
-137	سمطين	الزمخشري	الطويل	188
-138	شان	أبو البقاء الرندي	البسيط	261
-139	الصوان	ناصريف اليازجي	الرجز	237
-140	ضنين	قيس بن الخطيم	الطويل	293
-141	طي لسان	ناصريف اليازجي	الخفيف	220
-142	العيون	مجدي أبو لحية	الطويل	200
-143	فنون	ناصريف اليازجي	الخفيف	98
-144	فيكون	عبد الله فكري	الطويل	97
-145	قتلانا	جرير	البسيط	248
-146	قمين	قيس بن الخطيم	الطويل	293
-147	نون	ناصريف اليازجي	الخفيف	98
-148	اختصى	شهاب الدين الخفاجي	السريع	106
-149	شتا	الخنساء	المتقارب	155
-150	المنى	محمد المبارك	الطويل	111
-151	بسطة	أبو فراس الحمداني	الرجز	217
-152	تهلكه	ناصريف اليازجي	الوافر	99
-153	حاضره	الأخضر اللهبي	السريع	198
-154	سنبله	ناصريف اليازجي	الرجز	100
-155	طبقه	ناصريف اليازجي	الرجز	196
-156	يدركه	ناصريف اليازجي	الوافر	99
-157	عمرو	ديك الجن الحمصي	الوافر	12
-158	الثريا	الإمام عياض	المتقارب	188
-159	رسائلي	جميل بثينة	الكامل	301، 123

الرقم	القافية	القائل	البحر	الصفحة
-160	صدعني	أبو فراس الحمداني	مجزوء البسيط	219
-161	قفي	أبو فراس الحمداني	الطويل	194
-162	الكاسي	الخطيئة	البسيط	194